

القدس الانتدابية في المذكرات الجوهرية

الكتاب الثاني من مذكرات الموسيقي واصف جوهرية ١٩١٨ - ١٩٤٨

تحرير وتقديم عصام نصار و سليم تماري

مؤسسة الدراسات الفلسطينية

INSTITUTE FOR PALESTINE STUDIES
Anis Nsouli Street, Verdun
P.O.Box: 11-7164
Postal Code: 11072230
Beirut - Lebanon
Tel. 804959. Fax: 814193
Tel. & Fax: 868387
E-mail: ipsbrt@palestine-studies.org
http://www.palestine-studies.org

مؤسسة الدراسات الفلسطينية

مؤسسة عربية مستقلة تأسست عام ١٩٦٣ غايتها البحث العلمي حول مختلف جوانب القضية الفلسطينية والصراع العربي ــ الصهيوني. وليس للمؤسسة أي ارتباط حكومي أو تنظيمي، وهي هيئة لا تتوخى الربح التجاري.

وتعبِّر دراسات المؤسسة عن آراء مؤلفيها، وهي لا تعكس بالضرورة رأي المؤسسة أو وجهة نظرها.

شارع أنيس النصولي ــ متفرع من شارع فردان
ص.ب: ٧١٦٤ - ١١
الرمز البريدي: ١١٠٧٢٢٣٠
بيروت ــ لبنان
هاتف: ٨٠٤٩٥٩. فاكس: ٨١٤١٩٣
هاتف/ فاكس: ٨٦٨٣٨٧
E-mail: ipsbrt@palestine-studies.org
http://www.palestine-studies.org

تم إصدار هذه الطبعة بتبرع من **مؤسسة هينرخ بل مكتب الشرق الأوسط العربي**. الآراء الواردة هنا تعبّر عن رأي الكاتب وبالتالي لا تعكس بالضرورة وجهة نظر المؤسسة.

This book has been published with a generous donation from the **Heinrich Boell Foundation's Arab Middle East Office.** The views expressed herein are those of the author and can therefore in no way be taken to reflect the opinion of the Foundation.

القدس الانتدابية في المذكرات الجوهرية:

الكتاب الثاني من مذكرات الموسيقي واصف جوهرية،

١٩١٨ - ١٩٤٨

القدس الانتدابية

في المذكرات الجوهرية

Al-Quds al-intidābīyah fī al-mudhakkarāt al-jawharīyah: al-kitāb al-thānī min mudhakkarāt al-mūsīqī Wāṣif Jawharīyah, 1918-1948
Taḥrīr wa-taqdīm: 'Iṣām Naṣṣār wa- Salīm Tamārī

British Mandate Jerusalem in the Jawharieh Memoirs: Volume Two of the Memoirs of the Musician Wasif Jawharieh, 1918-1948
Edited by: Issam Nassar & Salim Tamari

ISBN 9953-453-05-5

الطبعة الثانية

بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، تموز/يوليو ٢٠٠٥

صدرت الطبعة الأولى عن:

مؤسسة الدراسات المقدسية، القدس، ٢٠٠٥

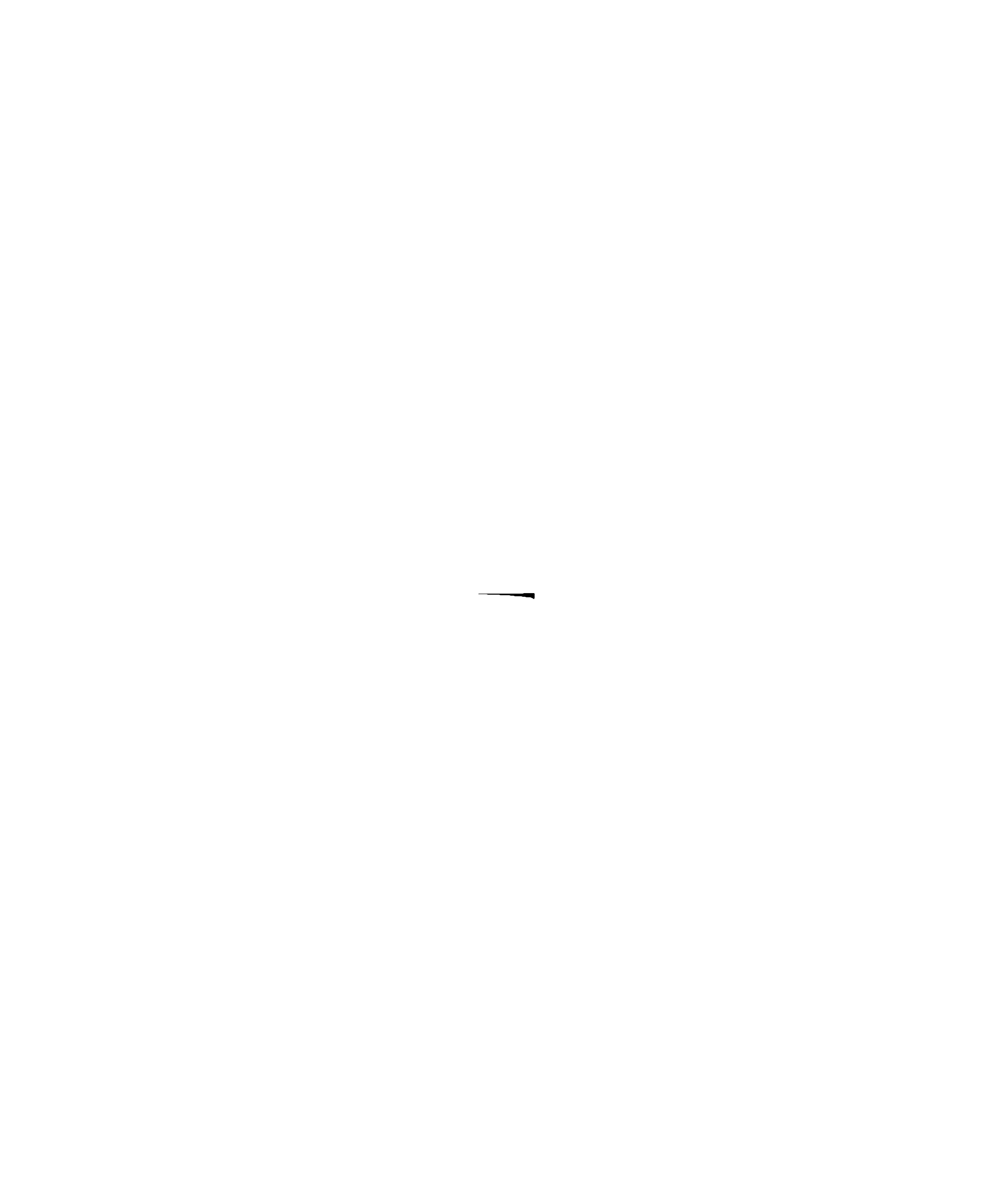
القدس الانتدابية
في المذكرات الجوهرية

الكتاب الثاني من مذكرات الموسيقي واصف جوهرية ١٩١٨ - ١٩٤٨

تحرير وتقديم عصام نصار و سليم تماري

مؤسسة الدراسات الفلسطينية

المحتويات



الرؤية الجوهرية في تاريخ القدس الانتدابية

سليم تماري

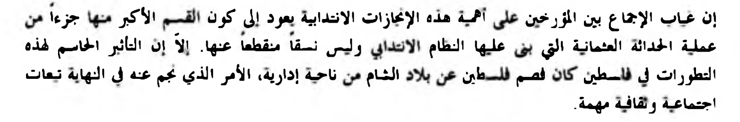
اقترنت أعوام الانتداب البريطاني على فلسطين في أذهان الأجيال التي عاشت تلك الفترة بتغيرات اجتماعية مكثفة طغت على قدراتنا على تشخيص ما حدث في نهاية الحكم العثماني المنطقة.



ستورز والشريف حسين

واليوم تساهم المذكرات الجوهرية المتعلقة بالفترة الانتدابية في إزالة الغمامة عن طبيعة هذه الحقبة، لأنها معاصرة للحدث، ولأنها تغلب الاجتماعي على السياسي. وهي تسلط الضوء تحديداً على السنوات "العتبية" الثلاث (١٩١٧ – ١٩٢٠) التي تفصل سقوط الحكم العثماني في شتاء سنة ١٩١٧ عن بداية الانتداب البريطاني سنة ١٩٢١. نسميها "عتبة" لأنها تعالج تلك الفسحة من الحيز الذهني (العتبة) التي شاهدت الانتقال الاجتماعي نحو الحداثة، والتي اتسمت بتداخل التشكيلات الإدارية والهيكلية والأنماط السلوكية في منعطفين: تلك التي سادت في فلسطين العثمانية المتأخرة، وذروة تبلور المؤسسات الحاكمة في فلسطين الانتدابية. أي أنها تبحث في تبلور بنى جديدة لم تتضح معالمها بعد، وحملت في طياتها إمكانات في التغيير وخيارات مستقبلية لم يخطط لها.

أمّا إنجازات الانتداب المكثفة التي انطبعت في وجدان جيل النكبة فهي كثيرة – وإن لم يكن ثمة إجماع عليها بين المؤرخين. فهي تشمل: استحداث مؤسسات الدولة الحديثة، بما فيها أجهزة الدولة المركزية في القدس؛ تحديث قانون الأراضي والنظام الضرائبي؛ تطوير الجهاز القانوني والقضائي بدلاً من القوانين العثمانية السابقة؛ تطبيق بعض السمات الأساسية لقوانين المواطنة وأيقونات السيادة المصرية (سك العملة الفلسطينية، إصدار الطوابع البريدية وجواز السفر الفلسطيني)؛ تحديث الجهاز التعليمي بهدف توفير طاقم إداري لجهاز الدولة الكولونيالي؛ توطيد البناء التحتي للمواصلات والاتصال وتوسيعه، بما فيه توسيع شبكة الطرق المعبدة، وسكة الحديد، وإنشاء دار الإذاعة الفلسطينية سنة ١٩٣١ في القدس. كل هذا حدث في عقود ثلاثة قصيرة.



إن غياب الإجماع بين المؤرخين على أهمية هذه الإنجازات الانتدابية يعود إلى كون القسم الأكبر منها جزءاً من عملية الحداثة العثمانية التي بنى عليها النظام الانتدابي وليس نسقاً منقطعاً عنها. إلاّ إن التأثير الحاسم لهذه التطورات في فلسطين كان فصم فلسطين عن بلاد الشام من ناحية إدارية، الأمر الذي نجم عنه في النهاية تبعات اجتماعية وثقافية مهمة.

وقد ساهم واصف جوهرية في مراقبة هذا التواصل وهذا الانقطاع من خلال مذكراته الراصدة للحدث. ونجد أهمية خاصة لهذا الرصد في نقل روح الانعتاق الفكري والاجتماعي الذي ساد في مدينة القدس وفلسطين عامة في السنوات الثلاث الأولى للحكم العسكري (١٩١٧ – ١٩٢٠). نجد فيها أن واصف قد بلغ مرحلة النضوج في فنه وفي شخصيته الساخرة الناقدة. ومما ساعده في ذلك أنه تبوأ مركزاً حساساً في سلك الموظفين الانتدابي (في دائرة الأراضي)، وكان مراقباً حميماً لسلوكيات النخبة العربية المهيمنة بحكم علاقاته الشخصية بآل الحسيني وآل النشاشيبي، من دون أن يهمل علاقاته الحميمة بهموم الناس العاديين الذين نشأ بينهم. وفيها نستشف موقفاً مغايراً للتصور الذي يرى أن الحقبة العثمانية الأخيرة تشكل نقيضاً للفترة الانتدابية؛ فالأولى ترمز إلى الاستبداد الشرقي، والثانية ترمز إلى الحداثة. هنا، بالعكس، نجد رفضاً للافتراض الذي يرى في مؤسسات الاستعمار التحديثية بديلاً من النظام العثماني البائد، والذي يبرز الطابع الاستمراري لإصلاحات كان العثمانيون أدخلوها إلى فلسطين وبلاد الشام في نهاية القرن التاسع عشر من مدارس عثمانية، وإصلاح دستوري، وتخطيط مدني. وفي بعض القطاعات نرى أن النظام الانتدابي شكل تراجعاً عن الأوضاع التي سادت في الفترة العثمانية. نجد هذا القهقر مثلاً في حالة تعزيز النظم الطائفية في أحياء البلدة القديمة من القدس، وفي تبني الإنكليز مبدأ الانتماء

الديني كمؤشر إلى الهوية.[1] ويذكرنا جوهرية بأن كثيراً من الإصلاحات الانتدابية كان الأتراك أدخلوه إلى فلسطين في الحرب العالمية الأولى. إلاّ إن كلاً من الكوارث التي رافقت الحرب، والثمن البشري الباهظ للتجنيد الإجباري (سفر برلك)، ساهم في تسميم العلاقة بين الحكام العثمانيين ورعاياهم العرب، الأمر الذي طمس ومحى من الذاكرة العربية الجماعية أية سمات إيجابية للحداثة العثمانية.

من الملاحظ هنا أن فلسطين كانت أقل الولايات معاداة للعثمانيين على الرغم مما زُعم لاحقاً عن قياداتها المحلية. فحتى بعد إعلان الدستور الجديد سنة ١٩٠٨، عندما بدأت التيارات الاستقلالية واللامركزية تظهر إلى جانب الحركات الانفصالية بين اليونان والأرمن، بقي الفلسطينيون في معظمهم موالين للعثمانيين. ويلاحظ المؤرخ عادل مناع أن فلسطين تميزت بين المقاطعات العربية بكونها الأقل حماسة للإصلاح الدستوري. ففي نابلس ومناطق شمال فلسطين، مثلاً، تظاهرت الجماهير تأييداً للسلطان وضد الإصلاحيين.[2] إنما استطاعت جمعية الاتحاد والترقي أن تجد مساندة محدودة من النخبة السياسية في يافا والقدس فقط.[3] ولم تبدأ التجمعات السياسية الفلسطينية الانضمام إلى التيارات القومية العربية بشكل ملحوظ إلاّ بعد تنحية السلطان عبد الحميد عن السلطة سنة ١٩٠٧، وبدأت جمعية الاتحاد والترقي تبني سياسة التتريك في مرافق الدولة.[4]

تُستذكر الإدارة البريطانية فوق كل شيء كأداة واعية لإرساء دعائم الوطن القومي لليهود ونكبة سكان فلسطين سنة ١٩٤٨. وتهيمن هذه الرؤية على تفسير جميع الأحداث اللاحقة، وتفسر إلى مدى بعيد الأسلوب المتحفظ في سرد مشاهد الفرح والاحتفالات الشعبية في شوارع القدس في أعقاب دخول جيوش الجنرال أللنبي وانسحاب الأتراك منها.

مدينة الحثالة والأوباش

نجد في مذكرات الكولونيل رونالد ستورز (١٨٨١ – ١٩٥٥)، أول حاكم عسكري بريطاني للقدس، تعبيراً واضحاً عن أيديولوجيا ليبرالية رأت في فلسطين مرتعاً للتخطيط الكولونيالي، مع إحاطة واسعة ومثقفة بخلفية البلاد العثمانية والإسلامية. وتتقاطع هذه الرؤية بشكل غني مع مذكرات واصف جوهرية الساخرة عن الفترة نفسها من خلال التقاء الاثنين في مشاريع "جمعية محبّي القدس"، وهي المؤسسة التي أنشأها ستورز للحفاظ على تراث القدس المعماري والأثري، وتوفر لنا خطابين متباينين بشأن حداثة القدس في الفترة الانتدابية.

ثمة اعتقاد سائد – وإن كان مغلوطاً فيه – أن العثمانيين لم يساهموا بشيء يذكر في مجال التنظيم الحضري في المشرق العربي، وأن البريطانيين هم الذين أدخلوا مفاهيم التخطيط إلى فلسطين. تقول المؤرخة روث كارك في هذا المجال:

> حتى نهاية العهد العثماني، لم يكن هناك أي مخططات للمسطحات المدنية في القدس. وقد اقتصر عمل الباب العالي والسلطات المحلية على الإشراف على إدارة المدينة. ولأسباب أمنية تمّ تطبيق قانون عثماني يمنع بناء أية منشآت ضمن مساحة تقل عن ٢٥٠٠ فرسخ (نحو ١,٤ كم) . فمدينة عكا لم تتوسع خارج أسوارها حتى نهاية القرن الماضي. ولو طبق هذا القانون بحذافيره لواجهت القدس المصير نفسه.[5]

طبعاً لم يطبق هذا القانون "بحذافيره". فقد خضعت المدن الإقليمية العثمانية لدرجات متفاوتة من التنظيم الحضري، وخصوصاً الساحات العامة (دمشق، بيروت، يافا، حلب). وتميزت القدس بقوانين هيكلية متعددة بعد

١ واصف جوهرية، "القدس العثمانية في المذكرات الجوهرية: الكتاب الأول من مذكرات الموسيقي واصف جوهرية ١٩٠٤ – ١٩١٧"، تحرير وتقديم: سليم تماري وعصام نصار (القدس: مؤسسة الدراسات المقدسية، ٢٠٠١)، المقدمة، ص XXI.

٢ عادل مناع، "تاريخ فلسطين في أواخر العهد العثماني، ١٧٠٠ – ١٩١٨ (قراءة جديدة)"، (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، الطبعة الثانية ٢٠٠٣)، ص ٢٤٣ – ٢٤٤.

٣ المصدر نفسه، ص ٢٤٣ – ٢٤٩.

٤ المصدر نفسه، ص ٢٤٧. يلاحظ مناع أيضاً الاختلاف الواضح في تقويم الدعم الفلسطيني في تلك الفترة للتيارات المعادية للعثمانيين، مثلاً بين بيان نويهض الحوت والمؤرخ الإسرائيلي يهوشواع بورات، إذ ترى بيان الحوت أن الدعم الفلسطيني للاتجاهات العروبية كان أكبر من الوزن السكاني لفلسطين في بلاد الشام (المصدر نفسه، ص ٢٤٨). ويبدو أن مرجع هذا الاختلاف يعود جزئياً إلى الفترة الزمنية المختلفة التي يعالجها هذان المؤرخان.

5 Ruth Kark, *Jerusalem Neighborhoods: Planning and by-Laws, 1855-1930* (Jerusalem: Hebrew University of Jerusalem, Magnes Press, 1991), pp. 58-59.

إصدار قانون البلديات سنة ١٨٧٧، إذ قامت السلطة بوضع قيود تنظم رخص البناء، ومواد البناء، وعلو المباني.[١]

أشارت المؤرخة هالة فتاح إلى أن "زيادة الاهتمام بالنمو الحضري في القدس، واتساع شبكة الاتصالات، فرضا أنفسهما على السلطات العثمانية، وأصبح التخطيط لنمو مدينة القدس، في أواسط القرن التاسع عشر، من أولويات عملية مركزة السلطة العثمانية في فلسطين. وقد نجم عن إنشاء دار البلدية والمجلس البلدي تفعيل الحياة السياسية في القدس."[٢]

من معالم التنظيم العثماني المدني في تلك الفترة كان إنشاء النصب التذكارية في الساحات العامة سنة ١٩٠١ احتفاء بالعيد الخامس والعشرين لتولي السلطان عبد الحميد الثاني العرش. وأصبحت هذه النصب ذات الأبراج وساعاتها معالم تاريخية في ساحات مدن إقليمية، مثل إزمير وطرابلس ويافا والقدس. وثار جدل في شأن برج القدس (باب الخليل) لاحقاً عندما قامت سلطات الانتداب بتدميره "لأغراض جمالية" سنة ١٩١٨ (كما سيأتي أدناه). وقد تميزت القدس من باقي هذه المدن الإقليمية بأن قاعدتها الاقتصادية كانت ترتكز بشكل أساسي على الوقفيات الدينية والنشاطات المتعلقة بخدمة الحجاج. وقد نسب قول إلى السير تشارلز آشبي، مستشار "جمعية محبّي القدس" في الشؤون المدنية بعد الحرب، بأن المدينة المقدسة كانت "تعيل قطاعاً واسعاً من السكان الطفيليين – من كهنة وحانوتيين ورهبان ومبشرين ونساء أتقياء، وكتبة ومحامين وجمهور من الحثالة والأوباش – وجميعهم لهم مصلحة ثابتة في الإبقاء على الأمر الواقع."[٣] ويستنتج من النبرة الساخرة لهذا الوصف أن المستهدف منه في تصور آشبي، ذي النزعة الاشتراكية، هو على الأرجح الطبيعة الراكدة وغير المنتجة لاقتصادات المدينة، وليس الشارع المقدسي.

بالإضافة إلى المنشآت العثمانية التابعة للبلدية والتكايا الوقفية، ظهرت أول مبان حديثة في البلدة القديمة في الأربعينيات من القرن التاسع عشر على أيدي الإرساليات الإنكليزية والألمانية البروتستانتية. أمّا خارج البلدة القديمة فكان أول المباني العامة المجمع الروسي الضخم المعروف بالمسكوبية في الخمسينيات من القرن نفسه. ويرجع المؤرخ الألماني ألكسندر شولش إلى هذه المشاريع الثلاثة موجة التحديث العمراني في القدس العثمانية، والتي شملت كثيراً من "المباني الجديدة للكنائس والأديرة والأنزال (الهوسبيسات) والمدارس والمستشفيات والفنادق والقنصليات وتغييرها وتوسيعها [والتي] استمرت فيما بعد دون نقصان."[٤] تبع هذه الحركة المعمارية إنشاء الأحياء الجديدة لأعيان المدينة من المسلمين خارج الأسوار في الشيخ جراح وباب الساهرة وسعد وسعيد في العقد السابع من القرن، والأحياء الجديدة لليهود في يمين موشيه ومئاه شعاريم في الفترة نفسها.[٥]

ولا شك في أن مشاريع البناء العثمانية، كما هي الحال مع قوانين البناء والتنظيم الرسمية، كانت موجودة لكنها كانت عشوائية، وسرعان ما تم تهميشها بفضل الحجم الهائل للنشاطات الوقفية الدينية والاستثمارات الأجنبية وحركة البناء العائلية الخاصة. وتقول المؤرخة كارك، في هذا المجال، "إن التخطيط المدني في القدس العثمانية كان موجوداً، لكن لم يتم تنفيذه في الغالب، ولو جزئياً، إلاّ في العشرينيات من القرن التالي."[٦] وعلى الرغم من ذلك فإنه يمكن القول إن مشاريع تنظيم المدينة اللاحقة – في فترة الحكم العسكري وبداية الانتداب – كانت في معظمها مبنية على هذه الرؤية العثمانية.[٧]

على هذه الخلفية أنشأ الكولونيل ستورز سنة ١٩١٨ "جمعية محبّي القدس" – وهي مشروع طموح هدف كما أسلفنا إلى الحفاظ على مباني القدس التاريخية وإعادة إحياء المدينة اقتصادياً. كانت الأهداف المعلنة للجمعية هي "الحفاظ على آثار المدينة المقدسة وتطوير وظائفها الثقافية، كالمتاحف والمكتبات والمسارح إلخ، ودعم التعليم والرفاه الاجتماعي لسكان المدينة."[٨] استطاع ستورز أن يجند مجموعة كبيرة من نخبة المدينة في مجلس إدارة

1 Rassem Khamaisi & Rami Nasrallah, *The Jerusalem Urban Fabric: Demography, Infrastructure and Institutions* (Jerusalem: International Peace and Co-operation Centre, 2003), p. 298.

2 Hala Fattah, "Planning, Building and Populating Jerusalem in the Ottoman Period," www.jerusalemites.org/jerusalem/ottoman/7.htm

٣ يادين رومان، "حائط القدس"، "مجلة إيرز"، شباط/فبراير ٢٠٠٠.

٤ ألكسندر شولش، "تحولات جذرية في فلسطين، ١٨٥٦ – ١٨٨٢" (عمان: منشورات الجامعة الأردنية، ١٩٨٨)، ص ١٤٨.

٥ المصدر نفسه.

6 Kark, op. cit., p. 59.

7 Khamaisi & Nasrallah, op. cit., p. 296.

8 Ronald Storrs, *Orientations* (London: I. Nicholson & Watson Ltd., 1937), p. 322.

الجمعية، منها: رئيس البلدية موسى كاظم الحسيني، ومدير دائرة الآثار، والمفتي كمال أفندي الحسيني (تبعه في المنصب لاحقاً الحاج أمين الحسيني)، والحاخامان الأشكنازي والسفارادي ليهود فلسطين، ثم البطاركة الثلاثة الأورثوذكسي واللاتيني والأرمني، ومطران الطائفة الأنغليكانية، وغيرهم من وجهاء المدينة.[1] والملاحظ في هذا الاختيار هو تصور معين لدى ستورز للمجتمع الفلسطيني في بداية الانتداب، وكأنه مركب من زعماء الطوائف الدينية بالإضافة إلى أشراف المدينة وأعيانها، وهي رؤية تتعارض مع التغيير الناجم عن تبلور مجتمع وحركة قومية ونخبها المثقفة علمانياً.

1 Ibid., p. 323.



تشارلز آشبي

ومع أن الكولونيل ستورز كان صاحب فكرة الجمعية، فإن التخطيط المدني للقدس في تلك الفترة ارتكز على مساهمة أساسية من مهندسَيْن رائدين في القدس الانتدابية هما وليم ماكلين وتشارلز آشبي. كان الأول، ماكلين، المخطط المدني لمدينتي الإسكندرية والخرطوم في مطلع القرن العشرين، واستدعاه ستورز سنة ١٩١٨ لوضع أول مخطط هيكلي لمدينة القدس في فترة الحكم العسكري. واستطاع – بحسب التقارير – أن ينجز هذه المهمة في شهرين، ثم أكمل ملامحها المخطِّط المشهور باتريك غيديز سنة ١٩٢٢.[2] وعلى الرغم من سرعة إنجازه اعتبر مخطط ماكلين رائداً في ذلك الحين. ومن سمات هذا المخطط أنه "منع التوسع العمراني الجديد داخل محيط البلدة القديمة، وحافظ على شريط حول السور الخارجي للاستعمال العام بحيث تمت إزالة جميع المنشآت والأبنية منه، وسمح بترخيص البناء في القسمين الشمالي والغربي فقط من البلدة القديمة، وحدد ارتفاع المباني فيهما بأحد عشر متراً كحد أعلى، وذلك كي لا تحجب الرؤية عن جبل الزيتون وتشوه منظر المدينة، كما أوجب استعمال الحجر في جميع المباني ومنعت المنشآت الصناعية."[3] وهي إجراءات كانت صدرت في العهد العثماني قوانين بحظرها لكنها لم تطبق إلاّ في فترة الانتداب.

2 Ibid.

٣ رومان، مصدر سبق ذكره.

أمّا المهندس الثاني، تشارلز آشبي (١٨٦٣ – ١٩٤٢)، فكان أكثر من ساهم في رسم التصور العام لمستقبل القدس الجديدة/القديمة من منطلق يوتوبي. وكان من أتباع الفنان والكاتب الاشتراكي وليم موريس، وانتمى إلى جيل من المفكرين الرومانسيين والراديكاليين الذين وجدوا أنفسهم في خدمة المشروع الكولونيالي البريطاني. ومع أن الكولونيل ستورز كان استدعاه لإحياء الصناعات الحرفية في فلسطين إلاّ إن آشبي سرعان ما تجاوز هذه المهمة المحدودة في عمله.[4] وكان منصبه الرسمي في الحكم العسكري هو "المستشار المدني" للحاكم، وهي وظيفة حافظ عليها حتى سنة ١٩٢٢. الأهم من ذلك أن آشبي احتل منصب سكرتير "جمعية محبّي القدس" ثم منصب المنسق العام لها، وفيها لمع نجمه إذ استطاع – بناء على علاقته المتينة بستورز – أن يبلور حلولاً لـ "مشكلات المدينة العصرية، من دون أن يتخلى عن مخططات المحافظة على الطابع المعماري للبلدة التاريخية، وعلى خصوصية الأماكن المقدسة."[5]

4 Storrs, op. cit., pp. 323-326.

5 Inbal Ben-Asher Gitler, "C.R. Ashbee's Jerusalem Years: Arts and Crafts, Orientalism and British Regionalism," *Assaph*, vol. 5, p. 31.

استطاع آشبي أن يجمع بين الرؤية الرومانسية لـ "النموذج الشرقي" للمدينة وبين التخطيط العملي لمتطلبات المدينة اليومية. وكان هاجسه القاعدة غير المنتجة للمدينة. ففي تقرير الجمعية لسنة ١٩٢٠، أشار آشبي إلى الكم الهائل من سكان المدينة الطفيليين الذين يعتاشون من الإعانات والوقفيات (راجع الصفحة السابقة)، واقترح تغيير الهيكل التوظيفي للاقتصاد عن طريق إنعاش حرف تقليدية في قطاع البناء، ضمنها النسيج وصناعة البلاط (وقد جلب حرفيين مهرة للتدريب من مدينة كوتاهية في الأناضول) والزجاج التقليدي (من الخليل). ومن مشاريعه الناجحة في تلك الفترة: ترميم سوق القطانين وإحياؤها في البلدة القديمة؛ تجديد قيشاني قبة الصخرة مع دائرة الأوقاف؛ ترميم مسارات أسوار المدينة التي بناها سليمان القانوني في القرن السادس عشر؛ ترميم قلعة البلدة القديمة في باب الخليل. ورافق هذه المشاريع جميعاً إنشاء وحدات تدريب في الحرف التقليدية. وكان ستورز نظم احتفالاً سنوياً للفنون التابعة لهذه المشاريع في مبنى قلعة داود سمّاه "الأكاديمية"، حيث كانت تقام دورياً معارض للفنون الإسلامية وللحرف الفلسطينية ولمجسمات لمخطط المدينة.[6]



شعار جمعية محبي القدس

6 Storrs, op. cit., p. 326.

كانت معضلة آشبي الرئيسية التوفيق بين رؤيته الرومانسية لمستقبل المدينة وبين توجهاته الترميمية المحافظة. وقد عالج هذا التناقض، بحسب المؤرخ إنبال غيتلر، عن طريق تقسيم المدينة إلى منطقتي تخطيط متميزتين: الأولى كانت منطقة البلدة القديمة داخل الأسوار، التي رأى فيها من منطلق علماني "معلماً تاريخياً مخصصاً للمحافظة الأثرية"، وكأنه متحف ضخم. والثانية البلدة الحديثة في شمال المدينة وغربها، التي تم تطويعها للنمو والتنمية الحديثة.[١] وصل آشبي بين هاتين المنطقتين بشبكة من الحدائق والجنائن في محاذاة أسوار المدينة وحولها، مستخدماً مفهوم "الحديقة الإنكليزية العامة" والكيوسكات التركية. وكان الهدف من هذا الوصل الحفاظ على تواصل المدينة مع تخومها الريفية والزراعية. وكي يحقق ذلك لجأ إلى "تكثيف زراعة النباتات الأليفة لهذه المنطقة، وأبقى على الحدائق العامة في حالتها الطبيعية من ناحية، وأحيى نباتات وأشجاراً زالت من الوجود، من ناحية أخرى."[٢] في الحصيلة كان التخطيط المدني للقدس عند آشبي مزيجاً من التناقضات حاول من خلالها أن يجمع بين رؤية استشراقية للمدينة المقدسة وبين إحياء عملي لحرف المدينة وصناعاتها التي دمرها الاستيراد.

1 Gitler, op. cit., pp. 45-46.

2 Ibid., p. 41.

وشاء القدر أن يدخل على هذا المشهد واصف جوهرية. كان واصف يعمل خلال الفترة نفسها في الجهاز البيروقراطي للحكم العسكري في قسم التحريرات. ولفت عزفه على العود انتباه الحاكم الكولونيل ستورز، الذي كان بدأ إلمامه بالموسيقى الشرقية خلال إقامته بالقاهرة. فبادر ستورز إلى تكليف واصف العمل كمساعد لتشارلز آشبي في بداية إنشاء مجلس إدارة "جمعية محبّي القدس".

أشار واصف، بحكم منصبه الجديد كمساعد لآشبي، إلى أول مواجهة حدثت بين مجلس بلدية القدس و"جمعية محبّي القدس" بشأن تخطيط المدينة الحديث. ففي سنة ١٩٠١ كانت السلطة العثمانية أمرت ببناء برج الساعة الشهير داخل ساحة باب الخليل في المدخل الغربي للمدينة، خلال رئاسة فيضي أفندي العلمي لمجلس البلدية، وذلك احتفالاً باليوبيل الخامس والعشرين لاعتلاء السلطان عبد الحميد العرش (راجع أعلاه). وقد وضع تصميم هذا البناء وأشرف على هندسته المرحوم باسكال أفندي سروفيم، مهندس البلدية حينذاك.[٣] وحين استلم آشبي أعمال الجمعية اتخذ قراراً بإزالة النصب وتدميره لأنه، وفق رواية واصف، "كان يتعارض مع رؤياه للطابع التاريخي لسور المدينة." وفعلاً، تمت إزالة النصب ذات مساء على الرغم من معارضة المجلس البلدي. أمّا واصف فيخبرنا أنه كان يتفق جمالياً مع قرار آشبي. "كان برج الساعة نصباً مهجناً من عدة أنماط معمارية ذكرني بموسيقى عبد الوهاب عندما كان يلحن بالطريقة الفرانكو – أراب. بالرغم من ذلك كنت أعتقد أنه كان الواجب أن ينقل البرج إلى موقع آخر [بدلاً من تدميره]، ربما إلى مبنى البلدية الجديد بمحاذاة بنك باركلس."[٤] وبعد أعوام أوصى واصف بتصميم نموذج خشبي لبرج الساعة العثماني مع ساحته، وذلك كي يتسنى للأجيال اللاحقة أن تأخذ فكرة عما كانت عليه إحدى ساحات القدس العثمانية قبل أن تغير سلطات الانتداب البريطاني معالمها، ووضعه في متحفه الخاص في بيت النيكوفورية.[٥]

٣ واصف جوهرية، "مخطوطة المجلد الثاني من المذكرات الجوهرية"، وسنشير إليها من هنا فصاعداً بـ "المخطوطة الجوهرية"، ص ٢٦٢.

٤ المصدر نفسه، ص ٤٩.

٥ المصدر نفسه، ص ٥٠. بعد ٣٠ عاماً من هذه الحادثة زار البروفسور مايزل، عالم الآثار، متول واصف جوهرية وكتب بإعجاب عن هذا النموذج الذي حافظ عليه واصف في المجموعة الجوهرية. ظهرت المقالة في: *Palestine Post*, 10 August 1945.

أمضى واصف عدة أشهر بصحبة آشبي وريتشموند في أعمال الترميمات الميدانية في منطقة الحرم الشريف، وفي إصلاح سور المدينة. وعن هذه الجولات الميدانية يخبرنا التالي:

> وقد دأب المستر ريتشموند على الإشراف على مسجد الحرم الشريف الأقصى والصخرة المشرفة، وأشرف المستر آشبي "المعماري الشهير" بصفته المستشار الفني كما كانوا يلقبونه آنذاك (Civic Advisor) على المحافظة على سور المدينة، فقد رمم سور المدينة بصورة مرضية، وأقام قضباً حديدياً على الطرقات المخصصة على حافة السور من الداخل، وبهذا العمل استطاع السائح أن يمشي على أقدامه بسهولة، مستعيناً بهذا

(الدرابزين)، وبشاهد المدينة المقدسة من الداخل وخارج السور.

اشتغلت كاتباً في هذه الجمعية تحت رئاسة المستر آشبي، واطلعت على كثير من روعة وآثار المدينة المقدسة والحرم الشريف، والجدير بالذكر أن جورج الشبر المهندس المعماري الذائع الصيت الذي أصبح زمن الانتداب البريطاني من أغنياء القدس المعروفين، كان يشتغل موظفاً فنياً بصحبة المستر ريتشموند في إدارة إصلاحات الحرم الشريف، وإني أحتفظ بصورة تاريخية وهو - أي جورج الشبر - معنا بارزاً كموظف لحكومة فلسطين. لم أستطع البقاء كموظف تحت رئاسة المستر آشبي لكثرة أشغاله، وهكذا عندما كنت على جانب من الحظ في ليلة من ليالي الشتاء، دخلت قلم التحريرات الـ (Registry) فاستقبلني الزملاء كالعادة بالمرح والضحك، وأخذ الحظ مني مأخذاً فصعدت أمشي على طاولات المكتب، وإذ دخل فجأة المستر آشبي يحلق بنظره علي. . . أمّا أنا فقد بادرته بأعلى صوتي هلو هلو بالمستر آشبي. . . وهات يا ضحك من الزملاء، فدخل تواً إلى مكتبه غاضباً وكتب راپوراً بحقي، وكانت القاضية، وباختصار نقلت إلى قلم الترجمة، وتخلصت من غلبته التي كانت لا تطاق، وشكرت الباري على النتيجة.

كانت وظيفتي - والحق يقال - تحت رئاسة المستر آشبي إفادة كبرى، ما زادت معلوماتي بالآثار النادرة والأبنية التاريخية بالقدس التي جعلتني ولوعاً باقتناء التحف.[1]



البرج فوق باب الخليل

يصر واصف في مذكراته على أن فصل آشبي له عن العمل لم يخفف إعجابه به وبعمله. وفي هذا التعليق يميز صاحب المذكرات بين حكمه على الكولونيل ستورز ("المستشرق الاستعماري المحنك") وبين تشارلز آشبي، الفنان والمهندس والمخطط. تساعدنا المذكرات الجوهرية على قراءة جديدة للتاريخ الانتدابي للمدينة، لا لأنه كان شاهد عيان على أحداث هذه الحقبة الحاسمة فحسب، بل أيضاً لأن روايته تقوض الافتراض الشائع عن تزمين مصطنع يجعل نهاية الحرب العظمى الحد الفاصل بين عصر التخلف وعصر الحداثة في فلسطين. والتمييز الأكثر ملاءمة هنا يميز حداثة فلسطين في ثلاث حقب متقاربة ومتسارعة: انهيار الحداثة العثمانية نتيجة قساوة الحرب وما رافقها من ويلات اجتماعية؛ فترة الحكم العسكري العتية (١٩١٧ - ١٩٢٠)، وهي فترة "الفوضى الإيجابية"؛ تبلور سياسة الانتداب المتمحورة حول بناء الدولة الكولونيالية وتنفيذ بنود وعد بلفور.

١ "المخطوطة الجوهرية"، مصدر سبق ذكره، ص ٤٩.

أهازيج المجاعة

كانت الأعوام الثلاثة السابقة لسقوط القدس من أحلك وأقسى الحقب التي مرت المدينة بها، إذ تضافرت قسوة الطبيعة مع الحرب والمجاعة على أهل المدينة. ففي سنة ١٩١٥ بدأ الأسطول البريطاني ضرب مدن الساحل الفلسطيني، وتم تهجير قسم كبير من الناس إلى القرى والمدن الداخلية، بما فيها القدس.[2] ورافق ذلك بداية التعبئة في الجيش العثماني، وإرسال أبناء فلسطين إلى الجبهة الأمامية حيث هلك الآلاف منهم، وقمع الحركة الوطنية، والتنكيل بأتباع التيار اللامركزي من العرب والأقليات الأخرى. ثم بدأت المجاعة في لبنان، وانتقلت منه إلى مدن سورية وفلسطين. لم تكن المجاعة نتيجة القحط، وإنما جاءت بعد أن بدأ الجيش الرابع، بقيادة جمال باشا، مصادرة القمح والحنطة لصالح الجيش في ربيع سنة ١٩١٦. لدينا وصف لشاهد عيان من القدس، هو الدكتور عزت طنوس، الذي كان طالباً في كلية الطب ثم تجند في الجيش العثماني في بيروت، على تأثير المجاعة في الحياة اليومية. يقول: "كنت أمر يومياً انطلاقاً من الثكنة العسكرية في رأس بيروت إلى ساحة البرج في مركز

٢ مناع، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٩.

المدينة. وكان من المشاهد المألوفة في أثناء مروري رؤية عشر أو خمس عشرة جثة ملقاة على أرصفة الطرق كل يوم، تنتظر أن تأتي عربة البلدية لتنقلها إلى حيث تدفن. وصرت معتاداً القفز فوق هذه الجثث كي أتفادى التعثر بها. الأطفال الصغار يبكون ليلاً نهاراً، وتسمعهم من النوافذ: (جوعان.....جوعان). ثم تراهم يركضون نحو القمامة لعلهم يعثرون على ما يأكلونه. كانت كثيرات من النساء يتركن أطفالهن الرضع عند أبواب المستشفى في الليل كي يطعمهم الممرضون في الصباح."[1] وكأن المجاعة لم تكف، إذ جاء الجراد عام ١٩١٥/١٩١٦ ليقضي على المزروعات، فانتشرت الأوبئة ومات عشرات الآلاف من الناس.[2]

في القدس أصبح الافتقار إلى المواد الغذائية هاجس الناس، واقترن ذلك في أذهانهم بعملية التجنيد وغياب الشباب. يخبرنا واصف جوهرية، بأسلوبه الساخر، كيف كان هؤلاء الناس يستحضرون في أغانيهم الشعبية الأطباق الشهية التي خلت حياتهم منها. وقد ساهم هو بإحدى أهم هذه الأغاني من تأليفه وتلحين الموسيقار الحلبي الشيخ عمر البطش، معلمه في الجوقة الموسيقية التابعة للجيش العثماني:

أنشودة المجاعة[3]

كرشات كرشات كرشات محشية	بيضـــات بيضات بيضات مشوية
يـــا سمك يا سمك يا سمك مقلي	واسكب واشرب وغني واطرب
بـــادر بـــادر بـــادر واشـــرب	مـــا عـــلى الإنسان من مهرب
فالســـــــــكر أنفـــــــــع	مـــــــــــنه لا تفـــــــــــزع

دور

قـــبوات قـــبوات قـــبوات مقلية	كـــبة كـــبة كـــبة باللبنـــية
يـــا جـــزر يا جزر يا جزر محشي	أقـــــــــم في كرشـــــــــي
كوســـا كوســـا كوســـا بلحمة	كشـــكة كشـــكة كشكة بشحمة
يخــــــــــني بتـــــــــنجان	مــــــــع رز مفلفــــــــــل

دور

يـــا كـــنافة لا تغـــيبي أبداً عني	يـــا مهلبـــية إنت منيتي وقصدي
يـــا هريســـة اللـــوز إنت أفخر	المـــأكول بعـــد المحاشـــي
فســـتق بـــيدق طقـــش فقـــش	عـــبي الأركـــيلة وحشـــش
وعـــــن القطـــايف فـــتش	بعدهـــا أســـنانك نكـــش
آكـــــــل هـــــــالألوان	لازملـــــــــه حمـــــــام

1 Izzat Tannous, *The Palestinians: A Documented Eyewitness History of Palestine under British Mandate* (London: Igt Co., 1988), p. 35.

٢ مناع، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٩؛

Tannous, op. cit., p. 36.

٣ "المخطوطة الجوهرية"، مصدر سبق ذكره، ص ٦٦.

وكان واصف أدى هذه الأغنية أول مرة في احتفال أقامه متصرف القدس لنخبة من الضباط العرب والأتراك خلال الحرب. ويقول في هذا المجال: "وأذكر وأنا أغني الأبيات كثيراً من أصدقائي، بل أقربائي المحرومين لا من أكل شيء من هذه الأشكال فحسب، بل النظر إليها."[1]

١ المصدر نفسه.

من المفارقة أن "أنشودة المجاعة" هذه كان لها أثر سحري في خيال المجتمع المقدسي. فقد بدأ الناس ينشدونها في الشارع كأنها طقس من طقوس استحضار المحاشي الشهية التي اختفت من حياتهم، ورافقها موقف مستهزئ ورافض للانهزام أمام الموت والدمار. وقد بقيت هذه الأغنية بعد الاحتلال، فأصبحت معروفة بين الأهالي، وخصوصاً في مدينة القدس كذكرى لسنوات الحرب العالمية الأولى.[2]

٢ المصدر نفسه.

وعلى الرغم من الدمار الذي أصاب البلد، وربما بسبب هذا الدمار، فقد أصبح في إمكان بعض المفكرين الناقدين أن يرى في هذه الأعوام الحرجة – أعوام الحرب – مرحلة انعطاف تاريخية في حياة المجتمعين الفلسطيني والسوري. كتب محام مقدسي معاصر لهذه الأحداث، مشيراً إلى تأثير الحرب وهجرة الناس في تغيير النسق القيمي للحياة اليومية: أهل الريف يزورون المدينة بانتظام، ظهور المقاهي وثقافة الترفيه في المدن، دخول النساء إلى المدارس وبداية نزع النقب عن وجوههن.[3] وكان الإطار الأوسع والمرافق لهذه التغييرات الاجتماعية تراجع الانتماءات الدينية (الطائفية) والانتماءات المحلية، وهيمنة التيار القومي العربي والسوري.

٣ عمر صالح البرغوثي، "المراحل" (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠١)، ص ١٩٢ – ١٩٣.

فوضى في الشارع

تظهر أعوام ما بعد الحرب في يوميات واصف جوهرية الانتدابية كأنها ثلاثة أعوام من الفوضى، في حياته الشخصية وفي فلسطين إجمالاً، وكأن الانسياب العام في أوضاعه الخاصة كان انعكاساً لتردي أوضاع الوطن. مع ذلك فالفوضى هنا كانت فترة تجلت فيها أشكال متنوعة من الانعتاق والحرية العامة.

يستذكر واصف هذه الأعوام الأخيرة بشغف لأنها كانت آخر أعوام العزوبية قبل أن يتزوج ويستقر. وقد صدف أنها بدأت بوفاة حاميه ومستخدمه رئيس بلدية القدس، حسين أفندي الحسيني. وهو يصف حاله في تلك الفترة بـ "جزء فوضى من حياتي." يقول: "بعد وفاة المغفور له حسين أفندي بصفته الوالد الثاني، لم يعد لي أحد يرشدني في هذه الحياة، ونظراً لميلي الفطري للموسيقى التي احتازت أكبر قسم من حياتي، وبعدما أنهيت واجبي في خربة دير عمرو، كما وعدت حرم حسين أفندي السيدة أم سليم، أصبحت متشرداً في هذه الحياة بصورة أعتبرها بكل تأكيد فوضى، فكنت أقضي معظم أوقاتي إن كان ليلاً أو نهاراً وأنا في حالة غيبوبة من الحظ المتواصل، فمن سهرة للصباح، ثم نوم في النهار، وبعده سهرة متصلة بشطحة في إحدى القرى من قضاء القدس، ولم أكترث بأي أحد ولا مسؤولية ما، ولا أذهب لبيت والدتي إلاّ لتغيير هدومي ليس إلاّ. فأنام في بيت الأصدقاء والخلان، وهكذا إلى أن تعب جسمي وأنهكه السهر والسكر، فتارة أكون في سهرة في محلة باب حطة، وعند الصباح أكون في شطحة ضمت أرقى العائلات وأعيان القدس، ثم جلسة خاصة في بيت من زوايا القدس مع من يدعوهم القبضايات أو الزعران."[4]

٤ "المخطوطة الجوهرية"، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣.

استنزفت هذه الفترة الإباحية معظم سنة ١٩١٨ والسنة التي تليها، وعكست أجواء اجتاحت الحياة اليومية في المدينة عامة. ويزودنا واصف بلمحات كثيرة عن احتفالات عامة في أزقة البلدة القديمة وخارجها، اتسمت بالمسيرات الموسيقية، و"الهيصات" التي رافقها الاستهلاك العلني للخمور. في إحدى هذه المناسبات، والتي شارك فيها – بحسب الرواية – مئات من المحتفلين، بدأت المسيرة من باب العمود، ثم انتقلت إلى المصرارة فالمجمع

الروسي (المسكوبية)، وعودة إلى البلدة القديمة من باب الخليل، ثم إلى الهوسبيس النمساوي، انتهاء بحي الشيخ ريحان في محلة السعدية.[1]

يقول واصف جوهرية، في نهاية وصفه لذلك اليوم المشهود في تاريخ القدس: "كانت ليلة من العمر ولم يزل يذكرها المعارف والجيران وجميع سكان تلك الأحياء من عقبة المفتي إلى الشيخ ريحان. هذه هي حفلاتنا في الزمن القديم وهذا هو وصف متواضع لما كنا نقوم به ولا أدري لماذا؟" ويجيب عن تساؤله: "الجواب بسيط جداً وهو تعطش الأهلين إلى البهجة والسرور بعدما لاقوا من الإهانة والمرض والجوع والتشتيت زمن الحرب العظمى زمن الظلم، فعندما احتلت بريطانيا البلاد تنفسنا الصعداء قليلاً ولكن مع الأسف لم تكمل هذه الفرحة بل واجهنا مصيبة هي أشد وأبلى من زمن الأتراك وهي ضياع الوطن العزيز بأسره بواسطة المحتلين الإنكليز."

سرعان ما وجدت هذه الاحتفالات الشعبية تعبيراً مكانياً لها من خلال افتتاح العشرات من المقاهي والملاهي في مركز المدينة وأطرافها، حيث أمكن للمقدسيين التجمع في أوقات فراغهم لسماع موسيقى الغرامافون، وتناول المشروبات، وتدخين النارجيلة.[2] برزت شهرة مقهيين في هذه الفترة: "مقهى العرب" في عين كارم (وصاحبه أبو العبد عرب) الذي كان يستقبل الزوار طوال الليل؛ مقهى وبار الجوهرية، الذي كان يستقبل الفنانين الزوار والمغنين والمغنيات من القاهرة والإسكندرية وبيروت.[3]

في الأعوام الأخيرة من الحكم التركي بدأ كثير من الجمعيات السرية المناوئة للسلطة بالظهور إلى العلن. ومن أهم هذه الحركات كانت "جمعية الإخاء العربي" التي تأسست في إستنبول سنة ١٩٠٨ بعد إعلان الدستور؛ الجمعية القحطانية وتأسست في إستنبول سنة ١٩٠٩؛ الجمعية العربية الفتاة (١٩١٢) ومركزها بيروت؛ جمعية العلم الأخضر وتأسست في إستنبول سنة ١٩١٢.[4] وفي فلسطين كانت أهم هذه الجمعيات "المنتدى الأدبي"، الذي كان من أبرز أعضائه فخري النشاشيبي (من قادة حزب الدفاع لاحقاً)، وصليبا الجوزي (أخو بندلي الجوزي، المؤرخ الماركسي)، وخليل السكاكيني، وموسى العلمي، وإسعاف النشاشيبي.[5]

وكان حزب الصعاليك، الذي أسسه خليل السكاكيني خلال الحرب العظمى، مجموعة أخرى مماثلة للمنتدى الأدبي في كونها سياسية أدبية (أو ربما سياسية بواجهة أدبية) ضمت كثيرين من رواد الحركة النهضوية من يافا والقدس، أمثال نخلة زريق وعادل جبر والأخوان عيسى العيسى وداود العيسى، مؤسسي جريدة "فلسطين" سنة ١٩٠٩. أمّا المنتدى الأدبي فقد تحول لاحقاً إلى نواة الجمعيات المسيحية - الإسلامية خلال فترة الحكم العسكري. ويوفر لنا واصف جوهرية شهادة عيان على مهرجان جماهيري عقد في بداية سنة ١٩١٨ خارج باب الخليل خاطب المجتمعين فيه فخري النشاشيبي وصليبا الجوزي اللذان هاجما وعد بلفور ودعوا إلى الوحدة السورية.[6]

الحكم العسكري: مومس في البيت!

تلقي المذكرات الجوهرية أضواء جديدة على طبيعة السنوات الانتقالية الحاسمة التي تلت الحرب العظمى (١٩١٧ - ١٩٢١)، والتي لم يكن مصير مستقبل فلسطين قد حسم خلالها. تميزت هذه السنوات بالعتمة الثقافية، إذ انهار النظام العثماني عسكرياً وسياسياً، لكن الحكم الكولونيالي البريطاني لم يكن قد وطد مؤسساته بعد. "عشنا في دولة من الجهل" - صرح لاحقاً الكولونيل ستورز، حاكم القدس العسكري - و"كلمتي كانت القانون."[7] تم تعليق العمل بجميع القوانين المدنية لمصلحة الأحكام العرفية التي أصدرتها قيادة الحكم العسكري، بإدارة الجنرال موني. مرت فلسطين بفترة، وفق كلمات مؤرخة الفترة الانتدابية بيان نويهض الحوت، "لم يكن هناك [فيها] محامون ولا قضاة ولا محاكم ولا صحف."[8]

١ المصدر نفسه، ص ١٤٧.

٢ بشأن المزيد من وصف هذه المقاهي في الفترتين العثمانية والانتدابية، أنظر: سليم تماري، "مقهى الصعاليك وإمارة البطالة المقدسية"، "مجلة الدراسات الفلسطينية"، العدد ٥٧ (شتاء ٢٠٠٤)، ص ١١٧ - ١٣٢.

٣ "المخطوطة الجوهرية"، مصدر سبق ذكره، ص ١٥١.

٤ حنا أبو حنا (إعداد)، "مذكرات نجاتي صدقي" (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠١)، ص ١٩٦ - ١٩٧. أنظر أيضاً: مناع، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤٨.

٥ بشأن أصول النادي الأدبي في القدس، أنظر: "المخطوطة الجوهرية"، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦ - ٢٨، ٦٢، ٨٧.

٦ المصدر نفسه، ص ٢٦.

7 Storrs, op. cit., pp. 372-373, نقلاً عن: بيان نويهض الحوت، "القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين، ١٩١٧ - ١٩٤٨" (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨١)، ص ٦٦.

٨ الحوت، مصدر سبق ذكره، ص ٦٦.

وبقي القسم الشمالي من فلسطين تحت سيطرة بقايا الجيش التركي والسلطة العثمانية حتى نهاية سنة ١٩١٨. ودعم الإنكليز في هذا القسم مجموعات المقاومة باسم الشريف حسين ضد الجيش العثماني المتقهقر. لكن حتى بعد هزيمة الأتراك وهيمنة الحكم البريطاني على الأراضي الفلسطينية كافة، بقيت الحدود بين فلسطين وشرق الأردن ولبنان وسورية في وضعها "العثماني" المنفتح. أي أن حركة المرور بين هذه المناطق الشامية لم تخضع بشكل مفاجئ لتقييدات الأوراق الرسمية والجوازات، إلى أن بدأت الجمارك والشرطة الفرنسية والشرطة البريطانية تنفيذ الأحكام الصارمة للحدود الجديدة من أجل ضبط تهريب الدخان والبضائع، ثم ملاحقة الثوار في أواسط الثلاثينيات.

سمح هذا الفراغ القانوني للأرياف بتقوية القوانين العشائرية والعرفية. أمّا في المدن الكبرى فقد عزز مكانة كبار الضباط والقضاة المعينين – من إنكليز وفلسطينيين – وأعطاهم صلاحيات واسعة للتصرف في تطبيق القانون المحلي وفق ما يرتؤون. وفي الإمكان معاينة هذه الصلاحيات الواسعة من خلال عدة قضايا مدونة عن الفترة ١٩١٩ – ١٩٢٠ في محكمة الصلح في القدس، حين كان القاضي الرئيسي فيها محمد يوسف الخالدي (الذي عرف بنزاهته وأطواره الغريبة). ففي إحدى هذه القضايا عالج الخالدي حالة مومس من البلدة القديمة جاءت في قضية "تعكير صفو الأمن وإحداث الفوضى". ويبدو أن القاضي كان لا يزال في وضع متوعك عندما أحضرت المرأة أمامه وهي تقاوم وتصرخ فقال لها على مسمع الحضور:

"أسكتي... سكري تمك... شرموطة!!".

ولكن لم تتحمل المومس الإهانة، فأجابته على الفور "أنا يا سيدي إذا كنت كما تقول شرموطة أكون في بيتي وليس في محكمة الدولة!!".

وهنا تراجع في الحال صديقنا القاضي وقال لها صح معك كل الحق. ثم التفت إلى رئيس كتبته المدعو جمال الصلاحي، وقال له:

سجل دعوى الآن المدعي فلانة بنت فلان

المدعى عليه القاضي محمد يوسف الخالدي

الدعوى إهانة

الحكم على المدعى عليه دفع جزاء خمس ليرات فلسطينية، وقد أخرج من جيبه المبلغ ودفعه إليه، وهذا بدوره أحاله إلى الخزنة، وجلب الإيصال باسمه حسب الأصول، وسلمه إلى القاضي الذي ختم الدعوى المقامة عليه منه بالذات، واعتذر إلى المومس.[1]

[1] "المخطوطة الجوهرية"، مصدر سبق ذكره، ص ٩١ – ٩٢.

من السمات الأخرى لهذه الظاهرة العتبية، الطابع "الرخو" للحدود الجديدة مع كل من لبنان وسورية والأردن الذي أشرنا إليه أعلاه، والذي عكس استمراراً ثقافياً لوحدة المناطق الشامية في النظام العثماني المنصرم.

في صيف سنة ١٩٢٢ قرر واصف أن يمضي إجازته مع أخيه خليل في ربوع سورية ولبنان مروراً بالحدود الجديدة في شمال فلسطين. وكان أخوه خليل خدم ثلاثة أعوام من الحرب جندياً في الجيش العثماني في بيروت. ونراه يدون حادث عبوره الحدود مع لبنان من خلال مركز رأس الناقورة من دون أي التفاتة، وكأنه يمر من منطقة إلى أخرى داخل البلد نفسه.[1] وفي أثناء ثلاثة أعوام يمر واصف بالمنطقة الحدودية نفسها في زيارة للبنان – هذه المرة مع عروسه فيكتوريا بالسهولة والانسياب أنفسهما؛[2] وهذه هي بالذات المنطقة الحدودية التي ستحول إلى نقطة عبور دولية شديدة الإحكام بعد عشرة أعوام من هذه الحادثة.

١ المصدر نفسه، ص ١٨٥.

٢ المصدر نفسه، ص ١٦١.

يصور هذان الحدثان حالة التسرب – بل السيولة – التي اتسمت بها تخوم فلسطين الشمالية المتصلة بالأراضي اللبنانية والسورية في بداية عهدي الانتداب البريطاني والانتداب الفرنسي، وهو التواصل الذي حدا بعض الأحزاب (مثل الاستقلال) على تسمية فلسطين سورية الجنوبية في حينه – وذلك قبل أن تتراجع هذه السيولة وتنحسر لمصلحة الدولة الكولونيالية المبنية على بلورة مفهوم المواطنة الجديدة الإقليمية وقوانينها الاستثنارية التي فصلت فلسطين عن الجنوب اللبناني، وألغت وجود بلاد الشام التي كانت تشكل وحدة إقليمية وثقافية مشتركة.

كما تميز هذا الانفصام بتكوين نظام الحكم للدولة الكولونيالية بجهازه العسكري والبيروقراطي، ونظامه القانوني الجديد. وشرعت سلطة الانتداب داخل كل قطاع من هذه الدولة في استحداث تعيينات بيروقراطية تهدف إلى الموازنة بين تمثيل السكان الفلسطينيين المحليين وبين السكان اليهود المهاجرين. وفي حين كان التمثيل الفلسطيني المحلي فردياً ومباشراً ومبنياً على اعتبارات وجاهية أو إقليمية أو مذهبية، كان التمثيل اليهودي جماعياً تفاوضت سلطة الانتداب بشأن تفصيلاته مع الأجهزة الصهيونية السائدة حينذاك: الوكالة اليهودية، واللجنة التنفيذية الصهيونية. وفي الفترة التكوينية للانتداب، حين تم إنشاء الإدارة المدنية سنة ١٩٢٠، كان التمثيل اليهودي يتجاوز كثيراً نصيب السكان اليهود في فلسطين والبالغ ١٢٪ من السكان. يقول المؤرخ الإسرائيلي توم سيغف في هذا المجال: "برز تعيين اليهود الفلسطينيين في مناصب قيادية واضحاً خلال إدارة هربرت صامويل [المندوب السامي الأول]. وقد احتج حينذاك مدير الأمن العام في فلسطين، الكولونيل بيرسي براملي، على أن اليهود المحليين احتلوا جميع المراكز القيادية في السلطة بالاشتراك مع الصهيونيين البريطانيين. وفي الواقع – كتب براملي – إن حكومة صامويل كانت عملياً حكومة صهيونية."[3]

3 Tom Segev, *One Palestine Complete: Jews and Arabs under British Mandate*, Haim Watzman, trans. (London: Little Brown & Co., 2000), pp. 167-168.

ولم يكن واصف جوهرية شاهد عيان على هذه المرحلة الحرجة فقط، بل شارك مشاركة فعالة أيضاً في الطاقم الإداري للدولة الجديدة. في البداية عُيّن في منصب مهم في قسم التحريرات (ديوان الموظفين)، وفي سنة ١٩١٩ انتقل إلى دائرة الأراضي حيث أُسند إليه منصب "مدير مالية". وكان من مهمات الطاقم الذي عمل معه تكملة تقنين وتخصيص نظام ملكية الأراضي الفلسطيني الذي شرعت فيه السلطات العثمانية سنة ١٨٥٨. وتشكل مذكراته سجلاً غنياً ومفصلاً لهذا التحول. ففي صيف سنة ١٩٢٠ سجل المؤلف هذه الملاحظة:

"وهكذا تشكلت الإدارة المدنية:
"مديرو دائرة المعارف، والأمن، والمالية، والجمارك والعدلية، والزراعة من الإنكليز، ومديرو دوائر المهاجرة، والسفر، والأراضي من اليهود والإنكليز، وقد عينت المستر ن. بنتويتش الصهيوني مستشاراً قضائياً [....] فهذا كان البداية لتنفيذ وعد بلفور في فلسطين."[4]

٤ "المخطوطة الجوهرية"، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٢.

استمر عمل واصف في قسم المالية في إدارة الأراضي مدة فاقت العقدين من الزمن، وكان من زملائه في الدائرة سامي هداوي وإسطفان إسطفان اللذان اشتهرا لاحقاً بكتاباتهما عن الفترة الانتدابية. وتوفر لنا هذه المذكرات رؤية واضحة للدور الذي أدته قوانين الأراضي المستحدثة في تسهيل نقل حيازة الأراضي المدينية والزراعية إلى

اليهود، إذ شملت إلغاء ضريبتي العشر والويركو.[1] وهما ضريبتان عثمانيتان متعلقتان بالأراضي كان الهدف منهما تحصيل دخل للدولة المركزية من أصحاب الأطيان من دون اعتبار لنوعية الأرض أو إنتاجيتها. وهدف إلغاؤهما إلى إنشاء ضريبة فتوية تأخذ في الاعتبار موقع الأرض ونوع التربة. أخيراً قامت دائرة الأراضي بتسريع تسوية تسجيل الأراضي، وهي عملية هدفت إلى المسح الشامل للأراضي وتصنيفها وتحديد ملكياتها بدقة، وذلك لتقنين وتحديث وتبسيط آليات نقل الملكيات في سجل الأراضي الفلسطينية (الطابو).

ومن المفارقة أن سامي هداوي وواصف جوهرية، صاحبي السجل الوطني الحافل، أصبحا أداة غير واعية في عملية استلاب الأراضي هذه. يصف جوهرية هذه الفترة بأسلوبه المشبع بالسخرية ومتعة الحياة: المقاومة بالحيلة، والتخريب البيروقراطي، ونشر أجواء احتفالية وصاخبة، خلال عمله في إحدى أهم الدوائر الحكومية. وحين انغمس زملاؤه في دائرة المالية في إدخال حسابات ملكية الأراضي وضرائبها تحت إدارة كيث – روش، لحن واصف الطقطوقة التالية هازئاً بالنظام الضرائبي:

طقطوقة الكرسنة والفول[2]

والـــلي أدهـــى مـــن كـــل ده	ترتيـــــــــب القواعـــــــــد
والله تجـــنن نفضـــل نحسب ونقول	كرســـــنه وحـــــنطه وفـــــول
أعشـــار وويـــركو عـــلى طـــول	وتحصـــل وتنزل وتدور لغاية شهر أيلول
وأدخـــل بالأســـتاذ وآتي باليومـــية	مـــن حســـابات عام ومفردات شخصية
وواردات وصـــــــــــــادرات	مـــــن ســـــابقة وحالـــــية
وتحويـــل العملـــة المصـــرية	للداهـــــية الفلســـــطينية
في الشـــــطب الدكمـــــات	وتعـــــــداد الحـــــيوانات
مـــــن حيـــــث وليـــــت	واحـــــنا صـــــابرين

استطاع هذا النوع من الأغاني والطقاطيق أن يلقي ضوءاً ساخراً على بيروقراطية الدولة وجهاز موظفيها، وأن يرسم صورة مشعة لبروز شخصية وهوية فلسطينية في هذه الحقبة العتيبة. وكانت ملامح الحقبة العريضة تتكون من الخطوط التي رسمناها أعلاه: فراغ قانوني تم ملؤه بقرارات إدارية؛ ثقافة شعبية جديدة احتلت الشارع واحتفلت بزوال الطغيان لكنها واجهت مستقبلاً غير منظور؛ حدود سائبة لم تغلق بعد حافظت على التواصل الثقافي مع بلاد الشام ومصر. وكان العنصر الذي ربط بين هذه العوالم وحافظ على وحدة النسيج الاجتماعي الحس الطاغي بالانتماء المحلي؛ الانتماء إلى الهوية المقدسية في فترة كانت القدس تشكل مركز البلد ذي الحدود المتغيرة، ومرساة الأمان ضد المشاريع الاستعمارية الهادفة إلى تجزئة الوطن، وهي مشاريع دفعت بالفلسطينيين إلى الحنين إلى الحقبة العثمانية قبل أن تجف دماء حقدهم على العهد البائد.

[1] "الويركو" كانت في الأصل ضريبة حكومية تجبى من أراضي الزعامات الإقطاعية (التيمار). وبعد إلغاء نظام الأراضي السباهية تحولت إلى ضريبة حكومية على الأراضي تضاف إلى الأعشار. بشأن تفصيلات الموضوع، أنظر:

Moses J. Doukhan, "Land Tenure," in Sa'id Himadeh, ed., *Economic Organization of Palestine* (Beirut: American University of Beirut, 1938), pp. 98-99.

[2] "المخطوطة الجوهرية"، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٤.

بداية التمرد والنوستالجيا العثمانية

لم يستمر شهر العسل مع سلطات الانتداب البريطاني طويلاً. فقد ظهرت إشارات التململ ضد الحكم البريطاني بعد أن قررت الحكومة إجراء التعداد الأول للسكان سنة ١٩٢٠، وفيه صنفت السكان إلى ثلاث فئات طائفية: مسلمين ومسيحيين ويهود. ورأت القيادة الوطنية في القدس التعداد كأداة للشروع في تنفيذ مشروع الوطن القومي اليهودي، وليس وسيلة للتخطيط الاقتصادي كما أعلنت الحكومة. واتخذت القيادة قراراً بمقاطعة الإحصاء، لكن لم يُكتب لهذه المقاطعة النجاح.[١]

١ يذكر جوهرية أن وجهات النظر في فلسطين اختلفت في مواقفها من التعداد العام، وأن فخري النشاشيبي، ابن عم راغب، قائد المعارضة لاحقاً، قاد تياراً يدعو فيه السكان إلى مساندة الدعوة إلى التعداد.

عندما جاءت الحكومة البلشفية إلى السلطة ونشرت بنود اتفاقية سايكس – بيكو السرية لتقسيم بلاد الشام بين الحلفاء، بدأت الجماهير العربية بالتحرك. وقد ركز الشارع الفلسطيني على مسألتين: الهجرة اليهودية (التي اصبحت الآن من أهداف السلطة الانتدابية)، ونقل الأراضي إلى مشاريع الاستيطان الصهيوني.

وبعكس الوضع الذي كان سائداً في الفترة العثمانية، تحولت المناسبات الاحتفالية الشعبية والدينية الآن إلى بؤر مواجهة مع السلطة الانتدابية. وكان أهم هذه الاحتفالات في المنطقة الوسطى (إن لم يكن في فلسطين كلها) مسيرة موسم النبي موسى. بدأت هذه المواجهات في ربيع سنة ١٩١٩، واستمرت عامين. في هذه الفترة أخذ الكولونيل ستورز على عاتقه تنظيم هذه الاحتفالات هادفاً من وراء ذلك، بحسب تحليل واصف جوهرية، إلى السيطرة على مسيرة الجماهير كي لا تتحول إلى "أعمال شغب" بلغة السلطة؛ ومن ناحية أخرى إلى استيعاب هذه المسيرة التقليدية ضمن نشاطات الإدارة المدنية الجديدة في فلسطين.

وفي هذا الإطار توافقت رؤية الحاكم العسكري مع مصالح الحاج أمين الحسيني، النجم الصاعد بين قادة الحركة الوطنية، والذي اعتبر نموذجه التاريخي القائد صلاح الدين الأيوبي حين ابتدع مسيرة النبي موسى في نهاية حروب الفرنجة. فالحاكم العسكري ومفتي القدس تواطآ – كل لأهدافه الخاصة – على تنظيم مراسيم خروج المسيرة من القدس.

وهكذا تحولت احتفالات النبي موسى، التي كانت تشكل أحد أهم الاحتفالات الشعبية في الفترة العثمانية، إلى عيد رسمي بوصاية انتدابية. أمّا الحاج أمين فقد ساهم بدور فعال في "تأميم" هذه الاحتفالات بإشراف مكتب المفتي.[٢] وفي السياق نفسه، بادرت السلطات الانتدابية أيضاً إلى تنظيم احتفالات الجمعة العظيمة وسبت النور بإشراف الدولة، وهو خطوة استكملت إعادة ترتيب الاحتفالات الدينية الشعبية بوصاية حكومية، في الفترة نفسها التي بدأ المجتمع فيها بالتوجه نحو رؤية قومية علمانية في تنظيم نفسه.

٢ "المخطوطة الجوهرية"، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٨ – ١٩٩.

أمّا ستورز، المستشرق الذي أدى دوراً مهماً في إحياء هذا التقليد، فقد خلفه السير إدوارد كيث – روش، الحاكم العسكري المعادي للعرب. وقد كان واصف جوهرية عرف الحاكمين عن قرب بحكم وظيفته في الحكومة، وقارن بين شخصيتيهما وأسلوبيهما في إدارة شؤون السلطة لمصلحة المثقف والسياسي المحنك رونالد ستورز. لكن واصف كان يعي أيضاً دور ستورز في استغلال التراث الديني للوصول إلى أهدافه السياسية، كما يتضح من الوصف التالي للاشتباكات بين جماهير القدس والشرطة البريطانية سنة ١٩٢١:

> أقام الجيش قوة دفاع هائلة في الثغرة التي فتحت خصيصاً لدخول الإمبراطور الألماني في سور المدينة بجانب المدخل الرئيسي باب الخليل، وهذه القوة التي عززت بالمدافع الثقيلة والدبابات وقوى الجيش المسلح بكامل

الأسلحة كان يترأسها صورياً حاكم القدس العسكري السير رونالد ستورز، راكباً على جواده وبألبسته العسكرية. لماذا وضعت هذه القوة على الأخص في ذلك المكان من المدينة يا ترى؟ ! !

وضعت خصيصاً للوقوف في وجه الموكب العظيم وأشاوس جبل الخليل أو جبل النار كما يعرف ليومنا هذا، ولكي لا يسير في الطريق المؤدية إلى الحرم الشريف خوفاً من التحرش باليهود مرة ثانية [. . . .] .

وصل الموكب في صباح الأحد إلى الجسر الواقع ما بين بركة السلطان ووادي الربابة، وهناك تمهل وبدأ يتمختر دقة دقة، والشباب تلعب بالسيوف والشيوخ تنشد الأناشيد الدينية، وفرق ترقص بحلقات في الشارع وتنشد الأهازيج الوطنية، وكانت الأعلام لكل قرية ومنطقة من جبل الخليل مرفوعة، والخيول العربية تسير على نغمات الطبول والنايات، منظر خلاب إلى أن وصل في الثانية من بعد ظهر ذلك اليوم المشهود، وفي هذه العقبة التي تصل ما بين بركة السلطان إلى طرف سور مدخل باب الخليل، أخذ وقتاً أكثر من ست ساعات، وقد ذاق الجيش البريطاني والبوليس والقائمون بالمحافظة على الأمن والمحيطون بالموكب العظيم ذاقوا ألوان العذاب والعطش، وكان الطقس صدفة يميل إلى الحر على غير عادة، ما جعل هذا الحشد يزيد من التحمس والقوة، وكان المتفرجون من ضفتي الطريق ومن شرفات المنازل والمقاهي والمخازن يلاحظون بأن هذا الموكب وفي عيونه تعطش للدم . . . لا بد له من عمل شيء على غفلة .

وقد صدق تنبؤ المتفرجين، وكنت أنا واحداً منهم، فعندما وصل أول الموكب قمة باب الخليل المعروفة بالقدس التلة، ووجد أن باب الخليل الرئيسي مغلق، وكذلك الثغرة المعروفة في السور منيعة بواسطة المدافع والدبابات وأفراد الجيش المدجج بأسلحته الكاملة، وبموجب إشارة الحاكم السير رونالد ستورز أخذ الموكب الأول طريقه إلى الغرب متجهاً إلى شارع يافا حتى مشى ما يقرب من نصف الموكب . . وفي أقل من لمحة البصر وبقوة فائقة عاد نصف هذا الموكب للخلف وقابل النصف المتأخر منه، واتجه إلى ثغرة السور مهاجماً قوى بريطانيا ومتحدياً المدافع والرشاشات والدبابات وكل قوى الأمن، وكان بالفعل مشهداً مهيباً لن أنساه ما دمت حياً .

ولكن هل تدري ماذا عمل السير رونالد ستورز خوفاً على كسر شوكة بريطانيا، تلافى الأمر وهنا الدهاء فقد قلب وأظهر نفسه وكأنه عربي قحطاني . . . وبدأ يرحب باللغة العربية في هذا الموكب ترحيباً ليس له مثيل فيقول أهلاً . . . أهلاً . . . بالأبطال . . . نعم تفضلوا ومعكم الحق بالمحافظة على العادة بأن تسيروا داخل السور إلى الحرم هيا تفضلوا . . . وهكذا أنقذ الموقف وتجنب حقن الدماء وكسب أرواح الجيوش البريطانية، وهكذا لم يتعدّ الموكب على أحد عندما رأى أن ستورز يرحب به، وهذا ما كان يبغيه

بأن يسير داخل السور وليس شارع يافا، ويعرج على باب العمود، وربما باب الساهرة، ويدخل الحرم من باب الأسباط.[1]

[1] المصدر نفسه، ص ١٥٨.

بخلاف ستورز كان الحاكم كيث – روش يفتقر إلى سلاسة الكولونيل ستورز وحنكته السياسية. وقد وصف الفلسطينيين بأنهم "شعب كسول بطبيعته، قد يحلو لك العيش في أوساطه لكن سراويلهم الطويلة تخفي في طياتها خطايا كثيرة."[2] لكن من الواضح أنه حين أتى إلى سدة الحكم سنة ١٩٢٦ لم يعد في الإمكان أن يتحكم في المواجهات بين الحركة الوطنية العربية والحركة الصهيونية بالمنطق الدبلوماسي نفسه الذي استعمله ستورز.

2 Segev, op. cit., p. 168.

وعلى الرغم من الصبغة العلمانية للحركة الوطنية الفلسطينية كما انعكست في البرامج السياسية لأحزابها الرئيسية (حزب الاستقلال، والحزب العربي الفلسطيني، وحزب الدفاع، والحزب الشيوعي)، وفي الرؤية الأيديولوجية لزعمائها (ربما باستثناء حركة عز الدين القسّام في شمال فلسطين)، فإن الشعور الديني بدأ يتغلغل في لغتها ومفرداتها. يتضح ذلك جراء الاستخدام المتزايد للطقوس والشعائر الدينية في التعبئة السياسية، كما يتضح جراء الأحداث التي فجرت الاشتباكات بين العرب واليهود في تلك الفترة، مثل أحداث حائط البراق والحرم الإبراهيمي، وكان الشعار الذي رددته الجماهير في تلك المناسبات "سيف الدين الحاج أمين."!!

اللافت للنظر في الخطاب السياسي في بداية عهد الانتداب أيضاً كان السرعة التي استعاد الشارع بها حنينه النوستالجي إلى الحقبة العثمانية، بعد فترة قصيرة من الاحتفاء "بنهاية عهد الطغيان". وقد شملت النوستالجيا الحنين إلى رموز طورانية معادية للعرب، مثل شخصية مصطفى كمال أتاتورك. واشتهرت في تلك الفترة أغنية "الفؤاد مخلوق لحبك" من تلحين وأداء زكي مراد (والد المغنية المشهورة ليلى مراد)، وقد غناها في القدس أول مرة سنة ١٩٢١، ثم انتشرت في أنحاء فلسطين كافة:

الفؤاد مخلوق لحبك

الفـــؤاد مخلـــوق لحـــبك   والعـيون عـلى شـان تراك

والملـــوك تطلـــب رضـــاك   والـــنفوس تحـــيا بقـــربك

راعـــي ربـــك رق قلـــبك   اشـــفي صـــبك مـــن لمـــاك

دور

الجمـــال منســـوب لشـــكلك   والقمـــر محســـوب ضـــياك

مـــن يطـــول في الملك وصلك   وانـــت في بـــاهي عـــلاك

مـــين يمـــاثلك مـــين يعادلك   مـــين يلـــيق لـــك في سمـــاك

ويبدو أن هذه الأغنية كان نظمها أصلاً الشاعر إبراهيم القباني في مدح الملك فؤاد الأول، إلاّ إنها سرعان ما انتشرت في سورية وفلسطين، ونسبت إلى القائد أتاتورك احتفالاً بانتصاراته على جيوش الحلفاء في الأناضول. ولاقت أسطوانة "الفؤاد مخلوق لحبك" رواجاً واسع الانتشار في العشرينيات إذ كان الطلب عليها كثيراً في محلات أبو شنب للموسيقى، المستورد الرئيسي للأسطوانات المصرية والعربية، وذلك عندما بدأ الفلسطينيون يشعرون بأنهم خدعوا بأهداف الحكم البريطاني.[1]

[1] "المخطوطة الجوهرية"، مصدر سبق ذكره، ص ٨٤.

غياب الحميمية في الحيز العام الجديد

برزت خلال الحرب العظمى أنماط وممارسات اجتماعية جديدة في الحياة المدينية، وتبلورت في فترة الانتداب. في البداية، تضافرت المجاعة والأوبئة والنفي الجماعي على إحداث تغييرات جذرية في النسيج الاجتماعي لعدة مراكز حضرية. في القدس تحديداً ظهرت فئات جديدة خارج سور البلدة القديمة احتضنت هذه القيم الجديدة. وساهم قطاع الدولة في ظهور تجمعات جديدة من الموظفين، وفي استثمارات القطاع العام، الأمر الذي أدى إلى تفعيل ونمو شرائح أخرى من الطبقة الوسطى في المناطق الساحلية أيضاً.

في القدس برزت في الأحياء المحيطة سمات الثقافة الجديدة: التعليم العلماني، والمقاهي، والنوادي الاجتماعية والأدبية، وأماكن الترفيه التي عكست نمو الأذواق البورجوازية الجديدة. ونستطيع أن نستشف من الكتابات الخاصة في هذه الفترة، من مذكرات ويوميات، ظهور أنماط من التعابير الفردية والانعتاق من الروابط العائلية والمذهبية. وكان التخطيط المدني في الفترة الانتدابية، على أيدي المهندسين المعماريين ماكلين وريتشموند وغيديز وآشبي، وعلى أيدي معماريين فلسطينيين من أمثال جورج الشبر، ساهم مساهمة أساسية في بلورة هذه التحولات في السيكولوجيا الحضرية. نراه مثلاً في تخطيط الجنائن المحيطة، الذي تبناه تشارلز آشبي، في الحد الفاصل بين البلدة القديمة والأحياء الجديدة، ووجود "مسارات مميزة تهدف إلى إثارة العواطف وإيحاءات ذهنية متضاربة." ويقول غيتلر إن هذه الهندسة المشهدية خُططت عن قصد لتستحضر في أذهان الزائر "شعوراً دينياً وعاطفياً عن المدينة وأسوارها، مبنياً على تراكم قرون من التاريخ المشحون." وكما هو الحال في تصميم الحدائق الإنكليزية، "تم وضع المقاعد الخشبية في أماكن استراتيجية لتعزيز هذا الشعور العاطفي وتقويته."[2] لكن إلى أي مدى نجح آشبي ورفاقه في الوصول إلى هذا الهدف بتطبيق تصاميمهم المعمارية، وفي الجمع بين الإثارة العاطفية واستحداث حيز من الخصوصية في التجربة الحياتية لأهل المدينة؟ من الصعب الإجابة عن هذا السؤال، إلاّ إنه يمكن أن نرى أثره بطريقة غير مباشرة في الكتابة الذاتية لتلك الفترة.

2 Gitler, op. cit., p. 39.

في مذكرات واصف جوهرية، كما هو الحال في معظم السير الذاتية العربية المعاصرة، تظهر لنا مفارقة جديدة. فهذه المذكرات مفعمة بالروح الفردية الانعتاقية، لكنها تعاني في الوقت نفسه جراء غياب الحس الحميمي. قد يبدو للقارئ أن هناك تناقضاً في هذا التشخيص، وخصوصاً إذا راجعنا الكم الهائل من تفصيلات الحياة الشخصية في المذكرات، ونزعتها إلى البوح بما هو عادة مكتوم. وللمذكرات الجوهرية قيمة خاصة ومميزة لأنها تكشف وتهزأ وتحتفل في الوقت نفسه بمجموعة من الممارسات الاجتماعية، منها ما هو عادي وروتيني، ومنها ما هو مستتر وغير مباح به. البوح إذاً هو السر في قيمة المذكرات، لكنه على الرغم من ذلك بوح غير حميمي. نرى المذكرات تركز على الجانب الخفي من الحياة الخاصة لوجهاء القدس وأعيانها، وعلى سلوكيات النخبتين العثمانية والبريطانية من عسكر وسياسيين، وعلى فضائح وبطولات الناس العاديين التي ولد وكبر واصف جوهرية في أحضانها. وهي تقلب العادي والروتيني إلى مشهد عجائبي، وتسمح لنا برؤيته بأعين جديدة، لكنها في النهاية تقف عند حافة البوح ولا تتعداها لتتجاوز الحاجز النفسي الذي يسمح بالمشاركة الحميمية للذات.

قد لا يكون هذا الحكم مستغرباً إذا افترضنا أن الكم الأعظم من هذه المذكرات مكون من تسجيلات سردية وانطباعية المستهدف منها – في الغالب – جمهور قارئ محكوم بمفاهيم شرف العائلة وسمعتها. وعلى الرغم من ذلك هناك استثناءات مهمة لهذا التقويم لمجمل الأدب السيري والتراجم العربية الحديثة. من أهم هذه الاستثناءات السيرة الذاتية لأحمد فارس الشدياق، "الساق على الساق فيما هو الفارياق"، المنشورة في باريس سنة ١٨٥٥[١] نستذكر هنا حدثين في رواية الشدياق التي يسردها بضمير الغائب والمصوغة بالحميمية المفرطة: الأول يتعلق بتجربته المحرجة والمضحكة في ليلة دخلته على عروسه القبطية وعلاقته بأهلها، والثاني يتعلق بمصارحة الذات حين اكتشف خيانة زوجته له بعد عامين في فاليتا مع خادمه المالطي – وهي مصارحة فريدة في نوعها في الأدب العربي إجمالاً.[٢]

١ عماد الصلح (تحرير)، "اعترافات الشدياق في كتاب الساق على الساق" (بيروت، ١٩٨٢).

٢ المصدر نفسه، ص ٢٧٢ – ٢٧٤.

نموذج آخر لهذا الاستثناء نجده في الرسائل المتبادلة بين خليل السكاكيني ومعشوقته (ولاحقاً زوجته) سلطانة عبده. وهي نصوص مشبعة بالعتاب والشعور بالذنب والعواطف غير المتبادلة.[٣] كما نجده في ذلك الجزء من مذكرات الشيخ عمر الصالح البرغوثي حين حاول، من دون نجاح، أن يقنع زوجته المنعزلة بأن تصبح رفيقته وجليسته في الأماكن العامة.[٤] وفي الأدب الفلسطيني المعاصر نجده أيضاً في ذكريات طفولة الشاعرة فدوى طوقان، وفي وصفها الصريح للظلم الذي تعرضت له من جانب والديها وإخوتها. ففي سيرتها النابلسية، "رحلة جبلية"، حطمت فدوى المحرمات التي تتعلق بسمعة والديها المتوفين في حديثها المفتوح عن نشأتها المعذبة في كنفهما، وعن تمردها المبكر كفتاة مقموعة ومحبوسة بين جُدُر منزلها. لكن هذه الحالات تشكل كلها نصوصاً فريدة للإفصاح الحميمي عن الذات، وهي في مجملها نقطة في بحر من الكتمان.

٣ خليل السكاكيني، "يوميات خليل السكاكيني: يوميات. رسائل. تأملات"، الكتاب الأول (رام الله: مركز خليل السكاكيني الثقافي؛ القدس: مؤسسة الدراسات المقدسية، ٢٠٠٣).

٤ البرغوثي، مصدر سبق ذكره، ص ١٥١.

في حالة المذكرات الجوهرية يظهر هذا الغياب للحس الحميمي لافتاً للنظر على خلفية العدد الكثير من الروايات الفضائحية التي يتعرض لها الكاتب في حياة وجهاء القدس الخاصة. فهو يتعرض بالتفصيل للحياة الصاخبة في شققهم الخاصة ("دور العازبين")، ولتحديهم الأخلاق العامة، ولسير عشيقاتهم، ولانغماسهم في الملذات، ولدوره شخصياً في حياة هذه الشخصيات. إلاّ إن هذا الإفصاح عن دقائق الحياة الداخلية في حياته وحياة صحبه يرد إلينا كله بشكل قصصي يبدو أن القصد منه سرد ملاحظات اجتماعية عن أنماط الحياة المتغيرة في فترة حاسمة من تاريخ القدس. أي أن الشكل الغالب فيها هو المشهدي لا الذاتي. وهي أحداث تجري في الدرجة الأولى للآخرين، بينما هو – الراوي – يظهر كشاهد عيان عليها. أمّا هو وعائلته فهما في الغالب معصومان من مبضع الجراح النقدي.

أحياناً يتنازل الكاتب عن هذه المسافة المفروضة على عائلته عندما يتكلم بشيء من التفصيل عن أصول عائلة أمه وأبيه في البلدة القديمة، إلاّ إنه لا يستكمل هذه الصورة إلاّ بصورة سطحية عندما يأتي إلى ذكر حياة إخوته (وخصوصاً أخواته) اليومية. أمّا زوجته وعلاقته بها ودائرة علاقاته الخصوصية فتبقى غامضة. ثم فجأة يتخلى واصف عن هذا الحذر في المجلد الثاني من مذكراته، خلال الأعوام الأولى للحكم البريطاني، عندما يعرض بحميمية بالغة قصة فيكتوريا: وقوعه في الغرام، ثم خطوبته وزواجه بها. ولهذا الإفصاح الحميمي أهمية بالغة لأنه يظهر فجأة بشكل استثنائي في بقية السرد، ولأنه يوفر لنا مادة خصبة عن تجربته في الحب الرومانسي والزواج، ولأنه أيضاً يدخل القارئ في عالم ما هو عادة مكتوم وغير مفصح عنه.

قابل واصف فيكتوريا أول مرة في أريحا خلال الحرب عندما كان ضابطاً في البحرية العثمانية. كان أبوها صليبا سعد في الأصل من بير زيت، لكنه انتقل إلى أريحا حيث أنشأ وأدار فندق الجلجال عند مدخل المدينة. اعتقلت السلطات العثمانية صليبا ونفته إلى أنقرة خلال الحرب لأسباب غير معروفة (على الأقل لا يخبرنا واصف عن هذه الأسباب في مذكراته). كانت النتيجة أن استلمت ابنته الشابة فيكتوريا الفندق وأدارته بنجاح باهر حتى

نهاية الحرب. وفي بداية الحكم العسكري أصبح الفندق وباره مكاناً مفضلاً لارتياد الضباط الإنكليز الذين اعتادوا تسمية صاحبته بـ "فيكتوريا جيريكو" (فيكتوريا أريحا). وكان كبار قادة الجيش، مثل الجنرال بولز والجنرال موني والكولونيل ستورز، من زبائن الفندق الدائمين.[1]

في هذا السياق نعلم من واصف قصة "تبني" فيكتوريا من جانب البطريرك الأورثوذكسي في القدس، بعد أن أقنع عائلتها بالتنازل عنها، وقصة صراعه مع البطريرك ليقنعه بأن يبارك خطوبته على فيكتوريا، وقصة مغامراته خلال شهر العسل في القاهرة.[2] تعود هذه المصارحات الحميمية مرة أخرى إلى الظهور في نهاية المذكرات عندما يصل الكاتب إلى شيخوخته ويشعر بالوحدة القاتلة، فيفكر في الزواج مرة ثانية كي يعيد شيئاً من الاستقرار إلى حياته بعد وفاة فيكتوريا. هذه الأحداث أبرزت شخصية واصف جوهرية ككاتب ساخر من الطراز الأول. بعد جنازة زوجته فيكتوريا مباشرة كان واصف يستقبل المعزين في بيت ابنته يسرى في بيروت. يظهر رجل لم يلحظه واصف من قبل أخذ يتلو خطاب رثاء طويلاً يعدد فيه مناقب المرحومة بعاطفة جياشة، الأمر الذي دفع واصف إلى البكاء والنحيب. وبعد ذلك ينتقل الرجل فجأة إلى مدح مناقب عائلتها وزوجها بطريقة عكست معرفة حميمة بالعائلة. ثم يدرك واصف أن الرجل من طائفة ممتهني حضور الجنائز الذين ينتقلون من مناحة إلى أخرى بهدف الارتزاق. يصحو واصف من أحزانه موقتاً، ويمد يده إلى الرجل ببضع ليرات: "بس أرجوك.. مزعت قلبي.. فهذا يكفي.." أمّا الرجل فينتابه شيء من الارتباك ويصر على أن يحتفظ واصف بورقة الرثاء المكتوب؛ "لا.. يا أخي دعها لك فأنت تلزمك أكثر مني وتقرأها لغيري."

مكان اللقاء الحميمي الثاني هو أريحا مرة أخرى، وحرب تنتهي بكارثة جديدة مع فارق مهم؛ فالحرب العظمى سنة ١٩١٧ بتوقعات متفائلة عن مستقبل مشرق لفلسطين وبلاد الشام. أمّا الحرب الثالثة، حرب فلسطين سنة ١٩٤٨، فقد جلبت معها كارثة النفي والتشرد. أصبحت أريحا مكان اللجوء الكبير لشعب مهزوم، إذ نزح مئات الآلاف من سكان السهول الساحلية إلى وادي الأردن. في هذا المنعطف يظهر واصف كأنه يحاول إعادة بناء حياته الشخصية في إطار المأساة الجماعية لفلسطين. يتسم أسلوبه بالمصارحة الجريئة مع القارئ، وكأنه يسعى لمشاركته في الحدث. والمناسبة هنا هي زواجه الثاني من أرملة عزم على ربط حياته بحياتها. هذا الحدث أيضاً فريد في إطار المذكرات، لا لاحتوائه على قدر كبير من الحميمية في التعبير عن عواطفه فحسب، بل أيضاً لأنه يعكس مصارحة صادقة مع الذات لرجل تجاوز العقد السادس من عمره، ووقع مرة أخرى في الغرام. وبعكس بقية المذكرات يوجه المؤلف سلاحه الساخر هذه المرة ضد نفسه؛ يبدأ المحاولة في الزواج الثاني بلملمة أطراف شجاعته، ويتوجه إلى بيت الأرملة التي وقع في غرامها، فيفاجأ بالرفض الحازم والمؤدب من جانبها، وتذكّره – بحسب الرواية – بأن ثلاثة خطّاب أهم منه كثيراً في الجاه والمال قد تقدموا إليها قبله بطلب يدها.[3] ينهار واصف من هول الصدمة، ويتجنب لفترة طويلة المرور بطريق عين السلطان – مشهد خيبة أمله.[4] وفجأة يتخلى الكاتب عن المناعة الساخرة التي كان يتستر خلفها، ويظهر أمامنا – عن إرادة – كإنسان هش حساس، لكن صاحب كرامة. في النهاية يختتم السرد بحوار نوستالجي مع الشيوعي المنفي والمناضل المقدسي العجوز نجاتي صدقي، وهو نقيضه تقريباً في معظم جوانب شخصيته، وهو يراجع معه مسيرته الطويلة في الحياة كجندي، ومتسكع، وموظف دولة، وكاتب ساخر، وموسيقار، وشاهد على عصره.[5]

١ فدوى طوقان، "رحلة صعبة، رحلة جبلية" (رام الله: دار الشروق، ١٩٩٩)، ص ١٨ – ٢٢.

٢ "المخطوطة الجوهرية"، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٢.

٣ المصدر نفسه، ص ٣٦٠.

٤ المصدر نفسه، ص ٣٦٤ – ٣٧١.

٥ المصدر نفسه، ص ٣٧٥. كان نجاتي صدقي كتب في السجل الذهبي الخاص بالمجموعة الجوهرية عندما زار متحف الجوهرية في القدس بتاريخ ٨/٩/ ١٩٤٧ هذه الكلمة: "..والواقع أن الشخص الذي يزور القدس، ولا يزور متحف الأستاذ جوهرية، مثله مثل ذلك الشخص الذي يزور مجاهل إفريقيا، ويرى فيها جميع الحيوانات إلاّ الفيل..!"

الكتاب الثاني ١٩١٨ - ١٩٤٨

اهلاً اللبنى : بدايات الحكم العسكري

احتلال بريطانيا القدس صباح الأحد الواقع ٩ كانون الأول سنة ١٩١٧

طلع فجر نهار الأحد الواقع ٩ كانون الأول سنة ١٩١٧ ، إذ والقدس أصبحت بين عشية وضحاها في يد الإنكليز وحلفائهم ، وفي هذه الساعة السعيدة قضي على الحكم العثماني وعلى الظلم والاستبداد ، خصوصاً في مدة الأربع سنين الأخيرة بين سنة ١٩١٤ - ١٩١٧ ، بدأنا نتنفس الصعداء ، فشكرنا الباري عز وجل على هذه النعمة ، ولكن لم نكن ندري ، آنذاك ، أن هذا الاحتلال اللعين كان نقمة وليس نعمة على وطننا العزيز ، فقلنا عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم .

وعلى كلٍّ ، أقول إنني أذكر أن ذلك اليوم كان من أسعد وأبهى الأيام عند الشعب ، فكنت ترى الناس يرقصون فرحاً على قارعة الطريق مهنئين بعضهم بعضاً بهذا العيد السعيد ، والشيء الذي كان يجلب انتباهي أن كثيرين من الشبان من العرب - مسلمين ومسيحيين - الذين كان معظمهم تحت خدمة الجندية في القدس في عهدها التركي ، قد غيروا ملابسهم الجندية إلى ملابس مدنية بصورة مضحكة ، خوفاً من أن يلقي الجيش البريطاني المحتل القبض عليهم ، واعتبارهم أسرى وهم في ألبسة الجيش ، فكنت ترى مثلاً رجلاً يلبس البنطلون العسكري وفي رجله قبقاب . . . ويرتدي الجاكيت الذي كان يستعمل فوق القنباز ، وعلى رأسه الطربوش الذي أكل الدهر عليه وشرب . . . وغيره يلبس القنباز وعلى رأسه الكالبك لعدم وجود طربوش عنده . . . وهكذا .

وكنت ترى فئة من الناس يقطعون خطوط التلفونات التركية من على الشوارع ويأخذونها إلى بيوتهم ، وهناك من غزا على بغل أو حمار أو كارة يسوقها بلهف متزايد يبيعها وهي من مخلفات الحكومة السابقة .

والجدير بالذكر أن الجيش البريطاني توزع بسرعة في المدينة ، وفي الشوارع ، وبدأ المختصون بالنافعة والأشغال منهم يحتلون الدوائر التركية ؛ مثل دائرة البريد وغيرها ، وبدأوا ينصبون الخطوط التلفونية بدلاً من الخطوط القديمة ، وذلك على سياراتهم التي شاهدناها لأول مرة أوتوموبيلات معروفة بالـ "Box Car" ، وهي سريعة وصغيرة الحجم ، وكنا نتعجب من هذه المناظر التي كانت مفقودة عندنا بالأمس القريب . أما أنا ، فالله يشهد عليّ ، كنت أرقص في الشوارع مع أصدقائي ، ونشرب نخب بريطانيا والاحتلال ، وقد أصابتني رعشة وبعدها حمى اضطررت أن ألازم الفراش منذ عصيرة ذلك اليوم لمدة ثلاثة أيام من شدة الفرح ونشوة النصر ، ومن كثرة ما شربنا من الخمر بمناسبة الاحتلال .

في صباح ذلك اليوم الباكر ، ذهبت وأخي خليل وبعض الأصدقاء إلى حي الشيخ بدر ،[1] في الموقع نفسه الذي جرى فيه تسليم المدينة من قبل السيد حسين أفندي الحسيني رئيس بلدية القدس. وهنالك في محلة روميما ، قد لفت أنظارنا تعلق اليهود ، وبخاصة في تلك الأحياء ، بالجيش البريطاني ، فكنت ترى الجيش وهو في طريقه إلى المدينة محاطاً بآنسات اليهود . . . من جهتي الطريق . . . يرافقنه ويؤنسنه ويتكلمن معه بالإنكليزية بوجه باش ، ويستقبلنه بحرارة زائدة إلى أن يتفرق في أطراف المدينة .

[1] الشيخ بدر: حي في غربي القدس بالقرب من قرية لفتا.

وبعد صدور قرار بلفور، ووعده المشؤوم، تذكرنا هذا الاستقبال الحار منهم، ولم ندرِ أن بهذا الاحتلال تحققت أحلام الصهيونية، وكانت خدعة مشينة للعرب قضت على كياننا ومستقبل أولادنا وأحفادنا، وخسرنا أعز شيء منا وعلينا، ألا وهو وطننا العزيز ويا للأسف!

كنت في هذا اليوم وأخي خليل ووالدتي وأخي فخري بضيافة أختنا عفيفة في الدار المعروفة بدار الخوري يوسف، والواقعة من الجهة الغربية إلى شارع السان جوليان بجوار جمعية الشبان المسيحية. وكان الجيران يوسف قرط وعائلته، ومينا بطولي وعائلته، وأم حنا زخريا زوجة المرحوم عيسى زخريا وكريمتها فريدة، وعائلة مقحار وغيرهم. وأذكر أن عائلة الخوري من أهالي يافا كانوا يسكنون معنا في تلك الدار، وكانت رجالات هذه العائلة فارين من الجيش العثماني آنذاك.

وفي ذلك اليوم أذكر أن جميع الطوائف المسيحية في كنائسها دقت الأجراس والنواقيس ابتهالاً بهذه المناسبة السعيدة، وأقامت الصلوات في الكنائس. وبعد تسليم القدس رسمياً من قبل حسين بك الحسيني نشرت صورة فوتوغرافية بواسطة قولونية الأميركان القدس، وكانت تاريخية، وإني أحتفظ بها في المجموعة الجوهرية وهي تضم:

حسين بك الحسيني	رئيساً لبلدية القدس
توفيق محمد صالح الحسيني	
أحمد شرف	قومسير بوليس بياده
الحاج عبد القادر العلمي	قومسير بوليس سواري
شمس الدين	بوليس
أمين طهبوب	بوليس
جواد بك بن إسماعيل بك الحسيني	وكان لابساً بنطلوناً قصيراً
برهان ابن المرحوم طاهر بك الحسيني	

وقد حمل علم التسليم الأبيض خلف حسين بك سائق سيارة جمال باشا واسمه سليم من لبنان ومتزوج أخت اسكندر وحنا اللحام وبجانبه حنا اللحام. أما الفريق الآخر من جيش بريطانيا، فما كان سوى نفرين فقط . . . والجدير بالذكر أن علم التسليم الأبيض قد سلمته بنفسي إلى من يحمله.

ملاحظة قيمة وتعليقي عليها

كانت هذه الصورة، أي صورة تسليم القدس إلى الجيش البريطاني، حقيقة لا جدل فيها، كما بينت بالإثبات في المجلد الأول من هذا الكتاب، ولكن أبت الإمبراطورية البريطانية الاعتراف بها، وكما هي عادتها دائماً الكذب والخداع والدعاية لمصلحة الإمبراطورية، فقد قيل لي إن رئيس الوزراء ونستون تشرتشل نوه في كتابه بما يلي:



صورة تسليم القدس المشهورة.

أسماء الاشخاص يوردها واصف جوهرية صفحة ٢٧٧.

تصوير الامريكان كولوني ١٩١٧.

إن النفرين من الجيوش البريطانية اللذين ظهر رسمهما في هذه الصورة كانا في الواقع يفتشان عن شراء بيض من فلاحي قرية لفتا ، ولأجل الصدف تقابلا مع حسين بك الحسيني ، والأشخاص الذين كانوا يرافقونه آنذاك ، فأخذت لهم هذه الصورة ليس إلا .

التعليق : تأمل أيها القارئ الكريم في هذا الافتراء ! واعلم أولاً أن الطقس كان ممطراً ، والبرد قارساً ، خصوصاً في تلك السنة ، لا تنسى بأن التاريخ كان في نهاية كانون الأول ، فبالله عليك لو صدق تشرتشل في روايته ، فماذا كان الداعي لحسين بك الحسيني ذلك الشخص السخيف المرهف لأن يكون في مثل هذا الوقت المبكر من البرد والشتاء واقفاً في محلة الشيخ بدر؟ ! ! ثم هل عسكر بريطانيا ، وهم في حالة مجزرة حامية لاحتلال مدينة القدس ، أن يتركوا قيادتهم ليفتشوا على طعام البيض لهم؟ ! ! هل من المعقول أن يكون الجندي البريطاني جائعاً؟ معاذ الله !

إن موقع تسليم القدس المبين أعلاه كان في محلة الشيخ بدر ، وأصبح بعد الانتداب البريطاني محلة يهودية صرفة تعرف بمحلة روميما ومن أشهر كومبانيات اليهود . وقد عزمت الإمبراطورية البريطانية على وضع صليب لا يقل طوله عن ٣ - ٤ أمتار في الموقع نفسه الذي أخذ فيه رسم تسليم القدس هذا ، ولكن هل تدري ما كان نصيب هذا التذكار؟

رفضت الصهيونية العالمية رفع هذا الصليب في منطقة يهودية صرفة روميما ، وظهر لنا بالنتيجة أن بريطانيا أطاعت أوامر أسيادها الصهيونيين . وما رغبت في تحمل غضبهم ، وهكذا بقي هذا الصليب الطويل العظيم المصنوع في غاية من الإتقان والدقة مطروحاً على الأرض ليومنا هذا ، وذلك في الموقع نفسه ، وقد اضطرت بريطانيا إقامة سور من حديد الجنزير أو سلاسل ضخمة حوله ، ويا للأسف والعار ! وعليه ، إذا كان تشرتشل لا يعترف بحقيقة هذا التسليم ، فبالله عليك يا أيها القارئ الكريم ، لماذا نحت وعزمت حكومة تشرتشل على إقامة الصليب الضخم كتذكار في ذات الموقع المعروف لدينا في محلة روميما الآن ، والذي وقف المرحوم رئيس بلدية القدس وجماعته وجرى تسليم القدس فيه؟ ثم لماذا كان المرحوم رئيس البلدية حاملاً التفويض الرسمي الموقع من قبل متصرف القدس عزت بك إثر الاجتماع الذي عقد في دار المطران الإنكليزي؟ لماذا كان الرئيس في لفتا "أو روميما اليوم" في ذلك اليوم الخطر المخيف؟

رجوعنا إلى دار الجوهرية بحارة السعدية

وهكذا ارتاح البال وتحسن الحال لكل منا ، وتخلصنا من الأتراك ، وأصبحنا بعونه تعالى أحراراً من نير الجندية ، فرجعنا في الحال أنا وأخي خليل وفخري والوالدة إلى بيت والدنا ومسقط رأسنا دار الجوهرية في حارة السعدية داخل السور بالقدس ، لأن الوالدة وفخري كانا مستقرين زمن الحرب في بيت الأخت عفيفة ، الواقع في عمارة الخوري يوسف من أوقاف البطريركية الأرثوذكسية ، الواقع على شارع سان جوليان بالقرب من عمارة جمعية الشبان المسيحية في وقتنا الحاضر .[١] وكانت هذه

[١] وقتنا الحاضر: المقصود جمعية الشبان في القدس الغربية في شارع الملك داود.

الدار تضم عدداً من طائفة الروم الأرثوذكس العرب بالقدس، منهم يوسف قرط وعائلته، وأختي عفيفة وعائلتها أرملة عيسى زخريا، وأم حنا وكريمتها الآنسة فريدة، ميناً بسطولي وعائلته.

رحنا ونظمنا ونظفنا الدار لتكون جاهزة لاستقبال عيد الميلاد المجيد من سنة ١٩١٧، فكان - والحق يقال - عيداً سعيداً على جميع الأهلين بمناسبة الاحتلال البريطاني، وخلاص الشعب العربي من كابوس الأتراك الطغاة، وكلنا أصبح له أمل عظيم في مستقبل أفضل، وخصوصاً لما ذقناه من ويلات الحرب والمجاعة والمرض والوباء والتيفوس الذي تفشى في طول البلاد وعرضها، فشكراً للباري عز وجل الذي أعفى شبابنا جميعهم من الجندية اللعينة.

والجدير بالذكر في هذا الصدد أننا كنا ومن سطح دار الجوهرية، بالنظر لموقعه الإستراتيجي، نشاهد المعارك الدامية التي كانت لم تزل تحدث ما بين الجيش البريطاني وبين الألمان والأتراك على جبل الزيتون وأرض السمار المبسوطة اللذين كانا واضحين من الجهة الشرقية لدارنا، وكنا مراراً عديدة نتخوف من هذه المعارك خوفاً من رجوع الأتراك - لا سمح الله - إلى أن قضي عليهم نهائياً فاطمأنت قلوبنا وقلنا لهم بلا رجعة.



صورة القدس من الشمال والسهم الذي وضعه واصف يشير لموقع بيت الجوهرية في حارة السعدية. المصور غير معروف. المجموعة الجوهرية.

دخول الجنرال اللنبي القدس

دخل الجنرال اللنبي القدس باحتفال عسكري ضخم، مشيراً بهذا الاحتفال إلى النصر بالفتح الرسمي لمدينة القدس، وذلك نهار الأحد الموافق ١٨ كانون الأول سنة ١٩١٧، أي بعد تسليم القدس الأول في محلة الشيخ بدر بثمانية أيام. وإني لم أزل أذكر ذلك اليوم العظيم، وكان دخوله من جهة باب الخليل. وتبع هذا الاحتفال احتفال آخر عندما زارها مرة أخرى في عيد الميلاد المجيد، وجرى له استقبال حافل باب القلعة داخل السور. والجدير بالذكر أن الجنرال اللنبي عندما تلا بيانه المشهور وأشار - ويا للأسف - (إلى انتهاء الحروب الصليبية الآن)، احتج زعماء المسلمين وانسحب بعضهم من هذا الاحتفال.

تعييني كاتباً في دائرة العدلية

كنت أرافق حسين أفندي الحسيني دائماً بعد الاحتلال، وكان هو القائم بصفته رئيساً لبلدية القدس بكل ما يتعلق بالقدس من مسؤولية، فكان بالأحرى همزة الوصل ما بين القوة البريطانية المحتلة وبين الأهلين، وله الكلمة المطاعة السائدة عند الإنكليز، وذلك بواسطة المسؤول حداد باشا. وهكذا أرسلني وبيدي توصية فدخلت ومعي المرحوم علي بك جار الله مكتب حداد باشا، وبعدما سألني بعض الأسئلة وافق على تعييني بمعية علي بك جار الله.

كانت المحكمة الأولى من نوعها في القدس بعد الاحتلال، يرأسها علي بك جار الله (وذلك في الغرفة ذاتها من الطابق العلوي من العمارة الثانية لدى دخولك المسكوبية من بابها الرئيسي الشرقي، وأصبحت في زمن الانتداب المحكمة المركزية).

أما موظفو هذه المحكمة فكانوا: علي حسنة، وفخري بك بن عاصم بك، ثم محمد الزروق، وسليم النجا، ومحي الدين قميع، وفراش عبد الله ديب.



دخول اللنبي للقدس مترجلاً عن حصانه يوم ١٩١٧/١٢/٩. تبدو الساعة التي بنيت بمناسبة يوبيل السلطان عبد الحميد فوق باب الخليل.

تصوير: الامريكان كولوني، مجموعة أريك وإديث ماتسون في مكتبة الكونغرس في واشنطن.

وقد قضينا أوقاتاً جميلة في هذا العمل، ولي ذكريات أذكر بعضها في فصول هذا الكتاب التالية، وكانت -والحق يقال- الحكمة الوحيدة لفض مشاكل الأهلين، وكانت كثيرة بمناسبة حالة الاحتلال، فكان المرحوم علي بك جار الله يحل المشاكل والابتسامة والنكتة لا تفارق ثغره وحركاته.

وهكذا أصبحت -والحمد لله- موظفاً براتب لا بأس به، وقد تعين الأخ خليل بواسطة حداد باشا جندرمة سواري بمعية المرحوم إبراهيم بك الدزدار. والجدير بالذكر أننا كنا نفضل قبض راتبنا بالعملة المصرية الحجرية، فنضعه في صحون داخل خزانة الوالد بابتهاج وسرور، ونصرف اللازم يومياً لسد حاجات بيتنا الجديد، ونتذكر بألم دراهم الأتراك الورقية القذرة التي أصبحت بقيمة ستة عشر قرشاً لكل ليرة عثمانية. قاتلها الله.

حداد باشا

جبرائيل حداد باشا كان في الحقيقة أحد رجالات المخابرات البريطانية في الشرق. وكان أميناً طبعاً لمصلحة الإمبراطورية البريطانية. فكان تابعاً مباشرة لما يسمى "بالمكتب العربي" الذي أسسه الإنكليز في مصر، وكان -كما هو معروف- من رجال هذا المكتب ماكماهون، وجلبرت كلايتون، ولورنس، وستورس، وغيرهم. ولما زحف الجيش البريطاني بقيادة الجنرال اللنبي ألحق جبرائيل حداد باشا بقيادته، وكان واحداً من كبار معاونيه، وخص بهذه الوظيفة المختارة بسبب ائتمانه للمخابرات من ناحية، ولإتقانه للغة العربية من ناحية أخرى، لأنه كان يعمل في السابق في حكومة السودان. وباختصار، كان جبرائيل حداد باشا عضواً بارزاً في إدارة البلاد المحتلة المعروفة بـ O. E. T. A.[1] وانتهت مهمته الرسمية بانتهاء الإدارة العسكرية في فلسطين، ثم أشرف مدة من الوقت على إدارة القدس بوصفه ملحقاً في القيادة العسكرية العليا. وهكذا منذ أول يوم من الاحتلال البريطاني، كان حداد باشا يرأس إدارة البلاد، وخصوصاً القدس، وله الحرية المطلقة بهذا الشأن.

عين المستر رونالد ستورس حاكماً عسكرياً لمدينة القدس، وكان مقره في عمارة شميدت الواقعة خارج باب العامود، كما سيجيء البحث عنه وعن إدارتها في الفصول التالية من هذا الكتاب، والجدير بالذكر أن حداد باشا كانت وظيفته أعلى درجة من درجة رونالد ستورس.

كان مقر عمل حداد باشا عند الاحتلال في عمارة الأرمن المقابلة للمنشية شارع يافا بالقدس، وإني أذكر عندما دخلت لمواجهته لتعييني في العدلية وجدته عملاقاً جباراً يتكلم بلهجة عربية مصرية بصوت جهور. علمت مؤخراً من أخي الكبير وصديقي الوفي القاضي الأستاذ عبد الوهاب بك النشاشيبي أن جبرائيل حداد هو من أهالي طرابلس الشام.

حداد باشا على مائدة إسماعيل بك الحسيني

زار حداد باشا العم إسماعيل بك الحسيني بدعوة خاصة لتناول العشاء، وكانت حفلة باهرة لما حوت من شخصيات بارزة من أعيان مدينة القدس وزعمائها المعروفين، وقد شهدت هذه الدعوة بواسطة حسن أفندي الحسيني، وقمت بواجب تقديم القهوة جيداً في مجلس حداد باشا ورونالد ستورس، فكانا يتمتعان بأجسام هائلة ورؤوس ضخمة يليق لكل منهم

[1] Occupied Enemy Territories Area = OETA.

مثل هذه المناصب الرفيعة ، وكانت ليلة شاهقة لما تحلى به العم إسماعيل بك من مكارم وسخاء ، كيف لا وكان بيته يعرف بيت الأمة ، ويعتبر مفخرة لمدينة القدس وأهله رحمه الله .

بعض الحوادث الفكاهية أثناء وظيفتي في العدلية

علي بك جار الله :

قد أخذت الموسيقى القسم الأكبر من حياتي ؛ فمنذ الصغر زمن الحكم العثماني لم أكل ولن أسل عن مرافقة رجال الفن والمضي ولياهم في السهر والشطحات ، وبقيت على هذا الحال بعد الاحتلال البريطاني ، وقد زدت لهواً وطرباً لما أصبحت البلاد عليه من حياة بحبوحة بمناسبة الخلاص من نير الأتراك . وهكذا أصبح شباب البلاد والمثقفون منهم يمارسون التمثيل على مسارح القدس بكثرة ، فكنت أرافقهم لأداء الفصول التي يتخللها الغناء ليس طمعاً بالمال ، بل حبا لهذا الفن الرفيع الذي خلقت لأجله . وقد صادف حضور علي بك جار الله لرواية صلاح الدين الأيوبي على مسرح روضة المعارف ، وكان -على ما أذكر- بطل الرواية توفيق محمد صالح الحسيني ، فأبدع بتمثيل دوره صلاح الدين ، وقد قمت بواجبي بإلقاء القصيدة المعروفة التي مطلعها إن كنت في الجيش أدعى صاحب العلم . . الخ على عودي ومن داخل الكواليس على الطريقة ذاتها التي كان يغنيها المرحوم الشيخ سلامه حجازي ، وكنت أقلد غناءه بدقة . وبعد انتهاء الرواية جئت علي بك جار الله مسلماً ، فقال لي على الفور : "أهلا سلامات أبوي ! ! وين أنت والله ما بشوفك إلا على المسارح" .

وحقيقة أنني كنت أتغيب عن وظيفتي كثيراً بسبب الفن . وكان علي بك جار الله -رحمه الله- لا يسائلني أبداً لعظم محبته لي ، ولمعرفته بما أنا عليه من فن ، وكانت كلمة "أبوي" لا تفارق فاه .

قواس البطريرك دميانوس المعروف بأبي ناصيف


قواس إحدى البطريركيات في القدس في العهد العثماني. المجموعة الجوهرية.

ألقي القبض من قبل فريق من الجيش البريطاني على أبي ناصيف باعتباره لابساً بسطاراً عسكرياً من أموال الجيش ، وجيء به مكبلاً إلى المحكمة التي يرأسها علي بك جار الله ، وكانت المحكمة غاصة بالمراجعين وأرباب المصالح .

وكان أبو ناصيف رجلاً ذا قامة طويلة وسمينة ورأس نادر في حجمه ، وأصل أبو ناصيف من لبنان ، وكان معروفاً لدى الأهالي والقواس الممتاز للبطريرك ، خصوصاً في أيام الاحتفالات الدينية التي كانت تقام آنذاك في القدس ، ولدى محاكمته سأله علي بك :

ما اسمك		أبو ناصيف

اسم ولدك		ناصيف (ضحك ستاه في قاعة المحكمة)

عمرك		كذا

عملك	ما في شي . . بوصل غبطته من الدير للقبر المقدس ، وقالها بلهجته اللبنانية الجافقليش تلبس بسطار جيش : لأنه قوي ومريح . . . (ضحك)

بس كيف جاء على رجلك وانت رجل عملاق ! لا أعلم ربما يكن في الأصل بسطار الجنرال اللنبي ! !

فضحك علي بك وكل من في القاعة ، وبعدما فهم الجند البريطانيون ولمعرفتهم بضخامة جسم الجنرال اللنبي الذي يماثل جسم أبي ناصيف تفهموا النكتة وأعجبوا بها فصدر العفو عن أبي ناصيف شريطة أن لا يلبس هذا البسطار إلا متى كان داخل الدير .

أبو عيد الدلال

كان العم أبو عيد الدلال دلالاً مشهوراً في مدينة القدس ذكياً لامعاً قوي الجسم والعضلات ، صوته قوي أجش وله جرأة فائقة لما له من مقام رفيع لدى شباب المدينة المسلمين منهم ، وله حوادث ظريفة في مناسبات كثيرة معروفة لدى أهالي مدينة القدس ، وعلى الأخص الأشخاص الذين عاصروه. وقد شاهدت بأم عيني الحادث الظريف النادر للعم أبو عيد والمرحوم علي بك جار الله أدونه إلى القارئ لإعطاء فكرة واضحة عن حوادث ، بل تمثيليات أبو عيد فأقول :

اغتصت المحكمة بالمراجعين منذ الصباح الباكر لأنها كانت المحكمة الوحيدة آنذاك ، ودار النقاش والهرج بين الرئيس والشعب ، وإذ سمعنا صوتاً كالرعد من بعيد ! ! فإذا أبو عيد يسير ومن خلفه ولده أحمد (وقد توفي في الشباب) مكبلاً بالحديد ، ومن حوله بعض أفراد الجيش البريطاني ، وكان العم أبو عيد يكيل الشتائم التي لا توصف والتي كان خبيراً بها ، بل يخترع من عقله الكلمات الجديدة النادرة ويضيفها إلى القديم مثلاً : الله يرحمك يا تركيا . . ويرحم حكمك . . قال إنكليز ! ! جبنا الأقرع ليونسنا كشف قرعته وخوفنا . . يبلاك بالكسر يا إنكلترا . . ويلحقك بـ . . . تركيا . وكلمات يعجز القلم عن كتابتها وهو يشتم بأعلى صوته إلى أن دخل قاعة المحكمة ، وعلى هذا الحال بصورة فظيعة لا يعي من كان واقفاً وجالساً في قاعة المحكمة إلى أن وصل تواً إلى الرئيس علي بك وبدأ صائحا :

يا سيدي الله يعلي مراتبك . . اشنقه اقتله اذبحه (مشيراً إلى ولده أحمد المكبل بالحديد من غفلة ومعه أفراد الجيش) هذا يا سيدي فضحني في آخرتي الله يستر آخرتك . . هتك عرضي الله يستر عرضك ، ثم هجم على علي بك ووضع يده اليمنى في وسطه ! قائلاً أنا طنيب على ولاياك اشنقه . . اقتله . . الله يغضب عليك يا أحمد . وكان البعض يهدئ من روع العم أبو

أحمد وهو على هذا الحال إلى أن أسرع علي بك بوقف الدعوى التي كانت بين يديه ، وبدأ في الحال للسماع إلى دعوى أحمد ابن العم أبو عيد وكله إعجاب وتقدير لما أبداه العم أبو أحمد من سخط وعدل وإنصاف على ولده ومهجة كبده. ولم يدرِ علي بك والحاضرون أن أعمال العم أبو عيد كانت تمثيلية فقد وفاتحة خير بطريقة سياسية ليكسب ويغتنم فيها عطف الرئيس.

وإليك البرهان :

عندما بدأ علي بك بالنظر في الدعوى وأخذ الاسم انتصب العم أبو عيد وهو متكأ على عصاه المشهورة يخبط فيها على الأرض بقوة وكأنه قواس. يقول بصوت خافت إلى الرئيس :

هذا اليوم يومك يا أبو الحسن ، الله يمد في عمرك ، هذا ولدك مش ولدي ، والله ما احنا لمثل هذه الأشغال ، وسيادتك أعلم وأدرى بأخلاقي وأخلاق أولادي ، ولو ابن بلد الله يعلي مراتبك ارحم يا أبا الحسن ترحم . . إلى ما هنالك من كلمات مؤثرة ، الأمر الذي جعل الرئيس علي بك يحتار في أمره وأمر هذا الرجل الغريب.

الدعوى كانت ضبط غرف وليس غرفة ملآنة من أموال الجيش على أنواعه كافة . . وبالنتيجة عمل علي بك ما استطاع من مساعدة للعم أبو عيد خوفاً من لسانه ونفوذه ، وحكم على ابنه أحمد حكماً بسيطاً أذكر أنه كان دفع غرامة من المال بدون سجن ومصادرة أموال الجيش [المسروقة] وردها إلى الجيش.

محمد بن موسى الزردق

إن الزردق وما أدراك ما الزردق ! إنه في الحقيقة رجل ذكي لامع مرح كريم النفس ، قضى زمانه في اللهو والسهر وله حوادث فكاهية نادرة يعجز القلب عن وصفها كتابياً . كان موظفاً له قصته في العدلية زمن الحكم العثماني بالقدس ، وقد شاء القدر أن أرفقه بالوظيفة بعد الاحتلال البريطاني مباشرة في محكمة كان يرأسها علي بك جار الله. له اطلاع واسع في شؤون المحاكم ، وخصوصاً دائرة الإجراء التي كان يرأسها فيما بعد زمن الانتداب البريطاني ، وكان يحسن اللغتين العربية والتركية ، وقد أفلح في اللغة العبرية بعد الاحتلال. ولما كان محمد الزردق قصير القامة أشقر اللون ، بل مائل إلى اللون الأحمر منه ، وعيناه زرقاوان ، كان عندما يتكلم العبرية لا تخاله إلا يهودي من الأشكناز القدماء في القدس. حتى أقول صادف مرة في تل أبيب وطلب لأداء الشهادة في محكمة هناك ، فلما وقف أمام الحاكم اليهودي قدمت له التوراة لوضع يده اليمنى عليها وأداء القسم حسب الأصول ، باعتقاد الحاكم أن الزردق يهودياً . ولكن تعجب الحاكم والحاضرون عندما علموا أن اسمه محمد وطلب القرآن ، وهو يجيد اللغة العبرية وكأنه يهودي صرف. إن محمد الزردق صديق حميم طول زمن الانتداب ، وله حوادث طريفة ، وحاضر النكتة ، ومعروف لدى أبناء القدس على اختلاف طوائفها ، وهو عصبي المزاج يكره السماجة والبرادة ، بل لديه قائمة في جيبه يدون كل من كان سقيلاً وثقيلاً من أهالي القدس.

وإني أذكر مرة صادفت المغني صابر الصفح فسلمت عليه في شـارع مأمن الله ، وتحدثنا برهـة عن الفن ، وإذ الزردق يشير بيده إلي مهدداً من بعيد ! فلما ذهب صابر الصفح جئت الزردق متسائلاً عن هذه التهديدات ، فقال وعيناه تبحلقان بي كالجمر ووجهه زاد احمراراً (ولك بتحكي مع هالبارد وهو قتلني بأغنيته مساء الأمس التي مطلعها "راح أسافر . . . الخ. وهي أغنية شعبية لصابر" إنما لا تروق لأذن الزردق ويكره الاستماع إليها ، وهكذا قال لي الزردق راح أسافر راح أسافر راح أسافر مقلداً صابر ثم شتمني وقال "يسافر هالخرا . . وأنا بدفع أجرة السفر . ." فضحكت وتركته .

مسلمان والحمد لله

كنا نحن معشر أبناء القدس على اختلاف مذاهبنا نعيش عيشة عائلية لا فرق بين مسلم ومسيحي زمن الحكم العثماني ، ولكن عندما صار احتلال بريطانيا للقدس ، وكما هي عادة المستعمر ، جربت بريطانيا تعكير الجو الصافي ، وخصوصاً بين المسلمين والمسيحيين ، ولم تكتف هذه الشمطاء بإعطاء وعد بلفور المشؤوم الذي كان سبباً بضياع الوطن ، بل بعد الاحتلال البريطاني مباشرة منعت دخول المسلمين كنيسة القيامة ، وكذلك المسيحيين من دخول الحرم. وإني أحتفظ ببعض الصور ال "Out of Bonds" على مدخل كنيسة القيامة ، وذلك ضمن المجموعة الجوهرية. وبهذه المناسبة جرت هذه الحادثة الطريفة معي وصديقي الزردق أزفها إلى القارئ :

في صباح يوم أحد من شهر نيسان على ما أذكر كنت وبعض الأصدقاء من أهالي القدس المسلمين وهم : داود الفتياني ، وتحسين الخالدي ، ومحمود عزيز الخالدي ، وصالح الدنف الأنصاري ، وفخري النشاشيبي ، وأمين طهبوب ، ومنير درويش ، ونعمان عقل وأخيراً محمد الزردق وغيرهم .

تناول كل منا كأساً من مشروب معروف بـ "فيرنيت بلانكا"[1] صنع إيطاليا ، ثم كررنا تناول الكأس الثاني في بار ارشيدي اليوناني ، ولما كان الطقس مشمساً ودافئاً اشترينا لوزاً أخضر ، وأخذ كل منا نصيبه في جيبه ، وعزمنا على النزهة في حظيرة الصخرة الخارجية .

وقفنا على أحد أبواب الحرم الشريف ، إذ شاهدنا قوة [شرطة] واقفة على كل باب من أبواب الحرم الرئيسية. هذه القوة مؤلفة من الجيش الهندي المسلم والمتعصب في دينه ، فكان يسأل كل من يريد الدخول من هذا الباب بكلمة "مسلمان؟" . . فإذا كان مسلماً يسمح له بالدخول ، وإلا يرفض دخوله. بدأ كل منا بعد السؤال يقول مسلماً ويدخل ، والجدير بالذكر في هذا الصدد مجيء دوري ، فسألني هذا الضابط الهندي "مسلمان" أجبت الحمد لله مسلمان . . وقد صادفت خلفي العم أبو عيد الدلال وكان معمماً وبصفته صديقاً وفيا للمرحوم والدي فقال بأعلى صوته أشهد بالله مسلمان . . تصور أيها القارئ أن واصف ابن جرجس جوهرية مسلم. وهكذا لحسن حظي بعدما أشار إلي الهندي بيده وتمتم ببعض الكلمات الهندية دخلت باب الحرم وأصبحت داخلاً .

ولما جاء دور صديقنا خفيف الدم والظل الزردق في الدخول ، وقبل ما يدور البحث معه ومع الضابط الهندي ومنعه من الدخول مهدداً الزردق بالبارودة التي في رأسها السنجة. فجن جنون الزردق واحمر غضباً وكل من الحضور يضحك ، وبدأ

[1] فيرنيت بلانكا: يبدو أن المقصود فيرموت بلانكا.

الزردق يصيح بأعلى صوته مخاطباً بي "ولك أنا اسمي محمد أمنع من دخول الحرم أما أنت يا واصف فتخرج من الأزهر ومسلم تقي ! !" ، وما إلى ذلك من كلمات كدنا أن نغمى ضحكاً ، ولكن لا سبيل ، وبعدما جرب الزردق الدخول من باب آخر استعمل الضابط الهندي صفارته مشيراً إلى رفقائه بعدم السماح إلى الزردق بالدخول .
وهكذا ألقى كل منا بنفسه على الحشيش الأخضر في ساحة الحرم نأكل اللوز الأخضر والزردق يهدد ويعربد ويرعد لواصف من الخارج ، وكانت تمثيلية مضحكة للغاية لكل منا ، وأصبحت على أفواه أغلب أهل مدينة القدس إلى يومنا هذا .

لاجئو شرق الأردن إلى القدس

في شتاء سنة ١٩١٨ جاء القدس عدد كبير كلاجئين من أهالي شرق الأردن سلطيون وفحيصيون وغيرهم ، وذلك عندما قام الأتراك (الألمان في الحقيقة) بهجوم معاكس استردوا فيه السلط والفحيص وغيرها ، وانحدروا إلى أريحا ، فهرب أهلها ليلاً قبل وصول الألمان والأتراك ، ودخلت بالفعل القوات الألمانية إلى أريحا ، وهددت بالزحف إلى القدس ، وقد حسب الأهالي ألف حساب من نقمة الأتراك. وإني لم أزل أذكر أهالي أريحا أمثال عائلات القزاز ، ونزال ، وصليبا ، وسعد ، والبيضة وغيرهم والحالة السيئة التي وصلوا فيها القدس ليلاً هاربين على أقدامهم بصورة فظيعة لا توصف ، ولكن ما لبث الإنكليز أن تفوقوا على الألمان والأتراك وواصلوا في الحال زحفهم شرقاً . مع العلم أن الأتراك دخلوا أريحا فور سقوط القدس ، لأنه لم يتمكن من الدفاع عنها ، كما أنها -أي أريحا- لا تصلح أبداً قاعدة للدفاع ، وإن كانت تصلح قاعدة لأصدقائنا أمثال أبو القزاز ، وناصر ، والمسكلب ، ونزال ، وكراكوز .
وأن المدفع الضخم الذي كان يستعمل من القوة الألمانية والذي كان مركزه في مرتفعات وادي شعيب ، بقي مدة لا تقل عن الثلاثين سنة كذكرى ، فكان يهدد هذا المدفع بريطانيا ، وكأنه قوة كبيرة ، وكأنه باعتبار جملة مدافع أخذت دوراً عظيماً من دهاء تكتيك الحرب الألماني المشهور .

أنت أبوي من السلط والفحيص

وعلى ذكر لاجئي بعض أهالي شرقي الأردن أذكر في هذا الصدد أن بعض هؤلاء اللاجئين الذين كان مأواهم مدينة القدس ، خصوصا داخل السور ، أصبحوا نكبة فظيعة على القدس وأهلها حتى سئم الأهالي الاختلاط بهم ، فمن هؤلاء اللاجئين كان لا يترك المحكمة إما مدع وإما مدعى عليه ، واستعمل البعض منهم طرق دنيئة ومشينة ، فكنا نشاهد المشكلة تلو الأخرى بصفتنا موظفين في محكمة العدلية ، ونستعيذ بالله عندما يدخل أحدهم على هذه المحكمة ، فأذكر أن حماراً في يوم واحد بيع ثلاث مرات من بائع إلى شار ، الأمر الذي أزعج البوليس ومن فوقه علي بك جار الله .
فكان علي بك عندما يكون في سير قضية ما لهؤلاء العفاريت ومن شدة غيظه وغضبه منهم يبدأ قوله :

أبوي ! ! أنت من أين؟ من السلط أو من الفحيص؟

المتهم	أنا من الفحيص يا سيدي

علي بك	الله يردكم على بلادكم سالمين أبوي! الله يردكم سالمين لتخلصوا أو نتخلص نحن أيضا منكم أبوي! وهو يبتسم تصنعا مشيراً إلينا في لحظاته.

الذكريات في العدلية

دونت للقارئ الكريم بعض الحوادث الطريفة التي حدثت عندما كنت موظفاً بمعية المرحوم علي بك جار الله، وفي الحقيقة أننا قضينا وقتاً لذيذاً، فكنا وزملاءنا وكأننا أسرة عائلية، فكنت أرافق المرحوم علي بك جار الله في سهراته وحفلاته الخاصة، وكم من المرات أضطر على قضاء الليالي فأنام في بيته بعدما ننتهي من سهرة ما، وإني أذكر عندما نمر من الطريق الواقعة بين عمارة المطران الإنكليزية وبيت شاكر أفندي الشاكر الحسيني، ولعدم وجود الإسفلت -آنذاك- في الشوارع، فكان اللاص والأوحال شبيهة بالطحينة، كان رحمه الله ينزعج تماماً عندما تغوص رجلاه في هذه الأوحال، لأنه كان عيوقاً في هندامه، وكنت مراراً، ونحن على جانب عظيم من الحظ، ألقنه بعض النصائح فأقول له "إدعس في المحل الذي يلمع" وعندما يلبي طلبي يجد أن ذلك أدهى وألعن، فتكون الأوحال لزجة ومتكاثفة فيضحك ويقول لي "أبوي غششتني أبوي ولو".

أما الزميل الفريد الزردق فكنا نتهرب أثناء الشغل في المحكمة، ولشدة البرد نتفق ونطلب من صهرنا المرحوم قسطندي عبد النور، بجوار بنك باركلس في يومنا هذا، نطلب منه كأسين من العرق بصفته كان محله حانة مع دكان سمانة. ولكن أين منا أن نتناول هذا الكأس بالسرعة، لأن العم أبو فائز آية في العدل والإنصاف، فيبدأ متسائلاً:

بالدستور ترغبون كاس مفرد أو مزدوج؟

فيجيب الزردق بسرعة لا مزدوج من فضلك. فعندها يباشر العم أبو فايز فيصب الكأس المفرد أولاً ويديره في الكأس الكبير ثم يدير الكرة في الكأس المفرد ويعيد صبه في الكأس الكبير. هذا العمل يكون أمامه داخل المحل ونحن والزردق واقفين نحملق بعيون بعضنا البعض، وهناك نشاهد عصبية الزردق المشهورة، فكان يفرك يديه ويقرع أسنانه ولونه يغمق إلى الاحمرار، ثم يحضر العم أبو فائز صحنين صغيرين كل صحن فيه فستقتان. وبعدما ينظم الصحون والكاسات على الصينية يقدم لنا ذلك على ما يسمونها بالدسكة. فنحن نتناول الكاسات ونشرب بدون ماء وبدون مازة على طول، وندفع الثمن بسرعة فائقة ونخرج من هذه الحانة وكأنها بيت المال في زمن الخليفة عمر بن الخطاب. وهات يا ضحك وتعليقات الزردق إلى أن نرجع إلى المحكمة.

وهناك في الحكمة كانت العادة بيني وبين الزردق أن نتفاهم بالشيفرا . والجدير بالذكر في هذا الصدد أنه قد اتفقنا على تسمية كل منا كما يلي :

واصف حمد واصف كوهين

الزردق محمد كولد شتين

وبقينا أصدقاء ونستعمل هذه الأسماء بيننا في المكاتبة طيلة مدة الانتداب ، ومازلنا ليومنا هذا والصداقة والحمد لله بيننا على أشدها فسقيا لأيامنا ما كان أطيبها .

وفاة المغفور له حسين أفندي الحسيني

فجعنا ويا للأسف ! بوفاة المغفور له ووالدي الثاني حسين أفندي الحسيني ، وذلك في أوائل العام ١٩١٨ على ما أذكر من شهر شباط ، وكانت وفاته إثر نزلة صدرية قوية قضت على روحه الطاهرة ، ولم تقعده أكثر من خمسة أيام من الفراش ، وقد أصابته هذه اللفحة ذات ليلة عندما كان يقوم بمهمته ليلاً بين القدس ورام الله بموجب خطة مرسومة من قبل جبرائيل حداد باشا الذي كان يستند إليه ويثق به منذ أول يوم من احتلال الجيش البريطاني القدس .

وقالت الغلاة حينئذ إن الله ضربه لأنه سلم القدس للكفرة ! هذه الشخصية الفذة النادرة في العرب الذي غضب عليه جمال باشا السفاح[١] وأقاله من رئاسة بلدية القدس ، وعين بدلاً منه أربعة رؤساء لبلدية القدس من الأتراك ، وقد سرق بعضهم أموال صندوق البلدية أثناء الحرب العظمى ، وكان -رحمه الله- من أبرز الوطنيين ، وله إلمام واسع في ضروب السياسة ، وكان يتقن اللغات الإنكليزية ، والفرنسية ، والتركية ، والعربية ، وقليلاً من الروسية واليونانية ، فكان يحل المشاكل لمعظم احتكاكه بالأجانب الذين كانوا يعيشون في مدينة القدس ، ويأتون إليها ، وكانت كل أعماله لصالح الوطن والعروبة والقدس وأهلها ، وإني على يقين بأن حسين أفندي لو تأخر موته لبضعة سنين لكان تغير مجرى السياسة في فلسطين ، تلك السياسة التي رسمتها حكومة الانتداب البريطاني ، فخلقت الأحزاب العديدة ، وأوقعت البغضاء والنفور بين الشعب المسالم ، الأمر الذي أدى بالنهاية لضياع فلسطين .

[١] جمال باشا الكبير قائد الجيش الرابع في الجبهة المصرية والسورية.

علاقتي الشخصية بالمغفور له حسين أفندي

إنني ومنذ حداثتي كنت أشعر بعطفه علي ، فكان -رحمه الله- عندما يصادفني في الشارع ينادي علي في الحال ، فأقبل يده ويعطيني بشلك ، عبارة عن عشرة متاليك من العملة المتداولة زمن الحكم العثماني ، وكنت أرافقه في رحلاته في أملاكه في فصول الصيف تنقل من خربة دير عمرو إلى بيت سوسين وغيرها ، وكأني ولد من أولاده ، وإني أعترف بأن دخولي في المدرسة الوطنية الدستورية التي كان يديرها المربي الكبير خليل السكاكيني كان بواسطته ، ولم يدفع والدي الرسوم ، ثم انتقلت إلى مدرسة المطران وكنت أتعلم على الطريقة ذاتها بواسطته إلى أن أغلقت أبوابها في أوائل سنة ١٩١٤ بسبب



سليم حسين الحسيني آخر رئيس لبلدية القدس في نهاية العهد العثماني، حوالي ١٩١٤.

تصوير: الأمريكان كولوني، مجموعة أريك وإديت ماتــون في مكتبة الكونغرس في واشنطن.

الحرب العظمى. وعندما توفي المرحوم والدي في ٢٢ أيلول سنة ١٩١٤ شملني بعطفه وطيب خاطري، ولم أكن مبالغاً، حين أقول إنه كان في كثير من الأوقات يفصل لي البدلة عند الخياط سلمون المشهور من القماشة نفسها التي كان يفصل له بدلته، خوفاً من إزعاجي داخلياً. وكان هو المشجع لي في تعليمي الآلات والغناء، كما ذكرت كثيراً عنه في هذا الكتاب وكان - رحمه الله - زمن الحرب وبواسطتي لا يتأخر عن سد حاجات المرحومة الوالدة والبيت من مؤن وغيره، ثم وبواسطتي أيضاً يساعد أخي خليل فيرسل له الدراهم إلى بيروت في الجندرمة، وأحيانا دفعة إلى توفيق في الجندرمة [الذي كان يخدم في] فرقة الموسيقى دمشق. وكنت منذ إغلاق أبواب مدرسة المطران الإنكليزية بالقدس أرافقه في حياته عندما كان رئيساً لبلدية القدس، وبعدها في رحلاتنا إلى الكرك عبر البحر الميت، كما هو مذكور في الكتاب الأول من مذكراتي. كان في جميع جولاته ورحلاته لا يحمل الدراهم، بل كنت أنا أحملها وأنا المكلف بشراء ما يتطلب بيته بواسطة زوجته، وإني أؤكد للقارئ أنه لم يطلع يوماً ما على حساب ما أنفقه، بل يدفع لي عندما تخلص النقود من جيبي لهذا الغرض، وذلك من عظم ثقته العمياء في أمانتي. وكنت - والله يشهد - أميناً له ولا أطمع بشيء طالما لم ينقصني - والحمد لله - شيء في هذه الحياة وأنا بمعيته.

وإني أقولها صراحة إنني شعرت حقيقة بأني أصبحت يتيماً بعد وفاته، ولم أشعر بتاتاً باليتم عندما توفي المرحوم والدي الحقيقي، لما كان يعطف علي حسين أفندي آنذاك - وهكذا تأثرت جداً، وكان وقع وفاته علي - والله يعلم - كالصاعقة، ولم أعِ من حولي من شدة الصدمة. ولم يبق لي من بعده معين إلا الله سبحانه وتعالى، وإني أعترف بصراحة أن الفضل وكل الفضل في حياتي من جميع وجوهها يعود له حتى وصلت إلى ما أنا فيه من عيش وشهرة بين المجتمع، ولكن ما العمل؟ كانت هذه مشيئة الله، فلا حول ولا قوة إلا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون.

خلف المرحوم بعد وفاته إخواني الأعزاء سليم وعمر وعلي وهاشم من والدتهم الفاضلة السيدة فاطمة كريمة المرحوم محمد طاهر الخالدي القدس.

تعيين موسى كاظم باشا الحسيني رئيساً لبلدية القدس

وبعد وفاة المغفور له حسين أفندي، عين القائم بالإدارة العسكرية أخوه موسى كاظم باشا الحسيني، وأصبح، وعلى الفور، رئيساً لبلدية القدس، ولكن موسى كاظم باشا كان لا يعرف اللغة الإنكليزية، فكان الأستاذ توفيق فرح من أبناء طائفة الروم العرب سكرتيراً له بصفته ضليعاً باللغة الإنكليزية، وبقي في هذه الوظيفة حتى بعد إقالة موسى كاظم باشا كما سيجيء البحث عنه في حينه من هذا الكتاب.

استقالتي من العدلية

أما أنا فقد أرسلت لي السيدة أم سليم أرملة المغفور له حسين أفندي، وشكت لي ما حدث في الأملاك العائدة للمرحوم زوجها، وكيف أن بعض المزارعين من الفلاحين، وخصوصاً في دير الهوا وبيت جير الذين كانوا من أخلص المخلصين للفقيد

نكثوا العهود واستولوا على بعض الأملاك، وتعدوا على الحدود بصورة وحشية. وقد أقامت وكيلاً عنها أخاها المدعو طاهر الخالدي، واتخذ مقره في خربة دير عمرو، ولكن بالنظر لعدم اطلاعه على حقائق التملك لهذه الممتلكات، سألتني بأن أرافقه بصفتي الشخص الوحيد الذي كان واقفاً على حالة الوضع في زمن الفقيد، فكنت أرافقه في جميع جولاته، ومطلعاً على كثير من المشاكل، وخصوصاً النزاع القائم ما بين الفقيد والمدعو عمر محمود الصالح في قرية بيت جبر المجاورة إلى بيت سوسين. وهكذا، وبكل سرور استقلت من وظيفتي في العدلية، وسافرت إلى دير عمرو لقضاء الواجب، وفي الوقت ذاته وجدت -ويا للأسف- أن الحرش البلوط الذي كان يربيه المرحوم ويعتني به والمعروف بخربة الأكراد يتلاشى رويداً رويداً، لأن طاهر أفندي قطع الأشجار، وعملها فحماً، وذلك لسد حاجات البيت.

مقهى وبار الجوهرية: سهرات مع بديعة مصابني

استقال الأخ خليل من وظيفة الجندرمة السواري صحبة إبراهيم بك بالقدس سنة ١٩١٨، وقد تشارك مع صديقنا جورج بن ميخائيل الحلبي من أبناء طائفة الروم المعروف برجوله، وخصوصاً زمن النهضة الأرثوذكسية التي كان يتزعمها المرحوم جورج زخريا، وقد دخل معهما شريك آخر يدعى حبيب الموندو (أبو سامي)، ففتحوا مقهى وباراً في عمارة الروس عند المدخل الرئيسي الجنوبي الواقع على شارع يافا. هذا المقهى والبار كان عبارة عن أربعة مخازن متسعة الأرجاء، ولها ستة أبواب في الطابق الأرضي، وكان الطابقان الأول والثاني مستعملين من قبل دائرة الاستخبارات البريطانية، وبعض الدوائر الأخرى لحكومة الانتداب آنذاك.

كان الإقبال على هذا المقهى عظيماً من الأهلين على اختلاف طوائفهم وأديانهم، فكنت ترى الزبائن يجلسون على الكراسي الممتدة من أول زاوية عمارة هذا المقهى إلى المنعطف المؤدي إلى طريق أملاك عمائيل ودائرة السفر والمهاجرة أو طريق الكانتورة. وإن اسم مقهى الجوهرية اشتهر بسرعة فائقة لما كان الأخ خليل عليه من ذوق رفيع في تنظيم وعمل المازة وغيرها، التي تتعلق بشرب الكاس. فقد جاءنا بأساليب مغرية اقتبسها من بيروت عندما كان في جندية الجندرمة زمن الحكم العثماني، فكنت ترى كاس العرق ومن حوله في صينية خاصة مجموعة من مختلف الصحون الصغيرة المتناسبة، وفيها ألوان المازة الشهية مع كاس من الماء المثلج تقدم بواسطة الجرسون إلى الزبون بكل ترحاب، وقد كان هذا مفهوماً في القدس، ثم لا تنسى ما للأخ خليل وتوفيق، وعلى الأخص أنا، من معارف وأصدقاء بالنسبة لفن الموسيقى، فقد هرعوا على هذا المقهى وواظبوا عليه، فكنا نقضي أياماً بل ليالٍ داخله بكل سرور، ولنا فيه ذكريات جميلة.

أذكر سهرنا والفنانة بديعة مصابني داخل المقهى بعدما أحكمنا إغلاق أبوابه من الداخل، فكانت ليلة نادرة ضمت الكثيرين من أبناء القدس المعروفين آنذاك أمثال تحسين الخالدي، وداود الفتياني، ورشدي المهتدي، والشيخ نزال أبو السعود، ومحمد يوسف الخالدي القاضي، وفوزي درويش وغيرهم. والجدير بالذكر أن الخوري سوتيري حنانيا كان من بين الحضور، وإني أحتفظ بصورة تذكارية لهذا الجمع داخل المجموعة الجوهرية تظهر ما للخوري حنانيا عليه من طرب وسرور، وقد شلح من على رأسه القلوسة فوضعها على الطاولة بجانبه.



موسى كاظم الحسيني أول رئيس لبلدية القدس في العهد البريطاني.

المصور غير معروف. المجموعة الجوهرية.



بديعة مصابني.

ثمة ليال وأوقات جميلة ونادرة ضمت المرحوم المطرب الشهير الشيخ أحمد الطريفي ، وكذلك محمد العاشق المطرب المعروف ، وأبو حسين السوسي عازف القانون الممتاز ، والمطرب الذائع الصيت زكي أفندي مراد وغيرهم. كانت أياماً وليالي يعجز المرء عن ذكرها ، لأن الجميع أصبح بعدما تخلص نهائياً من كابوس الأتراك حراً وكأنه مولود جديد يأكل ويشرب ويصرف ويبذر أمواله بدون حساب ، وقد تحسنت حالة البلاد اقتصادياً بعد الاحتلال البريطاني مباشرة.

كانت وظيفتي من بعد ظهر كل يوم مراقبة حساب البلياردو ، فكان في هذا المقهى ثلاث بلياردات في إحدى غرفه الداخلية ، وكان الماهرون في هذه اللعبة الملوكية ؛ أمثال المرحوم نصري عروم ، وعيسى مرقص ، ومريوسي بيكاري ، وفرنسيس الآوي ، وغيرهم ، لا يفارقون المقهى. وقد ربح الأخ خليل وشركاؤه الأموال الطائلة ، ولكن لم يدخروا من هذه الأرباح شيئاً ، لما كانوا عليه من صرف وإسراف.

الحلبي وقميع

بمناسبة مقهى الجوهرية وجورج ميخائيل الحلبي أحد الشركاء أذكر الحادث الطريف الآتي :

كان العم أبو ميخائيل عصبي المزاج ويعتبر من قبضايات ذلك العصر ، وكان مشهوراً بحسن هندامه ولباسه العربي الممتاز.

وكان محي الدين قميع مباشراً في المحكمة ومعروفاً بالسخرية والفكاهة ، وله جملة فصول في هذا الباب ، وهو من تلاميذ الأستاذ الأكبر الزردق.

وقد صادف أن العم أبو ميخائيل قلقت أفكاره بدعوى مقامة ضده وشركاه من قبل المفوض الروسي بصفته المالك لعمارة المقهى المذكور ، فقد مضت أيام لم ينقطع العم أبو ميخائيل فيها عن مراجعة المحاكم في دائرة العدلية ، وكان بالطبع يجتمع مع أخينا محي الدين قميع بصفة مباشرة ، ويأخذ منه بعض الأخبار بخصوص القضية المذكورة ، ومقابل ذلك يعطف العم أبو ميخائيل فيقدم له المشروب في المقهى بدون ثمن. وقد حدث أن مر محي الدين قميع عن المقهى ذات صباح يوم باكر ، فوجد الفلاحة التي كانت تقوم بغسل بلاط المقهى فسألها عن العم أبو ميخائيل فأجابته بأنه لم يزل نائماً. وهكذا اغتنم قميع فرصة نيامه فبلغ الفلاحة بأن تخبر العم أبو ميخائيل بأن حاكم المركزية يرغب في مواجهة من كل بد وعلى وجه السرعة ، وإلا سيخسر القضية ، فذهبت بعدما ذهب قميع تواً إلى غرفة أبو ميخائيل وبلغته الكيفية تماماً.

سألها العم أبو ميخائيل من كان هذا الموظف ، أجابت لا أعرفه. زأر وغضب وعربد العم أبو ميخائيل ولبس ثيابه وذهب إلى العدلية مستفسراً من جميع الموظفين والمباشرين فلم يجد شيئاً بحقه البتة ، وقد أكدوا له أنه لم يوجد أني من الحكام في القيود يطلبون العم أبو ميخائيل. رجع العم أبو ميخائيل ، ولكن بالنسبة لجهله وكان أسياً لم يهدئ روعه ، وبقي مكبوتاً لمدة أربعة أيام ليس له موضوع سوى هذا الموضوع يتساءل بنفسه "يا ترى مين الذي حضر إلى المقهى؟" وهل يجوز أن يكون كذباً؟ لا ، لا يمكن ، لا بد أنه يوجد شيء ضدنا والخوف كل الخوف من طردنا من هذا المحل إلى ما هنالك من أفكار سخيفة.

وكما قال المثل حبل الكذب قصير ، فقد جاء الشيخ نزار أبو السعود وطمأن أفكار العم أبـو ميخائيل بأنه لا خوف البتّة فالحادث كان مقلباً . من المضحـك أن محي الدين قميع يريد به المزاح مع العم أبو ميخائيل ليس إلا . وزاد العم أبو ميخائيل غيظاً وعزم على الانتقام من قميع ، يحلف ويقسم بأغلظ الإيمان لكل من الزبائن أنه سيعمل وسيعمل في ابن الكلب قميع كذا وكذا ، ولم يعد قميع يعرج على المقهى لشدة خوفه من أبي ميخائيل .

ففي ذات بعد ظهر يوم من أيام الأحد عندما كان المقهى يؤم بالزبائن الذين وصلت مقاعدهم من أول المقهى من الخارج وعلى الشارع إلى المنعطف المؤدي إلى طريق دائرة السفر والمهاجرة ، وقد قام العم أبـو ميخائيل من القيلولة ووجهه يتدفق دماً من سكرة الظهيرة . قام في سرواله الأبيض الذي كان يلبسه عادة من تحت القنباز القباني يمشي مختالاً داخل المقهى وكأنه أشبه بالطاووس ، وكان لم يزل حافياً وحاسر الرأس إلى أن وصل باباً من أبواب المقهى المشرف على شارع يافا ، إذ رأى قميع راكباً الحمار الأبيض وكان يخص الحاكم [. . .][1] اليهودي . فعندما رآه جن جنونه ، ولأجل الأخذ بالثأر خطف عصا (الباكور الحلب) من أحد الزبائن ، وكان المرحوم صليبا الأجرب ، وخرج على هذه الصورة يلحق بالحمار يشتم الشتائم الغليظة لقميع . ولكن أين له أن يلحق بالحمار الذي كان يركبه قميع .

والجدير بالذكر أن قميع كان يلتفت إليه ويقول "أيوه هيك سوق يلعن أبو اللي يشغلك عنده مكاري" بأعلى صوته ، فيشتد العم أبو ميخائيل غيظاً ويزيد احمرار وجهه ويركض وهو حافٍ وحاسر الرأس وفي السروال المختص للبيت فقط ، يركض في شارع يافا إلى أن وصل قريباً من منتزه البلدية ، فلم يفلح ورجع مكسوفاً على مشهد من الزبائن والمارين في ذلك اليوم والجميع يضحك بأعلى صوته على قيافة العم أبو ميخائيل المشحنة ، ذلك الرجل المشهور بحسن هندامه ووقاره . رجع العم أبو ميخائيل ودخل المقهى وطرح بنفسه على سريره مريضاً لمدة ثلاثة أيام . إلى أن تدخلت شخصيات لها وزنها وقيمتها بالأمر ، فجاؤوا بقميع وقبل أيادي العم أبو ميخائيل معتذراً ، فسامحه وأصبح هذا الحادث ذكرى بين أبناء القدس نذكره بكل سرور ليومنا هذا .

راغب بك والعود

كانت معرفتي براغب بك النشاشيبي[2] منذ حداثتي ، فقد اجتمعت به مراراً زمن الحكم العثماني في كثير من المناسبات عندما كان مبعوثا عن القدس.[3] وزادت هذه المعرفة بعد الاحتلال البريطاني ، فكان راغب بك لما عرف منه من كرم وبذخ وميل للطرب والمسرات كان يقضي أيامه في بيت خليلته ، التي أصبحت زوجته فيما بعد اليهودية أم منصور وإخوانه . كانت يهودية فرنسية أعد لها راغب بك منزلاً في الدار الثانية عند دخولك الزقاق الواقع على جهة يدك اليسرى من شارع الكانتورا ، أو شارع دائرة المهاجرة والسفر ، الذي أصبح بعد الاحتلال ملك التكجي اليوناني . فكان راغب بك بدون عمل ما ، وله حنطور عربة صغيرة تعرف (بالتك) يجرها حصان إنكليزي واحد فقط ويسوقها راغب بك بنفسه بأبهة وكبرياء .

[1] [ ] : ناقص في الأصل.

[2] راغب بك النشاشيبي: لاحقاً رئيس بلدية القدس ومن قادة حزب الدفاع.

[3] في مجلس النواب العثماني.

كان راغب بك يرتاح لسماع العزف على العود ويعجب كل الإعجاب من طريق أدائي الغناء العربي، خصوصاً التواشيح الأندلسية، وكان في كثير من الأحيان في اجتماعاتنا يغني بصوته الجهور بعض القصائد القديمة، وأخصها فتكات لحظك أم سيعرف أبيك مسجلة على اسطوانة من المرحوم الشيخ يوسف المنيلاوي، وإني أذكر أن راغب بك كان يزيد على ما كان مسجلاً من هذه القصيدة بيتين أخذتهما منه وصرت أغنيها كما يشاء هو وهما :

تـالله مـا بـأكـفهـم كـحـلـوك ... جـعـلـوا الـكـحـل فـي عـيـونـك كـحـلـة

فـلـو عـثـروا بـطـيـف طـارق ظـنـوك ... مـنـعـوك مـن سـنـة الـكـرى وسـروا

وهكذا طلب راغب بك مني أن أعلمه على عزف العود فلبيت طلبه، وكنا نجتمع معه في بيت أم منصور الذي لم أكن مبالغاً إذا قلت إنه لم يكن يدخل إلى بيتها أحد، فكنا نقضي الساعات الطوال نشرب العرق ونتناول الغداء ونقضي القيلولة ثم نعود ونعلم العزف ونتعلم الغناء، فأنا أغني له ما طلب، وهو في دوره يغني وبعدها نركب في العربة، ومراراً نذهب فيها إلى قالونية، وعين كارم، وهكذا. والويل ثم الويل إذا تأخرت عنه يوماً واحداً فيجيء فجأة في عربته الخاصة إلى مقهى الجوهرية يسأل عني أين واصف؟ وين راح هالملعون؟ ويقف وإلى أن يجدوني في محل ما فيصحبني إلى دار سروره، وبقينا على هذا الحال إلى أن عين رئيساً لبلدية القدس بعد استقالة موسى كاظم باشا الحسيني، كما سيجيء البحث عنه في هذا الكتاب.

وظيفتي في دائرة الريجي

كان راغب بك اجتماعياً من الطراز الأول، يصنع لنفسه مقاماً عالياً بين جميع الأوساط من البشر، فقد أخذ حب وتقدير الموظفين وأفراد الشعب في الحكم العثماني، وأصبح نفوذه لامعاً في جميع الجهات، خصوصاً بعد ما كان مبعوثاً في الآستانة عن قضاء القدس. فعندما كنت أعلمه على العزف على العود -كما ذكرت أعلاه- أخذني ذات يوم إلى دائرة الريجي، وكانت بجوار أملاك حسن بك الترجمان على الطريق المؤدية إلى محلة الشيخ جراح وطريق محلة مياشعاريم بالقدس مقابل المستشفى الإيطالي. دخلنا دائرة الريجي فاستقبلنا رئيسها المدعو فريد بك صوايا من أهالي لبنان على ما أذكر، ومن أصدقاء راغب بك. وبعدما شربنا القهوة وتبادلا الأحاديث والذكريات، قال راغب بك إلى الرئيس "هل تعرف من هو هذا الشاب؟" مشيرا له بيده إلي، قال الرئيس: لا من هو، أجاب راغب بك ابن المرحوم صديقنا الجوهرية. تبسم الرئيس وفهمت من ملامح وجهه أنه كان يعرف المرحوم والدي. ثم تكلم راغب بك عني وعن أخلاقي وميولي لفن الموسيقى، وأخيراً قال أريد يا نجيب[1] منك أن تعينه موظفاً في إدارتك. أجاب الرئيس طبعاً أمرك يا بيك، وسجل اسمي في الحال براتب قدره عشرون جنيهاً مصرياً، ثم قال راغب بك ولكن اعلم أن واصف يكون موظفاً عندك ويعمل عندي. فتبسم نجيب بك وضحك وقال كمان أمرك.



راغب النشاشيبي.
المصور غير معروف، من مجموعة مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت.

[1] من غير الواضح إذا ما كان اسم رئيس دائرة الريجي هو فريد ام نجيب. حيث يذكره واصف قبل بضعة اسطر باسم فريد.

وهكذا كنت عند أول الشهر أذهب فقط لدائرة الريجي وأقبض راتبي ليس إلا ، وبقيت على هذا الحال مدة تسعة شهور إلى أن تعينت في دائرة حاكم القدس العسكري. وهذه لمحة من أعمال راغب بك النشاشيبي النادرة ومثلها كثير رحمه الله .

ليالي مشكينوت السبت

ذكرت صديقي ومعلمي العزف على العود المدعو حمادة العفيفي ، ذكرته في كثير من فصول هذا الكتاب زمن الحكم العثماني ، فكان أول من علمني العزف على العود زمن المرحوم والدي. ومنها يتضح للقارئ أنني كنت منذ حداثتي لا أنقطع عن مجالس الأنس وليالي الصفا التي كانت تجمعني مع العم أبو فؤاد ، ومنه اقتبست كثيراً من فن الموسيقى الرفيع ، وكان رحمه الله ، وخصوصاً عندما أصبحت في سن الشباب يأنس من وجودي ، فيأخذني وإياه ويعرفني بأعز أصدقائه المحبين إليه ، وكنت أقضي ليالي معه في بيت عائلة الكروز الواقع في شارع سانت جوليان ، ومن بين هذه الليالي أذكر للقارئ الحادثة الطريفة الآتية :

> جاءني العم أبو فؤاد وقال لي ذات يوم حضر عودك يا واصف لنقضي سهرة طويلة ، وربما طول الليل في كومبانية مشكينوت في بيت صاحبتنا رينا ، وكنت أعرفها جيداً. قلت لبيك يا أبو فؤاد ، فذهبت. وأذكر أنه كان مساء السبت ، فأخذت عودي وودعت المرحومة الوالدة التي أعطتني قميص النوم وغيره من ثياب النوم على أمل أن نقضي يومين في خربة دير عمرو. قبلت يديها وذهبت ومعي مصطفى علي النشاشيبي حاملاً العود إلى أن وصلنا دار المحروسة رينا ، فوجدناه غاصاً بالضيوف وأكثرهم من الآنسات والسيدات اليهوديات اللواتي من مجتمع ذلك الحي ، وكان الجميع ينتظرون حضورنا بفارغ الصبر .

بدأنا في دوزان العود فعزفنا ما طاب لنا وشربنا نخب السيدة رينا ، وخصوصاً السيدة سلطانة وكانت آنسة مغربية يهودية تحسن الغناء البسيط الشعبي وترقص أحياناً . وقد طابت ليلتنا والكل أصبح يهتز طرباً إلى مطلع الفجر ، فذهب الغرباء وبقينا نحن في ذلك البيت - بيت الأمة- على الرحب والسعة ، ومصطفى النشاشيبي يقوم بمساعدة رينا مساعدة عائلية ، يشتري الغذاء والمشروب ويحضره إلى البيت ، ثم يساعدها في الطهي وتنظيم آلات المازة والكووس ، وبقينا على هذا الحال ننام إما ليلاً أو نهاراً ، أي عندما تسمح لنا الظروف في الراحة ، ونعود إلى العزف والغناء والشرب وهكذا . والجيران الكثيرون من تلك المحلة يحضرون ويشاركوننا في الغناء والرقص إلى أن قضينا أسبوعاً كاملاً ، والله يشهد في تلك الدار .
بدأنا مساء السبت وودعنا رينا وسلطانه في صبيحة نهار الجمعة ، وذهبت والعم أبا فؤاد لسيدتنا الوالدة أم ميشيل كاروز ، فقضينا نهار الجمعة بكامله هناك ، فرجعت البيت في مساء الجمعة ربما الساعة الحادية عشرة. استقبلتني الوالدة فقالت - رحمها الله- "شو هالغيبة يا واصف؟ يقطع دير عمرو واللي فيها . قطيعة كنت قلت لي يومين بشوف صاروا جمعة" ،

ثم لفت نظرها حسن هندامي وقميصي المكوي في ذلك اليوم من ربنا ، وقالت "ولك هذا مش لباس دير عمرو" . أجبتها وأنا على جانب من الحظ ياما "إنت بتفكري دير عمرو مثل من زمان؟ أصبحت دير عمرو أبهة بعد دخول الإنكليز" .
الوالدة : طبعاً وقميصك المكوي شغل حليمة؟ ها الله يرضى عليك . وكانت حليمة هذه من خدم المرحوم حسين أفندي ومعروفة لدينا جميعا .

سهرة مونتفيوري ونوغيم بنوغيم

كان الخواجة سلمون اليهودي من أبرز خياطي مدينة القدس منذ الحكم العثماني ، وكان وجهاء المدينة وعلى رأسهم حسين أفندي رئيس البلدية من زبائن الخواجة سلمون الذي كان يأخذ ستين فرنكاً ثمن خياطة البدلة ، أي ثلاث ليرات فرنساوي آنذاك ، وكان أستاذي حمادة العفيفي بصفته رئيس كتبة دائرة البلدية صديقاً له ولعائلته . وقد صادف أن الخواجة سلمون دعا موظفي البلدية لبيته ، وكنت أنا وأخي توفيق من المدعوين ، وقمنا برئاسة العم أبو فؤاد بما تتطلب تلك الليلة النادرة من العزف والغناء إلى مطلع الفجر ، وقد تجلى فيها كرم الخواجة سلمون ، فكنت ترى جميع أنواع الكيردا والسردين والبيض وكله كشير[1] على مائدة المشروب ، وقد ضمت ليلة الأنس هذه نخبة من حواسن وفاتنات القوميانية اليهود ، وكان البعض منهم يتفهم ويتذوق الغناء العربي ويكرهون الغناء الغربي .

[1] كشير: خاضع لقوانين الحلال في الطبخ اليهودي.

وقد صادف أن شاباً يهودياً أشكنازياً من معارف الخواجة سلمون اتفق مع بعض الآنسات وطلبوا منا الاستماع إلى أغنية عربية ، وقد لاقى طلبهم هذا إقبالاً ورضاء من الجميع لما كنا عليه من حظ وطرب ، وكنا شلة فريدة من نوعها أمثال : راغب العفيفي ، وفخري النشاشيبي ، وعبد اللطيف النشاشيبي ، وتوفيق مراد ، وشكيب النشاشيبي ، وفخري بك عاصم ، وتحسين الخالدي ، وفوزي درويش وغيرهم من أبناء القدس .
جلس الشاب مردخاي على المائدة وفي يديه شوك المازة كان يضرب فيها على قنينة فارغة لضبط الإيقاع ، ومن حوله الآنسات السكاج ، وبدأوا في غنائهم العربي والعياذ بالله فسمعنا :

نوغيم بنوغيم	(سولو من صوت مردخاي الخشن)
غاغيخون	(الكوراس ترد الفرقة)
وغقه بنوغيم	(مردخاي)
غاغيخون	(الكوراس)
شغشه بنوغيم	(مردخاي)
غاغيخون	(الكوراس)

ولكن لا أحد منا مع الأسف فهم كلمة من هذه الأغنية المطربة ، وقلنا ربما تكون من (التواشيح الأشكازية) . والجدير بالذكر أنني كنت أعزف مع هذه الفرقة العود وأترجم اللحن على قدر الإمكان . وإذ صاح العم أبو فؤاد وقال ولك يا

واصف بعدك مش فاهم هذه الأغنية؟ أجنبية لا، والله عرص اللي فاهم، فقال: هم بيغنوا ناعم ناعم هالريحان، ورقه ناعم هالريحان، شرشه ناعم هالريحان.

وهات يا ضحك وقد أصبحت هذه الأغنية فاتحة السهرة في ليالينا، فكنت أقلد ما أكتبه من مطرب مونتفيوري الشهير تماماً كما كان يؤديها، وكانت - والحق يقال - ليلة من ليالينا الممتازة، وقبل نشر وعد بلفور المشؤوم والحمد لله.

من طلب العلا سهر الليالي

إنني لم أزل أذكر هذا الحادث الطريف ما بيني وبين المرحومة الوالدة في دار الجوهرية محلة السعدية، وما كنت عليه من هوى ولهو وحظ. عندما كنت أسهر مع الأصدقاء كنت أتخذ اصطلاحاً خاصاً، فأقول "أنا ماسك عيش عند فلان الليلة"، وهكذا قول إنني كنت ماسك عيش في سهرة في دار وقف النشاشيبي - عقبة المفتي بالقدس، وكان القائم في هذه الحفلة نسيبه الأخ أبو نعمان شريك الصديق مصطفى الهندي في دكان النقرشة بسويقة علون. كانت هذه الدار بإيجار الأخ أبي نعمان وفيها كرياكي اليونانية خليلته الخاصة، وقد ضمت هذه السهرة نخبة من الأصدقاء المعروفين أمثال: أحمد جاموس، وفوزي خليل درويش، وأحمد طوطح وإخوانه، وتحسين الخالدي، وراغب العفيفي، ومنير درويش، ويوسف درويش، ونعمان عقل، وأبو خليل العسلي، وغيرهم. وقد أخذ الحظ منا فسكرنا وطربنا، الأمر الذي أدى بنا إلى:

وضعنا طاولة ومن فوقها طاولة أصغر ومن فوقها أسكملة قوية، وصعدت على أعلاها، ومسكت بحلقة قبة ذلك البيت إلى أن وازنت نفسي فتناولت العود وبدأت أعزف عليه، وأنا واقف في أعلى البيت وأغني الأغنية الشعبية التي جاء لنا بها الجنود المصريون عند الاحتلال ومطلعها (يا عزيز عيني أنا عايز أروح بلدي) وجميع من في السهرة بما فيها الحسناء كرياكي ذات العيون السود وبعض صديقاتها يرددون ترديدة هذه الأغنية، فتصور هذا المنظر المضحك، بل قل المطرب.

أذكر أنني تركت السهرة في الساعة الثانية والنصف، ودخلت إيوان دار والدي وأنا على جانب عظيم من الحظ، فوجدت طنجرة محشي الباذنجان البتيري ملفوفة بحرام صوفي، كما كانت عادة المرحومة الوالدة تنظمها لنا لكي يكون الطبيخ ساخناً عندما يجيء أحد منا متأخراً. فتحت غطاء الطنجرة ومسكت بمحشية وبدأت آكلها باشتهاء زائد، وإذ خرجت المرحومة الوالدة من غرفة نومها إلى الإيوان وقالت:

أديش الساعة يا واصف؟

أنا الساعة ياما الثامنة والنصف كنت عند أختي عفيفة وهي بتسلم عليك.

الوالدة ثمانية ونصف ولك استحي على حالك بتفكر أنا نايمة؟ هالقيت دقت ساعة دير اللاتين الثانية والنصف بعد منتصف الليل يا مسخم ولك بس سهر، قطيعة يسوس عظمك من السهر وأنت لم تزل صغيراً إلى ما هنالك من إرشادات ونصائح وعبر ما لها نهاية.

- بتعرفيش ياما شو قالوا العرب؟

- شو قالوا ولك؟

- قالوا العرب "من طلب العلا سهر الليالي"، وقد بدأت بتناول الحشية الثانية من الطنجرة وبدأت أبتسم في قرارة نفسي خوفاً من ملاحظتها.

- ولك يا حزين هذا المثل قالوه للشخص اللي بيقرأ وبكتب مش للي مثلك على العود والعمات والخالات. ورجعت غاضبة إلى فراشها.

الصديق فهيم نسيبه

كان أبا نعمان فاكهة أبناء القدس وأوقف نفسه على اللهو وشم الهواء كما يقولون. كان فيهماً قصير القامة أشقر اللون وعيونه زرقاء شهل لا يستطيع فتحهما في الشمس، وهكذا كان ملقباً بفهيم الفوكس، وكان -رحمه الله- مشهوراً في ضحكته النادرة المضحكة، فكان يتلاعب فيها فتخرج من فمه ولها ألحان موسيقية حتى أصبحت تعرف بضحكة فهيم، وهكذا لا يستطيع المرء عندما يرى منظره -كما وصفت أعلاه ويستمع إلى ضحكته- إلا أن يتجاوب ويغشى على نفسه من الضحك، وكان سريع النكتة البديهية، وله منها الكثير. ونحن أبناء القدس في عصر أول القرن العشرين نذكر ما يفهم من حوادث ضاحكة، وخصوصاً عندما كان يجلس بجانب خيمة الحاج محمود الكراكوزاتي في أول مقعد منذ أول ليلة شهر رمضان لنهاية الشهر، ويحلق في حركات الحاج محمود وهو يؤدي تمثيليات كراكوز وعواظ. وكان في مجالس الأنس والجميع يشربون كؤوس الخمر على اختلاف أنواعه، يجلس أبو نعمان بيننا ولم يذق الكحول طيلة حياته، بل كان يضع قنينة كازوز ولونها أحمر، ويصب منها قليلاً في كاس العرق ويشرب وكأنه يشرب خمراً ويسكر بدون ندام، ليس لشيء سوى لكي يضحك الحضور ويجاملهم.

وقد صادف أنه في إحدى الليالي وما كا عليه من حظ، قد شلح أبو نعمان ملابسه من مرة إلا اللباس، وكت ترى كرشه وكأنه المرأة الحبلى من كثرة ما شرب الكازوز، كما كان كل واحد منا يطلب منه أن يشرب، وهكذا شرب أكثر من ١٧ قنينة من الكازوز، وأصبح وكأنه سكران حقيقي.

وعندما كانت جيوش الأتراك على وشك تركها القدس، وكانت ضاربة خيامها حول المدينة، وعلى الأخص مقابل جامع الشيخ جراح، وقد صادف أن فهيم عثرت رجله في أسلاك التلفون الممدودة في تلك المنطقة ما بين خيام ضباط الجيش، فما كان منه إذ قطع سلك التلفون هذا العائد لمخابرات الجيش الحربية، وخصوصا في تلك الفترة الخطيرة، ولف ما أمكن لفه على يده وأخذه كي تستعمله شقيقته حبلاً للغسيل، وكان يسكن وأخته العزباء في تلك المحلة. وقد شاء القدر، فعرف الجيش فمسكه الجند وكبلوه بالحديد وأخذوه من خيمة ضابط إلى خيمة أخرى بعد تعطل الهاتف بين الجيش، وكان كلما دخل فهيم على خيمة ما، ومعه الحرس الذين كانوا تبلغون رئيس الخيمة بالحادث، فيقولون له بالتركية: "بو تلفون كستي"، أي هذا هو الذي قطع سلك التلفون، وعندها تقوم قيامة ذلك الضابط من شدة غيظه، ويقول "تلفون كستي" وينزل بفهيم ضرباً أليماً وهكذا إلى أن دار فهيم على جميع الخيام، وكان ضباطها يؤاجرون فيه، فهذا يضربه بجزمته، والآخر يصفعه على وجهه، إلى أن أخذوه وسجنوه وكان مغشياً عليه.

وكانت هذه الحادثة التمثيلية الأولية لصديقنا أبي نعمان في كل سهرة يكون فيها فيبدأ أبو نعمان ويقص الحادث، وعندما يصل إلى جمعة من الضباط الأتراك يضرب هو بنفسه على رقبته بكفه بكل قوة، ويتألم جداً ليس لشيء سوى كي يضحك الحضور رحمه الله.

وإني أذكر أن أبا نعمان عندما كنا في شطحة في قرية قالونية كانت تضم فروسو زهران، وإبراهيم العملي، ومصطفى الجبشة، ومصطفى السرية الموقت، وعبد القادر العلمي، حكم علينا فأكلنا زهر المنثور[1] على وجه صينية مقلوبة، فأكلنا وكلنا على جانب عظيم من الحظ، وكانت أكلة شهية ابتكار أبي نعمان، فسقيا لتلك الأيام.

[1] القرنبيط.

وقد شطحت وسهرت في قرية قالونية وقضينا أوقاتاً جميلة لما لعائلة نسيبة الكريمة من أملاك هناك، فكان المرحوم حافظ نسيبة ثم فؤاد ابن محي الدين نسيبة المعروف بأبي أحمد، وكذلك المرحوم أديب نسيبة شقيق فهيم المذكور، وقضينا فصل صيف سنة ١٩١٢ مع المرحوم والدي في دار ملك المرحوم رباح أفندي الحسيني المشرفة على عين ماء قالونية العليا بجوار دار المرحوم سعيد أفندي الحسيني، ولنا في هذه القرية الجميلة، وخصوصاً بستان الرمان الواقع على عين الماء السفلى، والتابع للمقهى الذي تملكه عائلة نقولا اليوناني، ولم يكن فهيم نسيبة ينقطع عنا، ويطربنا من أحاديثه المضحكة.

عزفي آلة الكمان

بعد تركي دائرة العدلية قمت بواجب ملاحظة أشغال[2] تركة المغفور له حسين أفندي في دير عمرو مع طاهر أفندي الخالدي خير قيام، وقضيت فصل صيف سنة ١٩١٨ هناك، والجدير بالذكر أنني اغتنمت فرصة هذه الغربة، فأخذت آلة كمان معي وتدربت على العزف عليها وحدي، وذلك لما كنت أحفظه في دماغي من أغان ودواليب وبشارف وقطع موسيقية على العود، وعلى الأخص التواشيح الأندلسية، فقد طبقت كل ما أعرفه على الكمان، وأصبحت قادراً على العزف بصورة منتظمة، وهكذا رجعت القدس فأعزف الكمان كثيراً في السهرات والاحتفالات، زيادة على عزفي العود والرباب والطنبورة.

[2] ملاحظة أشغال: الإشراف على أملاك الحسيني ومحاصيل القرية الزراعية.

جزء فوضى من حياتي

بعد وفاة المغفور له حسين أفندي بصفته الوالد الثاني، لم يعد لي أحد يرشدني في هذه الحياة، ونظراً لميلي الفطري للموسيقى التي احتازت أكبر قسم من حياتي، وبعدما أنهيت واجبي في خربة دير عمر، كما وعدت حرم حسين أفندي السيدة أم سليم، أصبحت متشرداً في هذه الحياة بصورة أعتبرها بكل تأكيد فوضى، فكنت أقضي معظم أوقاتي إن كان ليلاً أو نهاراً وأنا في حالة غيبوبة من الحظ المتواصل، فمن سهرة للصباح، ثم نوم في النهار، وبعده سهرة متصلة بشطحة في إحدى القرى من قضاء القدس، ولم أكترث بأي أحد ولا مسؤولية ما، ولا أذهب لبيت والدتي إلا لتغيير هدومي ليس إلا. فأنام في بيت الأصدقاء والخلان، وهكذا إلى أن تعب جسمي وأنهكه السهر والسكر، فتارة أكون في سهرة في محلة باب حطه، وعند الصباح أكون في شطحة ضمت أرقى العائلات وأعيان القدس، ثم جلسة خاصة في بيت من زوايا القدس مع من يدعوهم القبضايات أو الزعران، ولم أذهب حتى إلى مقهى الجوهرية إلا قليلاً، فهذا الدور لن أنساه أبداً ما دمت حياً، وكنت أصرف ما يلزمني من لباس فقط من راتبي المخصص لي من دائرة الريجي بواسطة راغب بك النشاشيبي.

مفوض عن دائرة البلدية بوظيفة مفتش باج

فقدني سيدي موسى كاظم باشا الحسيني وهو رئيس لبلدية القدس، وبعث إلي بالمرحوم عارف النمري أحد شاويشية البلدية يطلبني. امتثلت لأمره، فواجهته في دائرة البلدية الواقعة مقام باب الخليل، فعاتبني على غيابي هذا وعدم الاتصال به منذ وفاة المغفور له حسين أفندي، وسألني عن أحوالي والعائلة، وخصوصاً الوالدة، فأجبت ما كنا عليه من حال وأحوال. ثم عينني بوظيفة مفتش باج بمبلغ وقدره أربعة وعشرون جنيهاً مصرياً لمدة مؤقتة لحين يصدر القرار بتضمين هذه الوظيفة كما كانت العادة آنذاك.

قبلت يديه وشكرته واستلمت الوظيفة بواسطة المرحوم عبد القادر أفندي العفيفي الذي عرفني بها وسلمني دفتر وصولات وهي:

> مراقبة الحيوانات التي تباع من شخص إلى آخر بالقدس، وخصوصاً في صباح أيام الجمعة من كل أسبوع في سوق الجمعة المعروف، والواقع بجانب بركة السلطان بالقدس، وقد أوصى بي المرحوم مصطفى الكرد المعروف بأبي درويش الخبير في هذا الفن الرفيع.

قال لي العم أبو درويش "أنت لا يهمك ولا تعمل شي!! بس أقعد على القهوة واشرب الأركيلة وأنا أقوم بكل ما يلزم وأسلمك الفلوس بموجب الوصولات يومياً"... اتفقنا وقمنا في هذه الوظيفة التي كانت عبارة عن مقعد في مقهى المعارف مع الأصدقاء نشرب الأركيلة لغاية العاشرة أو الحادية عشرة صباحاً، فعندما يحضر العم أبو درويش ويتربع على كرسيه

ويشرب الأركيلة أول نفس وثاني وثالث يمد يده على شداده العجمي فيعطيني مبلغ خمس جنيهات مصرية قائلا "خد يا واصف أفندي . . . هذا لك مصروف . . . ثم يدفع لي مبلغاً آخر بموجب وصل موقع بإمضاء أسلمه لدائرة البلدية".

وبقينا والعم أبو درويش الذي كان يتحف الحضور بحديثه العذب والفكه مدة ما تقرب من الشهرين والنصف . . . فسقيا لتلك الأيام ما كان أطيبها . . . وكنت أصطحب العم أبو درويش معي في بعض السهرات، وخصوصاً في قومبانية المونتفيوري،[1] وكانت تضم نخبة من أولاد القدس أمثال يوسف ودرويش وحسن وفهمي ورشيد الدقاق وكامل عويضة ومحي الدين زمرد وغيرهم.

[1] المونتفيوري: حي يهودي حديث أنشاه مونتفيوري العام ١٨٦٠ خارج أسوار المدينة مقابل باب الخليل. يعرف أيضاً باسم يمين موشيه.

العم أبو درويش المعروف بالخلوطة والمرحوم أبو شاكر آغا

كان العم أبو درويش الملقب بالخلوطة من أشهر [خبراء الخيل في القدس ومن معارف] المرحوم أبو شاكر. وعلى ذكر أبو شاكر كان اسمه يعقوب أبو شاكر، وعرف بملك العربات بالقدس، فهو كان يملك عربات وخيل مدينة القدس، ويؤجرها إلى السياح الذين كانوا يزورون الشرق بواسطة شركات السفر أمثال كوك الإنكليزي، وكلارك الأميركاني، وفلويت الألماني. وبمساعي أبو شاكر دخل غليوم إمبراطور ألمانيا القدس، وكان يتجول في البلاد هو وحاشيته في عربات أبو شاكر، وبعد رحلة الإمبراطور حاز أبو شاكر على لقب آغا.

كان العم أبو شاكر من أغنياء القدس ومن أشهر ملاكي العقارات غير المنقولة، وخصوصاً في حي مأمن الله، وكان سبباً في غناء عائلة المرحوم عارف عويضة في هذه المحلة. ولكن إسراف العم أبو شاكر العجيب على اللهو والشرب والنساء أودى به إلى المهالك، فأصبح في كبره فقيراً محتاجاً تعطف عليه أعيان المدينة، وإني أذكر بكل أسف أن هذا الشخص اضطر أن يقف بوظيفة الملاحظة على زبالين المدينة زمن المغفور له حسين أفندي الحسيني عندما كان رئيساً لبلدية القدس، وقد طبق على أبي شاكر المثل العامي المعروف "من فرط أصبح ظرط . . ." . وإن أهل مدينة القدس تعرف إسطبل وأراضي أبو شاكر ليومنا هذا، وإني أكتب هذه الحادثة ليتعلم القارئ حالة أبو شاكر التي أدت به إلى الحضيض وهي طبعاً من جملة الحوادث المؤسفة:

كان العم أبو شاكر متكئاً على السجاد العجمي والفراش الفاخر بقاعة خاصة من إحدى زوايا الإسطبل العظيم المعروف بين الحسان . . . على مائدة الخمر في رابعة النهار . . . وكأنه الخليفة هارون الرشيد، وإذ دخل عليه أحد العربجية من جهة المحبين إليه، وقال يا سيدي أبو شاكر "دخل القدس رأسين خيل من أجود الخيول ! ! فهل ترغب بشرائهم؟ . . فأجاب أبو شاكر وهو على جانب عظيم من الحظ" . . ولك يا ابن . . . وريني إياهم." خرج العربجي ورفقاؤه وجاؤوا برأسي خيل من خيل العم أبو شاكر المربوطين داخل إسطبل أبو شاكر ومروا بهم مرور الكرام. نظرة واحدة من أبو شاكر آغا . . . وقال أشتريهم ودفع ثمنهم في الحال أربعين ليرة عثماني ذهب ! ! وهكذا رجعت الخيل نفسها وربطت من حيث أتت.

أكل بعضه بعضاً

أما حادث العم أبو درويش المخلوطة فهو -والحق يقال- حادث طريف للغاية، ومعروف لدى الكثيرين من أبناء القدس حتى أصبح مثلاً يقال في كثير من المناسبات، وإليك:

عندما ضاقت الدنيا في عيون العم أبو شاكر وأصبح على وشك الإفلاس وفي حاجة ماسة إلى نقود، سمع أن أسعار الخيل مرتفعة جداً في القاهرة بالنسبة لأسعار خيل القدس، وهكذا أرسل العم أبو درويش المخلوطة ومعه عشرة رؤوس من الخيل عن طريق بور سعيد في البحر لأجل أن يبيعها العم أبو درويش هناك. ذهب العم أبو درويش في رحلته الميمونة وباع رؤوس الخيل العشرة صفقة واحدة بمبلغ كبير، وبقي في مصر القاهرة يصرف ما هب ودب على الخمور والنساء ... الخ مدة شهرين إلى أن أنفق ثمن الخيل بكامله.

وكان العم أبو شاكر ينتظر على أحر من الجمر ... وقد أرسل لأبي درويش التحارير حتى برقيات، ولكن بدون جدوى.

وفي ذات يوم، إذ استلم العم أبو شاكر برقية تفيد "الجمعة لاقوني على مينا يافا" فاستبشر خيراً العم أبو شاكر فذهب وحاشيته إلى يافا ولاقى العم أبو درويش الذي كان طفراناً والعياذ بالله لا يملك دفع نفس أركيلة. تعانقا وجلسا على المقهى على الشاطئ في المينا، وبعدما شربوا الأركيلة وتناولوا جميعاً طعام الغذاء من الكباب المشهور، ثم أعادوا شرب الأركيلة على حساب العم أبو شاكر على سلامة العم أبو درويش، سأل العم أبو شاكر عن ثمن الخيل وما هنالك من الأخبار، وإذ العم أبو درويش غضب وأرعد وأزبد، وقال يلعن أبو هيك سفرة ... يا سيدي والله ما بقي معي ولا قرش لأن (الخيل أكل بعضه بعض) وكان يتكلم العربي المخلوط بالكردي ... جن جنون العم أبو شاكر فقاطعه وقال شو أكل بعضه بعض؟ .. ماني فاهم! أجاب أبو درويش اسمع:

وصلت والحمد لله مصر وبعد البحث وجدت أن سعر الخيل نازل جداً .. وقلت في نفسي إذاً حرام نبيع الخيل إلا عندما أشعر بأن السعر يناسب، وهكذا اضطررت أن أبيع حصاناً واحداً فقط كي أشتري شعيراً للباقي ... وأدفع أجرة نزولنا مع الخيل في الياخور. وهكذا لم يتحسن السعر فبقيت أبيع رأس حصان وأشتري بثمنه شعيراً للخيل الباقية إلى أن بعت آخر حصان، وهكذا أفهم (الخيل أكل بعضه بعض!! مفهوم).

تأثر العم أبو شاكر ولكن لم يتمكن من عمل شيء لمنطق العم المخلوطة القانوني، وهكذا أصبحت كلمة المخلوطة الكلمة المأثورة لدى الأهالي تقال كمثل في كثير من المناسبات، كما ذكرت في مستهل الحديث أعلاه.

أول مظاهرة في القدس بعد الاحتلال سنة ١٩١٩

عندما نشر وعد بلفور المشؤوم في سنة ١٩١٨ من قبل بريطانيا التي اضطرت أن تنشره على الملأ، بعدما أفشى رجال الثورة الروسية هذا السر -كما بينت أعلاه- قامت مظاهرة كبيره من الشعب ابتدأت من داخل السور على ما أظن من مركز الجمعية الإسلامية المسيحية (السرايا القديمة) تحت قيادة المرحوم موسى كاظم باشا الحسيني، وبجانبه المرحوم عارف باشا الداوودي، وسارت عن طريق سوق إفتيموس وخرجت من باب الخليل، وكانت عفيفة حتى وصلت

القنصلية الإيطالية عند مستشفى هداسا بالقدس. أذكر هذه المظاهرة وكنت واحداً منها، وإني أحتفظ بصورة تاريخية لها ضمن المجموعة الجوهرية. والجدير بالذكر في هذا الصدد كان في الواقع المرحوم موسى كاظم باشا الحسيني الذي يقود المظاهرات الكثيرة على الرغم من كونه رئيساً لبلدية القدس آنذاك. وكانت هذه المظاهرات للإعراب عن رفض العرب لوعد بلفور المشؤوم والتمسك بالوحدة السورية.

المنتدى الأدبي

تشكل في شارع مأمن الله - القدس "المنتدى الأدبي" في سنة ١٩١٨، وكان فخري النشاشيبي من رجاله، وكان مقره في دار أبو صوان قرب دار عويضة، وكان صديقي صليبا الجوزي من رجالات هذا المنتدى أيضاً، وإني أذكر جيداً أن فخري النشاشيبي وصليبا وقفا مرة وخطبا من شرفة فوق بنك الكريدي ليونيه ملك البطريركية الأرثوذكسية خارج باب الخليل، أي من مقر اللجنة الإسلامية المسيحية آنذاك، وذلك في خلال المظاهرة للاجتماع على وعد بلفور المشؤوم والمطالبة بالوحدة السورية، وكان خطاباً حماسياً سياسياً عانقا بعضهما بعضاً، وأشارا إلى ضم الصليب مع الهلال ... وكان موقفاً رائعاً أظهر جليا للبريطانيين والصهيونيين مدى عظم الأخوة الصادقة بين المسلمين والمسيحيين في هذه البلاد على الرغم من احتلالها من طرف بريطانيا بصفتها دولة مسيحية. وقد سارت المظاهرة هذه باتجاه دار المنتدى الأدبي الواقع في مأمن الله - القدس، وكانت قبل الثورة الأولى الذي سأتكلم عنها في حينه.

استقالة موسى كاظم باشا

عندما نشر وعد بلفور المشؤوم بالقدس، ثار الشعب وتألم لهذه الخدعة، وخصوصاً أن المادة الثانية والعشرين من صك الانتداب تنص بكل وضوح "تكون اللغات الإنكليزية والعربية والعبرية اللغات الرسمية في فلسطين"، فقد تأثر المرحوم كاظم باشا ورفع استقالته من منصب رئاسة بلدية القدس، ورفض رفضاً باتاً التوقيع على اللغة العبرية، وكانت استقالته في خريف سنة ١٩٢٠ عندما وقعت أول ثورة في ٤ نيسان سنة ١٩٢٠.

تعييني موظفاً في دائرة حاكم القدس العسكري

أما أنا، فقد مللت من حياة الفوضى كما ذكرت أعلاه، وفكرت جلياً في مستقبل أفضل أؤمن فيه العمل وأعوض ما خسرته من عافية. ففي سنة ١٩١٩ زرت أستاذي السيد قسطندي لباط، وكان مشرفاً على قلم تحريرات حاكم القدس العسكري الواقع داخل عمارة شميدت للألمان خارج باب العامود، وكان يشتغل بمعيته زميلي وصديقي طناس سلميت، وبعد البحث أظهر لي أستاذي قسطندي لباط المساعدة، وأرسلني إلى رئيس مدرسة سان جورج المستر رينولدس، فحصلت منه على شهادة مرضية، من حيث الأخلاق والاستقامة والمعلومية، وبموجب هذه الشهادة عينت فوراً كاتباً صغيراً براتب قدره خمس جنيهات مصرية، وعملت أول وظيفة لي فتح الدوسيات وقيدها بالموضوع الخاص في سجل على حدة.

وبمناسبة تعييني هذا كانت فرحة كبيرة لدى كل موظف من كبير وصغير في تلك الدائرة، وأعظمهم كانوا من معارفي وأبناء القدس. ولماذا كانت هذه الفرحة؟! لأنهم ضموا موسيقياً هاوياً معروفاً في ذلك العصر ليس في مدينة القدس فحسب، بل في فلسطين . . . وحيث أن وظيفتي هذه جاءت قبل الانتداب البريطاني، فكان جميع رؤساء الدوائر آنذاك في لباس الجندية، وعلى رأسهم الحاكم العسكري المستر رونالد ستورس ثم المستر:

لوك	جيمس إدوارد كامبل
بويام	إدوارد كيث روش
لو	موريس بيلي
كاست	جيمس بولاك
الماجور	هيدوك جونس

أما العرب فكانوا:

حنا اسطفان، ومتري فراج، وقسطندي لباط، ويوسف طرزي، وجورج مصرصع، وصبحي عويضة، وأندريا القسيس، وعطاالله اسطفان، وجورج خضر، وعيسى بولس، وتادرس دعدوش، وداود ميخائيل ياسمينة، وطناس سلميت، ومتيا مروم، وتوفيق مناويل، وعطاالله برامكي، وجليل خميس، وحبيب متري، وشفيق مسلم، وميشيل فروجي، وبشارة فروجي، وقسطندي خباز، والمستر وولس، وأخيراً أنيس حداد، وسامي هداوي، ولطفي المغربي.

كانت بما يسمونها الـ (Registry)[1] في الغرفة الكبيرة عند دخولك العمارة المذكورة على الجهة الشمال نحن الذكور من موظفي القسم الثاني على حدة، ومن خلف ستار هناك السيدات والآنسات فريدة حداد، وجوليا خضر، وماري فتالة، وأميلي خضر، وأخيراً المس ليديا طنوس، وماري حنانيا، وأما رئيس المكتبة، فكان المستر و. ماكفرسون.

كانت دائرة الحاكم العسكري تشغل الطابق الأرضي من العمارة المذكورة، وأما الطابق الأول، فكان مستعملاً لنوم الضباط الذين كانوا يشتغلون في إدارة القدس وفي ألبستهم العسكرية، أمثال الماجور هدوك جونز، والمستر بولاك، والمستر كيث روتش، والمستر هندرسون رئيس دائرة الصحة العامة، والجدير بالذكر أن سامي هداوي[2] كان يومئذ مستخدماً في غرفته باسم (Batman)[3]، وكنا نحن الموظفين نشاهده وهو يصبغ حذاء المستر هندرسون، وقد تعين سامي المذكور كاتباً بعد ذلك في دائرة حاكم القدس العسكري، وهو يلبس البنطلون القصير واشتغل معنا، وأصبح زميلنا في الصنعة، وكان لا يعرف أن يكتب إلا بالقلم الرصاص، وقد جاء القدس بالنسبة لذكائه أن يتوصل إلى درجة عالية في حكومة الانتداب بمساعدة المستر ليرمبسون في الأراضي فسبحان المعطي.

[1] Registry: قسم التحريرات.

[2] سامي هداوي أصبح لاحقاً من كبار خبراء الأراضي في حكومة الانتداب، ونشر عدة دراسات في هذا الموضوع. وقد امتد عمره إلى المائة سنة عند تحرير هذا الكتاب (آذار ٢٠٠٤). وهو لا يزال حياً في مدينة تورونتو بكندا.

[3] Batman: المساعد الشخصي للضابط في الرتب العسكرية البريطانية.

أما دائرة المالية، فكانت تسمى دائرة الإيرادات والأعشار والويركو في بعض الغرف في الطابق الأول، برأسها المستر هارفر، وتضم الدائرة حسين الأرناؤوط، وإبراهيم العلمي، وعبد الرزاق قليبو، ومحمد عارف القسطنطيني، وسليمان الوعري، والشيخ شحادة أبو السعود، وسعيد مختار، ومناويل أندريا، وتوفيق مناويل، وداود الكارمي، وعبد الله ونصري صغير، وغيرهم.

وأما الطابق السفلي من هذه العمارة، فكان [يستخدم] قسماً صغيراً منه جريس نصار المعروف بأبي ميخائيل الفار مقهى للموظفين، بصفته كان أميناً على هذه العمارة قبل الحرب العظمى الأولى، وأما باقي الغرف الكبيرة، فكانت خالية بدون استعمال. وأما محصلو أموال دائرة الإيرادات -آنذاك- فكانوا شكري إبراهيم النشاشيبي، ومصطفى عوض، وبكر عوض، وعثمان أبو السعود، وشكيب الدقاق، وحسام الشرفا، وخليل القطب، وعبد الرحمن الدقف، وإبراهيم حسونة، ويهودا إبراهيم.

وقد عمل متري قسطندي المني مقهى تحت أشجار الصنوبر الواقع من الجهة الشمالية الغربية لهذه العمارة، وكنا نتناول القهوة والشاي والمرطبات تحت ظل الأشجار، ونتبادل الأحاديث الفكرية والنوادر النادرة، ونقضي أوقات الفراغ، وخصوصاً بين الساعة العاشرة والحادية عشرة من أيام الأسبوع. والحق يقال، أني أذكر تلك الأيام بكل فرح، لما قضينا مع زملائي من الدرجة الأولى والدرجة الثانية من مجالس أنس وحوادث مضحكة وسارة.

حياتنا المرحة في دائرة حاكم القدس العسكري

تعينت في وظيفة كاتب بسيط في الا (Registry)، فكنا نشتغل من الساعة الثامنة إلى الواحدة في الصباح،[1] ومن الخامسة والنصف إلى السابعة والنصف من بعد ظهر كل يوم، ولما كنت معتاداً على شرب الخمر دائماً، أبداً، وعلى الأخص، قرب المساء، فكنت أصل الدائرة الساعة الخامسة والنصف وأنا على جانب متوسط من الحظ ... فيستقبلونني الزملاء جميعهم بشغف ومسرة فائقة، ونقضي معظم ساعتي العمل من غناء .. وفكاهة، ينضم حولي أكثر زملائي من ذكور وإناث، وكان المرحوم أندريا القسيس يساعد في خلق النوادر، ومن عرف المرحوم أندريا ومسرحياته .. وخصوصاً معي يتأكد ما كان لأيامنا من مرح وسرور.

ولما كانت الحالة العامة في البلاد بعدما تخلص الشعب من نير الأتراك والحرب العظمى وما قاسى من ألم وتشريد ومجاعة ودخل في بحبوحة عيش وصرف بمناسبة احتلال الجيش البريطاني، ذلك الجيش الذي بذر الفلوس في الأرض ... فكنت ترى في هذه الدائرة العجب العجاب حتى أننا مراراً وبموجب أوامر رسمية تستعمل غرفة التحريرات هذه، قاعة يجري فيها الغناء والرقص والتمثيل ساعات العمل، وبواسطة دعوة خاصة لمجموعة من شخصيات الأهالي على اختلاف أنواعها من قبل الرئيس الأعلى المستر رونالد ستورس.[2]

كنت أعزف على العود وأرقص الدبكة بين الزملاء من الدرجتين الأولى والثانية، وتسمع من يضرب الدربكة ونغني بأعلى أصواتنا مراراً وأياماً وليالي في هذه العمارة المعتبرة سراي حاكم القدس العسكري فتأمل ..!!



موسى كاظم الحسيني أول رئيس لبلدية القدس في العهد البريطاني.

المصور غير معروف. المجموعة الجوهرية.

[1] الصباح: يقصد بعد الظهر.

[2] رونالد ستورس: الحاكم العسكري للقدس إبان فترة الحكم العسكري البريطاني في فلسطين (١٩١٨-١٩٢٢). في فترة الانتداب أنشأ "جمعية محبي القدس" (Pro - Jerusalem Society)، ومن أهدافها المحافظة على التراث المعماري في المدينة. راجع فقرة الجوهرية عنه أدناه.

وهكذا كنت أعجب وأقول في قرارة نفسي ما هذه الدولة؟ وما رؤساء الحكم هؤلاء؟ هل يجوز هذا اللهو والحظ ومراراً السكر في الغرف ذاتها التي تنصب فيها المحاكم والبت في شؤون الشعب ومشاكل الناس؟ ! ! يا الله كيف كنا في زمن الحكم العثماني؟ ! ! ولكن أعود وأقول يا حبذا لو بقينا في ذلك الحكم، لأننا علمنا فيما بعد -ويا للأسف- أن بلادنا ووطننا قد بيع سراً لليهود ! ! آه من هؤلاء القوم الذين تنفسنا الصعداء بدخولهم، فهم الذين نكثوا بالعهود، وخانوا الأمانة والوصاية بعدما كان العرب أنفسهم الذين ساعدوهم في هذا الاحتلال، وقاموا بالثورة على الأتراك، كانت هذه مشيئة الله سبحانه وتعالى.

رئيس الكتبة و. ماكفرسون

وإني أدون هذا الحادث لأعطي فكرة للقارئ عن حالتنا المرحة في سراي حاكم القدس العسكري وعن برودة الشعب البريطاني:

وصلت كعادتي وأنا على جانب من الحظ ... في الساعة الخامسة والنصف من مساء ذات يوم إلى الدائرة، فدخلت قاعة التحريرات (Registry) وجميع الزملاء في انتظاري. لمحت عن بعد في زاوية هذه القاعة (حزمة بنطلونات من تلك الملعونة المصنوعة لجنود الأتراك الرخيصة)، كانت قد وجدت متروكة داخل مغارة القدس الواقعة تحت سور باب العامود، فصودرت ونقلت في ذلك اليوم إلى السراي. ففي الحال لبست واحداً من هذه البنطلونات، وكان كبير الحجم، فغطى ما يقرب من صدري ... وأصبحت في صورة كريكاتورية مضحكة، وجئت فوقفت تحت اللوكس الكبير المعلق في وسط سقف تلك القاعة أرقص دبكة على أغنية دكدوكة يا كدوكة .. يا إم اللحية المدكوكة ... الخ. وكانت أغنية معروفة لي خاصة بالقدس تعلمتها من الفلاحين. وكان من حولي زملائي من آنسات وسيدات يصفقون بأيديهم ويرددون من بعدي الترديدة وكلنا في طرب.

ولكن -كما قال المثل "وعند صفو الليالي يحدث الكدر .." - إذ فتح الباب فجأة ودخل رئيس الكتبة المستر ماكفرسون بوجه قاتم، وأشار لي بإصبع يده وقال مستر جوهرية ... ورجع إلى غرفته. وقف كل منا وكأنه على رأسه الطير، وخافوا عليّ من الطرد من الوظيفة، أما أنا فوقفت خلف الستار القائم بين الموظفين وضاربات الماكنة للطباعة ... وشلحت بخفة ذلك البنطلون، ورتبت هندامي وذهبت لمقابلة المستر ماكفرسون وقلبي يخفق من النتيجة الحرجة.

أتدري ما قال لي؟ نظر إلي بابتسامه، وقال: هل من الممكن توصيل أختي إلى البيت عندما ننهي العمل في هذه الليلة؟ فقلت له شو عليه نحن لبعض فسلمت على أخته وكانت آية في الجمال وقلت لها أنا على أتم الاستعداد فكوني على حذر في السابعة فشكرتني. كان المستر ماكفرسون وأخته يسكنان في هوسبيس النمسا بجوار بيت والدي داخل السور آنذاك. رجعت إلى زملائي وأنا أضحك مقهقهاً وقلت لهم هالمكروت ... لم يذكر لي شيئاً عن الرقص ولا ما يحزنون ... هكذا يكون رئيس الكتبة وإلا فلا ... يلعن أبو تركيا ... إلى ما هنالك من نهفات جوهرية فدهش الزملاء وتعجبوا. وعند الساعة السابعة هناك وأمام جميع الموظفين اصطحبت الآنسة التي كانت تعرفني وتعرف فني فوضعت يدها في يدي ...

ومشينا والجميع يضحكون . . . إلى أن أوصلتها بأمان واطمئنان إلى منزلها ، وهناك أبت أن تتركني إلا بعدما جلست في غرفتها وتناولت كأساً من الويسكي . . . وودعتها ودعيت لها نوماً هادئاً . وأصبحت هذه الحادثة على لسان الزملاء في اجتماعاتهم .

المستر رونالد ستورس حاكم القدس العسكري

كان أول شغلي في سراي حاكم القدس العسكري في قلم التحريرات بصحبة السيد قسطندي لباط والصديق ورفيق الدراسة طناس سليت ، فكنت مسؤولاً عن فتح الدوسيات وترقيمها وإدخالها حسب الموضوع في سجل خاص ، وذلك في القاعة الكبرى من عمارة ألمان ، التي كانت تضم جميع الموظفين من ذكور وإناث الذين دونت أسماء كل منهم فيما سبق . وقد صادف أن الحاكم ستورس أقام حفلة في ليلة ما في الغرفة ذاتها ، وكان المدعوون من أهالي القدس شخصياً ، معروفة من مختلف الطوائف مسلمين ومسيحيين ويهود ، وكان الموظفون هم الذين يستقبلون المدعوين وأنا من جملة الموظفين ، وقد عرفني قسطندي لباط بالمستر ستورس لأول مرة ، وأعلمه عن ميولي ومواهبي الفنية ، وخصوصاً في الموسيقى العربية من عزف على العود والرباب والطنبورة ثم الغناء من موشحات أندلسية وأدوار مصرية وأغان شعبية ، ثم أهازيج فلاحية والدبكة ، فسر ستورس ومن تلك اللحظة شملني بعنايته الخاصة ، وقربني إليه في حفلاته الخاصة ، وخصوصاً في بيته .



ختم ستورز كحاكم القدس العسكري.

كان المستر ستورس من رجالات بريطانيا المعدودين ، وله خدمة فائقة للإمبراطورية البريطانية في الشرق الأوسط ، وقد دخل مع حملة الاحتلال البريطاني ، وقد خدم في مصر السنين الطوال ، وكان يعرف اللغة العربية ويجيد القراءة والكتابة حتى القرآن ، وله مواقف بديعة ورائعة عند العرب والمسلمين ، وكان من حاشيته لورنس المعروف في الشرق الأوسط ، ومطلع إطلاعاً تاماً على أسرار السياسة البريطانية في الشرق ، وما كان يجري كان بواسطته من معاهدات مكماهون ، وحسين الأول ابن علي وفيصل الأول ، ومعه حسين روحي الذي بقي فيما بعد معيناً موظفاً في دائرة معارف الانتداب البريطاني بالقدس . وكان ستورس عالماً في بلاد العرب ويعرف عوائدهم وغرائزهم ، وهكذا عين حاكماً عسكرياً للقدس بعد الاحتلال البريطاني مباشرة بواسطة جبرائيل حداد باشا ، وقد ساعد -كما قلت آنفاً- في تأسيس الإدارة بعد الاحتلال من الوجهة السياسية ، وبدهائه كون فكرة الأحزاب السياسية في البلاد ، فأقام المجلس الإسلامي الأعلى ، وعلى رأسه الحاج حسين الحسيني بعدما أرجعه من الخارج زمن السير هربرت صموئيل ، ثم أقام ضده راغب بك النشاشيبي المعروف [بعلاقته] بحزب الدفاع ، والموالي لحكومة الانتداب كما سيجيء البحث عن ذلك في الفصول الآتية .

كان لستورس ميل خاص في اقتناء كل ما هو جميل من صنع الشرق من تحف على اختلاف أنواعها ، فكان بيته بالقدس يقع في الأرض المعروفة بملك الألمان (طلعة المستشفى الإيطالي) ، ويقال إن هذا الموقع ضربت فيه خيام إمبراطور ألمانيا عندما زار القدس سنة ١٨٩٨ . كان بيت ستورس شبيهاً بمتحف مستقل ملآن بأفخر أنواع السجاد العجمي التاريخي ، ومجموعة رائعة من النحاس العجمي على اختلاف أنواعها ، وبعض الأسلحة الأثرية العجمية والإستنبولية النادرة ، والمخطوطات والخزف وغيره ، وهكذا كنت أشتري له بعض هذه التحف بأسعار رخيصة ، الأمر الذي يزيد حبه وعطفه إلي ، وكان يقدر

هذه التحف، كما كان صديقاً حميماً للمرحوم نصري أوهان بائع التحف النادرة المعروف بالقدس. وإني أقولها صراحة إن مجموعة ستورس الأثرية هذه قد أدخلت على ذهني الفكرة التي كنت أحلم دائماً بها، فشجعتني على اقتناء ما أتمكن من اقتنائه من هذه الآثار والتحف، حتى توصلت أخيراً فحققت الآمال وتوصلت على اقتناء المجموعة الجوهرية كما سيجيء البحث عنها في فصول هذا الكتاب. وعلى كل حال، يرجع الفضل في مجهودي لجمع المجموعة الجوهرية للمستر ستورس، ولا شك فهو الذي زادني علماً وحباً في هذا الباب وهذا الفن الجميل.

الغناء في بيت المستر رونالد ستورس

وهكذا قد زادت معرفتي بالمستر ستورس، وأصبح لا يترك فرصة تناسب سياسته فيدعوني في الحفلة التي كان يقيمها، وإني أذكر مرة أنه دعا نخبة من شيوخ القدس ومن موظفي الحكومة على تناول الشاي تحت ظل أشجار الصنوبر في بيته المعهود، أذكر منهم الشيخ سليم قطينة، والشيخ أديب جودة، والشيخ يعقوب الأزبكي، والشيخ أمين العوري، والشيخ سعود العوري، والشيخ سعيد الخطيب، والشيخ حسام الدين جار الله، وغيرهم وقد أجبرني على العزف والغناء للمدعوين وأنا في اللباس العربي الكوفية والعقال والقنباز والعباءة، فكانت حفلة شاهقة ألقى فيها المستر ستورس كلمة سياسية باللغة العربية الفصحى فأدهش الحضور. وكان -والحق يقال- محباً لسماع الموسيقى، وكان عازف بيانو، فكان قبل النوم، ولو صادف رجع لبيته في منتصف الليل، لا بد أن يعزف القطع الموسيقية على البيانو لمدة طويلة. والجدير بالذكر أنه كان يسبب إقلاق راحة لمجاوري ذلك الحي، وأخصهم الترجمان أسعد خضر من أهالي القدس.
وعلى ذكر الأخير أنه كان يقتني بعض الدجاج في بيته، وعندما يصيح الديك في الليل يغضب المستر ستورس وينرفز غيظاً لدى سماعه صياح الديك، وجرب كثيراً أن يمنع ذلك، بل حكم على هذا الديك شنقاً، ولكن أبى المرحوم أسعد خضر أن ينفذ الحكم، وله معه حوادث طريفة في هذا الباب.

وأعدوا لهم ما استطعتم

منذ أن عرف الشعب العربي في فلسطين نوايا بريطانيا الخبيثة، وانكشفت عليهم ألعوبة وعد بلفور المشؤوم، لم ينقطع الشعب -وعلى رأسه المغفور له موسى كاظم باشا الحسيني- عن الاحتجاجات والمظاهرات، وإني أذكر أنه عندما كان الشعب في مظاهرة بموكب حماسي عظيم، سارت في المدينة إلى أن وصلت أمام سراي الحاكم في باب العامود، وكان يظهر سخطه معبراً بكلمات جارحة ضد الصهيونية ووعد بلفور المشؤوم وتجزئة البلاد بعد الاحتلال البريطاني، وخصوصاً عزل سوريا عن فلسطين، فوقفت المظاهرة مدة تطلب فيها مواجهة ستورس، واستماع كلمة منه، وبعد التردد خرج فوقف من خلف سور السراي المطل على شارع نابلس ومن خلفه كان مدفع من بقايا الجيش، ووضعه هناك للذكرى، وعندما رأى الشعب الحاكم أصبح وكأن على رأسه الطير.. إذ نطق ستورس بصوته الجهور، وقال: "وأعدوا لهم ما

استطعتم من قوة . . "، ورجع حالاً ودخل العمارة، وكانت - والحق يقال - تمثيلية مضحكة للغاية، ولكن أقول لم تنطلِ هذه التمثيليات الستورسية على من عرف ستورس من رجالات العرب المخلصين ! !

وظيفة ترجمان من العربي للإنكليزي والعكس

عينت مساعداً في قلم الترجمة لدائرة الحاكم العسكري، وكان الرئيس ومساعده المرحومان صبحي عويضة وأندريا القسيس، وقضينا أوقاتاً جميلة في هذه الوظيفة لما كان - وخصوصاً أندريا - عليه من مرح، فالتقينا وهات يا ضحك وفكاهة وتمثيل على مسارح القدس، وأخص منها مسرح جمعية الشبان المسيحية عندما كانت العمارة مقامة من الخشب وواقعة على أرض دير الأرمن شارع يافا .

كان المرحوم أندريا يمثل دور المعلم القروي ، وكيف كانت طريقة التعليم قديماً مضحكة للغاية، ثم يمثل مضافة القرية، ويستمع هو والحضور في تلك المضافة إلى الشاعر إلياس يعزف وينشد على الرباب، ومن يكون هذا الشاعر غير واصف جوهرية صاحب هذا الكتاب، فيدخل الشاعر إلياس أعرجا . . ويخرج الرباب من تحت عباءته ثم يطرح السلام ويجلس ويغني على الرباب أغنيات أكثرها واقعية، كما أشرت إليها في المجلد الأول من هذا الكتاب، وكانت هذه التمثيليات تجد إقبالاً عظيماً من الجمهور على اختلاف مذاهبه من مواطنين وأجانب.

أما معرفتي بأندريا ، فهي بلا شك منذ الصغر ، وكانت جدته أم متري قسطندي المنى جارتنا في دار الجوهرية، وهناك كنا نقوم بالسهر والحظ مع عائلة المنى جميعها ، وكنت أنا وأندريا وأخي توفيق نترأس هذه الاحتفالات العديدة النادرة والمعروفة لدى معظم أبناء طائفة الروم الأرثوذكس. ثم كان أندريا رفيق الدراسة في مدرسة السان جورج الإنكليزية بالقدس، وكنا لا نفارق بعضنا أبداً ، بل نقضي الشطحات في قرية دير عمرو وبيت لحم عندما كانت المرحومة أختي عفيفة تسكن في ملك جده من والده المرحوم الخوري عساف بجوار عين ماء بيت لحم، وإن أنسى لن أنسى ليالي شطحاتنا وليالينا في مخيم سيدتنا مريم بالقدس، أسبوعين في كل سنة ، فسقيا لتلك الأيام والأوقات ما كان أطيبها .

الدكتور عزت طنوس الأخ والصديق

كان الدكتور عزت طنوس معلماً في مدرسة السان جورج الإنكليزية بالقدس، وبمناسبة ميلي الفطري لفن الموسيقى الرفيع أحبني وقربني إليه ، وقد أغلقت أبواب مدرسة السان جورج أثناء الحرب العظمى الأولى فافترقنا ، ودخلت أنا في معركة الحياة وزاد ولعي بفن الموسيقى، فأخذ أكبر قسم من حياتي منذ تركي المدرسة إلى تاريخ الاحتلال البريطاني، وأقولها صراحة إنني لم أراجع كلمة واحدة مما تعلمته، وخصوصاً في اللغة الإنكليزية طيلة المدة المذكورة، الأمر الذي جعلني أتألم جداً عندما أخذت وظيفة مترجم كما بينت في الفصل السابق.

وقد سعى الدكتور عزت طنوس وأخوه سليمان الصيدلي ففتحا مخزناً متواضعاً في حي النصارى داخل السور بعد الاحتلال البريطاني مقابل الحمام المعروف بحمام البطرك آنذاك، فكان الدكتور في صدر المخزن المذكور وله نافذة واسعة

تطل على بركة البطرك كعيادة للمرضى ، والقسم الباقي من المخزن يستعمله أخوه سليمان صيدلية ، وكانت "شبه صيدلية" لعدم وجود لوازم الصيدلية فيها ، ونظراً لحب الدكتور عزت لي وصداقته معي خصص لي أوقاتاً يومية كنت أذهب فيها إلى عيادته هذه ، وأتعلم الإنكليزية ، وأراجع ما كنت فقدته مدة سنين الحرب العظمى ، وكان – والحق يقال – له الفضل الأكبر في سيري بعملي كترجمان ، فاكتسبت منه الشيء الكثير ، بالإضافة إلى التمرين في الترجمة بمساعدة صبحي عويضة وأندريا القسيس .

وإني أذكر هنا أن الدكتور طنوس كان يمقت الاستماع إلى الموسيقى العربية من أي كان ، ولكن الدكتور لم يزل يقولها صراحة إنه مال بالفعل إلى حب الموسيقى وتفهمها عندما كان يستمع إليها مني . . . فقط لا غير . . . فكان ، خصوصاً بعد الاحتلال البريطاني ، يواصل السهر معي في بيته الكائن آنذاك في عمارة الدزدار حي المصرارة ، ففي هذه الدار وهي مقامة على قارعة الطريق كنا نقضي الليالي الطوال مع نخبة في العائلات المعروفة بالقدس أمثال حبابو ، وجلوق ، وطمبو ، وقرة ، وبشارات ، وعزوني ، والمرحوم داود دعدس ، وجورج وأندريا قسيس ، وزخريا ، وغيرهم ، نقضي الليالي إلى مطلع الفجر ، وربما كانت تسبب هذه الحفلات إقلاق راحة للمجاورين الذين لا يتذوقون الفن . . . وقد برهن الدكتور عزت طنوس على حبه المتفاني للموسيقى العربية ، وأخذ له شعاراً فيها ، فأصبحت أغنية من أغنياتي العديدة تعرف بأغنية الدكتور المحببة ، وهي :

الله يجازيك يا ودنية	ظنيت في حبك سوء النية
وظلمتني في فؤادي ويّاك	ايه زي[1] صدقت إني أسلاك
أدريك شفتي أدريك عرفتي	إني ما حدش غيرك مالك قلبي
ولو جاني ألف بدالك	إنت حياتي وإنت نور عيني
في غرامك رايح أقضي	سنين على عين عزالك

دور

ياما قضيت أيام وليالي	وإنت ماغبتش يوم عن بالي
بركه اللي صفينا لبعضينا	وتوفقنا وشدنا ماضينا
نهار نادي على الفرحة دي	ما دام تحكمت فينا محبتنا
وطلع الواشي من وسطينا	مش راح يمكن نفترق أبدا
وعيشتنا راح تبقى معدن	سوى بطول حياتنا

[1] ايه زي: إزاي؟

هذه أغنية مصرية، ولا شك كنت تعلمتها من الموسيقار عازف العود شحادة يهودي الجنسية، كان يشرف على فرقة المطربة بديعة مصابني عندما زارت القدس لأول مرة كما سيجيء البحث عنها في حينه.

احتفال متخرجي مدرسة السان جورج الإنكليزية وسهرة الأخ دكتور طنوس

بمناسبة الاحتلال البريطاني للبلاد العربية، وتخلص البلاد العربية نهائياً من العهد العثماني، والتغير السياسي المفاجئ للبلاد بعد انتهاء الحرب العظمى الأولى، وحظ بريطانيا العظمى في التحكم في هذه البلاد، جرى احتفال في قاعة مدرسة السان جورج الإنكليزية ضم معظم متخرجي هذه المدرسة القدماء زمن العهد العثماني بالقدس، وقد أصبح هؤلاء المتخرجون بعد الاحتلال البريطاني موظفين لهم قيمتهم، وخصوصاً في الانتداب، ومن خيار رجالات البلاد الشهيرين أمثال جمال الحسيني، وحلمي الحسيني، وتوفيق الحسيني، وسليم حنا، ومتري فراج، وقسطندي لباط، وشريف النشاشيبي، وحسين عويضة، وبشارة الصائغ، والدكتور طنوس، وجورج وباسيل شبر، والطبيب إبراهيم جورج، ونجيب بوارشي وداود دعدس، وحنا ويوسف، وزخريا وجورج قرط وإخوانه، وأولاد عمه قسطندي وبندلي وشكري حرامي، وجورج وأندريا، والياس القسيس (وغيرهم من كبار الموظفين)، وصليبا الجوزي، وعيسى دبة، وسبير الحبش، وفوتة وتادرس دعدوش، وجميل نساس، ويوسف ترزي، وإميل وفائق تماري، وجورج وتوفيق الموسى، ورزق شهلة، وإميل وعفيف شهلة، وجبرا خوري، وغيرهم الذين أصبحوا بين عشية وضحاها من كبار موظفي حكومة الانتداب، ومنهم الزعيم، والمحامي، والطبيب، وحكيم الأسنان، والمهندس، والتاجر، والمربي، والمعلم.

كانت الحفلة المذكورة أقيمت على شرف [. .]،[1] وقد أشرف المستر برون معلمنا اللغة الإنكليزية الذي أصبح من قادة الجيش البريطاني المحتل، وبقي في الإدارة زمن الانتداب على هذه الحفلة الشيقة، فكان كل منا يعانق زميله، وله الذكريات العديدة زمن الدراسة فقد عزفت وأنشدت ما استطعت من الغناء لهذا الجمهور، وكأننا عائلة إلى وقت طويل من تلك الليلة. وعند انتهاء الحفلة، أقسم الدكتور عزت طنوس على وجوب تكميل السهرة في بيته، وهكذا خرجنا من عمارة مدرسة السان جورج وسرنا في طريقنا إلى حي المصرارة سكن الدكتور طنوس، وأنا حامل عودي أعزف وأغني بأعلى صوتي في الشارع، والجميع من خلفي يردد الأغنية "صح النوم ما تقوم يا حبيبي ريق ريقك ع الحليب، يا لبن قشطة وحياة حبك لو داقه العيان ليطيب" . . . وكانت أغنية جديدة -آنذاك- جاءتنا من فناني مصر الذين كانوا يزورون القدس بعد الاحتلال البريطاني. دخلنا بيت الدكتور طنوس واختلط الحابل بالنابل، وهرعت عائلات تلك المحلة والمقربون إلى عائلة طنوس فامتلأت جميع غرف البيت حتى المنافع والعياذ بالله، وكانت ليلة فريدة من نوعها تجلى فيها الحظ والسرور، وأصبح الجميع في حظ وهرج وفرح إلى ما بعد منتصف الليل.

وتواصل السهر والزيارة ما بيني وبين الأخ الدكتور طنوس بدون كلفة حتى بعد زواجه وزواجي أنا، فكان كل منا يشارك أخاه في أفراحه وأتراحه إلى نهاية الانتداب البريطاني في فلسطين، وقد دونت هذه الحادثة لأعطي فكرة عن مدى صداقتنا، وقد مَنَّ الله سبحانه وتعالى فأصبحت أسرة طنوس من أغنياء البلاد، فتجدون سهراتنا بصورة أرقى وأعظم، وذلك في

[1] ناقص في الأصل.

قصور طنوس المقامة في حي الطالبية التي لم أزلـــ أذكرها ليومنا هذا بـكل سرور . والجدير بالذكر أن محبّـتنا ازدادت يوماً عن يوم ، وكما قال المثل "محبة الآباء تتصل بالأبناء . ." ، فقد صادف أن ولدنا جورج أصبح أخاً لجورج ابن الدكتور عزت طنوس بصفته زميلاً له في الدراسة في الجامعة الأميركية في بيروت ، وذلك بعد نكبة فلسطين التي أجبرتنا على أن نترك الوطن العزيز ونصبح متشردين في الأقطار العربية المجاورة .

الماجور هدوك جونز

إني لم أزل أدون حوادثي زمن الاحتلالـــ وكان -كما قلت سابقاً- رؤساء الإدارة في الحكومة في ألبستهم الجندية في سرايي حاكم القدس العسكري . كان أحد الرؤساء في الإدارة -آنذاك- الماجور هدولـــك جونز المسؤول عن إيجارات منازل وأملاك الأهالي لعائلات ومكاتب رؤساء الدوائر ، لتكون هذه الإيجارة بواسطة الحكومة ، ثم عن استيراد وتوزيع المحروقات لرؤساء الدوائر وغير ذلك من المسؤوليات ، وكان رئيس كتبة الماجور هدوك جونز صديقنا وزميلنا تادرس قسطندي الدعدوش القصير القامة ، طبق عليه من قالـــ "لا تقرب من كان قريباً من الأرض . ." . وقد صادف نقلي من قلم الترجمة إلى قلم الماجور هدوك جونز ، وأذكر أن في تلك الفترة عين سامي هداوي في هذا القلم ، وكان لما يزل في بنطلونه القصير ومن وظيفته الـ (Messenger) (مراسل) عند المستر هندرسون مدير الصحة آنذاكـــ ، لا بل كما كانوا يلقبونه بالـ (Batman) . وكان سامي لم يستطع بعدُ الكتابة بالحبر ، وهكذا قضينا وقتاً جميلاً ، وكنت دائماً أداعب الصديق تادرس دعدوش حتى أني لقبته "بالماجور" ، وأصبح هذا الاسم معروفاً لدى جميع موظفي الانتداب . لماذا أعطيته هذا اللقب ، لأنه كان كثيراً من الأوقات يقلد رئيسنا الماجور هدولـــك جونز في تصرفاته والعياذ بالله ، فمثلاً عندما كان يدخل على الماجور وبين يديه طائفة من الدوسيات للتوقيع ، وبالطبع تكون الإجراءات المتخذة ضمن الدوسية من الوجهة الروتينية منظمة من قبل الدعدوش ، فبعدما يحصل على توقيع الماجور ويخرج من غرفته فهناك الفشر ، ويتمثل على وجه الدعدوش الكبرياء والعظمة وكأنه أصبح شكسبير في اللغة الإنكليزية بقوله "واصف ولك ولا غلطة . . تفرج . . شوف" يا الله إلى ما هنالك من حب الظهور . أما أنا فكنت أبحلق نظري في قصره ثم أجول بنظري بسامي هداوي ومن يكون آنذاك من الزملاء الموظفين الذين يعرفون الجوهرية ، ثم أنزل به ما هب ودب من الكلمات الموزونة من الوزن الثقيل ، وهات يا ضحك ، فسقيا لتلك الأيام .

أما الدعدوش لا بل الماجور دعدوش فقد استفاد مادياً بصورة فظيعة من وظيفته هذه بمعية الماجور هدولـــك جونز ، واكتسب مني اللقب الشريف ، فعملته من نفر إلى ماجور دعدوش بين عشية وضحاها ، وأصبح -والحمد لله- الآن ملاكاً يشار إليه بالبنان ، وكانت ولا شك وظيفته بمعية الماجور جونز أساساً متيناً لهذه الأملاك ، وإن الله يرزق من يشاء بغير حساب .

قصور طنوس المقامة في حي الطالبية التي لم أزل أذكرها ليومنا هذا بكل سرور. والجدير بالذكر أن محبتنا ازدادت يوماً عن يوم، وكما قال المثل "محبة الآباء تتصل بالأبناء.."، فقد صادف أن ولدنا جورج أصبح أخاً لجورج ابن الدكتور عزت طنوس بصفته زميلاً له في الدراسة في الجامعة الأميركية في بيروت، وذلك بعد نكبة فلسطين التي أجبرتنا على أن نترك الوطن العزيز ونصبح متشردين في الأقطار العربية المجاورة.

الماجور هدوك جونز

إنني لم أزل أدون حوادثي زمن الاحتلال وكان -كما قلت سابقاً- رؤساء الإدارة في الحكومة في ألبستهم الجندية في سرايي حاكم القدس العسكري. كان أحد الرؤساء في الإدارة -آنذاك- الماجور هدوك جونز المسؤول عن إيجارات منازل وأملاك الأهالي لعائلات ومكاتب رؤساء الدوائر، لتكون هذه الإيجارة بواسطة الحكومة، ثم عن استيراد وتوزيع المحروقات لرؤساء الدوائر وغير ذلك من المسؤوليات، وكان رئيس كتبة الماجور هدوك جونز صديقنا وزميلنا تادرس قسطندي الدعدوش القصير القامة، طبق عليه من قال "لا تقرب من كان قريباً من الأرض..". وقد صادف نقلي من قلم الترجمة إلى قلم الماجور هدوك جونز، وأذكر أن في تلك الفترة عين سامي هداوي في هذا القلم، وكان لما يزل في بنطلونه القصير ومن وظيفته الـ (Messenger) (مراسل) عند المستر هندرسون مدير الصحة آنذاك، لا بل كما كانوا يلقبونه بالـ (Batman). وكان سامي لم يستطع بعدُ الكتابة بالحبر، وهكذا قضينا وقتاً جميلاً، وكنت دائماً أداعب الصديق تادرس دعدوش حتى أنني لقبته "بالماجور"، وأصبح هذا الاسم معروفاً لدى جميع موظفي الانتداب. لماذا أعطيته هذا اللقب، لأنه كان كثيراً من الأوقات يقلد رئيسنا الماجور هدوك جونز في تصرفاته والعياذ بالله، فمثلاً عندما كان يدخل على الماجور وبين يديه طائفة من الدوسيات للتوقيع، وبالطبع تكون الإجراءات المتخذة ضمن الدوسية من الوجهة الروتينية منظمة من قبل الدعدوش، فبعدما يحصل على توقيع الماجور ويخرج من غرفته فهناك الفشر، ويتمثل على وجه الدعدوش الكبرياء والعظمة وكأنه أصبح شكسبير في اللغة الإنكليزية بقوله "واصف ولك ولا غلطة.. تفرج.. شوف" يا الله إلى ما هنالك من حب الظهور. أما أنا فكنت أبحلق نظري في قصره ثم أجول بنظري بسامي هداوي ومن يكون آنذاك من الزملاء الموظفين الذين يعرفون الجوهرية، ثم أنزل به ما هب ودب من الكلمات الموزونة من الوزن الثقيل، وهات يا ضحك، فسقيا لتلك الأيام.

أما الدعدوش لا بل الماجور دعدوش فقد استفاد مادياً بصورة فظيعة من وظيفته هذه بمعية الماجور هدوك جونز، واكتسب مني اللقب الشريف، فعملته من نفر إلى ماجور دعدوش بين عشية وضحاها، وأصبح -والحمد لله- الآن ملاكاً يشار إليه بالبنان، وكانت ولا شك وظيفته بمعية الماجور جونز أساساً متيناً لهذه الأملاك، وإن الله يرزق من يشاء بغير حساب.

الماجور هدوك جونز ورجله

وعلى ذكر الماجور جونز أذكر هذه الحادثة الطريفة التي حدثت معي ولياه وإن دلت على شيء فهي تدل أولاً على برودة الإنكليز، وثانياً صداقتي المحشوة بالفكاهة مع الدعدوش. اشتد الشغل بكثرة عليَّ في قلم الماجور جونز في ذات يوم من الأيام بصورة فظيعة، فالإيوان مغتص بالمراجعين من أصحاب الأملاك ينتظرون عقود الإيجار، والماجور جونز يدخل غرفته فيوقع بعض العقود ثم يخرج لأداء وظائفه العديدة في الجندية مع زملائه الرؤساء في العمارة، وقد صادف خروجي من قلم التحريرات لأمر ما فعرجت على حنفية الماء الواقعة في إيوان العمارة العام، وبعدما غسلت يدي جمعت في كفي الماء من تلك الحنفية الجارية وبدأت أشرب بشغف ولهفة . . . وإذ بشخص يهزني من كتفي بقوه . . . وأنا لم أزل في حالة الشرب فتأثرت وفكرت أن هذا الشخص هو الدعدوش لا محالة. فرفسته بقوة في رجلي وشعرت بأنني أصبت الهدف فتألم من الضربة التي جاءت ولا شك في قصبة رجله في الحال، وكنت في وقتها أتمتم ما جاءت به ذاكرتي من كلمات من الوزن الثقيل . . . يلعن . . . الخ.

وبعدما اكتفيت من شرب الماء حاولت أن أخرج المحرمة من جيبة بنطلوني من الخلف لأجل تنشيف يدي . . . بصورة هادئة للغاية لم أكترث للعبة الدعدوش هذه السمجة . . . فأدرت رأسي ونظرت وإذ كان هذا الشخص ليس الدعدوش ويا للأسف بل كان الماجور جونز بنفسه . . . واقفاً ينتظرني ويريدني في غرض ما . . . فذبت يعلم الله في وقتها خجلاً وخوفاً وبدأت بالاعتذار المتواصل مؤكداً له بأنني كنت أظنه الدعدوش فتبسم . . . وقال لي ببشاشة "Never mind, go in Wasef".

وإني أقولها صراحة أنني لم أرَ هذا الماجور ضحك أو تبسم منذ أن عرفته إلا في هذا الحادث الذي أعتقد بأنه تألم من ضربتي، وبعدها تساءلت في نفسي ودهشت من برودة الإنكليز وقلت والله لو أن هذا الفصل قد جرى مع أحد ضباط الجيش التركي لكان قضي علي تماماً، وأنا أشرب الماء . . . وقلت ولله في خلقه شؤون. وحقيقة وبواسطة برودة أطباع الإنكليز انتصروا على الشعوب واستعمروا بلادهم وثرواتهم.

صديقي وزميلي في الوظيفة سامي هداوي

كانت معرفتي بسامي هداوي منذ تعييني في سراي حاكم القدس العسكري، فكنت موظفاً بسيطاً في قلم التحريرات وهو في وظيفة (Batman)[1] للمستر هندرسون رئيس الصحة بعد الاحتلال الذي كان يسكن في غرفة في الطابق العلوي لسراي الحاكم عمارة الألمان باب العامود بعد الاحتلال البريطاني. وقد زادت معرفتي لسامي عندما تعين معي في القسم العائد للماجور هدوك جونز كما بينت سابقاً في هذا الكتاب، وأصبح كاتباً بسيطاً. وإني أقولها صراحة بأن سامي وإخوانه إدي ووليم وجيمس من أذكى الشبان الذين رافقونا في الحياة، فإنهم ولا شك عصاميون، وأصبح كل منهم، وعلى الأخص سامي، من أشهر موظفي حكومة الانتداب.

وقد أخذت هذه المعلومات عن أصله من العم العبد بدران جد الدكتور جليل[2] ما يلي:

[1] Batman: المساعد الشخصي للضابط في الرتب العسكرية البريطانية.

[2] جليل بدران: من رجالات مدينة رام الله. أصبح رئيساً لبلدية رام الله في الخمسينيات ووزيراً في الحكومة الأردنية العام ١٩٥٧.

إن جدة سامي من أمه كانت من مسلمي مدينة الخليل، وقد عولجت علاجاً دقيقاً في عيونها في مستشفى العيون الإنكليزي بالقدس المعروف بـ (Opthalmic Hospital)، وقد تنصرت على إثر شفائها وتزوجت في رام الله وأنجبت والدة سامي من عائلة شحادة، ثم تزوجت والدته إلى والد سامي الذي كان من جماعة الـ L. J. S[1] بالقدس؛ أي يهودي وتنصر فأنجبت سامي وإخوانه وأختهم الوحيدة، وإني لم أزل أذكر المعزل المخصص لوالد سامي، وهو من أصل معازل السكن المقامة خصيصاً لليهود في حي مياشعاريم بالقدس، وقد أقمنا في هذا المعزل الحفلات العديدة عندما أصبح سامي موظفاً وزميلنا بالوظيفة. وقد سجل هذا المعزل في سجلات ضريبة الأملاك في المدن منذ سنة ٩٢٩ باسم عائلة هداوي ليومنا هذا.

[1] هي في الغالب London Jews Society، وهي اختصار للجمعية اللندنية لتنصير اليهود التي كانت تنشط في فلسطين منذ ثلاثينيات القرن التاسع عشر.

صديقي المطرب درويش السكسك

بالنظر لميلي الفطري إلى فن الموسيقى الرفيع منذ حداثتي الذي أخذ القسم الأكبر من حياتي، كنت أغتنم الفرص فلا أدع فرصة حضور أي فنان هبط القدس من مختلف الأقطار المجاورة لفلسطين إلا وكسبها، فتجد هذا الفنان قد أصبح رفيقاً ملازماً لي منذ وصوله القدس، فقد تعرفت بالمطرب الهاوي درويش السكسك من أهالي مدينة يافا سنة ١٩١٩. كان السكسك كريم النفس يتفانى في الحظ[2] والطرب والخمر جميل الصورة، هندي اللون، نحيف القوام، صوته مشبع أجش حنون، وربما زيد حنونة من استعمال مخدر الحشيش، وكان يتمن لباسه العربي، وكان عمله في يافا صاحب مقهى وله الأصدقاء العديدون على اختلاف مذاهبهم، وأخص بالذكر الشيخ أحمد الطريفي المطرب والمقرئ المعروف، ثم أحمد الجغلبط، وأبو معوض وغيرهم من هذا المستوى المحظوظ في يافا، والذين كنت أقضي الليالي الطويلة في مجالس أنسهم ... في يافا.

وكان -رحمه الله- لا يتنازل أن يغني في بيت أي كان بالقدس إلا إذا كان برفقتي ... فما كان يخالف لي طلباً، وهكذا لنا ذكريات لطيفه قضيناها وإياه مع نخبة من إخواني أهالي بيت المقدس، أمثال عبد السلام النشاشيبي، وفخري النشاشيبي، وتحسين الخالدي، وعبد الحميد قطينة، والعم أبو عباس الجاعوني، وخصوصاً مصطفى علي النشاشيبي وغيرهم، وكان يقضي رحلته بالقدس دائماً وأبداً في بيت ستر[3] من زوايا بيت المقدس، لا يعرف هذا البيت وأهله من أصدقائه سواي ... فكنت أنا الوحيد نقضي الأوقات الجميلة فيه، فيغني لنا بصوته القصائد والمواويل المطربة، وأنا أعزف وأترجم ما يغنيه على عودي.

وإني أذكر لغاية الآن بعض الأغاني المحببة لنفسي أمثال:

إذا المرء لا يرعاك إلا تكلفا   فدعه ولا تكثر عليه تأسفا ... الخ.

[2] الحظ: يستعمل الجوهرية هذه الكلمة بمعنى الكيف والمرح وأحيانا السكر.

[3] هكذا في الأصل.

ثم أذكر شطرين من قصيدة قديمه :

روحـي عـنـي قـليـلاً واعـلـمي   أنـنـي يـا هـنـد مـن لـحـم ودم

إن فـي بـردي جـسـمـاً نـاحـلاً   لـو تـوكأتي عليـه لانـهدم ... الخ.

حادثة السمك والكوسا المحشي

عندما كنت موظفاً في سراي حاكم القدس منذ سنة ١٩١٩ ، عزم بعض زملائي بالوظيفة على تنظيم شطحة في يوم أحد ، وذلك في قرية قالونية في حديقة مقهى نقولا المشهورة هناك ، وكانت هذه الحديقة وكأنها جنة تجري من تحتها الأنهار ، تحت ظل شجر الرمان . . . أما الزملاء أذكر منهم حنا أسطفان وعائلته ، وصبحي عويضة ، وأندريا القسيس وعائلته ، وأخاه جورج وعائلته ، وطناس سلميت ، وقسطندي لباط ، وتادرس دعدوش ، وعطاالله اسطفان ، وداود ياسمينة ، وبشارة أفندي ، وحبيب وعائلته وغيرهم .

وكان بالطبع الذي يحمل مسؤولية هذه الشطحة من الوجهة الفنية صاحب هذا الكتاب بواسطة عوده وغنائه . وقد صادف أن درويش السمك كان -آنذاك- في جولة بالقدس فجاء أندريا القسيس وصبحي عويضة وأشاعا خبر وجود درويش بالقدس ، وقالا يا حبذا لو أمكن اصطحابه معنا ، وما لنا إلا واصف الذي يستطيع أن يحضره فتكون جلسة من العمر . وجاءوا بالفعل وسألوني فأجبتهم وهو كذلك تكرموا .

وفي صباح الأحد بعدما ذهبت هذه العائلات إلى قالونية ، بقيت أنا وأندريا وصبحي عويضة لأجل أن نأخذ درويش السمك معنا ، وهكذا أعطيت عودي إلى أندريا وصبحي وقلت لهم انتظروني بجانب المنشية شارع يافا حتى أتمكن من جلب درويش ، ثم نلتحق بمن وصل إلى قالونية ، فكان ذلك وبقي أندريا وصبحي وعودي . . . في الانتظار .

ذهبت إلى بيت الستر . . . مأوى درويش المعهود . . . فدخلت وإذ درويش كان جالساً على مائدة مستديرة ومن حوله ثلاث حسان . . . وهو وكل منهم بيده مقورة ينقرون بواسطتها الكوسا . . . والجميع في هرج وحظ وما أدراك السمك وجلساته الفريدة الذي كان يبصبص فيها على الحسن الرباني .

جئت مسلماً وقلت لدرويش قم . . . ها أنا دبرت لك شطحة من العمر في قالونية . . . أجاب بصوته الأجش الذي كان يشبه صوت المرحوم نجيب الريحاني عندما يتكلم ، قال "طيب أقعد أهلاً بواصف" . . . ثم التفت إلى إحداهن وقال سميحة . . . أعطيه مقورة . . . فأعطتني المقورة التي كانت بيدها فجلست وباشرت العمل . وما هي إلا دقائق وإذ بطاولة المازة والخمر وعليها ماهب ودب من مختلف المازات والفواكه وقال قوموا هناك . فقمنا ، وبالطبع بعدما انتهينا من عملية تقوير الكوسى . . . فمسكت عودي وبلشنا بالغناء والشرب والحظ والنكت إلى منتصف الليل . وبعدها حاولت أن أستأذن بالذهاب ، ولكن قال درويش "أنى لك هذا" . فنمت هناك ، وفي صبيحة الاثنين عدنا إلى مثل ما كنا من نهار الأحد إلى منتصف الليل عندما سمح لي بالذهاب بكل صعوبة .

ذهبت ودخلت دار الجوهرية وأنا على جانب عظيم من الحظ ، وعند الصباح من نهار الثلاثاء عرجت على عيادة الدكتور طنوس ، فحصلت منه على رابور طبي[1] يبرهن مرضي نهار الاثنين فاستلمت الرابور وقصدت السراي وقدمته إلى رئيس الكتبة المستر ماكفرسون. وهناك البكاء وصرير الأسنان عندما دخلت المكتب ، فكانت عيون الزملاء تحلق في ولو أمكنها تقطيع جسمي إرباً إرباً من شدة غيظهم لعدم حضوري الشطحة التي كانت فيها عاقبتي طيلة نهار الأحد موضوع البحث ليس إلا ، إلى أن رجعوا جميعهم عند المساء وكل يشتم واصف في السر والعلانية ، فمنهم كان يتحدث إلي رسمياً بالوظيفة أما صديقنا أندريا القسيس وصبحي عويضة فانقطعت بيننا العلاقات الدبلوماسية ، ولم يكلماني مدة طويلة إلى أن الله أرسل لنا الحكم للبت في هذه المشكلة ، ألا وهو الأخ الأكبر متري فراج ، وبعد فتح الجلسة لأول مرة جاء أندريا وقدم شكواه من طقطق لسلام عليكم . . . وبعدها سألني الحاكم هل أنت مذنب يا واصف؟ أجبته كلا يا سيدي ، وحدثته ما جرى لي مع السكسك بالتفصيل بعدما أقسمت له بأغلظ الإيمان.

وهات يا ضحك في قاعة المحكمة. ولكن حديثي قد زاد غضب ونرفزة أندريا ، وقال هذا شيء عجيب ، إنه عذر أقبح من ذنب. وبعد الاستراحة صدر القرار الآتي :

> بعد دقة النظر في هذه القضية ، فقد رأت المحكمة أن المدعى عليه واصف جوهرية على حق في كل ما جرى وحدث ، نظراً للأسباب الآتية :
>
> ١ . من عرف واصف حق المعرفة وحبه المتفاني ، بل عشقه لفن الموسيقى منذ حداثته ، لا يعجب عندما يراه مجتمعاً بالمطرب درويش السكسك ، وهو في الحالة التي وصفها لنا بين الحسان ، ولن يترك مجلس الأنس هذا والفريد من نوعه.
>
> ٢ . وبالنظر لفنه لا يجرؤ على رفض السكسك ، بل حباً بالفن وتقديره للطرب فقد لبى بطيبة خاطر طلب السكسك ، وأخذ المقورة وساعدني في نقر الكوسا .
>
> ٣ . ولو بالفرض رفض واصف المدعى عليه طلب السكسك والحسان الثلاث لكان قد بقي السكسك في ذلك البيت ، وعند رجوع واصف وحده فلن يصدقه أحد من الزملاء ، ولكان أصبحت وقعته سوداء ، وخصوصاً مع أندريا .
>
> ٤ . أما قضاء واصف ليلته في ذلك البيت وفي ذلك الجو ، فلن يعاتبه عليها أحد ، وقد أبرز بالفعل تقريراً طبياً وقبل هذا التقرير ، فوالحالة هذه ، فإن الطريقة التي تغيب فيها عن الإدارة كانت ولا شك قانونية من حيث الوظيفة.

[1] رابور: تقرير.

وبناء عليه، قد صدر العفو التام على المدعى عليه والحكم على المدعي وحاشيته بأن يصفحوا عنه ويسامحوه . . . وهناك التصفيق الحاد والصياح، فأشبعنا بعضنا قبلاً، وخصوصا أندريا القسيس الذي لن ينسى وقفته مع صبحي حاملاً العود لينتظر الساعات الطويلة في شارع يافا . .آه. هذه حادثة من حوادث عديدة طريفة يصعب تدوين الكثير منها . . . فسقيا لأيامنا ما كان أطيبها أفندم.

المرحومة عفيفة: "وعند صفو الليالي يحدث الكدر"

بمناسبة عيد القديس ميخائيل قضيت تلك الليلة في بيت المرحوم ميخائيل منصور والد صديقنا حنا، وكانت -والحق يقال- ليلة من العمر تجلى فيها الطرب والغناء والسرور إلى مطلع الفجر. كانت هذه السهرة في دار منصور حارة النصارى بجوار دار إلياس قزاز، وكانت مجموعة من العائلات المعروفة من أبناء الطائفة معارفنا أمثال عائلة المني، وعنصرة، وحرامي، وثيودوسي، وشبر، ومحشي، وغيرهم، لأن زوجة المرحوم ميخائيل منصور صاحب الدعوة هي أخت متري عبد الله المني جارنا وجار الرضا.

واني أذكر عند مطلع الفجر تركنا دار منصور والجميع منا يردد الأغاني التي كنت أغنيها في أعلى صوتي، وأعزف على العود في الشوارع، إلى أن وصلنا دار الجوهرية المعلومة في حي السعدية، والجدير بالذكر أننا عرجنا على معصرة للسيرج[1] بجانب فرن الزردق، فدخلنا ونحن جميعاً على جانب عظيم من الحظ، وتناولنا ما تيسر من الكسبة الطازجة من حوض المعصرة.

ولكن أقولها صراحة عندما دخلنا الدار انقلبت والعياذ بالله تلك الأفراح إلى أتراح. فقد وجدنا الأخت عفيفة على آخر رمق من الحياة، وقد فارقت بعد لحظات حياتها، وخلفت لنا الحسرة. تصور وتأمل جلياً بهذه الصدمة والموقف الحرج، فكنت لم أستطع آنذاك أفرق ما بين نشوة السكر والحظ وبين الأسى . . . في تلك الجنازة المحزنة والمأتم، وقد أحاط بي المواسون . . . كل منهم يحلق في عيوني الحمرة والدموع تنهار منها كالسيل، وقد امتزجت دموعي بما شربته من الخمر في تلك الليلة النادرة.

أما حادث وفاة المرحومة فكان فجائياً، فقد أتت لزيارتنا قبل يوم واحد فقط، وأصابها وجع أليم في الباطنة، فزارها الطبيب الفرنكي فطمن الوالدة على حياتها، وقال الحاصل أنه برد شديد ليس إلا . . . وهكذا توفيت وهو حاضر وقد تركها ولم يعلم أنه ربما المصران الأعور الذي التهب وسبب لها الوفاة. خلفت المسكينة وداد ونهيل ونبيهة صغاراً، وكان عمرها لا يزيد على الثلاثين عاماً على ما أعلم، رحمها الله رحمة واسعة وأسكنها فسيح جنانه. آه

[1] معصرة للسيرج: زيت السمسم ويستخرج من عصر حبوب السمسم.

ساعدني الحظ بالتعرف على المرحوم الشيخ أحمد الطريفي في إحدى سهراتي، وكانت عند أخي وصديقي المحامي فخري بك عاصم، وقد ضمت ليلة الأنس هذه نخبة من أبناء القدس الكرام أمثال كامل أفندي البديري، وداود الفتياني، وتحسين الخالدي، واسحق البديري، والشيخ محمد الصالح، والشيخ موسى البديري وغيرهم، وكان أصدقاء المرحوم الشيخ أحمد الطريفي من أهالي يافا المرحوم عمر البيطار، وديب الجفليط وغيرهم، وقد أجاد الشيخ أحمد في غنائه، الأمر الذي جعلني أشبه بمن يرقص على عوده . . . فكنت أنا الوحيد الذي يترجم ما ينشده من قصائد على عودي، وقد دهش مني ورمقني بعطفه وحبه بواسطة الفن الرفيع.

إنني لا أبالغ إذا قلت صراحة إن صوت المرحوم الشيخ أحمد الطريفي من أرقى الأصوات القوية المشبعة حقاً، وإن غناءه كان في الغالب القصائد، ولو كانت خالية من التفنن في اللحن، بل كانت صلبة تعبر المعنى أكثر من المغنى . . . كما يقولون الأمر الذي يجعل المستمع إليها بالنسبة إلى أسلوبه في الأداء الذي يشبه تلاوة القرآن، وثم بالنسبة إلى قوة صوته Tenor يجعل المستمع يطير فرحاً وطرباً من حيث لا يدري. ومن بعض القصائد التي كان ينشدها -رحمه الله- وأكثرها من مقام الجهاركا (تحيرت والرحمن لا شك في أمري وصلت بي الأكدار من حيث لا أدري، نالت على يدها ما لم تنله يدي . . . الخ، أشكو إلى الله من نارين واحدة . . . الخ، قالت لقد أشمت بي حسدي . . . الخ، الزم باب ربك واترك كل دون . . . الخ، إن رمت المعالي والفرح المقيم . . . الخ).

كنت أرتاح جداً عندما ينشد قصيدته المشهورة، وهي أقوى تلحيناً ومن مقام السيكاه، ربما كانت هي الوحيدة من هذا المقام . . . مطلعها:

"جرحت قلبي بلحظ منك فتاك فمن بذا يا حياة الروح أفتاك"

كان المرحوم الشيخ أحمد الطريفي مقرئاً وقد أجاد في زمانه في هذا الباب، ولأجل الصدف قد تمسك المرحوم بصداقتي لأنه أعجب بما أنا عليه من تعشق للموسيقى، وكانت سهرة الأنس هذه فاتحة عهد صداقة متينة بيننا، الأمر الذي جعل الشيخ أحمد أن يصطفيني من أهالي القدس، فارتفعت الكلفة بيننا وأصبح لنا أخاً وصديقاً مخلصاً، وإني أذكر أنه بعد تلك الليلة ذهب إلى يافا ورجع القدس بعد حوالي أسبوع، فنزل في بيتنا دار الجوهرية محلة السعدية، وأقام بيننا مدة اثنين وأربعين يوماً، وقضينا هذه الأيام والليالي من أطيب وأحسن أيامنا ولياليناا. كان -رحمه الله- في الصباح عندما يقوم من نومه يتقدم بكل حشمة ووقار فيقبل أيادي المرحومة الوالدة، ويرتاح لكسب رضائها، وكأنها والدته لا فرق بيننا وبينه وهكذا كانت الصداقة بالمعروف آنذاك والحمد لله.

لا أبالغ إذا قلت إن الشيخ أحمد الطريفي كان يعتبر من أجمل شبان عصره، ذا قامة طويلة منتصبة ومتناسبة في أعضائه وقوامه، وربما كان يفوق الدكتور يعقوب نزهة طولاً، وكان وجهه جميلاً أنيساً مبتسماً وشخصية فذة، وكان لباسه العربي القمباز الغباني الروزا وعباءته السوداء المصرية "سلطان الأصواف" تزيده جمالاً وروعة وأناقة. كان بالنسبة لهذا الجسم

الكبير –لا أبالغ كان رحمه الله– أكولاً ، ففي الصباح عندما يمسح زوره على الريق يشرب أربع بيضات . . . ساخنة قبل الأكل ، فإذا ما شرب خمراً تجد الكاس أمامه كاساً كبيراً مليئاً من العرق الممزوج بالماء البارد ، حتى أطلقنا عليه اسم "الأطرميز اللبن" . . . وإني أسوق للقارئ مدى قوة صوته أنه في ذات ليلة من سهراتنا في دار الجوهرية كان –رحمه الله– يجلس في وسط الصالون ينشد بعض قصائده حتى علمنا أن عائلة أم يوسف عبده في حارة النصارى[1] كانوا جميعهم يسهرون على البلكون يستمعون إليه ، ويتفهمون كل كلمة نطق بها فتأمل .

هذه صورة وجيزة عن صديقي وأخي المرحوم الشيخ أحمد الطريفي ، فقد خسرت بوفاته سنداً في الموسيقى ، وأصبحت –والله أعلم– يتيماً في الفن . والجدير بالذكر أنه كان لا يقبل أن يعد أحداً بالقدس ممن يدعونه لحفلة ما ، إلا وأكون أنا الوسيط ، فتأمل . . . رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جنانه .

[1] بين مقام الشيخ ريحان في حارة السعدية – وهي مكان بيت الجوهرية – وبين حارة النصارى مسافة ٤٠٠ متر تقريباً، وهي المسافة التي يشير إليها واصف جوهرية.

تعيين راغب بك النشاشيبي رئيساً لبلدية القدس

عينت حكومة الانتداب فور بدء الإدارة المدنية في سنة ١٩٢١ راغب بك النشاشيبي رئيساً لبلدية القدس وذلك عوضاً عن المغفور له موسى كاظم باشا الحسيني الذي استقال لأسباب سياسية كما بينت ذلك أعلاه .

كان راغب بك النشاشيبي –آنذاك– في حلب ، وقد استدعي خصيصاً لهذا الغرض ، وإني أذكر ، بصفتي من المقربين لراغب بك الذي كنت على اتصال دائم معه في جلساته الطروبة ، أنه عندما استلم وظيفة رئاسة البلدية ملأ بالفعل هذا الكرسي الرفيع ، حتى أني لا أبالغ إذا قلتها صراحة إنه جعل منها أشبه بملك وليس رئيس بلدية ، فإذا ما رغبت مواجهته في الدائرة ترى العجب العجاب ، فيدخلك الحاجب ويسلمك لآخر خلف ستائر (برافانات) إلى أن تشاهد تلك الشخصية الفذة .

كان راغب بك كريم النفس ، وكما يقولون كساب وهاب . . . وقد امتاز بجوده وكرمه وطريقة عيشته على كثيرين من أبناء القدس ، وكان –والحق يقال– مفخرة لأهل بيت المقدس ، وخصوصاً عندما يستقبل الغرباء الذين يزورون القدس ، وله حوادث غريبة في هذا الباب يصعب عليّ ذكرها . وحقيقة ، بواسطة أسلوبه هذا ، قد كان يستهوي كل من عرفه ، وينال منه ما يرغب ، وأذكر هذا الحادث الصغير الذي يبين للقارئ لمحة على وجوده :

كان راغب بك يعيش قبل تعيينه رئيس بلدية في بيته القديم ، أي بيت والده المرحوم الشيخ رشيد النشاشيبي وحيداً . وكانت زوجته اليهودية التي مر ذكرها تسكن بيتاً خاصاً في شارع يافا . إني أذكر جيداً عندما تعين رئيساً لبلدية القدس كان لم يزل يحتفظ بتلك العربة التي يجرها الحصان الإنكليزي . فكان –رحمه الله– يأخذني إلى مخزن بيت صليل الواقع في شارع يافا وهو المكان ذاته الذي بني فيه الآن بنك باركلس ودائرة البلدية .

كان يأخذ في عربته على سبيل الإعارة كمية من التحف من صنع يهود اليمن في معمل بيت صليل المشهور المصنوع من الفضة والنحاس ومزهريات وشمعدانات وأواني للسكاير ، وبلابل للسجارة وغيرها ، وكنت وإياه عند وصولنا إلى بيت والده الشيخ رشيد نرتب هذه التحف في الصالة باعتبار أنها من بعض أثاثه . وقد بدأ حال تعيينه بإقامة الحفلات النادرة

في هذا البيت لأعظم موظفي الانتداب البريطاني، فكان مجالس أنس فريدة تضم شخصيات بارزه من المحتلين وزوجاتهم ورؤساء الدوائر إنكليزاً وعرباً ويهود. وعندما تنظر سيدة ما إلى تحفة من هذه التحف يشير إلي بنظرة سرية، فأحتفظ فوراً بالتحفة بعدما أحصل منه على اسم تلك السيدة، وثاني يوم من الحفلة أذهب بنفسي وأقدم لها في بيتها تلك التحفة من راغب بك كهدية متواضعة للذكرى.

بقي على هذه الطريقة حتى ذهب إلى الآستانة، وجاءنا بزوجته المعهودة المسيحية وهي أرمنية، الماهرة في الدعوات، والتي تتقن بضع لغات، فارتفعت أسهم راغب بك وأصبح بيته مشهوراً بما يضم ويحتويه من أثاث فاخر وسجاد عجمي، الأمر الذي ملك قلوب رؤساء الحاكمين في هذه البلاد، وكان -رحمه الله- بعد زواجه من زوجته المسيحية يقص عليها بحضوري ما كنا نعمله في الحفلات الابتدائية، فتجيبه إذا الفضل لواصف... في هذا المجال وليس لك فيوافق.

المرحوم كامل أفندي البديري

تعرفت بالمرحوم كامل البديري منذ حداثتي بمناسبة مجالس الأنس التي كنا نقضيها برياسة حسين أفندي الحسيني، وكان كامل يدعو حسين أفندي بالخال، ربما قرابة بعيده كانت بواسطة الأم بينهما. كان كامل -رحمه الله- رجلاً عظيماً ووطنياً غيوراً يتفانى بحبه للعرب والعروبة، وكان موظفاً في زمن العهد العثماني، فكان مدير ناحية للرملة، وبعدها مدير ناحية أريحا، وهو من أهالي القدس المعروفين، وشقيق الشيخ موسى البديري. وقد تعرف بإحدى بنات طائفة الروم تدعى حنة أبو الشر عندما كان والدها يشغل فندق الجمل الكائن في عمارة البلدية الواقعة خارج باب الخليل، التي استعملت كدائرة لبلدية القدس في زمن المرحوم حسين أفندي الحسيني سنة ١٩٠٨. زاد عشق كامل لحنة أبو الشر، وأصبح موضوع بحث أهالي مدينة القدس، إلى أن أسفر اعتناق حنة الدين الإسلامي، وتزوجت من كامل زمن الحكم العثماني، وكان -والحق يقال- حادثاً غريباً ونادراً حدوثه في ذلك الزمن، الأمر الذي جعل هاوياً بأن ينظم ويلحن طقطوقة لهذه المناسبة، وأصبحت تردد في مجالس الأنس والسهرات والأفراح في بيت المقدس، وكنت أنا أغنيها وأعزفها على عودي، وأنا في أول عمري، وهذه بعض أبياتها أدونها للذكرى:

حنيني يما حنيني	لا تجنن واطلع عن ديني
يا عربجي دير الفيتون[1]	ع دار البديري وديني[2]

دور

حنة واقفة ع البلكون	تنده لكامل بالتلفون
طقوا موتوا يا بنات الروم	دين محمد على ديني

[1] الفيتون هو عبارة عن عربة يجرها حصان واحد، وكانت هذه العربة تستعمل عادة عند الأفندية والبكاوات.

[2] وديني: خذني.

لم تنجب حنة من كامل أولاداً، وأعتقد أنه طلقها في النهاية ربما بعد الاحتلال البريطاني، وقد سجلت هذه الأغنية مع جملة أغانٍ شعبية قديمة التي كانت تغنى بالقدس عند ابنتي يسرى[1] بصوتي ثم دون اللحن بواسطة الأستاذ سلفادور عرنيطة عندما خصص الزوجان بجمع الأغاني الشعبية في بيروت سنة ١٩٥٩، وهي من مقام راست نوى. وقد تواصلت صداقتي مع المرحوم كامل بعد الاحتلال البريطاني، وكان ناقماً -رحمه الله- على الوضع بعد الاحتلال لما احتالوا على العرب، ووعدوا اليهود بتأسيس الوطن القومي، وهو وعد بلفور المشؤوم في فلسطين، وإني أذكر في ليلة ساهرة في بيت البديري محلة باب الساهرة كانت مجموعة كبيرة من أبناء القدس، وهو على جانب عظيم من الحظ . . . كان يخطب بحماس بينهم بلغته الركيكة، ولكنها كانت مملوءة بالوطنية والشرف، وكانت عيونه متجهة إلى فخري النشاشيبي يكيل له النصائح، بل الشتائم بالوزن الثقيل . . . ويصحيه من غفلته عندما تعين ياوراً خاصاً في معية المندوب السامي السير هربرت صموئيل بالقدس، وإني لم أزل أحتفظ بصورة تاريخية له لم تزل في المجموعة الجوهرية للذكرى.

كان كامل -رحمه الله- يأمر ابن أخيه خليل بن الشيخ موسى البديري بأن يقف عالياً على كرسي، وكان آنذاك ولداً صغيراً، ويلقي علينا بعض القصائد الوطنية والشعبية، وكلها حماس، وبهذا كان كامل فخوراً ومسروراً ويهجم على ابن أخيه ويقبله بشغف ولهفة، وكان يلقب ابن أخيه خليل بالبجوري.

لم يقبل كامل أية وظيفة زمن الانتداب البريطاني الذي يمقته، بل بقي في أشغال حرة، وأصدر جريدة الصباح سنة ١٩٢١ بالقدس، ولكن مما يأسف إليه أن كامل البديري مات قتلاً بغدر وخسة، وذلك في صحراء العرب . . . رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جنانه، فهو -والحق يقال- من قائمة شهداء الأمة العربية.

وإني أذكر جيداً عندما كنا في إحدى السهرات في حي باب الساهرة، وكانت نخبة من أبناء القدس المخلصين يستمعون إلى عزف عودي وغنائي، وكان المرحوم كامل البديري على جانب عظيم من الحظ،[2] فقيل له أن بعض الجنود البريطانيين، وكانوا في حالة رديئة من السكر -أعتقد أنها ليلة رأس السنة- كانوا يتجولون في أنحاء المدينة وأطرافها وهم سكارى يعربدون ويتعدون على الحانات. ولما علم كامل البديري بذلك وكان مولعاً في عربته الخاصة التي كانت يقودها زوج من الجياد الجيدة، إذ خرج من البيت ورأى بأم عينه شلة من هؤلاء الجنود يرغبون في الاستيلاء على عربته، فقفز من على الأرض وكان لا يعرف اللغة الإنكليزية، وبطولته وقوة سواعده ألقى اثنين من الجنود من على مقعد العربجي فطرحوا أرضاً . . . بصورة فظيعة ومخطرة للغاية، واستلم بالحال وبسرعة فائقة سرج الخيل وساقها وهو يقول لهم ولا جوني . . . ولا جوني . . . وذهب إلى حي آخر من أحياء القدس إلى الصباح. ولكن حضرت قوة من الجيش وابتدأت بالتحريات والتفتيش والقوه على حي باب الساهرة عندما وجدوا أن الجنديين المطروحين أرضاً كانا على وشك فقدهما حياتهما، وهكذا أسعفهما ونقلاهما إلى مستشفى الجيش.

وقد اجتمعنا ثاني يوم بالمرحوم كامل البديري وهو يقهقه ضحكاً ويشتم بريطانيا واليوم الذي احتلت بها بلادنا. والجدير بالذكر أن الجنود البريطانيين، جيش الاحتلال، عندما كان يسكر من نشوة النصر ويتجول في القدس قالها المرحوم كامل

[1] توفيت يسرى عرنيطة ابنة واصف في الولايات المتحدة خلال تحرير هذا الكتاب في شهر آذار العام ٢٠٠٠.

[2] الحظ: التجلي التابع من السكر.

البديري نحمد الله ونشكره على وجود قومبانيات اليهود آنذاك، التي كانت تتحمل هذه الفظائع والتعدي في حالة سكرهم بطيبة خاطر . . . وإلا كنا الهدف لا سمح الله !

الله يلعن اللي بيركن عليكم

إلى القارئ الكريم أدون هذا الحادث الطريف وقع أثناء نزول المرحوم المطرب الشيخ أحمد الطريفي في بيتنا كما ذكرت أعلاه :

وعدت صديقنا الخواجة سلمون الخياط المشهور آنذاك بالقدس - خياط للرجال، بإحياء سهرة في بيته الواقع في حي المونتفيوري بالقدس، وكان -رحمه الله- مع جملة من مجاوريه اليهود يتذوقون الموسيقى العربية. وعدته بإحياء هذه السهرة شريطة أن يكون الشيخ أحمد الطريفي بطلها .

جلست وأخي توفيق والشيخ أحمد عند المساء في حانة معروفة مقابل منتزه البلدية لصاحبها إرشيدي . . . وتناولنا مشروب العرق حتى يأخذ الليل مأخذه، وكانت هذه الحانة محجاً لنخبة من خيار أفندية أبناء القدس؛ أمثال حسين الأرناؤوط، وداود الفتياني، ورشدي المهتدي، وعبد الرحيم الطبجي، وفخري عاصم، وفخري النشاشيبي، وإسماعيل النشاشيبي، ومصطفى السرية، وفوزي درويش، ومنير درويش، وغيرهم، وجميعهم ينظرون بلهفة وابتسامة وبشاشة إلى المطرب الشيخ أحمد الطريفي.

دخل الحانة فجأة صديقنا محي الدين قميع . . . وكان حاضر النكتة خفيف الروح وخفيف الظل، وله عدة حوادث طريفة دونت أعلاه. دخل قميع ووقف أمامنا وعلى مسمع الحضور بأعلى صوته مخاطبا :

"توفيق الله يلعن اللي بيركن عليكم ! ! الغسيل مبّلل . . . وحطت أختي النار . . . والوالدة قال مش جاي اليوم . . . قال إصبعها مدوحس ! ! أما مسخرة صحيح . . . يا أخي كان تبعت خبر قبل بيوم ! !".

صعد الدم في وجه أخي توفيق وجن جنونه وأصبح الجميع يقهقه من الضحك لعلمهم نوادر قميع. وأما الشيخ أحمد الطريفي فكان منهولاً . . وهذا الأمر الذي جعل أخي توفيق يغضب خوفاً من أن يصدق الشيخ أحمد هذا الكلام، وهو الذي يقبل أيادي الوالدة في الصباح، طالباً رضاها ويحترمها احتراماً عظيماً .

صب أخي توفيق الشائم من الوزن الثقيل على قميع. وبعدما ترك قميع الحانة أخذ توفيق بالتحدث عن قميع ونوادره إلى الشيخ أحمد، ولكن بصورة غير طبيعية، أما أنا فقد كنت في حالة غيبوبة من شدة الضحك، كلما ذكرت تلك العبارة المحكمة لضيفنا الجليل، وهي ولا شك قابلة للتصديق. ذهبنا إلى السهرة وكانت -والحق يقال- عظيمة، ولكن أخي توفيق بقي طول الليل مكتئباً ومفعولاً [منفعلاً] ويقدح أفكاره للثأر من قميع ليرد له هذه الإهانة والإساءة بأكبر منها .



قوة بوليس القدس عام ١٩٢١: الاول من اليمين (جلوس) هاوزر وثم مكنزي وساوندرس ويراملي وابراهيم الدزدار وآخر غير معروف . (وقوف) اسحق العلي، محمد الجاعوني، هرنكتون، بر سير، أحمد شرف، ابراهيم عويضة وابراهيم البيطار. من المجموعة الجوهرية.

زارت بديعة القدس لأول مرة ومعها عازف العود شحادة "يهودي" يترأس فرقة موسيقية متواضعة على ما أذكر سنة ١٩٢٠، يصحبها راقصتان بلباس قومي مصري، ونزلت في فندق صغير لصاحبها مينا ميخائيل الحلبي، يقع حذاء بوابة الخليل من الداخل مباشرة، وقد استعمل فيما بعد مطبعة لجريدة مرآة الشرق لصاحبها المرحوم بولس شحادة من أهالي رام الله. اشتغلت على مسرح مقهى المعارف خارج باب الخليل، وكان يعرف هذا المسرح -رغم صغره- بأحسن مسارح القدس، وكانت تغني بعض أغنيات وترقص هي ومن معها من الراقصات على ألحان هذه الأغنيات، وتمثل بها المعنى الحقيقي، فإذا ما غنت طقطوقة:

فستق مملح ولذيذ يا أفندي	خدلك وقية ولا إثنين
فستق بلادنا مالوش مثيل	والحبة منه تشد الحيل

تكون بلباس بائعة الفستق، وبيدها الإناء المعد لبيع هذا الفستق، ثم تنتقل إلى طقطوقة أخرى مطلعها:

يا نواعم يا تفاح	يا حاجة حلوة كويسة
واللي تبيعك بيضة	وأمورة وست النسا

من مقام الحجاز كار، فتمثل بائعة التفاح الذي يكون بعضه في يدها بألبسة خاصة، ثم تنتقل إلى طقطوقة أخرى مطلعها:

صح النوم ما تقوم يا حبيبي	ريق ريقك ع الحليب
يا لبن قشطة وحياة حبك	لو داقه العيان ليطيب

من مقام راست نوى، فتمثل بائعة الحليب، وكانت -والحق يقال- تجيد هذا النوع من الغناء الخفيف كل الإجادة، وتتجلى برقصها وحركاتها لما هي عليه، ولا شك من قوام فاتن وجمال باهر وبسمة وجه ولطف حتى، وكان المستمعون والمشاهدون لغنائها وجمالها يحسون أنهم في الجنة ويغيبون عن الدنيا.

وكانت تعتني كثيراً بغناء وألحان المرحوم السيد درويش، والجدير بالذكر أنها عندما كانت تغني الأغنية، وخصوصاً المونولوجات المشهورة، كانت تعطي المستمع صورة عن معنى الكلمة التي كانت تبهرك وهي تخرج من فمها أثناء الأداء، فمثلاً أذكر مونولوج من مقام عجم:

ما قلت لكش إن الكثرة	لا بد يوم تغلب الشجاعة

ثم البيت منها يستهزئ بالأغنياء الذين لا يشعرون بالوطنية فتقول:

الحق كله على الأغنيا	قمم يا فرحتنا بكثرتهم
مستقلين بسروزه ويمريا	الطس نازل على أستهم
إستى بقى نشوف قرش الشرقي	يفضل ببلده ولا بطلعشي
إنتم في مالكم واحنا بروحنا	دي يد وحده ما تصفقشي.

فعندما تصل إلى كلمة قمم يا فرحتنا بكثرتهم تحلق بنظرها إلى (ثري معروف ببخله) من الجمهور من على المسرح. وبهذه النظرة السخرة ترى جميع الحضور تحول أنظارهم إلى هذا المسكين، وهات يا ضحك . . . وإذا كان هذا الثري مفقلاً كما يقولون في مصر تعيد القطعة وتزيد في الإشارة فتلاعب بأصابع يدها على منخارها ، وتكرر نظرها إليه، وكأن نظرها أشعة إكس فيذوب حينئذٍ من الخجل.

وإني أقولها صراحة بعد خبرة ليست بقليلة في الموسيقى والتمثيل، أن بديعة نادرة وهي بلا شك موهوبة بالمواهب الفنية السامية، وصاحبة الذوق الرفيع في جميع ضروب الفن، فكانت تبدع أيما إبداع، وهذا وصف قليل من كثير، لأن القلم يعجز عن وصفها. أما عازف العود شحادة فكان ممتازاً بالعزف، وقد قضينا معه وبديعة أوقاتاً جميلة في بيت المقدس لم يزل يذكرها الكثيرون من أصدقائنا بالقدس، فسقيا لتلك الأوقات ما كان أطيبها.

بديعة في مقهى الجوهرية

زادت معرفتي ببديعة فكنا، عدا عن حضورنا المسرح، نجتمع اجتماعات فنية خاصة، فقد نزلت بديعة في زيارة ثانية للقدس في فندق السان جون حارة النصارى داخل السور لصاحبه عمي صليبا سعد، وهكذا أصبحت بديعة من أقرب المقربين إلينا، واتصلت بالعائلة مباشرة، وإني أذكر أننا سهرنا مرة في مقهى الجوهرية لأصحابه أخي خليل، وجورج الحلبي، وحبيب موندو. تصور يا أخي سهرة داخل المقهى بعدما انتهى شغل النهار، فكانت جلسة نادرة تجلى فيها الحظ والطرب، وكانت تضم فئة من خيار الأصدقاء أمثال فخري بك عاصم، وتحسين الخالدي، وداود الفتياني، وعبد القادر العلمي، ومصطفى السرية. والجدير بالذكر أن الخوري سوتيري حنانيا كان من الحضور بلباسه الكهانوت وقد قلع عن رأسه القلوسة لما كان عليه من حظ وطرب، وإني لم أزل أحتفظ برسم لهذه السهرة في المجموعة الجوهرية للذكرى.

كنت أنا أعزف على العود، وعندما زادنا الطرب انتقلنا إلى دار والدي الجوهرية في محلة السعدية، وقد ضمت السهرة أيضاً فرقة بديعة والمرحوم نجيب بك الريحاني، فبقينا إلى مطلع الفجر، وكانت أعجبت بديعة كل الإعجاب عندما صفر المرحوم متري قسطندي المنى بفمه التقاسيم، وكان صفيره أشبه بكمان، وقد وقفت بديعة وتقدمت إليه وقبلته إعجاباً فصفق الحاضرون. أما المرحوم نجيب بك الريحاني ومن معه من بعض الفنانين المصريين، فأبدع بالنكتة، وخصوصاً الحوار

الذي امتلأ بالفكاهة والذي دار بينه وبين بديعة زوجته، أغمي علينا من شدة الضحك، والجدير بالذكر أن شمة الكوكايين وصل سعرها ما بينهم نصف ليرة مصري لكل شمة . . . والعياذ بالله !

بديعة في بيت الجبشة

كانت جملة اجتماعات بيني وبين بديعة منها ما كان في بيت المرحوم فخري النشاشيبي، وكان الحضور راغب بك، وماجد بك، وعلي بك جار الله، وغيرهم. أما السهرة التي لا أنساها ما دمت حياً، فكانت في بيت العم مصطفى الجبشة. كان العم أبو العبد مشهوراً بحبه للفن والجمال، وكان -رحمه الله- لا يفوته فنان زار القدس إلا يزور العم أبو العبد في بيته، فكان يصرف المال الكثير بدون حساب، وهكذا توفق فدعا بديعة وفرقتها إلى بيته. إنك تتعجب من هذه السهرة، فكانت بديعة بلباسها الشفاف المعد للرقص فقط على المسرح، وبيدها الفقاشات ترقص فتهز كل عضو من جسدها، وهي جالسة بيننا، وذلك على نغمات آلات الطرب، وخصوصاً القانون. الحضور فقط العم أبو العبد صاحب الدعوة، وإبراهيم شحادة العلمي، ومصطفى الموقت السرية، ومحمد السباسي، وصاحب هذا الكتاب. كنا جميعاً جالسين على فراش مطروحة على الأرض، وأمامنا ما هب ودب من الطعام المختلف الأشكال والأنواع، والخمور المختلفة، في غرفة صغيرة لا يزيد حجمها على ثلاثة أمتار بأربعة أمتار في داره المعروفة أمام فرن صبري عبد ربه، ولكن أؤكد للقارئ أن طائفة كبيرة من النساء اللواتي يعرفون العم أبو العبد كانوا في الحظيرة خارج هذه الغرفة يستمعن إلى الغناء، ويرقبهن هذا المشهد الفريد من شبابيك وباب الغرفة الصغيرة. قضينا ليلة من العمر أخذ الطرب والحظ منا كل مأخذ إلى الصباح عندما فوجئنا بصدر ملآن من مطبق زلاطيمو المشهور، فأكل كل منا ما طاب له من الحلوى، وتركنا بيت العم أبي العبد شاكرين، وقد فهمت بأن العم أبا العبد دفع إلى بديعة حوالي خمس وثلاثين ليرة، فقامت بليلة ساحرة على أحسن وجه من الفن.

من المعروف عن بديعة أنها كريمة النفس طيبة القلب حافظة للجميل، وقد صادف أن ابنتي يسرى زارت القاهرة مع زميلات لها من جمعية النساء في المدرسة، وقد رغبت حضور بديعة، فعندما وصلت صالة بديعة وأرسلت الخبر بأن يسرى ابنة واصف جوهرية موجودة، جاءت بديعة للمدخل بنفسها، واستقبلتها ومن معها من الآنسات وأجلستها في أول المقاعد، وحضرت بديعة وأعجبت بها كل الإعجاب، وبدون أن تدفع بارة الفرد، فرجعت يسرى وهي تبهج بهذه الفنانة وتشكر لطفها. أكثر الله من أمثال بديعة في المجال الفني وحفظها الله جوهرة فريدة للشرق.

ملاحظة: كنت عندما أنتهي من عملي وأنا موظف في دائرة حاكم القدس لا أنقطع من الاجتماع ببديعة التي كانت في فندق السان جون لعمي والد زوجتي فيما بعد، وكان يتردد عليها رجل غريب الشكل والهندام، فكان يلبس عمة صغيرة من الشاش الخفيف على رأسه وجبة طويلة يستتر بها، وكان نحيف القوام ووجهه ضعيف يزوي معها مراراً في صالة الفندق ثم يتركها، وكان الحضور يهمسون لبعضهم بأنه من أقاربها أو أخيها . . . والعلم عند الله.

بديعة مصابني

المصور غير معروف. من مجموعة الجمعية العربية للتراث المصور في بيروت.

أخي وصديقي نجيب الريحاني



على ذكر الفنانة بديعة، فلا بد لي أن أذكر نجيب رفيق حياتها الذي أصبح زوجاً لها بواسطة الفن المشترك من الطرفين.

عرفت نجيب عن طريق بديعة بالقدس، إلا أن وجوده بالقدس لم يدعني أن أتركه يوماً واحداً، فكنت أرافقه في أغلب جلساته الخاصة، وخصوصاً مع فخري النشاشيبي الذي كان من أخلص أصدقائه. أما شخصية نجيب الفذة، فهي ليست بحاجة إلى تعريف، فقد كان -رحمه الله- علماً أعلام فناني مصر، بل في الشرق على ما أعلم، وله الفضل وكل الفضل في التمثيل الحقيقي، وقد اعتلى خشبة المسرح منذ الصغر، وقد قال لنا مرة "شوف يا واصف يرجع الفضل لتفوقي في التمثيل إلى المرحومة والدتي"، فقلت له: الله ليه يا أستاذ أكانت هي ممثلة أيضاً؟ قال: لا، قلت إذاً؟ فأجاب "كنت وأنا صغير ثورة متنقلة في كل لعبي وعملي في البيت، وكنت أسبب لها انزعاجاً قوياً في حياتها، فكانت رحمها الله تشتمني وتقول "روح إلهي يفرج الناس عليك..."، وهكذا ربنا استجاب وأصبحت على المسرح يضحك علي حتى الحزين...

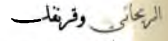
كنت أعرفه بكثير من أصدقائي بالقدس، وخصوصاً العائلات، ولنا مع فخري النشاشيبي ذكريات لطيفة يضيق الوقت لسردها، وذلك في بيوت الأسر اليهودية الراقية الأصيلة بالقدس، فكان نجيب يرتاح جداً بهذه الجلسات، ويبدع كل الإبداع في النكتة التي خلق لها. وإني أعود وأقول إنني لن أنسى جلساته النادرة وهو كزوج بديعة مصابني، فهناك جنة النعم لما تشاهده من نقد ونكتة وخفة دم وطرب، فسقيا تلك الأيام. كان نجيب صديقاً لصديقنا المصور أكوب زرونيان، وقد أخذ له رسوماً جميلة جداً وهو في حالة كشكش بك، وقد احتفظت ضمن المجموعة الجوهرية بعضها موقعة بتوقيع نجيب حفظتها للذكرى والتاريخ.



نجيب الريحاني.

المصور غير معروف.

الريحاني وقرنفل



أذكر هذه الحادثة الطريفة الواقعة في بيت المقدس لإعطاء فكرة مصغرة للقارئ عن طريقة النكتة البديهية التي كان يتمتع بها الريحاني:

كان مقهى برستول (الواقع خلف سور باب الخليل ومقابل ملك كلارك شارع يافا) من أشهر مقاهي المدينة آنذاك بإدارة صديقنا إلياس قرنفل من أهالي بيت لحم وشريكته المسز روز الإنكليزية، وكان رواد هذا المقهى من خيرة الشخصيات من الأهالي. وقد صادف وجودي والريحاني وفخري النشاشيبي هناك في مساء ذات يوم للتأهب لسهرة في حي المونتفيوري، وكان ولا شك وجود الريحاني هناك هدفاً لأنظار جميع الرواد الحاضرين بصفته الفنان والممثل الشهير. لم يشأ قرنفل أن يرسل الجرسون لسؤالنا، بل حضر هو بالذات وسأل كلاً منا عن ما يرغبه من الخمر، وعلى ما أذكر طلب فخري كاساً من الويسكي، وأنا طلبت شرحه... ولدى سؤال قرنفل للريحاني طلب الريحاني (كاس زبيب) أي عرق، وأراد قرنفل أن يداعبه فقال الله يا أستاذ زبيب؟!! زبيب ليه؟

فعندها التفت الريحاني إلي وسألني بصوته الأجش "يا واصف اسمه ليه ده.. فأجبته" السي قرنفل"، فحبكت النكتة وقال لي بأعلى صوته "إيه سي قرنفل!! قرنفل ليه وبتاع ليه ده نسا.. وبس".

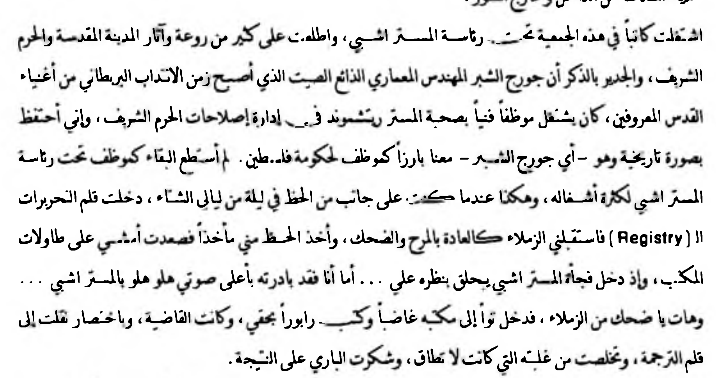
قال هذا وهات يا ضحك من الجمهور . . . أما قرنفل الذي أصبح ولا شك (نسا) بين أهالي القدس فركض ودخل داخل المقهى مغشياً عليه من الضحك والتعجب من سرعة خاطر الريحاني. آه.



شعار جمعية محبي القدس

جمعية محبي القدس

تألفت جمعية باسم جمعية محبي القدس (Pro – Jerusalem Society) عند احتلال المدينة من بريطانيا، وذلك من قبل حاكم القدس العسكري رونالد ستورس، ومن بعض شخصيات رؤساء الدولة أمثال ريتشموند، واشبي، ولوك، ومن زبدة أعيان المدينة على مختلف طوائفها. أما هدف هذه الجمعية، فهو المحافظة التامة على طابع المدنية، وخصوصاً المدينة القديمة الأثرية، فقد أدخلت القوانين الشديدة بالإضافة إلى قوانين البلدية والصحة، فمنعت استعمال الزينكو المضلع والقرميد والطوب والباطون منعاً باتاً في أية عمارة تنوى إقامتها أو تصليح القديم منها داخل السور، الأمر الذي يشوه منظر المنشآت القديمة التاريخية بالقدس. وقد دأب المستر ريتشموند على الإشراف على مسجد الحرم الشريف الأقصى والصخرة المشرفة، وأشرف المستر أشبي "المعماري الشهير" بصفة المستشار الفني كما كانوا يلقبونه آنذاك (Civic Advisor) على المحافظة على سور المدينة، فقد رمم سور المدينة بصورة مرضية، وأقام قضباً حديدياً على الطرقات المخصصة على حافة السور من الداخل، وبهذا العمل استطاع السائح أن يمشي على أقدامه بسهولة، مستعيناً بهذا (الدرابزين)، ويشاهد المدينة المقدسة من الداخل وخارج السور.



اشتغلت كاتباً في هذه الجمعية تحت رئاسة المستر اشبي، واطلعت على كثير من روعة وآثار المدينة المقدسة والحرم الشريف، والجدير بالذكر أن جورج الشبر المهندس المعماري الذائع الصيت الذي أصبح زمن الانتداب البريطاني من أغنياء القدس المعروفين، كان يشتغل موظفاً فنياً بصحبة المستر ريتشموند في إدارة إصلاحات الحرم الشريف، وإني أحتفظ بصورة تاريخية وهو – أي جورج الشبر – معنا بارزاً كموظف لحكومة فلسطين. لم أستطع البقاء كموظف تحت رئاسة المستر اشبي لكثرة أشغاله، وهكذا عندما كنت على جانب من الحظ في ليلة من ليالي الشتاء، دخلت قلم التحريرات الـ (Registry) فاستقبلني الزملاء كالعادة بالمرح والضحك، وأخذ الحظ مني مأخذاً فصعدت أمشي على طاولات المكتب، وإذ دخل فجأة المستر اشبي يحلق بنظره علي . . . أما أنا فقد بادرته بأعلى صوتي هلو هلو بالمستر اشبي . . . وهات يا ضحك من الزملاء، فدخل تواً إلى مكتبه غاضباً وكتب رابوراً بحقي، وكانت القاضية، وباختصار نقلت إلى قلم الترجمة، وتخلصت من غلبته التي كانت لا تطاق، وشكرت الباري على النتيجة.

كانت وظيفتي – والحق يقال – تحت رئاسة المستر اشبي إفادة كبرى، ما زادت معلوماتي بالآثار النادرة والأبنية التاريخية بالقدس التي جعلتني ولوعاً باقتناء التحف كما سيجيء البحث عنه في فصل المجموعة الجوهرية في حينه.

بناء ساعة باب الخليل

أقامت بلدية القدس زمن الرئيس المرحوم فيضي افندي العلمي بناءً نادراً لساعة المدينة، وذلك على إحدى زوايا سطح مدخل باب الخليل، وكما قيل لي كان هذا البناء من تبرعات أهل المدينة بمناسبة مرور خمس وعشرين سنه على ملكية السلطان عبد الحميد العثماني. أخذت هذه الساعة دوراً مهماً بالقدس وإفادة كبرى لمحافظة الأهلين على الأوقات، وكان موقعها سامياً ومشرفاً على المدينة من الداخل والخارج حتّى أنك تراه من بيت لحم.

ولكن أبت جمعية محبي القدس أن تراها قائمة على سور المدينة، وقررت هدمها بوجه السرعة لأنّها على الرغم من دقة عملها ونظافة حجارتها وزركشتها، فقد قرر الخبراء الفنيون المعماريون أنها لا تتناسب وعظمة سور المدينة من حيث قدمه وتاريخه حوالي الأربع مايه سنة. وقد وضع تصميم البناء لهذه الجرسية وأشرف على هندستها المرحوم المهندس باسكال أفندي سروفيم مهندس بلدية القدس ومن خيرة عائلات طائفة اللاتين بالقدس، وقد حافظ على الطابع الشرقي في العمارة، إنما كثرة الزركشة، بصفته من خريجي جامعات فرنسا، جاءت خليطاً أشبه بغناء الموسيقار عبد الوهاب كما يسمونه "فرانكو عراب" (Franco - Arab).



البرج فوق باب الخليل

وهكذا أزيلت من قبل جمعية محبي القدس بين عشية وضحاها، أما أنا فإني أوافق على إزالتها للأسباب المبينة أعلاه، ولكن آسف جداً لعدم وضعها كما كانت عليه في محل آخر يتناسب وهندستها مثلاً فوق عمارة بنك باركلس، أو فوق صالون عمارة البلدية الجديدة، لأنني أعتقد جازماً بأن تلك الحجارة النادرة والزركشة قد ذهبت مع الأرياح، وربما تناولتها الأيدي لبناء البيوت الخاصة من المقربين . . . في ذلك الوقت ويا للأسف!

لفرط حبي المتفاني لكل ما يمت لمدينتي القدس بصلة، فقد عملت نصباً تذكارياً لتلك المنارة من الخشب نموذجاً طبق الأصل عن المنارة وباب الخليل بذات اللون الطبيعي لكل من السور القديم والمنارة المجددة والمقامة فوقه وبذلك:

١. خلدت مدخل المدينة كما كان عند الاحتلال البريطاني لمدينة القدس.

٢. احتفظت بمنارة لساعة شرقية تتناسب وأثاث بيتي الشرقي المعروف بالمجموعة الجوهرية.

٣. كما شهد لي الدكتور ت.ف. لا يزال في الآثار لدى الجامعة العبرية بالقدس على صفحات جريدة البالستين بوست بتاريخ ١٠ آب ١٩٤٥ المحفوظ في السجل الذهبي للمجموعة الجوهرية فقال:

> وها أنت ترى في زاوية من زوايا القاعة فونوغراف قد احتل مركزاً سحرياً تاريخياً جذاباً، إذ وضع بصورة تنم عن ذوق رفيع في هيكل يمثل "باب الخليل". .اسمع!! أنظر!! فها هي الموسيقى السحرية تنساب إلى سمعك من جوانب هذا الهيكل المفتوحة.

ولم يزل هذا النموذج محفوظاً ضمن المجموعة الجوهرية للذكرى.[1]

[1] انظر واصف إلى تخبئة المجموعة الجوهرية داخل جدار بيت خاص في القدس الغربية قبل هروبه خلال حرب ١٩٤٨. وفي حرب ١٩٦٧ استطاع الوصول إلى هذا البيت بعد عشرين سنة، إلا أن نموذج باب الخليل المشار إليه هنا كان قد نهب. (معلومات أفاد بها إلى المحرر المحامي زهدي حشوة العام ٢٠٠٣).



اول خارطة هيكلية للقدس. المهندس وليام ماكلين عام ١٩١٨ وطورها السير باتريك جديز مهندس بلدية القدس عام ١٩١٩ بالتعاون مع تشارلز آشبي سكرتير جمعية محبي القدس.

المصدر:

Henry Kendall, *Jerusalem City Plan: Preservation and Development During the British Madate, 1918-1948*

London, 1948

صديقي الزميل في الوظيفة داود ياسمينة

داود ياسمينة ابن ميخائيل ياسمينة من طائفة اللاتين بالقدس المعروفين، وهو وحيد لوالديه، طويل القامة، لونه يميل إلى السواد القاتم نسبة لوالدته التي كانوا يلقبونها بالحبشية. كان موظفاً في العهد البريطاني منذ أول يوم من الاحتلال مع الفرقة الأولى من الجيش للترجمة ما بين الجيش البريطاني وبين أهالي فلسطين العرب، وبقي موظفاً تحت الحكم البريطاني المدني فاتخذته صديقاً، وكنت أرتاح لصداقته لما هو عليه من شهامة وأخوة ورجولية، وله مواقف كثيرة فكهة كانت تجلب الأنظار. كان داود "أكول" يحب بطنه جداً، حتى أنه عندما كان في الجيش أثبت للضباط بأن التعين[1] المقنن للجندي من المواد الغذائية اليومية لم يكفه المعروف بـ (Ration)، وهكذا خصص له تعيين مضاعف من هذه المواد، والجدير بالذكر أن جسمه كان ملتوياً وليس فيه سمنة البتة.

[1] التعين: الحصة.

كانت هذه الميزة فيه أو بالأحرى المرض الذي فيه يرعى انتباهي في أغلب جلساته، إن كانت شطحة، أو سهرة، وهناك كنت أعلق عليه بالتنكيت والقهقهة، ونقضي على هذا الموضوع ساعات لذيذة حتى أصبح داود بين الزملاء الموظفين يشار إليه بالبنان، وهذا بالطبع كان يسرني. وإليك أيها القارئ الكريم لمحة وجيزة عن بعض أكلاته ... لتأخذ فكرة عن بطنه:

اتفقنا وإياه أن نستحم في حمام العين الواقع في محلة الواد بالقدس، جلبت معي بعض الثياب الداخلية، وعرجت على داود الذي كان يسكن في الدار الكبيرة المعروفة بدار رباح أفندي الحسيني، والواقعة على قنطرة شارع خان الزيت الكبيرة، وكان مدخل الدار مقابل دار أسعد قطينة القريبة من عقبة المفتي. عندما دخلت مدخل الدار ناديت بأعلى صوتي يا داود بالله انزل لنذهب إلى الحمام! ! أجابني طيب بس اطلع حتى آكل بعض الشيء الخفيف قبل الحمام. صعدت السلالم إلى بيته، وكان ذلك في شهر رمضان، وقد أحضر والده صينية صغيرة من الحلوى المعروفة بالبوغاجا (بالجبن)، وإذ كانت المائدة على حضر، وبالإختصار جلسنا احتراماً لوالده لأنني لم أتعود أكل شيء قبل الحمام. بسرعة فائقة أكل داود إحدى عشرة محشية من محشي الكوسا باللبن صغير الحجم ... ثم التفت وأكل ما يقرب من نصف صينية البوغاجا أعلاه، وتركنا وذهب كي يغسل يديه.

وهنا كما يقولون بيت القصيد، فبعدما ترك داود المائدة إذ تنهدت والدته والتفت إلي قائلة "موتي ما عاد لداود أكله مثل أيام زمان.. " وهات يا ضحك، فلم أقدر أن أملك عواطفي وقلت في قرارة نفسي "العمى بيظهر داود أصبح أكولاً بالوراثة عن والدته"، وهكذا في كل مناسبة من جلساتنا كان المجتمعون يرجونني فأقص عليهم هذا الحادث الطريف، وقد كشفت أحوال داود الغامضة بأكله لكل من الأصدقاء، وكانت فضيحة والعياذ بالله!

وعلى ذكر والدة داود، بل بالأحرى أسرة داود المؤلفة فقط من والده ووالدته، فكانت في الوقت ذاته ترعى الانتباه، فإذا جلست صدفة مع والدته فلا يطيب لها إلا أن تعطيك درساً وخطاباً فياضاً بموضوع ما تحبه وتكرهه من المآكل، فمثلاً تقول:

يوم الشؤم عليهم بعرفش كيف الناس بتأكل الجاج . . . فمهما تناظف عليه لا بد بقاء الزنخة ، أنا ابنيتي عمري ما بجيبه البيت ، يوه يا أخي ماله الضاني ، أنا لما بعمل مقلوبة بتلجان إذا ما فلفلت الرز على نار فحم ما بهدى لي بال . . . شو طبيخ البابور "أي البريموس" ، وما هو إلا طبيخ سلق" . ثم يحضر أبو داود وينادي أم داود خدي فردة فحم بلوط ، فيدخل العمال ويفرغ كيس فحم البلوط على مخزن الفحم الملآن من فحم البلوط وبس . . . ثم يخرج من السلة شكلين من اللحم ويبدأ بشرح كل جنس لأم داود ، فهذا مثلاً كفتا على السيخ . . . وذاك قص للملوخية . . . وبالإختصار كنت أصرف الساعات الطوال وأنا أستمع ليس لشيء سوى -والله- الطعام والطهي والأحسن والأفضل ولا يخرج أحد منا عن صلب الموضوع مطلقاً .

كانت أم داود تعمل لي الأركيلة ، فهل تعلم أين تكون الأركيلة؟ . . . تحضر الكيس البفت الأبيض وتفتحه وتخرج أولاً الأركيلة ثم البربيج ، ثم القلب ولوازمه ، وتقول يوم الشؤم عليهم يا واصف بعرفش كيف بخللو البربيج في الخارج بدون حفظ . . . ما هو يا أخي بيدخل صرصور داخل البربيج أو أي حشرة بدون ما نعرف ، ثم تجي بالشباك وتنقعه بالماء الساخن ، وتفركه ونعمل النفس العظيم ، وتكلله بالنار الوهاجة من فحم البلوط الصافي ، فنحن أي أنا وداود نبدأ بشرب الأركيلة وكاس العرق والمازة وندق العود ونغني ، وأم داود جالسة أمامنا على الأرض تعمل ما يسمونه بالكلاج ، وهناك الفن وإبداعه وتدير السمن الأصلي الصافي من المرتبان الواقف بالانتظار على عجين الكلاج والصينية بصورة مدهشة ، وهي تقول يوم الشؤم عليهم قال بياكلو بقلاوة من السوق ، قال . . وأنا أضحك ولم أتمالك من القهقهة . كل هذه الأشياء والجالس والأكل والشرب . . . الخ ، كانت في غرفة واحدة ، وهي المعدة للنوم والأكل والشرب . . . ولكن غرفة ، بل قاعة كبيرة بلاطها من الرخام الأبيض المعرق بالأسود ، ومحاطة بستة شبابيك أقيموا على مصطبة للجلوس عليها من داخل الشباك ، وأما سقف هذه الغرفة ، فكان قبة عربية في روعة فائقة ، وهذا الشكل من البناء كان معروفاً من هواية المرحوم رباح أفندي الحسيني ، وهو شبيه لعمارة كولونية الأميركان في حي الشيخ جراح التي بيعت منه إلى الأميركان رحمه الله.[1]

كنت في كثير من الأوقات أترأس حفلات هذه العائلة بمناسبات عديدة ، فكانت عائلة ياسمينة تجتمع جميعها في هذه الغرفة أو القاعة ، إذ منهم عم داود ياسمينة ، وحنا ترجمان السياح الشهير ، ثم جبرا وعائلته ، ثم سليم وعائلته ، ثم جورج وعائلته ، وهناك خال وامرأة خال هؤلاء الأشخاص ، ألا وهو القزم [ ][2] وزوجته القزمة أيضاً ، فكانوا وما أحلى ذلك المشهد عندما يرقصون بالشموع على نغمات عودي ويغنون آه يا ليمون ياليمون ياليموني . . . الخ ، ثم يليق لك شك الألماس يا عيني . . . الخ ، بألبستهم العربية القديمة الأنيقة ، وهم ربما كانوا في التسعين من أعمارهم ولم يتركا شرب العرق ، وكان جميع العائلة ونسائها وأولادها يصفقن لهم ، وكان داود بطل الرقص دائماً ، وكثيراً ما كان يرقص الرقص العربي في جلسات الحاكم رونالد ستورس على نغمات عودي أيضاً .

[1] بناية فندق الأميركان كولوني اليوم في منطقة سعد وسعيد.

[2] اسم ناقص في المخطوطة.

داود ياسمينة والكستنا

أدون للقارئ نبذة ثانية طريفة عن ما كان داود يتناوله من خفيف الطعام:

صادف أنني سهرت إحدى الليالي ورجعت البيت وأنا على جانب عظيم من الحظ "مبسوط سكراً" حوالي الساعة الخامسة والنصف صباحا! وهكذا لم يبق لي متسع للنوم لقرب ميعاد العمل في دائرة الحاكم باب العامود، فاضطررت أن أصرف ما تبقى لي من الوقت في مقهى النابلسي الواقع -آنذاك- مقابل دائرة الحاكم عمارة الألمان. فشربت ما تيسر من القهوة السادة ... وإذ حوالي السابعة مر علي داود وهو يأكل الشيء بلهف.

داود　　عجيب يا .. يظهر أنك سهران.

أنا　　عم حرقه تحرقك سهران شو بخصك؟ .. وشو عما تأكل على الصبح؟. اطعمني. فناولني بعض حبات من الكستنا (بدون شوي) فقلت بتعجب: العمى هذا فطورك؟

داود　　لا، ولك هذا للتسلية فقط، فأنا أفطرت ثلاث أواق لحمة مشوية وبعدها اشتريت أربع أواق كستنا تسالي. وواصل أكله ببساطه وكأنه يأكل فستق حلبي.

أكسبه حينئذ شيئاً كم من شتيمة من الوزن الثقيل ... وقلت له ولك مسكين الذي يدعوك على مائدته مرة ... فقال على الفور فأنا لا أدعى عادة إلا في حفلات الأفراح.. خوفاً من عين الحاسدين.

تعليقي على داود بعد إقالته من الوظيفة

كان داود مغرماً باقتناء الخيل العربية الأصيلة، فكان يركب حصاناً أسود كنت أدعوه بالأبجر ... وكان -والحق يقال- يجيد ركوب الخيل. ولنا ذكريات عديدة في الشطحات، وخصوصاً شطحة قرية كفرعين من أعمال قضاء رام الله مع الصديق يوسف مرقص، فأبدع داود بأكل ما يسمونه (بالزرب)، أي الخروف المشوي بالجمر بالأرض. ولكن داود قد استغنى، مع الأسف، عن خدماته لأسباب عديدة منها أنه تشاجر مع حاكم رام الله -آنذاك- المستر بولاك، وكانت القاضية على وظيفته ... ولكن على الرغم من عن تركه الوظيفة لم تنقص صداقتنا، وأنا بدوري علقت على ذلك، وانسبت عزله من الوظيفة بين الأصدقاء والزملاء بالفكاهة، فمثلا كنت أشيع الخبر فأقول في مجالس الأنس:

أتدرون لماذا أقيل داود ياسمينة؟ ... مسكين أنه أكل اثنين وعشرين بلاطة من بلاط عمارة دائرة الحاكم الألمانية الرخامي على أمل أن هذا البلاط هو أقراص لحم وعجين ... ثم بلع جرسية الدباغة بداعي أنها حبة غريبة ... وهناك الضحك والقهقهة، وكان داود يحلق بنظره في وجهي كنت أخاف بأن يأكلني بالفعل بعد تلك الوجبات من طعامه الخفيف، فأتهرب منه بين الزملاء ... فسقيا لتلك الأيام ما كان أطيبها!

داود ياسمينة والسيارة

وأخيراً أدون هذا الحادث الظريف الذي حصل بيني وبين داود ، فأقول :

بعدما أستغني عن عمل داود ياسمينة في الحكومة اشتغل المومى إليه في أشغال حرة واتخذ التجارة بسيارات الهدسون الكبيرة للركاب ، وتوفق بعمله هذا ، وكان يسوق سيارة من هذا النوع ذات ستة "سلندر" . وقد اتفقنا على أن يعلمني سواقة السيارة شريطة أن أعلمه ما أمكن من العزف على العود ، ولأجل المعلومية قد دونت قائمة كبيرة بأسماء [القطع] الموجودة في السيارة وأخذت منه معلومات ابتدائية واضحة عن وظيفة كل قطعة من هذه القطع ، مثلاً (ما هو الأكس ووظيفته ومحله ، وما هو الشكمان ووظيفته ومحله ، وما هو الكبر والبسول الكلاتش و . . . الخ) .

وقد باشرنا فعلاً بالسواقة ، فكان يقود السيارة من القدس إلى قرية عين كارم ، وأنا جالس بجانبه يشرح لي بدقة كيفية الابتداء بسير السيارة والتغيير . . . الخ . إلى أن توصلت بعد مدة قصيرة أن أساعده في مسك الدركسيون وأسير العربة بكل سرور وحدي بجانبه . . . ولما كان يضع السيارة في كاراجه الخاص الكائن داخل إسطبل المرحوم محي الدين الخالدي الذي تحول بعد الاحتلال إلى كاراج كبير مؤلف من عدة كاراجات من الزينكو المضلع ، كنت عندما نرجع من الرحلة أنزل من السيارة ، وأفتح له باب ذلك الكاراج وكان يدخل السيارة .

ولكن شاء القدر بعد مدة وجيزة بأنه بعد رجائي سلمني السيارة وأجلسني محله فأمسكت الدركسيون وبعدما اشتغلت الماكنة وضعت رجلي لأول مرة على ضاربة البنزين بقوه فدخلت السيارة بسرعة وقوة فائقة إلى الكاراج واصطدمت بصدر الكاراج فخرقته ، وهكذا اهتزت جميع أقسام ذلك الكاراج المجاورة من شدة الصدمة ورجلي لم تزل تعطي البنزين . . . أما داود - سامحه الله - الذي كان يقف خارج السيارة جن جنونه ، وكان يصيح بأعلى صوته "ولك فرمل فرمل فرمل" . . وأنا أقول له مش مكتوبة ، أي أن هذه الكلمة غير مدونة في القائمة المشار إليها أعلاه . . . ويقصد داود أن أوقف السيارة بواسطة "الفرميلا" .

إلا أن الله سبحانه وتعالى لطف بي وبالسيارة فلم أدري كيف أن رجلي أقيمت عفواً عن ضاربة البنزين فوقفت السيارة بطبيعة الحال . . . ولولا ذلك لكنت أنا والسيارة سنصبح في حفرة كبيرة تقع خلف حائط الزينكو للكراج الذي تحطم من هول الصدمة . كانت ساعة غفلة - والعياذ بالله - فعلمته السيارة وأنا منزعج للغاية ، وابتدأت بالكيل له من الشتائم من الوزن الثقيل له وللسيارة ولسواقة السيارات . . . وهو يجيب اللازم إلى أن صحونا من الخوفة ، وهات يا ضحك ، وأصبحت كلمة "مش مكتوبة" مأثورة بين أصدقائنا في جميع جلساتنا ، وهكذا تركت - ويا للأسف - علم السواقة من مرة[1] إلى يومنا هذا .

[1] من مرة (عامية) : كلياً .

إدارة مدنية في فلسطين

دخلت دائرة حاكم القدس العسكري بوظيفة كاتب في دائرة التحريرات الـ (Registry) ، وذلك في أول سنة ١٩١٩ ، وكان رؤساء الإدارة العسكرية أذكر منهم المستر بيهام ، والمستر لوك ، والمستر بولاك ، والمستر كيث روتش ، والمستر

جونز ، والمستر لو ، والمستر كاست وغيرهم ، وهم تابعون إلى حاكم القدس العسكري المستر رونالد ستورس ، كانوا جميعاً في لباس الجندية .

كان المستر حنا اسطفان في لباسه العسكري أيضاً ، ونقل إلى دائرة حاكم القدس العسكري من دائرة حداج باشا ، وكنا في هذه الدائرة نشتغل جميعاً وكأننا عائلة واحدة ، فكثير ما كان يسمح لنا عمل السهرات والرقص على العود والدربكة في هذه الدائرة ، ولا يجوز للمراجعين دخول الدائرة إلا في اليوم الثاني ، وكانت - والحق يقال - قاعة الا (Registry) مناسبة لإقامة احتفالات كهذه ، ولنا فيها ذكريات لا ننساها أبداً .

كان متري قسطندي المنى وهو خال أندريا قسيس زميلنا في قسم الترجمة يدير مقهى خاصاً للموظفين تحت ظل أشجار الصنوبر الواقعة من الجهة الشمالية للعمارة داخل سور العمارة ، وكنا نتناول ما قسم لنا من الطعام عند الساعة العاشرة صباحاً ، فيجتمع جميع الموظفين من الرؤساء والمرؤوسين ، وهناك الامتحانات في النكتة والقصص المضحكة اللاذعة . .
لم يزل زملائي يترحمون على تلك الأيام ويذكرونها بالخير . فإذا دخل الشتاء وكسيت الأرض بالثلج ترى الجميع يتراشقون بالثلج ، حتى أنني أذكر مرة عندما دخلت الدائرة صباحاً كان كثيراً من الزملاء يترقبون حضوري ، وحالما وصلت بلشوا يرجموني بأكواز الثلج . . . وأنا أصيح بأعلى صوتي يا ستورس يا ستورس يا ستورس بعرضك ، وإذ ظهر ستورس وجاءني للإغاثة يرميهم بالثلج بدون وعي وكان قوي البنية فانتصرنا والحمد لله في تلك المعركة ، وقضينا معظم ذلك اليوم داخل الدائرة على شرب الويسكي والكياك . كانت ألفة بين جميع الموظفين وتفاهم لا بغضاء ولا حسد ، وكان الحاكم ستورس يحب هذه الطريقة في الحياة ، وقد عاش العمر في مصر والسودان ، واطلع على أحوال الشرق وعاطفيته ومرحه واتخذ المنهج ذاته .

ومع الأسف انتهى هذا العهد ، وفي صيف سنة ١٩٢٠ ألفت الحكومة البريطانية إدارة مدنية في فلسطين ، وعينت لهذه الإدارة مندوباً سامياً وهو السير هربرت صموئيل ، وإني أذكر أنني كنت في الا (Registry) أخذنا هذا الخبر وحزنا جداً ، وقلنا يا الله "جبنا الأقرع ليونسنا كشف طقيته وخوفنا" ، فقد انتهى الحكم العثماني وظلمه ، فوقعنا تحت حكم مندوب سام يهودي صهيوني . . . فدخل الخوف وانكمشت صدورنا .
وهكذا تشكلت الإدارة المدنية :
مدير دائرة المعارف ، والأمن ، والمالية ، والجمارك ، والعدلية ، والزراعة من الإنكليز ، ومدير دوائر المهاجرة ، والسفر ، والأراضي من اليهود والإنكليز ، وقد عينت المستر ن . بنتويتش الصهيوني مستشاراً قضائياً . فقلنا حقيقة كما قال المثل "أول الرقص حنجلة" . . . فهذا كان البداية لتنفيذ وعد بلفور في فلسطين . . . ويا للأسف !

العم أبو عيد الدلال والسير هـ . صموئيل المندوب السامي

عندما نزل المندوب السامي السير هربرت صموئيل اليهودي لأول مرة لزيارة البراق عن طريق البزار داخل السور ، كان العم أبو عيد فاتحاً مخزناً معروفاً في حي البزار لبيع الخردوات . اساءت الأهالي العرب لدى تعيين المندوب السامي بصفته يهودياً

ومن أعلام الصهيونية، فأضربوا -كعادتهم- مظهرين استياءهم واعتراضهم الشديد لبريطانيا، وقد أغلقت الحوانيت في ذلك اليوم في وجه المندوب إلا محل العم أبو عبد الدلال.

نزل المندوب في موكب رسمي عظيم تحيطه جنود ورماح بريطانيا، وبمعيته الحاخام الأكبر لليهود في مدينة القدس، وبعض الوجهاء من اليهود ورجالات الدولة. وإني أذكر جيداً فشاهدته بعيني عندما غير لباسه ولبس اللباس التقليدي الديني في فندق السان جون لصاحبه عمي صليبا سعد وشريكه الحاخام أمدورسكي. وعندما عرج الموكب على محل العم أبو عبد، فرش العم أبو عبد السجادة العجمي الرائعة على الشارع واستقبله ببشاشة فائقة واحترام زائد قائلاً: "هذا يوم سعيد، خلصتونا من نير وظلم الأتراك الله ينصرك يا بريطانيا، إدعس . . .".

بذلك الصوت الجهور العالي إلى ما هنالك من كلمات في منتهى الإجلال والاحترام والتقدير، وصافح المندوب، وقال في نفسه إذاً هو من خيار المسلمين، ولكن نسي المسكين، بل لم يعلم ما وراء هذه التمثيلية. مشى المندوب على أقدامه على السجادة وكان بالطبع وراءه الحاخام باشي على ما أذكر اسمه الحاخام الأكبر كوك، وإذ العم أبو عبد يتشاجر مع هذا الحاخام ويقول:

ارفع رجلك عن السجادة . . . يلعن أبو خاخامك . . ولك هذه لسيدك رئيس البلاد الإنكليزي (متجاهلاً أن المندوب السامي كان من اليهود) . . . وحاول أن يقيم السجادة فالتفت في الحال المندوب السامي فبادره العم أبو عبد:

يا سيدي قال بدو يدعس ع السجادة قال . . يا سيدي بعيد عنك هذا يهودي ! !

وهكذا أسدل الستار واستدركوا الأمر، وكما يقولون لفوها بداعي أن العم أبو عبد جاهل . . . وبقيت هذه الحادثة تحكى في المجتمعات والليالي، وأضيفت إلى جملة حوادث العم أبو عبد المأثورة والخالدة في تاريخ زمن الانتداب البريطاني في فلسطين .

العم أبو عبد الدلال وستورس

بعد الثورة الأولى في مدينة القدس التي قتل وجرح فيها كثير من اليهود الذين كانوا يسكنون داخل سور المدينة، دخل الرعب والخوف في قلوب اليهود، وأصبحوا في حالة ذعر شديد يختبئون من وجه العرب، وقد صادف أن العم أبو عبد كان له دكان في حي البزار يبيع فيها -آنذاك- بقالة.

وعندما كان اليهود في حارة الشرف، أي حارة اليهود في المدينة، هربت بسة[1] بسرعة، وقفزت من دكان إلى دكان آخر، فجعل أحد أصحاب الحوانيت من اليهود هناك، وأغلق حانوته ظاناً أن ثورة جديدة أقامها العرب ضدهم، وعندما رآه صاحب حانوت ثان أغلق هو الآخر حانوته وهكذا دب الرعب بينهم فأغلقوا المحلة بأسرها، وبدأ الشعب من مختلف الطوائف يتراكض في الشوارع، فأغلقت البلد صوانيها من الفزع.

وعليه نزل السيد رونالد ستورس بنفسه ومعه عدد كبير من رجالات الحكومة يطمئن الشعب، وعرج على حانوت العم أبو عبد الذي بدأ يصيح:

[1] بسة: قطة.

هربرت صموئيل، أول مندوب سامي في فلسطين على درج دار مقر المندوب السامي في القدس.

تصوير: الامريكان كولوني،مجموعة أريك وإديت ماتسون في مكتبة الكونغرس في واشنطن.



يا سيدي الله يعلي مراتبك فش إشي . . . بسة . . . بسة هالعكاريت اليهود خافوا وسكروا البلد . . . يخرب بيتهم كيف بدهم يحكموا ويأخذوا البلاد إذاً؟ . . يا سيدي إلك الله خربوا بيتنا ، شوف أصبح الرز على السكر ، والسكر على الملح ، والجوز ع البندك ، مشيراً بيده إلى الحاجيات في حانوته متألماً من هذا الانزعاج الذي طرأ فجأة .

ولكن سوّرس الداهية قد عرف العم أبو عيد معرفة تامة وتفهم أموره . . . فتقرب منه ووضع يده على كتفه قائلاً :

بسيطة أبو عيد من الآن فصاعداً صمد . . . صمد . . . لأنه أدرى في ما سيحدث لهذا البلد من جراء وعد بلفور وأثره المشؤوم وهو ولا شك كان من المؤسسين في تنفيذه .

العم أبو عيد والتنباك

كان العم أبو عيد معروفاً عنه بأنه يتاجر بالأشياء الممنوعة والمخدرات ، ولكن من الذي يجرؤ أن يمسك العم أبو عيد بشيء من هذا بالنسبة إلى شدة حذره وبراعة تصرفه وكثرة رجاله الأشاوس في البلد . وقد صادف أن إخبارية طرأت مسامع البوليس أن في دار العم أبو عيد تجارة تنباك كبيرة ، وكان طبعاً من المواد الممنوعة.[1]

فسر البوليس وقال إنها فرصة سانحة للقبض على العم أبو عيد ، فنزل مدير الأمن -آنذاك- المستر براملي ومعه بعض رجالات البوليس ، وكان رجلاً مستبداً ظالماً . فعرج ومن معه على حانوت العم أبو عيد وخبروه بأنهم يرغبون تفتيش بيته بوجه السرعة ، وهنا بدأ تمثيل العم أبو عيد . أخذ الخبر منهم ببساطه وبعدما اطمأن على حانوته رافقهم وهو يصيح بأعلى صوته :

سقى الله أيام تركيا . . . قال تنباك قال . . . الله يجازي أولاد الحرام . . . هذا مش شغلنا هذا الشغل شغل أولاد الحرام اللي ما يناموا ولا يخلو غيرهم ينام . . . ياما نشوف لسا في البلاد . . . مش إحنا كليز يا عمي يهود ، والله مثل ما قالي سوّرس صمد يا أبو عيد صمد . . . وكان يرعد صوته ويدق العصا على الأرض ومعه قوة الجيش . بقي أبو عيد على هذا الحال إلى أن وصلوا الدار وهنالك أبدع أبو عيد في تمثيله كل الإبداع . دق باب الدار في العصا فأجابته الحريم مين : أبو عيد : أنا يابا ومعي آلة الظلمة "أي الظالمين" قال عندنا تنباك مهرب . . . قال تنباك . . . خدوا راحتكم وانضبوا في المطبخ يابا لعندما يفتشوا لنا الدار . . . فاهمين على مهلكم . ثم يلتفت إلى المستر براملي ومن معه ويقول "لا تزعل هذا عوائد الإسلام عندنا ، وإلا كيف جوة حريم حضر . . ونحن مش يهود اللي بالك فيهم . وكان يجيبه المستر براملي لا معلش معلش .

إلى أن قضي الأمر نهائياً داخل الدار ، وأزيل التنباك والقي بواسطة الحريم . . سراً خلف دار أبو عيد فيوجد هناك خرابة بجوار دار العلي الواقعة في الزقاق مقابل قلعة النبي داود داخل باب العامود . دخل أبو عيد ومعه مختار المحلة حسب

[1] يقصد الجوهرية بأن التبغ غير مجمرك.

القانون، ثم دخلت قوة البوليس ولم يتركوا محلاً إلا وفتشوه بدقة فائقة ولكن بدون جدوى، فلم يعثروا على شيء . . .
وكان أبو عبد يضحك مرة ويغضب أخرى، ويردد أقواله المأثورة يشتم ويلعن، وقد وقع نظره خلسة على طرف فرد[1] كان متروكاً على القاطع الخشبي بين إحدى الغرف، وكان وراء القاطع الخشبي هذا الحريم . . . فجن جنون أبي عبد، وفي الحال جاءته فكرة خبيثة خوفاً من رؤية المستر براملي الفرد فيروح أبو عبد في داهية . . . وخصوصاً البلاد في ثورة وبعدها ثورة، وهم على هذا الحال رأى المستر براملي الخزنة الحديدية في الغرفة، وأصر على أبو عبد أن يفتحها ربما يجد فيها شيئاً يشفي غله من البطل أبي عبد.
جاء أبو عبد وفتح الخزنة الحديدية، وإذ هي تحتوي على كمية من الليرات الذهبية المختلفة، فدهش المستر براملي، وقال له "لماذا لا تضع المال في البنك؟". أجاب أبو عبد: بنك الله، إحنا ما نعرف بنك "إحنا عندنا فرد فرد".
وعندما قال كلمة فرد بصوت عال سمعته الحريم الواقفين خلف القاطع الخشبي وتذكروا الفرد، وبأسرع من لمح البصر أخذوا الفرد من على القاطع ودهوروه في محل ما . . . أما المستر براملي فسر عندما أخذ قراراً من أبي عبد بأنه يحتفظ بفرد، وقال في قرارة نفسه الآن وقع بين يدي فسأله أين الفرد قول؟
أجاب أبو عبد: فرد يعني الواحد القهار! فاهم الواحد القهار، وعليه نتوكل . . . فضحك المستر براملي وترك أبا عبد وبيته وخرج مع رجاله مكسوفين. وهكذا بلباقة وذكاء وجرأة تخلص أبو عبد من عقاب التباك والسلاح.

[1] فرد: مسدس.

فوزي خليل درويش

فوزي درويش، أو بالأحرى العم أبو خليل، وهو ابن المرحوم خليل أفندي درويش المعروفة بالقدس كان موظفاً ماهراً ومحاسباً في البنك الزراعي زمن الحكم العثماني، وقد عينته حكومة الانتداب البريطاني بعد الاحتلال في محاسبة تركة البنك المذكور، وكان يشتغل -آنذاك- في عمارة الأوغستا فيكتوريا[1]، واكتسبت الحكومة الفلسطينية من خبرته الواسعة الشيء الكثير بموضوع البنك.
كان العم أبو خليل مشهوراً بالظرف وبديهي النكتة وولوعاً بالكاس والطاس لآخر يوم من حياته على ما أعلم، وكان يحب المزاح ويتحمل السخرية بطيبة خاطر في جلساته الطروبة هذه، بالنسبة إلى مقامه ووظيفته، فكان الحضور لا يتمالكون من كبت نفوسهم، بل تسمع الجميع يضحكون بأعلى أصواتهم عندما يأخذون منه نكتة بديهية طبيعية بدون كلفة ولا تصنع.
كان أبو خليل يشبه رسم ستالين، وعلى الأخص في شنبه المهدول على فمه، وخصوصاً عندما يكون مبسوطاً شوية . . .
تصور أيها القارئ الكريم عندما كنا نجلس مع العم أبي خليل في ليلة أنس . . . وكانت ليال كثيرة تضم نخبة من أبناء بيت المقدس أمثال عبد الرحيم الطبجي، وعبد الحليم الطبجي، وداود الفتياني، وتحسين الخالدي، ورشدي المهتدي، وعبد الرحيم المهتدي، وحسن صدقي الدجاني، وفخري النشاشيبي، وعبد السلام النشاشيبي وغيرهم، كان العم أبو خليل يمثل دور العروس (فيرفع يديه مفتوحة ويطبق عينيه) في الجلوة فكنت أغني له بعض الأغاني تناسب المقام وتتلاعب في الكلمات:

[1] في المطّلع، وهي منطقة في جبل الزيتون مشرفة على القدس.

أبو خليل لا تقول نسيتك... يا سكران طالع من خماره

أبو خليل لا تقول نسيتك..يا جردون طالع من خراره

وكان بالطبع جميع الحضور يرددون بعدي هذه الأغنية ويصفقون بأيديهم، وأبو خليل يقول بصوت خافت ليه والله.. ليه والله كان يا واصف كان.. فكان يخيل لك -آنذاك- أن البيت وبناءه يرقصان طرباً. والأنكى من هذا أنني كنت تعلمت أغنية يونانية، وكان لحنها يشبه اللحن العربي تقريباً من مقام السيكاه مطلعها:

تـــــــاك تـــــك تـــاك كـــتـــبـــاب كـــرذامـــيـــو

تـــــــاك تـــــك تـــاك كـبـاب كرذاميـو كيـوتاتني سيلويـسـو

وهي أغنية في الغزل، وقد راق هذا اللحن للعم أبي خليل، فأصبحت أغنيته المحببة، فكان يطلبها مني، فتصور نقضي الساعات الطوال والجميع يغني هذه الأغنية باللغة اليونانية، وكلنا من المعنى براء ... حتى شاعت في الوسط المقدسي ... فسقيا لتلك الأيام!

فوزي درويش والحريقة

لم يستطع أبو خليل أن ينام إلا وهو على جانب عظيم من السكر، فأصبح مدمناً على الخمر، وقد حدث معه هذا الحادث الطريف أدونه للقارئ ليأخذ فكرة عن حبه للخمر:

ترك العم أبو خليل عمله في مساء ذات يوم من أيام صيف سنة ١٩١٩، ونزل ماشياً من عمارة الأوغستا فيكتوريا إلى مدينة القدس ليشرب قليلاً من الخمر حسب العادة ... ولكن خاب أمله، فلم يجد أية حانة مفتوحة، لأن الوقت كان بعد الساعة الثامنة والنصف، وفي هذا الوقت تكون حانات القدس مغلقه بموجب أوامر عسكرية مشددة آنذاك. بعدما فتش العم أبو خليل تفتيشاً دقيقاً ولم يوفق بأية حانة في حارة النصارى، عرج إلى حارة اليهود، وكانت هناك حانة تخص إحدى اليهوديات واسمها حنة فلم يفلح ... وهنا نرفز العم أبو خليل وتساءل في نفسه العمى كيف بدي أنام؟.. أما ليلة سودا، فخطر بباله أن يقصد حارة المصرارة لعله يتوفق بأحد أصدقائه من أصحاب الحانات في ذلك الحي، ولكن سدت أبواب الرزق في وجه المسكين، وعندما كان يتمشى في حي المصرارة وإذ (كوم كبير من التبن) ملقى في زوايا الشارع بقرب فرن المصرارة لأصحابه -آنذاك- قسطندي فاشة وتوما كحلو، وكان الملك لسعد الدين أفندي الخالدي.

جاء أبو خليل في سكون الليل وحرق هذا التبن بالكبريت ومشي هادئاً وكأنه لم يعمل شيئاً. اشتعلت النار واشتعلت المصرارة بأسرها بسرعة فائقة حريقة حريقة حريقة ... فقامت الناس مذعورين وما هي إلا لحظة فأسرع المرحوم عيسى

البيي "الملقب بالغزال" ومعه مفاتيح حانوته ففتح الحانوت كي يطمئن على بضاعته . . . وكان ملاصقاً لفرن فاشة المذكور .
وهنا بيت القصيد : إذ دخل العم أبو خليل وبادره بقوله "سليمة . . . سليمة . . . لعن الله أولاد الحرام . . . بالله عليك هات قنينة عرق" فسلمه البيي قنينة عرق ببساطة بعد أن استلم ثمنها . . . فأخذها العم أبو خليل وبدأ يشرب من باب القنينة بشغف ويضحك باطناً .

العم أبو خليل والشنطة

هذا الحادث الطريف طرأ للعم أبي خليل عندما كان زمن الحرب العظمى الأولى في حكم الجندية التركية في دمشق . كان كما يقولون يتسكع في حي سوق الحميدية وهو في حالة يائسة من الطفر . . . فمر عن أحد السوريين الذين يبيعون الشنطات على طرف الشارع ، وأخذ البائع هذا يلاطف العم أبا خليل ويستعطفه لعله يبتاع منه شنطة ، وقال له :
إيه يابى بوس إيدك خدلك شنطة سيدي ! !

العم أبو خليل   لشو الشنطة .

البائع   تحط ثيابك فيها .

العم أبو خليل   مليح ! ! إذا وشو ألبس يابى؟
أي بمعنى أن العم لا يملك سوى اللباس الذي عليه في دار الدنيا ، وهكذا ترك العم أبو خليل البائع مغشياً عليه من الضحك ومشي . كنت حكيت هذا الحادث لأستاذي الأكبر خليل السكاكيني ، ولاقى قبولاً منه فدونه في أحد كتبه للتلاميذ الصغار .

فوزي خليل والضلع

قرر نخبة من أصدقائي من أبناء القدس المسلمين قضاء ثلاثة أيام عيد الأضحى المبارك ضيوفاً على طاهر الخالدي في قرية دير عمرو العائدة للمرحوم حسين هاشم الحسيني . فرافقتهم وعودي . وعندما وصلنا صدرت أوامر صديقنا العنيد عبد الرحيم الطبجي بأن لا يجوز تناول أكثر من كاس عرق في الظهيرة لكل من الحاضرين ، وذلك لتأجيل السكرة إلى المساء على عزف العود والغناء ونكات العم أبي خليل . . . وقد قوبل اقتراح عبد الرحيم بكل رضاء وقبول .
وعندما حضر طعام الغذاء وكان ضلع خروف محشياً . . . وزعت كاسات العرق بالتساوي لكل من الشلة ، وكذلك حصل العم أبو خليل نصيب واحد من الحضور . ولكن أين العم أبو خليل وكاس من العرق ، فبعدما شرب الكاس تناول قنينة العرق من على المائدة وصب كاساً آخر له . . . وكان الجميع يحلقون بنظرهم ، وإذ العم أبو حسين (عبد الرحيم المهتدي) يبادره صائحاً :
شو قلنا يا أبو خليل؟ . . مش معجبك مثل الباقي؟ . .

أبو خليل في برود ثم أجاب "ولو . . يا أبو حسين ضلع" ، مشيراً بيده إلى صينية الضلع وكاس؟

قال هذه الكلمة وخذ يا ضحك ، الأمر الذي جعل عبد الرحيم منرفزاً ، وقام في الحال غاضباً ، وحمل المخرج الذي فيه أغراضه حمله على كتفه ورجع على قدميه من دير عمرو إلى القدس ، ولم يتراجع عن ذلك على الرغم من رجاء كل الحاضرين .

بعد غياب العم أبو حسين حلل الخمر ، فكان متواصلاً إلى آخر أيام العيد . . . وكان عيداً سعيداً لم ننقطع عن ذكر كلمة العم أبو خليل المأثورة "ولو ضلع وكاس؟ ! !" ، وأصبحت مثلاً ما بين أولاد القدس المعروفين آنذاك .

سهرة الأخ حنا بشارات

وعدت بإحياء سهرة في بيت حنا بشارات الذي كان يسكن آنذاك مع أخيه واصف وراجي في ملك المرحوم صالح جقمان في حي المصرارة مقابل عمارة تومايان بالقدس . لم أكن أعرف حنا بشارات ، بل وعدت السيد حنا اسطفان وكان بوظيفة كبيرة وبألبسة عسكرية في دائرة حاكم القدس العسكري منذ الاحتلال . كانت السهرة بمناسبة مولد موريس وفكتور توأمين خارج فلسطين على ما أعلم ، وهكذا بعدما كنت في شطحة في قرية أرطاس مع أصدقاء بلياسي العربي القباز ، رجعت على جانب عظيم من الحظ . . . عرجت على حي المصرارة عند المساء فوجدت حي المصرارة بأسره وكأنه ثورة ينتظر قدومي .

كنت أظن أن السهرة عائلية ، ولكن فوجئت عندما وجدت بستان الدار الوسيع ومن حوله الستائر المقامة على سوره الحديدي من السجاد العجمي خوفاً من عيون الحاسدين ، وكان منظراً بهيجاً جداً إذ كان مزيناً بالأنوار الساطعة "اللوكسات" لعدم وجود الكهرباء آنذاك وكانت المقاعد منظمة بشكل يشبه قاعة تمثيل تماماً وكثيرة العدد على جهتي الطريق الوسطى المؤدية للعمارة وعليها المدعوين ، وقد ملأوها فوقف الباقي منهم بينهم . وإذ بحنا وأخوه واصف هشا وبشا بوجهي واستقبلاني بكل ترحاب وإكرام في المدخل الذي لازمته مدة من الزمن ، ولم أتحرك من موقفي هذا لأنني أصبحت في غيبوبة وخجل وانكماش ، فقلت لهما ما هذا يا أخي؟ . . اعلما بأنني لست محترفاً لفن الغناء والموسيقى ، فهذا مسرح عظيم لأرباب الفن المحترفين ، وليس لي أنا الهاوي ! ! ورفضت بكل لطف الدخول ، ولكن من كثرة رجاء الأصدقاء ، وخصوصاً حنا أسطفان ، اضطررت أن أدخل وصعدت تواً إلى المنصة التي نصبت خصيصاً إلى وقبل البدء في العزف والغناء ، إذ وقف شخص من عائلة بشارات وألقى كلمة كانت مكتوبة على ورقة في يده ، وفيها من روائع التقدير والعظمة والشكر والامتنان لحضوركم . . . واصف .

وبالاختصار ، عزفت وغنيت ما تيسر من المقطوعات التي تناسب ذلك الجو . . . وبعدها هات يا تصفيق وصفير من الحضور ومن المخلوقات التي كانت تستمع من وراء السور إلى هذه الهيصة . وأخيراً ، جلست وحنا بشارات وتبادلنا الأحاديث والنكات ، وقد عشقته فعلا لأول مرة من رؤيتي إياه ، وكانت صداقة أخوية متينة بيننا مدى الحياة ، وتواصلت

زيارتي له وزيارته مع إخوانه جميعهم والمرحومة والدتهم إلى بيت والدي في حي السعدية ، وأخيراً عرفت الفاضلة زوجته أم عادل ، فزادت هذه الصداقة وسرت إلى ما بعد زواجي ، ولم تنقطع عراها والحمد لله ليومنا هذا .

والجدير بالذكر أنه بعد تلك الحفلة مباشرة أكملت السهرة على عودي في بيت المرحوم توفيق صافية ، وكان صديقاً حميماً لي وعائلته وبنات عمه كريمة ، ونظيرة مرقص ، وكانت سهرة عظيمة مع جميع ضيوفهم في تلك الليلة إلياس وقسطنطين ترزي ، وميشيل حنة ، وحنا تومايان ، وحنا الفران ، وغيرهم ، وكانوا جميعهم في بيت صافية يستمعون عن بعد إلى صوتي وعزفي في حفلة بشارات المقابلة لبيتهم هناك .



حنا بشارات واقفاً وزوجته وابناؤه في استديو خليل رعد في القدس عام ١٩٢٨ .

من محفوظات المؤسسة العربية للتراث المعاصر في بيروت.

اشتغل حنا بشارات متعهداً للجيش البريطاني بعد الاحتلال مباشرة ، ولكن قد أخذ قلوب أغلب رؤساء الجيش ، فكنت كثيراً أطلع على رسائله الخاصة مع هؤلاء القواد أمثال الجنرال اللنبي ، والجنرالات الذين بعده ، تلك الرسائل التي كانت تكتب له بدون كلفة ، وكان حنا أخا لهم . . . وكان قوي الحجة لبقاً ، يتقن العربية ، والفرنسية ، والإنكليزية ، والألمانية ، والتركية قليلاً ، وقد صعد اسمه إلى أسمى المراتب في الكرم والجود ، فأصبح حاتم طي عصرنا هذا ، وعند الحرب العالمية الثانية كان حنا وزوجته الفاضلة يشغلان جناحاً خاصاً في فندق الكونتننتال في القاهرة ، وهناك تجلى جوده وكرمه بصورة أدخلت الدهشة على كل من عرفه ، فإنه كان يقدم مثلاً لكل من حضر بار الفندق من المشروبات على حسابه .

والآن ننتقل إلى عائلته الكريمة ، فقد كنت أترأس أكثر حفلات السمر التي كانت تقام في بيته ، تلك الحفلات العائلية ، فتجود الأخت أم عادل بإكرام الضيوف ، وإني لأذكر تلك الليالي ، فإذا ما عزفت على العود أو غنيت أغنية أو قصيدة أو حكيت نكتة . . . تجد الأخت أم عادل وشقيقاتها نجلا ، والأخرى والأخرى وعلى الأخص سيادة الوالدة ، يتفهمون كل كلمة تخرج من فمي ، ويصغين بتلهف زائد لكل حركة من الألحان ، ويعرفن المقام الملحن منه تلك الأغنية ، بل المؤلف لتلك الأبيات بصورة قطيعة جداً ،[1] ثم عند النكتة فقد تجاوبك إحداهن بنكتة من الموضوع ذاته ، فكانت جلسات في منتهى الرقة والأدب والطرب . . . كيف ولا وهم ورثة المرحوم حبيب فارس ، وعلى الأخص والدتهم من أقرباء إبراهيم الحوراني الأديب المعروف .

[1] قطيعة بلغة أهل القدس تعني دقيقة.

إسماعيل بك الحسيني وأخي فخري

مضت مدة طويلة ولم تسمح لي الظروف بالاجتماع بالعم إسماعيل بك الحسيني ، وقد أرسل خادمه فأعلمني أن البيك يرغب في زيارتي في بيت والدي الواقع في محلة السعدية ، فاستعددت في الحال لإكرامه وحضر ، وكانت المرحومة والدتي على قيد الحياة. عاتبني - رحمه الله - بسبب انقطاعي عنه ، وكان يحني محبة الأب لابنه ، واعتذرت آسفاً ولبيت طلبه ، فعزفت وغنيت له ما تيسر من الأغاني المحببة له ، فطرب ورضي عني . . . وقد تبادلنا الحديث ، فسألنا عن حال كل واحد من إخواني وأشغالهم ، وعندما وصلنا إلى موضوع الأخ فخري ، قلت له إن حظه قصر يا بيك ، فإنه لم يزل يشتغل في محل صهرنا قسطندي عبد النور ، وذلك منذ الحرب العالمية الأولى ، ويا حبذا لو استطعنا مساعدته ليعود إلى المدرسة الآن . فأجاب : يا واصف إن فرصة سانحة الآن بين أيدينا ، أرسله لي غداً من كل بد ، لأنني أنا في وظيفة مفتش المعارف ،

ولا يهمك، فشكرناه والوالدة عن اهتمامه. وبالفعل، ذهب فخري وبواسطة العم أبو إبراهيم دخل المدرسة الرشيدية بالقدس، وذلك سنة ١٩٢١، وقد تغيرت السياسة المتبعة -آنذاك- في البلاد، وأصبحت الحكومة المنتدبة تعاكس مصالح الأسرة الحسينية، وعينت الأديب الأستاذ إسعاف النشاشيبي مفتشاً للمعارف، ونظراً لصداقتي مع الأستاذ المومى إليه بل لصداقتنا مع عائلة النشاشيبي، وبالنظر لطموح الأخ فخري وحبه المتفاني للعلم، توفق -والحمد لله- كل التوفيق، وسار على بركة الله إلى أن دخل الكلية العربية زمن صديقنا وأخينا المربي الفاضل أحمد سامح الخالدي، واتخذه كأخ بالزمالة، فكان يثق به ثقة عمياء، وأصبح فخري وكأنه من عائلة الخالدي في بيته الخاص، وبهذا كتب إليه النجاح وحصل على شهادة معلم، وعلى كلٍّ، يرجع الفضل إلى زيارة العم إسماعيل بك رحمه الله.

والجدير بالذكر بعدما سهرنا وإسماعيل بك، ودعنا وقد نزلت معه لأشيعه بالترحاب، وعندما خرج من مدخل دار الجوهرية تذكر بأن له من أملاكه الكثيرة، دار ملك في تلك المحلة، وعلى ضوء الفانوس الغاز الذي كان بيدي دخلنا زقاقاً وخرجنا منه، ثم داراً وأخرى إلى أن اهتدينا فوجدنا هذه الدار، وكانت مقابل دارنا تقريباً بجانب دار المرحوم مصطفى الصالحاني، وكانت تسكن في الدار عائلة الصباغ. فسر العم أبو إبراهيم، وقال: والله يا واصف لم أشاهدها منذ حداثتي.

أول ثورة عربية بالقدس في زمن الانتداب

كان يوم أحد الشعنينة لدى الطوائف المسيحية بالقدس من سنة ١٩٢٠، وكان في هذا اليوم يتجمع المسلمون بالقدس لمرافقة حفل علم النبي موسى، ذلك الاحتفال المهيب الذي كان يحدث في ذلك الزمن، وهو عيد قومي لحفظ التوازن بين المسلمين والمسيحيين بالقدس، ابتكره القائد صلاح الدين الأيوبي بعد هزمه الصليبيين.

كنت واقفاً في صيدلية صديقي جورج مشحور خارج باب الخليل انتظر مع الشعب مرور موكب أهالي مدينة خليل الرحمن، وقد تخوف الناس عندما لاحظوا أن موكب أهالي مدينة خليل الرحمن يسير ببطء متزايد، وخصوصاً عندما وصل إلى موقع بركة السلطان حتى وصل إلى مدخل المدينة عند باب الخليل ساعات طوال، وكان الموكب بهياج شديد ينشد الأناشيد الوطنية الحماسية ضد الصهاينة واليهود والإنكليز، إثر نشر وعد بلفور المشؤوم بالبلاد، وعندما استتب موقفه في ساحة باب الخليل الخارجية، أصبحت المدينة وكأنها ساحة حرب، وزاد حماساً عندما رأى أن صورة فيصل الأول قد ارتفعت بيد أحد الأحرار من العرب من على شرفة النادي الأدبي، وبعدما استمع إلى الخطابات الوطنية التي ألقاها كما أذكر -آنذاك- المرحوم محمود عزيز الخالدي، وهكذا تحركت في دمائه حب الوطن، فثار ثورة عظيمة، وقد شفى غليله لأول مرة باليهود الوطنيين،[1] الذين كانوا يسكنون داخل المدينة، فقتل وجرح الكثيرون. وقد ساعد أشاوس مدينة خليل الرحمن وجود الحجارة التي كانت ملقاة على ضفتي شارع باب الخليل لرصف الشوارع صدفة، فكانوا يستعملونها ويقذفون بها حوانيت اليهود بسهولة.

اغتاظت الحكومة من هذا العمل الجريء وفرضت بالحال منع التجول، وبطشت بالأهلين العرب، وأسندت الثورة إلى بعض رجالات القدس، وعلى رأسهم أمين أفندي الحسيني -آنذاك- وهو شقيق الشيخ كامل أفندي الحسيني المفتي الأكبر لمدينة

[1] المقصود من غير الوافدين الجدد بعد إعلان وعد بلفور.

القدس،[1] وعند المساء أغلقت أبواب المدينة من قبل الجيش البريطاني، فاضطررت إلى قضاء الليل في بيت صديقي جورج مشحور الواقع خلف سينما ركس، وعلى حدود مقبرة مأمن الله.

[1] من اللافت للنظر هنا أن الجوهرية يعرّف الشيخ أمين الحسيني وهو الأكثر شهرة لاحقاً - بالنسبة إلى أخيه كامل.

من هم القائمون بأول ثورة؟

في صبيحة الاثنين عندما وصلت إلى مركز عملي في دائرة حاكم القدس العسكري باب العامود، وجدت أن الحكومة ألقت القبض ليلاً على هؤلاء الأشخاص، وأوقفتهم في غرفة خاصة بالطابق الثاني لعمارة الحاكم بجانب دائرة المالية آنذاك، وهم: الشيخ عبد القادر المظفر، وعبد الفتاح درويش، وابن عمه سعيد درويش، والأستاذ خليل بيدس، وقد ألقى خطبه حماسية، ومحمد كامل البديري (لست متأكداً من هذا)، وعلى ما أظن موسى كاظم باشا وغيرهم. وقد نقلوا فيما بعد إلى عكا. والجدير بالذكر أنني ساعدت ما أمكن في تقديم الحاجيات الضرورية من سكاير وغيره سراً إليهم. وقد ظهر لنا فيما بعد أن أمين أفندي الحسيني فر من القدس يوم ٤ نيسان سنة ١٩٢٠ على إثر هذه الثورة عن طريق البحر الميت بواسطة العم محي الدين أفندي الحسيني، وتنقل بين الأردن وسوريا، وبعد انهيار عرش فيصل عاد مرة أخرى إلى الشرق، وظل هناك حتى إعلان الحكومة المدنية، وتسلم السير هربرت صموئيل الحكم.



أمين أفندي الحسيني

وبعد وفاة الشيخ كامل الحسيني المفتي، انتخب انتخاباً من الأهالي، وحصل على وظيفة المفتي الأكبر لمدينة القدس، وكان من العرف والعادة أن يصدر المندوب السامي براءة، فقد أصدرها بالفعل، وفهم ذلك بين الناس أن أمين أفندي عين تعييناً والواقع كان انتخاباً. لم يكن مع أمين أفندي الحسيني عندما فر من القدس غير عارف أفندي العارف، وعندما رجعا قبل عارف العارف بالوظيفة لدى حكومة الانتداب، وظل أمين أفندي الحسيني بعيداً عن الحكومة بانتخاب المفتي الأكبر للقدس، ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى.

الإحصاء الأول في فلسطين زمن الانتداب البريطاني

عزمت حكومة الانتداب في فلسطين على إنشاء مجلس تشريعي في فلسطين يضم فرقاء من البريطانيين والعرب واليهود نسبة لعدد السكان لذلك الوقت في فلسطين، وذلك في صيف سنة ١٩٢١، وقد عينت موظفي إدارة الحكومة وأساتذة المعارف لتقوم بمهمة الإحصاء، وقد عينت مفتشاً للإحصاء في أحياء باب العامود، والواد، والسعدية داخل سور المدينة إلى الحد الفاصل لمحلة باب حطة، وذلك مع الأخوان سعد الدين عبد اللطيف المعروف (بالخط)، وفوزي عوده النشاشيبي، وكلاهما من أساتذة المعارف. ولكن عندما باشرنا بتوزيع النماذج الخاصة لهذا الموضوع على الأهلين، تصدى لنا القبضاي صبحي حجازي الملقب بالجقمان من أهالي محلة باب العامود المعروفين، ومعه بعض الزملاء وأوقفونا بالقوة . . . لماذا؟ . . لأن الحاج أمين الحسيني وحزبه من أحرار البلاد رفضوا هذا المشروع رفضاً باتاً، ورفضه الشعب لاعتبارات كثيرة، وأهمها خوفهم من الجندية . . . وتنفيذاً لخطة عدم التعاون مع الحكومة الحاضرة، واعتبروه خطراً يهدد البلاد بأسرها. وهكذا بصفتي من سكان محلة السعدية، حضر لبيتي (دار الجوهرية) المدعو صبحي الجقمان ليلاً ونصحني بأن لا أقاوم ما

يرغبه من وقف عملية الإحصاء، فرحبت بكل ما هو خير للبلاد وأهلها ... ولكن حصلت ما بينه وبين الأستاذ فوزي النشاشيبي بصفته من حزب الدفاع الذي ترأسه فما بعد راغب بك النشاشيبي والمعروف عنه لدى الشعب أنه وحزبه كانوا موالين لحكومة الانتداب، وغايتهم اتخاذ طريقة التفاهم في البلاد وليس بالقوة. وهكذا خفق المشروع في مهده، وبقيت النماذج حبراً على ورق ضمن المهملات في دائرة حاكم القدس،[1] ولكن لم يهدأ لحكومة الانتداب بال بعدما رفض العرب المجلس التشريعي على أساس الإحصاء، كما هو مبين أعلاه، فقد أصدرت حكومة الانتداب بتاريخ ٢٢ حزيران سنة ١٩٢٢ تشكيل مجلس تشريعي مؤلف من اثنين وعشرين عضواً منهم:

١. عشرة من الموظفين الإنكليز في حكومة الانتداب يعينهم المندوب السامي.

٢. ثمانية من أهالي البلاد المسلمين (بالانتخاب).

٣. اثنان من أهالي البلاد المسيحيين (بالانتخاب).

٤. اثنان من أهالي البلاد اليهود (بالانتخاب).

شريطة أن يكون المندوب السامي رئيساً لهذا المجلس، وله حق النقض والإبرام (الفيتو)، وأن ليس من صلاحيات ذلك المجلس حق التعرض لمبدأ الانتداب أو الوطن القومي اليهودي. وقد وافق اليهود على تشكيل هذا المجلس مبدئياً لأن السير هربرت صموئيل عمله وعرضه: فأخذ موافقة اللجنة الصهيونية عليه، ولكن رفض المشروع من العرب، وذلك بواسطة الوفد العربي الذي كان موجوداً -آنذاك- في لندن.

وعلى الرغم من هذا الرفض من العرب لهذا المشروع، فقد دعت حكومة الانتداب في فلسطين إلى إجراء انتخابات للمجلس التشريعي في شباط سنة ١٩٢٣، فقاطعه العرب في الحال. وأخيراً اضطرت الحكومة وقف إجراءاتها وسحب مشروعها.

[1] ما يقوله الجوهرية غير دقيق، فقد ظهرت نتائج الإحصاء وتم نشرها من قبل حكومة الانتداب، إلا أنها كانت محدودة المصداقية. (المحرران).

الوفد الأول العربي إلى لندن

قرر المؤتمر الرابع في ٢٥ حزيران سنة١٩٢١، وأرسل الوفد الأول إلى لندن المؤلف من موسى كاظم باشا الحسيني رئيساً، وشبلي الجمل سكرتيراً، والحاج توفيق حماد، وأمين التميمي، وإبراهيم الشماس، ومعين الماضي، وبقي الوفد في لندن إلى سنة[...][2] وإني أحتفظ برسم هذا الوفد ضمن المجموعة الجوهرية للذكرى، وقد أصدر وزير المستعمرات ونستون تشرتشل -آنذاك- الكتاب الأبيض رقم ١٧٠٠ بتاريخ ٢٢ حزيران ١٩٢٢.

[2] غير مذكور في الأصل.

الثورة العربية الثانية في فلسطين

وفي كانون الأول سنة ١٩٢٠، عقد المؤتمر الفلسطيني الثالث مؤتمراً في حيفا، وقرر رفض الانتداب البريطاني على فلسطين، ثم زاد تدفق المهاجرين اليهود من ميناء يافا، وكانت -آنذاك- الميناء الوحيد في البلاد، فأضرب البحرية وقاطعوا البواخر.



الوفد الفلسطيني الاول في لندن خلال اجتماع عمل. الوفد اختير من قبل المؤتمر الفلسطيني العربي عام ١٩٢١. الثالث من اليسار هو موسى كاظم الحسيني، الى يساره شبلي جمال.

من المجموعة الجوهرية.



هيئة المؤتمر الفلسطيني الثالث المنعقد في حيفا، كانون الاول ١٩٢٠.

مثل المشتركون مدن فلسطين المختلفة. الثالث من اليمين في الصف الاخير هو امين الحسيني الذي اصبح لاحقاً زعيماً فلسطينياً مرموقاً.

المصور غير معروف.

من مجموعة مؤسسة الدراسات الفلسطينية في بيروت.

وفي أول مارس سنة ١٩٢١ بمناسبة عيد العمال ، قام عمال تل أبيب بمظاهرة وهتافات ضد العرب ، واتجهوا إلى يافا بحماية قوات الحكومة . . . فاصطدموا مع العرب ، فامتد لهيب الثورة إلى جميع أنحاء فلسطين مدة خمسة عشر يوماً ، وقتل من اليهود والقوات المسلحة ١٤٦ ومن العرب ١٤٧ وجرح ٧٠٠ ، فتدخل رؤساء الدين وزعماء العرب فوقفت الثورة .

ضحايا الثورة الأولى بالقدس

ألفت نظر القارئ إلى ما كتب عن الثورة الأولى أعلاه ، وأزيد القارئ علما بأن الضحايا التي وقعت في تلك الثورة ، وذلك بموجب تقرير رسمي سري صدر في مارس سنة ١٩٢٠ ، كانت ١٤ من العرب ، وقتل من اليهود والجنود ٩ ، وجرح ٢٥٠ .
اشتد بطش الحكومة ، فسجنت وحكمت الكثيرين ، وحكمت على السيد أمين الحسيني غيابياً ١٥ سنة ، بصفته فاراً عن القدس .

طلع يا ما أصعب نصه . .

تبدلت أفراحنا بمناسبة الاحتلال البريطاني وخلاصنا من نير الأتراك الظالمين . . . تبدلت بالأتراح عندما لمسنا نوايا بريطانيا السيئة اتجاه البلاد وأهلها ، ونشرت على الملأ بلا خوف ولا وجل وعد بلفور المشؤوم . . . وكانت الفاتحة تعيين أول مندوب سامي لفلسطين يهودياً ، بل من أقطاب الصهاينة العالميين .
أذكر أنني اطلعت صدفة على جريدة الكرمل التي كانت تصدر بعد الاحتلال في حيفا ، وإذ كان مكتوباً بها هذه الأبيات :

"طلع يا ما أصعب نصه تلغراف سان ريمو — واللي يقول لك ما بيخصه ربنا لا يعينه"

وفي الحال ، وبصفتي فناناً تجلت الفكرة في مخيلتي فألفت بعض الأبيات بالإضافة إلى الترديدة المذكورة أعلاه ، وكانت تطابق لحن طلعت يا محلى نورها شمس الشموسة ، من تلحين المرحوم السيد درويش فقلت :

طلع يا ما أصعب نصه تلغراف سان ريمو — واللي يقول لك ما بيخصه ربنا لا يعينه

دور

ما قريتش ياخويا أخيرا في جريدة الكرمل — مصيبتنا السودة بتعيين المستر صموئيل

ومن في الدنيا ما سمعشي دلال بيدلل — واللي ما بيعجبوش من الصبح يحمل

دور

لا تقول مسيحي ومسلم ما دام باعونا — كيف بدنا بكره نسلم للي اشترونا

كلمة (شالوم) يا خونا راح يجبرونا وكمان (ماشلو مخا) يا ربي تفرجها علينا

دور

بدال عن اسم أنور وجمال حكمونا شباي وشلوم وحايم اللي يكرهونا

يا خسارة عليك يا وطنا راحت رجالنا وبيظهر عزلانا تقلبت بقرود حوالينا

خد بالك أيها القارئ أقول وكأنه نزلــ علي الوحي منذ سنة ١٩٢٠، فصورت الواقع عن مستقبل الوطن العزيز ... أما كلمات شالوم، وماشلومخا، وشبتاي وشـولم وحايم، وكلها كلمات عبرية تعبر عن الحالة التي وصلنا إليها بواسطة بريطانيا العظمى بعد حكم جمال وأنور العثمانيين، الذي أعنيــ في قرارة نفسي بأن الشعب رجع عن كرهه لهم عندما لمس نوايا بريطانيا السيئة، وأصبح يترحم عليهما وعلى حكمهما ويرحم عليهما بالخير على الرغم عن بطشهم بالعرب إبان الحكم العثماني.

اتخذت هذه الأغنية فاتحة لمجالس الأنس والسهر والسمر، وكانت كثيرة، وكان الإقبال عليها عظيماً من الأهالي على مختلف أنواعهم بالقدس، والجدير بالذكر أنه في إحدى السهرات مع حاكم القدس العسكري رونالد ستورس الذي كنت اشتغل في دائرته، طلب هذا الحاكم مني (ولم أدر من عرفه من الزملاء الرؤساء ...) أن أغنيها، وبعدما سمع إليها مع جمهور كبير قهقه ضاحكاً وصفق بشغف زائد وطلب إعادتها وكان ذلك.

ويا حبذا لو بقي ستورس لهذا الحد، بل أذكر أنني عندما كنت في حفلة رسمية من حفلات السير هربرت صموئيل في عمارة الأوغستا فيكتوريا الألمانية بالقدس، وكانت - والحق يقال - حفلة ملوكية، وكنت أنا الوحيد من الدرجة الثانية في جمع غفير من منتخب الأعيان والوجهاء، وكانوا يستمعون لعزفي على العود ولغنائي الأصيل من الموشحات ... جاءني الحاكم ستورس وأمرني أن أغني هذه الأغنية، فأصبحت في موقف حرج جداً ... وقلت يا ليلة سودة ... ولكن شجعني وقال لي ولو لا تخاف ... ولما كنت على جانب من الحظ غنيتها وعدتها حتى أصبحت القاعة وكأنها ثورة من الحظ والسرور والضحك ... وعلى الأخص ستورس وهو يترجم كل كلمة فيها إلى فخامة المندوب.

وهكذا، وبواسطة هذه الأغنية، أصبحت العلاقة متينة بيني وبين المندوب السامي، فكان، وبواسطة المرحوم قومندير البوليس إبراهيم بك حيش، يجيء بي من بيتي تحت الحفظ ... ولكن في سيارة المندوب السامي، ونقضي ليالي سمر طريفة في عمارة الأوغستا فيكتوريا، وإني أقولها صراحة إن المندوب وكثيرين من الحضور الأجانب كانوا يتذوقون الغناء العربي ويقدرونه حق التقدير.





جندي هندي بريطاني يفتش رجال دين قرب باب الخليل.

المصور: اريك ماتسون

من مكتبة الكونغرس



الموسيقي الشيخ عمر البطش

كرشات محشية وقبوات مقلية

على ذكر أغنية المندوب السامي هذه، خطر في بالي بأنني عندما كنت أتعلم الموشحات الأندلسية زمن الحرب العظمى الأولى على يد معلمي الموسيقار عمر البطش الذي كتبت عنه الكثير في المجلد الأول من هذا الكتاب، وبمناسبة المجاعة التي كانت في عرض البلاد وطولها، كنت ألفت ولحنت بمساعدة معلمي عمر البطش المومى إليه أغنية تعطي القارئ صورة واضحة واقعية عن حالة الفقر والجوع والعوز:

كرشات كرشات كرشات محشية ... بيضات بيضات بيضات مشوية

يا سمك يا سمك يا سمك مقلي ... واسكب واشرب وغني واطرب

بادر بادر واشرب ... ما على الإنسان من مهرب

فالسكر أنفع ... منه لا تفزع

دور

قبوات قبوات مقلية ... كبة كبة كبة باللبنية

يا جزر يا جزر يا جزر محشي ... أقم في كرشي

كوسا كوسا بلحمة ... كشكة كشكة كشكة بشحمة

يخني بتنجان ... مع رز مفلفل

دور

يا كنافة لا تغيبي أبداً عني ... يا مهلبية إنت منيتي وقصدي

يا هريسة اللوز إنت أفخر ... المأكول بعد المحاشي

فستق بيدق طقش فقش ... عبي الأركيلة وحشش

وعن القطايف فتش ... بعدها أسنانك نكش

أخذت هذه الأغنية مني دوراً مهماً زمن الحرب الأولى، كنت أغني هذه الأغنية على عودي، وتكون هذه الألوان والأشكال (على الرغم من الحالة المؤثرة من الفقر آنذاك . . .) على الموائد أمامي، لأن جلساتي السارة كانت عند القواد[1] والمتصرفين وأعيان البلاد . . . وأذكر وأنا أغني الأبيات كثيراً من أصدقائي، بل أقرباني المحرومين لا من أكل شيء من هذه الأشكال فحسب، بل النظر إليها.

وقد بقيت أغني هذه الأغنية بعد الاحتلال، فأصبحت معروفة بين الأهالي، وخصوصاً في مدينة القدس كذكرى لسنوات الحرب العالمية الأولى التي زالت بلا رجعة.

ليالي محلة مأمن الله بالقدس

كان أخي وصديقي محي الدين زمرد المعروف عند أولاد البلد بـ (والدي . .)، كان له إسطبل لخيل العربات وبجانبه حانوت للبقالة لأخيه، وذلك حذاء عمارة فندق بلاس ملك الأوقاف المسلمين في حي مأمن الله بالقدس، ومجاور إلى دار المرحوم بشارة أفندي حبيب. كانت الأهالي، كما قلت مراراً في كتابي هذا، في حالة مرحة وسرور وطرب متواصل، إثر زوال احتلال البلاد من بريطانيا، وتخلصوا من الكابوس الذي فوق صدورهم قروناً طوالاً، فذاقوا ألوان العذاب والظلم والفقر والهوان، وخصوصاً أثناء مدة الحرب العظمى الأولى "السفر برلك"، وهكذا وقد تنفسوا الصعداء بعد الاحتلال البريطاني ودخلوا فجأة في دور غريب كله سهر وسمر وطرب، وإليك صورة أيها القارئ عن هذا الدور لأخذ فكرة، وهي ما بين سنة ١٩١٨ لغاية سنة ١٩٢٢:

كان يجيء العم والدي . . . إلى السرايا حاكم القدس العسكري عند الساعة العاشرة صباحاً، ويغمزني في عينه بأن الإسطبل فيه زبائن . . . طالبين الرزق ليتقذوا أرواحهم على عزف عود وغناء واصف . . . وهم في الانتظار في الحال.

كنت أنسحب بانتظام من الدائرة . . . وأصحب العم والدي إلى الإسطبل، وإذ أجده وفيه نخبة من عائلات ذلك الحي أمثال عائلة كروز، وفران، وليديا وأخيها، وصليبا، وخوري، وغيرهم، شيء مضحك للغاية . .؟!! سيدات وآنسات يجلسن ومن حولهن زبل الخيل يقفن وهن في حالة حظ،[2] وعلى جانب عظيم من الطرب يستقبلنني بهتاف وتصفيق . . . هيو هيو أجا . . . نبدأ الجلسة هذه ونغني ما طاب لنا وأنتقي الأغاني الخفيفة التي يمكن لهذه الفئة من ترديد ترديدة الأغنية، ليعم الطرب بالإجماع وتدور كاسات الويسكي والنبيذ المعتق، ونبقى على هذا الحال، وكثيراً ما كان العم والدي . . . ينهر الخيل بصوته الأجش، تلك الخيول التي كانت تشترك معنا بالطرب . . . قلت نبقى على هذا الحال، وكان العم أبا فرنسيس (يوسف صليبا) يشرف على الكؤوس الفارغة . . . إلى الساعة العاشرة مساء من ذلك اليوم العصيب.

أما بعد، تدور نشوة الطرب (كانت هناك عربة لنوم الأولاد الصغار المصنوعة من القش ومقامة على أربعة عجلات) يضعوني وعودي في هذه العربة ونخرج من الإسطبل ووالدي . . . كان يجرني بالعربة والحضور تمشي من حولي وتردد ترديدة أغنية يا عزيز عيني وأنا عايز أروح بلدي . . . الخ، بأعلى أصواتنا في الشارع الرئيسي إلى أن نصل بيت أخي وصديقي

[1] القواد: القادة.

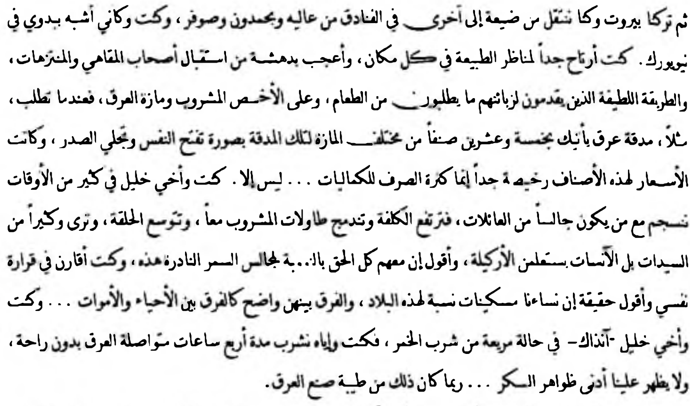
[2] حظ: سكر.

يوسف حنا مرقص، الواقع مقابل عمارة الكردنال فراري شارع الملك جورج، وهناك نعيد الكرة وجار الرضا أبو فرنسيس صليبا يقوم أيضاً براحة الزبائن، ونسهر إلى ما بعد منتصف الليل ... فسقيا لتلك الأيام ما كان أطيبها ! !
تصور أيها القارئ هذه الليالي ... وتصور هذه العائلات وجلسة السمر على زبل الخيل داخل الإسطبل، وكل فرد من الحاضرين كان وكأنه في الجنة ليس لشيء إلا لأنه كان هادي البال ناعم الحال، بكر تلك الجلسات المثالية ابتكاراً لتعطشه للطرب ... وإني أتساءل الآن في قرارة نفسي، كيف انقلب الزمن على الأهلين، وأصبح الجميع بين عشية وضحاها في حالة يأس وغم وعدم استقرار، الأمر الذي يجعلني -والحالة هذه- أن أرفض الفناء ولو جلست على ريش النعام، وفضلت زبل الخيل عن هذه المظاهر ... إيه والله.

رحلة سوريا ولبنان مع الأخ خليل

كنت ذكرت أن أخي خليل قد قضى زمن الحرب في الجندية جندرمة في بيروت، ولما كنت لم أترك فلسطين وشرق الأردن منذ مولدي كان الأخ خليل بعد رجوعه من بيروت يقص علينا القصص والحوادث الكثيرة التي شاهدها في لبنان وسوريا، ويحدثنا عن جمال هذه البلاد وجبالها ومياهها، وكنت أستمع إلى حديثه بلهف زائد، وأقول عسى أن أزورها يوما ما يأذن الله.

وفي صيف سنة ١٩٢٢، عندما أصبحت في بحبوحة عيش -والحمد لله- وأصبحت قادراً على تنفيذ هذه الخطة، وكان الأخ خليل في حالة سيئة اقتصادياً، عزمت على رحلة لتلك البلاد بصحبة الأخ خليل على نفقتي الخاصة. وهكذا حصلت على إجازة مدة ثلاثين يوماً من دائرة حاكم القدس، وكان في جيبي (مائة وخمسة وستين ليرة مصرية)، فسافرت وخليل بالسيارة إلى حيفا فوصلنا في العصيرة ونزلنا في فندق بجوار محطة السكة الحديدية كانت تديره سيدتان اللتان احتفلتا بقدومنا وتناولنا طعام العشاء معهما بدون كلفه. وعند الصباح تركنا هذا الفندق، وتجولنا في حيفا، وأنا -كما قلت- الرحلة الأولى من حياتي ... فاشتريت بعض الشيء من مخازن حيفا كتحف نادرة لزينة بيتي في المستقبل (وكنت على وشك الزواج آنذاك سراً ..) وقد وقع نظري على زوج مزهريات صنع إيطاليا تقليد البرونز، وكان ثمنها تسع ليرات مصرية، فأحببتها ووعدني صاحب المخزن بإبقائها على اسمي عند رجوعي من لبنان.
حاسبت الفندق ثم سافرنا إلى بيروت عن طريق الناقورة وكانت -والحق يقال- رحلة ممتعة، فالسيارة تسير على شاطئ البحر، فوصلنا بيروت في الظهيرة ونزلنا في فندق جديد يطل على ساحة البرج. سررت جداً في بيروت، وكانت ساحة البرج -آنذاك- في حالة طبيعية تضم مقهى كبيراً وفي وسطه نافورة تدفق منها المياه عالياً، وتصب في حوض كبير متسع ومن حوله ما تشتهيه نفسك من الطعام والشراب والخمر والأركيلة ... كل قسم يختص بذاته وفي غاية من الخدمة والإتقان. صرفنا مدة تزيد على خمسة أيام كنا نتجول فيها في المدينة وضواحيها ومنتزهاتها، وقد اشتريت بعض التحف الفضية من المخزن المعروف بالكف الأحمر سوق الطويلة، أحتفظ بهذا الطقم وهو للطلي، وفيه الكرستال ليومنا هذا، وكان الأخ خليل يطلعني على أجمل المحلات وكأنه مترجم للسياح.



ثم تركنا بيروت وكنا نتنقل من ضيعة إلى أخرى في الفنادق من عاليه وبحمدون وصوفر، وكنت وكأني أشبه ببدوي في نيويورك. كنت أرتاح جداً لمناظر الطبيعة في كل مكان، وأعجب بدهشة من استقبال أصحاب المقاهي والمتنزهات، والطريقة اللطيفة الذين يقدمون لزبائنهم ما يطلبون من الطعام، وعلى الأخص المشروب ومازة العرق، فعندما تطلب، مثلاً، مدقة عرق يأتيك بخمسة وعشرين صنفاً من مختلف المازة لتلك المدقة بصورة تفتح النفس وتجلي الصدر، وكانت الأسعار لهذه الأصناف رخيصة جداً إنما كثرة الصرف للكماليات . . . ليس إلا. كنت وأخي خليل في كثير من الأوقات ننسجم مع من يكون جالساً من العائلات، فترتفع الكلفة وتندمج طاولات المشروب معاً، وتتوسع الحلقة، وترى وكثيراً من السيدات بل الآنسات يستعملن الأركيلة، وأقول إن معهم كل الحق بالنسبة لمجالس السمر النادرة هذه، وكنت أقارن في قرارة نفسي وأقول حقيقة إن نساءنا مسكينات نسبة لهذه البلاد، والفرق بينهن واضح كالفرق بين الأحياء والأموات . . . وكنت وأخي خليل -آنذاك- في حالة مريعة من شرب الخمر، فكنت وإياه نشرب مدة أربع ساعات متواصلة العرق بدون راحة، ولا يظهر علينا أدنى ظواهر السكر . . . ربما كان ذلك من طيبة صنع العرق.



خليل جوهرية

بقينا على هذا الحال مدة ما تقرب من أسبوعين، وأخيراً سافرنا في السيارة إلى زحلة، ونزلنا في فندق قدري على الوادي، وكان من أشهر الفنادق، وكنا نقضي أوقاتنا على متنزهات ومقهى نهر البردوني، وكانت تصب مياهه في الأقنية الطبيعية بصورة تدهش الناظر، وكانت المقاهي على ضفتي هذا النهر الجميل. قضينا ثلاثة أيام في زحلة، ثم تركناها وقصدنا دمشق، فنزلنا في فندق فيكتوريا، وذهلت طرباً عندما دخلت دمشق هذا البلد العربي الذي كان محافظاً على عروبته حتى في بنائه وأسواقه وحياة أهله، وهناك في سوق الحميدية الذي أقول صراحة بأنني عشقته من كل قلبي، فهذا من يدق البوزا "الدندرما" العربية الممزوجة بالمستكة دقاً، ومن حوله الأواني الشرقية المؤلفة من أطباق وزبادي الصيني الأصلي، والزخارف الخشبية صنع دمشق، وعلى الأخص صنع الصدف على المقاعد والكومودات وإطارات الصور والمرآة، وهذا جل ما أبغي وأحب.

اشتريت من هذه السوق البراويز الجميلة الصنع، وعينت في قرارة نفسي واحداً لرسم الوالد المرحوم، والثاني لما أدعوه بوالدي الثاني حسين أفندي الحسيني، وكان ذلك كما ابتغيت، وأصبحت هذه البراويز معلقة في صدر قاعة المجموعة الجوهرية -والحمد لله- كما سيجيء التحدث عنها في حينه من هذا الكتاب.

كنا نسهر ليلاً في الأزبكية، وكانت لحسن الحظ ذائعة الصيت منيرة المهدية من مصر تطربنا بصوتها وغنائها المصري القديم والخالي من الزركشة الغربية . . . تحت ظل الأشجار إلى ما بعد منتصف الليل. وإني أذكر أنني كنت أطرب في الفجر وأفيق من نومي وأنا في الفندق على صوت المآذن، وما أكثرها في دمشق! كان أخي خليل في كثير من الأوقات ينصحني بالمحافظة على النقود، ويقول بالله عليك يا واصف لا تتطامنا في الغربة . . . فنحن لا نعرف أحداً في هذه البلاد، فأجيبه على الفور ولو لا تخف يسترها الله . .

هات يا صرف وسهر وشرب و . . و . . . الخ، حتى أفقنا من نومنا فوجدت أن الدراهم على وشك الخلاص، ويا للأسف! وقد انتهت تقريباً أيام الإجازة ولم يبق منها سوى يومين! ! الله يا خليل ما هذا؟ . . علينا ترك دمشق بالحال، فغضب خليل وبدأ يعربد علي ويلومني، وهكذا نظمنا أحوالنا وقفلنا الشنطات وحملنا الصناديق المملوءة من خشب دمشق والأواني والبراويز وطاولة نعب وغيره وركبنا القطار، وعن طريق المزيريب ودرعا وكان يوماً شديد الحرارة ذقنا فيه ألوان الشقاء وقد سال السمن من مجامع حلوى بيروت من شدة الحر، ولم يكن معنا شيء نسد فيه جوعنا لعدم شرائنا الطعام عندما تركنا دمشق، ونحن في حالة نرفزة، وخصوصاً من غضب خليل، إلى أن وصلنا قبل الغروب بقليل إلى حيفا وهنا بيت القصيد :

نزلنا في محطة السكة الحديدية في حيفا على جانب عظيم من التعب والقلق، وزاد انفعالنا عندما طلب منا دفع الرسوم الجمركية عن بعض التحف التي اشتريتها . . . وهكذا بعد جدال دفعنا مبلغ خمسة وتسعين ليرة سورية، ولم يبق معي إلا (قرشين ونصف مصري) بعدما تركنا محطة السكة الحديدية في حيفا ونزلنا في الفندق المعهود بحالة يأس فظيعة. هنا بدأ الجدال والعقاب بصورة فظيعة ما بيني وبين الأخ خليل الذي أقولها صراحة أنه بهدلني . . . لأنني لم أستمع لإرشاداته الأولية من حيث المصروف، وكنت أنا أطيب خاطره وقلت له :

"ولو . . ما عليك يا خليل، نحن الآن وصلنا إلى بلادنا، ولنا الأصدقاء والمعارف الكثيرة من أبناء القدس في حيفا، ونستطيع بسهولة أن نستلف ما أمكن من النقود ونرجع القدس غداً والله معنا". وكان هو يهز رأسه ويتمتم . . . ويقول "نعم لك أصدقاء كثيرون . . وأنت لا تعرف الناس بعد"، إلى ما هنالك من أخذ ورد في الموضوع ذاته فشجعته وقلت له "العمى . . صبحي عويضة وهو من أعز أصدقائي بوظيفة مدير طابو حيفا . . فأنا أطلب منه أي مبلغ أريده".

وهكذا بعدما اغتسلنا من رحلة القطار الملعونة . . . اعتذرنا من سيدات الفندق عن تناول العشاء لأننا مدعوون عند صديق لنا . . . والحقيقة تخوفاً من دفع الثمن . . . ونزلنا من الفندق. اتفقنا أن نسهر في (مقهى ومنتزه البنط) ونشرب العرق ونغير أفكارنا وفي الوقت ذاته عسى أن نجد صديقنا صبحي ونؤمن مصيرنا لنصل القدس. ولكن موقع البنط بعيد، والواجب الذهاب إليه في عربة . . . فمن أين ندفع إلى السائق والقيمة التي معي كما قلت أعلاه قرشين ونصف مصري لا غير . . ذهبنا مشياً على الأقدام وكل واحد منا لا يفه ولا بكلمه.

عرجنا في الطريق على حانة بلدي وشربنا كاسين من العرق الرديء ونحن واقفون كما يقولون على الدسكة . . والمازة حبات من الترمس . . . ودفعنا الثمن قرشين مصري وعدنا نسير على الأقدام إلى أن وصلنا ذلك المقهى الفخم البنط . . . وبقي نصف القرش وحده ناعم البال في الجيب. دخلنا المقهى وكان مضاء بأنوار اللوكسات وفيه نخبة من أهالي القدس والمعارف الذين كل واحد منهم هب مسلماً علينا . . . ولكننا انزوينا وحدنا في إحدى زوايا هذا المنتزه وطلبنا العرق والمازة وبعض النواشف المغذية لسد رمق الجوع.

منيرة المهدية



كان من بعض الموجودين في المقهى عيسى سمعان المشبك، وقسطندي إبراهيم فرح، ورشدي شعث، وعيسى السلفيتي وغيرهم الذين أبوا تركنا وحدنا، بل اجتمعوا وجلسوا معنا على الطاولة ذاتها، الأمر الذي جعلني أن أكرمهم، فطلبت بالحال من الجرسون وأحضر ما يطلبون من الخمر . . . كان هذا الفصل غريباً ووقعنا في حرج، وكان أخي خليل يحلق في نظره إلي غضباً، وأنا أمثل دوري بالضحك والنكتة وألقي على الضيوف محاضرة عن الرحلة الميمونة.

صممت بأن أنسحب من هذه الجلسة على أمل أن أدخل إلى داخل المقهى وأرهن ساعتي الذهبية والعصا ذات اليد الفضية عند صاحب المطعم خوفاً من الفضيحة . . . وبالفعل عندما هممت بالوقوف لتنفيذ الخطة إذ مسكني الأخ الشهم عيسى السلفيتي -رحمه الله- وقال إلى أين يا واصف، والله ما بتدفع، فأنتم ضيوف علينا . . وبعد جدال شكرته وعدت جالساً فشربنا مثنى وثلاث ورباع . . . ما عدا الإكسترا من المازة على حساب السلفيتي، وأنا أدعو الدعوات الخيرية لكل من ولد في بلدة سلفيت . . . وكانت نعمة وموفقية كبرى.

تخلصت من الفضيحة . . . وقد تبسم وجه الأخ خليل نوعاً بعد الحادث الطريف، وكان عابساً، كيف لا، وهو جندي جندرمة . . . وقد زاد التجلي في النكات التي كنت أقصها على الحضور، فأصبحت الطاولة التي نجلس حولها قبلة زبائن ذلك المنتزه.

أما أنا، فقد اختلوت بقسطندي فرح وباحثته في موضوع الدراهم . . . وكيف أصبحنا معدمين بالنسبة إلى ما اشتريت من التحف . . . الخ. ورجوته بأن يسلفني مبلغ ثماني ليرات مصرية سأدفعها لمحله السنتواري . . . حال وصولي القدس، وخصوصاً وأن الإجازة المعطاة لي بصفتي موظفاً قد انتهت . . . ولكن اعتذر هذا وادعى أنه لا يملك في الوقت الحاضر نقداً بل سيكتب لي شيكاً بالمبلغ، فقلت له لا، فأنا لا أرغب صرفه في الغد، بل أفضل السفر مبكراً . . . صمت قليلاً ثم قال اسمع يا واصف أنا في الغد باكراً أكون في داخل المحطة، فإذا جئت سأعطيك في الحال ما ترغب من المال ولو . . . فشكرته وسكت ووعدته أن أكون عنده في الصباح الباكر.

انتهت الحفلة على أحسن ما يرام، ورجعت وخليل أيضاً مشياً على الأقدام إلى أن وصلنا إلى الفندق، وهناك بالصدفة وجدنا الأستاذ رشدي شعث مقيماً بالغرفة التي بجانب غرفتنا في الفندق، وكملنا معه السهرة إلى منتصف الليل على الفرندا . . . وخجلت في الحقيقة بأن أطلب منه نقوداً وقلت في نفسي لماذا فقد وعدني قسطندي فرح بذلك وكفى.

كان الأخ خليل يهزأ بي . . . ويقول طيب لو أخذت منه أي من السيد فرح شيكاً . . فهل هذا يا ترى يفي بوعده في الغد؟ ايه إن شاء الله منشوف . . . وأخيراً نمنا ولكن من أين سيجيء لي النوم . . . أفكاري قلقة وكنت أفكر بما حدث لنا ثم أقول ولو لو فشلت من فرح فعندي صبحي عويضة . . . وهكذا بقيت قلقاً إلى الفجر عندما لبست في الحال وتركت خليل يشخور . . . في نومه بعدما كتبت له ورقه بأنني أنتظره في كاراج القدس . . . ونزلت متكلاً على الله وحاولت دخول المحطة ولكن أين:

كان دخول الشخص مقابل نصف قرش مصري بموجب القانون (تعريفه . . .) ، وهكذا سرت ووضعت يدي في جيبي ومسكت التعريفة ورفعتها بعدما ودعتها وداعاً مراً . . كيف لا وهي الباقية معي من النعم ! ! . دخلت أتجول بين الناس وأدخل غرفة المحطة ثم أطلع من الباب الثاني وكأنني بس مصعور[1] أفتش عن صديقنا الحميم قسطندي فرح . . . فلم أجده مع كل أسف ، وبقيت على هذا الحال إلى أن سافر قطار الساعة الثامنة صباحاً . . . وهناك خاب أملي ورجعت مكسوفاً إلى كاراج القدس وجلست باب الكراج على كرسي قهوة بلدي وكنت غائباً عن الدنيا . مر عني القهوجي وبيده بكرج القهوة الساخن ذو الرائحة الطيبة ، فقلت في قرارة نفسي الله . . يا هالدنيا . . من أين لي أن أشرب فنجاناً . . . وريقي ناشف من عرق الأمس . . ولو كان معي دراهم لدفعت ثمنه والله عشرة قروش ، وكانت عيوني لا تفارق منظر ذلك القهوجي وبكرجه وفناجينه العربية البدوية . . . كان يجلس أمامي رجل بحري بلباس السروال الأبيض وقد تناول فنجان قهوة وقبل ما يذوقه أمر القهوجي أن يقدم لي فنجاناً فأقبل هذا وقدم لي فنجاناً على حساب هذا البحري الفاضل . . . الله لم يعرفني ، ما هذا الكرم ! سبحانه وتعالى أخذت الفنجان وشكرت صديقنا الجديد البحري على كرمه بما تيسر من كلمات الشكر والامتنان . سألني وتباحثنا الأحاديث وعرفته بأنني من بيت المقدس فقال لي اسم الله عليك . . . وإذ حضر الأخ خليل . . . فأعطيته الأخبار السارة داخل المحطة فقال لي "ولك شوف العالم . . افهم ، هندس ، هلل ، فيق ، . . ما قلت لك من الأول إنهم عكرتة ! " .

قلت له هذا اللي حصل وربك بيفرجها يا خليل . . . وأعطيته – على سبيل المثال – قصة فنجان القهوة . . . وحساب مقهى البنط بمساء أمس . . . ولكن بقي غضبان وجلس معي باب الكاراج . وإذ السائق الأخ الصديق نخله لورنس . . . يقف أمامنا وقال شو طالعين ع القدس . . . قلنا بلى والله ، قال هات أربع ليرات مصري نشتري بنزين وهذه هي السيارة . . يا الله !

سررت داخلياً وقلت له طيب بس خذنا أولا في السيارة إلى دائرة الطابو ولو خمس دقائق لمواجهة صديقنا صبحي عويضة المدير ، قال اركب . ركبت وخليل في السيارة ودخلنا دائرة الطابو ولم نجد هناك بعد إلا الموظفين .

كانت هناك غرفتان ، غرفة المدير صبحي ، وغرفة بجانبها إلى الموظفين ، وفيها درويش عويضة ، سلمنا عليهم وبقيت أنا في غرفة صبحي وقد دخل خليل وجلس عند صديقه الأكثر درويش ، ولما كانت نافذة ما بين هاتين الغرفتين تستعمل لنقل دوسيات الطابو كنت أرى خليل وهو جالس ليشرب القهوة مع درويش ، وكان هو ودرويش ينظرون على طاولة صبحي بوضوح . تحدثنا وصبحي كثيراً ودردشنا الذكريات وعرفته بأننا كنا في لبنان وسوريا وقلت له أخيراً أنا الآن رايح إلى القدس ورغبت رؤيتك ربما يلزمك شيء هناك . قال بالله عليك يا واصف دائرة الإجراء أهلكتني بالطلب فهل بإمكانك توصيل ٣٠ ليرة دفعة عن أخي عادل إلى العم أبي داود النشاشيبي وتأخذ وصلاً وترسله له؟

"ولو نحن لبعض يا صبحي ! ! ما هو على عيني ! !" ثم تركني وأنا أشرب القهوة ورجع وبيده النقود يعدهم عليَّ الواحدة بعد الأخرى إلى الثلاثين . . . فوضعتهم بكل تأنٍ في المحفظة وخليل يحلق في نظره واستبشر ظاناً بأنني طلبت منه هذه

[1] بس مصعور: قط مجنون.

النقود! أما أنا فلم أعد أنظر إلى خليل بنظري إلا خلسة . . . وأداعبه في سحب وتصفيط الليرات في المحفظة ليس إلا .
وقد أشار إلى يده مستفسراً عندما تغيب صبحي عن طاولته فلم أجبه قطعياً . ودعنا صبحي درويش وشيعونا إلى مدخل الطابو ، وهناك ركبت السيارة بكل عظمه وبيدي العصا الفضية ورفعت رجلي عالياً وراء ظهر صديقنا السائق نخلة إلى أن وصلنا البلد (حيفا) إلى أين؟ . . إلى المخزن العظيم الذي كنت تركت فيه الفازات .
دخلت المخزن ودفعت ثمن الفازات ووضعوا في السيارة، وأخي خليل ينظر إلي بدهشة . . . الله الله إرجعنا على أكل الخرا . . . صحيح صدق من قال "وقوم من عبادي لا يليق بهم إلا الفقر ، فإن أغنيتهم لفسد حالهم" . . ولك يا واصف تساش إحنا نمنا بدون عشاء . . يا كذا .
وكنت لا أجيبه ولا بكلمة إلى أن وصلنا الفندق ، وهناك دفعت ما يطلب مني إلى الفندق وجلسنا مع الصديق نخلة وتناولنا ما هب ودب من طعام الفطور وأخذنا العفش جميعه في السيارة وتركنا حيفا إلى القدس . . . وهناك في الطرق عرفت أخي خليل عن مسألة الثلاثين ليرة التي أخذتها على مرأى منه من صبحي بدون طلب ، بل بقيت رافع الرأس وكلي إيمان بالله سبحانه وتعالى . ويا حبذا لو أمكنك الاستماع إلى هذا الحادث من فم أخي خليل الذي أدخل عليه الرتوش والزركشة الرائعة لما أصابه من هم وقلق وفرج بالنهاية .

الحفلات الليلية في قاعة جمعية الشبان المسيحية

لم أزل أذكر ليالي سمر أقيمت على مسرح عمارة جمعية الشبان المسيحية بالقدس عندما كانت خشبية مقامة على أرض دير الأرمن بالقدس شارع يافا ، وهناك قضينا أوقاتاً جميلة جداً أثناء الحكم العسكري في البلاد ، وكانوا ، وخصوصاً الإنكليز ، يحبون الاستماع إلى الموسيقى العربية الصرفة ، فكنت أنا وزميلي وصديقي أندريا إلياس القسيس نظهر على خشبة المسرح ونمثل الطريقة التي كانوا يعلمون فيها التلاميذ إبان الحكم العثماني ، وخصوصاً في القرى ، فيبدأ المعلم بأعلى صوته يقول للتلاميذ ألف لاشن عليها أي الألف لا شيء عليها . . والباء نقطه من تحته . . والتاء نقطتين من فوقه وهم بدورهم يرددون ما قاله الأستاذ بأعلى أصواتهم . . . إلى ما هنالك من تمثيليات فلاحية مضحكة عندما نقارن عصرنا هذا ، وخصوصاً تمثيلية المضافة عندما يكون أندريا برأس المجتمع في المضافة ، ويحسن التكلم في اللهجة الفلاحية بإتقان ، وكل أحاديثه مثيرة للضحك ، وهناك أدخل أنا بصفتي الشاعر إلياس ومصحوباً في آلة الربابة تحت العباءة ، وأدخل المسرح وأنا أعرج . . . وذقني القليدية كبيرة ومن فوق رأسي ما يسمونها بالطبزية ، وأغني وأعزف على الرباب .
وكان -آنذاك- يمثل معنا بعض الأدوار المستر ألمر هوميري ، وكان مفتش التخمين في ضريبة الأملاك ، وزوجته ثم المستر بنويتش وكان يعزف على الكمان وزوجته على آلة الباص . وقد ساعد في هذه التمثيليات المسخنة الأستاذ طلعت الشيعي ، أستاذ دائرة المعارف لما هو عليه من فن رائع في فن التمثيل الهزلي .
وهكذا كان الإنكليز عندما يعزمون على تنظيم حفلة ، وعلى الأخص خيرية للصليب الأحمر أو غيره ، يجيئوننا ، ويحصلون على إذن خاص من حاكم القدس يسمح لي فيه بالظهور على المسرح ، وعندما كان يكتب اسمي (على تذاكر الحفلة . .)

كان الإقبال على شراء التذاكر بصورة فظيعة جداً ، وخصوصاً من الإنكليز والأجانب واليهود في البلد ، وإني أذكر أنني أحييت ليلة مشهورة على مسرح سينما أديسون بالقدس ، وكانت من أروع تلك الحفلات ، وإني لم أزل أحتفظ بإعلانات تلك الحفلة وتذاكر الدخول للذكرى .

المرحوم متيا الحلاق

كان العم أبو عبد الله - رحمه الله - دمث الخلق ، طيب القلب ، محباً لفعل الخير . وقد رأيت من المناسب إعطاء فكرة عن بعض الحلاقين في ذلك الزمن ، فكانوا أشبه بالطبيب نظراً لعدم وجود أطباء على نطاق واسع ، وجهل الأهلين عموماً في أمور الصحة ، فكانوا يلجأون للعطار فيعطيهم ما هب ودب من العقاقير الطبية على أساس الوصفات العربية ليس إلا . وعند الحالات التي تتطلب نوعاً من الجراحة ، فكانوا يلجأون إلى حلاق ماهر يجيد هذه الصناعة ، وعلى رأسهم المرحوم متيا العم أبو عبد الله . كان حلاقاً ممتازاً وسريع الحركة في نظافة الرأس في محله ، فيغسله بطريقة معقولة ومريحة كما يلي : يمسك الزبون وهو جالس على عرشه . . بعد الخلاص من قص شعره وحلاقة ذقنه بالموس كان يمسك لكناً كبيراً من النحاس المبيض ويدخل عنقه في نصف دائرة خاصة موجودة في طرف هذا اللكن ، خوفاً من تسرب المياه إلى جسمه ، ومن الجهة الخلفية لعنقه يجيء أجير الحلاق ويمسكها بقبضة مضبوطة بين إصبعه الإبهام والأصابع الأخرى خوفاً من تسرب الماء إلى ظهره أيضاً . ويكون سطل نحاسي معلق بجنزير حديدي من وتد حديدي ثابت في الحائط فوق الزبون ، ولهذا السطل حنفية مياه ثابتة في قعره ، والماء فاتر فيجيء العم أبو عبد الله ويفتح الحنفية ويغسل بواسطة يديه رأس الزبون بالصابون مثنى وثلاثاً ، وعندها يأمر الأجير فيأخذ اللكن ويكبه في البلاعة خارجاً ، والمعلم ينشف الرأس بالبشكير الأول ثم الثاني وهكذا .

في حالة طهور الأولاد ، يحمل العم أبو عبد الله الشنطة ويذهب إلى بيت الطفل ويطهره على أنغام الآلات والغناء ، ويذهب العم ويأخذ للمريض كاسات دم وهي كاسات الهوا وبعدها مباشرة يشطب محل الكاس بالموس . ويركب العلق (الذي يكون دائماً حياً عند الحلاق في مرطبان مليء علق يسبح في المياه) يركبه محل الوجع وغالباً خلف الأذنين . كذلك يشطب المحلات من خلف الأذنين بالموس بطريقة محكمة ، وذلك في حالة ضرب الشمس للإنسان ، ومراراً يضطر لفصد المريض ، وهي طريقة ضرب إبرة سميكة في ذراع المريض بعدما يربط اليد ليحبس الدم مبدئياً وهناك ترى الدم وكأنه يندلع من نافورة . وأخيراً لا آخر يداوي أمراض الفم بالكبوس (نباتات ناشفة) ، ويداوي ألم الأضراس وعند اللزوم يخلع الضرس ومعه كماشة خاصة لهذا الداء ، ولكن على المريض أن يتحمل الأوجاع في حالة خلع الضرس نظراً لعدم وجود البنج .

جميع هذه الكارات كانت تدار بواسطة العم أبو عبد الله ، وكذلك الحلاق الأسطة في حي باب العمود وغيرهم إبان الحكم العثماني في البلاد . وقد شاهدتها بأم عيني فكانت حياة طبيعية وفيها على الرغم من هذه الآلام لذة وسرور . . . فسقيا لتلك الأيام !

قال عجاج نويهض عن شارع بن يهودا :

[أليعازار بن يهودا] أنفق حياته في روسيا ثم انتقل إلى فلسطين، وسكن في حي عربي، وعكف على الاستعانة بالعربية، وكان عمله هذا بمثابة جواب بنقض حركة الاندماج الثقافي، ووضع معجماً عبرياً سهلاً أصوله وجذوره الكلمات العبرية القديمة ومن العربية الخالدة. عاش في القدس بعد الحرب الأولى سنتين وسمي هذا الشارع باسمه.

قال عجاج عن رونالد ستورس :

إنه صاحب كتاب المذكرات المعروفة [بالمشرقيات] يعد كاتباً متعمقاً جداً في الأدب الإنكليزي الكلاسيكي حتى جذوره الإغريقية واللاتينية. أستاذ لورنس أو من أساتذته في مصر، جاء لمصر سنة ١٩٠٥ وبقي حتى الحرب الأولى. كان من رجال الدائرة البريطانية التي نظمت أمور الثورة مع الحسين بن علي الحجاز، وبعد الاحتلال جاءنا وكان ضابطاً في الجيش، وكان حاكم القدس العسكري سنة ١٩٢٠، ثم تحول إلى حاكم القدس المدني، وبقي لسنة ١٩٢٦ ثم نقل إلى قبرص حاكماً عليها.

كان يمثل بأساليبه وطرقه طرازاً فريداً من الحكام الإنكليز في فلسطين الذين نشأوا على مذهب كرومر وغورست وكتشنر في مصر، وخلط ستورس في خبرته الشخصية بين الجد واللعب والحكمة والحيلة، وسداد البرهان وفارغ الإبهام. فتراه في جلسة واحدة مع زائريه يعلو وينخفض ويحمي ويبرد، ويمشق المظهر واللقب، بين العرب واليهود في الظاهرة. وهو آلة من آلات التهويد في الواقع، وكان على الجملة وعلى كل حال من أبرز شخصيات الإنكليز في فلسطين حتى سنة ١٩٢٦.

جورج بندلي المشحور والمطرب محمد العاشق

كان جورج المشحور صيدلياً مشهوراً وقد خصصت صيدليته الواقعة خارج باب الخليل من أملاك وقف العلوسي باسم صيدلية البلدية فكان المرحوم الدكتور فوتي طبيب بلدية القدس في مستشفى بلدية القدس الواقع محلة الشيخ بدر طريق يافا يقضي وقته بعد الظهر في هذه الصيدلية. كان الأخ أبو إلياس يحب الموسيقى العربية، وقد أخذ عني بعض المقطوعات الابتدائية عزفاً على العود، ما زاد الصداقة بيننا، فكنت أزوره دائماً في بيته، بل كنت أنام عنده في مرات كثيرة. أما بيته، فكان خلف سينما ركس والمشرف من جهته القبلية على مقبرة مأمن الله، وكنا نقضي في هذا البيت ليالي سمر لم أزل أذكرها إلى يومنا هذا، فكانت تضم بعض الأصدقاء، وعلى الأخص الصديق الوفي صبحي عويضة، وأصبحت وصبحي الذي ذكرته في رحلة سوريا وكأننا من أهل البيت مع زوجة الأخ أبي إلياس والأولاد.

وقد أسعدني الحظ عندما زار المطرب محمد العاشق القدس سنة ١٩٢٠ . . . عرفته بأخي أبي إلياس وهكذا اتفقنا وكانت سهرة أعتبرها من العمر في بيته إلى مطلع الفجر، وقد أبدع المطرب محمد العاشق بغنائه وعزفه، وقد أعجب هو بغني وتمكنت الصداقة ما بيننا فيما بعد، وكانت هذه أمنيتي عندما كنت أستمع له وهو يغني في ليالي رمضان في مقهى هوسيس النمسا بالقدس في حداثتي كما دونت أعلاه. كانت السهرة في بيت المشحور تضم سعيد درويش (العم أبو

فانز) بلباسه العربي الأنيق ، وصبحي عويضة وأنا . . . وكانت أم إلياس تشرف على الكؤوس وتقدم لنا من لذيذ المازة والطعام وهي يونانية الأصل وعلى جانب عظيم من القوام والجمال. والجدير بالذكر بقينا لمطلع الفجر عندما تركنا الأخ أبو إلياس وذهب مبكراً وأرسل لنا مطبق زلاطيمو وذهب إلى صيدليته. وهكذا نام كل منا في البيت حتى الظهيرة ، فتناولنا فطور المطبق ، وكانت الساعة الحادية عشرة والنصف ، وبعدما عدنا إلى ما كنا عليه غيرنا المشروب إلى كنياك ، وهات يا غناء وليالي وطقاطيق وعزف ونكت إلى المساء عندما رجع المشحور فسهرنا إلى منتصف الليل وتركنا الدار وجميعنا على جانب عظيم من الطرب والحظ ، وقد نزل المطرب محمد العاشق في فندق السان جون على حسابي مدة ثلاثة أيام.

كان جورج مشحور له عربة على حصان واحد ، وكانت تدعى (تك) ، فكنا نذهب بهذه العربة وعائلة جورج إلى بيت في محلة القطمون مقهى الملك جورج ونقضي أوقاتاً جميلة مع مالك هذا البيت ، وكان خزنادار دير الأرمن وصديق حميم لجورج وعائلته ، وكان مغرماً للاستماع إلى عودي وعزفي. . وكنت بصحبة المشحور نزور عائلة بطاطو وعلى رأسها الأخ فرنسيس ونقضي السهرات هناك ، وقد ذهبت وجورج في هذا (التك) إلى قرية بيت جمال ملك بطريركية اللاتين ، وكانت تحت إشراف الأخ فرنسيس بطاطو وقضينا هناك ثلاثة أيام . . . فسقيا لتلك الأيام !

امتحان المعارف لموظفي حكومة الانتداب

أصدرت حكومة الانتداب لفلسطين أن على جميع موظفي الحكومة أن يدخلوا امتحاناً من قبل دوائر المعارف ، فجن جنون أكثر موظفي الحكومة -آنذاك- وكان البعض - أو بالحري بقايا - من موظفي العهد العثماني والبعض من الأشخاص الذين كانوا يعرفون اللغة الإنكليزية . . . ولو بصورة بسيطة ، وهكذا اعترض موظفو الحكومة وقرروا بالإجماع رفض الامتحان ، وخصوصاً كنا في حالة أشبه بمولود جديد بعدما ذاقت البلاد من حوادث الحرب العظمى الأولى زمن تركيا . . . وبعد الأخذ والرد قررت الحكومة بعد الاقتناع ، فأصدرت منشوراً آخر قالت فيه إن دخول الامتحان أصبح اختيارياً لمن يرغب وليس إجبارياً . وبمناسبة هذا القرار دعا المستر رونالد ستورس حاكم القدس جميع موظفي دائرة الحاكم وتناولنا طعام العشاء في فندق اللنبي (فندق فاست سابقاً) الواقع خارج باب الخليل طريق يافا ، وكانت ليلة ساهرة وقد أبدع ستورس وحاشيته بتبادل النكات كعادته.

وبعد العشاء وقف الحاكم ستورس وألقى كلمة بموضوع امتحان الحكومة ، وقال "ولو أن الحكومة قررت بأن يكون الامتحان اختيارياً ولكنني أحبذ ، وأنتم كأولادي ، أن يدخل كل منكم هذا الامتحان ، لأنني واثق كل الثقة بأنه يكون بمثابة أساس مفيد لمستقبل الموظف في حكومة الانتداب ، وإني أعدكم بأنه لا خوف على من يرسب في الامتحان مطلقاً" ، وهكذا لم يستطع أحد منا رفض طلب الحاكم والحاكم بأمره.

وإني أذكر أن سراي الحاكم قد أغلقت أبوابها مدة ثلاثة أيام ، وأصبحت العمارة وكأنها مدرسة. كل موظف وكأنه تلميذ يجلس على طاولته تحت مراقبة معلمي ومفتشي دائرة المعارف ، وعلى رأسهم حسين روحي ، ووزعوا الأسئلة في مختلف

المواضيع. يا الله أسئلة في الصرف والنحو والحساب والكسور والتاريخ والجغرافيا؟ ! ! ما هذا البلاء؟ وكيف العمل؟ فعمل كل منا اجتهاده وانتهى الأمر.

والجدير بالذكر "أن الله يهدي من يشاء.." هناك العجب فكان الوحيد من موظفي سراي الحاكم الذي نجح في الامتحان من هو يا ترى؟ ! ! واصف جوهرية صاحب هذه الذكريات، ونشر اسمه في جريدة الحكومة الرسمية، وكانت نكتة على الأخص لدى زملائي أجمعين.

طلبني الحاكم ستورس فدخلت مكتبه ووقف مسلماً ومهنئاً لي بالنجاح، وقال "هذا من العود ! !" فشكرته وقد قدم لي اسمه موقعاً عليه للذكرى أحتفظ به في المجموعة الجوهرية.

أديب العرب الأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

عرفت الأستاذ إسعاف النشاشيبي في زمن الأتراك بواسطة المغفور له حسين هاشم الحسيني، كان في حالة بؤس وشقاء وعوز شديد إلى بضعة قروش ... وقد شاهدته أكثر من مرة وهو ينتظر تصليح -أو بالحري- تجديد نعل مركوبة في طرف دكان كندرجي يهودي في سوق الجديد داخل السور، وذلك لعدم وجود كندرة أخرى يستعين فيها عند التصليح.

والسبب في شدة أزمته المادية يرجع إلى غضب والده عليه، فوالده المرحوم عثمان النشاشيبي من أغنياء أهالي بيت المقدس المعروفين، وقد كان يشغل منصباً قومسير بوليس إبان الحكم العثماني مع نخبة من زملائه المعروفين أمثال محمود جار الله، وبدر قطينة، وصالح الصالحاني، وخليل درويش، وغيرهم، وأخيراً حصل على منصب عال مبعوث عن قضاء القدس في الآستانة، ومن المعروف عن عثمان أنه كان متحفظاً جدا في الصرف.. صرف الدراهم.. ولم أزل أذكر عندما كنت في شطحة بمعية حسين أفندي وراغب بك في قرية أبو غوش الذي كنت ذكرت عنها سابقاً، إذ مر عنا عثمان النشاشيبي راكباً عربته الخاصة (التك) وكانت حالة هذه العربة وحصانها في حالة مزرية ومسخنة للغاية تشبه بلا شك ثياب عثمان ... وقد نرفز راغب بك عندما نظره في هذه الحالة يسير وحده ظهراً راجعاً من مزرعته التي كانت تدر عليه أرباحاً عظيمة واسمها (النعمانة)، وهكذا تشجع راغب بك وألقى عليه درساً في الكرم على مسمع الحضور.

على كلٍّ، غضب عثمان على ولده إسعاف واعتبره زنديقاً كافراً لدى المحاكم الشرعية، وحرمه من أمواله وميراثه ... وكأن قصة عثمان وإسعاف موضوع بحث المجتمعات الراقية في بيت المقدس، إلا أن عثمان تزوج مرة أخرى فأنجب ولداً سماه ضرار ... ولكن ألف صلاة وصوم على إسعاف فقد أصبح ضرار من المغضوب عليهم ليس من الآباء، بل من الحكومة والشعب على اختلاف مذاهبه الثلاثة بالقدس ... ولله في خلقه شؤون. وقد بقي الأستاذ الكبير مغضوباً عليه من قبل والده عثمان إلى ما بعد الاحتلال البريطاني، وإني أذكر للقارئ هذا الحادث الطريف:

حاول بعض وجهاء بيت المقدس أمثال إسماعيل بك الحسيني، وعلي بك جار الله، وراغب بك النشاشيبي، وحسين بك الحسيني، إصلاح ذات البين بين إسعاف ووالده. فلما اجتمعوا لهذا الغرض النبيل وكان حداد باشا واسمه جبرائيل السالف الذكر، كان من المهتمين بإجراء هذا الصلح، فحضر الاجتماع وترأسه، فبعد أن سمعوا لوجهة نظر عثمان أبي

إسعاف، وطلبوا من إسعاف (أو إثعاف. .) الكلم. إذ وقف إسعاف وقال بحده وبصوت عال: "والله هذه المسألة لا يستطيع حلها عزرائيل وليس جبرائيل ! !"، وترك الاجتماع وخرج والجميع يقهقه من الضحك.

وبعد مدة وجيزة إذ توفي عثمان ولشدة حقد إسعاف على والده وهو لم يزل جثة هامدة في البيت دخل إسعاف ووقف فوق رأسه، وقال "والله لن أصدق أن عثمان يمت . . ." وخرج. ولكن إسعاف هذا قد أقنع الحاكم والقضاة أنه ليس بكافر كما يدعي والده المتوفى، أقنعهم بما أبرز إليهم من مؤلفات ضخمة علمية أدبية دينية نادرة وكلها فلسفة، وخصوصاً في دين الإسلام، ما جعل القضاء يلغي وصية المورث، وسمحوا له شرعاً بالإرث وهكذا ارتفعت معنوية الأستاذ إسعاف، وأصبح من الأغنياء المعروفين، وإليك قصره الفخم في محلة الشيخ جراح الذي قضيت فيه الليالي مع فئة من أدباء ووجهاء ليس مدينة القدس فحسب، بل أدباء ووجهاء البلاد العربية.[١]

وهكذا تعين الأستاذ إسعاف النشاشيبي مفتشاً لمعارف القدس بدلاً من المرحوم إسماعيل بك الحسيني، وأصبح مركزه في الغرفة ذاتها التي كنت موظفاً بسيطاً فيها، ألا وهي قاعة التحريرات (سراي حاكم القدس باب العامود)، ولم يكن يفصل ما بيننا وبين مكتب المفتش الأستاذ إسعاف النشاشيبي سوى ستائر من القماش (برافان)، وكان الأستاذ إسعاف يثق بي وبإخلاصي، فقد كلفني بأن أقوم بترجمة كل رسالة ترد إليه من الحكومة من الإنكليزية إلى العربية، فكنت آخذ منه هذه الرسالة وأترجمها في البيت إلى أن تمكنت منا الصداقة بصورة فائقة، وقد ساعد -ولا شك- أخي فخري كتلميذ أول في مدرسة الرشيدية مع الأستاذ الأخ شريف حكمت النشاشيبي. كنت أزوره بدون كلفه في قصره، وأكتسب منه معلومات كثيرة، وخصوصاً في اللغة عند الغناء . . . وكان يحدثني الكثير عن مجمل حياته وطريقة كسبه العلوم، وهي كثرة مطالعته وحده، فكان يقضي الليالي وهو يتنقل في الإطلاع من كتاب إلى آخر إلى مطلع الفجر، وأما دراسته الابتدائية فكانت في المدرسة اليسوعية في بيروت، وقد أصبح الأستاذ إسعاف بلا شك من أدباء العرب الأولين، وكان من المحافظين على أساس اللغة القديمة ذات الكلمات الصعبة، وذلك خوفاً على هذه اللغة من الدمار. كان يزورني ويبتهج عندما يرى المجموعة الجوهرية، ويفيدني في كتب الخط الشيء الكثير. وقد كانت هدية عرسي منه من أثمن الهدايا، ألا وهي قطعة نادرة الوجود لتقديم الحلوى فضية تشبه زلفة الشل.

كان يزورني كثيراً في دائرتي التي نقلت إلى عمارة مستشفى دير الروم داخل السور، ثم دائرة الحاكم الواقعة في شارع يافا، وقد عرفني على الموسيقار عبد الوهاب، وأثنى عليّ وعلى فني، وقد اجتمعنا في قصره أكثر من مره. وقد عزل هذا الأديب -ويا للأسف- من وظيفته كمفتش معارف بصورة مخزية . . . ونشر هذا الطرد علناً في جريدة الحكومة الرسمية، وكانت فضيحة له في آخرة حياته.

وإني أذكر هذا الحادث لأعطي فكرة صغيرة عن مدى حب وتعلق الأستاذ إسعاف للغة العربية، وكرهه إلى كل ما هو غربي حتى في الأسماء. دخل الأستاذ إسعاف على غرفتي مرة وجلس بجانبي وطلب فنجاناً من القهوة السادة . . . وكان يرفض كل من قدم له قهوة من أي موظف سوى السيد جوهرية. جلس واستشارني كيف الطريقة التي يستطيع بها الحصول

[١] تحول هذا القصر العام ١٩٩٨ إلى مركز ثقافي باسم الأديب إسعاف النشاشيبي، وهو يحتوي حالياً على مجموعة كتبه ومخطوطاته، وقد أصدر منشورات عدة، من ضمنها دراسة عن أعمال إسعاف النشاشيبي.



إسعاف النشاشيبي

على نخالة لعلف الأرانب الكثيرة التي كانت عنده، وكان من العسير الحصول عليها زمن الحرب العالمية الثانية إلا بواسطة الرخصة الرسمية. كنت وقتها في حالة نفسية مرحة ورغبت أن أنكت بطريقة دبلوماسية على إسعاف، وكانت الغرفة تضم عدداً كبيراً من موظفي الحكومة الزملاء أمثال يحيى حمودة، وسليمان فراج، ويعقوب برامكي، ومحصلي الأموال شكري رصاص، ومحمود العسلي، ويوسف عاطف ودرويش، ومصطفى النشاشيبي وغيرهم، وكانوا جميعهم يستمعون إلى ما أقوله خلسة بدون النظر إلينا، وكلهم يعرف واصف ونكاته.

واصف: يا أستاذي المسألة بسيطة، هلاّ يروح مع سيارتك إلى (فالوديا) فراج و..

إسعاف: نعم؟ من هو هذا؟

واصف: فالوديا ابن صديقك يعقوب فراج..

إسعاف: استغفر الله ما هذا الاسم؟ هل هو حقيقة ابن أخينا يعقوب أفندي؟ .. وما هذا الاسم الغريب فالوديا فالوديا هذا ليس بعربي.

واصف: قاطعته وقلت المسألة ليست بيد فالوديا، ولكني أرغب مبدئياً في تكليف فالوديا لأجل أن يلقن لأخيه إيجور.. الموظف في الدائرة المختصة لإعطاء رخص النخالة وغيره..

إسعاف: منرفزاً وقد بحلق بنظر عينه الوحيدة إليّ مندهشا وقال: ما هذا؟ أأنت متأكد من هذه الأسماء؟ شيء غريب ... لا لا، لابد أن أبحث مع أخينا يعقوب أفندي في هذا الموضوع الحساس. إن هذه الأسماء تكون -بلا شك- حجر عثرة في سبيل مستقبل صاحبها ... إيه والله.

كنت أرمي بنظري خلسة إلى زملائي، وهم في حالة مثيرة من الضحك ... كل منهم كان يتلهى بشيء مع زميل آخر ليضحك خوفاً من ملاحظة الأستاذ إسعاف، أما أنا فقد كنت أكتم ما بي من أنفاس وقد صممت بأن لا أذكر اسم أخيها الثالث رورك خوفاً على حياة أستاذنا الأكبر إسعاف في الغرفة ... وهكذا خرجت معه من الغرفة وأنا لم أع شيئاً ... والنظرات كانت ما بيني وبين الزملاء، وكل منا يعرف الآخر ... إلى أن قضيت له حاجته.

وعلى ذكر الحادثة الطريفة المدونة أعلاه، أذكر للقارئ هذه القصة [التي] تشبه أستاذنا العربي وحبه للغة العربية:

مر أستاذ مجنون مفتون في اللغة العربية عن صالون للتزيين، وكان صاحبه يهودياً، وقد كتب يافطة على دكانه "خلاق" بدلاً من حلاق، وكان مع الأستاذ رفيق فقال له في الحال: هل رأيت هذا الجاهل كيف وضع النقطة على حرف الحاء فأصبحت خلاق!! يا الله ... كيف العمل، لا أستطيع النوم في هذا المساء ... بالله عليك دعني أقف على كتفك كي أتمكن من قلع النقطة ... في هذه العصا، وكان ذلك.

وعندما رأى اليهودي أن اليافطة خسرت رونقها اشتكى إلى الشرطي الذي مسك الأستاذ ، وأخذه إلى المخفر ، وهناك أمر أحد الجنود قائلاً مدوه وأضربوه عشر عصي . . . فبعدما انتهى من الضرب وقف الأستاذ يبكي . . . فأجابه رفيقه عليك كل الحق فلماذا عملت ذلك؟

قال الأستاذ هل تظن أنني أبكي من شدة الوجع؟

رفيقه بل لماذا تبكي؟

الأستاذ أبكي لأن الجندي وهو موظف حكومي مسؤول لا يعرف اللغة ، فقد قال مدوه وكان يجب عليه أن يقول اطرحوه أرضاً . . . يا للخسارة على لغتنا العربية !

حادث طريف بين ناصر الدين النشاشيبي وأخيه هشام

إن الصحافي المعروف ناصر الدين النشاشيبي هو ابن أخت الأستاذ الأكبر إسعاف النشاشيبي ، وقد تزوجت أخت إسعاف من أخي وصديقي فؤاد محي الدين النشاشيبي ، وأنجبت منه هشام وناصر الدين ، وهما شعلة في الذكاء والأدب وقد عرف عن هشام ميوله الطبيعية والبديهية في النكتة والسخرية ، وله مواقف نادرة في هذا الفن يعجز القلم عن وصفها ، وهي لم تزل موضع البحث لدى أصدقائه الكثيرين من شبان بيت المقدس ، وكانت وفاته كنكته فريدة من نوعها ، فقد فارق الحياة وهو يبتسم وينكت وعلى جانب عظيم من الحظ والسكر والطيش . . . رحمه الله .

وإليك هذا الحادث الطريف :

دخل غفلة هشام على أخيه ناصر الدين الذي كان منكباً على طاولته وبيده القلم يكتب . . . فبادره بالسؤال :

يا أخي ماذا تكتب؟

ناصر الدين أرغب أن أكتب كتاباً عن خالي الأستاذ إسعاف .

هشام يا سلام ، حط اسمي معك ما هو إسعاف خالك وخالي .

ناصر الدين لا فشرت . . . أنا بدي أكتب وأنا أوقع باسمي فقط .

وكانت مشاجرة من الاثنين على هذا الموضوع إلى أن انتهت . . . خرج هشام منرفزاً يبتسم وقال "معلش . . إذاً أنا بكتب كتاباً عن ضرار" . . . وبالفعل ، إنها نكتة نادرة لمن يعرف ضرار . . . رحمك الله يا هشام ما أظرفك !

مدير المعارف المستر بومان

كان المستر بومان مدير معارف القدس بألبسته الجندية يسكن في البيت المعروف بدار المهندس فرنكاه الألماني الواقع في محلة الشوري بالقدس. كان يدعوني في هذا البيت لأعزف على عودي وأغني للمدعوين في كثير من الأيام والليالي، وتكون نخبة من مفتشي ومعلمي وتلامذة المعارف بعد الاحتلال البريطاني، وكان يجيد اللغة العربية، ومطلعاً على عادات العرب وتقاليدهم، ويميل كثيراً إلى الطابع الشرقي لأنه قضى زمناً طويلاً في الشرق ما بين مصر والسودان. وكان يترأس فرق الكشافة بأسرها.

إني لم أزل أذكر هذه الحفلات بكل سرور، فكانت تضم الأساتذة أمثال حبيب خوري، وأحمد سامح الخالدي، وجبرائيل كتول، وشريف النشاشيبي، وطلعت السيفي، وقسطندي الخوري، وغيرهم.

وكان طلعت السيفي يمثل لنا في هذه الاحتفالات بالشراكة مع أخي فخري تمثيليات واقعية مضحكة للغاية، وكانوا يطربون لاستماعهم الغناء، وخصوصاً الموشحات الأندلسية التي كانت تجد إقبالاً ليس من العرب فحسب، بل من الإنكليز والأجانب أمثال المستر ستيورت، والمستر ألمرهرس، وبنتويتش، وغيرهم.

وهكذا كنت أجتمع في كثير من الأحيان مع أخي وصديقي المرحوم قسطندي الخوري، والمرحوم يحيى اللبابيدي بصفته كان في دائرة المعارف، نغني الأغاني المؤلفة والملحنة على نصف الدرجة الصوتية، التي يمكن عزفها على آلة البيانو، وخصوصاً في المدرسة الرشيدية، ولن أنسى ما كنا نميل إليه جميعاً من القطعة المحببة إلينا تلحين المرحوم قسطندي الخوري المشهورة "وعلى خضر مرابعنا حمر مواضينا ... بيض صنائعنا سود وقائعنا"، الأخص التي تمثل العروبة. كنت أعزف هذه الأغنية وغيرها على البيانو ... فسقيا لتلك الأيام ما كان أجملها!

"وين بقيت غاطس؟"

أذكر هذا الحادث الطريف لأبين للقارئ ما قاسيناه من شقاء وخطر عندما نشر وعد بلفور المشؤوم على الأهلين، وأصبحت البلاد بأسرها في حالة اضطراب ومظاهرات وثورات بالقطاعي ... بين الشعب العربي واليهود وحكومة الإنكليز.

بصفتي موظفاً في دائرة حاكم القدس العسكري بعد الاحتلال البريطاني، كنت أحصل على وثيقة مؤقتة تمكنني من التجول في ليالي منع التجول، والوصول إلى مقر عملي ليلاً. وقد صادف أنه أعلن منع التجول بعد ظهر ذات يوم من سنة ١٩٢٠ عندما كان الموظفون خارج السراي بالقدس، وذلك عندما كنت في حفلة صغيرة، كانت آنسة واسمها نينا ابنة ارسيدي صاحب مقهى المنشية، هذه الآنسة كبرت وترعرعت في أحضان برسفون خليلة المغفور له حسين أفندي الحسيني، التي كنت ذكرت عنها في المجلد الأول من هذا الكتاب، واكتسبت ضروب الفن منها. وقد اتخذت فؤاد بك بن موسى كاظم باشا الحسيني خليلاً لها بعد الاحتلال البريطاني، وبعد وفاته أصبحت [وصيفة] المطران المعروف أبيفانيوس. كانت هذه الحفلة في غرفة من زوايا خان الأقباط حارة النصارى بالقدس، وقد صادف وجود خوري أرمني يعزف الدربكة ...

بإتقان فائق وبدون آلة طرب طائفة كبيرة من مختلف المشارب والساعيات بصورة تدهش كل من سمع إليه، وكنت وإياه أعزف على عودي من هذه الألحان، وأغني الأغاني التي تناسب المقام . . . فأخذ الطرب منا كل مأخذ، وانفضت الجلسة عند الساعة الثانية والنصف صباحاً .

خرجت من خان الأقباط وأنا على جانب عظيم من الحظ . . . وهنا -كما يقول المثل- "راحت السكرة وإجت الفكرة . ." ، وقلت الله يستر كيف الوصول إلى محلة السعدية وأنا لم أحمل إذناً خاصاً . . . سرت في حي النصارى إلى أن وصلت عمارة الجبشة، وعندما وصلت الدرجات مقابل فرن طقش المعروف، إذ سمعت وقع أقدام وبساطير الجيش (الدورية . .) من بعيد، وهناك دب الرعب في قلبي . . . وقلت يا ليلة سوداء . . . وأخيرا نظرت فوجدت قطعة ماكنة طحين قديمة كبيرة ربما كانت مصفاة أو غربالاً مطروحة في الزاوية الملاصقة للمطحنة المهجورة بجانب فرن طقش تماماً، وكانت هذه المطحنة على ما أذكر لصاحبها من عائلة زخريا بالقدس. كانت هذه المصفاة ولم تزل في المحل ذاته، وكل من أهالي مدينة القدس يعرفها، لأنها كانت تستعمل لقضاء حاجة الإنسان . . . مشخة ليلاً ونهاراً .

وهكذا تجرأت ودخلت هذه المصفاة خوفاً من دورية الجيش وبقيت فيها مدة طويلة إلى أن مرت عني الدورية المؤلفة من الجيش الهندي في تلك الظلمة، وأنا أتضرع للإله بأن ينقذني من هذا المأزق الخطر . . . ولولا شدة سكري لما تجرأت على هذه العملية. عندما استتب الأمن، وفي هذا السكون خرجت من الزنزانة القذرة وسرت عن ساحة باب العامود إلى أن دخلت حارة السعدية فأطمئن قلبي. فتحت باب الدار وأنرت اللامبة ونظرت . . . وإذ أنا في حالة لا توصف من الأوساخ والقذارة من رأسي إلى قدمي وقلت في نفسي "الآن ينطبق عليَّ أغنية (يا جرذون طالع من خرارة . .)" .

أذكر وأنا على هذا الحال إذ أفاقت والدتي المرحومة وخرجت من غرفة النوم إلى الإيوان ولما نظرت لحالتي قالت:

"يوم الشؤم عليك . . ولك وين بقيت غاطس؟"

فضحكت عالياً، وقلت قولي الحمد لله اللي شفتيني وسخ . . وليس ميتاً . . . والله ستر خلعت عن جسمي الثياب بأكملها، وعند الصباح استحممت جيداً . . . وهكذا كنت في كثير من الأوقات أضحي بنفسي كرامة للفن والطرب ولم أحسب للدنيا حساباً، وأقول حقيقة حظ . . . ولكن بالعافية.

موظفاً في أريحا

نقلت من دائرة حاكم القدس إلى دائرة حاكم أريحا لمدة شهرين لأنوب عن زميلي الأخ حبيب متري من أهالي رام الله، ولسوء الحظ كانت الوظيفة هذه في شهري تموز وآب والعياذ بالله. كانت دائرة الحاكم -آنذاك- سنة ١٩٢١ في البناء القديم الواقع عند المدخل الرئيسي لبستان الميري زمن تركيا من الجهة الشرقية لأريحا، وكان القائم مقام السيد عبد الرؤوف جودة من أهالي القدس المعروفين وتعرفت به لأول مرة فأحبني وأحببته وقضينا وقتاً طيباً. وكانت غرفة سكناي في الغرفة العليا في فندق الجوردان في وسط أريحا تطل على الفرندة المفتوحة أشبه بالمنارة، وعلى هذه الفرندة كنا نقضي السهر وعزف العود والغناء يستمع إلينا جميع أهالي أريحا، وكأننا على المأذنة. وكان الحضور المرحوم عبد الرؤوف جودة القائم مقام،

وخليل أفندي عريقات، مدير بوليس أريحا، وثريا أفندي الجاعوني البوليس، وكامل أفندي الإيراني، وصدقي الحواش، وموسى الراغب، وإلياس الخروف، والقزاز، وخميس الطبة، وغيرهم، نتناول كؤوس البيرة المثلجة إلى ما بعد منتصف الليل. كنت أغني أغنية جديدة -آنذاك- مطلعها "ياللي إنت ندك من ندى تعالي نلعب خذي ودي" من مقام حجاز كار كردي مطربة للغاية، وقد انتشرت هذه الأغنية مني عند الهاوين والمحترفين في ذلك الزمن بالقدس، وكنت قد تعلمتها من أخي وصديقي المطرب الموهوب محمد علي الأسطة من دمشق، الذي سأكتب عنه في صفحات الكتاب التالية.

أما القائم مقام فقد كان يعطف علي، وفي كثير من الأيام كان يصرف بدو الديوك والنويعمة[1] ويؤجل طلباتهم بخصوص الويركو والأعشار[2] والمعاملات إلى أيام أخرى عندما يرى أن الطقس حار ... لشدة خوفه علي، وكنت أحضر في كثير من الأوقات بثوب النوم الأبيض إلى دائرة الحاكم من شدة الحر، ولا يبدي لي أي مانع.

أما صديقي كامل الإيراني، فكان بالفعل ثورة متنقلة فإذا ما سكر ... تصور له عداءه لبريطانيا، فيبدأ بما تيسر له من الشتائم من الوزن الثقيل إلى الملك جورج ومن تحته ... في الوظيفة وكانت أمنيته عندما يكون في حالة السكر أن يتجول بين بيوت أهالي أريحا، وهنالك يضرب بالسوط كل من يعاند أفكاره ولو كانت امرأة ... يضربها علنا وعلى رؤوس الأشهاد، وخصوصا في بيت الخندق ... كنت أتألم لهذا المشهد ولكن من يجري على إيقافه.

وهكذا قضيت مدة ثلاثة شهور في أريحا رغماً عن شدة حرها في فصل الصيف، قضيتها في فرح وسرور لم أزل أذكرها ليومنا هذا، رجعت إلى القدس إلى الوظيفة ذاتها في دائرة حاكم القدس كالمعتاد.

عازف القانون محمد السوسي

تعرفت بهذا المطرب والموسيقار محمد السوسي عندما زار القدس وسكن لحسن حظي في حي السعدية بجوار فرن عبد ربه المشهور قريباً من بيت والدي في الحي ذاته. عرفته وكان عمره ربما يزيد على الثمانين، وكان طويل القامة نحيف البنية بلباس عربي متواضع، ومحافظاً على عدد قليل من أسنانه في فمه للذكرى.

كان كريم النفس، وكريماً في العزف على القانون، حاضر النكتة، يحبه كل من وقع نظره لأول مرة عليه في الحفلات ... وكان رغماً عن كبر سنه يغني بصوت حنون بدون كلفه، وحافظاً طائفة كبيرة من الموشحات الأندلسية والأغاني المصرية القديمة المطربة.

وقد كنت أعجب منه لهذه الميزة لأنني لم أرَ أن عازف القانون يغني بصوته عند العزف، بل الحقيقة كان المغني يعزف العود وليس القانون. والجدير بالذكر أن صديقنا السوسي كان أطرش، وعندما كنت أطلب منه عزف أو غناء، كنت أصيح بأعلى صوتي بأذنه وأقول أبو حسين! ! كذا وكذا فيهز رأسه ويبدأ العمل ... ولم تنقطع الابتسامة عن وجهه -رحمه الله- والجدير بالذكر أنه في حالة نزول وتر ما من قانونه يحس ويشعر بذلك بدون أن يسمع طبعاً فتراه يرفع ويصلح ذلك الوتر وكأنه يسمع تماماً ويا للعجب! ويظهر في عمله هذا أنه لكثرة عزفه طيلة الثمانين سنه جعلته ينسجم مع القانون بجسمه.

[1] تجمعات بدوية شمال أريحا وجنوب الجفتلك في غور الأردن.

[2] الويركو والأعشار: ضريبتان حكوميتان.

أما قانونه ، فكان من الطراز القديم ، أي بدون ماكنة العرب المعروفة لدى العازفين ، وكان في حالة تغيير النغم لنغم آخر يعفق الوتر بواسطة ظفر إصبع يده اليسرى ، ويفي الغرض بدون أن يشعر المستمع بأي تأخير . . وكانت بدعة وفيها كل الصعوبة في ذلك العصر .

كان يغني الأغنية المحببة له ولنا ، وكنا فئة ممتازة من السميعة أمثال مصطفى الموقت السرية ، ومصطفى الجبشة ، وإبراهيم شحادة ، وفيضي العلمي ، ومحمد السباسي ، ثم نخبة أخرى أمثال فهيم نسيبة ، ومصطفى الهندي ، وصبري عبد ربه ، وأحمد الجش ، وأحمد جاموس ، وسعيد زايد ، ثم نخبة أخرى أمثال فخري النشاشيبي ، وحسين النشاشيبي ، وعبد السلام النشاشيبي ، وحسن صدقي الدجاني ، وأحمد طوطح ، وتحسين الخالدي ، وداود الفتياني ، وعبد الرحيم الطبجي وغيرهم الكثيرين من أبناء القدس. أما الأغنية وهي موشح أندلسي :

يا من تناديني وحبك ديني ... منك رأيت العجب ع البعد تدنيني

دور

إن جزت أطلال سلم يا نسيم الصبح ... بلغ سلامي إلى تلك الوجوه الصبح

رؤياك يحييني والبعد يضنيني ... منهم ألف الأدب من قبل تكويني

فكان –رحمه الله– عندما يختم الدور ويرجع إلى أول الرديدة بقوله يا من تناديني . . . يهتز جسمه ورأسه طرباً بصورة تطرب الحضور ، وكان يغنيها من مقام راست نوى ، وقد أخذناها منه وأبدعنا في غنائها ما بين الأصدقاء والإخوان ، وكانت تجد قبولاً إلى كل من سمعها . والجدير بالذكر أن الدكتور منصور فهمي المشهور في مصر عندما زارني مع أستاذي السكاكيني وسمع هذه القطعة طرب جداً ، وأخذ قلمه ودونها في مفكرته كما سيجيء البحث عنه في فصول هذا الكتاب الآتية ، وكانت كما يقولون معنى ومغنى .

لم أنقطع عن الاجتماع بالسوسي واقتبست منه الكثير في فن الموسيقى ، وكانت أكثر سهراتنا معه في بيت العم أبو عبد الجبشة ذكريات ، بل ذكريات جوهرية ، فقد قضينا ليالي وكانت -والحق- من عمرنا .

"كل واسكت"

وعلى ذكر نكات السوسي أذكر ونحن جالسون لتناول طعام العشاء الفاخر في منتصف الليل في منزل العم أبو العبد الجبشة وكانت بديعة المصابني بلباسها المخصص للرقص معنا ، وكان نوع من المآكل المطروحة على المائدة لم أعرفه من قبل ، وكان لذيذاً مدهشاً وقد ملت للعم أبي حسين وقلت له بصوت عال في أذنه "أبو حسين . . شو اسم هاالأكلة هذه؟ . ." وكان على جانب عظيم من الحظ ويأكل بشهية فائقة أجابني على الفور (هذه اسمها كل واسكت . . .) وأكمل أكله . . . وهات

يا ضحك وقهقهة، إذ قامت بدبعة بثوبها الملوكي . . . وهجمت عليه فقبلته وقبلها . . . أما شكل ذلك الطعام، فكان عكوباً محشواً باللحمة المفرومة والصنوبر ومطبوخاً بصورة فنية . . . وقد توقفت بعد زواجي، فتعلمتها زوجتي من السيدة أم العبد وهي من طرابلس الشام. وقد أصبحت هذه الأكلة معروفة ما بين أبناء القدس باسم "كل واسكت. . " .

كنت أصطحب العم أبو حسين "السوسي" في حفلات عائلية خاصة، وكان لا يرفض لي طلباً، وأذكر أن مرة أخذته لبيت جورج وأندريا إلياس القسيس في المصرارة، وكانت بالفعل ليلة جامعة أنيسة ضمت الكثير من أبناء وعائلات طائفة الروم الأرثوذكس، أمثال عائلة متري قسطندي المنى، وأخيه شكري ومتري عبد الله المنى، ومتري الزائر، وفاشة، وعبد النور، وحايك، وزوانة، وجوزي، وزخريا، وغيرهم، وكنا بمناسبة الصيف نغني أنا على عودي والسوسي على قانونه إلى مطلع الفجر في الدار العائدة لهم والواقعة في حي المصرارة . . . فسقيا لتلك الأيام والليالي ما كان أحلاها وأجملها !

وأخيراً، قد علم السوسي أخي وصديقي حسن فضلي العزف على القانون بصفته صهر زوج كريمة العم أبو العبد الجبشة.

المطرب زكي مراد

عرفت المطرب الذائع الصيت الأستاذ زكي مراد والد المطربة الشهيرة ليلى مراد عند زيارته مدينة القدس سنة ١٩٢١، وذلك بواسطة أصدقائي حبيب سالم، وإسحاق الأشقر أصحاب المقهى المدعو النزهة، والواقع على طريق يافا بجانب ملك الدكتور باسكال شارع يافا بالقدس.

نزل الأستاذ زكي مراد في بيت خلف مقهى النزهة عند بعض أقربائه من اليهود، وكان يتردد لهذا المقهى، وهناك وفي الطابق الثاني قضينا ليلة من العمر كنت أعزف له على عودي في القاعة المخصصة للبلياردو، وقد غنى لنا فيها دور

الفؤاد مخلوق لحسنك	والعيون على شان تراك
والملوك تطلب رضاك	والنفوس تحيا بقربك
راعي ربك رق قلبك	اشفي صبك من لماك

دور

الجمال منسوب لشكلك	والقمر محسوب ضياك
من يطول في الملك وصلك	وانت في باهي علاك
مين يماثلك مين يعادلك	مين يليق لك في سماك

هذا الدور القديم من تلحين الملحن المعروف إبراهيم القباني من مقام الراست سازكار، وقد غناه الأستاذ زكي مراد في تلك الليلة وتجلى فأبدع كل الإبداع، ثم غنى الطقطوقة المعروفة له وكانت لم تزل جديدة والإقبال عليها متزايد من قبل العرب كافة، وهي من غناء وتلحين الأستاذ الموسيقار السيد درويش:

زورونـــي فـــي الســـنة مـــرة حـــرام تـنـســونـي بـالـمـرة

من مقام العجم، وهكذا قد أبدع الأستاذ زكي مراد بإلقاء هذه الطقطوقة كل الإبداع، كيف لا وهو من تلاميذ المرحوم عبد الحي حلمي الذائع الصيت، وقد تلقى فن الموسيقى على يديه، وخصوصاً الليالي . . . وكان صوت زكي مراد من ذات صوت المرحوم عبد الحي حلمي.

وبعد تلك السهرة لم أترك الأستاذ زكي مراد بل صاحبته في بضعة ليالي سهر، وخصوصاً في قومبانية اليهود المعروفة بقومبانية الحب، وقد يحب الاجتماع والسهر في هذه القومبانية، لأن أهلها جميعاً من أهالي حلب اليهود ويميلون إلى الأغاني العربية الصرفة، وعلى الأخص لأن الأستاذ زكي مراد هو حلبي الأصل.

كان الإقبال عظيماً من قبل الشعب في فلسطين على استماع اسطوانات دور "الفؤاد مخلوق لحبك والعيون على شان تراك" . . . الخ، وخصوصاً كان تسجيل هذا الدور صدفة في مدة انتصارات مصطفى كمال "أتاتورك" التركي الذي قهر الدول الكبرى ومزقهم وأخرجهم من تركيا إلى ما هناك من حوادث مثيره لاقت إعجاباً ودهشة فائقة من قبل أهل فلسطين، وعلى الأخص عندما شعروا بألعوبة بريطانيا والمعاهدة السرية مع الصهيونية العالمية، وهكذا أشيع بين الأهلين أن هذا الدور نظم ولحن خصيصاً إلى مصطفى أتاتورك، ومن أمعن النظر في الكلمات المؤلفة منه هذا الدور مثل الملوك تطلب رضاك؟ القمر محسوب ضياك، وإنت في باهي علاك، مين يليق لك في سماك . . . إلى آخر ما جاء في الدور يصدق حتماً أنه عمل خصيصاً لذلك البطل، وخصوصاً لدى الشعب العامي. وقد أقبلت الأهلين والمقاهي على شراء الأسطوانات بأسعار أكثر من الثمن المعتاد.

وإني أذكر عندما كنت في حانوت أبو شنب إخوان الذين امتازوا في تجارة الأسطوانات والكرامافونات -آنذاك- فقد دخل أحد أصحاب مقاهي باب العامود بالقدس واسمه "صيام" لابتياع أسطوانة مصطفى كمال أتاتورك! ! وهكذا بعدما فتش توفيق أبو شنب عن هذه الأسطوانة وكان حاضر النكتة . . . إذ وجد في الخزانة أسطوانة واحدة فقط، وكانت مع الأسف مشعورة. . وقد وضعها على الكرامافون، ولما سمعها صيام قال: ما هذا؟ هل هي مكسورة؟ لأنها كانت تعطي ضربة (تك) عندما تدور الأسطوانة دورة واحدة . . . فقاطعه أخينا توفيق وقال له "يا أخي إنت ما بتفهم هذه مسجلة على الواحدة" . . . أي إيقاعها في التلحين على الواحدة . . . وهكذا اعتذر المشتري صيام ودفع له الثمن وأخذ الأسطوانة وخرج من الدكان ونحن لم نتمالك من الضحك.

قضى الأستاذ زكي مراد حوالي مدة العشرة أيام ولم يستطع البقاء بالقدس، ولم نجتمع وإياه مع أصدقائي من أهالي القدس العرب، بل رجع مصر، وإني أحتفظ بعد ببعض الكتب والمراسلات التي كان يرسلها وتبادلها لمدة طويلة.

أستاذي الأكبر خليل السكاكيني

كان لي الحظ الوافر والشرف العظيم بأن أتلقى علومي الابتدائية من الأستاذ العظيم والمربي الكبير خليل السكاكيني، وقد دونت هذه الذكريات الجميلة عندما كنت تلميذاً في مدرسته المعروفة بالمدرسة الدستورية الوطنية في المجلد الأول من مذكراتي.

وقد بقيت -والحمد لله- صداقتي متينة مع أستاذي الأكبر عندما كبرت وترعرعت وظهر في فن الموسيقى العربية، فكنت -والحالة هذه- لم أنقطع عن زيارة بيت الأستاذ، وأترأس حفلات السمر التي كانت تقام في بيت الأستاذ المعروف -آنذاك- ببيت الأمة، والتي كانت تضم أعلام العلم والأدب من مختلف الأقطار العربية. كان لأستاذي السكاكيني الفضل الأكبر في تصحيح ما كنت أغنيه من حيث اللغة العربية، وخصوصاً عند إلقاء القصائد، وكان يميل جداً إلى الاستماع إلى ما أحفظه من الموشحات الأندلسية، ويوجهني إلى غناء الأفضل منها حسب ذوقه النادر السليم في هذا الفن الجميل. وكان الأستاذ يتذوق الموسيقى ويعزف آلة الكمان، وما أجمل وألطف ذلك المشهد عندما تنظر إليه وهو واقف وبيديه الكمان يعزف بطرب وروح فياضة المعزوفات الخفيفة، وخصوصاً قطعة عربية من لبنان كانت المحببة إليه مطلعها:

أبو العباي البيضة فيها شراشيبي لابسها للغية والا لتعذيبي

على طريقة اللهجة اللبنانية من مقام راست نوى والإيقاع فالس.[1] وكنت في هذه الأغنية أرافقه على العزف والغناء على العود، ويتخايل للحضور أن البيت كله أصبح يرقص طرباً.. آيه والله.

من عرف الأستاذ أبو سري يقتنع ويقول حقيقة القلم يعجز عن وصف السكاكيني... فكان أبيَّ النفس، شهماً، شجاعاً، وطنياً، غيوراً على أهله وعروبته، لا يخاف من حكومة الانتداب لأنه كان مخلصاً وعادلاً ويحب أن يكون الإنسان إنساناً في كل ما في هذه الكلمة من معنى، وقد طبع كارت فيزيت بهذا المعنى "خليل السكاكيني إن شاء الله إنسان"!! وهو بعمله هذا كان يستهزئ بالأشخاص المتلاعبين في حياتهم الاجتماعية، وكانوا كثيرين في نظره، فمثلاً:

ركبت بمعيته مرة في باص القطمون - القدس، وعرجنا عن عمارة في طريقنا كانت تخص المرحوم إبراهيم حقي الشركس، وكانت تعتبر هذه العمارة من أعظم العمارات في تلك المنطقة، وسكن فيها سكرتير حكومة الانتداب فيما بعد، فبادرت أستاذي وقلت له شوف هذه عمارة... ولما كان حاضر النكتة فالتفت إلي في الحال وقال "هذه يا واصف من جماعة اللي عملك عينه"!! أما أنا فلم أفهم ماذا كان يقصد في هذه الكلمة، فاستدرجته إلى أن أجاب:

اسمع عندما يتخرج مهندس ما ويبدأ عمله في الحياة يتفق مع ثري لهندسة عمارة له على مبلغ... وعندما يباشر العمل يجيء مثلاً لأعز شخص عنده قول "زوجته"، ويقول لها شوفي قاولته على هندسة وعمارة هذه العمارة بكذا وكذا من

[1] فالص: المقصود إيقاع رقصة الفالس.

ألوف الجنيهات مثلاً ٦٠٠٠ جنيه، ولكن بيني وبينك ما بتكلفش أكثر من ألف وخمسماية جنيه.. عملك عينه!!
وهكذا بعد مدة قليلة لا تزيد على السنتين، يصبح هذا المهندس وأشكاله من الأثرياء ويشار إليهم بالبنان... وكذلك الحكيم والصيدلي و.. و... الخ. هؤلاء جماعة اللي عملك عينه.
هذه لمحة وجيزة عن نظريات الأستاذ السكاكيني المستقيم في حياته، والواقف بالمرصاد إلى كل من يضل عن الطريق المستقيم. ثم أذكر من بعض نكاته النادرة اللاذعة، عندما حضر صديقه وزميله في المدرسة الأستاذ بندلي الجوزي من روسيا، فبواسطة السكاكيني كانت ليالي سمر تقام على شرفه، شرف ضيفه العزيز في بيوت العائلات الصديقة بالقدس، مثلاً ليلة في بيت الأستاذ، وأخرى في بيت صاحب هذا الكتاب، وليلة في بيت آل عبده، وجوزي، ومشبك وغيرهم كانت –والحق يقال– ليالي نادرة يتجلى فيها الحظ إلى بعد منتصف الليل غناء وعزفاً على العود والكمان، ثم نكات وقهقهة وذكريات وأدب... فسقيا لتلك الأيام والليالي ما كان أجملها!
والجدير بالذكر أنه عندما كان الأستاذ بندلي الجوزي يلقي كلمة عن لهجات اللغة الروسية في روسيا، تلك اللهجات المختلفة لتلك المقاطعات وكان يوجه كلامه إلى الأستاذ السكاكيني قال:
يا أستاذ مثلاً في مقاطعة أوكرانيا يستعملون كلمة (سك) للكلب... وهنا قاطعه الأستاذ السكاكيني وقال له وهو على جانب عظيم من الحظ (إذاً سكسك كلب ابن كلب؟!!) وكان يعني بجورج سكسك وتقربه من دير الروم وبعده عن أبناء الطائفة... وهات يا ضحك. وكان الأستاذ أبو سري يحتقر كل متكبر ومختال فخور، ولهذا كان يجتمع مع زملائه من الأدباء وتلاميذه القدماء في مقهى يقع أمام باب الخليل من الخارج في الطابق العلوي، وهناك يشرب الأركيلة، وقد دعا هذا المقهى بـ"قهوة الصعاليك...".[١]
كان يميل إلي بصورة خاصة ويرتاح جدا لعزفي على العود ولصوتي، وكان عندما يعرفني بأصدقائه، وخصوصاً من يزورون القدس من الأقطار العربية المجاورة يلقي محاضرة عني وعن إخواني وما عندنا من فن وخفة دم ونكته، ويقول هؤلاء الجوهرية قد ورثوا كل هذا عن المرحوم والدهم، فالنكتة والمرح والفن في دمهم، وكان قد دون في مذكراته عندما توفي المرحوم والدي هذه العبارة "بوفاة الجوهرية انقرضت دولة الظرف"، وقد ألقى هذه الكلمة أيضاً في تأبينه بعد وفاته مباشرة في صهيون.
وأن زوجة الأستاذ السكاكيني هي من أقاربي، فكان المرحوم والدها نقولا عبده ابن خالة والدتي، وكان المرحوم والدي عراباً لها ولأختها ميليا زوجة الدكتور دعدس، وكذلك المرحومة كيكو وأديب، وعندما توفت سلطانه قال الأستاذ:
"عندما عشنا متنا"، فلماذا قال الأستاذ هذه الكلمة، فأقول:
بعد الاحتلال البريطاني، وخصوصاً بعد نشر وعد بلفور المشؤوم وتفهم الشعب إلى نوايا صاحب الجلالة البريطانية اتجاه أهل البلاد العرب، غضب الأستاذ ونقم على كل شيء إنكليزي... حتى أنه أخيراً ضحى بكسب قوته، واستقال من وظيفة مفتش المعارف بالقدس، وأصبح في حالة عسر وفي أمس الحاجة لدرهم واحد من المال... وكان يعتز بنفسه، إذ لا يستوي الخبيث والطيب... وكان يكتم ما فيه من عوز، فكنت ترى وهو على هذه الحالة المضنية لم ينقطع الأدباء

[١] حول تاريخ مقهى الصعاليك، راجع سليم تماري. "الجبل ضد البحر". رام الله: مواطن، المؤسسة الفلسطينية للدراسة الديمقراطية، ٢٠٠٥.

ورؤساء وزعماء البلاد عن زيارته في بيته المتواضع إجلالاً وإكباراً في خلقه العظيم. كما نقضي الليالي في بيته الواقع في مأمن الله ملك فليفل من بيت لحم بالقرب من مركز المنتدى الأدبي -آنذاك- إلى بعد منتصف الليل، وكان له جار يهودي يحترمه، ألا وهو المحامي إلياس فراجي. في هذا البيت، كانت فئة من أصدقاء السكاكيني أمثال موسى العلمي، وجورج خميس، وحنا حمامه، وعادل جبر، وتوفيق الحلاق البيطري، وعمر البرغوثي وغيرهم، ثم انتقل الأستاذ إلى أين؟

إلى طاحونة الهواء بجوار بيت المشبك وعبده محلة راتزبون، وسكن في هذه الطاحونة مع سلطانه وأولاده، فقضينا في هذه الطاحونة ليالي وأوقاتاً نذكرها بفخر وعسره ليومنا هذا، فترى الأستاذ إسعاف النشاشيبي، وعلي جار الله، ثم أمين الحسيني، وكامل الحسيني المفتي -آنذاك- وغيرهم من أدباء ومعلمي والجيران عائلات عبده ومشبك وسلامة وحنانيا يستمعون إلى ما أعزف وأغني إلى مطلع الفجر ... ومراراً كنت أنا وأخي توفيق نجيء بمقاعد من الجيران لعدم وجود ما يكفي لجلوسهم، والله يشهد، وكان الأستاذ يضحك ويشاركنا بالغناء والطرب والشرب والحظ. وإني أذكر أنه قد أرسل لي وإخواني، فحضرنا ومعي العود، وكانت ليلة ساهرة تجلى الحظ معنا، وكانت ليلة من العمر لكل من حضرها، وبقي الأستاذ الأكبر حتى قبل تعليم كتابه الأول راس روس[1] في مدارس المعارف، وتنفس أستاذنا الصعداء. فاشترى أرضاً وأقام بناء على ذوق المرحومة سلطانة وسكنه واستقر، وأصبح هذا البيت في حي القطمون محجة للأدباء والفنانين، إلا أن الله توفى شريكة الحياة سلطانه فكتب الأستاذ الكلمة المأثورة أي "عندما عشنا متنا".. ونقم على السماء والأرض والحياة وقال: "تعالوا ننقرض..!!"

كل ما دونته عن الأستاذ السكاكيني كان أثناء حياتي العزوبية، وسأدون الكثير عن صلتي الوثيقة وذكرياتي الكثيرة بعد الزواج في حينه في كتابي هذا بإذن الله.

[1] راس روس: المقصود سلسلة الجديد في القراءة العربية، وقد طور فيها السكاكيني أسلوب تعليم العربية للصغار بطريقة ثورية.

الموسيقار الموهوب محمد علي الأسطة

زار القدس الموسيقار محمد علي الأسطة من دمشق، وكان هاوياً وليس محترفاً. نزل في فندق السانت جون العائد لعمي صليبا سعد -آنذاك- وتعرفت به وأعجبت به أيما إعجاب، كان رجلاً ربما في العقد الرابع من العمر ذا عينين كبيرتين عسليتين، أنيقاً في لباسه ومتزناً في حديثه وكلامه بهي الطلعة، مربوع القامة، كريم النفس، طيب القلب، ذكياً لامعاً.

كان يعزف العود ببساطة، وكنت أنا دائماً أعزف العود وأترجم غناءه. أما صوته، فكان حنوناً جداً وقراره مشبع، ولا يعرف أن يغني إلا جيداً (كما كان يقول لنا الأخ علي عباس الجاعوني ...) أي لا نشاز في إلقائه الأنغام، وكان يحكم بسهولة على صوته، والجدير بالذكر أن غناءه كان فريداً من نوعه، ولم نعرف هذا اللون في الغناء من قبله ولا بعده، لأنك تعجب عندما تستمع إليه، وإليك ما يلي:

كان حافظاً لعدد كبير من القصائد الغزلية والحكم وغيره في رأسه عن ظهر قلب، وكان عندما يطرب مثلاً لمقام الراست، يبدأ قصيدة ارتجالية ويلقيها غناء ويتلاعب في تلحينها ويدور ويلف بها وكأنها مسكوبة سكباً، وكنا نطير طرباً عند استماعنا لكل كلمة وكل لحن ينتقل إليه في هذه القصيدة ويعيده مراراً على جملة مقامات حتى تنتهي أبيات تلك القصيدة،

ويرجع ويرتكز من حيث بدأ وهو مقام الراست. أي بعبارة وجيزة، كنت تسمع تلحين قصيدة طازجة، ولو طلبت منه إعادتها فلا يمكنه إلا أن يغني لك الكلام ذاته على لحن جديد طازج . . . وهكذا .

هذه الطريقة النادرة التي خصص بها صديقنا محمد علي الأسطة وما أحلاها وأجملها وقد جن جنوننا نحن فئة من أبناء القدس من موسيقيين موهوبين ومحترفين وسّميعة، وقضينا مع هذا الموسيقار الليالي الطوال، فكنا نسهر كل ليلة عند عائلة فليلة في بيت المرحوم عبد الحميد قطينة، وأخرى في بيت والدي الجوهرية، وليلة ببيت النشاشيبي حي الشيخ جراح، وليلة في باب الساهرة، وليلة في باب حطة، وليلة في باب العامود، وهات ليالي نادرة كانت تضم الأخوان حمادة العفيفي، ومحمد السباسي، وعبد الحميد قطينة، وحسين النشاشيبي، وطاهر يونس الحسيني، وحسن الأزهري، وعلي عباس الجاعوني، وفهمي نسيبة، ومصطفى الجبشة ومصطفى الموقت السرية . . وداود فتياني وتحسين الخالدي وإبراهيم سعيد الحسيني وعبد القادر العلمي، وجورج الحلبي، ويوسف صليبا، وسعيد زايد، والحاج جودت الحلبي، وأحمد طوطح، ومحمد يوسف الخالدي، وعبد السلام النشاشيبي وغيرهم .

ليالي طرب لم نزل نذكرها ليومنا هذا كان هذا الموسيقار وكأنه أصبح من أهالي القدس، فقد أحب القدس وأهلها وقضى مدة تقرب من الأربعة شهور عندنا، وقد أبدع في طقطوقة مطلعها :

يا ناعم يا مورد الخدين أنا قلبي هايم يا تفاح يا سكر ناعم

كان يغنيها من مقام البيات، وأصبحت الأغنية المحببة لدى أبناء القدس فأخذتها عنه، وكنت أغنيها بعده في سهراتنا، وكان الإقبال على هذه الطقطوقة عظيماً، فكنت في كل مناسبة إذا كنت في شطحة أو سهرة لا بد لنا أن تغني هذه الطقطوقة مثنى وثلاث ورباع . . . والحضور سكارى لما كانت طروبة. وإني أذكر هذا الحادث الذي حصل في إحدى سهراتنا مع الموسيقار محمد علي الأسطة :

كانت السهرة على ما أذكر في حارة باب حطة داخل السور بالقدس، وكانت مجموعة عظيمة من أهالي القدس وقد تجلى كرم صاحب الدعوة في هذه الليلة، وهو الأخ أحمد طوطح أبو الحسن من مأكل ومشرب ومشروب . . . وقد ابتدأ المدعوون يردون الحفلة، وأخذنا بالكاس والطاس، ولكن كان الأستاذ محمد علي الأسطة في مزاج غير مرح وقلق الأفكار، كان يشرب الأركيلة ورفض رفضاً باتاً بأن يغني ولو شطرة واحدة رغما عن رجاء جميع الحضور، وأخصهم فخري النشاشيبي . . . ولكن أين من الأستاذ أن يغني إلى أن رضينا وبلشنا[1] بالغناء والعزف على آلات كثيرة وحدنا عسى أن يغار ويفتح فمه . . . ولكن بدون جدوى، وبقينا على هذا الحال إلى بعد منتصف الليل والأستاذ محمد علي عابساً وكأنه في غيبوبة .

أخذ الطرب من كل واحد منا، وأصبح البيت وكأنه يرقص فرحاً وسروراً، والآن قد سمعنا صوت هذا الأستاذ يغني عن بعد . . . وبالفعل لم نجد الأستاذ بيننا فنزلنا إلى دهليز أي مدخل الدار العتم المظلم بجانب بيت الخلاء تابع الصوت، وإذ وجدنا أن الأستاذ محمد علي الأسطة يغني بكل ما أوتي من صوت عال ومن فوقه كان عبد اللطيف النشاشيبي وهو في

[1] بلشنا: بدأنا.

أشد حالات السكر وبيده المسدس المصوب على صدر الأستاذ محمد علي الأسطة . . . وكان عبد اللطيف يقول له "غني ولا . . غني ولا . . وليش جايبنك؟ . . يا كذا وكذا" الفؤاد مخلوق والأستاذ كان يواصل غناءه خوفاً على حياته ! !
ويا له من منظر مرعب، أما الحضور فقد بهتوا وقهقهوا بأعلى أصواتهم وقرروا بالإجماع، فأحضرنا العود إلى ذلك الموقع الوحش في الدهليز . . . وتجلى الحظ وبقينا على هذا الحال إلى مطلع الفجر . . . فتركنا بيت طوطح نلهج بما أصاب الأستاذ من داهية مع الشيطان عبد اللطيف الذي كان أودى بحياته.[1]

محمد يوسف الخالدي

كان المرحوم محمد يوسف الخالدي قاضياً نزيهاً عادلاً زمن الانتداب البريطاني بالقدس. كان من أشهر قضاة محاكم الصلح يشار إليه بالبنان، وعلى الأخص وهو من عائلة الخالدي العريقة حسباً ونسباً في بلادنا ينتسبون إلى البطل العربي خالد بن الوليد، وإن أكبر برهان لما لهذه الأسرة الكريمة من ماض زاهر شريف مكتبة الخالدي بالقدس، التي تضم طائفة كبيرة من أرقى الكتب والمخطوطات النادرة القيمة وإن هذه المكتبة لم تزل واقعة في حي السلسلة داخل السور على الطريق الرئيسية المؤدية إلى الحرم المقدسي الشريف.[2] وقد لعبت رجالات هذه الأسرة دوراً مهماً زمن الحكم العثماني، وتقلبت في وظائف سامية، وكانت تعتبر حكومة ضمن حكومة أمثال المرحوم بدر الخالدي، ويوسف ضيا باشا الخالدي، ومحمد علي الخالدي، وغيرهم، وقد كان المرحوم والدي يحكي لي الكثير عن حوادث هذه الرجالات الخالدية العظام، وقد أطلعني -رحمه الله- على مقر هذه الأسرة بالقدس، وهي في أوج علاها، وهذا المقر أو الدار الكبيرة واقعة خلف بطريركية الأرمن الكاثوليك التي أنشأها يواكيم توما يان سنة ١٨٨٦، وفيها كنيسة باسم أوجاع العذراء زمن المتصرف رؤوف باشا، وتعرف بالمرحلة الرابعة، وأما دار الخالدية هذه، فهي تعتبر من أكبر دور مدينة القدس وفيها الغرف والقاعات والمحاكم حتى السجن، عندما كانت رجالات العائلة الخالدية في ذلك الزمن تحكم الشعب، وتسجن داخل الدار بدون الالتجاء إلى الدولة العثمانية التي كانت شبه صورية ليس إلا، وتمتد مساحة هذه الدار إلى الزقاق الذي يفصلها عن حبس الدم، ذلك الزقاق أو الشارع المؤدي إلى الحرم، ويحدها من الشرق الزقاق الفاصل ما بين الأوزبكية للشيخ الأزبكي مقابل مدرسة راهبات صهيون والمؤدي أيضاً إلى الحرم.

هذه لمحة وجيزة عن أسرة الخالدي بالقدس، وكانت تعرف برأس قيس، وأما الرأس الثاني وهو اليمن، فكانت الأسرة الحسينية. وبقيت القيس واليمن ليومنا هذا بين أهل البلاد، وكانت نعمة عظمى تجلت فيها العدالة ونبذت التفرقة، فأصبح لا فرق ما بين مسيحي ومسلم، بل إنك ترى مثلاً، بيت جالا باعتبار القيس وبيت لحم باعتبار اليمن، وكانت باقي المدن والقرى في فلسطين مقسمة ما بين الطرفين، فكان المسلم يساعد القرية المسيحية باعتبارها من حزبه القيس مثلاً . . . ضد القرية المسلمة [اليمنية] بكل إخلاص وأخوة. كان شعار القيس اللون الأحمر، وكان شعار اليمن اللون الأبيض، وقد حدثني المرحوم والدي أن فريقاً دعا الفريق الآخر، وبعد تناول الطعام قدم للمدعوين الحلوى وكانت تعرف (بقيس ويمن)، وهي أشبه بالمهطلية ومن فوقها موردية كانت تصب في الصحن ذاته، فعندما بدأ المدعوون بالأكل، نظروا إلى

[1] ملاحظة: كان عود مع الأستاذ محمد علي الأسطة صنع النحات في دمشق ابتاعه من المغنية المشهورة -آنذاك- اسمها سرينا، وقد أحببت هذا العود فاشتريته من الأستاذ، واحتفظت به مدة طويلة من السنين، والجدير بالذكر أن هذا العود قدمته أخيراً وبعد نكبة فلسطين إلى ابنتي يسرى التي قدرته حق قدره، وهو لم يزل محفوظاً عندها في البيت ليومنا هذا. وإن هذا النوع من الأعواد القديمة تعيش السنوات الطوال ويحسن صوتها كلما زاد عمرها؛ لأن الصنعة الأساسية خالية من كل تزييف، وعلى الأخص صنع محل نحات الشهيد في دمشق، وقد أصبحت هذه الآلات -كما يقولون- مخبأة في علب العرايس ... ولا تقارن بأعواد صنع الأرمن في يومنا هذا، والتي يستطيع العامل أن يعمل خمس أو ست طاسات في اليوم الواحد، لأنه يكوي فرع خشب الجوز المعمول منه طاسة العود على القالب بالنار. وأما صنع النحات فكان لا يعمل العود إلا بمدة لا تقل عن الأربعة شهور، بعدما ينشف الخشب العائد للطاسة، وبخاصة الوجه. وإنني ألفت نظر القارئ إلى إن ما يسمونها القمرة التي كانت تصنع قديماً من العاج والخشب، تلك الصنعة الفريدة في فنها أصبحت اليوم -والعياذ بالله- مصنوعة من النايلون ... ويا للأسف! (و.ج).

[2] الإشارة هنا إلى المكتبة الخالدية، وهي من أهم مكتبات المخطوطات في فلسطين، وقد تمت فهرستها العام ٢٠٠١.

اللون الأبيض تحت اللون الأحمر أي اليمن تحت القيس، وكان صاحب الدعوى قيسي، فجن جنون المدعوين من اليمن، وأصبحت معركة معروفة بالقدس ما بين الطرفين . . . فتصور أيها القارئ كيف كانت حالة بلادنا عندما كان والدي في أول العمر؛ أي منذ قرن واحد من أيامنا هذه ! !

والجدير بالذكر أن أسرة الخالدي بالقدس كانت السند المنيع والمساعد الأول في كل ما يتعلق بمصلحة البطريركية الأرثوذكسية، وأنها لحقيقة واقعة بأن الفضل الأكبر في شراء الأملاك لهذه البطريركية كان يجري بنفوذ الأسرة الخالدية من البائعين أهالي المدن والقرى، والويل ثم الويل لكل من رفض البيع برضائه . . . للبطريركية، وإني ألفت نظر القارئ الكريم إلى صورة المرحوم الشيخ محمد علي أفندي الخالدي المعلقة في البطريركية تقديراً له ولخدماته القيمة للبطريركية ليومنا هذا، بلباسه المعمم، والجبة من الفراء، يشرب القصبة، وكان الشيخ محمد علي الخالدي مفتي الشافعية بالقدس، ورئيس كتبة المحاكم الشرعية -آنذاك- تلك الوظيفة التي كانت في يدها الحل والربط في بيع وشراء الممتلكات بواسطة الحجج الشرعية.

ولهذه الأسباب أصبح أي عضو من أسرة الخالدي ابناً باراً للبطريركية الأرثوذكسية، له الحق بزيارة الأديرة الكثيرة العدد في فلسطين، يدخل ويأكل ويشرب وينام بدون كلفه وبكل احترام من الرهبان، ويقضي الأوقات الجميلة والأيام العديدة على الرحب والسعه ليومنا هذا .

بدأت موضوعي هذا عن المغفور له محمد يوسف الخالدي، ولكن توسعت الأفكار فدخلت بدون أن أشعر بصلب الأسرة الخالدية من وجهة عامة، ولا بأس من ذلك، والآن أعود وأدون ذكرياتي مع محمد يوسف الخالدي وحوادثه فأقول :

كان كما ذكرت آنفاً قاضياً نزيهاً، وكان وبصفته من العائلة الخالدية عصبي المزاج، وله مواقف مثيره في المحاكم، وكان يميل إلى الموسيقى، وخصوصاً سماعه إلى الموشحات الأندلسية والقصائد، وكان -رحمه الله- مدمناً على شرب الراح . . . فيبدأ عند العصيرة ولا يترك حفلته إلا بعد منتصف الليل، والجدير بالذكر عندما يتأهب للذهاب إلى سكنه بجوار الحرم الشريف، كان يذهب راكباً فرساً، وقد ألفت عادته وهو يتمايل على ظهرها من شدة السكر، فكانت تساعده فتميل من تحته بالعكس الاتجاهي لميله وتوازن خطواته خوفاً عليه من الوقوع أرضاً . . . والأنكى من هذا أنه كان عندما يتأهب لركبها تفرش رجليها ويديها حتى ينحني ظهرها ويصبح سهلاً الركوب عليها . . . وكانت هي التي توصله إلى بيته بدون مبالغة . . . فتصور .

الله يحبني كثيراً ويحترمني ويميل إلى فني ويقدره أحسن تقدير، والويل ثم الويل إذا ما تكلم العم أبو سعيد (راتب الجاعوني) أثناء عزفي العود وغنائي . . . فكان يعربد عليه . . . والجدير بالذكر أنه عندما كنا نترك ذلك الدير ليلاً في سيارة كان العم أبو سعيد يجلس دائماً بجانب السائق، وهكذا كان محمد يوسف وهو على جانب عظيم من الحظ والسكر . . . يبصق أمامه . . . أين؟ . . . على ظهر عباية العم أبو سعيد .

وكان في فصل الصيف يقضي اصطيافه في الخيام المقامة في أرضه طريق القدس - الخليل، وهناك كنا نقضي أوقاتاً طيبة لم أزل أذكرها لغاية يومنا هذا. وكان لشدة حبه لي إذا ما دخلت قاعة المحكمة ... ينادي بأعلى صوته مذاكرة ... وهكذا تنفض الجلسة ويرسل المباشر لي فأدخل إلى غرفته الخاصة، وتضرب موعداً لمجالس الأنس ... أو أرجوه بأن يساعد فلان وفلان وما كان - رحمه الله - يرفض لي طلباً.

القاضي يحكم على نفسه

ومن جملة حوادثه المضحكة في المحاكم أقول:

تشاجر كل من متري وأبو شنب وجاره توفيق الداروتي في حي المصرارة لسبب ما، الأمر الذي أودى بهما للمحاكم أمام القاضي محمد يوسف الخالدي. كان القاضي في صباح ذلك اليوم منهوك القوى وناقصه النوم على إثر سكرة ضخمة، وعندما انعقدت الجلسة، وكان من عادته دائماً وأبداً أن يلعب بشنبه الطويل - آنذاك. سأل القاضي الفريقين وبدأ بسؤال الأول:

اسمك؟: متري أبو شنب.

ثم سأل الثاني وأنت اسمك؟: توفيق داروتي!

وهنا صاح القاضي محمد يوسف، ولك ما بتستحي يا رزيل!! كان ليدي على شنبي وتقول داروتي؟

ولكن حلف الداروتي بأن اسمه واسم خصمه أسماؤهما حقيقية، وكانت نكته نادرة في المحكمة وتداولت على ألسن الأهالي خارج المحكمة من أبناء القدس.

وإليك هذا الحادث الآخر يدل على ما كان محمد يوسف الخالدي عادلاً في حكمه:

صادف محاكمة إحدى المومسات المعروفات بالقدس أمام القاضي، وكان أيضاً على جانب عظيم من الحظ من أثر ليلة سابقة ... ويظهر أنه غضب أثناء المحاكمة من أعمال هذه المومس، فقال لها على مسمع الحضور: "أسكتي ... سكري ثمك ... شرموطة..!!".

ولكن لم تحمل هذه المومس الإهانة، فأجابته على الفور "أنا يا سيدي إذا كنت كما تقول شرموطة أكون في بيتي وليس في محكمة الدولة!!".

وهنا تراجع في الحال صديقنا القاضي وقال لها صح معك كل الحق. ثم التفت إلى رئيس كتبه المدعو جمال الصلاحي، وقال له:

سجل دعوى الآن   المدعي فلانة ابنة فلان.

المدعى عليه القاضي محمد يوسف الخالدي

الدعوى إهانة

الحكم على المدعى عليه دفع جزاء خمس ليرات فلسطينية، وقد أخرج من جيبه المبلغ ودفعه إليه، وهذا بدوره أحاله إلى الخزنة، وجلب الإيصال باسمه حسب الأصول، وسلمه إلى القاضي الذي ختم الدعوى المقامة عليه منه بالذات، واعتذر إلى الموسى. وأخيراً انتقل ثانية للنظر في الدعوى الأساسية المقامة على الموسى، واتخذ الإجراءات القانونية. هذه صورة مصغرة تدل عن مدى ومنتهى الإقرار بالذنب بدون حفظ ولا إكراه.

وإني أدون هذه الحادثة الخاصة والمساعدة العظيمة التي كان قدمها القاضي محمد يوسف الخالدي لي، وتدل عن مدى الإخلاص والأخوة بين الأصدقاء الأوفياء في ذلك الزمن فأقول:

كنت صديقاً وفياً لعائلة مسيحية معروفه منذ حداثتي تسكن البناء المعروف بالجبشة داخل السور. وكانت آنسه من هذه العائلة قد سرقت حجراً كريماً الماس من الصائغ اليهودي الخواجة فابس من حانوته الواقع -آنذاك- في عمارة البرق والبريد القديمة شارع يافا. ولغباوة هذه الآنسة في فن السرقة، عرجت على الصائغ الأرمني المعروف حانوته في أول عقبة خان الأقباط حارة النصارى، واطمأنت عن قيمته ونوعه -سامحها الله- ثم ذهبت إلى سكناها في عمارة الجبشة. وعندما فقد الخواجة فابس حجره الكريم بدأ الاستفسار عنه من صائغي المدينة إلى أن اكتشف الحقيقة من الصائغ الأرمني، وبواسطة البوليس توصلا إلى هذه الآنسة وأخذوها إلى المخفر، حيث كتب فيها الضبط حسب القانون وصودر الحجر منها وتحولت الدعوى للنظر فيها من قبل صديقي محمد يوسف الخالدي.

يئست هذه الآنسة من الحياة وصممت على الانتحار بأي واسطة، وكانت فضلت موتها عن حضورها وهي متلبسة بالجريمة أمام المحاكم لأنها كانت معروفة لدى الأهالي والمجتمع من أرقى الناس اسماً وخلقاً. وقد اضطرت وعائلتها أن تعترف لي بالحادث على علاته، وكان لها الأمل الوطيد بخلاصها من هذه الورطة بواسطتي. تحمست جداً لمساعدتها وأخذت سيارة خاصة، وزرت أخي وصديقي محمد يوسف في مخيمه الخاص بجانب دهيشة بيت لحم، وحدثته مطولاً بالأمر وطلبت مساعدته.

فكر القاضي طويلاً ووعدني خيراً وعين النظر في هذه الدعوى بصورة استثنائية لم يسبق لها مثيل، وذلك في الساعة الرابعة من بعد ظهر ذات يوم. أذكر أنني كنت والآنسة ثم الخصم الصائغ اليهودي فابس والبوليس أمام القاضي محمد يوسف الخالدي الذي كان وحده أيضاً يكتب وقائع الدعوى بيده . . . وكانت أجراس كنيسة الروس بجانب المحكمة بالقدس تقرع قداس الإسبيرينو المعروف بتمام الساعة الرابعة، ولم يكن في عمارة العدلية أحد سوانا حتى صاحب المقهى كان غائباً، وهكذا اطمأنت الآنسة المومى إليها من رؤية أحد وفضيحة أمرها المخزي.

تلا البوليس نص الدعوى وأشار بيده إلى المدعي والمدعى عليه، وبعدها أخذ القاضي محمد يوسف الحجر بيده وبحلق به ثم سأل المدعي فابس: أهذا هو حجرك؟ . . نعم يا سيدي. إذاً خذه وانصرف . . . فأخذ الحجر وبقي واقفاً أملاً أن يرى النتيجة والحكم على المدعى عليها، ولكن صاح به القاضي قائلاً قلت لك انصرف من هنا يا الله وهكذا انصرف. ثم

حكم على الآنسة بدفع مبلغ عشرة قروش جزاء نقدياً ، وانتهت القضية وفضت المحكمة في الحال ، وهكذا تركنا المحكمة مدهوشين من لباقة هذا العبقري .

أما الخواجة فابس ، فبقي والله لغاية يومنا هذا يقول لي "أنت السبب ، إنت واحد قوي كثير . . كيف بكون الحاكم وحده بعد الظهر؟" . . . إلى ما هنالك من كلمات لم أزل أذكرها وأقهقه عليها مع الآنسة وعائلتها في كل المناسبات . كان هذا النوع المثالي في الإخلاص والأخوة في ذلك الزمن . . . فسقيا لتلك الأيام !

عائلة يورغو سلحيت

ابتدأت معرفتي بعائلة المرحوم يورغو سلحيت بواسطة زميل الدراسة الأخ طناس في مدرسة المطران الإنكليزية بالقدس "السانت جورج" ، وقد استمرت الصداقة عندما تعين طناس كاتباً في قلم التحريرات في سراي حاكم القدس العسكري المستر رونالد ستورس ، وكان المسؤول عن هذا القلم عند دخول الإنكليز صديقي وأستاذي السيد قسطندي لباط الذي ساعدني وتعينت بواسطته كاتباً في سراي حاكم القدس العسكري ، وأصبح طناس زميلاً لي في الوظيفة ، وزادت هذه الصداقة منذ أن تزوجت شقيقة طناس السيدة فتنى لصديقي وزميلي في الموسيقى . . . ألا وهو متري قسطندي المنى الذي قضيت معه القسم الأعظم في حداثتي .

وإني أذكر أنه بعد الاحتلال البريطاني عندما رجع الأخ الأكبر لطناس وهو إلياس سلحيت من الديار الأميركية رجع عازباً وحالته المادية في يسر ، كنا لا ننقطع عن إقامة الحفلات والسهرات النادرة في بيوت عدة بالقدس ، وقضينا وقتاً جميلاً لا أنساه مدى الحياة ، وإني لا أبالغ أنني وإلياس وإخوانه كنا في سهرة في بيت والدهم الواقع في حي النصارى داخل السور ، وما هي إلا مدة وجيزة أتممنا ألفية النبيذ المعتق.[1]

واضطر إلياس أن يبعث لشراء ألفية جديدة . . . وهكذا كنا نواصل السمر والغنا في السهرات والشطحات المتواصلة ، وكانت حفلات عائلية ، وكثيراً ما كنت وطناس نترك مقر عملنا سراي حاكم العسكري عند الساعة الحادية عشرة صباحاً ، ونذهب إلى بيت سلحيت ونقضي ما بقي لنا من النهار ، ونواصل إلى بعد منتصف الليل . . . وهكذا على الكاس والطاس والموسيقى إلى أن نفذ جميع ما أحضره معه أخينا إلياس من نقود أميركا . . . ورجع إلى الديار الأميركية لا يملك الفلس الواحد . . . فسقيا لتلك الأيام ما كان أطيبها !

وإني لم أزل أذكر خصوصاً حفلات ستنا مريم في الخيام مدة ما يقرب من الأسبوعين ، وكانت خيمة . . . المنى ليمد[2] . . . علم خيام تلك المنطقة ، وكنت دائماً وأبداً أترأس حفلات الأنس هذه على عودي ، وكانت تضم كثيراً من العائلات أمثال : جورج وأندريا قسيس وعائلاتهما ، ومتري عبد الله المنى وعائلته ، وعوض فتالة ، وعائلة سليمان ثيودوس ، ومتري قسطندي المنى وعائلته ، ومحفوظ زخريا وعائلته ، وداود دعدس وعائلته ، وشكري المنى وعائلته ، وعائلة عنصرة ، وعائلة ميخائيل منصور . وكان كثيراً ما يرافق هذه الحفلات العائلية المستر مغبغب من لبنان بصفته موظفاً مع عوض فتالة زمن الحكم العسكري بالقدس ، وإنني لم أزل أحتفظ ببعض رسوم هذه الاحتفالات الشيقة ضمن المجموعة الجوهرية .

[1] ألفية: قارورة زجاجية ضخمة لحفظ العرق والنبيذ وأحياناً الزيت وتستوعب تسعة عشر لتراً.

[2] غير مفهومة في الأصل.

طناس سلحيت والأرجوحة

أخي وصديقي طناس سلحيت من خيار شباب طائفة الروم الأرثوذكس بالقدس، وله مواقف عظيمة في وطنيته وحبه المتفاني لعمل الخير وأخوته لأصدقائه ومعارفه، وهو من الأشخاص المعروفين بطيبة القلب وكرم النفس والميل إلى النكتة والفرفشة، فهو طروب في نفسه يميل إلى اللهو والطرب، ويبتعد عن النكد والغضب، وقد جربته في الدراسة والوظيفة أكثر الله من أمثاله! ولي مع أخي وصديقي طناس حوادث طريفة جداً، أذكر منها الحادث الآتي:

كان رب عائلة سلحيت يورغو توفي بمدة قصيرة كما أذكر قبل عيد سيدتنا مريم عليها أشرف السلام، وكان من الطبيعي لورثته من الإناث والذكور أن تقيم الأحزان وتلبس السواد حداداً على روحه الطاهرة، وكذلك قام أخي طناس بما يترتب عليه من واجب في هذا الصدد. وقد صادف أنني كنت خارجاً من باب الأسباط عند الغروب تقريباً، متجهاً إلى وادي سيدتنا مريم لإقامة سهرة في أحد مخيمات أصدقاء لي في ذلك الوادي بمناسبة عيد سيدتنا مريم، وذلك الموسم المشهور، إذ التقيت بطناس راجعاً من كنيسة سيدتنا مريم بعد الزيارة الدينية فسألته:

- أهلاً بطناس، إلى أين؟

- إلى الدار زرت قبر سيدتنا مريم.

- ولكن أهذا عهدي بك؟ . . العمى ارجع ورافقني في هذه السهرة، وبدأت له أشرح ما هنالك من طرب وسرور وجمال و . . و . . . الخ.

أجابني طناس ولك أنا حادد على والدي بعد، وأخاف من الناس فماذا يقولون علي؟

أجبته علي بال مين إنت يا . . ومين بدو يشوفنا، فنحن داخل الخيمة، والدنيا ظلام و . . و . . إلى أن أغريته فوافق مختاراً وصاحبني.

وما هي إلا خطوات معدودة، نظرنا وإذ رجل مصري وعنده ألعوبة ضخمة تدعى (بالشقاذيف)، وهي عبارة عن أربعة صناديق معلقة على دائرة عمود، وداخل كل صندوق منها مقاعد يجلس الأولاد عليها بعدما يدفع الأجرة قرشاً واحداً لكل مقعد، وعندما تمتلئ هذه الشقاذيف يدير الدولاب الحديدي فتدور بسرعة فائقة، ويصبح الأسفل الأعلى وهكذا . . . وهي ألعوبة محببة جداً من الأولاد آنذاك لأنها جديدة.

نظرت إلى طناس وقلت له بالله ولك تركب مع الأولاد . . . والله يا طناس شي جميل، أجابني بحدة ولك ما قلت لك بأنني حادد على الوالد بعد . . وشوف الناس على الطريق . . . أجبته العمى مين بدو يشوفنا، وخففت عنه الألم إلى أن رضي وصعد الصندوق وجلس، أما أنا فقد دفعت عشرة قروش لصاحب الألعوبة في يده، وأشرت بأذنه بأن يدور الدولاب ولا

يأخذ أولاد آخرين، وفي الحال امتثل هذا الرجل لأمري، وبلمحة من البصر أصبح أخينا طناس وحده عالياً ثم هبط نزولاً ثم علواً بسرعة فائقة يحلق بنظره ويشتمني بشتائم من الوزن الثقيل ويقول: عملتها في يا واصف؟ ! ! والله.

أما أنا فوقفت على قارعة الطريق، وعلى مسمع من أبناء الطائفة الذين كانوا راجعين من زيارة سيدتنا مريم رجالاً ونساء وأكثرهم من العجائز ... وصحت بأعلى صوتي مخاطباً طناس وهو في الأرجوحة "يلعن اللي ما بيستحي وما فيه دم" ! ! ولك ما فيش عندك ذوق ! ! قلنا شطحة كمان تمرجح مثل الأولاد ما تخاف ربك؟ ! ! فوقفت المارة يشاهدون هذه التمثيلية، وبدأت تسألني بدورهم العجائز "مين يا أخي هذا" أقول شو شايفاه طناس سلحيت. وهناك البكاء والصريخ قطيعة لسا ما غمض عيونه المرحوم يورغو ! ! يوم الشوم عليه وعلى هذا الجيل، والله سمعة ! ! قالت بيركب الشقاليف وهو حادد ولابس الكرفاتا السودا.. إلى ما هنالك من ديباجات مثيرة.

أما أنا فنزلت إلى وادي سيدتنا مريم ونظرت لخلفي، وإذ طناس نزل من الأرجوحة وكاد الدم يصعد من وجهه خجلاً يتمتم ... ورجع مكسوفاً ودخل باب الأسباط..، غضب طناس عليَّ كل الغضب، ولم يكلمني مدة ما تقرب الأسبوعين إلى أن اصطلحنا، وكان هذا المقلب موضوع بحثنا في جلسات سمرنا في المستقبل ليومنا هذا.

وأخيراً تعين بواسطتي طناس سكرتيراً لدائرة بلدية القدس بمعية رئيس البلدية الجديد راغب بك وفخري النشاشيبي، وقد زهد الدنيا هذا المسكين واعتنق دين "التبشير"، فأصبح من رجالات روح القدس المهووسين ويا للأسف، وبدخوله في التبشير خسرت عائلته وأصدقاؤه ومعارفه ما كان يتحلى به طناس من مرح وظرف في الحياة ... سامحه الله! ولله في خلقه شؤون!

وبعدما دخل الأخ طناس في التبشير استقال من وظيفته الرفيعة كسكرتير بلدية القدس، وترك أصدقاءه وزهد الدنيا ومن فيها، وانزوى في بيته بدون عمل ما، إلى أن اشتغل بدون مقابل ملاحظاً ومراقباً لمكتب الأخ انسطاس حنانيا عندما كان محامياً بالقدس في مكتبه الواقع بجوار فندق اللنبي (فاست سابقاً) شارع يافا، وكنت والأخ انسطاس والأخ عيسى عقل وغيرهم نتهامس ونتألم على مصير هذا الرجل، وهو منكب على تنظيم وترتيب المستندات والدعاوى المبعثرة في المكتب، وكنت كما عودني طناس في حياته أن أنظم المقالب والحوادث الطريفة أزوره وهو في غيبوبة من الروح القدس، وأقص عليه الأحاديث المثيرة، وأذكره بالزمن الغابر الذي قضيته وإياه قبل التبشير بحضور الإخوان المذكورين أعلاه، وهو لا يفه بكلمة واحدة، بل ينظر إلي بنظرة تنم عن ابتسامة غامضة في وجهه، وكنت وزملائي نستعمل المستحيل لرجوعه إلى الصواب، ولكن بدون جدوى إلى أن رويت له هذه الحادثة الطريفة التي وقعت بالفعل مع أحد المبشرين:

"زار مبشر أجنبي القدس ونزل في منزل المبشرين المقام على جبل الزيتون مدة أسبوع، ولأول مرة زار القدس. ثم نزل من جبل الزيتون إلى المدينة لأجل وضع رسائله في دائرة البريد الذي يجهل موقعها. ولدى وصوله إلى ساحة باب العامود، استفسر من أحد الأشخاص عن موقع البريد، فأجيب أنه يجب عليه أن يأخذ الشارع المؤدي أولاً إلى المنزل المعروف بالنوتردام، ثم يتجه إلى شارع يافا شمالاً غرباً. ولكن ضل هذا المبشر واتخذ طريق المصرارة، الأمر الذي أصبح بعيداً

أكثر عن دائرة البريد ، ثم التقى بصديقنا الشيخ نزار أبو السعود فسأله عن دائرة البريد وأخبره أنه ضل الطريق بالنسبة إلى من أرشده في السابق، فقال له الشيخ نزار "لا بأس، فمن واجبي أن أساعدك، وأنت رجل غريب، فسر معي وأنا أوصلك دائرة البريد" . . . فشكره المبشر ومشيا سوية . . . وقد أعجب المبشر من ذكاء الشيخ نزار عندما كان يحدثه في شتى المواضيع، وهما يسيران رويداً رويداً إلى أن وصلا إلى عمارة دائرة البريد ، وقال الشيخ مشيراً بيده إلى مدخل العمارة هذا الباب يا سيدي . . . فبدأ المبشر يقدم له التشكرات وقد أخرج من جعبته ثلاث تذاكر دخول وقدمها إلى الشيخ نزار وقال له :

"أكون ممنوناً جداً إذا شرفت مقر جمعية المبشرين الواقعة على جبل الزيتون مساء غد مع من ترغب من أصدقائك، وهاك ثلاث تذاكر دخول لأجل أن ترى بأم عينيك أبواب السماء" ، فضحكت النكتة البديهية مع صديقنا الشيخ وأجابه : "طالما عندك هالمقدرة وهالشطارة فكان الأولى بك أن تجد بنفسك باب دائرة البريد . . يا ابن . . ." وتركه وانصرف .

وهات يا ضحك، عيسى عقل الذي كاد يغمى عليه من شدة القهقهة، أما أخينا طناس فلم يبد أية كلمة إلا أن أصبح وكأنه في غيبوبة فاحمر وجهه وأومأ إلي بنظرة تنم عن ابتسامة داخليه .

أخي وصديقي الشيخ نزار أبو السعود

على ذكر الشيخ نزار أبو السعود الذي ذكرته في حادثة المبشر وأبواب السماء في حديثي أعلاه، ها أنا أدون بقدر المستطاع لمحة وجيزة وحوادث طريفة عن هذا الأديب من أبناء القدس :

إن أخي وصديقي الوفي الشيخ نزار أبو السعود هو كبير أولاد المغفور له والده الشيخ طاهر أبو السعود مفتي الشافعية بالقدس آنذاك. وكان والده المذكور يعتبر من كبار أدباء وعلماء وشعراء أبناء القدس، وصدق من قال (الولد سر أبيه) ولكن أقولها صراحة أن ابنه الشيخ نزار كان مدمناً على الخمر ويا للأسف ! وهكذا أفنى حياته في اللهو والشرب، وكما يقولون في عربدة السكارى . . . الأمر الذي جعل الكثيرين حتى ومن أصدقائه وخلانه أن يبتعدوا عنه .

إن الشيخ نزار لم يكن شيخاً معمماً ، ولكن بالنسبة إلى علمه وأدبه دعوه بالشيخ وقد لبس العمة مرة في حياته عندما كان يدرس في مدرسة صلاح الدين (الصلاحية . .) إبان الحرب العظمى الأولى، التي تحولت آنذاك إلى مدرسة إسلامية تحت إشراف السفاح أحمد جمال باشا . كان الشيخ نزار عبقرياً في اللغة العربية، وحافظاً بالنسبة إلى ذكائه لمجموعة ضخمة من الشعر العربي لأشهر شعراء العرب من قديم وحديث ، وكان ينظم الشعر ارتجالاً، وقد ورث هذا الفن ولا شك عن أبيه الشيخ طاهر أبو السعود ، وإليك هذا المخمس للمرحوم والده كان قد أرسله لوالدي بصفته صديقاً حميماً :

خليلي جفني قد جفا لذة الوسن ... لهجر حبيب للمعزول لقد ركن

سألتكما بالمرتضى ثم بالحسن ... سلا من سلاني والفؤاد له سكن

عسى يقرن الحسن إلى وجهه الحسن

جفاني فهاجت في الغرام بلابلي ... وأوهنني حتى رثا لي عواذلي

فصرت أنادي والدموع رسائلي ... هجرني حبيبي بعدما كان واصلي

وزاد على ما كان من شجن شجن

جفاه بصبري في الغرام ألفته ... وكل هوان في هواه وردته

ولم أبد للعذال أني عشقته ... كتمت هواه في فؤادي وصنعته

وليس الذي يبدي الغرام كمن

تشاغل عن وجدي وبالعجب قد لها ... فقلت له أرفق بالحشاشة من لها

أجاب ندائي بعد بعد سموها ... بمن قال محبوبي أراك حولها

فقلت أما تدري بمن قال لي بمن

فقلت له والعقل فيه مشتتا ... إلى ما توالي الصد قال لي إلى متى

فمر وأومأ بالسلام تلفتا ... فقال لي العذال تعرف ذا الفتى

وقد فتنوا إذ مر قلت فتى فتن

والجدير بالذكر أن الساعة الشمسية التي تعرف [. . .][1]، والمقامة فوق أحد أبواب الصخرة المشرفة والواقعة ما بين الصخرة والأقصى بجوار الكاس، هي من ابتكار وصنع المرحوم الشيخ طاهر أبو السعود تنظر إلى الحضور بكل إعجاب وتقدير إلى يومنا هذا .

تعلم الشيخ نزار اللغة العبرية، ووقف على أصولها وقواعدها التي أصبح اليهود أنفسهم يرجعون عليه وإليه في صحة الكلمة من حيث الصرف، بداعي أن هذه اللغة أخذت الكثير من اللغة العربية الأصيلة الواسعة، وكانت رجالات الجامعة

[1] ناقص في الأصل.

العبرية بالقدس تقدره حق قدره. كان الشيخ نزار يدوياً وله ميل فطري في الميكانيك والآلات الصناعية، فإذا ما سألته كيف يمكننا خرق القزاز يفيدك في الحال، ويعطيك أسرار هذه الصناعة النادرة -آنذاك- فمثلاً يقول يجب عليك أولاً حك النصلة التي بواسطتها يمكنك خرق القزاز وأن تسقيها من الكافور ... وهكذا ثم ألم إلماماً كاملاً في الكهرباء حتى أنه ألف كتيب باللغة العربية لمساعدة أهل البيوت بصورة وجيزة، وقد أطلعني على هذا الكتيب وكان جاهزاً للطباعة.

وقد اشتغل مدة طويلة بعد الاحتلال البريطاني مدرساً في المعارف زمن مديرها العام المستر بومن، ورافق الكثيرين من أساتذة ذلك العصر أمثال المرحوم قسطنطين خوري، والمرحوم رشدي شعث، وشريف النشاشيبي، ويحيى اللبابيدي ... وغيرهم، ولكن لم يكن له جلد على الوظيفة والحكم، فاستقال ولم يفلح. كان بطلاً شجاعاً يشار إليه بالبنان، وله مواقف عديدة في هذا المضمار، فكم من المرات هزم اليهود في شارع يافا من بعد ظهر نهار السبت وهو في حالة عربة السكارى ... والجدير بالذكر أنه يتفنن في اقتناء الأسلحة البيضاء التي كان دائماً يستعملها، فإذا ما نظرت معه سكين كن على ثقة أن هذه السكين من صنع يده، وهي من قطعة منشار أو زمبرك فولاذي، وكان يفتخر بها ويرفعها بيدها ويقول لأصدقائه "بو أشفياء أشون" أي هذه هي للأشقياء.

كان -رحمه الله- خفيف الظل يتفانى بحبه لصاحبه ويخاطر بروحه كرامة لصديقه، والويل ثم الويل إلى من كان يتعدى على الفتيات أو النساء من أولاد الأزقة، ويكون مساعداً لهن بدون معرفة، ولو أودى ذلك إلى حياته، وبالفعل كانت أخلاقه حميدة وشريفاً في كل ما لهذه الكلمة من معنى.

نظراً لصداقتنا كان يدعوني بأخيه ويقول "كيف ما بدك نزار بن جرجس جوهرية أو واصف بن الشيخ طاهر أبو السعود"، وكثيراً ما كنت أهجم عليه وهو معربد بإحدى المعارك ... والسكين بيده، وعندما يمتثل لطلبي ويهدأ في الحال فأمسكه من تحت إبطه وأوصله بيتهم المعروف ببيت أسرة أبي السعود بجوار الحرم. أذكر أنه عندما كانت بديعة مصابني وفرقتها على مسرح مقهى المعارف الواقع -آنذاك- خارج باب الخليل، وكانت ليلة نادرة وجمهور مجتمع ... إذ صعد الشيخ نزار إلى شباك المقهى ورمى بنفسه إلى اللوح المقابل للمسرح، ثم قفز ورمى بنفسه ثانية على رؤوس المتفرجين من أبناء القدس الأشاوس، وكان في حالة شديدة من السكر، الأمر الذي أدهش الحضور، وتوقفت بديعة مدة من الوقت إلى أن جلس أخينا الشيخ وهدأ ... ولولا وجودي هناك لما استطاع أحد من جلوسه، وقد جلس بجانبي إلى آخر الفصل ونهايته.

وإني أدون هنا بأن أخي وصديقي الشيخ نزار له فضل كبير على المجموعة الجوهرية، فكان -رحمه الله- يساعدني كثيراً في فك رموز المخطوطات العربية من كتب وفرامانات ومستندات أثريه، وكان هو بنفسه يجلب لي مما أمكن من هذه الأشكال بصورة فظيعة، وقد أحضر لي مرة منقلاً أثرياً من النحاس الأصفر شغل[1] استنبول، شكله بيضوي، حمله على كتفه، ومن ثقله جرح كتفه، وقال لي إن هذا المنقل هو منقل المرحوم بدر أفندي الخالدي. وأخيراً وليس آخراً، واصل الشيخ نزار طيشه وأدمن على الخمر ليلاً نهاراً إلى أن اصطدم بمصيدة عظمى وإليك الحادث:

[1] شغل: صنع.

دخل الشيخ نزار مقهى وبار كارنيك الأرمني المقابل لدائرة حاكم القدس شارع يافا عند الساعة الثامنة مساء من نهار ٢٩ تموز سنة ١٩٣٢ ، والتقى برجل زنجي كان في الماضي حارساً للمرحوم جودت الدجاني ، وبعد وفاته انتقل واشتغل في الوظيفة ذاتها عند الشيخ محمود الدجاني. تشاجر الاثنان وكانا على جانب عظيم من شدة السكر والحظ ، وقد تجرأ الزنجي فشتم الشيخ نزار وكان المقهى غاصاً بزبائنه ، فجن جنون الشيخ نزار ، ورغماً عن شدة سكره وإكراماً للحضور هدد الزنجي وقال له : "هذه ليست مراجل يا رجل نحن في مقهى عام وبين جمهور له كرامة فإذا ما شئت أخرج إلى الشارع وهناك الملتقى". وهكذا خرجا من المقهى وفي الشارع حمي الوطيس وكانت النتيجة أن الشيخ نزار ضربه بسكين في أحشائه وكانت القاضية وتوفي الزنجي بعد عشرين ساعة من الحادث ، وألقي القبض علي الشيخ نزار وحكم عليه بالسجن لمدة عشر سنوات ، فقضى أخينا الشيخ نزار مدة ثلاثة وتسعين شهراً قضاها في البر والإحسان . . . وخرج بعدها وهو بصحة جيده. والجدير بالذكر أن مدير السجن أحب الشيخ نزار وعطف عليه ، فكان يسمح له في مرات عديدة أن يترك السجن لمدة وجيزة عند المساء ليتناول كاساً من العرق . . . ويرجع وحده.

وقد حضرت له معركة كبيرة في شارع يافا ، وقد أبدع الشيخ في بطولته ، فشهد له جميع من كان حاضرا :

كان الشيخ نزار ورفيقه السوريكي ومحمد السعودي يتفسحون في شارع يافا ليلة رأس السنة الجديدة عند اليهود بتاريخ ٨ أيلول سنة ١٩٢٦. وقد تشاجر السوريكي مع أحد الأشخاص من اليهود ، وقد شتم اليهودي السوريكي باللغة العبرية التي كان يحسنها الشيخ نزار ، فرد الشيخ الشتيمة بالعبرية وابتدأت معركة بين الفريقين ، وتجمهرت أتلال اليهود بكثرة فائقة وكان مع محمد السعودي مسدس ، وهكذا هجم اليهود على السعودي والسوريكي ، ولكن الشيخ فلت من أيدي اليهود وجاء راكضاً إلى مقهى الجوهرية ، واختطف الباكور الحلب الثخين من صديقنا فرنسيس الآوي ، ورجع يضرب اليهود بهذه العصا بدون خوف ولا حساب ، إلى أن خلص رفقاءه ، وكانت النتيجة أن خمسة وعشرين شخصاً جرحى مهمشين مكسرين ، ومات واحد بعدما أجريت له ثلاث عمليات جراحية في المستشفى.

وهكذا بسبب عربدة الشيخ نزار وإقدامه على القسوة والإجرام ومثابرته على الطيش حتى أودت بحياته ، فسجن مدة عشر سنين بجريمة قتل ليس المقتول كان من زعماء الصهاينة ، وأعداء الوطن ، بل كان زنجياً. غضب أصدقاء الشيخ نزار جميعهم عليه ونبذوه ولم يزره في السجن أحد منهم حتى أنا. وشاء القدر أن أخي وصديقي وزميلي في الوظيفة أميل كردي قد اتهم في تهمة سوء استعمال أمنية ، وذلك سنة١٩٣٦ ، عندما كنا في سراي الحاكم داخل عمارة مستشفى دير الروم بالقدس ، وحكم عليه –ويا للأسف– في السجن بالأشغال الخفيفة ، ونظراً لصداقتنا المتينة بعثت به إلى الأخ الشيخ نزار ألتمس منه العطف على إميل ، وقد أصبح الشيخ نزار -آنذاك- خبيراً في السجون ، وحملت إميل أطيب السلام إلى أخي الشيخ. وبعد أسبوعين من سجن إميل ، إذ وردت إلي قصيدة من تأليف أخي الشيخ نزار بواسطة سجين كان معيناً لتنظيف بيت مدير البوليس -آنذاك- أدونها في كتابي هذا للذكرى ، وفي الوقت ذاته لأعطي فكرة عن مهارة الشيخ نزار في الشعر:

أخي واصف: "أذكرت شيخك أم ذكرت إميل؟.."

وصل سلامك مع إميل بعد ستين شهراً فلك الشكر مقدماً على ما أخرت فأثرت بي كوا من الألم وبعثني على النظم بعد أن نسيته أو كدت وهاأنذا أزف إليك صورة حالتي الصغرى، وأترك الشرح لأميل بعد الإفراج:

زمني قضيته في السجون طويلا	خدنا لمالك تارة واستيلا[1]
وخبرت عجرفة الزبانية الأولى	عملتهم من حفظي تارة التنزيلا
من كل أحمق جاهل متعنث	لا يعرف التحريم والتحليلا
ماذا أقول [ولا أريد شكاية]	في حالة تدع العزيز ذليلا
الكل سيدي قد غدا من بعد ما	عبدت أسياد الزمان عجولا
كنا سمعنا قبل عن بستيلهم	ما يبعث الإرهاب والتهويلا
كذبوا فما صدقوا الحديث ولو رأوا	بستيلنا لم يذكروا البستيلا
ستون شهراً في السجون قضيتها	ما بين هم بكرة وأصيلا
ورأيت من صحبي العجاب وليتني	من قبل ذلك ما اتخذت خليلا
يا واصف الأخوان بعد شتاتها	عفواً إذا عتبي عليك شكولا
الذنب ذنبي لا أريدك قيلا	لكن أملت بأن تغيظ عذولا
أنسيتني حججا طويل ليلها	وذكرتني لما افتقدت اميلا
فلك السلام كما بعثت مؤخراً	ولئن جرحت فقد شفيت غليلا
وأنا لودك لا أعاتب حافظا	لم أنس لطفك في السنين الأولى

القدس - سنة ١٩٣٧

التوقيع: الشيخ نزار أبو السعود

[1] استيلا مدير سجن القدس المركزي (و.ج).

وقد أبدع الأخ الشيخ نزار في عتابي أو بالأحرى هجائي . . . فتقبلته منه بسرور ، وبعد ذلك زرته مراراً وتكراراً في سجنه وتواصلت الصداقة ما بيننا طيلة حياته رحمه الله. وإني أذكر أن الشيخ قدم لي شعراً بمناسبة زواجي ، ولم يزل هذا البيت من الشعر تأليفه مكتوباً حول صورتي في المجموعة الجوهرية ، وهو حال لساني لما تكبدته من تعب ومشقة في سبيل زواجي ، وإليك هو :

كل له أمل يسعى ليدركه   والحمد لله قد أدركت آمالي

والصبر قائد لي في كل أحوالي   والجد خير صديق في مساعدتي

وبعدما توفقت بجمع التحف الفنية والأثرية وأصبحت محجاً للآثار تدعى بالمجموعة الجوهرية ، إذ زارني مرة أخي الشيخ ، وقد صادف وأنا كنت أنظم بعض الحجارة الكريمة مثل حجر الدم والياقوت والعقيق وغيره في صحن أثري أمثل به صحن القديسة البربارة المعروف عند طائفة الروم بالقدس فسر جداً ، وأخذ بالحال [الكتاب الذهبي] المعد لمن يزور المجموعة الجوهرية من الشخصيات السامية ، وقد كتب بخط يده وتوقيعه هذه الأبيات التي لم تزل محفوظة في أول الكتاب المذكور ، وقال :

الاعتراف . .

جالت واصف مرة في داره   فبهت من تحف بها لا توصف

أنى التفت ترى الجواهر نسقت   والجوهرية بالجواهر أعرف

فبكل ركن آية من ذوقه   وبكل زاوية لديه متحف

نزار أبو السعود

وبعدما قضى الشيخ مدة السجن بكاملها خرج وهو قوي البنية شديد العافية ، ولكنه زاد في الإدمان على الخمر ، وكان كلما طلب وظيفة في إحدى الدوائر أو الشركات أو المؤسسات ، يفشل تخوفاً منه ومن أعماله وعربدته. وإني أذكر أنه طلب وظيفة ما في دائرة بلدية القدس في زمن المرحوم مصطفى بك الخالدي ، وكان القابض بيد من حديد -آنذاك- في هذه الدائرة شخص معروف بالمقدرة يدعى عزيز شيخاني الذي أجاب على طلب الشيخ نزار بعدم وجود وظيفة شاغرة في الوقت الحاضر . فعندما استلم الشيخ نزار هذا الرد السلبي ألف قصيدة هجاء في دائرة البلدية ورئيسها ، وإني لم أزل أذكر منها هذا البيت اللطيف :

وهل للشيخ من شغل   وعند البيك شيخان

وهنا التورية في شيخاني . . فكان يقرأها على مسمع الجمهور في جلساته في الخانات والمقاهي داخل بيت المقدس حتى أقام وأقعد مصطفى بك الخالدي الذي كان –ولا شك غافلا– عن إدارة منصب رئيس بلدية القدس آنذاك . وقد تزوج الشيخ نزار فيما بعد بابنة خالته من عائلة عويضة ، وأنجبت له مولوداً أنثى فقط ، وقد توفي أخي وصديقي الشيخ نزار غفلة في سنة نكبة فلسطين مأسوفاً عليه بعدما أذاع بعض الكلمات في الشعر والأدب والتاريخ من إذاعة هنا القدس ، رحمه الله رحمة واسعة ، وأسكنه فسيح جنانه !

شطحة قالونية مع آل سعيد وحنانيا

بمناسبة خطوبة الأخت فيكتوريا سعيد على الأخ باسكال بن الخوري سوتيري حنانيا ، أقيمت شطحة في قرية قالونية بين أشجار الرمان في بستان مقهى نقولا اليوناني المعروف هناك والواقع على جسر قالونية . كانت تضم هذه الشطحة نخبة من عائلات القدس الأرثوذكس المعروفين ، وعلى رأسهم عائلة العروس سعيد ، وكان الأخ سابا –آنذاك– في أوج علاه موظفاً سامياً في القضاء ، ثم عائلة العريس ، وأخص منها الأخ شكري جورج دبب وعائلته ، والأخ انسطاس حنانيا الذي كان أيضاً في منصب سام في القضاء .

كنت أترأس الحفلة من حيث الموسيقى والطرب ، وقضينا يوماً كما يقولون من العمر ، فأخذ الحظ من كل واحد منا قسطه الوافر ، وأصبحت وحدة حال وعدم الكلفة ما بين الحضور ، وكانت فرحة عظيمة ، خصوصاً أن خطوبة فيكتوريا كانت أول فرحة بين أخواتها وإخوانها وفاتحة خير ، وأصبح كل واحد منهم يتأمل بالفرج . . . بعد طول الغياب ، فلم يقدم أحد منهم على الزواج لا من الذكور ولا الإناث . . . وهكذا عبس وتولى . . . باسكال والجميع يرددون ما أغنيه للعريس بمناسبة فرحته وكأنه في الجلوة . . . ولكن بالنظر لأطباعه الشاذة المعروفة كان أحياناً –كما يقولون– لا يحمل لعباً . . . ولكن ليس باليد ولا حيله ، فقد صادف أن الأخ شكري دبب وعندما كان على جانب عظيم من الحظ هجم على باسكال عندما كان يغسل يديه في الصابون ، هجم عليه وطلى أكمل وجهه بلبن محشي الكوسا ، وكان منظراً –والحق يقال– مدهشاً للغاية ، ولكن عربد الآغا باسكال وزمجر وأرعد وأزبد والعياذ بالله . . . إلى أن رجع لصوابه من شدة رجاء العروس .

وقد استعمل جميع الحضور والمدعوين عربات الخيل من القدس إلى قالونية وبالعكس لعدم وجود الأتوموبيل –آنذاك– بعد ، وهكذا إني لم أزل أذكر بكل سرور ذلك المشهد الذي تركنا قرية قالونية فيه فكانت مجموعة من العربات البوسطة والكلش والحنطور تسير خلف بعضها البعض ، وقد بقيت الخيول بسبب طلعة قالونية الصعبة ، فاضطررنا أن نترك العربات هذه مرات كثيرة ونسير ، ولكن أنا كنت أعزف على عودي وأغني طقطوقة آه يا أسمر اللون حياتي الأسمراني ، وجميع الحضور يرددون الترديدة ويصفقون بأيديهم من نشوة الطرب إلى أن وصلنا قريباً من الشيخ بدر ، وهكذا ركب الجميع في عرباته الخاصة ، ودخلنا شارع القدس يافا ، والجدير بالذكر أنني كنت جالسا على أعلى غطاء الحنطور ، وكان سابا وشكري قابضين على رجلي من الأسفل ، وكنت أعزف وأغني على عودي قصيده :

يـا راهـــب الـديـر بـالإنجـيـل خـبـرني   عـن الـبـــدور الـلــواتـي عـنــدكـم نـزلـوا

وكانت هذه القصيدة محبية جداً -آنذاك- للمطرب البنا ، وكنت أغنيها بمهارة فائقة وقد يتخللها مد طويل يساعد المغني ، وذلك على مسمع الجمهور العظيم في شارع يافا القدس بدون حياء ولا وجل . . . فسقيا لتلك الأيام التي أصبحت ذكرى لكل فرد منا لهذا اليوم! وإني أختتم هذا الموضوع فأقول إنه بعد زفاف فيكتوريا على باسكال عاشا بالقدس ، ثم في حيفا مدة طويلة تقارب السبع عشرة سنه ، ولم ينجبا الأولاد ، وكانت حياتهما الداخلية محشوة بالمشاحنات والغيرة ، ولم ينسجما معاً لما عليه هذا الباسكال من شذوذ ، وقد أسفرت النتيجة -ويا للأسف- أن تفاسخا من هذا الاقتران بالرضا وبمساعي الأخ سابا سعيد ، ورجعت المسكينة عروستنا الأولى في عائلة سعيد لبيت أبيها ، أو بالأحرى بيت إخوانها تندب حظها ، ولله في خلقه شؤون .

وفاة الوالدة

توفيت والدتي المغفور لها في أسبوع عيد القديسة بربارة سنة ١٩٢٠ بمرض النزلة الرئوية فأقامت مدة أسبوع في الفراش تحت إشراف أخي وصديقي الدكتور عزت طنوس إثر فقد أخيها الوحيد (خالي) نخلة بن أنطوني بركات ، الذي توفي قبل أربعين يوماً من وفاتها . وقد تأثرت جداً بسبب وفاتها ، وحقيقةً شعرت بأن الدنيا كما يقولون هي الأم ، فكرت -آنذاك- أن أحقد على الدنيا وما فيها من شدة تأثري وانفعالي لفراقها .

وبوفاة الوالدة ، قضي على حياتنا البيتية أنا وأخوتي خليل وتوفيق وفخري ، وأصبحت دار الجوهرية شبيهة بقاووش الجيش ، فكل واحد منا يعيش وحده ، وعند المساء يحضر إما عند منتصف الليل أو بعده ، وعلى جانب عظيم من الحظ ينام ويترك فراشه عند الصباح ، وهكذا إلى أن ضاق صدري فاضطررت إلى وضع امرأة كبيرة في السن تدعى سلطانة اللنجي ، وهي من طرف أقرباء الوالدة ، فلم يرق لها الجو وتركتنا بعد مدة ؛ الأمر الذي زاد كل واحد منا في تهتكه وجلب ما يروق له من الأصدقاء والأحباء من ذكور وإناث معه عند منتصف الليل .

حفلات تاريخية كثيرة جرت في الدار ، فكنا نقضي ليلة ساهرة مع بديعة مصابني وزوجها المرحوم نجيب الريحاني وفرقتهما إلى مطلع الفجر ، وفي الليلة التي تليها تكون فروسو زهران وعودها وبعض هواة الفن من إخواننا المقدسيين أمثال عبد الحميد قطينة ، وحمادة العفيفي ، وعلي عباس الجاعوني ، وغيرهم . . . وهكذا إلى أن ضاق صبر جيران الدار وأصبحوا لا ينامون وقلقي الراحة. وإني أذكر ، والعطف يملأ قلبي ، أنه عندما كان واحد منا يرجع إلى البيت مع شلة من الأصدقاء ، ولعدم وجود سيدة خبيرة في شؤون المنزل لتحضير مائدة الخمر والمازة ، نجيء ونقيم الأخ فخري من نومه العميق ، وكان -آنذاك- طالباً في مدرسة الرشيدية ، فيقوم بالحال ويبدأ بما يترتب عليه من أمور تحضير مائدة عربدة السكارى ، ويشاركنا إلى ما بعد منتصف الليل .

لم أطق السير على هذا الطريق الشاذ ، وأنا موظف في دائرة حاكم القدس العسكري ، وشعرت بتعب مضني وتدهور في صحتي من كثرة السهر وتعاطي الكحول والعزف والغناء ليلياً ، ففكرت جلياً بمصيري ومستقبلي وقررت في نفسي الزواج .

زواجي

عرفت فيكتوريا ابنة صليبا سعد صاحب فندق الجلجال في أريحا زمن الحرب العظمى الأولى، وكنت أراقب هذه الآنسة عندما كانت تدير ذلك الفندق بنفسها أثناء اعتقال والدها صليبا زمن الحكم العثماني، ثم عندما كانت تدير ذلك الفندق بنفسها، وفي غياب والدها بعد الاحتلال البريطاني مباشرة. كانت تدير الفندق بمهارة فائقة ومحافظة على اسم الفندق، الأمر الذي اكتسبت فيه تقدير وإعجاب قادة الجيش البريطاني؛ أمثال جنرال بولز، وشيتا، وستورس، وغيرهم وأصبحت تلقب عندهم بـ (Victoria Jericho). وبعد رجوع والدها من المنفى استأجرت فندق سموه فيما بعد بـ "فندق السان جون" من أملاك البطريركية الأرثوذكسية، ولم أنقطع عن الاتصال مع فيكتوريا وعائلتها منذ معرفتي الأولى معها إلى أن شاء القدر وتعاقدنا على الزواج شفوياً، وذلك في عيد الفصح المجيد من سنة ١٩١٩ حتى تمكنا من المقدرة على الزواج من الوجهة المالية، وجرى إكليلنا على أيدي الكهنة الخوري سوتيري حنانيا، والخوري غريغوري، والخوري بسطولي، وذلك في دار النيكوفورية بتاريخ ٩ مارس ١٩٢٤ بحفلة متواضعة تضم أقرب المقربين من عائلتي العريس والعروس.

وهكذا، وبزواجي، فتحت صفحة جديدة في الحياة، وتخلصت من حياة الثورة زمن العزوبة، وأصبحت عريساً، ولكن الله يشهد بأنني كنت منهوك القوى نحيف القوام أردد قول الشاعر:

جس الطبيب مفاصلي ليداوني ... فبكى علي رحمة لي حين جس

شريكة حياتي فيكتوريا[1]

فيكتوريا هي ابنة صليبا سعد وأصله من بئرزيت أعمال رام الله. ووالدتها هيلانة ابنة المرحوم نقولا نقلة من عائلة قديمة من طائفة الروم الأرثوذكس بالقدس، وكان المرحوم جدها الخوري حنا نقلة. ولدت فيكتوريا وجميع إخوانها من ذكور وإناث بالقدس، وعندما كانت في السابعة من عمرها تلعب مع إخوانها وأخواتها في (سكن ومحل والدها صليبا) المعروف بالمرازي على طريق أريحا وبجوار خان الأحمر طريق أريحا، والمعروف رسمياً ليومنا هذا بخان صليبا نسبة إلى والدها الذي أسسه، إذ مر غبطة البطريرك ذميانوس وحاشيته في حنطوره الخاص، وعندما شاهد فيكتوريا لفتت أنظاره بشدة وأحبها وطلب من والدها أن يتبناها رسمياً، وقد تردد مبدئياً الأب وعرض على غبطته ولداً ذكراً، وهم -والحمد لله- أربعة، فرفض البطريرك وأصر على فيكتوريا إلى أن دبر [أقنع] أبيها بطريقته الدبلوماسية المعروفة؛ فأخذ فيكتوريا في الحال وهي تبكي، وحرمها من رؤية أي فرد من عائلتها، وهي في حضانة رئيسة مدرسة البنات للإناث يونانية الأصل، وعلى جانب عظيم من الثقافة، إلى أن تطبعت فيكتوريا بعوائد اليونان، وأخذت على البطريرك وكأنه أب لها، وقد عقد البطريرك بالفعل اجتماعاً خاصاً من السيندوس وتقرر تبنيه فيكتوريا علناً ورسمياً.

[1] نقل هذا القسم من فترة لاحقة في المذكرات.

وهكذا لحسن الحظ، تلقت فيكتوريا العلوم العالية اليونانية، وعاشت في حياة هادئة أرستقراطية، وكانت تزيد معلوماتها وعلى الأخص في علم الأسترونومي[1] واللغة اليونانية الأصيلة عندما كانت ترافق غبطته في كثير من جولاته خارج القدس وخارج فلسطين تحت إشراف المسؤولة عنها رئيسة المدرسة المذكورة.

وعندما أنهت علومها في المدرسة دخلت مدرسة الفرندز في رام الله، فتعلمت بوقت قليل اللغة الإنجليزية، ثم تعلمت الفرنسية على يد معلمة خاصة، وفي أثناء الحرب العظمى الأولى عندما نفي البطريرك ذميانوس من القدس إلى الشام، اضطرت إلى الرجوع إلى بيت والدها صليبا عندما كان صاحب فندق الجلجال في أريحا، ولسوء الحظ غضبت قيادة تركيا على والدها صليبا ونفته إلى أنقرة مع المرحوم سمعان البيضة، وهكذا اضطرت فيكتوريا لما هي عليه من ثقافة ومقدرة من أن تدير إدارة الفندق على الوجه الكامل، وحافظت بالفعل على شؤون العائلة حتى احتل البريطان فلسطين فواظبت على السير في إدارة الفندق مع قادة الإنكليز بكل أمانة واستقامة، إلى أن رجع والدها من منفاه فسلمته الإدارة لهذا الفندق، والجدير بالذكر أنها، وبواسطتها، استأجرت البناء المعروف بفندق السان جون، الذي أصبح من أرقى فنادق القدس، وسلمت إدارته أيضاً إلى والدها لكي تتفرغ للزواج (سراً) من صاحب هذا الكتاب.

لماذا فضل البطريرك ذميانوس تبني فيكتوريا وليس سواها من إخوانها؟

ولا شك بأن الدنيا حظوظ، وقد شاء القدر أن تحظى فيكتوريا بهذه النعمة عن إخوانها وأخواتها واليك السبب:

كان البطريرك ذميانوس من أغنياء الأسر اليونانية في مدينة ساموس، وكان تاجراً معروفاً ومن عائلة سامية، وقد تزوج من فتاة تليق باسمه وعمله، وبعدما أنجبت له مولوداً أنثى توفيت على إثر الولادة مباشرة، فجن جنونه وتأثر جداً لما كان عليه من حب، ولكن كانت هذه مشيئة الله، فقد أخذ في تربية ابنته وأحبها حباً عظيماً؛ فأصبحت ذكرى والدتها التي بدأ يتناسى موتها بوجود هذه الدمية إلى أن وصلت الثامنة من عمرها، فتوفت وكانت صدمة عظمى لوالدها، فقرر وصمم أن يترك حياة الدنيا ويزهد.

وهكذا قرر في نفسه أن يكرس ما بقي من حياته كراهب متواضع يخدم قبر يسوع المسيح بالقدس. نفذ قراره فترك بلاده ووطنه وجاء إلى القدس بلباسه القومي (الذي احتفظ برسمه ضمن المجموعة الجوهرية).

فدخل فوراً في سلك الرهبان، وعين من أحد خدمة القبر المقدس داخل القمامة.[2]

وبالنسبة إلى حسن طلعته والنعمة التي كانت تضيء وجهه وجماله وثقافته وعلمه، فقد لفت أنظار رؤسائه من الرهبان؛ وبمدة قصيرة ترفع إلى مركز أعلى فأعلى إلى أن تقرر بالإجماع إرساله إلى روسيا نيابة عن البطريركية ليقوم في الدعاية وجمع الأموال باسم البطريركية، وهكذا قام بأحسن قيام، ورجع من روسيا مرفوع الرأس بعدما ملك قلوب الروس من الوجهة الدينية، وكادوا يعبدونه من عظم محبتهم وتقديرهم لشخصه، وبعد رجوعه إلى فلسطين رُسِّم مطراناً في بيت لحم، وقد صادف وفاة البطريرك جراثيوس سنة ١٨٩٧ تقرر بالإجماع وانتخب بطريركاً للروم الأرثوذكس بالقدس.

[1] الأسترونومي: علم الفلك.

[2] القمامة: كنيسة القيامة كما كانت تعرف تاريخياً لدى المؤرخين المسلمين. انظر: مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل.

وقد شاء القدر أنه عندما ألقى أول نظرة على فيكتوريا انهارت دموعه فتذكر ابنته في الحال، وكانت -كما أكد لفيكتوريا- تشبه ابنته، وكأنها صنوة لها في اللون وخفة الدم والذكاء، وفي كل شيء، وهكذا قرر في نفسه أن يتبناها وقد أحبها من كل قلبه، فأصبحت تسليته الوحيدة بعد ابنته الحقيقية. وكان بالفعل في كثير من الأوقات يبكي فرحاً عندما يشاهد فيكتوريا في دراستها أو في لعبها على أسطح المدرسة.

هذه هي القصة الحقيقية لمعرفة فيكتوريا بالبطريرك وكسبها العلوم والأدب والعيشة البحبوحة التي حازت عليها بالنسبة لإخوانها ... فسبحان مقسم الأرزاق!

موافقة البطريرك دميانوس على زواج فيكتوريا مني

كنا ما يقرب من مدة خمس سنوات متفقين شفهياً على الزواج وبدون أن نحسب من عائلتي العريس والعروس أي حساب حتى ولم أطلب يوماً يدها من والدها حسب العادة المتبعة آنذاك. كان موقفنا مشرفاً للغاية، وكان حبنا متبادلاً، وحصلت ثقة عظمى ما بيننا، فسرنا على بركة الله وتعاهدنا على الإخلاص إلى أن كتب الله لنا النصر بعد عذاب وآلام يضيق الوقت عن ذكرها الآن.

وعلى كل حال، كانت فيكتوريا تتخوف كثيراً من عدم موافقة البطريرك على زواجنا لأنه كان دائماً ينبهها من قسوة وجهل أبناء الطائفة العرب، وكذلك من عدم وجود أشخاص يرضى عنهم في الجالية اليونانية في بلادنا. وهكذا كانت خطته المثلى أن يبعث بفيكتوريا إلى جامعات ألمانيا لأجل أن تأخذ شهادة عالية في الطب، وكان وبعد رجوعه من منفاه في دمشق، وكان طبعاً بعد الاحتلال البريطاني، يأمرها بأن تسلم جميع ما مارسته من إدارة الفنادق إلى والدها، وتتأهل للسفر إلى ألمانيا، ولم يدر ما كانت عليه فيكتوريا من غرام مع صاحب هذا الكتاب إلى أن حان الوقت لكل منا في سنة ١٩٢٤، فذهبت وفاتحت البطريرك بالأمر، فدهش مبدئياً، ولكن عندما سمع أن من يكون شريكاً لحياة ابنته الروحية هو ابن جرجس جوهرية صمت قليلاً، ثم أردف يقول:

إنني اذكر والده -رحمه الله- جيداً، وكنت أقدره وأحبه وأفضله عن من كانوا بجانبي في البطريركية. إنه أمين مخلص، وهو معتبر ابناً لنا وللبطريركية، ولعظم محبتي له كنت أزوره في بيته في حارة السعدية، وأشاهد من السطح المناظر الخلابة لمدينة القدس، ولا شك بأن الولد هو سر أبيه، فإذا عزمت فأنا أبارك لك فيه يا ابنتي!!

كانت فرحة عظيمة لفيكتوريا، وعندما بلغني ما قاله البطريرك شكرت الله عز وجل، وقلت إني حقيقة فخور بالمرحوم والدي وما خلفه لنا من اسم عظيم، وقلت "أين في الناس بمثل أبي!!".

البركة من غبطة البطريرك دميانوس

زرت وفيكتوريا غبطة البطريرك لأول مرة، وقد تمت يديه وهو جالس على مكتبه مساءً ولفت أنظاري وهو يكتب ويقرأ على ضوء شمعتين اثنتين مقامتين من حوله على المكتبة.. وكنت أتأمل بصورته النادرة وجماله الباهر وقوامه المنتصب

رغماً عن كبر سنه، وقلت في نفسي حقيقة أنه من النادر أن نرى أمثال هؤلاء العمالقة، وهم البطريرك ذميانوس، وعيسى نخله قرط من الطائفة، والشيخ موسى شفيق الخالدي من مسلمي القدس.

باركنا وبعد الزواج زرناه وقد استقبلنا استقبالاً رسمياً في قاعة البطريركية بألبسته الرسمية، ومن حوله المطارنة، وقدم لكل منّا صليباً ذهبياً بسلسلته الذهبية، وبداخله الذخيرة المقدسة،[1] فشكرناه. وإليك ما أذكر مما قاله مخاطباً فيكتوريا:

إبني وحالتي الحاضرة السيئة مادياً وأعيش براتب شهري لا يمكنني من تقديم الواجب لك يا فيكتوريا، وإني أحب كما تعلمين أن أساعدك مادياً من جيبي الخاص وليس من مال الأوقاف، وإني أصارحك أن الأخوان الحاضرين وفي جلسة خاصة وافقوا مبدئياً فيما إذا أنا رغبت أن أقدم لك كهبة بصفتك ابنتي الروحية (الأرض والدار التي تسكنيها الآن)، ولكن حيث أن هذا الملك من أملاك أوقاف البطريركية الأرثوذكسية، فإنني وضميري لا يسمح لي أن أصب عليك وزوجك وبيتك وخلفكما النار، بل أكتفي بمنحك وزوجك البركة في حياتي، وثقي أن روحي تباركك وزوجك وبيتك أينما كنتم وحللتم بعد وفاتي، وأتمنى لك وطلب من الله حياة سعيدة هنيئة مسيحية إلى الأبد، واعذريني عن قصوري الآن كما آمل أن يساعدني الوقت وأحصل على ما أتمكن الحصول عليه من أموالي الشخصية، فأساعد فيكتوريا حسب المستطاع، وبكى حنواً وعطفاً وشكرناه وتركناه وصحبه شاكرين.

[1] الذخيرة المقدسة: قطعة من صليب المسيح.

شهر العسل

قضيت أول ليلة مع فيكتوريا في دار النيكوفورية، وفي صباح الأحد الواقع ١٠ مارس ١٩٢٤، وكان الطقس ماطراً بصورة غير اعتيادية، ركبنا القطار من محطة القدس قاصدين القاهرة فوصلنا العصيرة عريش مصر، ووجدنا أنه من شدة الأمطار جرفت السيول جسر العريش الكبير، وهكذا اضطر القطار للوقوف، ولم نتمكن من مواصلة السير، بل بقي القطار واقفاً وقضينا طول الليل، وكان القطار ممتلئاً بالسياح الأجانب، وخوفاً من هجوم بدو البادية عليه، جاءت فرقة من الجيش لحراسته. أما أنا فقد بدلت تذكرة القطار ودفعت فرق بين درجة البريمو[2] وحصلت على (غرفة نوم في المطار) ونمت وفيكتوريا على خرير المياه ولكن كنا يقظين من الخوف كما أشيع بين موظفي القطار.

[2] البريمو: الدرجة الأولى.

وعند الصباح، رأت مصلحة السكة الحديدية أنه من الصعب السير، وقد يلزم من الوقت الكافي لأجل تصليح الجسر بصورة تؤمن سير القطار، وهكذا رجع القطار ومن فيه إلى يافا، ورد لجميع الركاب الإيجار بكامله. ذهبنا ونحن في حالة تعبة ونزلنا في فندق كلف لصاحبه سليم بركات والواقع في حي العجمي، وأقمنا ثلاثة أيام وليال إلى أن أخذنا خبر انتهاء تصليح الخط الحديدي على جسر العريش؛ فقطعنا تذاكر جديدة (رغماً عن تشاؤم فيكتوريا وإخواني بالقدس) الذين ألحوا علي بالعدول عن رحلة مصر، ولكن شاء القدر فتركنا يافا وقصدنا مصر بعد الاتكال على الله فوصلنا عند الساعة الحادية عشرة ليلاً تقريباً.

تعرفنا بالقطار بين القنطرة والقاهرة على رجلين يونانيين، وكانا في منتهى اللطف والأدب، ولما عرفا أننا عرب، ولم نعرف القاهرة بعد، ساعدانا عند وصولنا المحطة، وأخذانا في سيارة على نفقتهما الخاصة نفتش على فندق مناسب، ولكن بلا

جدوى لأن الفنادق كانت مملوءة بالسياح الأجانب إلى أن اضطررنا أن ننزل في فندق "سميراميس" المشهور والواقع بجانب كبري قصر النيل ، والجدير بالذكر أنني كنت منعت فيكتوريا من التكلم مع هؤلاء اليونان باللغة اليونانية ، فكانت تفهم جيداً كل ما كانا يتكلمان عنا مع بعضهم البعض. ولكن كنا نتكلم وإياهم بالعربي المصري ، وقد عرفتني بأنهما كانا يتحدثان عنا بالطيب دائماً ورفضا رفضاً باتاً ما كنت أنوي دفعه للسائق فشكرناهما جداً .

وقفت وفيكتوريا بجوار المدخل الرئيسي لهذا الفندق العظيم ، بعدما تركنا الرجلين اليونانيين ، وإذ وجدنا أن باب الفندق الرئيسي غريب عنا ، ولم نر مثله بعد ! ! ولم يوجد شبيه له في فلسطين. (وكان من الأبواب ذات الأقسام الأربعة الذي يأخذ الداخل قسماً منه ، وعندما يدفعه بيده ويسير يجد نفسه داخل المحل) وقفنا صامتين مدهوشين نترقب من يدخل هذا الباب من المسافرين . . . إلى أن فهمنا عمليته ، وهكذا شجعت فيكتوريا أولاً فدخلت في قسم منه وسارت ، وكنت أنا قد دخلت القسم الثاني فأصبحنا والحمد لله داخل الفندق ، وكل منا مغمى عليه من الضحك داخلياً ، ولحقت بنا خدمة الفندق بالحقائب.

قضينا مدة سبعة أيام في هذا الفندق الذي كان يتناسب وحياتنا من وجوه عديدة ، ودفعنا جنيهين مصريين عن كل منا يومياً .

كان معي عنوان خالة فيكتوريا فروسو أرملة أبي صوان من القدس ، وكان العنوان غير كامل ، إنما يذكر شارع الفجالة - القاهرة. وهكذا ركبت وفيكتوريا حنطور خيل وذهبت إلى هذا الشارع ، وهناك وأنا أتجول في السوق ، إذ التقيت صدفة بالسيدة فروسو حاملة طفلاً على يدها وهي تتسوق بعض لوازم البيت. فكانت -والحق يقال- موفقية كبرى بلقائها ، وبدأ العناق والقبل وأخذنا بعضنا إلى فندق يسمى رميز ودفعنا الحساب ، ورجعنا بالحقائب إلى بيتها وقضينا مدة ما تقرب من الشهر على الرحب والسعة ، وكأننا في بيتنا لما هي عليه من سيدة فاضلة وربة بيت بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، وإنا لم نزل نذكر هذه الضيافة ونقول سقياً لتلك الأيام ما أطيبها ! كانت خالة فيكتوريا متزوجة وعندها أطفال ، وكانت أولفا على وشك الزواج ، وقد اكتمل حظنا بوجود العزيز سليم الذي كرس وقته وهو معنا ، يرافقنا يومياً في التجول في القاهرة ومتاحفها ومنتزهاتها ومسارحها وشوارعها وآثارها وكل جميل فيها على الوجه الأكمل ، وبأسعار صحيحة لخبرته الواسعة في هذا البلد منذ خمس سنوات ، وكان ذلك لحسن حظنا بلا شك .

كان لي من الحظ قسط وافر بحضور ومشاهدة كروانة الشرق الآنسة أم كلثوم لأول مرة على مسرح الأوبرا ، وكانت ولم تزل في عهدها الأول في الموسيقى بلباسها الشرقي الشعبي ، وشعرها جدايل منساب على كتفيها ؛ فطربت لصوتها الحنون المشبع ، وكانت الفرقة الموسيقية التي تقودها بسيطة بعد . لم يسمح لي الوقت مع الأسف الشديد لترك فيكتوريا وزيارة أصدقائي الفنانين المشهورين في القاهرة أمثال سامي الشوا ، وزكي مراد ، وغيرهم ممن كنت آخذ غناءهم بواسطة الفونوغراف.

شاهدنا لأول مرة عندما كنا والسيدة فروسو وأولادها الأعزاء نتناول الشاي على فراندا فندق الكونتننتال المطل على الشارع العام ، شاهدنا موكب جلالة الملك فؤاد الأول ماراً لافتتاح برلمان مصر لأول مرة ، وكان ذلك اليوم عيداً قومياً ،

وأقيمت الزينات والمهرجانات الشعبية في جميع أنحاء القاهرة إلى ما بعد منتصف الليل ، كما تجول فيها من محل لآخر ، وكانت القاهرة وكأنها النهار من شدة نور الكهرباء الذي كان غريباً عنا بعد ، ولم يكن في فلسطين بعد .
حقيقة كانت رحلة شهر العسل رحلة ميمونة جداً قضيناها بالبر والإحسان. ورجعنا إلى القدس وكلنا ذكريات جميلة ، وكان الفضل فيها وجود السيدة فروسو وبيتها العامر ، ثم مساعدة العزيز سليم الذي قام بوظيفة الترجمان للسياح بأحسن قيام .

المباركة بعد العرس

أول عمل قمت به بعد الزواج مباشرة ، زينت جدران القاعة بقاعدة تأليف أخي وصديقي الشيخ نزار أبو السعود مؤلفة من بيتين من الشعر تنم عن ما كابدته من جد ومشقة مدة الخمس سنوات السابقة :

كل له أمل يسعى ليدركه	والحمد لله قد أدركت آمالي
والجد خير صديق في مساعدتي	والصبر قائد لي في كل أحوالي

وهي بخط يد صديقي الخطاط المعروف الأستاذ عبد القادر الشهابي .
ثم صورتين لأحب الناس إلي ألا وهما : والدي المرحوم جرجي جوهرية ، ووالدي الثاني كما كنت ولم أزل أدعوه المرحوم حسين بن سليم الحسيني الذي كان له الفضل في حياتي وعلمي وشغلي وفني ، خصوصاً بعد وفاة والدي .
ونظراً لعدم تنظيم حفلة عرس عند زواجي ، اضطررت لاستقبال المعارف والأصدقاء والأقارب في البيت بعد الزواج ، فدعوتهم بموجب كتاب خاص ، ولم أحدد وقتاً لهذه المباركة ، فعملنا ألفاً ومائتي علبة ملبس من أجود ما وجد من العلب آنذاك ، وابتدأنا بالاستقبال ليلاً نهاراً بصورة يعجز القلم عن وصفها .
ثم خصصت ليالي خاصة لبعض أصدقائي من موظفي الحكومة ، كل دائرة على حدة . ليلة ساهرة لدائرة بلدية القدس راغب بك وفخري وعزيز شبخاني ، وحمادة العفيفي ، وراغب العفيفي وتوفيق مراد ، وجبرا الخوري ، وطناس سلحيت ، وغيرهم . ثم دائرة العدلية وعلى رأسها علي بك جار الله ، وماجد بك عبد الهادي ، ومصطفى بك الخالدي ، والحامد أفندي البديري ، ومحمد يوسف الخالدي ، وفخري بك عاصم وميشيل ابيكاريوس وغيرهم . ثم دائرة الخزينة - والمعارف - وسدنة الحرم الشريف - والبوليس . وقد ختمنا هذه الحفلات بحفلة فاخرة كان الرقص الإفرنجي فيه على قدم وساق ، وذلك في العريشة وحول النافورة لدائرة حاكم القدس تجلى الطرب فيها ، وأخذ الحظ كل واحد من الحضور كل مأخذ تحت رئاسة رئيس الكتيبة المستر ماكفرسون ، ومتيا مروم ، وجورج مصرصع ، وأندريا قسيس ، وصبحي عويضة وحنا اسطفان ، وداود ياسمينة ، وعيسى بيوك ، وتادرس دعدوش ، وألفرد فري ، وشفيق مسلم ، ولطفي المغربي ، وفريدة حداد ، وإميلي خضر ، وجوليا خضر ، وجورج خضر ، ومناويل اندريا ، وغيرهم هداوي وخباز .

أما حفلة دائرة المالية التابعة لحاكم القدس فكانت بعد الظهر تضم: أحمد مراد، وحسين الأرناؤوط، وعبد الرازق قليبو، ونخلة كتن، وسليمان يونس، وسليمان الوعري، وشكري النشاشيبي، ومصطفى عوض، وبكر عوض، وإبراهيم شحادة العلمي، ويعقوب برامكي، وسابا شحاع، والشيخ شحادة أبو السعود، ورفعت أبو السعود، وفريد بك بن عبد السلام باشا الحسيني، وشكيب الدقاق، وغيرهم.

وقد كانت العائلات من مختلف الطوائف والأديان تزدنا مباركة لصاحب هذا الكتاب الذي أفنى عمره في سبيل حظهم،[1] وقضى الليالي، تلك ليالي السمر التي لم يزالوا يذكرونها عندما كان يترأسها وهو يعزف على عوده، ويغني بأعلى صوته إلى مطلع الفجر، ويترحمون عليها زمن عزوبته، وكان البعض يرغب في بقائي بدون زواج، ولكن مشيئة الله حكمت علي بأن أنزوي في بيتي وأدخل في حياة هادئة بإذن الله.

[1] حظهم: هكذا في الأصل، ربما المقصود خدمتهم.

هدايا العرس

كانت الحالة في البلاد لم تزل مشية من الوجهة الاقتصادية، وكانت الناس خارجة من نير التركي وما خلفته تركيا من المجاعة إبان الحرب العظمى، وعليه أقولها صراحة إني لم أحصل على هدية واحدة بمناسبة العرس من عائلتي، أو من عائلة فيكتوريا على الإطلاق، سوى بعض ما حصلنا عليه بطريقة سياسية من العم صليبا، وهو بعض قطع سجاد عجمي، وطقم صالون شرقي صنع مصر ليس إلا.

وإني أدون الهدايا التي قدمت لي من الأصدقاء، والتي أفتخر بها ليومنا هذا:

آنية من الأرجانيلاكي الثقيل تشبه صدفة الشل لتقديم الحلوى - من الصديق الأديب الأستاذ إسعاف النشاشيبي (مفتش المعارف).

زوج مزهريات فضة حجم كبير - من راغب بك النشاشيبي (رئيس البلدية).

طقم من الكريستال كووس شامبانيا - من الأخ فخري النشاشيبي (مساعد رئيس البلدية).

صينية مع ستة فناجين كريستال في ظروف فضية وإبريق فضة للكاكاو - من دائرة المالية العائدة لحاكم القدس.

قطعة أرض من أراضي أريحا الجديدة على كتف الواد نومرو ٢٦ - من العم محي الدين أفندي الحسيني.

طقم أقلام ذهبية ثقيلة حبر ورصاص - جميل بك الحسيني.

طقم شاي أرجانيلاكي ثقيل للشاي - دائرة بلدية القدس.

جاط فضي لتقديم الحلوى - من حسن زكي نسيبة.

طقم صيني صنع أوهانسيان بالقدس مؤلف من زهريات وأباريق وصحون - من الأخ لطفي المغربي.

ساعة كبيرة للحائط مع زوج زهريات نحاسية صنع دمشق - من دائرة حاكم القدس.

حقيبة ثمينة صنع إنجلترا من الكيموش لحفظ الكارت فيزيت - من حاكم القدس المستر لوك.

سجادة عجمية صغيرة الحجم "ساروك" - من الحاكم رونالد ستورس.

شانطة لحفظ الأوراق ومكتبة داخلية في غاية من الجمال - من علي بك جار الله.

عود شغل استنبول - من فخري بك عاصم.

مزهرية كريستال - من فايز حداد.

نرجيلة مع قالب فضي - من محمد يوسف الخالدي (القاضي).

مزهرية من النحاس الأحمر البريطاني - من المستر كاست.

أيقونة ذهبية صنع روسيا - المطران ايفذوروس.

متكأ أثري - الشيخ سعد أمين الأنصاري من سدنة الحرم وأستاذي في القرآن.

قرآن طبعة استنبولية - من موسى كاظم باشا.

مقص أثري منزل بالذهب - هارون ماني.

مزهريات زوج أثريات، جزمة صنع إنكلترا قديماً - دياب أفندي النشاشيبي.

منقل صغير استنبولي أثري - عبد الحميد قطينة.

قنينة أثرية للنبيذ صنع بوهيميا - من أستاذي الأكبر العود حمادة أفندي العفيفي.

صندوق صنع الدروز خشبي اثري - من وايتك وفستر (كولونية الأميركان).

ثماني ليرات عثمانية رشادي ذهب - من إسماعيل بك الحسيني .

لجن وإبريق من النحاس العجمي الثمين - من أبراهام امنيوف .

علبة سجاير فضية للجيب - من موسايوف .

ثلاث زبادي من الصيني الفرفوري - امدورسكي .

شال عجمي ثمين - من عمائيل يوسف .

صليب ذهب كبير مع سلسال ذهبي وداخله الذخيرة - من البطريرك ذميانوس .

قاموس إنكليزي وعربي الفضبان - من المستر لو (مساعد الحاكم) .

صورة زيتية لغبطة البطريرك ذميانوس - من بنايوت أفندي .

ثلاث بيضات منقوشة بيض عيد الفصح المجيد منذ سنة ١٨٩٣ - من رئيسة كنيسة الروس في جبل الزيتون .

قمقم ومنجرة من الفضة القديم - من المطران كيلاذيون .

صدر نحاسي عربي أثري - من أسعد شاهين .

المهباش الأثري - من يعقوب جميعان .

قاعدة (كل له أمل يسعى ليدركه) - من الخطاط عبد القادر شهابي .

طقم تطريز للشاي - راهبات الروس في كنيسة الطور .

ملاعق فضة شاي أثرية - جورج متّى .

دار النيكوفورية ومشهد القدس الغربية في بداية العشرينيات

قد نوهت للقارئ عن دار النيكوفورية في الفصل الأخير تحت عنوان بركة غبطة البطريرك . . . الخ ، وعليه لا بد أن أزيد القارئ علماً بخصوص هذه الدار فأقول :

١- إن دار النيكوفورية هي من أملاك البطريركية الأرثوذكسية بالقدس بناء متواضع جداً على الطراز القديم ومقامة على قطعة أرض لا تزيد على مساحة دونمين تقريباً. وإن موقعها شريف جداً، إذ أنها تقع على قمة جبل النيكوفورية من الجهة الشرقية، وتطل على مناظر خلابة أثرية، فإذا ما وقفت فيها ترى أمامك مدخل باب الخليل واضحاً جلياً وبجانبه بحذاء السور ترى قلعة الملك داود الأثرية وبحذائها جبل صهيون وما عليه من مؤسسات دينيه لها قيمتها، هذا من جهتها الشرقية، أما القبلية منها فإنك تتمتع بمناظر القدس من جهتها الجنوبية، فترى بوضوح جبل المكبر، وما أقيم عليه من عمارة المندوب السامي والكلية العربية، ومناظر حي الثوري والبقعة وطريق بيت لحم إلى دير وكنيسة مار إلياس. والجدير بالذكر أن فندق الملك داود وجنانه [حدائقه] يقع من جهتها الغربية، ولم يحد بيننا سوى أرض مشجرة بالزيتون من أملاك البطريركية، وكذلك يحدها من جهة الشمال عمارة القنصلية الفرنسية وحدائقها الخلابة. وقد صادف وجود كنيسة مارجرجس (الخضر عليه السلام) بجوار هذه الدار من الجهة الشرقية القبلية العائد لعائلة قرط المعروفة.

٢- إني أذكر منذ طفولتي أو حداثتي زرتها مع المرحوم والدي زمن الحكم العثماني كانت مستعملة مقهى لأحد أبناء الجالية اليونانية بالقدس، وقد قتل فيها رجل في حالة سكر، وهكذا اضطر مديرها أن يغلق المقهى ولم يسدد الإيجار إلى البطريركية، وهكذا كنت مع والدي بصفته موظفاً في المحكمة الكنسية آنذاك، وكان مسؤولاً على بيع عفش المقهى بواسطة المزاد العلني الحكومي واذكر أنه قد اشترى مرآة أثرية كبيرة مع الطاولة الرخامية النادرة التي لم أزل أحتفظ بها ليومنا هذا، وأصبحت من بعض الأثاث الحاضر في الدار فتأمل!

٣- وقد علمت من الأخ رؤوف لورنس من أبناء القدس المعروفين أن والده قد استأجرها واستعملها فرناً، وقد ربى في ساحتها الخارجية خنازير لمدة طويلة.

٤- شاء القدر أن تسكن خالة فيكتوريا السيدة فروسو أرملة أبو صوان وأولادها هذه الدار أثناء الاحتلال البريطاني، أو ما قبله بقليل، وقد صممت أن تترك القدس وأولادها وتقضي ما تبقى لها من العمر في مصر القاهرة بسبب وفاة ولدها جورج، وهكذا عرضت هذه الدار على جملة عائلات من طائفة الروم العرب، منهم سمعان الخوري البيضة، وأخوه قسطندي ويعقوب أبو حجر، وغيرهم على استئجار هذه الدار فرفضوا رفضاً باتاً، لماذا؟

لأن موقع هذه الدار كان مخيفاً جداً بسبب أنها وحيدة ومقامة على القمة، ولم يكن أحد يسكن تلك المنطقة من البشر سوى عائلة عيد نخلة قرط وأولاد أخيه. فلم يكن -آنذاك- أي سنة ١٩٢٢ عمارة فندق الملك داود، ولا مؤسسة جمعية الشبان المسيحية، ولا عمارة القنصلية الفرنسية، ولا مؤسسة الآباء اليسوعيين حتى، ولا الشارع المعروف بشارع الشماعة، ولم يكن شارع الملك جورج -آنذاك- بل كانت هذه الدائرة محاطة بأشجار الزيتون ليس إلا.

ومن عرف النيكوفورية -آنذاك- من أبناء القدس يفهم بأنها كانت محطة للسكارى ولعربدة السكارى والنشالين وأولاد الأزقة الذين كانوا يسرعون بلهفة فائقة هرباً من وجه القانون عندما يقومون بحوادث مشينة في المدينة. وإذا ما نظرت

إلى من يقطن محلات الأعمال حول هذه الدار، وخصوصاً ما بينها وبين موقع مدخل القدس من باب الخليل لا تجد سوى الإسطبلات والحدادين وما شاكلهم من الأشقياء.

٥- عندما عرفت بواسطة فيكتوريا بأن هذه الدار ستصبح خالية من السكان، وتحققت من تصميم السيدة فروسو على تركها القدس شجعت فيكتوريا على أخذ الدار بصفتها ملكاً للبطريركية الأرثوذكسية، وفيها يمكننا أن نسرع بمهمة الزواج ونوفر الإيجار للسكن بصفتنا من أبناء الطائفة.

وأما مسألة موقع الدار المخيف إلى ما جاء عنه من المبالغات، فهذا لا ينطبق على صاحب هذا الكتاب لأنني واثق بنفسي، إنني -والحمد لله- خالٍ من الأعداء ومعروف لدى جميع الطبقات، وأهمها طبقة الأشقياء والسكارى الذين قضيت معهم الكثير في الحقل الفني ومساعدتي لهم بحكم الوظيفة. وقد أحببت الدار المذكورة لأنها توافق مزاجي، وهي من بناء الطراز القديم عقد صليب، وكثافة جدرانها لا يقل عن المتر. وهكذا توقفت وأقنعت فيكتوريا وبالحال مددت يد المساعدة على قدر الإمكان ودفعت إلى السيدة فروسو مبلغ أربعة وعشرين ليرة مصرية مفتاحية، ولم يكن كلفة بيننا فقبلت شاكرة واستلمنا الدار ونزلت فيكتوريا ووالدتها فيها مع العلم بأن العم صليبا كان يقضي أكثر أوقاته في فندق السان جون لمصلحته. وقد أقمت حارساً من فلاحي قرى قضاء القدس، واسمه العم أبو صلاح، فكان ينام خارج البناء في الفسحة الشرقية بجوار النافذة للغرفة التي تنام فيها فيكتوريا، وهي عزباء قبل الزواج.

وبعد مدة وجيزة قد استطعنا بعد الزواج أن نحتل الغرفة الغربية التي بقيت مسكونة بعد سفر السيدة فروسو من قبل عائلة يونانية، كان رب بيت هذه العائلة يشتغل فراناً في دير الروم، وأصبحت الدار بكاملها لنا وباشرنا في تصليح كل ما كان لا يروق على فكري فيها من الداخل والخارج، وقد صرفت المبالغ الباهظة حتى أصبحت داراً محترمة بكل ما في الكلمة من معنى، كما سيجيء الحديث عنها في حينه من هذا الكتاب.

وحقاً إنه ينطبق علي هذين البيتين من شعر شوقي:

جنيت بروضها ورداً وشوكاً ... وذقت بكأسها شهداً وصابا

نعم قد جاهدت وصرفت الكثير في إصلاح هذه الدار ثم أضفت بناءً في الطابق العلوي للنوم وكان مدخله من داخل الدار شبيهاً بما يسمونها (بالفيلا). وقد بقيت معي منذ سنة ١٩٢٢ إلى آخر نهاية الانتداب البريطاني سنة ١٩٤٨، عندما تركنا القدس، وأصبحت -ويا للأسف- في حوزة اليهود تحت إشراف قنصل فرنسا المسيو نوفيل بموجب معاملة رسمية محفوظة بيننا إلى يومنا هذا، وقد أصبحت ليس داراً فحسب، بل متحف يشار إليه بالبنان، وقد كونت فكرة التحف عندما وقع نظري على العقد الصليب العربي الذي يتناسب وهدفي باقتناء كل ما هو شرقي فني، وإنني أقولها صراحة رأيت وعائلتي الخير وكل الخير منذ وطئت قدماي عتبتها، وكنت في كل يوم من دخولها فيها أرى مزيداً من فضل الله سبحانه وتعالى.



صورة السكوفورية : واصف جوهرية وعائلته في القدس في السكوفورية عام ١٩٤٥. في منتصف الصورة يقف واصف والى يمينه اخوه تليه ميسرى ابنة واصف. فخري اخ واصف يجلس على يمين الصورة وبيده طفل. المصور غير معروف. من مجموعة صور ابنة واصف آية جوهرية شاكر.

وكما قلت في هذا النص، إنني –والحمد لله– ليس لي أعداء، ولكن الأمر لا يخلو من الحاسدين، فبالإضافة إلى ما أشيع بين أبناء القدس، وأخص منهم أبناء الطائفة حتى أقرباشي بأنني حصلت على مبلغ عشرة آلاف ليرة مصرية من البطريرك بما يسمونها (دوتا)[1] أشيع أيضاً بأن الدار قد تسجلت رسمياً باسم فيكتوريا.

وأنا من هاتين الإشاعتين براء، والله يشهد وأبرئ نفسي للسببين الآتيين:

١– لو حصلت على مبلغ عشرة آلاف ليرة مصرية في سنة ١٩٢٤ عندما كنت لم أزل في أول العمر لما كنت بقيت في فلسطين والله العظيم، بل كنت وهو من المعقول جداً أن أرافق فيكتوريا وأقضي العمر في القاهرة بلد الفن والموسيقى العربية والمرح التي خلقت حتماً من أجله. وتخلصت من نير عبودية الوظيفة التي كانت لا تنسجم وميولي الخاصة براتب خبزنا كفافنا أعطنا اليوم.

٢– أما الدار، فإنني لم أزل احتفظ بعقود الإيجارة الأولى والثانية والثالثة حسب تجديدها ما بيني وبين المسؤولين من رجالات دائرة مالية البطريركية الأرثوذكسية، والمصدقة من قبل قوسيون البطريركية الذي كان يشرف على إدارة البطريركية بعد الاحتلال مباشرة ورئيسه المستر دافيد.

وانني لن أنكر ما لاقيته من مساعدة من قبل غبطة البطريرك ورجالات البطريركية لتسهيل سكني في هذه الدار طيلة هذه المدة، حتى أن شركة الفنادق التي قامت ببناء فندق الملك داود كانت تهدف لوضع البناء المذكور على القطعة ذاتها من الأرض المقامة عليها هذه الدائرة، وذلك من الوجهة التاريخية، كونها أقرب لمشاهدة قلعة النبي داود، ولكن فشلت ورفض طلبها من البطريركية وبالإجماع، وإني أذكر أنني كنت في الوقت ذاته أحافظ كل المحافظة على أملاك البطريركية بحكم وظيفتي كمدير مال القدس.

وأقولها صراحة إنه حصل لي مساعدة قوية في سنة ١٩٢٤ ومن رجالات لها قيمتها من دوائر المالية أن أدعي بملكية هذه الدار نظراً لعدم وجود سجل رسمي آنذاك باسم البطريركية، ولكن رفضت لعلمي بأن مال الوقف يهد السقف.

وبالفعل، عشت وعائلتي في هذه الدار، ولم يحدث لنا –ولله الحمد– شيء يعكر صفونا وكنا في كثير من الأحيان نترك السجاد العجمي ملقى على ساحة الدار الخارجية طوال الليل، وكذلك النحاس وغيره ولم يصبنا أحد بسوء.

وقبل أن أختم هذه الكلمة بموضوع دار النيكوفورية أجد أن أبين للقارئ حالة المدينة المقدسة خارج السور سنة ١٩٢٢.

١. عندما كنت أقف على سطح دار النيكوفورية أشاهد من الجهة الجنوبية قومبانية المونتفيوري القديمة، ومستشفى العيون لجمعية السان جون، وبعض منازل قديمة من حي الثوري، ومحطة السكة الحديد وبناء الكازخانة ملك البلدية طريق بيت لحم، ثم قصر الخليلي ومقابله حي البقعة القديمة حي الخامرة والوعرية وكولونية الألمان واليونان في البقعة إلى دير مار إلياس.

وقد تغير هذا المنظر فأصبح البناء متصلاً مع بعضه، يبدأ من عمارة جديدة لمستشفى عيون جمعية السان جون، والعمارة المعروفة بكنيسة ذكرى الاسكتلنديين على الموقع المعروف بالحريرية بجانب محطة السكة الحديدية، ثم عمارات جديدة تبدأ

[1] الدوتا: هي مهر الرجل في العرف اليوناني.

من حي الثوري، وعلى جهتي طريق القدس بيت لحم، إلى كومباية تلبيوت، ثم دار المندوب السامي والكلية العربية على جبل المكبر، وغيرها من العمارات إلى أن ترى التجديد المدهش والعمارات الأنيقة الملاصقة بعضها ببعض في حي البقعة الفوقا والتحتا.

٢. وكنت أشاهد أيضاً سنة ١٩٢٢ من الجهة الغربية لدار النيكوفورية أراضي دير الروم الشاسعة المشجرة بأشجار الزيتون إلى أن يصل نظرك إلى بعض المباني القديمة في حي مأمن الله ومقبرته، إلى طواحين الهواء بجوار دير راتزبون، وقد انقلب هذا المنظر رأساً على عقب، فقد أقيم على هذه الأراضي: شارع سان جوليان، ثم شارع الملك جورج، واكتظت هذه الشوارع بالمباني المشهورة مثل جمعية الشبان المسيحية، وفندق الملك داود، وكاردنال فيراري، وحي الطالبية المشهور، وحي كرم الرهبان، وحي الطالبية الإنجليزية،[١] ثم حي راحافيا رقم (أ) و(ب) و(ت)، إلى أن تصل إلى دير المصلبة. هذا عدا العمارات العظيمة التي أقيمت على هذه المساحة من الأرض التي كانت متصلة بأرض النيكوفورية وتابعة للبطريركية الأرثوذكسية، وقد بيعت -ويا للأسف- بواسطة قومسيون وبيعت غالباً إلى اليهود بأسعار متهاودة.

أما الجهة الشمالية لهذه الدار، فكنت ترى بعينك بداية من باب الخليل ثم سور المدينة المحاط بدكاكين البطريركية، ومن أمامه بنايات وقف العنابوسي الواقعة على تلة باب الخليل فقط.

ولكن بعد مرور بعض السنين أقيم حي الشماعة لصاحبه يوسف الشماع، وعمارات كثيرة مشهورة على طريق مأمن الله، بما فيها فندق الأوقاف المشهور، وقد حجبت هذه العمارات ما كنا نراه قديماً، ألا وهو بيوت آل عويضة، وأبو شاكر، وأرض الأرمن التي أصبحت من أجود بقع القدس ومن جملة عماراتها سينما ركس.

٣- أما الجهة الشرقية، فكنت ترى العمارات القديمة لوقف العنابوسي، والمقهى المعروف بمقهى المعارف، وبجانبه عند المنعطف المؤدي إلى دار النيكوفورية بعض الدكاكين الخشبية البالية التابعة -آنذاك- إلى الألمان، بالإضافة إلى بعض الخشابيات المقامة هناك، والمستعملة إسطبلات ومحادد.

وقد أزيلت جميع هذه الخرابات، وأصبحت عمارات لها قيمتها أمثال عمارة طنوس إخوان، ثم حلبي إخوان وغيرها من العمارات العظيمة التي تناسب وعظمة مدخل القدس الرئيسي باب الخليل.

حقيقة، إن القلم يعجز عن وصف ما وصلت إليه مدينة القدس من العمران في نهاية الانتداب البريطاني، وإني لم أزل أذكر المشاهد التي كنت أراها عند الاحتلال البريطاني مباشرة، والجدير بالذكر أنني احتفظ ببعض رسوم تاريخية فوتوغرافية تظهر للناظر حالة هذه المواقع بالذات، ما بين سنة ١٨٨٠ إلى سنة ١٩١٧.

انتقالي من قلم التحريرات إلى دائرة الإيرادات في السراي

بعد زواجي مباشرة سنة ٩٢٤، ونظراً لتغيب يعقوب البرامكي أحد موظفي دائرة الإيرادات وتراكم أشغاله في الدائرة، كلفت بأن أقوم بعمله هذا لمدة شهر، وبعدما رجع يعقوب كان يرأس هذه الدائرة السيد عط الله منطورة، وقد أعجب بعملي، ولما كان السيد نخلة مفتشاً لتخمين الأعشار -آنذاك- فقد اتفق وعطا الله منطورة على إبقائي في معيته، وقد

[١] من غير الواضح ماذا يقصد الجوهرية بحي الطالبية الإنجليزية، وقد تكون الإشارة إلى منطقة جبل المكبر القريب من الطالبية، الذي يحتوي على مقر الحكم العسكري ومعسكر اللنبي للجيش البريطاني.

عرض عليَّ هذا الفكرة، وبدأ -أبي نخلة- كان يشرح لي محاسن المالية وفوائدها وشجعني على قبول الوظيفة، وكان يعني ما يقول لحبه لي حقيقة، وهكذا قبلت وتعينت كاتب مفردات، وانتهى عملي كلياً من قلم التحريرات والترجمة والإدارة ... الخ. بعد الاحتلال البريطاني كان المسؤول عن دائرة الإيرادات السيد عبد الرزاق قليبو، وكان مساعده المرحوم أحمد مراد، وكان معه المرحوم حسين الأرناؤوط، ولكن عند انتقالي إلى هذه الدائرة كان المسؤول الأكبر والمعروف بمفتش المالية ومساعد حاكم القدس عطا الله منطورة، وكان المدير المالي محمد عارف القسطنطيني، وكان إبراهيم شحادة العلمي مأموراً للويركو، وأما الكتبة فهم سليمان يونس، وسليمان الوعري، والشيخ شحاده أبو السعود، وسعيد مختار، وسابا الشماع، ويعقوب برامكي، وموسى مورالي، وفريد بك بن عبد السلام باشا الحسيني.

وكان أمين الصندوق -آنذاك- جورج خضر بعد استلامه من داود الكارمي ومناويل أندريا، ثم تسلم الصندوق فيما بعد مناويل حبيب الحمصي. وكانت الآنسة ليديا طنوس المسؤولة عن الطباعة الإنكليزية. أما محصلو الأموال، فهم: شكري النشاشيبي، ومصطفى عوض، وبكر عوض، وعثمان أبو السعود، وإبراهيم حسون، وموسى كمال، وحسام الشرفا، ويحيى المظفر، وشكيب الدقاق، والحاج نامق القطين ويهودا يافي. وقد تعين فيما بعد عبد الرحمن الأنصاري، وحسين عنابلي، وداود القطب، ومحمود نامق النشاشيبي.

إن دائرة الإيرادات هي الدائرة التي كانت تفرض رسوم الويركو[1] على المدن والقرى في البلاد، ثم الأعشار على المزروعات وتحصل هذه الرسوم سنوياً بواسطة محصلي الأموال، وذلك بنفوذ حاكم القدس، وكانت زمن الأتراك بنفوذ المتصرف.

أما السجلات التي كانت تستعمل في هذه الإدارة فكانت:

أولاً: أساس الويركو أي تخمين الأملاك والأراضي الذي جرى في طول البلاد وعرضها منذ ٢٥ سنة، وكان يعرف بأساس التحرير للويركو بموجب نمر[2] متسلسلة لكل ملك على حدة.

ثانياً: ثم تجمع القطع من هذه الأملاك تحت الرقم المتسلسل، وتسجل في صفحة من سجل خاص يعرف بالخلاصة، وكل صفحة من هذه الخلاصة تكون لمكلف خاص، ومقابل كل رقم من القطعة المتسلسلة يظهر جلياً نوع الملك وحدوده الأربعة ومساحة الأرض وكيفية ما هو عائد عليها من رسوم الويركو، فإذا ما كانت الأرض تابعة للمدينة يدفع عليها مالكها ١٠ بالألف، وإذا ما كان نوعها من أراضي الميري المعدة للزراعة وتابعة للقرى فيدفع صاحبها ٤ بالألف من أصل الثمن المخمن لها.

ثالثاً: الدركم وهو عبارة عن سجل يحتوي على أسماء المكلفين بدفع الويركو حسب دوائر مختصة.

رابعاً: رسوم الأعشار من شتوي وصيفي وكيفية طريقة تخمينها في القرى، ثم تخمين الأعشار وسجلاتها.

خامساً: دفتر الشطب وهو حساب فردي لكل مكلف يظهر فيه القيمة المخمنة، أو بالأحرى الواجب تسديدها في السنة من المكلف وبحذائها بيان ما هو مدفوع من المكلف حسب رقم الإيصال وتاريخه، ورقم الإرسالية التي جرى الدفع بموجبها من قبل محصل الأموال، وكيفية توريدها إلى صندوق الحكومة.

[1] الويركو: ضريبة أراض عثمانية استمرت في الحكم الانتدابي لفترة ثم تم استبدالها بضريبة مباشرة للأراضي حسب تصنيفها.

[2] نمر: أرقام.

سادساً : أما دفتر أو بالأحرى سجل خاص يعرف باليومية ويسجل فيه يومياً ما يرد من الأموال لدائرة الإيرادات حسب أبوابها المتفرقة وبعد التدقيق يوقع يومياً من قبل مدير مال القدس.

سابعاً : الأستاذ دفتر أو بالأحرى سجل خاص يعرف بالأستاذ يسجل فيه يومياً أنواع هذه المبالغ ، ويجب أن يكون مجموعها موافقاً تماماً على قيد اليومية وموقعاً أيضاً يومياً من قبل مدير المال.

أما النماذج العائدة لهذه الأعمال فهي كثيرة ومنها نموذج معد لمعاملات الطابو ، فكان من الواجب أن لا تجري معاملة بيع أو إفراز أو رهن أو هبة أو غيره لدى دوائر الطابو إلا عندما تحضر هذه المعاملة ضمن الملف المخصوص إلى دائرة الإيرادات ، وعندها نقوم بالتحري عن اسم أو أسماء أصحاب العلاقة فيما إذا سددوا ما عليهم من رسوم الويركو والأعشار من سنين سابقة وحالية ، وعندها تدون قيود الويركو على هذا النموذج من الخلاصة ، ويعترف في تسديد الرسوم ويوقع هذا النموذج من قبل مأمور الويركو إبراهيم أفندي العلمي المسؤول الأول ، ثم من مدير المال محمد عارف القسطنطيني ، وأخيراً مفتش المالية عطا الله مطورة.

وفي كثير من الأوقات عندما يتراءى إلى مفتش المالية أو لمدير المال أن قيمة البيع المسجلة من قبل البائع والمشتري في المعاملة هي دون الحقيقة ، يطلب -والحالة هذه- الكشف على الملك المراد بيعه ، وتخرج هيئة معينة مؤلفة من مسجل الأراضي أو ما ينوب عنه ، ثم من مدير المال أو ما ينوب عنه. هذه هي الطريقة المتبعة في الحكم العثماني التي كانت قائمة بخصوص الرسوم ، وقد سارت عليها حكومة الانتداب فعينت جميع موظفي هذه الدائرة الذين كانوا زمن تركيا ، وحقيقة أنها طريقة عظيمة ، وقد اشتغلت فيها مع زملائي وعرفت كل أسرارها ، وذلك إلى نهاية سنة ١٩٢٨/٢٩ عندما ابتكرت حكومة الانتداب خطة جديدة حديثة تعرف بضريبة الأملاك في المدن والقرى التي كنت أنا من موسعي هذه الطريقة ، كما سيجيء البحث عنه مفصلاً في الفصول التي تلي في هذا الكتاب عند سنة ١٩٢٨ بإذن الله.

كاتب مفردات

شاء القدر أن أكون بوظيفة كاتب مفردات للويركو في هذه الدائرة ، وهي وظيفة متواضعة ، وقد أقبلت عليها بملل وفتور لأنه ليس فيها ما يتفق وميولي الخاصة ، وقد استلمت السجلات المختصة من دفاتر شطب الويركو والدوكمان ، وهكذا أصبحت منغمساً في الحسابات ، فكنت أجمع الدوكمات وفيها أسماء المكلفين للقرية حتى يظهر للدائرة إجمال المخصص لتلك القرية بعدما أعمل بالطريقة الحسابية والتحقق المفروض من سجل الخلاصة لكل مكلف.

والحاصل كانت هذه الوظيفة -والعياذ بالله- عكس ميولي تماماً ، ولكن الضرورة لها أحكام ، فقمت بواجبي أحسن قيام بعد الصبر والجلد والسهر على إنجاز ما كان يطلب مني بالدقة والإتقان. تأثرت جداً لقبولي الانتقال من مكتب التحريرات وتركي زملائي الأولين ، والجدير بالذكر في هذا الصدد أنني قد لاحظت منذ اليوم الأول من دخولي دائرة المالية أن أغلب زملائي من الموظفين الذين كنت وإياهم على صداقة متينة بصفتهم من أبناء مدينة القدس ، أصبح أغلبهم بعيداً عني ولا يكلمني إلا بالشؤون الرسمية وبكل تحفظ ، الأمر الذي جعلني أنفر منهم واضطررت إلى معاملتهم بالمثل لمدة طويلة ، وكنت

أعجب من ذلك مع أنني لم أعمل شيئاً يوجب معاملتي على هذا النحو ، ولكن مضت الأيام إلى أن تفهمت جلياً الموقف ، وذلك بعدما تفاهمت مباشرة من الأخ محمد عارف القسطنطيني بمناسبة جلسة سمر تجلى فيها الطرب وأخذ منا كل مأخذ بواسطة العود والكاس ، فقال – رحمه الله – "فلان الفلاني قد أسر في أذن كل من موظفي المالية عند استلامك الوظيفة أول يوم أن مجيئك وتعيينك بيننا كان مقصوداً ، لأن المستر رونالد ستورس الحاكم العسكري الذي يثق بك وصديقك هو الذي بعثك إلينا لتتجسس على كل منا في الدائرة ! ! . . ".

وكان وقع كلام الأخ محمد عارف القسطنطيني علي كالصاعقة ، والله يشهد أنني أمقت من كل قلبي حتى كلمة تجسس ، وأنا لم أخلق إلا لأصدقائي ووطني وفني الرفيع الذي يغنيني – والحمد لله عن القيام بأي عمل يسيء لإنسان . . وقد لمس الأخ أبو أحمد وشعر من براءتي وأصبحنا وإياه نذكر ذلك الفاسق . . والمعلوم لدى الجميع ما هي أخلاقه الذميمة وكنت والحالة هذه أعطف عليه ولكن مع الزمن تغير الموقف وأصبحت معبود زملائي من كتبة ومحصلي أموال وغيرهم حتى ظهرت الحقيقة وعرفوا ذلك الخسيس على علاقة وتأكدوا من إخلاصي بينهم .

وهكذا من وظيفة كاتب مفردات عينت في كل عمل صغير وكبير في هذه الدائرة إلى أن وقفت تماماً على جميع المعاملات ، وأصبحت خبيراً فيها ، وكنت أقوم بكل منها بتفوق وشرف حتى جاء اليوم الذي تعينت فيه مدير مال القدس كما سيجيء البحث عنه في حينه .

الحاج نامق القطب محصل الأموال الممتاز

كانت تحدث في هذه الدائرة حوادث مضحكة للغاية ، وقد قضينا أوقاتاً جميلة جداً لم نزل نذكرها ليومنا هذا ، فمثلاً كان الحاج نامق القطب أحد محصلي الأموال خفيف الظل والروح ليس في كل شيء ، بل في صلب وظيفته ، فكان إذا ما خرج إلى القرى فبوقت قصير بالنسبة لزملائه يعود راكباً على جواده والخرج ملآن من الأموال الأميرية ؛ رسوم ويركو ، وأعشار ، وقروض زراعية ، وضريبة حيوانات ، وغيره ، فكان له أسلوب خاص بين الفلاحين ، فيفلح بتحصيل الأموال حتى لقب بالغول .

وكثيراً ما كان يعين له نفراً من البوليس ليرافقه في وظيفته ، ولكن عند رجوعه إلى القدس كان يخاف أن يتركه البوليس فكان يحفظه في بيته[١] على الرحب والسعة إلى أن يدفع ما كان معه من أموال إلى صندوق المالية ، ثم يقفل راجعاً ويستصحب البوليس ذاته إلى القرية . . . وهكذا . وكان عندما يباشر بتحصيل الأموال من المكلفين الفلاحين لا يتحدث إلا بالرسوم والويركو ، فإذا ما حدثه الفلاح عن موضوع آخر خارج عن وظيفته ، يضع يده على أذنه ويعتذر قائلا "أنا أطرش وسمعي خفيف . . . " ، فيسكت الفلاح بدون جدال ، وكان – رحمه الله – عندما يصل إلى القرية يهيئ لنفسه أولاً كل أسباب الراحة فيشتري الدخان وعلب اللحم أو السمك السردين والبيض والسمن حتى يؤمن طعامه . . . ويضع الجميع بجانبه في المضافة احتياطاً للطوارق ، ثم يقسم القيمة التي ابتاع فيها هذه الأشكال بالعدل على جميع المكلفين ، وعندما يجيء اسم

[١] المقصود للحراسة.

محمد حسن مثلاً والمطلوب منه ثمانية عشر قرشاً يقول تسعة عشر قرشاً أي قرشاً واحداً لغذائه وراحته بالإضافة إلى المبلغ المطلوب، ويسلم المتكلم إيصالاً بثمانية عشر قرشاً رسمياً وهكذا. وقد صادف معي هذا الحادث المضحك:

لما كان الحاج نامق القطب من عائلات القدس القديمة ولها الحق بحمل علمين من الأعلام الثمانية التي تحمل في مهرجان نزول البيرق في موسم النبي موسى من القدس إلى مزار النبي موسى بجوار أريحا، كنت واقفاً مع طائفة من زملائي في دائرة المالية نتفرج على موكب الأعلام، أذكر منهم محمد عارف القسطنطيني، وإبراهيم شحادة العلمي، وحسين الأرناؤوط، ويعقوب برامكي، وسابا الشماع، وسليمان بدر يونس، وسليمان الوعري، وسعيد مختار، ومصطفى عوض، وبكر عوض، وشكري النشاشيبي، وذلك في سنة ١٩٢٧، إذ مر العم أبو يعقوب لابساً العمة والجبة، وراكباً جواده وفي يده العلم الكبير مع نخبة من أعيان الدجاني، ويونس، وقليبو، وعلى رأسهم سماحة المفتي، وكانوا في آخر الموكب المؤلف من أولاد البلد والسيارة المعروفة بسيارة القزاز والدرس، وفرقة موسيقى دار الأيتام. كنا واقفين بجوار هوسبيس النمسا، وعندما اقترب منا العم أبو يعقوب قلت له بأعلى صوتي:

"في فلاح من بيت حنينا كان يسأل عليك بده يدفع لك الويركو" ... وقد لفت صوتي الكثيرين من أعيان الموكب، وما أكملت هذه الجملة إلا ونسي العم أبو يعقوب الموقف الذي كان به وبحكم الصنعة قال لي إيه بالله وينو ... وأظهر نفسه بأنه على وشك النزول من على ظهر جواده وترك العلم المقدس الذي بيده ... وهات يا ضحك من جميع الحضور، وأصبح هذا الحادث ذكرى على لسان الجميع، إن دل عن شيء فهو يدل على جرأة العم أبو يعقوب وكيفية حركاته لتحصيل أموال الدولة، وقد بلغ هذا الحادث إلى المفتش المستر عطا الله منطورة الذي نقله بدوره إلى حاكم القدس المستر ستورس، فحضرت أنا وأبو يعقوب بين يديه وهو مغمى عليه من الضحك إلى أن سلم بيده على العم وشكره على اجتهاده .. رحمه الله.

الشاويش الكردي زمن تركيا

على ذكر طريقة العم الحاج نامق القطب في تحصيل الضرائب من المكلفين تذكرت الحادث الواقعي الذي حدث بحضور المرحوم والدي زمن الحكم العثماني -زمن الظلم والاستبداد- كان قد حدثني والدي عنه فقال:

صادف أن قرى بني زيد من قضاء رام الله[1] أصرت على عدم دفع الضرائب، وقد تراكمت مبالغ مستحقة عليها عن سنين سابقة إلى أن عينت الحكومة فرقة من الجندرمة مرافقة لبعض موظفي المالية، ومن ضمنهم المرحوم والدي لتحصيل المبالغ المستحقة بالقوة خوفاً على شوكة الحكومة تحت ظل الطاغية السلطان عبد الحميد. وكان أحد الجندرمة بوظيفة شاويش من أصل كردي لا يتكلم إلا التركية، وقد أقنع جماعته بأنه هو المسؤول عن تحصيل الضرائب هذه حسب طريقته الخاصة وبوجه السرعة، وما عليهم إلا إعطاء الحرية بالعمل فوافقوا عليها.

وصلت هذه القوة وكنا كانوا يسمونها بآلة الظلمة ... إلى أول قرية من القرى المتمردة من بني زيد، ونزلت كالعادة في مضافة القرية، فحضر في الحال الفلاحون وبدأ الكاتب وقرأ الاسم الأول من المكلفين بدفع الضريبة، فمثلاً كان اسمه محمد حسن

[1] ناحية دير غسانة والقرى المحيطة بها.

. . . فعندما وقف محمد حسن وكان من وجوه الأهالي المحترمين بينهم راخي لحيته إذا قفز الشاويش الكردي بمهارة فائقة وركب على كتفيه وبدأ يضربه بالكرباج قائلا ولان ديوس مصاري . . وبعدما عرف هذا المبلغ المطلوب ذهب وعلى كتفيه راكبا الكردي من المضافة في أزقة القرية إلى أن وصلا إلى بيته وهناك وهو على هذا الحال المخزي بين زوجته وأولاده طلب من زوجته أن تخرج صرة النقود من تحت الخابية فأخذها وحلها وأخرج منها المبلغ وسلمه في الحال إلى الشاويش الكردي من فوقه وبعدما استلم الشاويش المبلغ بكامله نزل عن كتفيه وهو يكيل له الشتائم التركية من الوزن الثقيل، ورجع إلى المضافة.

ثم نادى كاتب المالية عن اسم آخر مثلاً حسن موسى مطلوب منه ثمانية وأربعين قرشاً فما كان من هذا الشاويش إلى أن جر المكلف بواسطة الجندرمة وربطه من (بيضه . .) بحبل دقيق وسحبه على مرأى من أهالي القرية في الأزقة إلى أن وصل به إلى بيته وهو على هذا الحال المخزي المفزع، وبعدما استلم المبلغ منه عدا ونقدا بحضور عائلته أحل الحبل. وقال ما تيسر له من الشتائم أيضاً - من الوزن الثقيل ورجع تواً إلى المضافة لكي يتفنن في كيفية تحصيل الضرائب.

وبواسطة هذه التمثيلية البشعة قد أرسلت أهل القرية رسولاً في الحال إلى القرى المجاورة تنبها بفظائع ذلك الشاويش الكردي وتنصح الأهلين بتحضير المبالغ على الفور . . . وهكذا كان. فعندما ينادي كاتب المالية على اسم المكلف في المضافة تجد ذلك المكلف واقفاً بكل يقظة وفي يده النقود الكثيرة فيدفع منها في الحال إلى الشاويش داخل المضافة خوفاً من ركوبه . . . . أو ربط . . . في الحبل إلى أن حصلت الحكومة جميع المتراكم من بقايا الضرائب في مدة وجيزة من جميع قرى بني زيد، ورجع رجالها إلى القدس يضحكون من نشوة النصر.

هذه صورة وجيزة عن مدى ظلم واستبداد حكومة بني عثمان الاستعمارية التي حكمت البلاد أكثر من أربعة قرون، حكمتها بالحديد والنار إلى أن جاءت آخرتها وتحقق فيها قول من قال:

دار الظالمين خراب ولو حين بعد حين

عائلة المرحوم يعقوب سعيد بالقدس

إن لمن دواعي فخري أن أذكر أن لي معارف كثيرة لا تحصى من العائلات من مختلف الطبقات والأجناس والطوائف، وقد ساعد على ذلك: أولاً شغفي بالفن -فن الموسيقى الرفيع- وحبي له وحب الكثيرين منهم لاستماعه، وتفانينا بالارتواء من منهله العذب، وثانياً عملي بوظيفتي في حكومة الانتداب؛ ذلك العمل الذي يقضي أن أدخل بيوت العائلات وأحتك بهم، غير أن زيارتي لتلك العائلات يسرني أن أقول إنها تعدت المرة الواحدة التي تفرضها الوظيفة.

ومن العائلات التي أصطفيتها وارتحت إلى الإكثار من زيارتها والاجتماع بها عائلة المرحوم يعقوب سعيد الكريمة بالقدس، فترني -والله يشهد- أجل السيدة الوالدة أم جورج كوالدتي، وقد بادلتني هذا الوفاء، فكانت تقول أن لها خمسة أولاد وواصف سادسهم . . . وكنت لم أزل أعتبر الآنسات كشقيقاتي والأخوان كإخواني. وإن زواج الأخت شفيقة من

ابن عمتهم جورج أدرنلي وزواج الأخت جوليا من ابن خالتهم طناس سنونو هو دليل واضح على ما كان أيضاً من عظم المودة العائلية منذ القدم بين المرحومين جرجس جوهرية ، ويعقوب سعيد ، وبهذا فقد صدق من قال "محبة الآباء تتصل بالأبناء . . ." .

أخلاق عالية . . . نفوس أبية . . . وخصال حميدة لدى جميع أفراد هذه الأسرة ، فالكل على جانب عظيم من الأدب والثقافة ، ولذلك مجلسهم لا يمل ، فإذا قيلت نكتة قدرها الجميع حق قدرها ، وإذا أنشدت أغنية أقبل الجميع عليها وتذوقوها معنى ومغنى ، ذلك مما يدل على سلامة الذوق وتقدير الفن .

كنت أزورها منذ عزوبتي ولم أزل أحتفظ بدعوات الأخ سابا لإحياء حفلات عيد مولده السعيد من كل سنة عندما كان سابا في أوج علاه . . . وكنت بالطبع أصطحب عودي ضمن "ثورة المرحومة الوالدة . ." أي بيت العود . وإني لم أزل أذكر شطحة قالونية بمناسبة خطوبة الأخت فيكتوريا من الآغا باسكال بن الخوري سوتيري حنانيا ، وعلى الأخص عند رجوعنا القدس في مساء ذلك اليوم ، وأنا أنشد قصيدة "يا راهب الدير بالإنجيل خبرني عن البدور اللواتي عندكم نزلو . ." الخ. بأعلى صوتي ، ومن على سيارة الخيل الحنطور في شوارع يافا المكتظ بالبشر لما كنا عليه من حظ وطرب ، ومعنا عائلات حنانيا ودبب وسلامة وغيرهم . . . فسقيا لتلك الأيام ! ومثل هذه المجالس كانت كثيرة في رأس بيت جالا ودير الخضر وغيرها .

ولحسن الحظ تواصلت هذه المودة والزيارات لبعضنا البعض ، وذلك بعد زواجي لما كان للإخوان سعيد من معرفة وصداقة مع فيكتوريا زوجتي زمن الدراسة في مدرسة مار ديمتري للأناث بالقدس. قضينا أوقاتاً جميلة وحفلات بديعة في بيتهم حي المصرارة مما يعجز القلم عن وصفها . ثم زيارات رسمية بمناسبة أعياد أفراد هذه العائلة ، وهي –والحمد لله– أعياد كثيرة في بحر السنة كنا نبدأ بعيد القديس جيورجيوس ، فسابا خصوصاً يوم كان بوظيفة مدعي العام بالقدس ، فحنا ، فصليبا . . . وننتهي بعيد التجلي عندما كنت أشارك الأخت جوليا صاحبة العيد بالحسرة على انتهاء الصيف . . . فكان بيتهم يدعى –آنذاك بيت– الأمة .

وإني لا أبالغ إذا قلت إننا كنا في الحفلات الخاصة مرة أو مرتين في كثير من الأوقات في الأسبوع ، فكانت تمر بنا ساعات الليل وأنا أعزف العود وأغني بأعلى صوتي في ليالي الصيف ، ليس من داخل الغرف فحسب ، بل من إحدى شرفات البيت الخارجية المطلة على شارع حي المصرارة الرئيسي ، وإني أعتقد بأنني كنت –والحالة هذه– سبباً في إقلاق راحة البعض من أهالي ذلك الحي ، كما كنت مجدداً للصبا والخيال والأمل المنشود لمن وهبه الله الذوق السليم من أهالي ذلك الحي أيضاً . . . أما زيارة هذه الأسرة لبيتنا ولو كانت قليلة ولكنها –والحق يقال– خلفت لكلينا أثراً لا يمكن للأيام أن تزيله لما كانت هذه الزيارات مملوءة بالطرب والسرور منذ الصباح إلى ما بعد منتصف الليل ، ودعيت بليالي النيكوفورية .[1]

[1] النيكوفورية: هو الحي الواقع شرقي الطالبية في القدس الغربية الذي انتقلت إليه عائلة الجوهرية في تلك الفترة.

كنت وعائلتي ولم نزل نشارك هذه العائلة أفراحها وأتراحها وتبادلــــ الإخلاص، فكنت بطل روايـة غرام الأخ حنا وايلين، فحافظت على جميع النقاط الحساسـة التي داركتنا [واجهتنا] في جميع مواقع بل بالأحرى معارك كلا الفريقين إلى أن كتب لنا النصر في النهاية ... وكم اسودت وجوه ولكننا – والحمد لله – ذقنا نشوة النصر.

وإن أنس لا أنسى ما بذله من جهاد في سبيل اكتشاف الأخ سـابا لأميركا ... فكانت ليالي لا بل رحلات لم يزل الكثيرون من العائلة والأصدقاء يذكرونها ليومنا هذا في يافا وحيفا زمن سكن الأخت فيكتوريا، فكنت أترأس حفلات الطرب على أمل زواج سابا، وأغني إلى مطلع الفجر إلى أن تم الاجتماع نهائياً، وهو اجتماع عنترة وعبلة وفقهما الله. ويوم كنا – ولا تسل كيف كنا – في جو رام الله البديع نتناجى من الهوى ما نشاء ... وبالحقيقة من الصعب وصف تلك الأيام التي قضيناها سوية مع نخبة من عائلات القدس ويافا المقربين من آل سعيد خوري منطورة سلامة دبب حنانيا وغيرهم. وإني أذكر ليلة عندما حان وقت النوم، فقد استبد سابا وفتح لنا ثلاث نوافذ لنأخذ الهواء الطلق في غرفة النوم، فتحملت هذا المصاب لما كنت عليه من سكر بعد الشرب والغناء وأصبحت أمقت حتى الهواء العليل ... ولكن يا حبذا لو بقي الحال! فقد دخل الأخ محفوظ وكان لم يزل طالباً في كلية بيروت وبعد المداولة بينه وبين سابا أسفرت النتيجة أنه أقدم على فتح نافذة علوية من جهة الشمال حتى خيلت بأن الغرفة امتلأت – والعياذ بالله – بالغيم.. فقمت من فراشي أحتج على عملهما هذا المشين بأعلى صوتي وعربدت، الأمر الذي سبب ضحك جميع هذه الأسرة وهم موزعون في غرفهم فقاموا بعدما أغلقنا النوافذ وبلشنا بالعزف والغناء وشرب الكاس إلى مطلع الفجر ... وكانت هذه السهرة من العمر، وأصبحت يضرب فيها المثل ليومنا هذا.

وإني أختم هذا المقال بالحادث التالي مع الأخ سابا: صادفت الأخ سابا واقفا مع زملائه القضاة أذكر منهم علي بك جار الله وماجد بك عبد الهادي وإسحق أفندي البديري واقفين بجانب دائرة البريد بالقدس. فطرحت السلام ثم التفت إلى سابا وقلت له "يا أخي سابا بتسلم عليك أمك!!"، فدهش الحضور ونظروا سوية إلى سابا متسائلين ما هذا؟ أجابهم "هذا صحيح والله هالملعون بيروح لبيتنا أكثر مني ..." فأخذ الجميع بالضحك ثم انصرفت وأذعت الخبر على العائلة.

حياتنا المرحة في دائرة المالية وذكريات طرائف بين الزملاء

كانت هذه الدائرة مؤلفة من اثني عشر كاتباً وحوالي اثني عشر محل أموال ومأمور حجز كما جاء أعلاه، وكان الرئيس المستر عطا الله منطورة المعروف بمفتش المالية -آنذاك- ولما كنا من بلد واحد ونظراً للتآلف والانسجام أصبحنا وكأننا أخوة وأشقاء نقضي أوقات فراغنا بعد انتهاء الوظيفة في اجتماعات خاصة تتداول فيها النكات والغناء والكاس.. بصورة كنا نحسد عليها من قبل دوائر حكومية أقوى، وها أنا أذكر بعض الطرائف التي كانت تحدث معنا في الوظيفة وبعدها.

يعقوب برامكي

كان أخي وصديقي يعقوب ذا أخلاق حميدة، كريم النفس، طيب القلب، مخلصاً لأصدقائه مستقيماً في حياته لا يتدخل في شؤون غيره محباً لعائلته، وكانت له مزايا خاصة نادرة بالنسبة لزملائه، وعليه كان هدف الجميع بما هو عليه من نظافة وأنفة ووسواس. فمثلاً، كان يخاف أن يتناول أي شيء خارج بيته بداعي أنه يحتوي على ميكروبات ... فإذا ما جلسنا حول مائدة المشروب يستعمل (عود الكبريت) ويلتقط قطعة الجبن أو غيرها بدلاً من الشوكة التي يشك في نظافتها.

في الصباح الباكر يحضر إلى الدائرة ويباشر في تنظيف الطاولة التي يجلس عليها لإيفاء وظيفته ويمسح الأقلام بكل ما أوتي من قوة بواسطة العقاقير المطهرة مثل الكحول البيضاء والبرمنكات وغيرها، ولا يتناول شيئاً من الطعام لأن يديه تكون حسب اعتقاده وسخة، بل يبقى حتى يرجع البيت في المساء وهناك النظافة قبل الشروع في الأكل، الأمر الذي أزعج شريكة حياته كما هو معروف لدى الأقارب والأصدقاء، وله مواقف مضحكة جداً في هذا المضمار سامحه الله ووفاه.

والجدير بالذكر في هذا الصدد أنه كان يستعمل ورق الجرائد على جسمه من تحت الفنيلة خوفاً من أخذه الهواء محافظة على رئتيه ... ولما كان أثناء الانتداب البريطاني محذوراً علينا نحن معشر الموظفين التكلم في السياسة في الدائرة، فقد نصحته مرة على عدم استعمال الجرائد خوفاً من طباعة ما هو عليها من مقالب سياسي على جسمه، الأمر الذي يضر بمصلحته الخاصة، وهو ذو عائلة كبيرة ليس لهم من يعولهم إلا الله وهو ... وهكذا أخذ بنصيحتي وتوقف عن استعمال الجريدة، بل أخذ بشراء الورق الناصع الأبيض من المكاتب واستعمله على جسمه ليتجنب السياسة ... فهذه صورة صغيرة تعرف القارئ بطيبة قلب أخينا يعقوب برامكي، وهو مثال من أمثلة كثيرة.

كان يعقوب يتحمل المزاح ويتفهم النكتة ويقدرها، وكانت له مواقف ساذجة أحياناً، ما يجعلني أن أنوفز من تصرفاته هذه، فأبادره بالشتائم من الوزن الثقيل بحضور كل من الموظفين والمكلفين في الدائرة.. فيأخذها ببسامة وابتسامة ولم يغضب أبداً، حتى أنني أذكر أنني قلت له مرة (والله يا يعقوب أود أن أسافر لمصر لأحصل على كالوج شتائم حديثة لأصبها عليك في المناسبة، لأنني أعتقد أن كل ما معي من هذه الشتائم لا يفي بما تتطلبه)، وأيضاً تجده يضحك ولا يبالي مع العلم بأنه كان لا يسكت لأي زميل آخر، وإني أذكر أن الأخ عشور عشور حاول أن يغازله بمثل هذه الأساليب، ولكن سرعان ما لم يرض يعقوب على الهوان ... بل غضب وكال له الصاع بصاعين، وصمم من كل قلبه بأن يشكوه للمحاكم ... وعندما أجابه عشور بأنك لا ترد على واصف وهو يشتمك في الساعات والدقائق، أجاب (يا شيخ ... بالله عليك، هذا واصف وليس أحداً سواه.. آه وأضاف قائلاً "واصف معه فرمان!".

يعقوب ومحصل الأموال حسام الشرفا

كان يعقوب أعلى مني بدرجة في الوظيفة عندما كنت في دائرة المالية، وقد صادف نهار خميس الغسل ذلك اليوم المشهور بالقدس جميع الطوائف المسيحية، والسياح القادمين لزيارة الأماكن المقدسة مجموعة في جوار كنيسة القيامة، ثم رجوع موكب الاحتفال بموسم النبي موسى إلى القدس، وما يحتوي هذا الاحتفال من مسلمين، كنت في الدائرة مع عدد قليل جداً

من الموظفين أندب سوء حظي وأفكر بهذا اليوم، وأنا كالمسيحيين لا أستطيع الخروج من الوظيفة وأشاهد هذه الاحتفالات مع أصدقائي وألعن حياة الموظف، وإذ بالجرس يقرع، هذا الجرس هو جرس المستر منطورة المفتش يرغب حضور يعقوب.

فبالحال لبس يعقوب الجاكيت وذهب فوراً ثم رجع ولونه مكفهر منزعجاً وأفكاره قلقه إلى الدائرة وقال:

شو بدي أعمل ... من أين أخلق له حسام الشرفا ... فجئت له مطيباً خاطره وفهمت منه أن المستر منطورة ذلك المفتش القاسي الصارم يرغب في الحال مواجهة محصل الأموال حسام ولكن لا يوجد أحد -آنذاك- لجلب حسام لأمر مهم.

جئت ليعقوب فقلت له ولك إحنا لبعض ... لماذا هذا الهبل فأنا الآن أذهب وآتيك به في الحال لا تزعل يا يعقوب. فعندها هدأ روعه وقال بالله عليك يا واصف هل يمكنك ذلك، فقلت ولو .. وبالحال أخذت الطربوش ونفدت من السجن وقلت في نفسي الحمد لله ... ولكن أين؟ ... فوالله لو رأيت بأم عيني حسام خارج الدائرة فلا أبلغه الرسالة في هذا اليوم العظيم ... وهكذا نزلت أولاً إلى مقهى باب الأسباط والتقيت بكثير من الأصدقاء هناك وشاهدت وإياهم موكب النبي موسى وهو راجع من أريحا، ثم جئت إلى حارة النصارى وشربت الأركيلة في دكان العم شكري ديب بين أصدقائنا عائلات حنانيا وسعيد وسلامة وغيرهم ونحن في هرج ومرج لمدة طويلة.

ولكن هنا بيت القصيد فماذا جرى بعد تركي الدائرة ويعقوب؟ .. افتقدني مدير المال محمد عارف القسطنطيني فسأل يعقوب الذي أجابه بأنه أرسلني لجلب حسام الشرفا إلى المستر منطورة وهنا قامت قيامة مدير المال الذي دهش جداً من الخبر وقال له (ولو يا يعقوب ... هل واصف هو مراسل عندك ... والله لأبلغ حضرة المفتش عن هذه الأعمال الصبيانية)، وعندها خاف يعقوب من النتيجة ورجاه بأن لا يبلغ المفتش، بل هو على أتم الاستعداد للذهاب وإرجاع واصف. وهكذا كان، فقد لبس يعقوب الجاكيت والبرنيطة وخرج من الدائرة وكأنه ألبس المسعور يسأل كل من عرفه في الشارع عن واصف. فهذا يقول له الآن رأيته في خان الزيت ... وآخر يقول له الآن تركته في باب الأسباط، وهو يذهب إلى كل الأماكن إلى أن اهتدى عليّ وأنا داخل دكان العم أبو جورج ديب فبادرني قائلا:

س ولك وين حسام؟ .. الدنيا الظهيرة ..

ج حسام مين؟

س حسام الشرفا

ج يلعن .. وأبو حسام .. هل أنا مراسل عندك وعند منطورة وعلى كل حال لم أجده فعندما أجده أحضر وإياه!

س يا أخي بدناش قوم للعمل منشاني.

ج لا والله لا أرجع إلا متى وجدت حسام .

س طب قوم أشتري لك شوكولات . . وبالله عليك ارجع الدائرة قبل أن يعرف المستر منطورة .

ج لا ليش خليه يعرف ويعرفك ويعرف شغلك الأهوج كان .

س طيب خذ نصف ليره وخلصنا قوم ! !

وكان مشهداً غريباً والعائلات وجميع من في الدكان هات يا ضحك ! ! إلا أن انتهى الفصل ورجعت ويعقوب ناقصين حسام !

يعقوب برامكي والأعشار

كما بالإضافة إلى قيود الويركو نسجل قيمة العشر المرتب حسب التخمين لكل قرية من قرى قضاء القدس ضمن سجلات خاصة ، وعندما كان يعقوب يملي عليّ اسم القرية وصنف الحبوب كان بصورة فظيعة تلفت أنظار كل من في الدائرة من موظفين ومراجعين ، فكان يكرر اسم القرية بأعلى صوته إلى أن ينتقل لاسم قرية أخرى ، مثال : قطنة . . . قطنة . . . قطنة . . . وهكذا ، ثم حمص . . . حمص . . . وهكذا ، الأمر الذي يزعج كل من سمعه ، ما اضطرني إلى أن أوقفه عن هذه الخطة ، ولكن بالقوة ، فقد خصصت مسطرة مستطيلة تشبه العصا ، وبعد الإنذار في أول الأمر كنت أضربه على يده عندما يكرر اسم القرية أو صنف الحبوب ، وكأننا تلامذة مدرسة ، وكان يفتح لي يده بطيبة خاطر بحضور الجميع بصورة تدهش الحضور الذين يكونون في حالة غيبوبة من شدة الضحك . . . إلى أن عدل عن هذه الطريقة .

يعقوب برامكي والـ (Valuation Sheet)

قد صادف أن فلاحة من قضاء القدس لها مصلحة في قيد ضريبة الأملاك ، فجاءت الدائرة وسألت يعقوب أفندي لإعطائها صورة عن قيد الضريبة . يظهر بأن يعقوب لم يرق له منظرها القذر فغلب عليه الوسواس الخناس ، وأخذ الحذر للأمر ، فدار وجهه في الحال وهو لم يزل يتكلم معها دار وجهه إلى الحائط ، وقال "يا أختي اسمك مش داخل في الـ (Valuation Sheet) ، أي سجل قيد ضريبة الأملاك" .

قال هذا وهات يا ضحك من كل فرد من الحضور ، وكانت الفلاحة هذه هي إنكليزية الأصل ، الأمر الذي جعلني أثور عليه ، وكنت بعيداً عنه ؛ أي في الجهة المقابلة له من الغرفة الوسيعة الأرجاء ، فحملت تلك المسطرة التي تشبه العصا في يدي اليمنى ، وعزمت أن أضربه بها من بعيد وأنا أشتمه شتائم من الوزن الثقيل تناسب هذه الأعمال . ولكن لشدة خوفه المسكين نزل بجسمه إلى الأرض خلف الطاولة يتوسل إلي بأعلى صوته قائلا "لا . . لا . . لا واصف بلا براده لا تضرب" ، وأنا لم أزل أتربص له كي يرفع قامته فأضربه بالمسطرة المعهودة التي كانت بيده تحت الضرب . . . ولكن شاء القدر وهنا بيت القصيد إذ دخل الغرفة بسرعة المستر منطورة مفتش المالية ورأى جميع الحضور بصورة غير طبيعية ، وقد سمع صوت

يعقوب وهو يستعطف بواصف . . . ويتوسل إليه أن يكف عن ضربه . . . فكان مشهداً غريباً . أما أنا فبالحال أنزلت يدي اليمنى وبدأت أخاطب المستر منطورة قائلا "هذا صوت يعقوب أفندي، ثم بأعلى صوتي خاطبت وقلت يعقوب أفندي قم فهذا مستر منطورة . . ." إلى أن ارتفع جسم يعقوب فكان وجهه أصفر من شدة الفزع، وذهل عندما رأى المستر منطورة أمامه.

أما المستر منطورة فقد أبى أن يعرفها . . . وسأل يعقوب ماذا جرى؟ ! ! لماذا كنت تصيح من خلف الطاولة، فقال "واصف كان بدو يضربني. . ! !" قال كلمته هذه وهات يا ضحك من كل فرد من حضور الدائرة بما فيه الفلاحة . . .

ولكن تأكد المستر منطورة بهول الحادث وتدارك الأمر ورجع مسرعاً إلى غرفته وقرع الجرس لكل من يعقوب وواصف.

دخلنا الغرفة، فقص يعقوب الحادث ونزعه مني، أما أنا فأجبته بكل برود لا يا مستر منطورة كنت ألعب معه . . . ولكن يعقوب قال مؤكداً أن ذلك ليس بلعب، وقد سبق لي بأنني ضربته في هذه المسطرة، ولكن ربنا سبحانه لطف فجاءت الضربة على الخزانة التي خلفه، وعندها اضطررت أن أقص إلى المستر منطورة تفاصيل الحادث على علاته، وكيف ابتدأ وكيف خاطب يعقوب الفلاحة ووجهه إلى الحائط خوفاً من أن تتنفس في وجهه . . . وتصل له مكروبات [جراثيم]، ثم نزل المستر منطورة في كل منا بدوش بارد . . . وبالاختصار قال إذا لم تكفا عن مثل هذه الأعمال التمثيلية، فإني سأنقلكم أنت يا واصف إلى الخليل، وأنت يا يعقوب إلى بئر السبع.

يعقوب برامكي والعم أبو عيد الدلال

ثورة سنة ١٩٣٦ المشهورة عندما أضرب العرب مدة تزيد على الستة شهور كانت دائرة حاكم لواء القدس، ومن ضمنها دائرة المالية، تشغل عمارة من أملاك البطريركية الأرثوذكسية المعروفة بعمارة مستشفى دير الروم الواقعة على الطريق المؤدية من باب الخليل إلى بطريركية اللاتين داخل السور. كلنا يعلم أن هذه الثورة قضت على تفكك أهل فلسطين العرب وتم الصلح ما بين جميع الأحزاب آنذاك. وإنني أذكر أن صاحب السماحة المفتي الحاج أمين الحسيني وراغب بك النشاشيبي رئيس بلدية القدس ورئيس حزب الدفاع المناوئ لحزب الحاج أمين قد حضرا خصيصاً إلى دائرة الحاكم لكي يشفعا للعم أبو عيد الدلال الذي كان معتقلاً -آنذاك- بحادث سياسي وطني، وكان الحاكم المستر كيث روتش.

كان يعقوب البرامكي مسؤولاً عن إدارة دائرة المالية وكان يكره السياسة، ويكره كل من يتحدث حتى في السياسة في المكتب، وبالطبع هذا الكره نشأ فيه وفي دمه ليس لشيء سوى خوفه على وظيفته، وكانت دوائر الموظفين في فلسطين بأجمعها تحتوي على كلا الفرقاء العرب واليهود وكل منهم يتحمس لقومه. دخل زعماء العرب لغرفة الحاكم لمقابلة المستر كيث روتش وبقي العم أبو عيد الدلال تحت مراقبة البوليس والجيش في الإيوان الذي يفصل المالية عن دائرة الحاكم.

عندما رأيت العم أبو عيد الدلال دعوته وأفراد الجيش لغرفة المالية لأكرمه بفنجان من القهوة . . . فدخل متشكراً وهنا الرواية:

واصف خير يا عم أبو عيد . . شو القضية؟ ! !

أبو عيد	يا بن أخي (قال عكا) . . الله هو المنتقم الجبار تخلصنا الإنكليز قبل اليهود .

واصف	ليش عكا يا عم؟ . . والله عكا مش إليك .

أبو عيد	معلش يا بن أخي الله يكسرها ويكسر عليها ! ! قال عكا . . قال . . عكا .

وكان يردد هذه الأقوال لبريطانيا العظمى على مسمع الموظفين من عرب ويهود وإنكليز ، وبأعلى صوته ويضرب بعصاه الأرض من قوة الضربة. أما أنا فكنت أسأله ببساطه مستدرجاً إياه بأن يكرر كل ما في بطنه وجميع الموظفين يضحكون خلسة ، وعيوننا جميعاً إلى يعقوب . . . ذلك اليعقوب الذي كان يقوم ويقعد ويغمزني في نظراته قائلاً وبعدين يا واصف . . . يا واصف . . . بس عاد . . . ولك بس . . . ولكن بدون جدوى إلى أن قرر نهائياً يعقوب ترك الغرفة ، فقد لبس جاكيته وخرج مسرعاً إلى بيت الخلاء خوفاً من المسؤولية .
وبعدما شرب العم أبو عيد القهوة مع حاشيته جاءه رسول يبشره بالعفو . . . ولكن ماذا؟ خرج العم أبو عيد من الدائرة وهو لم يزل في حالة غضب ونرفزة . . . يصيح ويشتم الشتائم النادرة الوجود للإنكليز واليهود على السواء ، ويدك الأرض بعصاه دكاً إلى أن وصل مفترق الطرق مقابل قلعة النبي داود باب الخليل ، ونحن نسمع نداءه "قال عكا . . قال عكا . ." .
وأخيراً خرج يعقوب من بيت الخلاء معاتباً . . . ولكنه سلم –والحمد لله– من المسؤولية .

يعقوب ولعبنا السيف والترس

كنا ولأجل الترفيه عنا في أداء الوظيفة في الليل . . . حسب قرارات المستر منطورة الظالمة لا نترك وسيلة ما إلا اتخذناها ومثلناها بين الزملاء في دائرة المالية ، ومن جملة هذه الحوادث قد صادف شغلنا في بعض ليالي أسبوع الآلام[1] ذلك الأسبوع المشهور بمدينة القدس ، وقد تركنا المستر منطورة لحضور حفلة دينية في دير الحبش الملاصق لكنيسة القيامة ، وهكذا اغتنمنا الفرصة وحمل كل منا ؛ أنا ويعقوب ، المسطرة بيده اليمنى والنشافة المركبة على الخشب بيده اليسرى ، وبلشنا بلعبة السيف والترس والزملاء من حولنا في غرف مستشفى دير الروم داخل السور التي كانت مستعملة -آنذاك- سراي الحاكم ، وكانت غرفة فسيحة وكل منا يردد يا حليله يا ماله . . . وكنا في هرج ومرج وضحك وكأنها حفلة سبت النور العظيم التي تقام عادة من قبل شباب الروم الأرثوذكس بعد فيض النور على أسطح الدير . . . ولكن وعند صفو الليالي يحدث الكدر . . . إذا دخل على حين غرة المستر منطورة الدائرة وسمع الأهازيج ، وبعدما فهم الحادث من قبل مدير المال لم يتنازل – حفظه الله– على الأخذ والرد معنا إذ اقتنع بأن جميع موظفي المالية كانوا شركاء معنا بالجرم وانتهى الأمر –والحمد لله– بسلامة ، وقد كان هذا العمل وخزة ضمنية له ، إذ خفف عنا الأشغال الشاقة نوعاً ما خصوصاً بمناسبة الأعياد .

[1] أسبوع الآلام: أسبوع عيد الفصح.

والأنكى من هذا كله عندما كنا نمثل لعبة السيف والترس ويهجم منا الواحد على الآخر يجيء دور شخص ثالث أيضاً من الزملاء ينفسخ بيننا خوفاً من أحد منا يمس أخاه بسوء ، وهناك الضحك وكانت هذه التمثيلية تردد ما بين موظفي دوائر الحكومة بالقدس ، وكلهم يذكرون واصف ويعقوب بمنتهى السرور ، وكانت ذكريات لطيفه ذهبت مع الريح .

شطحة نهر جريشة

في عيد دابيا للروس كانت الاحتفالات تجري على نهر جريشة في يافا ، وقد عزم زملاؤنا في دائرة المالية على قضاء يوم منشود هناك ، فأخذنا كل المعدات من مأكل ومشرب وعلى رأسها العود ، فنقلتنا السيارات إلى جريشة من الصباح ، وكنا عدداً لا يستهان به : محمد عارف القسطنطيني ، وإبراهيم فيضي العلمي ، وسليمان يونس ، وسليمان الوعري ، وعشور محمد عشور ، وسابا الشماع ، وفؤاد نسيبة ، وعبد الرحمن الأنصاري ، وحسن صدقي الدجاني ، وفخري بك عاصم ، وحسين عويضة ، وصبحي عويضة ، وأندريا قسيس ، وموسى ماني ، وغيرهم ، وبالطبع صاحب هذا الكتاب وعوده القديم ، ويعقوب برامكي . وقد تجلى معنا الحظ وأصبح كل منا على جانب عظيم من الحظ والفرفشة من شدة إقبالنا على مشروب العرق إلى قرب الغروب ، وقد صادف أن أحد أملاك تلك المنطقة وفلاحيها بمناسبة معرفة محمد عارف القسطنطيني مدير المال -آنذاك- قد وعدنا لشرب القهوة العربية في محلة على شاطئ النهر .

وبالطبع لبينا الدعوة ، وعند تقديم القهوة كانت عيوننا وكلها على يعقوب برامكي لمعرفتنا بمزاجه ورفضه كل ما يقدم له خارج بيته باعتباره قذراً وحاوياً على ميكروبات . . . فقد خجل يعقوب وتناول فنجان القهوة العربي مضطراً خوفاً من شتائمي المشهورة ومن الوزن الثقيل أمام صاحب الدعوة ورجاله ، وبدأ يشرب وهو في حالة فظيعة من الفزع والخوف إلى أن أكمل الفنجان وناوله إلى الرجل شاكراً .

ولكن أين يعقوب أن يهدأ بعد هذه العملة الجنونية ، وكنت أنا أترقب حركاته أكثر من الغير إلى أن قام من على كرسيه وذهب ليطير مية ،[1] فوقف على حافة بعيداً عنا ، وإذ هو أخرج من جيبه الخلفي قنينة صغيرة وفيها (السبلومي . .) المطهر وبدأ يدلك شفتيه تدليكاً محكماً ليزيل عنهما ما طلاه من الميكروبات ! ! ولكن كنت أنا -كما قلت- له بالمرصاد ، وبدأت أصيح عمي أبو أحمد . . شفته . . يعقوب ، فقد فتح القنينة ودلك شفتيه ، وهكذا ذهبت تواً إليه وتشاجرنا إلى أن أخذت منه ذلك المطهر اللعين ورميته في النهر وهو يقول لي هــــا واصف بالله عليك استر علي . . مسكين حقيقة أنه مسكين ، ووهمه الشديد كان قتالاً بالفعل ، ولكن ما بيده حيلة ، فهذا من أنواع الأمراض ليس إلا . .

[1] يطير مية: يتبول في الخلاء.

واصف في الدهيشة

إني أذكر هذا الحادث الظريف الذي حدث مع يعقوب -حدث عفواً- ولكن أصبح قصة يعرفها جميع الأصدقاء والعائلة ويذكرونها بالضحك والسرور :

صادف أنني حصلت على مأذونية لمدة ثلاثين يوماً ، وقد قررنا مع إخواني خليل وفخري وتوفيق أن نقضي الصيف في الدهيشة الواقعة على طريق الخليل بحذاء بيت لحم ، واستأجرنا طابقاً أولاً من أيلين روك شاهين مقابل بيت حنا أفندي ميلادة ، وكان بيتاً جميلاً ومشهوراً في تلك المنطقة ، وقضينا الصيف جميعنا بهناء وسعادة وسرور ، فكانت السهرات فيه إلى منتصف الليل يزورنا الأصدقاء والأطباء من القدس ونحن وكأننا فرقة موسيقية ؛ أنا أعزف وأغني على عودي ، ويرافقني توفيق على نايه المشهور ، وكذلك فخري على القانون . . . فسقيا لتلك الأيام !

وقد صادف أن العم إلياس القزاز المعروف بالعم أبو ميخائيل ، وكان رجلاً -رحمه الله- طيب القلب كريم النفس ، وكان -رحمه الله- يحبني حباً عظيماً ، فقد قضيت زمن الحرب العظمى الأولى معه وعائلته في أريحا عندما كان اسمه أشهر من نار على علم آنذاك ، وقف العم أبو ميخائيل وقال بصوته المرتفع حسب عادته "الله يصبحكم بالخير" . . . وبعدها سأل يعقوب الذي كان في أول مقعد من الغرفة ، وطبعاً معروف لديه ومن أبناء طائفته سأله "أين واصف يا يعقوب؟ . . أجاب يعقوب : إنه في الدهيشة ! !

وعندما لاحظ يعقوب بأن العم أبو ميخائيل انفعل واختلف لونه لسماعه الدهيشة ، حبكت النكتة فأضاف جاداً : نعم لم تسمع عنه يا عم أبا ميخائيل والله في الدهيشة ! !

فشهق العم أبو ميخائيل وقال لا حول ولا قوة إلا بالله . . . مسكين واصف . . . شو صار له . . . إذا عرفت أم ميخائيل فإنها ولا شك تموت عليه ، وبدأ يصفق بيديه ويقول مسكين ، وهكذا ترك الدائرة ولا خفي عن ما يعرف القزاز ، فهو أشبه بأبي عبد الدلال ، فكان بعد طلوعه من الدائرة مباشرة يوقف كل من صادفه من معارفه على الطريق ، ويشيع خبر أن واصف جوهرية في الدهيشة .

لا بد لي قبل الانتهاء من القصة بأن أعرف القارئ بأن مستشفى المجاذيب المشهور في فلسطين كان ولم يزل من القديم مقاماً في محلة الدهيشة ومعروفاً لدى الأهالي بمستشفى الدهيشة .

وهكذا شيع هذا الخبر بسرعة فائقة بواسطة العم أبو ميخائيل بين أبناء الطائفة الأرثوذكسية في حارة النصارى ، بل بين جميع المعارف والأصدقاء ، وأكثرهم علم به وتأسف على واصف وجنونه . . . وفي ذات يوم من أيام مأذونيتي هذه ، وكنت زرت القدس مع أخي توفيق ، إذ تبين لي لدى محادثتي مع بعض معارفي بأنهم ينظرون إلي نظرة غريبة ، حتى أحد محصلي الأموال الأخ بكر عوض تجاسر وقال لي تفصيلاً ما سمعه ، وأن أساس الإشاعة الملعونة من صديقي يعقوب . . . وقد ضحك وحمد الله وشكره على صحتي من الجنون . وذهب الأخ بكر فوقفت وأخي توفيق مدهوشين ، وفكرنا جلياً بطريقة أخذ الثأر من يعقوب وابتدأنا بهذا العمل الفريد .

الأخذ بالثأر من يعقوب

دخلت دكان صديقنا فائز العلمي ، كانت -آنذاك- ملاصقة لبوابة الخليل من داخل السور ، وتلفنت طالباً دائرة حاكم لواء القدس قسم المالية ، فأجاب التلفون بواسطة أحد زملائنا المدعو توفيق الصوابيني الذي لم يميز صوتي على التلفون فقلت :

يا أخي هنا دائرة الحاكم؟ نعم من يتكلم.

يا أخي أنا الخضرجي في البقعة التحتا وزبوني موظف عندكم يعقوب برامكي، فبالله عليك دعه يحضر حالاً لبيته لأن وابور البريموس فقع وقد سببت هذه الحادثة على زوجته الست برتا وأصيبت في فخذها الأيمن!

مسكينة برتا انتظر حتى يجيبك يعقوب بنفسه. فقلت لا لزوم إنما أرجوك أن تبلغه الخبر ويسرع لإسعافها وبالحال سكرت[1] خط التلفون. ثم وفي أقل من نصف ساعة نشرنا هذا الخبر على معارف وأهل وجيران يعقوب منهم: عائلة الشماس بيع سنتواري باب الخليل، وخليل يانكو السنونو خياط شارع دير الروم، محفوظ سعيد صيدلية باب الخليل، جورج مراد كوى طريق مأمن الله وغيرهم، وجميعهم تأسفوا جداً لهذا الخبر المزعج شفقة على يعقوب وزوجته. ثم أقفلنا راجعين إلى المصيف في الدهيشة.

وإلى القارئ الكريم تفصيل حالة يعقوب عندما أخذ الخبر:

جن جنونه وبدأ بالبكاء يندب سوء حظه ويقول يا حبيبتي يا بيرتا، وفي الحال أحضروا له سيارة خاصة ورافقه بعض زملائه من محصلي الأموال وهو في حالة يرثى لها من الانزعاج، وكان يقول إلى السائق ادعس لا تخاف أسرع ... إلى أن وصل بيته، وهناك وجد صاحبة الصون والعفاف السيدة بيرتا في حالة جيده فبادرها قائلا:

حبيبتي بيرتا ماذا جرى كيف الجرح وكيف فخذك و.. و.. وبيرتا تضحك وتقول اسم الصليب!! ماذا جرى لك يا يعقوب، وبالاختصار قص عليها ما أخذ من الأخبار وذهب للخضرجي وكان من عائلة الدجاني متسائلا عن سر التلفون، فأجابه بالنفي واقتنع الجميع أنها مقلب. وبعدما شرب يعقوب الليمونادة ورفاقه لراحة دقات قلبه، رجع إلى الدائرة وأصبح وجميع الموظفين في حيرة.

وعندما التقى يعقوب مع بعض ما نشرنا الخبر في أول الأمر عليهم وبدأوا يسألونه للاطمئنان عن صحة زوجته وفهم منهم من أذاع هذه الإشاعة الكاذبة التي كانت تقضي على حياته عطفاً على بيرتا، تأكد بأن الأصل هو واصف صاحب هذا الكتاب، وبدأ يزمجر ويشتم ولكن في قلبه.. وقد فاته أن ذلك كان من قبل الأخذ بالثأر. هنا انتهى الحادث المضحك إلى أن انتهت أيضاً مدة مأذونيتي من الدهيشة، ورجعت في صبحة أول يوم للدائرة فدخلت مسلماً على زملائي وجميعهم مبهوتون ينظرون إليّ ثم ينظرون إلى يعقوب وإليك التفاصيل:

كان يعقوب جالساً على أول مكتب بحذاء غرفة المالية في عمارة مستشفى دير الروم، فقد عرجت بالطبع عليه وكان غاضباً ومعبساً والعياذ بالله، ولم يلتفت إليّ ولا بنظره، فأنا تركته وشأنه وواصلت سيري إلى منصة مدير المال المرحوم محمد عارف القسطنطيني، فسلمت عليه، فبادرني قائلاً "ولك والله قتلته!! شو هالعملة يا واصف حرام عليك!!".

وكان الجميع يستمع لقوله من الزملاء فأجبته في الحال جواباً جوهرياً، وقلت:

[1] سكرت: أغلقت.

"ليش أنا بعرف شو عملت يا عمي أبو أحمد؟ ! ! فأنا لم أزل مجنوناً في الدهيشة ! ! ولسا هذا أول فصل ، والله لأجننه من صحيح" . وهناك خذ يا ضحك ، ونظر الجميع إلى يعقوب وقد تذكر دقائق من غفلته وما قال عني للعم القزاز ، فقام بالحال ورفع يديه إلى السماء ،
وقال بصوت مرتفع "التوبة يلعن أبو اللي بيلعب معك ثاني مرة" ، وتبسم وجاء مسلماً وكانت مصالحة سريعة نسي كل منا ما عمله بالآخر إلى أن خيم الهدوء على جميع الموظفين والمراجعين ، وكان مشهداً رائعاً .

يعقوب وورق التواليت

أحب أن لا أدون هذا الحادث العجيب من نوعه لأنه يمس بكرامة الموظفين جميعهم ، ولكن من عرف يعقوب برامكي وطيبة قلبه يسمح لي بتدوينها لما فيها من ظرف :
تعين يعقوب رئيساً للجنة تخمين ضريبة الأملاك في بيت لحم لمدة وجيزة ، وكان معه فريد البستاني كاتباً والمرحوم أديب منصور بوظيفة مساح للأراضي والإنشاءات. وكانت العادة -آنذاك- أن موظفي دائرة بيت لحم يحتفظون "بورق التواليت" في المكتب ليأخذه من أراد استعماله لبيت الخلاء عند الحاجة. وكان مفتش التخمين الشهير البريطاني المعروف والمدعو المستر ألمرهرس فرحاً يتناول الويسكي حتى أثناء وظيفته ، وهكذا كان وجهه رغماً عن بشرته الشقراء يميل إلى الاحمرار دائماً وأبداً من شدة الخمر . وقد صادف أن المستر ألمرهرس زار بيت لحم لأداء وظيفته للتفتيش على تخمين الأملاك ، دخل المكتب ثم خرج منه .
وقد لاحظ أخونا يعقوب بأن المفتش (زحمان)،[1] واستنتج بأنه ذهب إلى بيت الخلاء . . . وهكذا أحب إسعافه ومساعدته فلحقه "بورق التواليت" الذي كان -كما سبق وقلت- في المكتب ، وإليك ما حدث :
وقف يعقوب ودق بيده على باب بيت الخلاء وفي يده ورق التواليت ، فسمع صوت من الداخل معتقداً بأنه المفتش يقول :

– Who is that?

– Baramki sir, I want to give you the toilet paper, sir

– Wait a minute

– alright sir.

وانتظر -ويا للأسف- يعقوب الأوامر إلى أن لاحظ بأن باب بيت الخلاء فتح قليلاً وخرجت منه يد . . . وتناولت ورق التواليت بسرعة فائقة ولكن ماذا؟ !
فتح الباب وتبين بأن زميلنا فريد البستاني كان داخل بيت الخلاء (وليس المفتش وألف الحمد لله) وقد أحب أن يفاجئ يعقوب عندما عرف صوته وأبقاه ينتظر وبيده الورق إلى أن قضى حاجته . . . فتصور ! أعمال يعقوب وسذاجته بالله عليك . وعندما جاء الزملاء وبلغوني الخبر نزلت بيعقوب بالشتائم من الوزن الثقيل ، وقلت له "ولك يا يعقوب بيكفي أن

[1] زحمان: يريد أن يتبول.

نخدم الإنكليز في الوظيفة، وليس مطلوباً منا أن نشخخهم كمان!!" . وعلى كل حال ستر الله الذي كان البستاني وليس المفتش هرس الله يهرسك هرس عن قريب إن شاء الله..

ذكريات بيت جالا

بعد الاحتلال البريطاني للقدس، كان أكثر الشعب يصرف القسم الأكبر من حياته في اللهو والطرب بعدما قضى مدة لا تقل عن الأربع سنين ذاق فيها ألوان العذاب والفقر والمرض والظلم وهي المدة السوداء للحرب العالمية الكبرى بلا رجعة ... خصوصاً مظالم السفاح جمال باشا التركي. ولما كانت الوالدة لم تزل على قيد الحياة ومسرورة جداً لرجوع أولادها من خدمة الجيش العثماني سالمين -والحمد لله- كنت أرغب إدخال السرور والسعادة عليها في مناسبات عديدة، وقد أخذتها مرة في العربة لزيارة الأخت شفيقة التي كانت وعائلتها تسكن في بيت جالا، والظريف في الأمر أنني عندما وصلت الواد الواقع بين قبة راحيل وجبل بيت جالا، وقفت العربة هناك لراحة الخيل ... وهكذا نزل جميع من كان فيها من ركاب، وقد سلمت عودي إلى سيادة الوالدة وكانت -رحمها الله- تلبس الإيزار الأبيض وتركتها وشأنها ... وقد سبقت سيرها بضعة أميال وأنا لم أتمالك من القهقهة والضحك عندما كنت أسمع صوتها تقول:

ولك واصف.. الله يهدلك شو بيقولوا الناس عني وحاملة هالعود؟.. ابصر مين هالجنكية مع واصف!!! وأنا لم أجبها بأي كلمة، وكان أهل بيت جالا في ذلك الزمن رجعيين بصورة مشهورة في البلاد، وكانوا يداعبونها ليس لشيء سوى التفرج على آلة العود التي أقسم أن الكثيرين منهم لا يعرفونها بعد.

بقينا على هذا الحال إلى أن وصلنا بيت الأخت شفيقة وكانت بجوار عمارة المسكوبية، وهات يا ضحك عندما دخلنا والوالدة المسكينة حاملة العود!! على كل حال، كانت ليلة من ليالي العمر حتى أصبح بيت الأخت شفيقة وكأنه مسرح يزوره الجيران والمعارف حتى الغرباء، ومنهم من أحضر سلم شجر الزيتون من خارج البيت، وكان يشاهد ويستمع إلى السهرة من غرف البيت ... فتصور.!

وعلى ذكر بيت جالا أقول إن زيارتي هذه قد جعلت لي من أهلها أصدقاء، فكنت أقضي الشطحات اللذيذة تحت ظل أشجار مشمش بيت جالا الممتاز في الغناء والحظ مع داود مطر، وبشارة ثلجة، وعائلة اسكندر وحنا اللحام من جبل لبنان، وخصوصاً الشاعر جمعة الشاعر المعروف ... فسقيا لتلك الأيام! وكنا نتنقل من محل إلى آخر في تلك المنطقة مثل بير عودة، وعين العصافير، وكريمزان، ولكل من هذه المواقع جلسات خاصة ذهبت مع الأيام.

توسع نطاق الصداقة فيما بعد مع عدد كبير من أهالي بيت جالا بحكم فن الموسيقى، ومن ثم وظيفتي كمدير مال وتخمين أملاك أصحاب الأملاك منها أمثال ميخائيل مخلوف، وسابا الأعرج، وصليبا رمان، وإسكندر بدر وغيرهم الكثيرون، فكنا نقضي عندهم وفي بساتينهم فصل فاكهة المشمش أوقاتاً طيبة نزورهم وعائلاتهم ويزوروننا في القدس بدون كلفة، وقد قضيت وعائلتي فصل الصيف هناك كنا فيها بينهم كأهل وأصدقاء.

قرية الخضر وإخواني أولاد فريج

سبق ودونت بأن إخواني أولاد عيسى فريج حنا وبشارة وعطا الله وتوفيق ولطفي كانوا زملائي في مدرسة الألمان المعروفة بالدباغة ومن بينهم عيسى ونصري قسيسية، ثم يوسف وحنا وسمعان وقسطندي وغيرهم أولاد خالتهم ومن أبناء عبد الله شامية وأولاد عمه.

ذهبت الأيام وتغيرت الدولة وبعد الاحتلال البريطاني تجددت معنا هذه الصداقة والأخوة، فكنا نجتمع مراراً وتكراراً في بيتهم داخل السور، وذلك بمناسبة السهرات والحفلات التي كنت أترأسها على عودي، وقد أذكر أنني ذهبت وإياهم ومعنا الأخ باسيل رزق الله النجار وعازف العود، ذهبنا وقضينا نهاراً كاملاً في دير الخضر طريق الخليل، وقد أخذ الحظ منا كل مأخذ، وتجلت تلك الساعات، فكان الكل يغني ويرقص طرباً من حولي، وقد احتفظت بصورة تذكارية في المجموعة الجوهرية. وكان عيسى القسيسية يجيد الغناء وصوته حنون مشبع كان يشاركنا في الترانيم المدرسية تحت مراقبة الأستاذ المعلم جرجس طشو من بيرزيت، الذي كان يعزف الكمان.

وبعد رجوع أخيهم الدكتور فوتي فريج كنت دائماً ألبي دعوته، فنجتمع معه في بيت بجوار مدرسة شنلر، وهناك كان الأساتذة لهذه المدرسة وعائلاتهم وعلى رأسهم الأستاذ إلياس نصر الله حداد نقضي ساعات طيبة على العود والغناء والنبيذ المعتق، وكان يطيب منه أغنيته المحببة له نظم الحسن ابن هانئ المعروف بأبي نواس، ومن غناء المرحوم الشيخ يوسف المنيلاوي مطلعها:

حامل الهوى تعب	يستخفه الطرب
إن بكى فحق له	ليس ما به لعب
تضحكين لاهية	والمحب ينتحب
كلما انقضى سبب	عاد لي سبب
تعجبين من سقمي	صحتي هي العجب

وكانت هذه القصيدة من مقام الصبا ومن أروع ما تفنن به المطرب الشيخ يوسف المنيلاوي، وكنت أجيد غناءها فيطرب الحاضرون، ونعيد ونكرر الشطرة مراراً وتكراراً.

أخي وصديقي السيد داود دعدس

كانت صداقتي ومعرفتي مع السيد داود دعدس زمن دراستي في مدرسة السان جورج الإنكليزية، وكان أستاذي في اللغة العربية والإنكليزية، وكانت تربطني وإياه صداقة بواسطة فن الموسيقى عندما كنت أعزف وأغني الأهازيج البدوية والفلاحية ونمثل تمثيليات من هذا النوع على مسرح المدرسة المذكورة مع الأخ أندريا إلياس القسيس أمثال (الشاعر إلياس)، وكتاب أهل من زمان وغيره، واستمرت هذه الصداقة زمن الحرب العظمى عندما كان المسؤول عن عمارة مدرسة المطران الإنكليزية السان جورج، وأميناً عليها وعلى موجوداتها حتى كان القائد جمال باشا الملقب بالصغير يسكن زمن الحرب العظمى داخل هذا المعهد البريطاني، وقد جمعني به فسمع صوتي وعزفي على العود، وإني لم أزل أحتفظ بصوره تذكاريه للباشا وعائلته.

وبعد الاحتلال البريطاني وخطوبة الأستاذ داود على الآنسة عدلا، لم أزل أحتفظ بصورة تذكارية لشطحة نظمها الأستاذ داود في دير الخضر داخل عربة (حنطور)، وأنا أعزف على عودي وأغني من على فوق العربة وجميعهم يحيطون به، ونحن جميعاً على جانب عظيم من الحظ والكيف، وكان معنا جورج وأندريا القسيس وعائلة منى وغيرهم، وجميعنا لم يزل يذكر تلك الحفلة الشيقة ليومنا هذا.

عيد ميلاد الأخ داود دعدس

وعلى ذكر صديقي الأستاذ داود دعدس أدون للقارئ الكريم الحادث الطريف الآتي:

بمناسبة عيد ميلاده السعيد اتفقنا على إحياء سهرة أترأسها على عودي تضم نخبة من أصدقائه العائلات المعروفة أمثال الأستاذ السكاكيني، والسيد شكري ديب، وحنانيا، وزخريا، وغيرهم، وذلك في بيته الكائن -آنذاك- في محلة كولونية الألمان البقعة التحتا، وقد أمنت وجود العود عنده فأرسلته سلفاً قبل الدخول بالعيد.

وبعد ظهر نهار الأحد كما أذكر من العيد وكنت وفيكتوريا على أتم الاستعداد للذهاب إليه، وجاءت السيارة إلى بيتنا في النيكوفورية، وإذ شاء القدر أن تحضر في الحال وتزورنا الأخت شفيقة. كانت زيارة الأخت شفيقة لنا عجيبة لأنها لم تزرنا منذ ما يقرب من سنة بمناسبة وفاة ابنتها، وبقيت حزينة لا تفارق بيتها حداداً على ما أصابها من أسى ولوعة، وهي من اللواتي يتقن هذه العادة ويحسنها مع الأسف الشديد. وقد دخلت بيتنا ولم تزل بلباسها الأسود القاتم والعياذ بالله.

وكان من الواجب علينا أن نبقى ونعتذر تلفونياً من السيد داود إكراما لها، ولكن أني لواصف صاحب هذا الكتاب أن يبقى وأن يتمشى بهذه العقائد السخيفة بعد مرور سنة من الوفاة؟!! وشعاره:

قالوا في السماء وليمة   قلت أين السلالم

وهكذا حبكت النكتة معي وفاجأت الأخت شفيقة على مسمع فيكتوريا فقلت: "والله بنت حلال.. الله جابك بمثل هذا الوقت.. انظري السيارة تنتظرنا كي نذهب ونشتري خيطان صوف من الألماني الأطرش في كولونية اليونان، وأنت بالطبع أدرى منا في مثل هذه البضاعة والصناعة.. فهل لك أن ترافقينا؟!!"
شفيقة: "شو عليه معلوم سأذهب بكل طيبة خاطر". وكنت لبقاً فبحلقت في عيون فيكتوريا بأن لا تكذبني وهكذا ركبنا السيارة وذهبنا. وكان البائع الألماني الأطرش بالفعل يسكن بجوار سكن أخينا أبو كوستي.
وصلنا منزلنا من السيارة وتسلقنا السلم المؤدي إلى سكن أبو كوستي وإذ شفيقة تقول "يا واصف إني أذكر أن الألماني يسكن طابقاً أرضياً" فأجبتها "لا فهو نقل من زمان ويسكن هذا البيت في الطابق الأول" فسكتت. قرعت الباب ففتح وكان استقبالاً مثيراً منه ومن الضيوف وكانوا ينتظرون حضوري بفارغ الصبر وجميعهم على جانب عظيم من الحظ ... صياح شوباشات.
فإكراما لشفيقة أدخلتها قبلنا ولكن لو ترى كيف تغير لون وجهها وهي بلباسها الأسود، فنظرت إلي نظرة حادة وقالت عملتها يا واصف؟!! دخلنا البيت وأنا لم أتمالك من الضحك وبلشت وحكيت الحادث للجميع، وشفيقة كالعذراء الحزينة لا تفه ولا بكلمه.. وبقيت معنا إلى بعد منتصف الليل أعتقد بأنها تناست حزنها نوعاً ما. وأصبحت هذه القصة موضوع بحث عند كثير من العائلات أصدقائنا ... فسقيا لتلك الأيام! وصدق قول حظ بالعافية وكنا نحارب الزمن.

كروانة الشرق أم كلثوم بالقدس

زارت كروانة الشرق المطربة أم كلثوم القدس لأول مرة بعد الاحتلال البريطاني بتاريخ [ ][1] واشتغلت على مسرح سينما أديسون الواقع في محلة عكاشة، وكان هذا السينما من أشهر وأعظم المسارح -آنذاك- بالقدس. كان الإقبال عليها شديداً والقلم يعجز عن وصفه من قبل الأهلين وكان الوقوف من الحضور يوازي الجالسين على المقاعد، وأصبح الجميع وكأنهم في غيبوبة من شدة الطرب، فقدروا حشمتها ورخامة صوتها كل التقدير، وكانت ليلة لأبناء مدينة بيت المقدس من ليالي العمر التي لم يسبق لها مثيل. وقد تجلت كروانة الشرق وأبدعت أيما إبداع لما شاهدته من اصطفاء وتقدير وحب الشعب لها، الأمر الذي فقدت وعيها حتى مزقت منديلها الذي كان بين يديها من شدة العواطف. وإني وغيري لن ننسى أغنيتها المحببة لها -آنذاك- ومطلعها "وحقك أنت المنى والطلب".
كنت سمعت أم كلثوم لأول مرة في القاهرة بمناسبة شهر العسل آذار سنة ١٩٢٤ عندما كانت تغني على الطبلة مع والدها، وهنا بالقدس سمعتها ثانية ووجدت فيها فارقاً عظيماً من حيث الفن والأداء، خصوصاً ما يصحبها من عازفي آلات القانون والعود، ما زاد روعها وهي -والحق يقال- ملكة الفن الموسيقي العربي في العالم بأسره حفظها الله وأمد في عمرها!
زار الفنان الموهوب والموسيقي الكبير الأستاذ محمد عبد الوهاب القدس لأول مرة في شهر حزيران سنة ١٩٢٧، وقد أقام حفلة شيقة على مسرح متواضع وهو مسرح مدرسة السلزيان للذكور الواقع في عقبة المستشفى الإيطالي خارج السور.

[1] التاريخ ناقص في الأصل.

كان الإقبال عليه لا بأس به، لأنه كان في بداية عهده بالفن، وكان قسم خاص من الشعب الذي يتذوق أسلوبه، أما أنا فكنت والله يشهد من أول المعجبين به وبصوته وبطريقة غنائه الجددة، وقبل ما أشاهده وقد تمثلت قول الشاعر:

من قبل رؤيتكم نلنا محبتكم   والأذن تعشق قبل العين أحيانا

كنت قد جمعت طائفة كبيرة من تسجيلاته قبل سنة ١٩٢٧ لما لمست فيها من روعة وفن وكان صوته -آنذاك- لم يزل صوت صبي ... وأذكر من بعض هذه التسجيلات:

موشح "ملا الكاسات وسقاني" إذ أضاف عليه من آهات جاءت في غاية الطرب، وقصيدة "ألقيتها ساهرة" وتلحينها يشبه قصيدة "بالله مرحمة وصبرا للغد" للمرحوم الشيخ سلامه حجازي، و"باتت تناجيني عيونه" وتلحينها يشبه قصيدة [الحب] "فضحته عيونه" تأليف أحمد رامي وتلحين وغناء المرحوم الشيخ أبو العلاء محمد، وقصيدة "منك يا هاجر دائي" و"يكفيك دوائي"، و"قلب بوادي الحما خلفته رمقا" ... وغيرها الكثير.

وبصفتي خبيراً بهذا الفن الرفيع، أقول صراحة إن من أشهر غناء الموسيقار محمد عبد الوهاب الذي رفع اسمه وحببه لدى الجمهور هي قصيدة "يا جارة الوادي طربت وعادني ما يشبه الأحلام من ذكراك" ... الخ.. تأليف أحمد شوقي؛ فهذه القصيدة التي لحنها من لحن البياتي بدون أدنى كلفة ورتوش غربي، وبدون أن يستمد فيها من قطع أغاني أخرى لمطربين سابقين، هي التي أبرزت اسمه إلى العلا، لأنني أثبت قولي بالحادث الطريف الذي حدث في بيتي فأقول:

كان عندي بعض الأصدقاء، وقد وضعت أسطوانة للأستاذ عبد الوهاب المعروفة -آنذاك- مطلعها:

"أهون عليك تزيد ناري ولساني   بشكي لك لم ترحم شاكي"

نظم أحمد شوقي.

وعندما وصل لقطعة

"كان عهدي وعينك في الهوى   تركت مريض من غير دوا

"ليه طول الجفا ليه ضاع الوفا   ليه زاد الأسى ليه روحي تهون"

وهذان الشطران على إيقاع الفالص، وعندما غنى "تهون" -وهنا بيت القصيد- لحنها فأبرز فيها السلم الموسيقي العربي ذا الأربعة والعشرين ربعا من القرار إلى جوابه بصورة فنية معجزة لم يسبق لغيره من الموسيقيين القدماء أن أبرزه في تلحينهم على الإطلاق، وقد قام أحد أصدقائي من الحضور وهو السيد سليمان الوعري المثقف فأوقف بالحال الأسطوانة معتقداً بأنه طرأ خطأ فني عليها، فانزعج لسماعه هذه البدعة!! أقول أنا نعم إنها بدعة بكل ما في هذه الكلمة من معنى، ولكن هذا شيء جديد على أذن السيد الوعري وغيره من الجمهور، فتأمل!!



سامي الشوا
من مجموعة واصف جوهرية



إعلان لأم كلثوم من الثلاثينات

من مقتنيات صالح عبد الجواد

أرجع الآن إلى حفلة الأستاذ محمد عبد الوهاب على مسرح مدرسة السلزيان فأقول إني أشكر الباري عز وجل على استماعي لأول مرة وجهاً لوجه لهذا الفنان الموهوب، الذي آمل أن يكون الممتاز بين المطربين، وله المكانة الأولى بينهم، وأرقب له مستقبلاً باهراً أنه سميع مجيب.

زيارة الأستاذ الموسيقار محمد عبد الوهاب القدس لثاني مرة

زار الموسيقار الأستاذ عبد الوهاب القدس لثاني مرة ونزل ضيفاً على الأستاذ إسعاف النشاشيبي محلة الشيخ جراح بصفته الصديق الحميم لأمير الشعراء أحمد شوقي. وكان اسم الأستاذ محمد عبد الوهاب في هذه المرة يتلألأ في أوج السماء لما قدم من ألحانه وفنه وغنائه للعالم بصورة فظيعة،[1] هز فيها قلوب النساء والرجال من عشاق الموسيقى حتى من جهلاتها على السواء في الأقطار العربية كافة، واشتهر اسمه ولمع أفقه وأصبح -والحق يقال- من عظماء الموسيقيين، وقد ابتكر لأول مرة في هذا الفن الرفيع زيادة الآلات الطرب، وإضافة آلات موسيقية غربية في فرقته الموسيقية فزادته روعة وإتقاناً، وأخذت الجماهير تتذوق غناءه وتقبل عليه وألفت آذانهم التجديد في التلحين.

عزم الأستاذ على إحياء حفلته على مسرح سينما صهيون - شارع يافا بالقدس، وكان الإقبال على بيع تذاكر الدخول عظيماً حتى كان الوقوف أكثر من الجالسين لقلة التذاكر. كنت أنا في أول قسم من الحضور وكلي آذان أرقب ظهوره على المسرح، وكان الكثيرون من أهالي بيت المقدس ينظرون إلي والبسمة على شفاههم وكأنهم ينتظرون تعليقي ... لما عرف عني من ميول فطرية وباع في هذا الفن الرفيع.

كانت صدمة قاسية فوجئ الجمهور فيها، فقد سرت خبرية وفاة القاضي النزيه المحبوب الكبير المرحوم علي بك جار الله، فقلت في نفسي حقاً وعند صفو الليالي يحدث الكدر، والجميع أصبح وعلى رؤوسهم الطير مبهوتين لما كان الفقيد عزيزاً عليهم تلك الشخصية الفذة النادرة، وكانت بالفعل خسارة عظمى لا تعوض لجميع أهالي بيت المقدس على السواء.

ونظراً لما للفقيد الغالي من أخوة وصداقة لكل من الأستاذ إسعاف النشاشيبي والشاعر أحمد شوقي والأستاذ محمد عبد الوهاب، وبخاصة بعد عدة جلسات خاصة في قصر النشاشيبي، فكر أكثر الحضور بأن الحفلة لا بد أن تلغى، ولكن إذ فتح ستار المسرح وظهر الأستاذ محمد عبد الوهاب فألقى كلمة وجيزة تنم عن شعور أخوي ومشاركة في هذا المصاب الجلل معزياً فيها آل جار الله الكرام وأهالي بيت المقدس، واعتذر إجلالاً للفن وإكراماً للحضور بأن يلغي الحفلة، وكانت كلمته هذه تدل عن حبه وتفانيه للفن، وهكذا بدأ وصلته الأولى وعلائم الأسى على وجهه، ولكن الغريب في الأمر رغماً عن شدة المصاب، تجلى الأستاذ محمد عبد الوهاب فأجاد وفرقته كل الإجادة غناء وعزفاً لما لمسه من تعطش الجمهور لفنانه. كان ذلك بتاريخ [..].[2]

ولحسن حظي في نهاية الحفلة أخذني الأستاذ إسعاف النشاشيبي إلى المسرح خلف الستار، وهناك حصل لي الشرف الأعظم وعرفني بالأستاذ لأول مرة فسلمت عليه وهنأته بفنه، كما هنأت نفسي بمعرفته واستماعي إليه وقد قدمني الأستاذ

[1] فظيعة: رائعة في اللهجة المقدسية.



الفنان محمد عبد الوهاب

[2] ناقص في الأصل.

إسعاف وأطلع الأستاذ عبد الوهاب على ميلي الفطري للموسيقى ومقدرتي في هذا الفن وشهرتي بين الأهلين، فأعجب وانشرح صدره وقد وعدني بزيارة المجموعة الجوهرية في فرصة لاحقة - بإذن الله - فشكرته والأستاذ إسعاف.

أخي وصديقي الأستاذ وأمير الكمان سامي الشوا

تعرفت بأمير الكمان عندما زار القدس لأول مرة في بيت أخي وصديقي فخري النشاشيبي وكانت حفلة شائقة ليلاً تضم نخبة من أعيان وأهالي مدينة القدس. كانت هذه الحفلة على شرف عادل بك أرسلان وعمه أمين بك أرسلان، ولم يحضر عادل بك في تلك الليلة، الأمر الذي أجهله.

كان الحضور راغب بك النشاشيبي، والأستاذ إسعاف النشاشيبي، وعلي بك جار الله، وإسحاق بك البديري، وماجد بك عبد الهادي، وفائز بك حداد، ومصطفى بك الخالدي، ... وغيرهم. وقد أجاد وأبدع الأستاذ سامي ثم رافقته بالعزف على عودي فعزفنا بشرف راست طانيوس، وعندما غنيت وحدي أحبني وأعجب بي جداً، وبواسطة الفن الموسيقي الرفيع أصبحت بيننا صداقة ورابطة متينة أخوية، حتى أصبح كأنه عضو من عائلة الجوهرية، فإذا ما حل سامي القدس نزل بدون كلفه عندنا، وكأنه منا ولم يفارق خصوصاً أخي توفيق لا ليلاً ولا نهاراً. وهكذا قضينا وسامي أوقاتاً جميلة وليالي سمر في كثير من بيوت أصدقائنا المقدسيين، وخصوصاً في قرية عين كارم التي لنا معه فيها ذكريات خاصة، وكم بقينا من الليالي إلى مطلع الفجر، وسامي يتفنن على كمانه وكأنه يتكلم عليها ... فسقيا لتلك الأيام!

اعترف حقاً بمن أعطاه اسم أمير الكمان، فإنه ولا شك أميرها والقلم يعجز عن وصف عزفه عليها، خصوصاً ما يعرف عليه بأداء ما يعرف بالتقسيم، وعلى الأخص ما يسمى موسيقياً بالقفلة، فإنه ولا شك الفريد من نوعه في هذا الباب، فإنك تشعر بحزن أليم عندما يعزف لك قطعة حزينة، ثم يوصل هذه القطعة بأخرى فترقص طرباً ولله العجب.

إنه ولا شك فنان موهوب وعازف ماهر وفي رأسه رأسمال قوي في الموسيقى العربية، فإنه يعرف التواشيح الأندلسية ويجيدها، وله فيها مجال واسع، وهو من أهالي مدينة حلب الشهباء مخزن هذا القسم من موسيقى العرب ليومنا هذا، ثم لا يغرب عن البال فمنذ نشأته سرى دم الموسيقى في عروقه منذ الطفولة، فكان والده في ذلك الزمن المدعو أنطون الشوا أشهر من عزف هذه الآلة، وله تسجيلات خاصة، وقد احتفظت باسطوانة منها ضمن المجموعة الجوهرية. وزد على ذلك أن سامي مطلع كل الإطلاع على ألحان وغناء المطربين الشهيرين القدماء: أمثال عبده، وسلامة، والمنيلاوي، وعثمان، وأبو العلاء، وأبو داود، ... وغيرهم، إلى أن واصل تلحين السيد درويش، وهو إذ يطربك في عزفه الفريد بعيداً عن علم النوتة الإفرنجية على ما أعلم، ولكنه مرجع في علم الموسيقى على الطريقة الأصلية العربية من المقامات والسلم الموسيقي الشرقي والإيقاع، مثله كمثل الموسيقيين القدماء.

وإني أدون للقارئ الكريم هذا الحادث الذي يدل ما لسامي من قيمة ولو بدون معرفة النوتا:

أخذته مرة إلى المعهد الموسيقي العبري بالقدس على زمن رئيسه صديقي المستر هاوزن عازف الكمان، ومن المعلوم أن هذا المعهد يضم عباقرة الموسيقيين والعازفين، خصوصاً على آلة الكمان وأكثرهم من ألمانيا، وكانوا جميعهم يسمعون شهرة

سامي الشوا، وأحبوا الاستماع إلى عزفه، وكنت أنا المترجم من اللغة العربية إلى الإنكليزية بينه وبينهم، فأخذ سامي الكمان وبدأ بالعزف عليها من المقامات العربية الصرفة التي تحتوي على الأرباع من مقامات الصبا والسيكاه والبستكار، فما كادوا يسمعونه إلا وأكثرهم كان يمسك رأسه في يديه ويهزه بطرب، وتعجب وجن جنونهم فعلاً وأنا أعترف عما لمسته من ثنائهم عليه، ولما تأكد سامي من مدى إعجابهم بعزفه وبفنه الطبيعي تحمس أكثر، وهمس في أذني بأنه سيعزف لهم مقطوعة تاريخية من تلحينه يمثل بها خروج بني إسرائيل من مصر ... فترجمت بالحال ما قاله إلى اللغة الإنكليزية فطربوا تشوقاً لسماع هذه المقطوعة وشكروه سلفاً بأوجه هاشة وباشة ... وهكذا بدأ سامي يعزف على كمانه من مقام اليكا على وتر القرار حركات ومقطوعات مختلفة منسجمة إلى أن وصل إلى الجواب، وهناك أبدع كل الإبداع بنهفات صورة يتخايل للمستمع بأن الحشد يسير باندفاع قوي هرباً من الأهوال، وواصل هذه التمثيلية التصويرية على أوتار كمانه إلى أن رجع على النغم الخفيف، معبراً أن القافلة وصلت بسلام ورجعت إلى الاطمئنان والاستقرار. وكان السكون مخيماً على من حضره من الموسيقيين العباقرة، كم كنت ترى على وجوههم وعيونهم التعجب والدهشة وكل الطرب، وفي النهاية أمطروه بوابل من الثناء والشكر والمقدرة والإعجاب، وخيل لهم بأنهم كانوا ضد الحشد الذي خرج بالفعل من مصر. وهكذا طلبوا مني بواسطتي إعادة المقطوعة والسماح لهم بكتابتها على النوتة في حالة عدم وجود نوتة المقطوعة مع سامي -آنذاك- ولكن تخلص سامي وهو يعرف كيف يتخلص في مثل هذه الظروف، لأنه كان لبقاً وحذراً وداهية ومشيت حيلته على العباقرة الذين لم يعرفوا بأن سامي أمي بعلم النوتة ... وكان عزفه لهذه المقطوعة الطويلة ارتجالاً وفي حينه ليس إلا ... ولو قدر لسامي عزفها لثاني مرة لكان تغيرت كل حركة فيها من مرة على ما أعتقده.. تركت وسامي المعهد الموسيقي وهات يا ضحك على الطريق.

وإني ألفت نظر القارئ أن سامي قد سما في جودة العزف حتى أصبح مثلاً. المغني وفرقته يغادرون إليه فإنك تسمع كثيراً من التسجيلات تقول فلان المنشد على تخت سامي الشوا، مع أنه كان من المفروض أن يكون العكس، فيقال العازف فلان على تخت المنشد الفلاني ... وهذا يرجع بالطبع لما توصل إليه سامي من مقدرة في عزف الكمان. وقد استقل سامي بالعزف على كمانه وحده استقلالاً تاماً لا حماية فيه ولا وصاية. فكان يدخل بيوت ومنازل الأعيان والباشاوات والبكاوات حتى القصور الملكية، ويعزف على كمانه وحده ويجيء الحفلات الشيقة التي كانت بكل تأكيد تفضل عن فرقة موسيقية كبيرة، وله في هذا المجال حوادث مثيرة يعجز القلم عن وصفها، فقد قضى سامي القسم الأكبر من حياته في حياة التنعم والترف والعز والسعادة لا يستطيع أن يراها سواه من المطربين -آنذاك- فقد ميزه الله وأنعم عليه بجودة العزف، وأنه جدير بذلك وكفء لهذه النعمة لما هو عليه من ظرف وخفة روح وخلق حسن، حماه الله وأمد الله في عمره!

بقي سامي بدون زواج ليومنا هذا فانسجم انسجاماً كلياً مع الأخ توفيق الذي عمل على شاكلته ومات بدون زواج، والجدير بالذكر أن سامي عندما فجع بخبر وفاة الأخ توفيق سنة ١٩٤٤ أقام قداساً خاصاً في كنيسة الروم الكاثوليك في القاهرة،



سامي الشوا

من مجموعة واصف جوهرية

ودعا الكثيرين من أصدقائه هناك إلى قداس خاص باسم المرحوم توفيق جوهرية، وكأنه أخ له، وإني أدون له تشكرات آل جوهرية فالبقاء له.

كان سامي يعتز في المجموعة الجوهرية، وكان دائماً يحضر الكثيرين من معارفه من فنانين وأدباء ويطلعهم عليها وكأنه بيته الخاص. هكذا مضت ذكريات أخي وصديقي سامي وسأكتب حوادث أكثر له في الأعداد القادمة بإذن الله.

مشاهدتي واستماعي لأول مرة جهاز الراديو بالقدس

سنة ظهر لأول مرة جهاز الراديو بالقدس وانتشر بصورة بطيئة في بيوت بعض المثرين لارتفاع سعره في ذلك الوقت.

ولما كان هذا الاختراع العجيب نادراً، فقد تشوقت لمشاهدته والاستماع إليه، وقد ابتاع جهازاً أخي وصديقي الأستاذ المحامي عوني بك عبد الهادي،[1] وكان يسكن -آنذاك- في حي المصرارة، واتفقنا على إحياء حفلة عنده في صحبة أستاذي العزيز خليل السكاكيني. كانت حفلة عائلية، وكانت نخبة من الأصدقاء، وعندما باشر عوني بك بفتح الجهاز والظاهر أن عوني بك لا يجيد هذه الصناعة، وبعيداً عن تقبل الأشغال اليدوية، خصوصاً الميكانيكية منها، وبواسطة فتحة لإعطاء الصوت، وكانت بثقل وزيادة عن اللزوم، حصل طارئ فني في الجهاز، وبدأ بإذاعة أصوات مزعجة لم يفهم منها شيء، إما موسيقى أو صياح، وهكذا حاول البعض من الحضور تصليحه بواسطة المفاتيح ولكن بلا جدوى . . . فندبنا حظنا وتركنا الجهاز وشأنه . . . وقضينا تلك الليلة حسب عادتنا على عودي، ثم أحاديث أدبية مفيدة كانت تدور بين الأستاذين عوني والسكاكيني.

وقد أتيحت لنا فرصة ثانية، فاستمعت إلى الراديو في مسكن نيافة المطران إيفذوروس في دير أبو طور، وكان رئيساً لهذه الدير والكنيسة في ذلك الوقت. ولحسن حظنا ولأول مرة سمعنا الأغاني والموسيقى من أثينا ومن القاهرة بكل وضوح، فسررت وطربت لهذا الابتكار، وشكرت المولى عز وجل الذي يسر لي استماعه. وبعدها رويداً أصبح جهاز الراديو منتشراً في كثير من المحلات والمقاهي ومنازل العائلات في أكثر أحياء مدينة القدس، وقد اشتريت أول جهاز بواسطة أخي وصديقي أسد طمبو ماركة (. . . .)،[2] وأدخلت هذا الجهاز في غلاف كبير عال يشبه تاج محل، وكتب عليه بالذهب هنا القدس، وذلك لكي يتناسب وأثاث المجموعة الجوهرية الشرقية.

عوني بك عبد الهادي

على ذكر عوني بك عبد الهادي أعلاه، أذكر أنه من الأصدقاء الأوفياء لنا، فكان يزورنا في البيت ونزوره بدون أدنى كلفة، وكانت معرفتنا إليه بواسطة صديقه الحميم أستاذي خليل السكاكيني، وإني أقول إن عوني بك كما عرفته رغماً عن مهنته كمحام قدير، فإنه (أديب في كل ما في هذه الكلمة من معنى وشاعر في الوقت ذاته)، وقد قضينا الليالي الطوال الشيقة في بيوت، خاصة مع الأستاذ السكاكيني، وكانا يتبادلان الأحاديث وكلها أدب وفلسفه، وإني أذكر أيضاً أن المرحوم والده عبد الهادي كان محامياً وشاعراً في الوقت ذاته، وقد زارني -رحمه الله- مراراً مع أستاذي السكاكيني، وكان يطرب

[1] عوني عبد الهادي: من قادة الحركة الوطنية الفلسطينية في الفترة الانتدابية ومؤسس حزب الاستقلال الذي دعا إلى استقلال فلسطين (سوريا الجنوبية) في إطار سوريا الكبرى.

[2] ناقص في الأصل.

لاستماع التواشيح الأندلسية خاصة على عودي. كان طويل القامة ذا شخصية محترمة، وكانت له لحية مكسوة بشعر أبيض ناصع تزيده جمالاً وروعة. وإني أدون للقارئ الحادث الطريف:

كان الأخ عوني بك عندنا في بيتنا - المجموعة الجوهرية، وقد أخذ الحظ منا مأخذه حتى منتصف الليل يستمع إلى الأغاني والعود. ولما كان الطقس رديئاً أحببت أن آتي بسيارة تنقله إلى بيته، وهكذا كلفت رب بيت عائلة الشويكي من الخليل المدعو أبو مصطفى، وكان يسكن عندنا وعائلته للمحافظة على البيت والمجموعة، وكان نائماً فأفاق وذهب مشياً إلى مكتب فراج شارع سان جوليان القريب من النيكوفورية. ولدى وصوله طلب سيارة من المكتب لواصف جوهرية، ونودي بالحال لأحد سائقي سيارات المكتب لتلبية الطلب، وكان صدفة أيضاً السائق نائماً ... فأفاق من غفلته فركب أبو مصطفى بجانبه وجاءا إلى بيتنا، وكنا نحن وعوني بك بانتظار السيارة قرب المدخل الرئيسي نودع عوني بك ولما سلمنا عليه، بعدما نزل أبو مصطفى من السيارة مباشرة، رجعت السيارة إلى المكتب!! وبقي عوني بك ونحن مبهوتون ونضحك ... إلى أن رجع أبو مصطفى ثانية وأحضر السيارة من المكتب لثاني مره!

وهذا سوء التفاهم حدث بين أبو مصطفى والسائق اللذين كانا في لذة النوم ولم يعرفا ماذا كان عليهما من الواجب.

حفلات المستر بومان مدير المعارف زمن الانتداب

دخل المستر بومان مع الحملة الأولى من جيش الاحتلال البريطاني لفلسطين، وقد تعين فيما بعد عندما أصبحت حكومة الانتداب مدنية تعين مديراً للمعارف للعرب. كان المستر بومان من رجالات الإنكليز المعروفين الذي قضى القسم الأكبر في حياته في المستعمرات البريطانية وفي شرقنا العربي، فأصبح خبيراً بالعرب وعوائدهم وتقاليدهم، ويجيد لغتهم، وهكذا كان يتقرب للعرب ولموظفي العرب في فلسطين، وكان من الممتازين في الكشافة، ولهذا أحب أخي فخري بصفته خلق كشافاً فيطنش لأعماله ويرتاح لمعشره وزميله الأستاذ فوزي النشاشيبي في مخيمات الكشاف، ولهم حوادث طريفة في مناسبة عديدة لا مجال لذكرها الآن.

كان المستر بومان يسكن الدار المعروفة بعمارة المهندس فرنكاه الألماني والواقعة ليومنا هذا على جبل الثوري المشرفة على مدينة القدس والحرم الشريف، وإنها ولا شك تعتبر من أحسن مواقع خارج السور التي تتميز بمثل هذه المناظر الخلابة، وأن الفضل في بنائها يعود إلى المهندس العالمي الألماني المستر فرنكاه صاحب الذوق السليم الذي جاء القدس إبان الحكم العثماني، والذي هندس طريق واد النبي موسى وطلعة قرية القسطل، وأن أعماله في هاتين الطريقين تدل على عبقريته من حيث التعرجات في الطرقات الطبيعية، الأمر الذي يسهل للخيول السير صعوداً فيها لجر العربات في ذلك الزمن. وقد أصبح المالك لهذا البيت عائلة بركات في القدس.

في هذا البيت كان المستر بومان يقيم الحفلات العديدة لأساتذة المعارف في فلسطين، وفي مناسبات عديدة كنت أترأس هذه الحفلات من حيث العزف على عودي والغناء للترويح عن النفس، وكان هو -أي المستر بومان- يحب الاستماع



عوني عبد الهادي

من المجموعة الجوهرية

إلى الموسيقى العربية ويتذوقها ويقدرها حق قدرها ، وذلك مع المستر ستيورت مفتش المعارف الفنان والرسام المشهور -آنذاك- ولي معه ذكريات سأدون بعضها في الأعداد القادمة .

كانت تضم هذه الحفلات نخبة من أصدقائي المحبين إلى بوجه خاص ؛ أمثال أخي وصديقي الأستاذ أحمد سامح الخالدي مدير الكلية العربية ، والأستاذ حبيب الخوري ، وشريف النشاشيبي . . . وغيرهم من أبناء بلدي الكرام ، وكان كل منا في هذه الحفلات يثني ويفخر بوجود فاكهة الفكاهة النادر الوجود الأخ الأستاذ طلعت السيفي ، فإذا ما انتهت قطعة موسيقية أو توشيح أو قصيدة ، تجد جميع الحضور وقد أغمي عليهم من الضحك لما يمثله طلعت بصورة يعجز القلم عن وصفها ، فهو ولا شك مفهم وموهوب ولا يستطيع أحد أن يجاريه بخفة روحه وحلاوة نكاته . وهكذا خلف هذا البيت الجميل ذكريات لكل منا ذكريات نذكرها بكل سرور لغاية يومنا هذا .

صديقي المستر ستيورت مفتش المعارف

كان المستر ستيورت مفتشاً في المعارف ويختص بالفنون الجميلة على اختلاف أنواعها . كان هذا الرجل رساماً وفناناً مشهوراً وملامح وجهه وتصرفاته ، بل حياته ، تدل على ذلك . كان يسكن داراً فسيحة الأرجاء من العمارات القديمة العربية في حي النامرة – البقعة التحتا ، وكانت تضم هذه الدار الأشياء الفنية الشرقية التي كان ينتخبها قطعة قطعه المستر ستيورت من مختلف الأقطار العربية ، ومنها الشيء الكثير ، خاصة من السودان ومصر ، وتلك الأقطار ، وإني لم أزل أذكر غرفة النوم السراير والخزائن والستائر المصنوعة كلها من صنع يد من الخشب القديم المحفور بغاية الرقة ، ثم ما كان يسد على هذه الأدوات الخشبية من ستائر قماشية فارسية قديمة الصنع في منتهى الرقة والذوق السليم .

وقد شاهدت بأم عيني كثيراً من التابلوهات[1] مناظر رسم يدوية بالفحم والزيت في غاية الروعة ، وقد قدم منها بعض الأصدقاء للذكرى لم تزل معلقة على جدران بيوتهم من أبناء القدس . كان المستر ستيورت يزورني وأصدقاء ويرتاح كثيراً لمشاهدة المجموعة الجوهرية وما فيها من نفائس وتحف أثرية شرقية وعربية تروق له بالنسبة إلى فنه الممتاز ، وكان يميل كثيراً إلى فن الموسيقى العربي ، وهكذا أكثر من زياراته وصداقته معي وعرفني بأشخاص ذوي قيمة كبيرة ، ولهم خبرة في هذا الفن من معارفه وأصدقائه ، وكان يدعوني إلى بيته لعرض ما أعرفه من عزف وغناء على العود والرباب والخيوش والنشأت كار والطنبورة وغيرها ، ويبحث معي بكل شغف خصوصاً على أصول الموسيقى العربية وأسرارها ، والفرق الشاسع ما بينها وبين الموسيقى الغربية من حيث السلم والمقامات وما تحتويه من أرباع وألحان وإيقاع ينقص الغربيين ، وفي كثير من الأحيان كنت أرافقه إلى تل أبيب ، وهناك في زوايا تل أبيب وأرجاء تحت الأرض كنا نعزف العود ، وخصوصا المعزوفات الراقصة لحسناوات الفنانين من اليهود الذين كانوا يتدربون على علم الرقص والدبكة العربية تحت قيادة سيدة معروفة يهودية تدعى (. . . . . . .)،[2] ونرجع القدس عند الفجر . وكان المستر ستيورت هو الشخص الذي عرفني وقدمني إلى الدكتور المشهور في الموسيقى الشرقية المعروف بالدكتور لخمان الذي سيجيء التكلم عنه مفصلاً في هذا الكتاب ، ثم

[1] التابلوهات: الرسومات.

[2] ناقص في الأصل.

عرفني أيضاً على نخبة من الموسيقيين الأوروبيين الألمان خاصة، ولرئيس وأعضاء المعهد الموسيقي العبري المعروف عندنا بالقدس، وشجع على تعييني معلماً للموسيقى العربية كما سيجيء البحث عنه في حينه.

الأحلام ويعقوب فاشة

لم أقدر أتفهم ولا أفسر ما هي الأحلام، وإني أعتقد بأن هذا الموضوع لم يزل سراً خفياً للإنسان. بعضهم يقول أن الشخص يجوز له أن يتحدث على شيء ما أو عن شخص نهاراً، وهكذا يطرأ الحادث نفسه على أفكاره وهو نائم، ويتولد عنه الشيء الكثير ولكن هذه نظرية خاطئة، فإني أثبت للقارئ الكريم بحلمين الأول لم أرَ الشخص الذي حلمت به . . . وفي الثاني نقلت كلمة من لغة أجهلها كل الجهل، وفي بلاد بعيدة نقلتها بواسطة هذا الحلم العجيب. الحلم الأول أنني رأيت يعقوب فاشة نائماً مع شخص يشبهه تماماً وكأنه شبح له، وقفت مذهلاً أتساءل بنفسي يا ترى؟؟ ! ! من هو يعقوب فاشة الحقيقي منهما؟ ! ! انتهى الحلم.

كان الوقت ما يقرب من الساعة السادسة صباحاً، ففتحت عيوني منزعجاً وحكيت الحلم تماماً إلى زوجتي فيكتوريا بجانبي، وتركنا فراشنا وتناولنا طعام الفطور، وتركت البيت قاصداً شغلي في السرايا باب العامود، وأخذت طريق المدينة القديمة وعرجت على حارة النصارى. هناك كان مقهى سمارة في المخزن الكبير الواقع على منعطف طريق دير اللاتين بجوار الخانقة، وإذ رأيت عدداً كبيراً من عائلة فاشة جالسين، فأخذتني الحيرة لما كنت لم أزل أفكر بما رأيته في الحلم منذ ساعتين فقط، فتقدمت من واحد منهم مستفسراً عن سبب اجتماعهم بمثل هذا الوقت المبكر . . فأجابني تسلم أنت، يعقوب فاشة يا أبا ميخائيل توفي منذ ما يقرب من ساعتين ! !

يا سبحان الله قلت في نفسي هل كانت روحي تشهد روح المرحوم عند خروجها من جسمه تماما؟ ! ! لا أدري . . .

ملاحظة: نعم إن يعقوب فاشة كان جاراً لنا في دار الجوهرية الواقعة في حي السعدية عند طفولتي، وقد ترك وعائلته البيت وسكن المصرارة قبل دخول الحرب العظمى الأولى، ثم نحن تركنا أيضاً البيت بعد الاحتلال البريطاني، وتزوجت وسكنت النيكوفورية سنة ١٩٢٤، ولم أرَ يعقوب فاشة. فما قولكم دام فضلكم؟

الحلم الثاني رأيت نفسي على شاطئ مدينة أثينا وأمامي يجري بسروال صياد أسماك وبيده سمكة كبيرة، فخاطبني بلغة يونانية وقال لي استريزيا استريزيا مراراً. انتهى الحلم.

قمت وفتحت عيوني ليلاً منزعجاً ونبهت زوجتي وسألتها ما معنى كلمة استريزيا؟ قالت أنها شكل سمك في اليوناني. فضحكت وقلت لها معك حق . . الآن كنت في أثينا وقد عرض علي الصياد هذه السمكة لأشتريها وحكيت لها هذا الحلم العجيب. [لاحظ أنني] لم أعرف اللغة اليونانية مطلقاً، وكانت زوجتي فيكتوريا قديرة فيها. إذاً ما هذا السر العجيب، هل روحي تركتني وسرت ليلاً إلى اليونان وشاهدت هذا الصياد بالفعل؟ أم ماذا؟

إنه لم يزل لسر عجيب عند الإنسان، وقد تبين لنا بأن أشخاصاً معرضون أكثر من سواهم في رؤية الأحلام، ويظهر أننا نحن عائلة جوهرية من رؤساء هذه الأشخاص ... فإني ألفت نظر القارئ الكريم إلى رؤية والدي التي هي أشد وأبلى من أحلامي التي تظهر في هذه المذكرات.

صديقي آرتين سانتورجي عازف السانتور

تعرفت بآرتين عازف السانتور الممتاز بواسطة أخي وصديقي (الحلاق ودكتور الأسنان) فيما بعد المدعو هاكوب كراكوزيان من خيار أبناء طائفة الأرمن الأرثوذكس بالقدس، وكان هاكوب يعزف الكمان وله ميل خاص في الموسيقى العربية، وله ماض مجيد وذكريات لطيفة زمن الحرب العظمى الأولى بالقدس، فكان مفتاح لقولاغاصي مدينة القدس، ذلك القولاغاصي المعروف ببطشه وظلمه كما سبق وتحدثت عنه في فصل الحرب العظمى من هذا الكتاب. وإني أعترف بأن صديقي الدكتور كراكوزيان قد أفاد أبناء المدينة بواسطة دخوله بصداقة القولاغاصي، وله فضل كبير عليهم والشهادة بين يدي الله.

أرجع إلى آرتين فأقول هذا الرجل كان عاملاً بسيطاً في البناء، إنما كان موهوباً في فن الموسيقى، فكان يجيد العزف على آلة السانتور حتى لقب بأمير السانتور، وهي كانت آلة نادرة وقد صنع لي واحدة منها لم أزل أحتفظ بها ضمن المجموعة الجوهرية. إن هذه الآلة تشبه نوعاً ما القانون، ولكن أوتارها من النحاس ويعزف عليها بواسطة مطرقة (شاكوش) مزدوجة لكل يد واحدة ومصنوعة من قرن البقر أو الجاموس. إنها بديعة وتطرب ويخيل للمستمع إليها وكأنه بين فرقة آلات كبيرة نظراً لقوة الصوت بسبب أوتارها النحاسية، وتعمل صدى بعكس آلة القانون المصنوعة من أوتار المصران الحنونة.

أما طريقة عزف آرتين عليها فكانت تدهش المستمع إليها، لأنه كان يحفظ المقطوعات الصامتة الكثيرة من سماعيات ودواليب وقطع موسيقية راقصة تركية وأرمنية ثم عربية ويعزفها على السانتور بكل إتقان، وكان هو جذاباً وروحه خفيفة وكريماً في العزف، ويترجم ما ينشد له من العربية في الحال بصورة مدهشة حتى ارتفع اسمه ومكانته، فكانت أغلب سهرات أبناء المدينة يحضرونه في حفلاتهم، ولي معه ذكريات كثيرة فأرافقه على عودي بين المعارف والأصدقاء. والجدير بالذكر أننا كنا نضع فوطة من القماش ونحجب جميع الأوتار المقامة على السانتور فيجيء آرتين ويعزف لك ما أردت، فيضرب بالشاكوش المنوه عنها أعلاه من على الفوطة ويسمعك تقاسيم وقطع موسيقية بدون أن ينظر الوتر بصورة عجيبة.

وقد ازدادت صداقتي مع آرتين، فكان يشتغل في بيتي المعروف في النيكوفورية وفيه المجموعة الجوهرية، وكان عندما أخذته من البطريركية الأرثوذكسية خراباً فكان آرتين يبلط الغرف ويصلح ما أطلبه منه داخل الغرف ثم القصارة والطراشة بإتقان، وبعدما ينهي عمله الشاق يجلس حول مائدة المشروب والمازة وتبادل العزف على السانتور والعود إلى منتصف الليل ... وهكذا. وإني ألفت نظر القارئ أنه عند رغبة العازف بتغيير المقام، فالطريقة هي عكس النمط السائد عند العرب في العزف على القانون، هو تقديم أو تأخير القطعة الخشبية المستديرة والمقامة تحت كل وتر، المؤلف من ثلاثة أوتار نحاسية ... وهكذا.

بقي آرتين في القدس حتى افتتحت الإذاعة ، وبواسطتي تعين وكان يعزف وحده ومع الفرقة على آلته المحبوبة إلى أن ترك البلاد ورجع إلى أرمينيا . ولم يزل ذكر آرتين الساتورجي على ألسنة أبناء القدس ليومنا هذا ، ومع الأسف لم نوفق بعازف سانتور من شاكلته . وإني لن أنسى حفلاته معنا ومع سامي الشوا في مصيف فخري النشاشيبي في قرية عين كارم . . . فسقيا لتلك الأيام ما كان أحلاها !

الموسيقار سيساق عازف العود

على ذكر صديقي الدكتور هاكوب كراكوزيان أقول إنه جاءني ذات يوم إلى السراي - باب العامود - وبشرني بحضور عازف عود عالمي سهر وإياه في حارة الأرمن ، ودعاني لحفلة ساهرة معه في بيته واتفقنا مع الشكر . وهكذا تعرفت بهذا الفنان العجيب في تلك الليلة التي لا أنساها مدى الحياة ، وإني أقولها صراحة إنني لم ألتق ولم أستمع لعزف عود كما شاهدت واستمعت إلى عزف سيساق ، فكان يعزف بمهارة فائقة وبأسلوب عالٍ على مستوى ما سمعته من عازفين ، مصريين كانوا أم أتراكاً .

كان سيساق يميل بالطبع في عزفه إلى الأسلوب التركي ، ويجيد علم النوتة الإفرنجية ، ما أكسبه إتقان عزف العود على أساس متين ، وإني أقول إنه - ولا شك - موهوب ، وقد بقي بالقدس ولم أنقطع عن الاجتماع به لمدة أسبوع ، فتركني بعد انتهاء عملي ألتحق به أين ما كان ، ولنا ذكريات في حي الأرمن لطيفة جداً ، حتى أنني دعوته وأقمنا حفلة نادرة في بيتنا في النيكوفورية ، فطرب لما لمسه من فن الموسيقى وما تحتويه المجموعة الجوهرية ، وقدم لي كتابه بعلم الموسيقى مزين برسمه وتوقيعه على الغلاف ، وأحتفظ به ما دمت حياً ، وهكذا بعد الحفلة التي كانت تضم أخي وصديقي وأخي النابلسي والقاضي محمد يوسف الخالدي ، قبل سيساق النوم عندنا ، وأمضى ليلته وأنا بجانبه على السرير الثاني نتناول أطراف الحديث عن الموسيقى والفن إلى قريب الفجر . وقد أخبرني بأن صديقاً له يعزف الكمان المؤلفة من جوزة الهند ، فأخذنا علماً بذلك وترك القدس وفي قلبنا حسرة على فراقه . . . وفقه الله ، وأدام عمره ، وأكثر من أمثاله إحياءً لروح الفن .

عازف الكمان الهندي

عازف الكمان الهندي ليس هندياً ، بل أرمني ، ولكنه يعزف آلة الكمان الهندية ، وهي مصنوعة - كما قلت - من جوزة الهند وتضم وترين فقط . إني أحتفظ بواحدة تشبهها كل الشبه ومعروفة بالربابة الهندية ، وبالفعل قد اشتراها لي والدي كما كنت ذكرت في الكتاب الأول من هذه المذكرات .

ولكن كان هذا الرجل بحجم أكبر وأحسن إتقاناً في الصنع ، دخل القدس هذا العازف العجيب وبحسب عنوان أعطي له من الموسيقار سيساق جاء تواً إلى أخينا الدكتور كراكوزيان ، وإذ هو حامل آلته الموسيقية هذه وملصق عليها ما هب ودب من الشعارات والماركات التي تدل على أنه كان يتجول من بلد إلى بلد ومن قطر إلى آخر ومن دولة إلى دولة منذ زمن طويل ، وحضر الآن القدس فقلنا ألف أهلاً وسهلاً ، فعاشرته وأكرمت مثواه وجلسنا معه الجلسات الفريدة في كثير من

بيوت أصدقائنا حي الأرمن ، كما أنني قمت بدوري فكانت ليلة ساهرة حول نافورة النيكوفورية ، واستمعنا إلى عزف كمان أو رباب ليس له مثيل ، وكنا نرقص طرباً مع الدكتور كراكوزيان ، وقد دهش بعزفه خاصة أستاذي العم أبو فؤاد حمادة العفيفي ، والمرحوم علي عباس الجاعوني ، وكانت ذكرى أضفتها لذكريات سابقة والحمد لله .

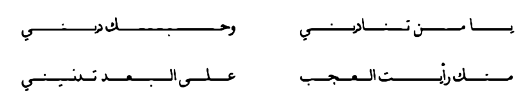
الدكتور منصور فهمي

أدون بكل سرور صلتي مع أستاذي العزيز السكاكيني التي لم تنقطع منذ حداثتي وتعلمي في مدرسته الوطنية إلى يومنا هذا ، أي بعد زواجي كما ذكرت سابقاً . كان الأستاذ أبو سري عندما يزوره أحد من أصدقائه الأدباء من الأقطار العربية أول ما يفكر به أن يحضره إلى المجموعة الجوهرية ، فكان يجلس مع هذا الصديق في عيادة البيطري توفيق الحلاق التي كانت واقعة في حي مأمن الله ، ويرسل تذكرة إلي يقول فيها واصف فلان من أصدقائي وحضر القدس ومن واجبنا إكرامه واطلاعه على كنوز الفن .

فيقوم مجلس الإدارة في تنظيم ما تتطلبه الحفلة بالسرعة ، وهكذا أصدقاء والحمد لله كانوا كثيرين ومن خيار العلامة ، فكنت ألبي طلبه بكل فرح وسرور وافتخار .

هبط القدس الدكتور منصور فهمي العلامة الشهير من مصر ، وبالاختصار زار المجموعة الجوهرية والسكاكيني والصحافي محمد علي الطاهر وغيرهم من الأدباء ، وكانت حفلة أدبية شائقة تجلى فيها العلم والأدب بالإضافة إلى الفن ، وقد أرسل وبعث السكاكيني فحضر الشيخ موسى البديري ، والشيخ محمد الصالح ، فكمل النصاب القانوني . . . وعلا السكاكيني العرش وفي يده الأركيلة حول النافورة بعدما تفقدوا الآثارات والتحف الشرقية ودهشوا خصوصاً من صور الموسيقيين القدماء أمثال عبده الحمولي ، والمنيلاوي ، وعثمان ، ودرويش ، وسلامة ، وأم كلثوم ، ومن ثم آلات الطرب الشرقية في غرفة الموسيقى ، الأمر الذي أعطى صورة واضحة للدكتور منصور عما يحتويه هذا البيت وأهله من فن رفيع .

كان الاستماع إلى الموسيقى من الحضور بلهف ، ما أدخل النشوة والطرب لكل منا نحن المنشدين والعازفين ؛ أي أنا وأخي توفيق ، وقد أثنى الدكتور على ما سمعه من موشحات أندلسية أعترف بأنه لم يستمع إليها من قبل حتى في بلد الفن القاهرة ، وقد كتب في مذكراته الموشح الآتي وشهد الجميع على عظمة التلحين والمعنى في الموسيقى العربية في الزمن القديم . أما هذا الموشح ، فقد تعلمته من عازف القانون محمد حسين السوس ، ومطلعه :



دور

إن طرت أطلال سلمى يا نسيم الصبح بلغ سلامي إلى تلك الوجوه الصبح

رؤياك يحييني والبعد يضنيني

منهم ألفت الأدب من قبل تكويني

وهكذا أقول إن هذه الحفلة كانت من العمر وقد تكرم الدكتور منصور فهمي وأرسل لي فيما بعد رسمه موقعاً بواسطة أبي سري[1] محفوظاً لدي ضمن المجموعة الجوهرية.

[1] أبو سري: هو الأستاذ خليل السكاكيني.

فهيم نسيبة والخليلة كرياكي

كان المرحوم فهيم نسيبة نديماً لكثير من شبان مدينة القدس لخفة روحه وإخلاصه وسرعة نكته، وكان كما بينت أعلاه شديد الولع بالفن والاستماع إلى المطربين، فكان لا يهمه ما يصرفه من مال بهذا الخصوص. وكانت له خليلة تدعى كرياكي تسكن دار وقف النشاشيبي الواقعة في عقبة المفتي[2] أمام ملك سليم بك طهبوب، وفي هذه العمارة قاعة فسيحة الأرجاء ولها قبة مرتفعة جداً، وقد أقام عند كرياكي حفلة سمر دعا فيها الأصدقاء أذكر منهم منير درويش، وراغب العفيفي، وعبد القواس عبد السلام النشاشيبي، وحسن قليبو، وفؤاد نسيبة، وعلي عباس الجاعوني، وأحمد طوطح، وأحمد جاموس شتية، ومصطفى الهندي، وحسين النشاشيبي، وعبد اللطيف النشاشيبي ... وغيرهم، فكانت حقيقة ليلة أنس تجلى فيها الحظ، وكنت أترأس ناحية الفن على عودي، والعم أبو موسى (جاموس) يترأس الفكاهة، وقد أبدع في تمثيلياته الهزلية حتى أغمي على الجميع من شدة الضحك.

[2] في البلدة القديمة.

وكان صاحب الدعوة أبو نعمان في لباسه العربي يميل دائماً إلى اللون الفاتح المعروف بحلي سنونك ... أو سبرافوني ذلك القنباز المعروف لدى جميع معارفه من حيث اللمعة، خصوصاً في النور، ونور الشمس ينعكس على عيونه الدبلانة بل قل العمصاء ... وكان معروفاً عنه بالفوكس[3] ... نسبة إلى عيونه هذه كان أبو نعمان يتغازل وخليلته في تلك الحفلة حتى أننا أقمناه عريساً بجانبها، وهناك ترى أبا نعمان وحركاته وغرامه مع المصونة ... ونحن نزفه كالعريس والجميع يرددون بعدي إتمخترِي اسم الله يا عروسة يا ورده جوى الجنينة ... الخ، فكان منظراً خلاباً. والجدير بالذكر أن الجميع أصبح في حالة حظ وكيف من شدة الشرب، وكان أبو نعمان يجاملنا فيشرب الكازوز الأحمر وكأنه في حالة السكر أكثر من الجميع، إلى أن وصلنا بالكيف إلى التعليقة الآتية:

[3] الثعلب.

> وضعنا طاولة صغيرة على الطاولة الكبيرة في تلك الغرفة، ثم أقمنا عليها كرسياً عالياً من الخشب، وقد تسلقت على هذه المنارة ... ووقفت من على الكرسي حتى مسكت بيدي اليسرى حلقة القبة المرتفعة في الوسط في أعلى البيت، ثم تناولت العود من الإخوان ومن على هذا المنبر السامي بلشت بالعزف والغناء "يا عزيز عيني وأنا بدي أروح بلدي" والجميع يرددون

التّرديدة المعروفة ، وكان مشهداً فريداً من نوعه وابتكاراً جديداً في علم الكيف والحظ ، وبعدها انتقلنا إلى أغنية آه يا أسمر اللون حياتي الأسمراني ، حتّى كنا نتخايل بأن العمارة كلها كانت ترقص طرباً إلى بعد منتصف الليل ، وبقينا على هذا الحال ما يقرب من مطلع الفجر ، ولم نكتفِ بما حدث ، بل تركنا العمارة وذهبنا ، وأنا على عودي وجميع من كان في الحفلة من حولي وخلفي مشياً على الأقدام ، فعرجنا على هوسبيس النسا إلى الطريق المودية إلى باب العامود ، ثم دخلنا الزقاق المؤدي إلى حي المصرارة وجلسنا في معصرة السيرج العائدة -آنذاك- إلى المرحوم عمر الدجاني بجانب فرن الزروق ، وغنينا في المعصرة وسرنا مع هذا الموكب ، وكان جاموس وفهيم وغيرهم يزغرتون ويشويشون وكأنه حفلة عرس تماماً إلى أن أوصلوني إلى بيت والدي في محلة السعدية ، والجدير بالذكر أنك كنت ترى أكثر الناس كانوا يفيقون من نومهم ويطلون علينا من الطاقات والشبابيك على طول الطريق ، وكانت ليلة من العمر لم يزل يذكرها المعارف والجيران وجميع سكان تلك الأحياء من عقبة المفتي إلى الشيخ ريحان .

هذه هي حفلاتنا في الزمن القديم وهذا هو وصف متواضع لما كنا نقوم به ولا أدري لماذا ؟ !

الجواب بسيط جداً وهو تعطش الأهلين إلى البهجة والسرور بعدما لاقوا من الإهانة والمرض والجوع والتشتيت زمن الحرب العظمى الأولى ، زمن ظلم دولة الظلم الأتراك ، فعندما احتلت بريطانيا البلاد تنفسنا الصعداء قليلاً ، ولكن مع الأسف لم تكمل هذه الفرصة ، بل واجهنا شدة ومصيبة هي أشد وأبلى من زمن الأتراك ، وهي ضياع الوطن العزيز بأسره بواسطة المحتلين الإنكليز فيا ويلهم عند الله إنه سميع مجيب !

أخي وصديقي أحمد جاموس

معرفتي بأخي وصديقي أحمد جاموس وهو من عائلة شتية المقدسية منذ القدم ، كانت منذ حداثتي ، فكنت أسكن حي السعدية وهو بجوار ذلك الحي ، وكان اسم جاموس على ألسنة الكبار ، وخصوصاً الأولاد الصغار في معظم أحياء القدس القديمة ، لأنه كان يتجول نهاراً وليلاً ، ويبيع البوظة للعائلات والأولاد . كان يجلس على كرسيه البلدي الصغير ، ويدور دولاب برميل البوظة الخشبي بما فيه من الثلج حول إناء الحليب أو الليمون ، يدوره بيده وبمساعدة مساعده حتى يصبح الحليب أو الليمون بوظة . . . فيسكب القليل منها ويقدمها لنا ثم يحمل ومساعده البرميل وطاولة الصحون والكرسي ويسيران ، وقد نظم ولحن الأغنية المحببة للأولاد آنذاك وهي "دندرمة يا دندرمة شاكريتي دندرمة" ، ويغني هذه الأغنية مع زميله أو زملائه دعاية موفقة يغنيها بأعلى صوته ، ولها أبيات جميلة في هذا الموضوع .

وفي الصباح كان جاموس يبيع السحلب الساخن في إبريق كبير ومن تحته النار في فصل الشتاء ، وينادي سحلب كينور . . . ثم وعند الظهيرة ، وخصوصاً في أيام الصيف يبيع اللحم والعجين وينادي عليها "لية ولحم" ، وهي المعروفة بالصفيحة ، وكان

بالنسبة لظرفه وخفة روحه ودمه يدخل النكات والمرح على كل من رآه واشترى منه وتكلم معه في الشارع، فكان الأولاد والنساء والعائلات ينتظرن مروره في الشارع من الشبابيك والطاقات بفارغ الصبر.

وإني أدون القليل من بعض نكاته، وهو بحكم وظيفته وبيع هذه الأشكال من المآكل والمشرب، فمثلاً:

كان ينادي بأعلى صوته في الظهيرة في الشوارع الرئيسية من باب العامود إلى خان الزيت إلى حارة النصارى وغيرها، وهو يحمل الصدر الملآن بأقراص اللحم والعجين ينادي:

ليه ولحم... ليه ولحم... الله يجيب اللي ما ادردا

أي بمعنى الله يجيب اللي ما أثر عليه هذا السم أو هذا القرف... الخ. والمهم في الأمر أن الزبائن ترد وتقبل عليه بشغف زائد ويتحملون كلامه ولو كان شتيمة... ويشترون منه هذا النوع من الأكل ليس لشيء سوى الاستماع إلى هرجه وكلامه المرح ونكاته النادرة، وكثيراً ما كان يقبل عليه من الفلاحين السذج الذين قلما يفهمون معنى كلامه وسخريته، فيأخذهم العم أبو موسى بالتمثيل ويعمل معهم المقالب حتى يغمى على الحضور من هؤلاء الذين يعرفون المعنى الخفي، الذي كان يقصده أحمد جاموس... بصورة يعجز القلم عن وصفها. وإني أدون هذا الحادث الطريف بالمناسبة.

كنت وأخي توفيق راجعين من مدرسة الدباغة لتناول طعام الغذاء وكان عمرنا ربما في العاشرة أو الثانية عشرة... وعندما وصلنا شارع باب العامود في طريقنا إلى السعدية، إذ كان جمهور مجتمع حول العم أبو موسى لحضور تمثيلية من تمثيلياته المضحكة، وما هي هذه التمثيلية ونحن كنا ولم نزل نحب الفن وحب الاستطلاع على الخفايا:

دخل فلاح غريب على دكان الحلاق المعروف بالأسطة باب العامود، وكان نهار الجمعة، وفي هذا اليوم تكون القدس خصوصاً داخل السور ملأى بالفلاحين الذين يزورون القدس للصلاة في الحرم. فدخل الفلاح الدكان وطلب من الحلاق أن يحلق له في الحال، والعجيب في الأمر أن الحلاق كان يحلق لزبون آخر، وأن كثيراً من الزبائن كانت تجلس في الدكان وكل منهم ينتظر دوره للحلاقة، وقد لفت هذا الفلاح بسبب طريقة طلبه الحلاقة نظر الجميع على طريقة طلبه الحلاقة من العم الأسطة في الحال.

وإذ مر العم أبو موسى ينادي ليه ولحم الله ما يجيب اللي ما ادردا.. غمزه الحلاق الأسطة على غباوة هذا الفلاح فأسرع العم أبو موسى وعمل هذا المقلب:

أخذ الفلاح من يده إلى الشارع وقال له دعني أجس ذقنك... فجسها بيده ثم قال له بكل رزانة ووقار "ول يا زلمة... هذه ذقنك قاسية.. ويلزمها نقع بالماء الساخن من داخل الفم من جوا.." ثم أحضر كرسي من الدكان وأجلس هذا المسكين عليه في منتصف الشارع في الشمس وكان الفصل صيفا... ثم أحضر الماء الساخن وأدخله في فمه، وقال له سكر فمك، فجلس هذا وفمه مغلق ويديه على رجليه من على الكرسي... بصورة مضحكة للغاية... وكان أبو موسى يعدو ويغدو من حوله بدون ضحك، بل بوجه عابس وكأنه الحلاق الماهر إنما كان ينتظر لين شعر الذقن فقط!! ثم ذهب مسرعاً إلى دكان الطزيز بائع الحلاوة، وأحضر السكين الحديد القديمة العظيمة القذرة من هناك... وبدأ يجلخها على

نعله على مشهد من المارة، والفلاح . . . ثم يجيء ويلمس ذقن هذا المسكين ويقول له "ول يا زلمة شو هالذقن . . لسا بعدها قاسية . . . والحضور لا يتمالكون من القهقهة لمدة طويلة إلى أن نفد صبر العم أبو موسى فنرفز . . . وجاء بيده وضرب فيها من أعلى طبزية رأس الفلاح بقوة شاتماً إياه شتائم يصعب عليَّ ذكرها ولكنها نادرة . . . وخاصة بأبي موسى من الوزن الثقيل، ويقول بعدك ما فهمت ! ! فبصق الفلاح الماء من فمه وهرب إلى باب العامود وترك القدس وفي نفسه غصة.

كان أيضاً يبيع الحليب في حلة نحاسية في ساحة باب العامود، فإذا ما أتى أفندي من الباب باب العامود فيبادره بالكلام ومن أعلى صوته "أهلاً أهلاً والله بالمذهب . . ." .

ويسكب له فنجاناً من الحليب الساخن، وبدون أي طلب فيشربه منه شاكراً وأبو جاموس يتحفه من الأحاديث والنكات وهو يشرب، وهكذا كان العم أبو موسى نديم أهل بيت المقدس هذا في النهار، ولكن في الليل. أؤكد للقارئ الكريم أن أي سهرة كانت عائلية، أو رجال فقط، مسيحية أو مسلمين لا يكون فيها أبو جاموس تكون بايخة. . . كما يقولون. فقد كبرت وأخوتي فدخل الإنكليز بدلاً عن الأتراك، وواصلت اجتماعاتي وسهراتي وشطحاتي مع العم أبو موسى، ولن أنسى تلك الحفلات وليالي الأنس والطرب معه ما دمت حياً .

كان أبو موسى يعتبر من الفاهمين للموسيقى العربية ويتذوق الألحان المربوطة من الملحنين القادرين، ويا ويل لكل من غنى بحضوره غناء مخنثاً بعيداً عن الأصول أو نشز بالنغم، فهناك يبرز أبو موسى وهات يا غمز ولمز وتسمع كلام وضحك بين الجمهور، حتى يسكت هذا المسكين ويقف عن الغناء، فكنا نتفقد العم أبو موسى عند معرفتنا بالمنشدين والعازفين على اختلاف أشكالهم وأنواعهم الذين كانوا يهبطون القدس لأول مره، فهناك سهراتنا المشهورة مع المرحوم الشيخ أحمد الطريفي، ومحمد السوسي، وأخي وصديقي درويش السكك، والمطرب محمد علي الأسطة من الشام، وعمر البطش، وعلي درويش المشهور في حلب وابنه نديم، وسامي الشوا، ثم الصفتي وحسنين وعبد الكريم أمير البزق وغيرهم، كان العم أبو موسى معنا عضواً ملازماً، فكان كما يقولون يشتري الحظ والطرب شراء، وزاد على ذلك أنه كان يغني ويجيد بعض الأدوار والموشحات والطقاطيق القديمة، وله صوت حنون، ولكن كان يخرج الغناء بالفكاهة فيحتار المستمع ويتساءل في قرارة نفسه أيهما كان الأفضل؟ !

كان أبو جاموس أديباً في كلامه حتى ولو كان سكران بين الآنسات والسيدات، وهكذا كان يجتمع من أبناء القدس خصوصا طوائف المسيحيين، وأخصهم الأرمن الوطنيين بالقدس، يدخلونه بيوتهم بدون كلفة ويعتبرونه منهم بين عائلاتهم، لأنه -ولا شك- من ذوي الأخلاق الحسنه، وكم من السهرات قضيناها معه بين عائلات الأرمن بالقدس، ثم في بيت المرحوم العم أبو عبد الله وعائلته وصهره جورج مراد، وكان بيت العم أبو عبد الله محجة للطرب والفن، وكان مشهوراً في إخراج وبيع العرق اللبناني الممتاز والخالي من الغش، وكنا في كثير من الأوقات نقف مع أبو موسى ونتبادل العرق من العم المرحوم أبو عبد الله في محل عمله الملاصق لبيته الخاص، وذلك ليس بالكاس، بل في إناء الوقية للكيل والميزان كان يغطها[1] العم أبو عبد الله من زير العرق الصافي ويقدمها لنا هاشاً باشاً . . . فسقيا لتلك الأيام. وقد كانت الأخت أم عبد الله

[1] يغطُّها: يستعملها لإخراج السوائل من الوعاء.

سبباً أساسياً في زواج الأخ أبو موسى فقدمت له زوجته الحاضرة، وكانت مثال الزوجات الصالحات وأنجبت منه أولاداً صالحين.

كان العم أبو موسى يقف على كرسي في السهرات وينادي بأعلى صوته بكلمة "سلانس "؛ أي سكوت باللغة الفرنسية، ثم يبدأ بكلمة وجمل وأحاديث تاريخية فيقول "وكلم الرب موسى بلسان الحال قائلاً كل واحد منكم عليه أن يذبح ثوراً". فنقول له قال جاموز فيجيب لا قال ثور . . . ثم يصل كلمته بشعر قديم مقطع "إنما عليها من أبيها وأمها إذا كلماها بالكلام المعمع."

ثم يتكلم الإنكليزية وهو بريء منها، بل ينصح ويقول من أراد التكلم بالإنكليزية عليه أولاً أن يربط لسانه مثل ربطة الكندرة أي عقدة ومشطة . . . هكذا، ويبدأ يتكلم بكلمات إنكليزية مترابطة من اختراعاته بصورة مضحكة لا توصف . . .

وعلى ذكر التكلم بالإنكليزية له حادث طريف أدونه للقارئ الكريم:

قال أبو موسى كنت في عيد رمضان من السنة الماضية فقمت من نومي وكنت أعزب ولبست جميع ثيابي . . . (ملاحظة: جميع ثيابي في لغة العم أبو موسى أي ألبسة العيد الجديدة الحريرية).

وعزمت مع بعض أصدقاء على قضاء نهار العيد في قومبانية أبو البصل، وكان ذلك، فقضينا يوماً جميلاً ورجعنا من شارع يافا طبعاً وعندما وصلنا الساحة المقابلة للوكاندة فاست الألماني المعروفة بالقدس، التقينا ببعض السياح الإنكليز الذين كانوا يخرجون من باب فندق فاست. فجاءني صديق وهمس في أذني وقال لي لاعبهم يا أبا موسى بوكس . . . ولما كنت في منتهى السكر وعلى جانب عظيم من الحظ جئت لواحد من السياح وانتخبته منهم لأنه طويل القامة مفتول اليدين والساعدين وبدأت أمازحه قائلاً:

بوكس . . . سير . . بوكس . . . وحاولت أن أداعبه في يدي كخبير في لعبة البوكس، فأخذ من حولي يضحكون لهذا المشهد، الأمر الذي أثار الإنكليزي فهجم علي يتمتم بكلمات لم أفهمها وضربني بوكساً قوياً في وجهي كاد أن يطرحني أرضاً، ولكنه دفعني بقوة وصلت بها ٢ كيلومتر والعياذ بالله. فتألمت جداً وحاولت الرجوع عليه وقلت له بلعب معك يا خواجة بلعب معك . . . ويظهر أنه فهم بالعكس أو بأنني اشتمه فناولني بوكساً آخر مثنى وثلاث ورباع . . . إلى أن أغمي علي ونفر الدم من أنفي وفمي فتركني الإنكليزي وأنا حملت بواسطة الأصدقاء وبقيت طريح الفراش في البيت لمدة أربعين يوماً تقريباً.

كان يقص علينا هذا الحادث بإتقان عجيب والجميع يضحكون ويختم خطابه بشتائم غريبة الشكل ومن الوزن الثقيل لكل إنكليزي . . . ولغته . . . وبلده . . . الخ. إلى ما هنالك من شتائم ليوم القيامة.

وكنا نأخذ العم أبو موسى كثيراً من الليالي إلى الحمام؛ حمام العين أو حمام ستنا مريم، وهنالك كانت ليالي يعجز القلم عن وصفها، وكان يمثل لنا وهو عاري، والوزرة على وسطه يمثل لنا الحادث الطريف الذي حدث مع المرحوم عمر الأفكح المسجل في المجلد الأول من هذا الكتاب، وهو أبي أحمد جاموز التلميذ الوحيد الذي تخرج على يده في الهزل والسخرية.

لم يزل أخي وصديقي حياً يرزق[1] والحمد لله وهو يعتبر من كبار أبناء مدينة القدس أمد الله في عمره وأرجو له أن يصل المائة بعد مدة وجيزة بإذن الله .

[1] يقصد عند تسجيل هذه المداخلة من المذكرات.

عين كارم وصديقنا أشيل

إن صديقنا أشيل هو يوناني وشقيق زوجة جرجي سنّي المرحوم الأديب والشاعر في البطريركية الأرثوذكسية بالقدس زمن البطريرك ذميانوس. وكان أشيل قد دخل بالفعل في سلك رهبان قبل الخلاص في الدرجة الأولى، ولكن كما قيل الحب بلاً[2] والعشق سم قاتل، فقد أحب صوفيا ابنة لامبروس تاجر الحجارة الكريمة والجوهرات والأسلحة المعروفة زمن الحكم العثماني بالقدس. وقد تواصل غرام أشيل من صوفيا بصورة فظيعة وأصبح هذا الغرام يضرب به المثل بين أبناء القدس، وحرصاً على سمعة البطريركية سمح لأشيل أن يقص شعره ويترك هذا السلك الديني، وبالفعل كان ذلك وتزوج من صوفيا .

[2] الحب بلا: بلاء.

كان لصوفيا خالة تمرض أرشمندريت روسي رئيس جمعية الروس في عين كارم، وكان يسكن هذا الأرشمندريت في أحسن عمارة في المحل المعروف بالمسكوبية محاطة بالأشجار والرياحين والورود، وقد توفي وكتب في وصيته بأن تستغل هذه الدار من بعده خالة صوفيا نظير أتعابها في آخرة أيامه، وتوفي الأرشمندريت وأصبحت الدار وموجوداتها وبساتينها في يد خالة صوفيا العجوز. ولما كان أشيل من أعز أصدقائنا وله ميل خاص في الفن وشرب الكاس . . . قضينا زمناً طويلاً في صيف سنين عديدة في هذا الدار، ولنا فيها ذكريات خالدة، فكانت جلسات سمر في الليل والنهار لا تنقطع فيها عن الغناء والعزف وشرب الراح، يزورنا فيها المعارف والأصدقاء، وفي الصباح كل منا يواظب على عمله في القدس. وقد تعينت مخمناً لإنشاءات عين كارم، وكنت بعد انتهاء العمل مع المرحوم المختار سعيد نرجع إلى هذا القصر الفخم، ونقضي الأوقات المرحة . . . فسقيا لتلك الأيام.



سامي الشوا

مقهى العرب

وكان مقهى أبو عبد العرب من أهالي عين كارم الواقع بجانب نبع القرية والجامع مجمع الخلان فكنت ترى الأصدقاء والمعارف وخصوصا في نهار الأحد يجلسون فيها ويستمعون إلى الاسطوانات الجديدة التي كان لا يبخل أبو العبد بشرائها ونشرها على الزبائن بسرعة. ولما كانت مياه عين كارم عذبه ومشهورة في فلسطين فكنت ترى كثيرا من الأثرياء وخصوصا المطارنة ينزلون إلى عين كارم (مشوار) ليس لشيء سوى الجلوس على مقاعد هذا المقهى الجميل، ويشربون كاساً من مياه العين.

وكانت عين كارم مصيفاً لأبناء القدس، وخصوصا العائلات والموظفين، نظراً للمناظر الخلابة وجودة طقسها وفاكهتها وماءها العذب وقربها إلى القدس. وإني أذكر -على سبيل المثال- هذا الحادث الطريف :

أحمد شرف وحمادة العفيفي

كان أستاذي بالعود حمادة العفيفي مصيفاً وعائلته في عين كارم، فكان بعدما ينتهي عمله في بلدية القدس ينزل تواً إلى عين كارم، وقد التقى في ذات يوم مع صديقه أحمد شرف قومسير البوليس المعروف بالقدس، وكان هذا -أبي أحمد شرف- مصيفاً مع عائلته أيضا. التقى حمادة وأحمد في مقهى العرب، واتفقا بأن يلعبا معاً الكنكان . . . فجلسا عند العصيرة، وباشرا باللعب المتواصل، وإذ بالمؤذن يؤذن الفجر الباكر، وهناك وقفا مذعورين ومندهشين وبدآ يشتمان بعضهما البعض، وكان المرحوم أحمد شريف من الظرفاء، فقال "الله يقطعك يا حمادة. . ولك إحنا جايين نلعب الكنكان هنا ونقضي الليل في كامله، وعيالنا ماذا يقولون علينا، فهم في انتظارنا، وكانت العائلات في بيوتهم تنتظر بالفعل حمادة وأحمد شرف كل في مصيفه في عين كارم! فتصور كيف كان البشر في تلك الأيام، وكيف كانوا يعيشون مع الزمن براحة وهداة بال لا طمع ولا شغل شاق حتى نسيا الاثنان معاً عائلاتهما اللذين نزلا ليكونا معهما على الأقل أثناء الليل!

وأصبح هذا الحادث الطريف على ألسنة الأصدقاء الذين كانوا يصطافون في عين كارم، ويواظبون في حضورهم إلى مقهى العرب مجمع الخلان.

يحلا العتاب والملام بالليل ما بين الأحبة

قبل زواج الأخ خليل سكن في عين كارم سنة كاملة، وقد استأجر بيتاً قديماً متواضعاً من العم موسى جعنيني وكان وعائلته من أوفى أصدقائي. كان موقع هذا البيت في الزقاق ليت وطاحونة جعنيني ويشرف على الوادي الفاصل بينه وبين جبل المسكوبية، وكان بالطبع مقهى العرب في الطرف السفلي من المسكوبية، فإذا ما جلست على شرفة هذا البيت، ترى منظراً خلاباً يعجز القلم عن وصفه، وكانت تفصل هذا البيت، وبخاصة المقهى، الجناين للقرية؛ تلك الجناين التي تسيل في أطرافها مياه العين وتسقي خضار القرية وفاكهتها.

وقد قضينا الجزء الأكبر من صيف تلك السنة في هذا البيت، كنت وأخي خليل عندما ننتهي من عمل الوظيفة بالقدس نذهب تواً في السيارة إلى عين كارم، ونقضي هناك بعد الظهر والليل، ونرجع في السيارة في صباح ثاني يوم الباكر، وهكذا وكان معنا كثير من موظفي الحكومة تسير على هذه الخطة.

ذكرت في الصفحة الأخيرة لهذا الموضوع أن أبو عيد العرب صاحب مقهى العرب كان مغرماً في اقتناء أحدث أسطوانات الفونوغراف يذيعها ليلاً ونهاراً في المقهى ليكتسب الزبائن. وقد صادف أنني بعدما تناولنا العشاء ذهبت إلى فراشي مبكراً ونمت والعائلة مدة ليست أكثر من نصف ساعة، ثم أفقت على صوت المطرب محمد عبد الوهاب لأول مرة سمعته يغني "يحلا العتاب والملام بالليل ما بين الأحبة" من مقام الصبا؛ ذلك المقام المحبب لنفسي، سمعته وكدت أطير جنوناً من الفرح، لأن هذا الصوت الرخيم كان ينطلق من مقهى العرب المقابل لبيتنا، ولكن لم أستطع أن أوصف شدة تأثري وشعوري في ذلك السكون من الليل، ولحسن الحظ قد أعاد العرب هذه الشطرة ذاتها مثنى وثلاث ورباع، أعتقد حسب طلب الزبائن وحبه هو للغناء، وهكذا زاد طربي وتشوقي وحبي إلى هذه المقطوعة، وكدت أرقص طرباً، وكانت زوجتي وأخي خليل

يقهقهان على مظهري أمامهم. ولكن مضى الوقت الكبير من الليل، وأنا أعيد هذه الكلمات وأغنيها يحلا العتاب والملام بالليل ما بين الأحبة!! ثم نام الجميع وبقيت أنا سهران وهذه الشطرة لم تذهب من ذهني أتدري إلى متى؟!
إنك تعجب عندما أقولها لك وأسرها في أذنك إلى الصباح ... نعم إلى الصباح ... فقمت من فراشي منهوك القوى وعيوني متعطشة للنوم فتناولنا طعام الفطور وركبنا السيارة وأخي خليل إلى عملنا كالعادة، ولم أنقطع عن تمتمة غناء هذه الكلمات إلى ما بعد ظهيرة ذلك اليوم. وبالحال، عندما تركت الوظيفة ذهبت تواً إلى العم أبو ميشيل أبو شنب واشتريت الأسطوانة مطلعها :



عين كارم إبان الانتداب.
تصوير: الامريكان كولوني،
مجموعة خاصة.

بالله يا ليل تجينا	واسبل ستايرك علينا	مين اللي يكتم هوانا	غيرك يا ليل ويدارينا
جيت يا ليل واللي أحبه	سايق دلاله علي	وغلبت أحن في قلبه	وقلبه يزيد أسيه
حبيته من كل قلبي	وكتمت عنه اللي بي	وأخاف أبوح له يجي	يا ليل يصعب علي
أبات أنوح والهوى	فضاح يذل القلوب	والصبر أحسن دوا	للي جفاه الحبيب
يحلا العتاب والملام بالليل	ما بين الأحبة	ده اللوم يقوي الغرام	ويزيد في نار المحبة

هي من نظم أمين الهجين، وقد توفق بتلحين الأستاذ محمد عبد الوهاب، فأدخل فيها كما قلت - آنفاً - مقام الصبا، خصوصاً في النهاية وهذا المقام من المقامات العربية الصرفة المبنية على الأرباع، فجاءت ذرة ثمينة لمن يتفهمها. وهكذا لم يهد لي بال حتى تعلمتها وغنيتها كثيراً وفي مناسبات عديدة للأصدقاء وكنت والله يشهد أنني كنت أطرب عليها ربما أكثر من المستمعين إليها ولله في خلقه شؤون والعزة للفن وأهل الفن.

دوزان القانون في عين كارم وسن القانون بالقدس

كان أخي وصديقي فخري النشاشيبي يحب الاصطياف في قرية عين كارم، وقد استأجر بيتاً عظيماً معروفاً بالبيت الأحمر لجمعية روسية ويقع من شمال عين كارم. هذا البيت كان محاطاً بالبساتين والأشجار النادرة، ويشرف على الجهة القبلية من عين كارم؛ تلك الجهة التي تحتوي على أرقى وألذ المناظر الطبيعية فيها، لوجود عمارة المسكوبية المعروفة، وطريق الجيس، ثم حرس الصلاحية على قمة الجبل من الشرق القبلي.
كان هذا البيت جاهزاً يستقبل ويودع ضيوف فخري النشاشيبي، ومن عرف فخري وحياته وكرمه يقدر ما كان ينزله هذا البيت من ضيوف متنوعين ... لا مجال لوصفهم في هذا الكتاب، وقد قضينا ليالي أنس وسمر وشطحات تحت ظل الأشجار مع نخبة من الفنانين والشخصيات والممثلين الذين كانوا يزورون القدس. وكان أمير الكمان سامي الشوا زبوناً دائماً في أيام الصيف يدخل الفرح والطرب لمن يدخل هذا البيت على كمانه. وإنني أذكر ليالي من العمر مضت مع المرحوم

الممثل نجيب بك الريحاني، خصوصاً عندما كان شـريك حياة خفيفة الدم والروح الفاتنة الحسناء المطربة والراقصة بديعة مصابني.

زار القدس المطرب المعروف الشـيخ محمد الصفتي في أيام حياته الأخيرة، ونظراً لكبره في العمر كانت فرقته الموسيقية وحاشيته عبارة عن أحد عشر شـخصا، وفيها ثلاث أوانس للرقص، كما كان الوقت في تلك الفترة من الزمن يتطلب هذا الوضع.

أقام فخري حفلة دعا فيها الصفتي وجوقته الفنية إلى بيت عين كارم، وذلك في ليلة من ليالي رمضان، والجدير بالذكر في هذا الصدد أن الفرقة الموسيقية الموسـى إليها كانت أكثر عدداً من السميعة . . . كما يقولون، فكنا وأنا واحد من السـميعة ستة أشـخاص فقط، وهم راغب بك النشاشيبي، وعلي بك جار الله، وماجد بك عبد الهادي، وفخري وأخيه حسين، وأنا صاحب هذا الكتاب. وقد صادف أن المرحوم علي بك كان يجلس بجانب عازف القانون، ونظراً للهواء الرطب ونحن تحت ظل الأشجار لم يوفق بشد أوتار القانون أي دوزانه إلا بصعوبة فائقة، الأمر الذي جعل المرحوم علي بك ينفعل وقال: اسمحوا لي بكلمة موجهاً هذه الكلمة إلى راغب بك، فسـكت العازفون والحضور في الحال. قال علي بك إلى راغب بك "يا راغب والله لم أرَ في حياتي أصعب من مسـألتين فقط".

راغب بك وما هم يا أبا الحسن.

علي بك "دوزان القانون في عين كارم وسن القانون بالقدس".

ملاحظة: وكان كلمة مأثورة لها معناها الخاص، إذ كان علي بك بصفته من رجالات القانون الممتازين عند العرب في ذلك الزمن عين في زمن الانتداب مع المسـتر بنتويتش الصهيوني النائب العام على ما أعتقد، عين في لجنة سن قوانين الانتداب في فلسـطين. ولما كان ميل المستر بنتويتش إلى سن كل مادة من التشريع كما نصت المادة الثانية من مواد الانتداب البريطاني التي تقول: "الحكومة المنتدبة مسؤولة عن جعل البلاد في أحوال سياسية وإدارية واقتصادية تكفل إنشاء الوطن القومي اليهودي.

الأمر الذي يظهر لنا جلياً بأن المرحوم علي بك جار الله كان متألماً ويجد المصاعب عند سن القانون. . بالقدس حسب رغبة المستر بنتويتش، فقد قال هذه الكلمة وما فيها من تورية رحمه الله. هذه هي بعض ذكرياتي في قرية عين كارم عروس قرى منطقة القدس.

المستر جيمس إدوارد كامبل

في صيف سنة ١٩٢٢ عندما كان المستر كامبل مساعداً لحاكم القدس ويافا كان يزور القدس ويترأس محكمة خاصة عسكرية تختص بشؤون التعدي على حدود الأراضي من قبل الفلاحين، التي كانت لم تزل تستعمل من قبل الجيش البريطاني، ثم التعويض عنها لمن كانوا يملكونها.

كان المستر كامبل من أطيب رجالات الإنكليز الذين دخلوا في الحملة من مصر عند الاحتلال، وكان دمث الأخلاق متواضعاً وإنساناً في كل ما لهذه الكلمة من معنى، حتى أنه تبين لنا كمرؤوسين بأنه كان ذا وجدان، وكان من الرجالات المعارضة لسياسة الإمبراطورية البريطانية وقصة الوطن القومي اليهودي في فلسطين، وكان عادلاً في أحكامه ويعطف على العرب لما هم عليه من حقوق.

وقد استقال من وظيفته سنة١٩٣١ نظراً لشدة النضال العربي الذي كان في البلاد منذ إعلان نص وعد بلفور. والجدير بالذكر أنه عند تقديمه الاستقالة كتب بالحرف الواحد ما يلي:

"إني لا أرغب أن تكون المسز كامبل أرملة كامبل في فلسطين لسياسة خاطئة". وهكذا ترك البلاد ورجع لوطنه مرفوع الرأس مرتاح الضمير.

كان زميلي داود ياسمينة المترجم الخاص لهذه المحكمة بالقدس، وقد كتب عنه مرات عديدة في الترجمة، وذلك في الصالون الكبير الأول من المدخل الرئيسي للسراي ملك الألمان شميدت باب العامود.

مائة ليرة مصرية وحجر ألماس

ومن حوادث العدل التي اتصف بها المستر كامبل عندما كان حاكم يافا، أدون هذا الحادث الطريف كما حدثني عنه المرحوم والصحافي المعروف عيسى العيسى:

عندما كان أحد بحارة يافا جالسا ويشرب الأركيلة على مقهى البورت المينا، إذ جاءت ابنته وقالت له "بأنه مطلوب للبيت بوجه السرعة، لأن والدتها خلفت مولوداً أنثى الآن" ... ولما كان هذا الرجل في حالة سيئة مادياً وهو يعيل عائلة كبيرة، ترك الأركيلة وتنهد ... وقال "لا حول ولا قوة إلا بالله" .. ثم اضطر على ترك المقهى وسار إلى بيته لاعتقاده بأن زوجته ومن حولها بانتظاره ليقوم بما يتطلب الموقف من سد الحاجة.

ولما كان يسير وحده في أزقة مدينة يافا القديمة إذ لمح "دزدان" على الأرض ... وهكذا لقطه وفتحه فوجد "مائة ليرة مصرية قطعة واحدة" فطار فرحاً ولم يصدق ماذا رأى وأسرع في الحال وصرف المائة ليره من إحدى الصيارفة وأخذ مبلغ عشر ليرات، فصرف منها ما يتطلب من سد حاجات الولادة ... وشكر الباري عز وجل على هذه النعمة ... ثم خبأ الدزدان وفيه التسعين ليره الباقية في صدره ورجع المقهى حسب عادته.

سمع هذا البحار وهو جالس على المقهى الدلال ينادي: "يا أولاد الحلال يا رادين الأمانات واللهفات اللي شاف دزدان فيه مائة ليرة فله منها عشرة حلال زلال". ولما كان هذا البحار أميناً وطيب القلب ويخاف الله رافق الدلال وصاحب الدزدان إلى المخفر، وهناك أقر بما حدث له وأنه قد أخذ العشر ليرات سلفاً لأنه كان في أمس الحاجة لنقود ... ولكن تغلب الطمع على صاحب هذا الدزدان وحاول أن يوفر دفع العشر ليرات الذي سمح بإعطائها دفعة حلال لمن يجد له المبلغ فقال:

أنا يا أخي لا تهمني المائة ليرة إنما المهم أنه كان مع المبلغ حجر ألماس ... وحلف يميناً على ذلك!

"فاستاء البحار وحلف له يميناً قاطعاً بأنه لم يجد داخل الدزدان سوى فئة المئة ليرة وبس" ، ولكن لم يقتنع المالك وهكذا أحيلت أوراق الدعوى إلى الحاكم المستر كامبل .

وعند النظر في هذه الدعوى من قبله ووقف على ألاعيب صاحب الدزدان واقتنع مائة بالمائة بصدق إفادة البحار الذي لم يجد سوى المائة ليرة ولو باع ضميره لكان بالإمكان إنكاره من مرة لأنه وجد الدزدان وحده ولم يره أحد أصدر القرار التالي الغريب :

مسك الدزدان وما فيه من تسعين ليرة وسلمه إلى البحار ، وقال له : "خذ هذا وما فيه من نقود ملكاً لك ، فقد رزقك الله سبحانه وتعالى فيه بوجه الحلال" ، ولكن أرجوك عندما تجد دزداناً يحتوي على مائة ليرة مصرية مع حجر ألماس . . . تبقى تجيبه لأجل أن نرده إلى صاحبه هذا !

فجن جنون صاحب الدزدان الحقيقي وندم حيث لا ينفع الندم ، لسوء نيته وطمعه ، وهكذا أخذ البحري الدزدان وما فيه من النقود بموجب حكم قانوني لا ينازعه به أحد . وانتشر هذا الحادث الطريف من نوعه وحكم المستر كامبل العادل بصورة سريعة ومثيرة لدى الأوساط في يافا ، بل في أغلب مدن فلسطين .

مصطفى سقف الحيط

وقد نسب هذا الحادث الطريف للحاكم المستر جيمس إدوارد كامبل في مدينة نابلس أيضاً ، ولكني أشك في وجود المستر كامبل في نابلس ، وعلى كل حال أدون الحادث لطرافته :

كان حاكم نابلس بعد الاحتلال راكباً سيارته للفسحة من نابلس إلى خارج ضواحي المدينة ، وإذ التقى بولد نحيل راكباً البسكليت فعاكس سيارة الحاكم في وسط الطريق ، الأمر الذي جعله يغضب فأوقف سيارته ونزل وياوره أو مرافقه موقفاً الولد فسألوه عن اسمه فقال : "مصطفى سقف الحيط من نابلس" .

سجل الحاكم اسمه وعين يوم لمحاكمته عنده كمخالف في السير ، وقد أرسل ورقة التبليغ مع مباشر المحكمة ليبلغه فيها يوم وميعاد المحاكمة. ذهب المباشر وبلغ مصطفى سقف الحيط (الحقيقي . . . والمعروف) في نابلس. والجدير بالذكر أن مصطفى سقف الحيط كان أتخن شخص في نابلس .

وفي يوم الجلسة حضر مصطفى سقف الحيط أمام الحاكم بصفته مخالفاً ومدعى عليه للمحاكمة. فلما رآه الحاكم ضحك في قرارة نفسه لما لاحظه من سمن وعلو هذا الرجل ، والفارق العظيم ما بينه وبين ذلك الولد الذي كان يعاكس سيارة الحاكم ولكن تدارك الأمر وسأله :

- ما اسمك؟

- مصطفى سقف الحيط .

- هل يوجد شخص آخر في نابلس يحمل هذا الاسم أيضاً .

- لا يا سيدي قطعياً ، فأنا الوحيد أحمل هذا الاسم .

- إذاً أنت مخالف ويوجد ضبط في حقك . . . ثم قرأ عليه التهمة وكيف أنه صادفه الحاكم مؤخراً وهو راكب البسكليت في طريق كذا . . . وكذا . . وعاكس الحاكم في سيارته .

فما كان من المدعى عليه إلا تبسم وقال بأعلى صوته مستغربا الحادث "أنا ؟ ! ! يا سعادة الحاكم الله يحفظك . . أنا إذا ركبت قطار بيميل . . ! !" . وهات يا ضحك ، الحاكم والموظفين وجميع الحضور في تلك الجلسة . وهكذا فهم الحاكم بأن ذلك الولد قد أعطى الحاكم اسم مصطفى سقف الحيط عن قصد لعظم ثخن جسمه . . . ليس إلا .
وقد فتش عن الولد الحقيقي بواسطة بوليس نابلس إلى أن أحضروه إلى الحاكم فأنعم عليه بليرة مصرية لسرعة خاطره وشدة ذكائه ومرحه . . . والله أعلم .

الفلاح وسيارة راغب بك

كانت سيارة راغب بك النشاشيبي بالقدس بعدما تسلم وظيفة رئيس البلدية من ماركة روز رويز ، وهي من أجود وأفخم السيارات العالمية ليومنا هذا ، وكانت أختها الوحيدة في مدينة القدس ملكاً لحاكم القدس السير رونالد ستورس ذات اللون الأبيض الناصع .
وعندما زار راغب بك لندن قد أرسل برقيه يطلب فيها من أخي خليل الذي كان موظفاً في دائرة البلدية آنذاك أن يلاقيه في كذا من اليوم في ميناء يافا .
وهكذا اتفق أخي خليل والمرحوم عبد اللطيف النشاشيبي ، وكان من أشقى رجالات النشاشيبي ، وأنا ، أن نذهب سوية إلى يافا ، فأخذ عبد اللطيف ما تيسر من مؤونة الكباك اليوناني الفاخر ، وسرنا على بركة الله والسائق كان بسيم اللبناني الأصل ، ومن أشهر السواقين إلى يافا وكلنا طرب ومسرة ومرح .
وبعدما وصلنا إلى ما بعد مستشفى البلدية في محلة روميما على وشك أن نطل على لفتا ، إذ فلاح يصيح مستغيثاً ويشير بيده إلى السيارة ، فأوقف عبد اللطيف السائق فقال الفلاح : "توخذني على قالونية بهالكرش؟
فأجابه عبد اللطيف لا يا عكروت . . بخمس كروش . . اطلع .
الفلاح : "لا بكرش ، عبد اللطيف : طب بأربع كروش ، الفلاح : لا كلتلك بكرش ، عبد اللطيف : طب بكرشين ، الفلاح : لا والله بكرش ، عبد اللطيف طب اطلع وغمزنا .
أقعد عبد اللطيف هذا الفلاح عن يمينه ما بينه وبين أخي خليل . . وكنت أنا بجانب السائق بسيم . وهناك التمثيل والبهلوانية فبدأ عبد اللطيف يداعب هذا الفلاح بصورة يعجز القلم عن وصفها إلى أن وصلنا قرية الفلاح قالونية .

ولكن ماذا؟ هل يترك عبد اللطيف الفلاح؟ لا يمكن فقد سر في أذن السائق فأسرع ومعلومك ماركة الروز رويز فكانت تطوي الأرض طياً . . . وبأقل من لمح البصر وصلنا القسطل والفلاح يصيح بأعلى صوته ويقول يا زلمة القربة . . الكربة . . الكربة. ول . . وتشيف بدي أرجع يا زلام؟ وكان عبد اللطيف يشرب الكياك من القنينة ثم يناولها إلى خليل وخليل يجيبها لي . . . وعبد اللطيف بيده اليمنى يضرب بيده من فوق الطبزية على رأسه ويكيل له من الشتائم من الوزن الثقيل شيء من الخجل كتابته، وترى الفلاح المسكين ينط وكأنه في سيرك، ونحن مغمى علينا من الضحك. وما هي إلا مدة وجيزة دخلنا يافا والفلاح لا يعرف أين هو يستغيث ويقول ول . . وين الكربة. إلى أن أرجعه عبد اللطيف في الباص ودفع له عدا عن أجرة الباص ثلاثين قرشاً عطلاً وضرراً .

إسماعيل بك وبئر معين وقرية صفا

عندما كنت موظفاً في مكتب حاكم القدس العسكري السير رونالد ستورس أذكر أن العم إسماعيل بك حضر إلى دائرة الحاكم وطلب من الحاكم أن يسمح لي بمأذونية اثني عشر يوماً، وكان ذلك، وهكذا أخذنا العود وبمعية العم أبي إبراهيم ذهبنا لقضاء بضعة أيام منها في ملكة القرية المعروفة ببئر معين.



راغب النشاشيبي، رئيس بلدية القدس من ١٩٢٠-١٩٣٤

قد ذكرت الكثير عن صلتي بإسماعيل بك منذ زمن المرحوم حسين سليم الحسيني، وبعد وفاة الأخير لم ينقطع العم إسماعيل بك عن الاجتماع بي في كل المناسبات وقد زارنا في بير معين العم محمود الراغب الحسيني وكان بوظيفة مسجل أراضي القدس آنذاك، وكانت معه سيدة روسية تعزف آلة القيثار، فكانت ليلتين من العمر تجلى فيها الحظ والسرور وامتزج الفن والعزف الغربي والعربي معاً .

ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه   تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

فقد حضر زكي أفندي نسيبة وابنه الأول حسن، وهكذا فارقنا العم محمود الراغب والسيدة الروسية وقيثارها راجعين القدس، أما نحن فقد ذهبنا جميعا إلى قرية صفا من قضاء رام الله، وكان حسن نسيبة يملك فيها الزيتون، وكانت هذه الرحلة تجارية على ما أعلم ما بين إسماعيل بك وزكي أفندي.

كان الاستقبال لنا في هذه القرية (صفا) عظيماً وأقمنا ضيوفاً على أهل البلد لمدة ثلاثة أيام، ولن أنسى لذة ما يسمونه بالمنسف الدسم في الصباح والمساء إلى أن اضطررنا بعدها على ترك القرية مرغمين، نظراً لوقوع حوادث مزعجة ما بين أهالي قريتين مجاورتين لصفا -آنذاك- الأمر الذي جعلنا أن نعرج بوجه السرعة على قرية عين عريك، وهناك ولأول مرة تعرفت على العم سليم سعد وزرناه في ملكه ذلك البيت الفخم. إني أذكر أنه كان يجلس بجوار طلمبة الزيت من بئر خاص للزيت في هذا البيت، وهناك بعدما تناولنا طعام الغذاء الشهي الذي كان على ما أذكر ورق عنب لذيذ، رجعنا القدس منهوكي القوى، فنمت في بيت العم إسماعيل بك المعروف. وكان العم سليم سعد هو عم زوجتي فيكتوريا سعد رحمه الله.

نهاية حكم السير رونالد ستورس بالقدس

كما سبق وتحدثت كثيراً عن السير رونالد ستورس في فصول سابقة من هذا الكتاب، فإني أقول أن هذه الشخصية الفذة من رجالات الإمبراطورية البريطانية، قد لعبت دوراً مهماً لمصلحة الإمبراطورية وكانت من الحجارة الأساس للوطن القومي اليهودي في البلاد. فإنه ولا شك كان ستورس المحرك الأول في تركيز السياسة التي مشت عليها الإدارة المدنية بعدما تحولت من الجبهة العسكرية المحتلة لفلسطين، فالسير رونالد ستورس وسياسته هو الذي خلق في البلاد الأحزاب وعلى رأسها الحزبان المعروفان بالحسيني والنشاشيبي، فقد مهد مع السير هربرت صموئيل لرجوع الحاج أمين الحسيني والعفو عنه وتعيينه مفتي القدس الأكبر، ثم رئيساً للمجلس الإسلامي الأعلى في البلاد، ثم رفع رأسهم حزب الدفاع في البلاد وعلى رأسه راغب بك النشاشيبي، فهذا العمل هو –ولا شك– كان أساساً لتفرقة كلمة أهالي فلسطين من الأساس، وقد حاول بكل ما أوتي من قوة التفرقة ما بين المسيحيين والمسلمين، ولكن لم ينجح ولحسن الحظ وألف الحمد لله، فقد كانت الجمعية الإسلامية المسيحية أقوى من قوة بريطانيا والصهيونية.

كان السير رونالد ستورس من دهاة المستعمرين، وله حوادث عديدة في هذا الصدد، فكان يظهر بالمناسبات أنه صديق وفي للعرب، وبذات الوقت وعند اليهود يظهر لهم بأنه من أقطاب الصهيونية، وإني لم أزل أذكر له هذا الحادث الغريب:

ذكرت سابقاً من هذا الكتاب تفصيلاً عن وقوع أول ثورة عربية من العرب ضد اليهود، وبدأت بالقدس في موسم النبي موسى، فقد ثار أهل جبل الخليل لدى وصولهم باب الخليل في طريقهم داخل السور إلى الحرم الشريف حسب العوائد المتبعة في فلسطين. وقد تعدى العرب بالفعل على اليهود الذين كانوا يقيمون على هذه الطريق، وكانت الخسارة في الأرواح والأملاك كبيرة، الأمر الذي أقام الصهيونية وأقعدها وقد أثر هذا التعدي على هيئة الحاكمين في البلاد من الجيش البريطاني. وهكذا استعدت الحكومة المحتلة استعداداً كبيراً في تمام اليوم الذي يدخل فيه موكب أهل جبل الخليل، والذي يصادف دائماً في صبيحة أحد الشعانين عند المسيحيين الشرقيين.

كانت الثورة الأولى سنة ١٩٢٠، وقد رأيت أيضاً وشاهدت ثورة سنة ١٩٢١، وإليك بعض التفاصيل:

أقام الجيش قوة دفاع هائلة في الثغرة التي فتحت خصيصاً لدخول الإمبراطور ألماني في سور المدينة بجانب المدخل الرئيسي باب الخليل، وهذه القوة التي عززت بالمدافع الثقيلة والدبابات وقوى الجيش المسلح بكامل الأسلحة كان يترأسها صورياً حاكم القدس العسكري السير رونالد ستورس، راكباً على جواده وبألبسته العسكرية. لماذا وضعت هذه القوة على الأخص في ذلك المكان من المدينة يا ترى؟!!

وضعت خصيصا للوقوف في وجه الموكب العظيم وأشاوس جبل الخليل أو جبل النار كما يعرف ليومنا هذا، ولكي لا يسير الطريق المؤدية إلى الحرم الشريف خوفاً من التحرش باليهود مرة ثانية. وإني أذكر أن الجيش البريطاني قد أحضر في هذا الموسم فارساً خاصاً مدرباً على القبض على أي ثائر يريده بالمناسبات بواسطة حبل طويل مجدولا ومحمولا في يده، وبهذا الحبل يستطيع أن يلقي به على عنق الثائر ويجره إليه بسهولة وقد أحضروه من السنغال على ما أعلم.

وصل الموكب في صباح الأحد إلى الجسر الواقع ما بين بركة السلطان ووادي الربابة، وهناك تمهل وبدأ يتبختر دقه دقة، والشباب تلعب بالسيوف والشيوخ تنشد الأناشيد الدينية، وفريق يرقص بحلقات في الشارع وينشد الأهازيج الوطنية، وكانت الأعلام لكل قرية ومنطقة من جبل الخليل مرفوعة، والخيول العربية تسير على نغمات الطبول والنايات، منظر خلاب إلى أن وصل في الثانية من بعد ظهر ذلك اليوم المشهود، وفي هذه العقبة التي تصل ما بين بركة السلطان إلى طرف سور مدخل باب الخليل، أخذ وقتاً أكثر من ست ساعات، وقد ذاق الجيش البريطاني والبوليس والقائمون بالمحافظة على الأمن والمحيطون بالموكب العظيم ذاقوا ألوان العذاب والعطش، وكان الطقس صدفة يميل إلى الحر على غير عادة، ما جعل هذا الحشد يزيد من التحمس والقوة، وكان المتفرجون من ضفتي الطريق ومن شرفات المنازل والمقاهي والمخازن يلاحظون بأن هذا الموكب وفي عيونه تعطش للدم . . . لا بد له من عمل شيء على غفلة.

وقد صدق تنبؤ المتفرجين، وكنت أنا واحداً منهم، فعندما وصل أول الموكب قمة باب الخليل المعروفة بالقدس التلة، ووجد أن باب الخليل الرئيس مغلق، وكذلك الثغرة المعروفة في السور منيعة بواسطة المدافع والدبابات وأفراد الجيش المدجج بأسلحته الكاملة، وبموجب إشارة الحاكم السير رونالد ستورس أخذ الموكب الأول طريقه إلى الغرب متجهاً إلى شارع يافا حتى مشى ما يقرب من نصف الموكب . . وفي أقل من لمحة البصر وبقوة فائقة عاد نصف هذا الموكب للخلف وقابل النصف المتأخر منه، وأنثنى إلى ثغرة السور مهاجماً قوى بريطانيا ومتحدياً المدافع والرشاشات والدبابات وكل قوى الأمن، وكان بالفعل مشهداً مهيباً لن أنساه ما دمت حياً.

ولكن هل تدري ماذا عمل السير رونالد ستورس خوفاً على كسر شوكة بريطانيا، تلافى الأمر وهنا الدهاء فقد قلب وأظهر نفسه وكأنه عربي قحطاني . . . وبدأ يرحب باللغة العربية في هذا الموكب ترحيباً ليس له مثيل فيقول أهلاً . . . أهلاً . . . بالأبطال . . . نعم تفضلوا ومعكم الحق بالمحافظة على العادة بأن تسيروا داخل السور إلى الحرم هيا تفضلوا . . . وهكذا أنقذ الموقف وتجنب حقن الدماء وكسب أرواح الجيوش البريطانية، وهكذا لم يتعدَّ الموكب على أحد عندما رأى أن ستورس يرحب به، وهذا ما كان يبغيه بأن يسير داخل السور وليس شارع يافا، ويعرج على باب العامود، وربما باب الساهرة، ويدخل الحرم من باب الأسباط.

وقد شاهدت بأم عيني كيف أن بطلاً من هذا الموكب معروف بأبي الجدايل، وهو من القيسية؛ أي من فلاحي جبل الخليل قد هجم على الفارس من على فوق حصانه، وخطف منه المسدس بما فيه الحبل . . . ورجع وكأنه كالأسد وسلمها إلى ستورس وهو راكب حصانه . . . فتقبله ستورس بكل حفاوة وإكرام وأعجب من شجاعته النادرة، "ولكن أقولها والخجل يملأ وجهي بأن هذا البطل المنوار قد سلم نفسه ونسي عروبته، وأصبح موظفاً في بوليس القدس وفي يد الحاكمين يدير شؤونهم بأمانة وإخلاص ! !"

هذه لمحة وجيزة من ذكرياتي للسير رونالد ستورس ودهائه في فلسطين، وهي واحدة من المئات، وحقيقة أن هذا الرجل له الفضل الأكبر في تأسيس خفايا الوطن القومي اليهودي.



ستورس في آخر يوم له في الادارة العسكرية.

تصوير: الأمريكان كولوني، أريك واديت ماتسون

انتهاء وظيفة السير رونالد ستورس

صدر الأمر بانتهاء وظيفة السير رونالد ستورس وتعيينه حاكماً عاماً على مستعمرة قبرص. ولما كنت موظفاً في معيته منذ الاحتلال البريطاني، أقام للموظفين من الدرجة الأولى والثانية حفلة وداع، وذلك في بيته الواقع في طلعة المستشفى الإيطالي.

أذكر أن ستورس قد رفع إلى درجة سير بعد زواجه من الليدي ستورس المعروفة بأرملة، فكانت هذه السيدة وكريماتها الثلاث يقدمن لنا الحلوى والشاي وغيره بأيديهن، وقد برهن على أنهن من أرقى العائلات الإنكليزية بهذا التواضع، فلن يدعن أي خادم أو خادمه يقمن بدلاً منهن بالضيافة في هذه الحفلة وقد زاد لطفهن، ولأجل الترفيه، قد قمن لنا ببعض الألعاب، فقد جلسن جميعهن على الأرض والموظفون معهن وسككن معاً أطراف شرشف كبير ووضعنه تحت ذقوننا، وكان في وسط هذا الغطاء ريشه صغيره ريشة طير ... فعندما كانت إحدى كريماتها تنادي بأعلى صوتها بواحد اثنين ثلاثة ... كان المفروض بأن كل منا ومن حوله هذا الغطاء أن ينفخ بأنفاسه بكل قوة ضد هذه الريشة خوفاً من ركوزها على وجهه ... وهناك الضحك والقهقهة، فإذا ما ركزت هذه الريشة على وجه أحدنا ... عليه أن يترك اللعب وهكذا.

وإني أذكر هذا الحادث وقد أخذ دوراً كبيراً بين الموظفين، فعندما بدأنا الجلوس على الأرض من على السجاد والليدي ستورس وكريماتها الثلاث الحسان جلس معنا بدون أدنى كلفة، ولكن أحد الزملاء وهو سامي هداوي ... اعتذر عن الجلوس قائلاً لم يعتد على الجلوس أرضاً ... ثم وقف والجميع ينظرون إليه بكل دهشة وتعجب ... ومن عرف هداوي ومعيشته منذ نشأته وولادته وبيته وحياته ينظر إليه نظرة مخزية، وإلا ما معنى الليدي وكريماتها يجلسن بكل بساطة ليس لشيء سوى الوضاعة والترفيه عن الموظفين ... ولكن لم يسلم سامي من اللذعات الجوهرية على عمله المخزي زمناً طويلاً.

وقد ودعنا ستورس في المكتب ودخل كل موظف عنده واستلم رسمه، وإني لم أزل أحتفظ به ضمن المجموعة الجوهرية موقعاً باللون الأحمر حسب عادة ستورس بالتوقيع آنذاك. كان المستر كاست والمستر مانكتين والمستر بيلي من أقربائه والمحببين إليه. وفي الصباح من [...][1] ركب القطار في محطة القدس، وعندما وضع رجله على الدرجة الأولى التفت للجمهور من المودعين، وكان جمهوراً غفيراً ضم السفراء ورجال الدين لجميع الطوائف والسلك الدبلوماسي والقضاء ورؤساء الحكومة والوجوه والأعيان من العرب واليهود، التفت إليهم وقال الكلمة الأخيرة "أرجو أن أراكم جميعاً في قبرص"..!!

ملاحظة: كانت قبرص تعتبر منفى ومعتقل للمعتقلين السياسيين للإمبراطورية البريطانية آنذاك، وعلى رأسهم المغفور له الملك حسين الأول جد الهاشميين الذي سلمه ابنه عبد الله. ولذلك قصد ستورس بالتمني للمدعوين أن يراهم في قبرص... وكانت النكتة لا تفارقه أثناء العمل والجد، وهكذا أسدل الستار عن ستورس في فلسطين.

[1] ناقص في الأصل

حاكم لواء القدس المستر إدوارد كيث روتش

حيث أني قضيت وظيفتي مدة ثلاثين سنة زمن الانتداب البريطاني في فلسطين، وذلك في دائرة الحاكم العسكري حاكم لواء القدس الإداري أدون هذا الفصل عندما تعين المستر إدوارد كيث روتش حاكماً للواء القدس مباشرة بعد انتهاء وظيفة السير رونالد ستورس من فلسطين:

كما تبين للقارئ سابقاً بأن المستر جيمس إدوارد كامبل تعين لمدة وجيزة ما بين ٢١ إلى ٣٠ حزيران سنة ١٩٢٥ كمساعد حاكم القدس، تعين بعده المستر إدوارد كيث روتش كحاكم بالنيابة للواء القدس بتاريخ ١ تموز سنة ١٩٢٥ بما فيه قضاء يافا آنذاك. وفي ١٢ تشرين الثاني سنة ١٩٢٦ عين المستر إدوارد كيث روتش حاكماً للواء القدس.

سراي حاكم لواء القدس في عمارة مستشفى البطريركية الأرثوذكسية داخل السور بالقدس

وضع الجيش البريطاني يده عند احتلال فلسطين في أواخر سنة ١٩١٧ على أملاك الأعداء الألمان. ومن هذه الأملاك العمارة المعروفة بنزل القديس بولس للألمان الواقعة على بعد مائة متر تقريباً من باب العامود إلى الشمال، وأنه من أملاك الألمان الكاثوليك بدئ ببنائه سنة ١٩٠٢، وانتهي منه في سنة ١٩٠٨، واستعمل مقراً لحاكم القدس العسكري آنذاك. هذا المكان الذي أصبح مدرسة شميدت للإناث.

عندما عين المستر كيث روتش حاكماً للواء القدس سنة ١٩٢٦ ترك هذا البناء واستأجر البناء المعروف بمستشفى دير الروم الأرثوذكس الواقع على الطريق المؤدية لبطريركية اللاتين داخل السور، وقد قسم هذا البناء إلى قسمين، فالقسم الشمالي ومدخله أمام مدرسة مارمتري استعمله سكناً له ولعائلته، والقسم الجنوبي ومدخله من الشارع المؤدي إلى بطريركية اللاتين مخصصه للسراي.

وقد حل محلنا في الطابق الأول دائرة الخزينة في عمارة الألمان باب العامود يترأسها المستر ديفيز الذي خصص القسم السفلي منه بعد تصميمه هندسياً لحفظ العملة الفلسطينية المنوي انتشارها -آنذاك- في البلاد بالنظر لضخامة وقوة بناء هذه العمارة في القدس. وهكذا كانت الاحتفالات الرسمية التي كانت تقام آنذاك في سكن المستر كيث روتش، وكان يدخل المدعون من الباب الشمالي المقابل لمدرسة مارمتري للذكور الأرثوذكسية.

وإني أذكر بأنه عند الاحتفال القومي بموسم النبي موسى لدى إخواننا المسلمين، واستناداً إلى العادة التي كانت متبعة زمن الحكم العثماني بأن يتسلم موكب الاحتفال علم النبي موسى من متصرف القدس، أذكر أن المسلمين عند نزول علم النبي موسى جاؤوا واستلموا العلم من هذا الباب، ومن سعادة حاكم القدس المستر كيث روتش، فكان المستر كيث روتش في تلك الساعة واقفاً وكأنه (ديك الحبش المنفوش).

شاهدنا هذا الاحتفال في عمارة مستشفى دير الروم مرة واحدة، ولحسن الحظ تنبهوا المسلمين لهذا الخطأ الفاحش ورفضوا استلام العلم بصفة دينية من المستعمر، بداعي أن المتصرف زمن تركيا كان مسلماً. وزاد على ذلك تألمهم بما لاقوه من خدعة وخيانة عظمى بإعطاء الإنكليز وطناً قومياً لليهود في قلب بلاد العرب والمسلمين. وكان إلغاء هذه العادة من

أعمال سماحة المفتي الحاج أمين الحسيني ، الذي أمر بتسليم العلم لموكب النبي موسى من المجلس الإسلامي الأعلى بالقدس ، فكانت كما يقولون ضربة معلم .

نبذة وجيزة عن حياة المستر كيث روتش حاكم القدس

قد دونت الكثير عن السير رونالد ستورس في هذا الكتاب ، فقد كان -ولا شك- من أعظم رجالات الإمبراطورية البريطانية في الشرق ، وقد أفاد الإمبراطورية بدهائه وسياسته وتغلغله زمناً طويلاً بين الأقطار العربية ، فوقف على تقاليدهم وعاداتهم وتعلم لغتهم ، وله مواقف شتى ، خصوصاً مع لورنس في الصحراء ، ومواقف بريطانيا الأساسية مع العرب ، وعلى رأسهم المغفور له الملك الحسين الأول . وكان ستورس عندما يتصرف بأمر أتقنه إتقاناً تاماً ، ورغماً عن دهائه وتفانيه لمصلحة بريطانيا ، كانت العرب تتقبل تصرفاته بمرح وسرور وطيبة قلب لما كان عليه من دهاء ستر .

ولكن عندما تعين المستر كيث روتش خلفاً له في منصب حاكم القدس ، تبين لنا أن كيث روتش أراد تقليد أعمال ستورس ، فخرج -ويا للأسف- هذا التقليد مزيفاً بكل ما في هذه الكلمة من معنى . إني بحسب هذا الوصف لا أريد عدم تقديري لمعلومات المستر كيث روتش ، بل أعتقد بالعكس أنه في نظرنا كان أطيب قلباً وأخلص نية من السير رونالد ستورس ، إنما طريقة أعمال المستر كيث روتش كانت موضع سخرية بين الموظفين والمراجعين على السواء ، وقد علمت بأنه كان ممثلاً في حياته ، وله خبرة واسعة في هذا الفن وزميله المستر ألمر هرس مفتش التخمين المعروف عندنا بالقدس ، وإليك بعض تصرفاته :

صادف المستر كيث روتش ، ونحن لم نزل في سراي حاكم القدس عمارة الألمان باب العامود ، أحد المراجعين المدعو إسكندر دعدس من (كما يقولون) قبضايات طائفة الروم الأرثوذكس المعروفين ، صادفه يدخن السيجارة في إيوان السراي فجاءه وعلى حين غرة وبدون سؤال وقد صفعه صفعة على وجهه ثم تركه ودخل صالون الحاكم . ولكن إسكندر دعدس عربد وبدأ يصيح بأعلى صوته ، وأراد الأخذ بالثأر . . . فجئنا له كلنا نطيب خاطره وقد دخل البعض من الرؤساء إلى المستر كيث روتش ، وبعد الأخذ والرد أمر فأدخلنا عليه إسكندر دعدس فوقف له واستقبله بكل احترام ، ثم أجلسه أمامه على الكرسي وقدم له القهوة ثم السيجارة واعتذر .

وكان هذا الحادث موضع بحث لدى موظفي الحكومة والشعب ، وإن دل على شيء فهو يدل على غطرسة المستر كيث روتش وكبريائه بعد الحصول على وظيفة حاكم القدس مباشرة ، ثم وبذات الوقت يدل على طيبة قلبه وندمه .

كان المستر كيث روتش -كما بينت سابقاً- بأنه يسكن في جزء من السراي عمارة مستشفى دير الروم ، والجدير بالذكر أنه كان يباغت الموظفين في ساعات العمل ، وعلى مرأى من المراجعين ، فيدخل الدوائر في الصباح وهو لم يزل في ألبسة النوم "البيجاما" ! ! فتصور !

كان في كثير من الأوقات يجيء مبكراً في (البيجاما) . . . ويأخذ سجل الحضور المعروف بالـ [Attendance] ، وذلك في الساعة السابعة صباحاً ، وهناك عندما يتأخر الموظف عن الوقت يجب عليه مواجهة سعادة الحاكم ليأخذ نصيبه . . . من

التأنيب ، وحتى الموظفين من الدرجة الأولى ، فقد عاملهم مراراً بهذه الطريقة. وكان من المفروض أن يسلم هذه المسؤولية لرئيس الكتبة ، ويترفع عن هذه الشكليات الصغيرة بصفته سعادة حاكم لواء القدس.

كان يحب الظهور والشهرة ، فإذا ما مشى فقد صدق الله العظيم "ولا تمشي في الأرض مرحاً" وزاد على ذلك كان يحب أن تلثم يديه من الشعب ، وخاصة من الفلاح المسكين ، فإذا ما لثم يديه قضيت حاجته ، ولو كانت كبيرة وقضيت في الحال. وقد أذكر أنني كنت زمن الحرب العظمى واشتغلت على عودي . . . في أريحا مع حاكم أريحا المعروف -آنذاك- ب مرجان بك . . . فكان مرجان بك قزماً ، وعلى ما أعتقد أنه كان تركياً ومولوداً في البلاد اليونانية ، لأنه كان يتكلم اليوناني بلباقة ، فكنت وميخائيل القزاز وميناً حلبي وغيرهم نلثم يده ونحصل على أسبوعين مأذونية نقضيها بالقدس هرباً من حر أريحا الملعون.

وزاد على ذلك كان المستر كيث روتش يرتاح ويحب أن يعظم (بالباشا) ، وكثيراً ما كان يخاطب الشعب ويقول "أنت تعرف مع مين تحكي؟ . . أنت تحكي مع الباشا" ! ! وله قصص وأحاديث مضحكة كثيرة في هذا الصدد .

ذهب في ذات مرة إلى الخليل ، وفي الشارع العام عند الغروب لاحظ وهو يقود سيارته المشهورة من الألمونيوم ذات مقعدين فقط ، وقف ورأى بعض القطع الزجاجية المحطمة ومنثورة على الشارع ، وهنالك غضب وصاح بأعلى صوته ، فجاءت الأهالي من الفلاحين وقال لهم "أنا الباشا حاكم القدس ، فاهمين" إنتو لازم تلقطوا القزاز وبدأ يتكلم مع الأهلين. ولكن قامت هناك قيامة المستر كيث روتش ، وقال له "مين باشا؟ . .إنت مش باشا . . أنا باشا بس حاكم القدس . . . وإنت لازم تلقط القزاز معهم ، وهكذا امتثل هذا الشيخ وانحنى مع الأهلين ونفذ أوامر الباشا .

كان يعرج مراراً على مكتب تكسيات زنانيري فراج الواقع تحت كراكون بوليس باب الخليل في المنعطف المؤدي لشارع السرايا – البطريركية اللاتينية. كان يحب المرحوم حنا فراج المعروف بأبي طناس ، فقد كان يوقف له سائقي سيارات المكتب صفاً واحداً ويضربون له سلاماً سيدنا الباشا فيرتاح الباشا جداً لهذا الاستعراض المنظم ، وهكذا امتلك العم أبو طناس قلب المستر كيث روتش حتى ارتفعت الكلفة وأصبح عائلة كيث روتش وفراج منسجمين وكأنهما عائلة واحدة .

وقد شاهدت بأم عيني مرة بأن إحدى السيارات العائدة للمكتب المذكور عرقلت سير سيارة المستر كيث روتش ، وهو راجع إلى السرايا وعندما نرفز المستر كيث روتش وكان شديد العصبية عندما رأى أبا طناس واقفاً قال له : "هل هذه السيارة تبعنا؟ ! ! أجاب أبو طناس نعم يا سعادة الباشا تبعنا واضعاً يده على صدره" ، وهكذا وبالحال تبسم المستر كيث روتش وترك السيارة وشأنها .

كان يمنع المستر كيث روتش كل سيارة تقف في الشارع المؤدي إلى البطريركية بنفسه ، ثم كان يزاحم أصحاب الدكاكين وأكثرهم تجار من اللد من الجهة اليسرى لهذا الشارع ، كان يمنعهم من أن يضعوا أي بضاعة كانت حتى يدخلوها إلى دكاكينهم ويستعيذوا بالقرد عندما يعرج عنهم المستر كيث روتش. وقد صادف أنه وجد صحارة بيض خارج أحد أبواب هؤلاء التجار بطشون فما كان منه إلا أن نزل من السيارة ، وبواسطة قدميه وقف على البيض وكسره تحت قدميه بصورة

فظيعة ومضحكة ونادرة، إلى أن أصبح قدماه إلى أعلى البنطلون بيض في بيض، ثم تركهم ودخل السراي وهو على هذه الحال على مرأى من الشعب بأكمله.

كان في الصباح يحب أن يقوم بالرياضة، وهكذا كان وهو لم يزل في البيجاما يركب البسكليت ويجول بها لمدة طويلة فوق سطح السراي على مرأى من مدرسة الروم وفندق مرقص، وجميع الجيران الساكين حول العمارة السراي.

كان عنده قط أسود (Good Luck) وكان يحبه حباً شديداً، وفي كثير من الأيام كان يأمر بإغلاق جميع نوافذ القسم سكاه، حتى نوافذ السراي لمنع البس العائدة لأصحاب فندق مرقص المجاور لنا من الدخول خوفاً من غرامه مع قطه الأسود! وقد ذكرني هذا الحادث بأحد فصول كراكوز وعواظ[1] عندما يصيح كراكوز بأعلى صوته: "يا فضيحتنا.. يا هتك عرضنا.. بس الجيران نط ع بستنا".

وعندما تعين جورج عيسى نخلة قرط قائم مقام قضاء القدس، كما سأتحدث عنه في الفصول اللاحقة، وكان جورج قرط معروفاً بأنه من أشهر الصيادين... وعندما كنا نعمل في السراي في ساعات العمل، إذ أرسل الباشا القواس خليل خويص الطوري، وطلب من قرط أن يمد الحاكم أو الباشا بارودة الصيد... لماذا؟! لأجل أن يقتل بها بس عائلة مرقص. فتصور، وكان قرط يجلب البارودة معه للمكتب بدلاً من القلم.

وإني لم أزل أذكر بطرب خاص دعوة الباشا في كل سنة لجيران السراي أمثال: باسيل فتالة – نجار زيتون، وحنا وأسبير بلاطة - نجاران، ميناس الحلاق المشهور وغيرهم من أصحاب الدكاكين المجاورة لدائرة الحاكم فكانوا يحضرون بألبستهم الثمينة إجلالاً وإكراماً للحاكم، ويجاملون الباشا بالأحاديث والدعوات الخيرية... وهناك المنظر النادر لشخصية الباشا ونفخته ولباسه ونياشينه... فسقيا لتلك الأيام! وكما قيل ولله في خلقه شؤون. وقد تخلصت مراراً من زيارة الباشا للمجموعة الجوهرية خوفاً من جرح شعور الباشا عندما يرى التحف النفيسة الجوهرية ويعتقد بأني باشا مثله لا سمح الله.

غير المستر كيث روتش الكثير في الإدارة بعد انتهاء حكم السير رونالد ستورس، وقد لاحظنا نحن الموظفين في دائرة الإيرادات أنه كان يعاكس كل من عرف عنه أنه من موالي السير رونالد ستورس حتى أنه قد غضب على رئيسنا مفتش المالية السيد عطا الله منطورة، وأمره بأن يجلس مع الكتبة، أي الموظفين من الدرجة الثانية في غرفة الإيرادات، وكان ذلك لمدة طويلة بداعي أنه هو المسؤول عن ضبط قيود وسجلات الويركو والأعشار -آنذاك- وقد صادف بأن المستر كيث روتش دخل غرفتنا وعين بنفسه مكتباً للسيد منطورة بحذاء المدخل الرئيسي للغرفة، الأمر الذي جعلنا نحن الموظفين نتأثر جداً بصفته رئيساً قديراً لنا، ولكن وما باليد ولا حيلة الأمر لمن له الأمر.

هذا ما استطعت أن أدونه عن حياة المستر إدوارد كيث روتش، وهو قليل من كثير، ولكني أعترف بأنه كان –كما قلت– طيب القلب، ويحب مساعدة مرؤوسيه، ولكنه ثبت لنا أيضاً بأنه كان يفضل الصهاينة عن العرب كغيره من الإنكليزيين الذين جاءوا من قبله ومن بعده، وجميعهم قارئون على يد معلم واحد، فتسامحوا بتنفيذ الوطن القومي اليهودي في فلسطين، وشاطروا السياسة البريطانية الخائنة في بلادنا جزاهم الله شراً.

[1] أنظر الكتاب الأول "القدس العثمانية" صفحة ٨٢.

تحسينات في الإدارة لدائرة الإيرادات وتحويل العملة المصرية إلى فلسطينية سنة ١٩٢٧

كانت العادة المتبعة منذ زمن تركيا بخصوص رسوم الويركو أن يجري تسكير الحسابات السنوية عند كل سنة مرة واحدة، وهكذا كنا نقوم في هذه المهمة، فنسجل تحقق كل مكلف من رسوم السنة الحالية، ثم ندور على حسابه المتأخرات من رسوم الويركو التي لم تدفع منه في حينها على السنة التي تليها، وهكذا وقد أوقف السير كيث روتش هذه العادة، وأصبح تسكير الحسابات العمومية يجري عند ثلاثة شهور، الأمر الذي جعل الموظف لا يستطيع أن يتنفس وكأنه في أشغال شاقة طيلة السنة، ما دفع المستر منطورة –مفتش المالية– إلى إجبار موظفي هذه الدائرة على أن يشتغلوا بعد ساعات العمل القانونية ثلاثة أو أربعة ساعات إضافية بعد ظهر كل يوم، ومرات عديدة ليلاً . . . والعياذ بالله، فكنا –والله يعلم– نقضي كثيراً من أيام الآحاد والأعياد الكبيرة ونحن في الدائرة نسجل ونجمع ونطرح ونقسم وندور الرسوم على كل مكلف حتى يضبط الحساب من حيث اليكون[1] على ما هو مبين في اليومية و[. . .]، هذا ناهيك عن موضوع التنزيلات والظهورات والإعفاءات و . . و . . الخ التي تصدر بموجب سند خاص يعرف بسند الواردات والصادرات، ثم يحفظ كل حسابات اليوم في ظرف واحد لذلك اليوم.

وقد شاء القدر أن تضرب العملة الفلسطينية الجديدة في البلاد، وهناك البلاء الأكبر الذي أزعجنا، فقمنا بدورنا وبسرعة فائقة بإجراء تحويل العملة المصرية من الأهلين، ودفعنا إليهم العملة الفلسطينية الجديدة. اشتغلت في هذه العملية الشاقة وقتاً ليس بالقليل، وذلك بالمساعدة مع زملائي آنذاك توفيق مناويل واميل الكردي، وأنيس حداد، وغيرهم تحت رئاسة المستر عطا الله منطورة، ولما كان ميلي الفطري منذ نشأتي إلى الموسيقى تأثرت بكثرة مشاكل هذه الدائرة التي فرض علي بأن أكون أحد موظفيها، وكانت بطبيعة الحال عكس ميولي ومواهبي الأساسية التي خلقت من أجلها، ألا وهي فن الموسيقى الرفيع، تأثرت ونظمت هذه المقطوعة الزجلية التي تضم أكثر أنواع أشغالنا فيها، وأذكر منها هذه الأبيات:

واللي أدهى من كل ده	ترتيب القواعد
والله تجنن نفضل نحسب ونقول	كرسنه وحنطه وفول
أعشار وويركو على طول	وتحصل وتنزل وتدور لغاية شهر أيلول
وأدخل بالأستاذ وآتي باليومية	من حسابات عام ومفردات شخصية
وواردات.وصادرات	من سابقة وحالية

[1] هكذا في الأصل.

وتحويل العملة المصرية   للداهية الفلسطينية

في الشطب الدكمات   وتعداد الحيوانات

من حبث وليت   واحنا صابرين

فهذه صورة مصغرة تبين للقارئ نوع وأسماء السجلات المختلفة في دائرة الإيرادات يتفهمها ويتذوقها كل من له إلمام في المالية، وخصوصاً الموظف فيها. وقد لاقت إقبالاً حسناً وانتشرت على ألسنة الموظفين وكنت أغنيها على عودي في كثير من المناسبات وجلسات السمر والسهر مع الرئيس السيد عطا الله منطورة، وخصوصاً في ليالي رام الله زمن القائم مقام متري فراج والمرحوم الدكتور سعد الله القسيس. ولما سئلت من قبل السيد منطورة عن القصد في تأليف وتلحين هذه الزجلية، أجبته "في استطاعتي أن ألقنها وأعلمها موسيقياً لمن يرغب أو يطلب وظيفة في دائرتنا، بدلاً من امتحانه كما هي العادة الآن! ! وهناك الضحك . . . فسقيا لتلك الأيام!

ملاحظة: ألفت نظر القارئ إلى وضعي كلمة (الداهية الفلسطينية) فأقول نعم إن العملة الفلسطينية التي ضربت خصيصاً لفلسطين من بنكوت ومعدن كتب عليها كلمة في اللغة العبرية ضمن قوسين (أرض إسرائيل) هذه الإشارة كتبت عليها ومع كل أسف تقبلها أهالي فلسطين العرب وتداولوا بها، وكانت شبه إقرار منهم بأن فلسطين هي أرض إسرائيل، وبقيت تداول العملة هذه إلى نهاية الانتداب البريطاني أي ١٥ مايو سنة ١٩٤٨، وكان لسان عرب فلسطين يغني القصيدة التي مطلعها:

إذا كان خصمي حاكمي كيف أصنع   لمن أشتكي حالي لمن أتوجع

وهي من القصائد المعروفة للمطرب الشيخ أحمد حسنين.

بيموت الزمار واصبعه يلعب

ذكرت للقارئ في الفصول الأخيرة من هذا الكتاب أن الحاكم المستر كيث روتش أدخل تحسينات كبيرة في إدارة دائرة الإيرادات، الأمر الذي سبب تعباً لكل من كان يشتغل في هذه الدائرة، وقد شدد بالفعل المراقبة والضغط على حرية السيد عطا الله منطورة بصفته الرئيس المسؤول الأول علينا، وهذا بدوره قد شدد على المرؤوسين حتى أصبحنا نقضي أكثر ساعاتنا اليومية في الدائرة، بما فيها أيام الآحاد والأعياد. كنا نذهب لتناول طعام الغذاء ونرجع بعدها للشغل بصورة لا تطاق، وكان فريق منا مؤلفاً من نخبة مدمنة على الخمور فبدلاً من الذهاب إلى بيوتهم في وقت الغذاء يذهبون ويقضون ساعات معدودة في حانة معروفة في حي النصارى لصاحبها الخواجة مينا اليوناني، وفي هذه الحانة يشربون ما تيسر ويتناولون الخمرة . . . وبعض المأكولات الخفيفة التي تناسب المقام، ثم يرجعون إلى الدائرة في عمارة مستشفى دير الروم للشغل في حالة حظ وكيف.

كانت هذه الفئة تضم ما شاء الله محمد عارف مدير المال، وإبراهيم العلمي مأسور الويركو، ثم الأعضاء في الحانة . . . سليمان يونس، وسليمان الوعري، والنديم يعقوب برامكي، وسابا الشماع، وبعض الحاشية من محصلي الأموال، ومأموري الحجز أمثال عبد الرحمن الأنصاري، وفؤاد القطب، وشكري النشاشيبي . . . وغيرهم.

وقد صادف بعد ظهر نهار الأحد وجميعنا في المكتب على أتم الحظ والانبساط . . . بينما العالم في أسره في بيوتهم، جلس كل منا على مكتبه لا يستطيع أن يميز رقم واحد من رقم ٩ ! ! أخذتنا نشوة الخمر وبغمزة من مدير المال بدأت أغني بأعلى صوتي قصيدة:

غيري على السلوان قادر	وسواي بالعشاق غادر
لي في الغرام سريرة	والله أعلم بالسرائر
ومشبه بالغصن قلبي	لا يزال عليه طائر
حلو الحديث وإنها	لحلاوة شقت مرائر

وهي من تأليف الشاعر عمر بن الفارض، ومن تلحين وغناء الموسيقار المعروف المرحوم الشيخ أبو العلاء محمد، وقد أبدع المطرب الشيخ سيد الصفتي في غنائها أيضاً، خصوصاً في مقهى العارف بالقدس. إنها من أروع القصائد معنى ومغنى، وقد سرت فيها على أصول الواحدة، فهاج الموظفون وماجوا طرباً، وكان كل واحد منهم والقاعة كبيرة يطلب الإعادة مني ويتأوه بالآه . . . وكانت ساعة من العمر لعن كل منا الوظيفة وحجز الحرية . . . ولكن كما قيل "وعند صفو الليالي يحدث الكدر."

فقد تركت الموظفين وسرت إلى الباب الرئيسي فنظرت، وإذ السيد منطورة واقف وعيونه من تحت النظارات تشع كالجمر من شدة الغضب . . . والعياذ بالله. فبالطبع دهشت جداً من منظره وقفلت راجعاً أقول للموظفين بصوت خافت:

"ولك . . . المستر منطورة . . . المستر منطورة في الإيوان. ."

ولكن من يسمع، بل أغلبهم قال بأعلى صوته بلا منطورة وتنطورة . . . شو بجيبه الآن في هذا الوقت واليوم الأحد. وبعد برهة من الزمن، إذ قرع الجرس من غرفته فذهبنا جميعاً وعلى رأسنا مدير المال، وأخذنا نصيبنا من الإرشادات القيمة . . . وكانت العين علي أنا بالذات، فقال لي وأنت يا واصف أهكذا تكون الوظيفة؟ ! ! أغاني في دائرة الحاكم؟ ! !

فأجبته إني غنيت شطرة واحدة من القصيدة وصدفة كانت في حضورك.

قال: لا . . . لا تكذب، كنت واقفاً خارج الغرفة أتسمع أكثر من نصف ساعة . . . وهناك حكت النكتة الجوهرية، خصوصاً وأنا على جانب عظيم من الحظ، فقلت له: "إذاً يا سيد كنت مبسوط . . . وإلا لماذا لا تدخل علينا؟ !

وهات على ضحك ، ولكن سراً بكبت الأنفاس من المجموعة الواقعة . . . الأمر الذي زاد السيد منطورة غضباً فصاح بأعلى صوته كفى . . . كفى . . . مساخر ، وهكذا خرجنا وعلى رؤوسنا الطير . . . وبعدما ترك السيد منطورة الدائرة تركنا الدائرة نحن بدورنا بلا رجعة. حتى جاء الوقت المناسب ورضي عنا بعد أيام ولم يعاقب أحد .

وقد شاء القدر أن يدخل السيد منطورة مرة أخرى في ذات يوم من بعد الظهر ، إذ سمع عشور عشور يغني قطعه "يا أختي عليها . . وعلى بطتها . ." . . . الخ. وكان صوته مثل لعنة الله على الكافرين ، فنرفز بالحال ورجع إلى مكتبه ، ولكن لم يفاتح عشور ولم يؤنبه على عمله هذا .

والجدير بالذكر قلت للموظفين في الحال "يظهر أن السيد منطورة يميل إلى الطقاطيق ، وإلا لماذا لا يكلم ولا كلمه واحدة مع عشور؟ ! أما أنا فكنت أغني أروع القصائد معنى ومغنى ، وعلى إيقاع خاص ، فكان نصيبي أن أسمع منه كلاماً قاسياً ، فبالله عليك أهذا هو العدل؟ !

وقد وصل هذا الكلام حرفياً للسيد منطورة فضحك وقال حقاً إن واصف فنان فدعه وشأنه . . . وقد اعترف لي بذلك بمناسبة سهرة عائلية وقص عليهم ما كان يدور في الدائرة من غناء وهيصة في ساعات العمل وبعدها .

النأي تحت نوافذ الدائرة

إن نوافذ القاعة الكبرى من مستشفى دير الروم التي –أي القاعة– كانت مستعملة دائرة الإيرادات كانت تطل على الشارع مباشرة. هذا الشارع هو شارع البطريركية اللاتينية المكتظ دائماً وأبداً بالبشر لوجود مخازن البقالة فيه. ولما كنا –كما قلت سابقاً– نشتغل أياماً كثيرة بعد الظهر ، بالإضافة لساعات العمل القانونية اتفقت مع [عازف] ، الناي -آنذاك- المدعو أبو داود فيضي أعمى يتكأ على ابنه ويتجول في شوارع القدس على نايه القصب من الحجم الكبير. وكان –رحمه الله– من أروع [عازفي] الناي خصوصاً من مقام النهاوند ، وكان الناس يعطفون عليه ويعطونه ما قسم حسنة لوجه الله .

اتفقت وأبا داود أن أدفع له عشرة قروش عندما يحضر ويجلس تحت النوافذ على الناي لمدة وكان ذلك ، ولكن عملي هذا السري اضطر السيد منطورة بعد مدة من منعه بواسطة البوليس ، الأمر الذي أغضب [عازف] ، الناي. وفي ذات يوم عرج المستر كيث رونش وشاهد البوليس يمنع أبا داود ويقوده إلى جهة باب الخليل ، فصاح أبا داود وشكا أمره إلى الحاكم الذي كان يتجادل مع البوليس شفقة منه على السائل ، إلى أن كانت النتيجة بأن المستر كيث رونش صرح لهذا الفاجر بالبقاء تحت النوافذ ، وخصوصاً بعد الظهر ، عندما تكون السرايا مغلقة وتناسى أن قسم الإيرادات يواظب على الحضور ، بما فيه واصف صاحب هذا الكتاب العاشق الولهان للموسيقى ! !

كان ذلك لحسن حظنا ، فكنا مراراً نشتغل على أنغام عربية مطربة ، وقد ربحنا بهذه العملية تغيب السيد منطورة بيننا ، لأنه كان لا يطيق الاستماع لموسيقى أو غيرها ، وهو في عمله ولم يعرف من قام بهذه المؤامرة .

إشتي وزيدي بيتنا حديدي

وإني أدون هذا الحادث الطريف ختاماً لما كنا نقوم به من أعمال صيانية وسخريه في هذه الدائرة خدمة للتاريخ :
في ذات بعد ظهر من يوم تلك الأيام والسيد منطورة بيننا والجميع منهمكون بمهمة حسابية أخذت وقتاً طويلاً لحلها وهي تطبيق أجمال قيد الأستاذ بدوائر تحقق الويركو ، وإذ تغير الجو وهطلت أمطار خفيفة. وقد صادف أن عدداً من أولاد الأزقة مروا بالشارع تحت نوافذ الدائرة، وهنالك بدأوا يصيحون بأعلى أصواتهم عندما شعروا بالشتاء : "إشتي وزيدي بيتنا حديدي عمي عطا الله" .
فلم أتمالك نفسي ، بل قفزت على الشباك ونهرتهم بأعلى صوتي ، الأمر الذي لفت أنظار جميع الموظفين وعلى رأسهم السيد عطا الله منطورة ، الذي بدوره وبسرعة فائقة ترك الدائرة وخرج منرفزاً ، وهكذا بعد خروجه من المكتب طاب الميدان لأم حميدان ، وهات يا ضحك ، وكانت حادثة موضوع البحث لدى جميع الموظفين ، خصوصاً بعد فئة الدرجة الثانية .
ملاحظة : أهالي القدس خصوصاً يعرفون هذا المديح الذي كان على لسان أولاد الأزقة يتجولون في شوارع القدس داخل السور في مناسبات الشتاء ويقولون :

إشـــتـــي وزيـــدي   بـــيـــتـــنـــا حـــديـــدي

عـــمـــي عـــطـــا الله   كـــســـر الـــجـــرة

طـــلـــعـــوا فـــصـــوصـــه لـــبـــرا

وعليه أنا تداركت الأمر عندما وصلوا الأولاد إلى كلمة عطا الله . . . والمعلوم أن السيد منطورة اسمه عطا الله وحاولت أن أوقفهم عن تكميل الشطرة خوفاً من وقوع ثورة بين الموظفين .

زلزال سنة ١٩٢٧ بفلسطين

كانت الساعة الثانية تقريباً من اليوم الواقع في ١٤ تموز سنة ١٩٢٧ عندما كنت ملقى على السرير في الفترة بعد الغداء ، إذ سمعنا أولاً صوتاً مرعباً كهدير الرعد البعيد ، ثم شعرنا بالزلزال ، وكان –والحق يقال– مخيفاً جداً ، لأنه شديد واستمر مدة ليست قصيرة ، والدنيا تتأرجح والبيت وما يحتوي من أثاث وإناء يتراقص والعياذ بالله" . كانت فيكتوريا شريكة الحياة في اليوم الأول من تركها السرير بمناسبة مولد ابنتنا ليلى في ٢٩ حزيران سنة ١٩٢٧ فانزعج كل منا في البيت ، ولكن نحمد الله ونشكره بأن لم يصبنا أذى ، ولم يؤثر هذا الزلزال على جدران البيت ولا سقفه مطلقاً مع أن العمارة قديمة جداً ، فالله سبحانه لطف بنا وبعباده .
وبعد الزلزال مباشرة تركت البيت وخرجت ، وإذ وجدنا أن كثيراً من البناء خصوصاً داخل السور بالقدس تشعث ، ومنه هدم للحال ، وقد تأثر حتى السور نفسه من الجهة العليا المرتفعة عليه في محلات كثيرة بالقدس. وقد أثر هذا الزلزال

على أهم العمارات المشهورة بالقدس، وخاصة على كنيسة القيامة، والمسجد الأقصى، وقبة الصخرة، وحتى على تلك العمارة المعروفة بنزل الأوغستا فيكتوريا للألمان المقامة على جبل الزيتون بالقدس. ومنذ ذلك التاريخ دخلت أيدي بريطانيا ونواياها الاستعمارية في كنيسة القيامة على حد ادعائها بأن البناء أصبح خطراً، وهي المسؤولة الأولى في البلاد، فجاءت بالمهندسين البريطانيين الذين أجمعوا على خطر كنيسة القيامة من الهبوط، وباشرت -رغماً عن اعتراض أصحاب المصالح من الطوائف المختلفة في هذه الكنيسة، وخصوصاً اليونان- باشرت بنزع جميع الأيقونات والقناديل والثريات التي كانت تزين الكنيسة ومحل القبر المقدس من الداخل، وربطت جوانب الأعمدة والجدران من الداخل بالحديد والخشب والبطون المسلح، وأقامت ركيزة كبيرة من الحديد والإسمنت المسلح على الحائط القبلي فوق مدخل الكنيسة الرئيسي، ما شوّه منظر كنيسة القيامة، وبقي هذا بدون انتهاء ليومنا هذا.

وقد ثبت بأن هذا الزلزال لم يحدث في البلاد منذ أكثر من مائة سنة، وكان باتجاه الشمال، فقد أثر كثيراً على مدينة نابلس وضواحيها، ثم مال إلى الشرق، والغور، والبحر الميت، وإلى القدس عن طريق العيزرية والطور فأقامت أضرار عظيمة في الممتلكات. وإني أذكر بأن الكشف على جميع ممتلكات القدس وخصوصاً الداخل منها جرى في الحال من قبل المهندسين والمعماريين، وقد أظهر جارنا المعلم عيسى نخلة قرط معلوماته القيمة في هذا الصدد، وبموجب تقاريره لعدة عمارات هدمت في الحال من قبل عمال دائرة الأشغال والبلدية خوفاً في سقوطها على رؤوس الأهلين.

والجدير بالذكر في هذا الصدد أنني احتفظت بمجموعة قيمة من رسوم المنازل المهدومة والمتشعثة في كثير من البلاد في فلسطين، وأهمها مدينة نابلس والقدس، لم تزل محفوظة هذه الرسوم ضمن المجموعة الجوهرية للذكرى.

المطربة خيرية السقى

زارت القدس المطربة خيرية السقى وفرقتها الموسيقية في أيلول سنة ١٩٢٨، وقد أقامت حفلات على مسرح مقهى المعارف خارج باب الخليل، وكان الإقبال عليها شديداً من أبناء مدينة القدس. كانت الفرقة مؤلفة من عازف كمان يهودي، وعازف القانون، وضارب العود، ثم شاب أنيق يحسن الضرب على الرق بصورة نادرة. كان صوتها مشبعاً وحنوناً، وكانت تغني بحشمة وابتسامة بريئة تدخل الطرب على كل من استمع إليها وشاهدها وهي تغني، وقد كانت بالفعل قديرة بإبداء الفن، خصوصاً القصائد منه.

كنت أنا وبعض أصدقائي المعروفين بميولهم الفنية من أبناء القدس نأخذ الصف الأول في المقهى، أذكر منهم المرحوم طاهر يونس، وحسن الأزهري، وكامل يونس، وحمادة العفيفي، وعبد الحميد قطينة، وحسين النشاشيبي، وعبد السلام النشاشيبي، وعبد الحليم الطبجي، وعلى رأسنا علي عباس الجاعوني، وكنا نحكم على كل نهفة قيلت أو عزفت على الآلات، فنزيد من حماسها ونطلب المزيد والإعادة، حتى أني أذكر أن ليلة من هذه الليالي بعدما انتهى الوقت المعين في المقهى، وبموجب خطة مع إبراهيم بك استانبولي قومسير بوليس كراكول باب الخليل، بقينا في المقهى وحدنا مع المطربة

خيرية وفرقتها حتى الساعة الثالثة صباحا تجلت فيها خيرية وأبدعت كل الإبداع، وكانت -والحق يقال- بمناسبة وجود هذه الشلة المنتخبة من أبناء القدس المعروفين بميولهم الفنية وتقديرهم للموسيقى كانت ليلة من العمر.

وقد حمست صديقي راغب بك رئيس بلدية القدس بالاجتماع بها والاستماع إلى غنائها، فكان ذلك، فأحيينا ليلة في بيتنا في محلة النيكوفورية ضمت نخبة من: راغب بك، وعلي جار الله، وإسحاق البديري، وماجد بك عبد الهادي، وحمادة العفيفي، وتوفيق مراد، وراغب العفيفي، وفخري النشاشيبي، وحسن صدقي الدجاني ... وغيرهم.

القلم يعجز عن وصف تلك السهرة، وقد أهديت ناقر الرق رقاً جميلاً من المجموعة الجوهرية للذكرى. لم أزل أذكر القصيدة التي أبدعت خيرية في غنائها إبداعاً عظيماً من مقام الحجاز كان مطلعها:

أحمامة الوادي بمنعرج اللوا	هيجت ويحك لوحتي بكاك
لا تنكري عني سألتك مقسماً	بحياة من أبكاك ما أبكاك
أما أنا فبكيت من ألم الجوى	وفراق من أهوى أأنت كذاك

تعلمت هذه القصيدة لحناً من المطربة خيرية، وكنت أغنيها بكل إتقان في سهراتي العديدة بعد اجتماعنا بخيرية، ونذكر هذه المطربة ونثني عليها ليومنا هذا ... فسقيا لتلك الأيام!

أذكر أيضاً أنه عندما بدأنا في السهرة في بيتنا فضلنا إقامة الحفلة في الساحة الخارجية للبيت التي تظللها جذوع الكرمة المورقة حول نافورة الماء بين الأزهار والرياحين، ولكن عندما عزفت الفرقة الآلية وغنت المطربة خيرية أصبح سور الدار العمومي ومن جميع أطرافه محاطاً بأناس مختلفين، الأمر الذي جعلنا نتعجب، فدخلنا المتحف اضطراباً، ودهشت خيرية لما شاهدته من روائع الفن، وعلى الأخص الآلات الموسيقية ورسوم فطاحل المطربين والملحنين والعازفين القدماء، التي تزين جدران غرفة الموسيقى المؤدية لمدخل قاعة المتحف الأثرية المشهورة.

المنوم المغناطيسي الدكتور داهش

تعرفنا بالدكتور داهش في بيت السيدة فريدة القطان الواقع في آخر منازل الدهيشة طريق الخليل. إنه من عائلة سريانية متواضعة كانوا يسكنون مدينة بيت لحم، وظهرت مواهبه في فن التنويم المغناطيسي منذ الصغر، فقد تعلم وطالع وصرف العمر الأكبر من حياته في التنقيب والتفتيش عن زوايا هذا العلم حتى أصبح دكتوراً له شهرته وقيمته المرموقة.

كان يقيم الحفلات في كثير من مسارح القدس والمنازل في القدس وبيت لحم، حتى استهوى قلوب المشاهدين، وأصبح نجمه يتلألأ في هذا العلم النادر الظريف. تواصلت صداقتي مع الدكتور، وكنا نقضي الليالي الطويلة ندهش بالفعل من أعماله عندما ينوم أخته المعروفة بأنطوانيت، وله حوادث عجيبة بين الأهلين القلم يعجز عن وصفها.

أما أنا فكنت باطناً أعاكس أعماله وأعتبر معتقداً أن هذا العلم هو "نقل الأفكار" ليس إلا . . . إذ أن الدكتور داهش أو غيره لا يستطيع مثلاً أن يتنبأ ويذكر اسم القاتل أو السارق الحقيقي بدون أن يكون عالماً بهذا الاسم "إما هو نفسه – أو أخته أنطونيت نقل إليها من قبل الشخص الذي جاء خصيصاً ليعرف المجرم، فإذا كان الفاتح يضمر في قرارة نفسه الاسم ولو عن سبيل الشك، فبالحال تنتقل أفكاره هذه إلى الوسيط التي هي أنطونيت، والتي بدورها تذكر ذات الاسم إلى الدكتور داهش وهذا يذيعه على الشخص أو الأشخاص المعنيين في هذا الأمر .

مثلاً : عندما يسأل الدكتور داهش الوسيط [أخته أنطونيت] ما هو الرقم ذات فئة الليرة الفلسطينية التي توجد بين يديه أو يدي الشخص الفاتح؟ ! ! أقول جازماً إذا ما قرأ الدكتور داهش هذا الرقم بقرارة نفسه، أو إذا ما قرأه الشخص الفاتح لا تستطيع أنطونيت أن تذكر الرقم ولا بشكل من الأشكال، وإليك ما حدث معي بالذات في هذا الصدد :

كما في سهرة عائلية في بيت روزة القطان ما بين بيت جالا وبيت لحم طريق الخليل، وقد تجلى الدكتور داهش في أعمال ونال رضاء الجميع. ولما كانت الوسيطة أنطونيت نائمة جاءها الدكتور وسألها بعض الأسئلة، كت طلبتها بخصوص بيتنا في النيكوفورية تتعلق بالمجموعة الجوهرية، وما أصبو إليه فيها في المستقبل إلى ذلك من كلمات. وبعدها سأل الدكتور أنطونيت ما هو لون المنديل الذي يحمله أخي واصف في صدره؟ !

كان لون المنديل الذي كنت أحمله أحمر قاتماً "عنابياً" وبالحال (وقبل الإجابة عن سؤاله قلت في قرارة نفسي أن لونه أبيض) . وهكذا نطقت أنطونيت وقالت "لونه أبيض . . . " .

هناك نرفز الدكتور داهش وانفعل وفضح أمره لدى الحضور، وقد أقام بالحال أخته من نومها . . . على الأثر .

وهكذا أثبت له وللحضور أن هذا العلم هو "نقل الأفكار ليس إلا . . " لأنني عندما غيرت فكري، وقلت في قرارة نفسي أن لون المنديل هو أبيض وليس عنابياً، نقلت هذه الفكرة في الحال إلى أنطونيت النائمة وفاهت بها وهي عكس الحقيقة تماماً كما بينت .

وإني زيادة في الإيضاح لإثبات ما أقوله بأن التنويم المغنطيسي هو نقل الأفكار ليس إلا، ولا يمكن ولا بوجه من الوجوه بيان الحقيقة المجردة للفاتح . . . أدون للقارئ المثال الثاني التالي الذي هو أشد وأدهى مما سبق. حصل هذا بالفعل مع أخي خليل وبشهادة أخينا وصديقنا توفيق أفندي مراد رئيس كتبة دائرة بلدية القدس زمن رئاسة راغب بك النشاشيبي :

أخي خليل والدكتور سلمون الشهير

اشتغل أخي خليل موظفاً في البلدية، وعندما كان يقابل إرسالية تحصيلات رسوم البلدية على قرومة إيصالات الجابي في غرفة صندوق المال، قرع جرس من قبل الرئيس راغب بك، فوضع أخي خليل قرومة الإيصالات والإرسالية مع ليرتين فلسطينيتين على مكتبه، وذهب فواجه راغب بك في أمر ما. عندما رجع لم يجد ما ترك من قيود والليرتين على المكتب، وقد فتش بدقة ولكن بلا جدوى. لم يكن في هذه الغرفة ضمن قفص الصندوق بجانبه سوى موظف يدعى محمد عارف وهبة، وكان خارج القفص رئيس الكتبة -آنذاك- توفيق أفندي مراد .

خامر شك أخي خليل بأن السارق هو محمد عارف لا محالة، وقد جاء وأسرها في أذن توفيق مراد الذي جن جنونه ودافع عن محمد عارف بصفته رجلاً أميناً وطاعناً في السن، ولا يتنازل على عمل دنيء مثل هذا، وخصوصاً أن القيمة زهيدة.
وعليه، لم يقتنع أخي خليل، ولكن نظراً لكرامة هذا الرجل لم يشأ أن يفاتحه وانتهى الأمر، إنما بقي خليل وعنده اليقين بأن محمد عارف هو الجاني الوحيد.

حدث هذا الحادث في دائرة بلدية القدس الواقعة ما بين شارع يافا وشارع مأمن الله المقابلة لباب الخليل، وقد مرت الأيام والسنين وتناست القصة وأصبحت في دور كان.

وقد صادف زيارة الدكتور سلمون القدس واشتغل على مسارحها العديدة في علم التنويم المغنطيسي، وأشتهر اسمه ومقدرته في هذا الفن، فأخذ قلوب الناس وربح مرابح قيمة. فتذكر أخي خليل القصة وأخذ توفيق مراد ودفع مبلغ نصف ليره وفتح ما كان يضمر في ذهنه عند الدكتور سلمون، وقد قصد خليل بأن يبرهن لتوفيق أفندي مراد بأنه صائب بظنه بمحمد عارف. وعندما طرح خليل سؤاله أجاب الوسيط النائم أن السارق هو [محمد عارف].

فطرب خليل لهذا الجواب ودهش توفيق مراد وهكذا فاتحا المسكين محمد عارف بالأمر، وكانت صدمة له وفضيحة بين الموظفين إلى أن تدارك راغب بك الأمر وانتهى. ولكن أتدري ما كانت النتيجة؟ فإليك ما أكتب واسمع وتمعن:

قد صادف بعد مدة نقل البلدية القديمة إلى بنائها الجديد في شارع يافا بما فيه بنك يانكلس،[1] فعندما باشر أخي خليل بتنظيم أوراق مكتبه وأخرج جوارير المكتب من محلها، نظر فوجد ما فقد له [الإرسالية وقرومة الإيصالات بما فيه الليرتان] فشهق عالياً وتألم وندم ما عمله بالمسكين محمد عارف، وجاء بالفعل مع توفيق مراد واعتذرا إلى هذا الموظف الأمين، ولعنا الدكتور سلمون وعلم التنويم، وهنا بيت القصيد، فلو ما ظن أخي خليل بهذا الموظف وذكر اسمه في قرارة نفسه عند الفتح ... لما استطاع الوسيط أن يذكر الاسم أبداً. هذه صورة عن ما حدث معنا بالفعل بخصوص علم التنويم المغنطيسي وفيها الإفادة.

[1] ربما يقصد بنك باركليز

أفديك طائعتي وأفدي من سعى

أقام أخي وصديقي صليبا الجوزي مدير المدرسة الأرثوذكسية الوطنية حفلة في قاعة جمعية الشبان المسيحية بالقدس بمناسبة تخريج بعض التلامذة، ودعا لهذه الحفلة نخبة من الأدباء والأعيان، وكنت أنا وعودي للترويح عن نفوس الحضور.
فكرت لهذه المرة ترك الغناء الغربي والغرابة، وفي هذه المناسبة توفق أخي صليبا فحول قصيدة "أفديه إن حفظ الهوى أو ضيع" إلى كلمات علمية وطنية تناسب المقام. القصيدة المذكورة هي من تلحين الملحن المعروف القديم المغفور له الشيخ أبو العلاء محمد، وقد لحنها وغناها وسجلها على أسطوانة قديماً من مقام البيات، فجاءت آية في الفن والطرب، حتى أن المطربة أم كلثوم أحبتها وغنتها في صوتها الحنون وسجلتها على أسطوانة كان الإقبال على ابتياعها عظيماً:

أفديه إن حفظ الهوى أو ضيع ... ملك الفؤاد فما عسى أن أصنعا

من لم يذق ظلم الحبيب كظلمه ... حلواً فقد جهل المحبة وادعى

يا أيها الوجه الجميل تدارك ... الصبر الجميل فقد وهى وتضعضعا

هل في فؤادك رحمة خيم[1] ... ضحت جوانحه فؤاداً موجعاً

هل من سبيل أن أبث صبابتي ... أو أشتكي بلواي أو أتوجعا

إني لأستحلي [.. كما عودتني ... برض رضاك إليك أن تشفعا

[1] هكذا في الأصل

وقد قلبت إلى ما يلي:

أفديك طائفتي وأفدي من سعى ... للعلم كي يعلي ذراك ويرفعا

من لا يحب بلاده وغرامها ... فرض فقد جهل المحبة وادعى

يا أيها الشعب الكريم تدارك المجد ... الأثيل فقد عفا وتضعضعا

حب البلاد وأهلها والله قد ... ملك الفؤاد فما عسى أن أصنعا

هل من سبيل في ارتقائك أمتي ... قد حان أن نصحو فخصمك شنعا

أشقيقتي هبي لننصر قومنا ... سنعيد مجد العرب إن سرنا معا

كان الاستماع إليها عندما غنيتها على المسرح من قبل الحضور عظيماً وبصورة منقطعة النظير، ولأجل الصدق كان الدكتور محمود عزمي المصري المعروف بالأدب والوطنية، والمعروف عنه خصيصاً بأنه من المتحمسين لرفع مستوى المرأة في الشرق عامة، وفي الغرب خاصة، ومن زعماء المعارضين للحجاب، كان هذا العلامة وبجانبه الأستاذ خليل السكاكيني من الحضور قد طرب والدكتور، خصوصاً عندما قلت غناء [أشقيقتي هبي لننصر قومنا . .]، طلب مني الإعادة فغنيتها مثنى وثلاث ورباع . . . إلى أنه تحمس وبنى كلمته من هذه الشطرة وصعد المسرح وألقى كلمة كلها عبر وتشجيع لعلم وحرية المرأة، ولكن لسوء الحظ - ومع الأسف الشديد - حدث ما عكر صفو خطابه وإليك ما حدث.

[تحدث] الشيخ عبد القادر المظفر [وقال]

عندما استهل الدكتور عزمي كلمته قال:

إذا أردنا أن نسير إلى الأمام نحن معشر العرب علينا بلباس القبعة.
وإذا أردنا أن نبقى على ما نحن عليه علينا بلباس الطربوش.
وإذا أردنا أن نرجع إلى الخلف علينا بلباس العمة.
وعندما قال العمة لفت أنظار الحضور من سيدات وسادة إلى المدعو الوحيد الذي كان يلبس العمة ألا وهو الشيخ عبد القادر المظفر، ومن عرف هذا الشيخ لا يعجب من جرأته، وله حوادث مثيرة في مثل هذا المجال، إذ وقف الشيخ الذي تبين لنا بأنه استاء جداً من كلام الدكتور هذا، وقصد به إساءته، قام الشيخ وبأعلى صوته وقاطع الدكتور قائلا:
اسمح لي يا دكتور فأنا أحتج وأريد أن أسألك بربك أجبني؟!
إذا ما ألبسنا قبعتك إلى حمار فهل يسير إلى الأمام؟!! وأضاف قائلا لا يا دكتور إن الشخص هو بعلمه وخلقه وليس بلباسه، ومسك بيده العمامة وقال إن الشيخ مظفر بالعمة أو حاسم الرأس.
وهناك دهش الدكتور عزمي وأكد بأنه لا ينوي في كلمته أية إساءة، إنما التعبير، إلى أن تداخل الأستاذ السكاكيني بالأمر بينهما حتى صفا الجو المكهرب.
ملاحظة: كان الدكتور محمود عزمي من لابسي القبعات الغربية وزوجته روسية. وقد أسفرت نتيجة الحفلة إلى زيارة الدكتور عزمي والسكاكيني والمظفر بيتنا في البكوفورية مباشرة، وهناك كانت سهرة تجلى فيها الحظ والطرب إلى منتصف الليل، وقد تابعت زيارة الدكتور عزمي للمجموعة الجوهرية مراراً مع الأستاذ السكاكيني ... فسقيا لتلك الليالي والأيام ما كان أطيبها!

الفيلد مارشال بلومر المندوب السامي لفلسطين خليفة السير هربرت صموئيل

جاء في الفصول السابقة من هذا الكتاب أن السير هربرت صموئيل الصهيوني كان أول مندوب سام في فلسطين بين صيف سنة ١٩٢٠ إلى صيف سنة ١٩٢٥، ويعتبر المؤسس الأول الذي وضع الحجر الأساس لبناء الوطن القومي اليهودي في البلاد، والذي -أي هربرت صموئيل- سعى بكل ما أوتي من قوة مع الصهاينة للحصول على هذا الوعد المشؤوم بواسطة بلفور نيابة عن بريطانيا العظمى، وذلك قبل تاريخ الاحتلال البريطاني لفلسطين.
عمل السير هربرت صموئيل كل ما في استطاعته لكسب ثقة العرب إبان حكمه، واستعمل شتى الطرق اللينة منها والقاسية، وبواسطته نثرت النقود بين أيادي الشعب الذي كان متعطشاً إليها بعدما قاسى شتى ألوان الظلم والذل والاستبداد والفقر والجهل مئات السنين إبان الحكم العثماني، إلى أن انتهى الأمر فيه فخاض المعركة المشهورة مع الأتراك زمن الحرب العظمى الأولى، وخسر أغلى وأثمن أبنائه المخلصين على يد السفاح جمال باشا، وهكذا خرج من الحرب العظمى الأولى منهوك القوى ضعيف الإرادة، واستسلم راضياً بالاحتلال البريطاني، وساعد بإخلاص المحتلين، كما ثبت منذ اتفاقية المغفور له الملك حسين الأول.

ولكن مع كل أسف ذهبت آمال العرب أدراج الرياح، واقتنعت بأن بريطانيا الحليفة لهم التي أقاموها وصياً عليهم خانت -بكل ما في هذه الكلمة من معنى- خانت الأمانة وغدرت بهم، فوعدت اليهود بالوطن القومي، وسلمت القصر إلى الأعداء المغتصبين دون أي ذنب كما هو معلوم لدى العالم. وعلى الرغم عن سياسة المندوب السامي السير هربرت صموئيل الخبيثة، وتملقه لدى السكان العرب وإكرامهم في المال والمناصب و.. و... الخ، فقد وجد هذا المندوب أن العرب لا يسكتون له عن ظيم، وقابلوا الهدف الذي كان يرمي إليه بتهويد البلاد بالقوة، فقامت المظاهرات واتحد الشعب، وخصوصاً من مسلمين ومسيحيين، ثم قامت الثورات المتوالية من فئة صغيرة لا تملك السلاح بل الإيمان والإيمان فقط، ثورات متوالية ضمن المدة القصيرة الذي حكم فيها البلاد حوالي الخمس سنين. كانت العرب تفتك باليهود علناً، ثم تطاولت وفتكت بالجيش البريطاني الذي كان يملأ البلاد في عرضها وطولها.

كانت حفلات السير هربرت صموئيل تشبه ليالي هارون الرشيد، وذلك في القاعات الفسيحة داخل مقره عمارة الألمان المعروفة بالأوغستا فيكتوريا المقامة على جبل الزيتون، وفي هذا القصر كان يجتمع المدعوون من أعيان البلاد ومن أعظم الشخصيات المعروفة من أعلى الأسر والعائلات، وبعد كل هذا ذاق السير هربرت صموئيل الألم وعرف في قرارة نفسه شهامة العرب رغما عن وجود الأقلية المنافقة منها ... وهكذا ترك البلاد وشأنها بعدما عمل كل ما في استطاعته من تأسيس إدارة مدنية مبنية على النهوض في تنفيذ الوطن القومي فيها.

وبموجب خطة مرسومة ما بين بريطانيا والصهاينة، تعين خلفه رجل عسكري قوي وهو الفيلد مارشال بلومر، وذلك في صيف سنة ١٩٢٥، وعندما دخل البلاد مباشرة حافظ على النظام العسكري تماماً، فلم يتصل لا من قريب ولا من بعيد مع الشعب، ولم يقم الحفلات، ولم يتحيز مع أي حزب في البلاد، بل بقي محافظاً كل المحافظة على مركزه العسكري، وبهذه الواسطة نامت البلاد ولم تتحرك بأي ساكن طيلة مدة حكمه في فلسطين، إلى أن انتهى دوره على المسرح لغاية سنة ١٩٢٨ في فصل الخريف.

بناءً عليه، لم أجد مجالاً لكتابة شيء عن القدس في المجال السياسي بصورة خاصة، فكان الفيلد مارشال بلومر لا يظهر إلا في مناسبات الاحتفالات الرسمية الحكومية، وأخصها استعراضات الجيش التي كانت الشغل الشاغل له حسب الخطة المرسومة من صاحبة الجلالة ومتطلبات البلاد آنذاك.

ضريبة الأملاك في المدن لمدينة القدس

في دائرة حاكم لواء القدس ضمن مستشفى البطريركية الأرثوذكسية، عزمت الحكومة على إبدال رسم الويركو الذي كنا نسير عليه منذ الاحتلال البريطاني لغاية ٣١ مارس سنة ١٩٢٩ برسم جديد يعرف بضريبة الأملاك في المدن، وقد بوشر بوضع تصميم هذا الرسم في سنة ١٩٢٨، وكنت من أحد موظفي مؤسسية كما يلي:

تعينت لمدينة القدس ست لجان تخمين، وكانت اللجنة مؤلفة من موظف حكومي رئيساً، ثم مساح قانوني، ثم عضوين من ملاكي وأعيان المدينة، فالرئيس له صوتان، وللمساح صوت واحد، وصوت واحد لكل من العضوين يشكلون خمسة

أصوات، وعند اختلاف الآراء فالرئيس بصفته حائزاً على صوتين مع زيادة صوت واحد من الثلاثة الباقين ترجح كفة الميزان . . . للحكومة.

باشرنا الابتداء في هذا العمل الشاق بموجب خريطة عامه تضم مايه وتسعة بلوكات، قسمت المدينة خارج السور من جميع أركانه على هذه البلوكات، والبلوك معناه محله مفصولة عن الأخرى تضم عادة من ٢٠ - ٣٠٠ قسيمة. والقسيمة هي عبارة عن ملك خاص، إما أن يكون أرضاً للبناء، أو بناء مقاماً على قطعة من الأرض.

كان المهندس بعدما يعطي هذا الملك رقم القسيمة المتسلسلة من البلوك أو القطعة، يدخل في سجل خاص بيده تفاصيل هذه القسيمة بصورة مطولة ولكنها مفيدة. وفي هذا القيد يسجل مساحة الأرض بالمتر المربع، أو مساحة الأرض، ثم مساحة البناء المقام عليها بالمتر المربع، ولكل طابق منها. ثم يدون أيضاً نوع البناء والمواد التي بني منها، فيما إذا كانت باطون أو الحجر، والسقف والسطح فيما إذا كان سطحاً عادياً أو كرميداً، وعدد الغرف والمنافع وتفصيلات وافية داخلية من حيث الماء الجاري، أو ماء المطر، إلى ما هنالك من تفاصيل وافية باعتقادي أنها واضحة لدى الحكومة أكثر بكثير من صاحب الملك نفسه، وفي الوقت ذاته كما [نُعِدُ] مبدئياً نموذج خاص يكلف صاحب الملك بتعبئته، ويجب الإجابة بشكل صحيح عن كل سؤال فيه، خصوصاً من حيث قيمة الإيجار لكل معزل من البناء حسب عقد الإيجار، ورقم وتاريخ عقد الملك، وصاحب أو أصحاب الملك، حذاء كل مالك، وحصصه الحقيقية، والويل ثم الويل لكل من يعطي إفادة مغلوطة فيعاقب قانونياً. وكان رئيس اللجنة يحتفظ بتفويض رسمي موقع من الحاكم يخوله بدخول أي ملك للتخمين، وفي أي وقت أراد مع أفراد اللجنة للكشف مفصلاً على أي شيء أرادوه داخل البيت، كي يستطيعوا تخمينه بصورة عادله. وفي حالة عدم وجود مستأجر، كما نخمن الملك بالنسبة إلى بناء مجاور بجواره، وفي حالة عدم وجود عقد ما بين المالك والمستأجر نسير أيضاً على هذه الخطة.

وعندما ننتهي من تخمين قسايم البلوكات أو عدد من البلوكات، نسجل جميع ما ذكر من تفاصيل الأملاك ضمن سجل خاص مكانه داخل الدائرة، يعرف بلائحة التخمين، ثم يسجل المالك ورقم القطعة والقسيمة في قائمة التخمين التي تعلق على حائط قاعة السرايا لمدة ثلاثين يوماً من تاريخ التخمين، وبجانب اسم المالك القيمة المخمنة؛ إما للأرض وإما للبناء، وفي الوقت ذاته يسلم المالك نموذجاً خاصاً للعلم، وله حق الاعتراض في حالة ظلامته لهذه اللجنة في مدة الثلاثين يوماً المذكورة أعلاه.

الجدير بالذكر في هذا الصدد أنه بموجب قانون ضريبة الأملاك هذا، كنا نكتفي بتسجيل الملك باسم المالك المعروف؛ أي أن المالك المعروف بنظر الحكومة هو الشخص الذي يتصرف عادة بالملك، ويستلم الريع والدخل، ولا يكترث بالمالك الرسمي، ولو كان بموجب سند طابو نظامي، والأنكى من هذا أن المالك المعروف الذي يجب تسجيله في قيود ضريبة الأملاك لأملاك الأراضي، هو الشخص المعروف في تلك العائلة بمركزه أو راتبه، ليسهل للحكومة تحصيل الضريبة منه بدون عناء، وهذا له الحق عندما يقيم الدعوى على شركائه لدى المحاكم النظامية، فالحكومة تساعده بتحصيل ما دفعه من هؤلاء الشركاء.

ملاحظة : وضعت هذه المادة خصيصاً لتفرقة العائلة حتى الإخوان عن بعضهم البعض ، لأجل أن تكون النتيجة بواسطة هذا الخصام التي خلفته بينهم حكومة الانتداب هو بيع ما يملكه كل من الشركاء تدريجياً إلى اليهود . . . تخلصاً من المخاصمة والاختلافات العائلية ، وبذلك يسهل هذا العمل لتدعيم أسس الوطن القومي اليهودي في البلاد ، وتصبح الأراضي بالأكثرية مع اليهود ، وهذا مثل من الأمثلة . أما طريقة التخمين فهي كما يلي :

يخمن البناء -كما قلت- إما حسب الإيجار الحقيقي المبين في العقد ، وإما تخمين من اللجنة بأصوات الأكثرية بالنسبة إلى إيجار ملك مجاور موازي له ، ثم يخصم منه ٢٠ بالمائة تصليحات ، ويبلغ المالك المعروف بالقيمة الباقية تعرف بـ "الإيجار السنوي الصافي" . أما تخمين الأرض ، فنأخذ مساحتها ونخمن المتر المربع ، فلو بالفرض أخذنا ١٠٠٠ متر ، والتخمين بالمتر كان ٥٠٠ فلس ، تكون القيمة المخمنة للأرض بـ ٥٠٠ ليرة فلسطينية ، وبموجب قانون ضريبة الأملاك هذا ، تؤخذ ٦ بالمائة عن الـ ٥٠٠ ليرة ، ما يساوي ٣٠ ليرة فلسطينية . فهذه القيمة تكون بمثابة الإيجار السنوي الصافي ، وتبلغ قانونياً إلى المالك المعروف .

والحكومة تستوفي الضريبة من ١٠ إلى ١٥ بالمائة عن الإيجار السنوي الصافي لكل من البناء والأرض على السواء ، أي ٣ ليرات سنوياً عن أرض خمنت بسعر ألف ليرة وهكذا . والبناء عندما يخمن مثلاً بيتاً بالمائة ليرة وتخصم منه ٢٠ بالمائة يكون الإيجار السنوي المبلغ للمالك المعروف ٨٠ ليرة ، فيدفع المالك ١٠ بالمائة ، فيكون الرسم الواجب دفعه للحكومة سنويا ٨ ليرات فلسطينية . . . وهكذا .

وقد نص القانون مواد كثيرة لأعضاء قطع الأراضي غير القابلة للبناء بموجب شهادة رقمية من البلدية ودائرة تنظيم مدينة القدس ، ثم المعاهد الخيرية والدينية والعلمية . . . إلى ما هنالك من إعفاءات . وعندما يجد المالك المعروف بأن حقه مهضوم من أي سبب كان ، إما من جهة التخمين الفاحش أو [تسجيل] المساحة والاسم أو غيره ، عليه أن يعترض خلال مدة ثلاثين يوماً من انتهاء نشر إعلان التخمين لذات اللجنة التي تنظر بإعادة النظر حسب جلسة خاصة ، وتبلغه ما صدر عن قرارها ، وهذا لو الحق بمدة لا تزيد على الـ ١٥ يوماً أن يستأنف إلى لجنة الاستئناف التي تشكل من رئيس ، ومساح ، وعضو واحد ، ويكون قرارها نهائياً .

كنت في سنة ١٩٢٨ رئيساً للجنة تخمين من الست لجان التي شكلت في بادئ الأمر ، وهكذا لم أنقطع عن الرياسة زمن الانتداب حتى حفظت قطع وقسائم مدينة القدس وأحياءها غيباً وكانت ذكريات . في هذه الوظيفة أقول -بدون مبالغة- إنني دخلت أكثرية بيوت أهالي مدينة القدس خارج السور العائدة لجميع الطوائف ، فكنت أتنقل من أحياء النجارية ، ومياشعاريم ، ونحلات سيقي ، وغيرها إلى رصافيا ، والقطمون ، والبقعة ، إلى المصرارة ، وباب الساهرة ، والشيخ جراح ، والشوري ، وقد تعرفت على أصحاب أملاكها وعاشرتهم وزرتهم ، وعرفت الكثير عن أعمالهم ، فعرفوني وأحبوني واكتسبت معلومات قيمة بهذا التدخل بين الناس لمدة تزيد على العشرين سنة .

وقد ألغي بالفعل رسم الويركو اعتباراً من سنة ١٩٢٩ ، وحل محل رسوم ضريبة الأملاك ، وقد عدنا في سنة ١٩٣٢ ، فأدخلنا قطعاً أكبر ، وفي سنة ١٩٣٥ أدخلنا قطعاً أكبر حتى أصبحت المدينة تتألف من ١٦٨ قطعة أو بلوك ، فدخل ضمن ضريبة الأملاك كثير من أراضي الزراعة التابعة للقرى المحيطة بالمدينة ، أمثال بيت ساحور ، وشرفات ، وبيت صفافا ، والمالحة ، وصور باهر ، والصليب ، وعين كارم ، والولجة ، وقالونية ، ودير ياسين ، ولفتا ، والنبي صموئيل ، وشعفاط ، والطور ، والعيزرية ، وسلوان ، وغيرها ، ما جعل الفلاح يشكو ولكن لا حياة لمن تنادي .

وعلى الرغم من ظلم الفلاح وخضوعه إجبارياً لدفع المبالغ الفاحشة لهذه الأراضي ، لم يخن وطنه ، ولم يسارع ببيع أرضه كما يشاع ، وإليك إثبات لما أقوله ما كتبته خصيصاً في هذا الموضوع من هذا الكتاب. وإني ألفت نظر القارئ أن جميع الأملاك الواقعة داخل سور مدينة القدس لم يجرِ هذا القانون عليها ، فهي – والحمد لله – معافاة منذ العهد العثماني .

كان العمل بوجود ضريبة الأملاك بالقدس ناجحاً ، وهكذا سرى في مدن فلسطين ، وقد نظمت الحكومة في قرى المنطقة ضريبة للقرى شبيهة بضريبة المدن بفارق بسيط بالنسبة إلى الأراضي الشاسعة والمعدة للزراعة ، وليست لإقامة المباني عليها . إني أذكر بعض أسماء أعضاء اللجان التي تكونت للتخمين في المدن ، فكنت أرافقهم في التجول من حي لآخر ، ومن بيت لغيره ، ولي ذكريات معهم :

الحاج خليل الرصاصي المعروف بشدته وإخلاصه في وظيفته الجندرمة زمن الحكومة العثمانية ، وكان نزيهاً وعادلاً ، وقد أصبحت ما بيني وبينه مودة عظيمة ، فكان يرتاح لمرافقتي لما كنت أعطيه حقه من احترام وإكرام ، وارتفعت الكلفة بيننا يزورني وأزوره على غير ميعاد .

الشيخ محمود الدجاني ، وفرنسيس بطاطو وكان بمثابة أخ وصديق منذ قبل الوظيفة هذه ، خصوصاً في قرية بيت جمال ، ولنا فيها ذكريات حسنة ، والحاج إسماعيل النجار ، والشيخ عبد الباري بركات ، والياس جلاد ، والدكتور جمل ، وتوفيق ميخائيل بطاطو ، وجميل البينا ، ويوسف البينا ، ويوسف حنا مرقص ، وحنا حمامة ، وعيسى الطبة مختار الطائفة للروم الأرثوذكس ، وزكي نسيبة ، ومحمد عشور مختار البقعة الفوقا ، وإسحاق ليفي ، وأمدورسكي ، وبنيامين كوكيا ، وشاؤولوف البخاري ، واستروك ، ويوسف اليشار ، واسحاق اليشار ، وإسماعيل بك الحسيني ، وغيرهم من أعيان مدينة القدس .

وقد عينت عضواً في لجنة الاستئناف صحبة روحي بك عبد الهادي ، ونصوحي بك بيضون ، وكان زملائي في هذه الفترة العم إسماعيل بك الحسيني ، وأمدورسكي . أما مفتشو التخمين ، فأذكر منهم :

عطا الله منطورة ، والمستر ألمر هرس ، والمستر هيوز ، ونعيم عبد الهادي ، وجورج قرط .

هذه لمحة وجيزة بينت فيها للقارئ صورة مصغرة عن كيفية ضريبة الأملاك في المدن .

أحمد سامح الخالدي ومفاتيح كنيسة القيامة "حادث طريف"

كانت حكومة الانتداب تشغل عمارة واقعة في حي باب الساهرة قطعة ٥٦ لصاحبها زكي أفندي نسيبة كدار المعلمين تحت رئاسة المربي الكبير أحمد سامح الخالدي، مقابل إيجار سنوي بموجب سند عقد نظامي. وعند كل سنة، كانت الحكومة تنظر بشكاوى المالكين المعروفين [. . .]' كنت أترأس هذه اللجنة. وقد صادف بأن زكي نسيبة استمر في طلب تنزيل الإيجار من لجنة التخمين، وكنت أنا بصفتي أحد أبناء القدس أساعده، وقد نزلت له بالفعل التخمين حتى لأقل من الإيجار الحقيقي لهذه العمارة.

' هنا
وض

وقد صادف دخولي مع اللجنة في السنة التالية حسب طلب المالك زكي نسيبة الذي لا يقتنع بما كنت أنزله له، إذ دخل العمارة فجأة للكشف على عملنا المستر ألمر هرس مفتش التخمين البريطاني، وبعد الاستفسار مني والكشف على القيود السابقة والحالية لهذه العمارة، تبين له أن اللجنة سايرت وكادت تخرج عن القانون في قبول طلب المالك زكي نسيبة لكل سنة، وبالفعل انفعل وعربد وعاتبني لتساهلي، وجربت بكل ما أوتيت من قوة الدفاع عن زكي نسيبة مستنداً إلى أن الملك المطلوب منه التنزيل من قبل اللجنة هو في حالة سيئة نظراً لقدمه، إلى ما هنالك من أسباب لتبرئة نفسي. ونحن على هذا الحال، إذ خرج الأستاذ أحمد سامح الخالدي ودعاني لداخل العمارة ليكرمنا بفنجان قهوة، وكان صديقاً للمفتش المستر ألمر هرس، فدخلنا وشكا المفتش أعمال اللجنة والتسهيلات التي أعطيت لصاحب الملك مركزاً لومه لرئيس اللجنة . . .

وكم كانت دهشة كل واحد منا عندما أجاب الأستاذ أحمد سامح المستر هرس بقوله:

يا مستر هرس لا تلوم المستر جوهرية، ولا الأعضاء، فإني أسرها بأذنك أن عمر بن الخطاب لم يستطع التخلص من ملاحقة هذه العائلة منذ القدم، بل اضطر أن يسلمها مفاتيح كنيسة القيامة ليومنا هذا! فما بالك تعاتب المستر جوهرية؟!

وهات يا ضحك . . . سامحه الله وهكذا تخلصنا من عربدة المفتش البريطاني، وأنقذ موقفنا الأخ الأستاذ أحمد سامح الخالدي.

ملاحظة: يحفظ مفتاح كنيسة القيامة لدى عائلة جودة الحسيني من القدس. وفي فجر كل يوم – منذ مئات السنين – يأتي إلى منزل جودة، رجل من عائلة نسيبة فيستلم المفتاح، ثم يتجه إلى القيامة ويفتح بابها، وعند الظهر يغلق باب الكنيسة، ويؤمن المفتاح لدى عائلة جودة. وبعد الظهر يتسلمه الشخص من عائلة نسيبة ويقوم بفتح الباب . . . وهكذا.

صديقي محمد عشور والأسنان "حادث طريف"

كانت معرفة سطحية ما بيني وبين صديقي محمد عشور، وزادت هذه الصداقة كثيراً عندما أصبح ولده الوحيد عشور موظفاً عندنا في دائرة الإيرادات، وعدنا وكأننا عائلة واحدة، وكنت بطلاً أولاً في رواية زواج عشور من زوجته الفاضلة الأخت طوسيا المسيحية الروسية، وبقيت هذه الأخوية – والحمد لله – ليومنا هذا. ومن المعروف أن محمد عشور كان مختاراً للبقعة الفوقا، وله مواقف مثيرة بين الأهلين وماض مجيد، خصوصاً إبان الحكم العثماني، وشاء القدر أن يعين محمد

عشور عضواً في لجنة التخمين الذي كنت أترأسها لسنين عديدة بصفته ملاكاً ومختاراً وخبيراً في جميع ضروب البناء والشعب على اختلاف أجناسه بالقدس.

وإني أدون للقارئ الكريم هذه الحادثة الطريفة لتعطي فكرة مصورة عن خفة دم وروع هذا الشخص النادر :

كنت وعشور المساح بركي اليهودي ، والأعضاء الحاج إسماعيل النجار والمسز ليفي نقوم بتخمين قطعة رقم ١٦ محلة الوعرية في البقعة الفوقا ، وندخل البيت تلو البيت في تلك المحلة ، وكان حسب عادته -أبي محمد عشور- خالياً من الأسنان في فمه ، ويتحفنا من الأحاديث والنوادر والفكاهة بصورة تجعلنا لا نعرف كيف ذهب وقت العمل . . . إيه والله لما هو عليه من ذكاء ومرح.

وقد صادف أننا التقينا برجل يكاد يكون من عمره ، وحصلت مشاحنة كلامية وعتاب بين العم أبو عشور وبين هذا الشخص لأمر خاص لم نفهم تفاصيله ، وكان العم أبو عشور لا يفوه ولا بكلمة واحدة في آخر المطاف ، بل ظهر أنه مستاء جداً منه ، وعلى غفلة إذ وقف العم أبو عشور وأخرج طقم الأسنان الاصطناعي من جيبه ، وكان ملفوفاً داخل منديل خاص وأدخله في فمه بالسرعة ، ثم بدأ يشتم والعياذ بالله ذلك الشخص شتائم من الوزن الثقيل . . . إلى أن كاد هذا المسكين يغمى عليه ، ولم يستطع الوقوف ، بل ولى الأدبار مسرعاً . . . ونحن لم نتمالك من الضحك والدهشة إلى أن راق جو المعركة للعم أبو عشور ، وهدأ روعه ، ثم أقام طقم الأسنان من فمه ووضعه في محله داخل الجيب ، وقال امشوا على بركة الله . . . كان مشهداً -والحق يقال- ظريفاً جداً ومضحكاً ، خصوصاً لأننا لم نشاهد العم أبو عشور يستعمل الأسنان هذه . . . فجئته متسائلاً عن السر فأجاب :

هذه الأسنان لا أستعملها إلا لمثل هذه المواقف لكي أعبر فيها لخصمي نقاوة الأداء بكلمة الشتيمة . . . من حيث اللغة في الأداء ! سامحه الله ، فتخرج من فمي صفيه نقية.

الأخ يحيى إسماعيل حمودة

عرفت الأخ يحيى حمودة حال دخوله موظفاً سنة ١٩٢٨ في دائرة حاكم القدس ، وشعرت لأول نظرة أنه قريب مني فأحببته وأحبني ، وتبادلنا الكلام ثم تمكنت صداقة وفية بيننا ، وأصبح بيتي بيته وبيته بيتي بدون أدنى كلفة. لمست فيه الوطنية الصادقة وتفانيه في مرتفع مستوى أهله خاصة ، وأبناء شعبه عامة ، وأصبح الشيخ الأكبر بين المعارف والزملاء في الدوائر الحكومية عامة ، حتى كان الرؤساء في الدوائر يحسبون حسابه فلا يجرؤون على عمل شيء يتنافى والوطن . . . وكان أبو إسماعيل لهم بالمرصاد . وقد عمل بجرأة فائقة ضد كل من خولته نفسه على بيع شبر واحد من أراضي الوطن إلى الصهاينة بصفته تعين لإجراء المعاملات التي كانت تنظم مبدئياً في دائرة الإيرادات ، وتحال فيما بعد إلى دائرة تسجيل الأراضي ، وكان الويل كل الويل لذلك الشخص الذي يسير في هذه المعاملات . ولو بالفرض مشيت معاملته رغماً عن إرادة أبي إسماعيل فكان يفضح أمره في السر والعلانية بين الأوساط الوطنية ، فيصبح هذا الشخص منبوذاً .

كان يحيى حمودة بطل رواية انتخابات رئاسة بلدية القدس، وقام بتمثيل دوره على مسرح الانتخابات بدهاء عجيب أسفر إلى النتيجة التي كان يبتغيها، وهي نزول راغب بك النشاشيبي عن عرش ... البلدية وتعيين الدكتور حسين فخري الخالدي، وقد أثر عمله هذا على اسم راغب بك حتى أني أذكر [قال لي راغب بك] [والله لو استطعت أن أحشي بطن صاحبك هذا الولد تبن ... لما ترددت].

لم يفكر الأخ أبو إسماعيل بجمع المال على الرغم من احتياجه الشديد له، إيه والله، وأنا أدرى بذلك ... ولو أراد لكان من الأثرياء المعدودين ... وبالنظر لموقفه هذا الشاذ بين الموظفين (أصابته عين الحكومة ...) فاعتقل يحيى حمودة في ثورة سنة ١٩٣٧، وكأنه هو الزعيم الأوحد في عين المستعمرين والصهاينة، فبقي معتقلاً وخسر وظيفته التي كانت -كما أعلم- هي المصدر الوحيد الذي تعيش عائلته من راتبه .. ولكنه بعمله هذا قد أصبح بالفعل من الزعماء المعروفين بصدقهم وإخلاصهم للوطن، وأصبح اسمه سامياً عالياً في الأوساط الوطنية يشار إليه بالبنان.

عندما تعين الأخ يحيى حمودة كان شاباً في أول العمر، تخرج من مدارس المعارف الابتدائية بالقدس فقط، فلم يسكت ثم أفاق ووجد نفسه متزوجاً من ابنة عم له جاهلة ... التي أنجبت منه ابنتين، وهكذا وقف هذا البطل ناقماً على الحياة وعلى أهله، فهجر زوجته وكب على إشفاء غليله في المطالعة والعلم ليلاً نهاراً، بالإضافة إلى وظيفته، وجاهد جهاد الأبطال وكان الزمن [لا معاذ الله..] بل الحكومة؛ حكومة الانتداب، تعاكسه، فرفضت إعطاءه شهادة القانون الذي كان يتعلم من أجلها، بل أوعزت إليه إلا بالدخول إلى الجامعة الأميركية - بيروت، ولم تعلم بأن أبا إسماعيل أمثل لهذا الطلب فدخل الجامعة، وكان يتلقى علومه المفروضة مع زملاء أصغر منه سناً، وكان ابن أخته عارف النجار واحداً منهم، فلم يخجل أبو إسماعيل وهكذا ثابر بصبر وجلد حتى تمكن من الحصول على ما كان يصبو إليه، فأصبح من خيار محامي فلسطين.

طموح هذا الشاب النادر جعل الأستاذ السكاكيني يتمثل به في محاضراته وجلساته بين أهله وأصدقائه. هكذا الرجال تكون وإلا فلا ... وختاماً أطلب لأخي وصديقي أبا إسماعيل التوفيق من الله بأن يوفقه بشريكة حياة تناسبه وخلقه الحسن وإخلاصه ووطنيته وكفاحه وجهاده واجتهاده.

تفاهم رئيسنا السيد عطا الله منطورة

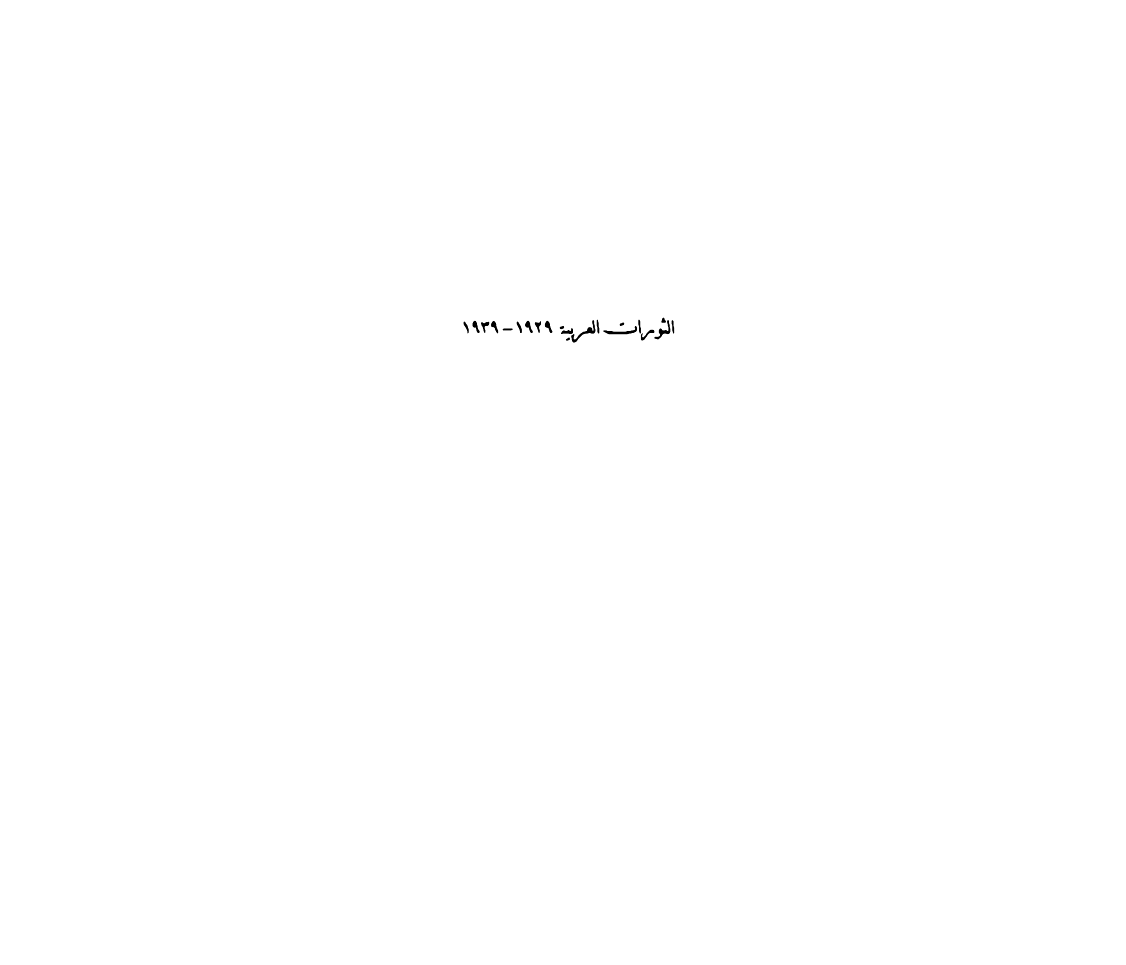
حدث لي في الحشم حرارة جلدية دعتني إلى الاستحمام في ماء البحر الميت، فحصلت على المأذونية السنوية بموافقة السيد منطورة لمدة شهر واحد، وأحببت مرافقة أختي شفيقة التي لم تعرف بعد البحر الميت وأريحا. كنا على أهبة السفر من بيتنا في النيكوفورية، وإذ زميلي يعقوب برامكي وعشور عشور يدخلان، وقالا بالنظر لعدم تسكير سجل اليومية فقد غضب السيد منطورة، وأمر بأن تؤجل السفر وتحضر لتسكير اليومية، وقد قالوا لي إنهما قدما أنفسهما علي بدلاً مني لمدة ليست أكثر من ثلاث ساعات، ولكنه رفض وأصر على رجوعي بالذات، وقد تمثلت قول الشاعر "قالوا للغراب لماذا تسرق الصابون قال الأذى طبع".

تعجبت ودهشت من هذا الحكم الجائر وأنا وأختي عازمان على السفر وترك أولادنا وعائلاتنا بمهمة صحية حسب مأذونية رسمية ورجوت البرامكي وعشور أن يبلغا بأنني قد تركت القدس قبل حضورهما بقليل، ووعداني بطيبة خاطر فرجعا وبلغا السيد منطورة وأنا وأختي بدورنا تركنا القدس.

وصلنا البحر الميت وإذ بأفراد بوليس المنطقة هناك تأمرني لمواجهة الضابط، فدخلت الخيمة وإذ كان الضابط - ولحسن الحظ - من أعز أصدقائي المخلصين، ألا وهو الأخ كامل أفندي الإيراني الجريء في مواقفه. بادرني الأخ كامل [خير يا واصف لم أعهدك إلا من أحسن موظفي الحكومة خلقاً ونزاهة! ! لقد استلمت أمراً تلفونياً من دائرة حاكم القدس بأن ألقي القبض عليك لدى وصولك في الحال وإرجاعك مخفوراً في السيارة ذاتها التي معك إلى الحاكم] !

أجبته بدهشة باشا ليش أنا جاني؟ ثم بلغته حرفياً عن ما حدث وعن بساطة المسألة وفي الوقت ذاته لم أكن مكلفاً بتسكير اليومية، بل أشرف على تسكيرها، وقد وجد من يقوم بهذه المهمة التافهة. صمت قليلاً وكان موظفاً جريئاً - كما قلت سابقاً - وقال أقعد ... وأنا أكذب منطورة ورب منطورة.. فجلسنا وشربنا المدام وكانت سهرة لطيفة على الشاطئ تجلى فيها كرم ابن العم ثيودر سعد. ولكن خوفاً من الطاغية السيد منطورة راجعت زوجتي سراً المحامي صديقنا عوني بك عبد الهادي، ونصح أن لا نقوم بأي عمل من شأنه أن يزيد منطورة تمسكاً، وهو ولا شك الرئيس وكلامه مصدق لدى الحكومة أكثر بكثير من المرؤوس، وبواسطته إدارياً رجع السيد منطورة على مراجعة البوليس كتابياً والحمد لله. ورجعت أنا ودخلت بين الموظفين وحدي رافعاً الرأس وليس مخفوراً، وقابلت منطورة الذي اعترف بخطئه وكان كثير بين الأصدقاء في اجتماعاتنا الخاصة يندم على فعله معي، ويقول [نعم إني أسأت كثيراً لواصف] سامحه الله.

الثورات العربية ١٩٢٩ - ١٩٣٩



ثورة العرب في فلسطين سنة ١٩٢٩

كنت وأختي شفيقة نستحم في البحر الميت -كما بينت أعلاه- وبعد قضاء حوالي الأسبوع من مأذونيتي إذ انتشر خبر ثورة العرب سنة ١٩٢٩ وكانت مذبحة يهود الخليل، وأصبحت البلاد تحت منع التجول ليلاً نهاراً، وهكذا وقف السير ما بين المدن والقرى، وأصبحنا قلقي الأفكار في البحر الميت، وذلك لفراقنا أولادنا ... وكنا نسمع الأخبار المبكرة وعادة تتضخم خصوصاً للبعيد.

صممنا فاستأجرنا الحمير من العرب، وجئنا إلى أريحا أنا وأختي شفيقة ... هذه المسكينة التي لم تترك القدس طيلة حياتها كما قيل [نزلت الحزينة سكرت أبواب المدينة]، وهناك في أريحا كان جميع الأصدقاء لا ينصحوني بالذهاب إلى القدس، فرفضت، وهكذا أخذت وأختي سيارة خاصة من أولاد عريقات بمبلغ كبير ودخلت القدس من باب الأسباط، ووجدنا عائلاتنا بخير والحمد لله، إنما كانت بعض الحوادث الدامية ما بين العرب واليهود بجوار بيتنا في النيكوفورية.

وفي باكر صباح اليوم الثاني عندما كنت أشرب الأركيلة في فناء الدار تحيط بي العائلة والأولاد وأخي خليل، إذ طوقت الدار من قبل الجيش البريطاني من الجهات الأربع، ثم دخلوا، الأمر الذي ذعرنا منه وبدأوا يتجولون في أركان البيت الذي كان عبارة عن متحف خارجياً وداخلياً، وتبين على وجوههم الدهشة، ثم سألوني بعض الأسئلة وحصلوا على توقيعي تحت عبارة لم يوجد عندي أي سلاح كان نوعه، وفهموا مني بأني موظف معروف في دائرة حاكم القدس وذهبوا إلى غير رجعة. فهمت سراً فيما بعد من بعض الأصدقاء المخلصين من دائرة الاستخبارات أن هذا التفتيش من قبل الجيش كان كما يلي:

كانت السيارة التي استأجرتها من أولاد العريقات في أريحا تشتغل لنقل الأسلحة للثوار العرب، وعندما دخلنا باب الأسباط أعطي تقرير رسمي بأن واصف جوهرية كان في السيارة ... وهكذا باشر الجيش بالتحري وتفتيش البيت إلى أن تحقق بأن الإخبارية كان ملفقة، بل ربما السائق والسيارة، ولكن الراكب واصف لم يكن من هذا النوع، ويا حبذا لو استطعت مساعدة الثوار خدمة لوطني المحبوب.

أسباب ثورة سنة ١٩٢٩

عندما حولت "الجمعية الصهيونية" إلى "الوكالة اليهودية" في زوريخ سنة ١٩٢٨، وأصبحت وكالة لجميع يهود العالم لدعم الوطن القومي اليهودي في فلسطين، ونشط الحزب الصهيوني الإصلاحي برئاسة فلاديمير جابوتنسكي في دعوة اليهود إلى التسلح والاعتماد على القوه، وطالب اليهود صراحة بوجوب الاستيلاء على "حائط المبكى" مكان البراق.

وفي آب سنة ١٩٢٩ قامت مظاهرة من قبل اليهود تطالب بالاستيلاء على حائط المبكى، واعتدى اليهود على العائلات التي تسكن بجوار البراق، ثم على أفراد في يافا، وزاد تخوف العرب عندما علموا بأن مدير الأمن العام البريطاني أمر بإعطاء اليهود كمية من الأسلحة والعصي والهراوات، ثم جند عدداً من شبانهم في فرق البوليس النظامية.

وهكذا عندما خرج العرب من صلاة الجمعة ٢٣ آب بمظاهرة سلمية للاحتجاج على موقف الحكومة وتعديات اليهود أطلق الإنكليز على المظاهرة النار فوقع الاشتباك ، ونشبت الثورة ، وامتدت إلى سائر أنحاء فلسطين لمدة أسبوع ، اضطرت الحكومة إلى إحضار نجدات عسكرية إنجليزية من مصر وشرق الأردن وقضت على الثورة. بلغت خسائر العرب ٣٥٠ [قتيلاً] و١٥٠٠ جريح ، وبلغت خسائر اليهود والقوات المسلحة ١٣٠ قتيلاً و٢٤٠ جريحاً ، ووقعت حوادث مدينة خليل الرحمن ، وقضى العرب على اليهود فيها .

على أثرها أعدمت حكومة الانتداب فؤاد حجازي ، وعطا الزير ، ومحمد جمجوم. وحكمت على ٢٣ مجاهداً بالسجن المؤبد ، وعلى ١٨٧ عربياً بالسجن مدداً بين ٣ و١٥ عاماً ، وفرضت غرامات مالية باهظة على عدد من القرى ، كما فرضت الإقامة الجبرية في أماكن نائية عن فلسطين على عدد من زعماء الحركة الوطنية. أذكر أن المندوب السامي -آنذاك- السير جون تشانسلور الذي كان متغيباً عن فلسطين رجع وأذاع فور وصوله بياناً شديد اللهجة شتم فيه العرب ونعتهم بالظمأى للدماء ... ولكن العرب عندما ردوا عليه ببيان قاس شديد ، وفندوا أقواله ، واتهموه بالغدر والخيانة ، اضطر إلى إذاعة بيانه الثاني الذي اعتبر بمثابة اعتذار للعرب .

ثابر العرب على المطالبة بتأليف حكومة وطنية ، وإثر ثورة سنة ١٩٢٩ وصدور تقرير لجنة التحقيق البريطانية البرلمانية برئاسة القاضي السير "ولتر شو" ، أصدرت بريطانيا كتاباً أبيض بتاريخ أكتوبر سنة ١٩٣٠ جاء فيه :

أن الوقت قد حان للتقدم خطوة أخرى في سبيل منح أهالي فلسطين درجة من الحكم الذاتي ... وعليه تنوي حكومة جلالته تأليف مجلس تشريعي ينطبق على الخطة السياسية التي أعلنت في الكتاب الأبيض المؤرخ ٢٢ حزيران سنة ١٩٢٢ .

والجدير بالذكر أن العرب أرادوا أن يظهروا حسن نيتهم ، وأن يمدوا أيديهم للتعاون مع بريطانيا فقبلوا ... وعرف ذلك الكتاب باسم كتاب اللورد باسفيلد (واسمه الأصلي سدني ويب) وكان -آنذاك- وزيراً للمستعمرات في حكومة العمال ، فجن جنون تشرتشل وسمطي وإيمري وتشامبرلين وبولدوين وغيرهم وطالبوا بإلغائه. ثم قامت اليهودية العالمية تثير الدنيا وعاكسوه ... فوجه رئيس الحكومة المستر رمزي ماكدونالد في ١٣ شباط سنة ١٩٣١ إلى الدكتور وايزمن كتاباً مبيناً تمسكه بتعهدات بريطانيا نحو إنشاء الوطن القومي اليهودي (فسموا العرب كتاب ماكدونالد هذا بالكتاب الأسود) .

وهكذا سحبت الحكومة كتابها واستمرت في حكم فلسطين حكماً دكتاتورياً شاذاً ، وارتاح وايزمن إلى هذا العمل ، فسحب استقالته من رئاسة الحركة الصهيونية ... ثم اضطر اللورد باسفيلد على الاستقالة من الوزارة وترك السياسة .

ملاحظة : قال نورمان بنتويتش السكرتير القضائي لحكومة الانتداب في كتاب له صدر سنة ١٩١٩ "أن اليهود يرغبون في تشييد بناء عظيم من جديد تشييداً كاملا في مكان هيكل سليمان (المسجد الأقصى) !

اللجان الثلاث التي عينت برئاسة القاضي السير ولتر شو والكتاب الأبيض سنة ١٩٣٠

تعينت ثلاث لجان :

١ . السير هوب سمبسون البريطاني : خبير عالمي في الأراضي .

٢ . السير لوس قرنيش البريطاني : لجنة فنية وهو خبير عالمي .

٣ . السير المستر كروسبي .

وبالفعل قدمت هذه اللجان توصياتها ولكن دون جدوى. وعليه ، أرسل العرب وفداً مؤلفاً من الرئيس موسى كاظم باشا الحسيني ، والمفتي السيد أمين الحسيني ، والسيد ألفرد روك ، وراغب بك النشاشيبي ، عن المعارضة ، وعوني بك عبد الهادي ، وجمال الحسيني إلى لندن. وعندئذ تأكدت للعرب نوايا بريطانيا السيئة ، وقرروا بعزم شديد بأن العدو الأول الذي يجب على العرب كفاحه ومحاربته هو الحكومة البريطانية بالذات . . وليس اليهود كما سيجيء الحديث عن ذلك فيما بعد .

آلة موسيقية حديثة تعرف بالجنبوش

زارت القدس فرقة موسيقية وترية سنة ١٩٣٠ من تركيا ، وأقامت حفلة ليلاً لبعض العائلات على مسرح سينما زيون "سينما صهيون" ، وقد تعرف على رئيس هذه الفرقة صديقي حسن صدقي الدجاني ، فدعاها إلى بيته ، وكانت حفلة ساهرة تضم نخبة من أبناء القدس تجلى فيها الحظ والطرب .

أذكر من الحضور راغب النشاشيبي ، وعلي جار الله ، وماجد عبد الهادي ، وإبراهيم حقي ، وحمادة العفيفي ، وراغب العفيفي ، وثريا البديري ، وداود الفتياني ، وتحسين الخالدي ، والمحامي فراجي ، والمحامي أسون ، وفخري النشاشيبي ، وحسين النشاشيبي ، وإسحاق البديري . . . وغيرهم .

وقد لفت أنظار الحضور بالإجماع آلة موسيقية غريبة الشكل يعزف عليها أحد موسيقي هذه الفرقة بمهارة ، وبعد الاستفسار فهم ما يلي :

إن هذه الآلة هي ابتكار حديث في تركيا وهي تشبه نوعاً آلة (النشأت كار) المعروفة لنشأت بك والمقتبسة من العود ، ولكن الرقمة أطول من رقمة العود مرتين لسهولة إضافة دواوين صوتية عالية من السلم الموسيقي والمقامات يتميز العازف بها عن آلة العود . سميت بالجنبوش بمعنى "الهيصة" ، ورنينها قوي ومشبع ومصنوعة من :

الطاسة : من الألمنيوم الدقيق ، والصدر : من رق السمك أو الأرنب مشدود بصورة فنية يستطيع العازف بواسطة ملاوي خاصة من حوله أن يشد الجلد في حالة ذبوله بسبب الرطوبة ، أي يمكنك دوزان الصدر ، الرقمة طويلة تشبه في صورتها رقمة القيثارة ، والملاوي حديدية تشبه أيضاً ملاوي القيثارة أو المندولين ، والأوتار من الفولاذ . والجدير بالذكر أنك بواسطة مفتاح كبير موضوع بحكمه في خلف الرقمة يمكنك فرز الرقمة عن الطاسة ، فتوضع كل منهما على حدة داخل الشنطة عند السفر ، وإنها عملية يدوية في منتهى الإتقان ، وتضم هذه الآلة خمسة أوتار مزدوجة ، ويمكنك دوزان الأوتار كدوزان أوتار العود تماماً ، ويعزف عليها بواسطة قطعة مصنوعة من البلاستيك أشبه بتلك التي يعزف بها القيثار أو المندولين. ولها بيت محكم الصنع يحفظها من البرودة والحر مصنوع من الجلد الناعم .

استأذنت من صاحبها فمسكتها وصلحت دوزان أوتارها قليلاً وعزفت عليها بلباقة فائقة وكأنها العود ، الأمر الذي أدهش أفراد الغرفة والحضور ، وفي صبيحة اليوم الثاني إذ بصديقي حسن صوفي أبو عمر يدخل البيت وبيده الآلة ويسلمني إياها قائلاً إنها هدية من راغب بك الذي دفع ثمنها وقدمها لواصف ، فشكرته وشكرت راغب بك بدوره في وقت آخر .

وقد انتشرت هذه الآلة خصوصاً في يافا ، وعرفت (بعود مصطفى أتاتورك الحديث) ، ولم أزل أحتفظ بها ضمن مجموعة الآلات الموسيقية عندي ، وقد قضيت بالعزف والغناء عليها في مناسبات عديدة بين الأصدقاء والمعارف والسهرات والشطحات ، وهجرت العود لمدة لتشوقي بالعزف عليها ، ولكني أعود وأقول أن العود المصنوع من الخشب ذا الأوتار الجلدية الطبيعية وريشة النسر ، لهو في نظري أطرب وأقرب إلى قلب وكبد الإنسان ، والناس فيما يعشقون مذاهب .

زواج الأخ خليل من الكساندرا ابنة سابا الجوزي

كان زواج الأخ خليل من الكساندرا بتاريخ [. . .][1] ، وذلك باحتفال الإكليل المقدس في فندق حنا ذروني بجوار دائرة بلدية القدس. دعوة العرس كانت باسمي ولسوء الحظ أصابتني وعكة ألزمتني الفراش لمدة أربعة أيام ، وهكذا لم أحضر حفلة الإكليل. وقد سكن الأخ خليل وعروسه بعد الإكليل مباشرة في الطابق الأول من عمارة الحاج مصطفى الحسيني بالشراكة مع الحاج جودت الحلبي وإبراهيم علي الحزينة الواقعة في مدخل شارع الشماعة الشرقي بجوار دارنا في النيكوفورية .

[1] ناقص في الأصل

رحلة لبنان وذكريات ظهور الشوير

حصلت على المأذونية السنوية لمدة شهر وعزمت على الراحة بجولة في جبل لبنان. وقد سررنا بجيرة خليل واطمأننا على البيت فتركنا يسرى وليلى تحت إشراف أمهما حلوة ومراقبة خليل وزوجته مدة غيابنا . ذهبنا وفيكتوريا عن طريق حيفا ، وكانت معي آلة الجنبوش التي ذكرت عنها الكثير سابقاً ، وإنها والحقيقة رفيقة المسافر لصغرها وسهولة حملها في السفر ، وزرنا في أول يوم الأخت فيكتوريا سعيد زوجة الأخ بسكال حنانيا في جبل الكرمل ، وتمتعنا بمناظر هذا الجبل الخلابة التي تطل على البحر ، وهناك قضينا السهرة الأولى على الجنبوش ، وكانت ليلة أنس لما ضمته من معارف فيكتوريا وبسكال حتى أنني كنت على وشك العدول عن تكميل الرحلة إلى لبنان .

ولكن ثاني يوم سرنا على بركة الله عن طريق الناقورة ، فوصلنا بيروت ، ولكن –مع الأسف– لم نذق لذة النوم في الليل لشدة الحر ، وهكذا تركنا إلى ظهور الشوير ونزلنا في فندق الروضة ، أي الأول على يدك اليمنى لدى دخولك بلدة ظهور الشوير لصاحبه السيد إدوارد مرهج. وجدنا في هذا الفندق كثيراً من الأصدقاء منهم المحامي راغب الإمام من يافا ، والأخ جميل طناس الحلبي ، والأخ شكري الحرامي ، وخضر شحيبر وعمه من غزة وغيرهم ، وهكذا أين لواصف أن يأخذ الراحة التامة ، فقد شاهد هؤلاء المعارف آلة الجنبوش وكانت ثورة ، فعزفنا وغنينا ما تيسر لأول ليلة إلى منتصف الليل ، وذلك في قاعة الفندق الفسيحة وبيت المائدة ، فسر جميع نزلاء هذا الفندق ، وانسجمنا مع بعض نحن ورجالهم ونساؤهم تجلى الطرب بصورة هائلة ، وكلهم يرجو الإعادة وطلب أغانٍ أخرى ، خصوصاً عائلة يزبك التي عرفتها لأول مرة ، ومن ثم

قاض من القاهرة له ميل فطري للغناء والموسيقى، وذو صوت حنون، فشاركني ببعض المقطوعات الخفيفة، وبالإختصار أعجب الجميع لسماعهم ولأول مرة آلة الجنبوش التي كانت وكأنها فرقة خاصة لما تصدر من صوت عالٍ مشبع.

بقينا في هذا الفندق على اللهو والطرب ليلاً نهاراً إلى أن جاءني صاحب الفندق السيد إدوارد مرهج وطلب مني بكل رجاء أن ألبي طلبه لما شعر لي من حب أولاده، وطلب مني أن أكون العراب لطفله الأول، وهو روم أرثوذكس، ولم أستطع رفضه، وهكذا أخذنا الطفل إلى كنيسة قديمة جداً تعرف بكنيسة مار إلياس بعيدة نوعاً عن ظهور الشوير، وفي هذه الكنيسة الأثرية أقمنا احتفال العماد المقدس، وسمينا الطفل ميشيل، ودعونا له العمر الطويل، ولدى رجوعنا مساء إلى الفندق، أقام السيد مرهج على شرف العراب بمناسبة عماد ولده البكر حفلة في قاعة الفندق تجلى فيها الكرم اللبناني الأصيل، فكان المشروب والعشاء لكل من نزل الفندق في تلك الليلة على حسابه الخاص.

وهات يا كاس والوتر والسمر والغناء من جميع أنواعه وأشكاله على آلة الجنبوش إلى بعد منتصف الليل، لم يزل كل الحضور يذكرونها بشغف ولوعة ليومنا هذا. وهكذا بمناسبة العماد أصبح صاحب هذا الكتاب وكأنه من أصحاب الفندق ومن آل مرهج الكرام، تزور فيكتوريا المطبخ وتشرف على طهي ما نطلب ونحب، وإني بالحقيقة انسجمت مع هذه العائلة الكريمة وخاصة أخته ماري.

وقد صادف أنه جرى في هذا الفندق احتفال لانتخاب ملكة الجمال، فعينت عضواً وخبيراً في هذا الاحتفال، وهناك القهقهة، خصوصاً من معارفي الفلسطينيين عندما كنت أطلب من الآنسات الوقوف ثم الدوران لمشاهدة القوام من الأمام والخلف إلى ما هنالك من مهمة شاقة ... وما كنت عليه من طرب وحظ ... فسقيا لتلك الأيام ما أطيبها.

أقمنا في هذا الجو المرح مدة تسعة أيام قضيناها –والحق يقال– من العمر. وقد رفض الأخ مرهج قبض الحساب فلم أقبل، وهكذا وبعد الجهد قبلت الضيافة العربية مدة ثلاثة أيام ولياليها بما فيها المشروب.

وهكذا أصبح لنا أقارب كروجين في جبل لبنان، واصلنا المحبة والمكاتبة وتبادلنا الهدايا ليومنا هذا. تركنا الفندق وقضينا ما تبقى لنا من أيام المأذونية في فنادق البروك ونبع الصفا وشاغور وحمانة، وهناك التقينا بالأخ فخري وصديق له من القاهرة المدعو [...]،[1] سابا وزوجته وسررنا في معرفته جداً.

[1] ناقص في الأصل

ثم صادف وجود الأخ الدكتور صليبا سعيد في الشمال فاتصلنا معه تلفونياً وأجمعنا سوية، وهكذا رجعنا القدس عن طريق الشام بسيارة خاصة لم نعرف كيف وصلنا محلة الشيخ جراح من كثرة الضحك وكثرة النكات والفكاهة، فكنت عندما أنتهي من نكته يبدأ الأخ فخري بأخرى وهكذا. والجدير بالذكر أن السيارة وقفت عندما دخلنا القدس بجوار منزل راغب بك النشاشيبي، وبقينا حتى انتهى السائق من تصليح العجل وقلنا بالله العجب حتى السيارة لم تشأ الرجوع إلى فلسطين إلا بالقوة.

وجدنا البيت ويسرى وليلى بأحسن حال وأهدأ بال، وشكرنا الباري عز وجل على هذه الرحلة الميسرة.

احتلت فلسطين مجموعة من الدول الغربية تحت اسم كبير يعرف "بالحملة الصليبية"، بمعنى أن هذه الدول العظمى أخذت البلاد لتحافظ على الأماكن المقدسة، وعلى المسيحيين الموجودين فيها، ولو كانوا قلة، ولا مجال هنا للبحث أكثر في هذا الموضوع، بل أكتفي وأقول إنهم طردوا من البلاد عندما اتحد العرب على يد القاهر صلاح الدين، وقد ثبت تاريخياً أنهم لم يعيدوا لا الأماكن المقدسة ولا المسيحيين طيلة المدة التي قضوها عندنا، وعليه يتضح جلياً أن احتلالهم للشرق كان لمنافع ومصالح خاصة، ولكن تحت شعار الدين ليس إلا.

وعندما انتهت الحرب العالمية الكبرى الأولى، شاء القدر أن تحتل بريطانيا فلسطين، واستقبلها العرب وأكثرهم من المسلمين استقبالاً حاراً وفياً، وقد ساعدوهم وقاموا على الأتراك وذبحوهم، وذلك بموجب المعاهدة المعلومة بين الإنكليز والمغفور له الملك حسين الأول الهاشمي.

ولكن مع كل أسف، عندما خطب اللورد اللنبي بيانه الأول في حوالي عيد الميلاد بالقدس قال:

"والآن انتهت الحروب الصليبية.."، فاستاء كل المدعوين وترك أكثرهم ذلك الاحتفال الذي أقيم خارج باب قلعة النبي داود الرئيسي باب الخليل.

فهنا يحق لنا أن نتساءل لماذا عاد اللورد اللنبي هذه الأحزان بعد غياب طويل؟ أهل كان محقاً بما قال؟ لأنه إنكليزي مسيحي؟ أم ماذا؟!! هل بريطانيا بصفتها الدولة المسيحية تشعر مع مسيحيي هذه البلاد لأجل المحافظة عليهم من المسلمين؟ لا والله إني أقولها صراحة أن المسيحية من الإنكليز براء.

لأن المسيحي الحقيقي لا ينسى أو يتناسى مأساة السيد المسيح وإهانته وصلبه من قبل أعدائها اليهود. وقد ثبت للعالم أن بريطانيا هذه قد تكرمت وأعطت اليهود وعد بلفور المشؤوم متى؟!! كان تاريخ وعد بلفور كما هو معلوم في ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧، أي قبل ما يحتل اللورد اللنبي فلسطين ... لأن الاحتلال وقع في ٦ كانون الأول سنة ١٩١٧، وهذا الغدر والخيانة دونت وتدون كنقطة سوداء في سجل بريطانيا المسيحية ما عاذ الله ... إلى يوم القيامة. وزاد على ذلك أن المسيحية من أهل فلسطين لم تعامل من قبل دولة الانتداب البريطاني طيلة مدة ثلاثين سنة بالمعاملة المسيحية، بل بالعكس، كانت تستفز شعور المسيحيين في كثير من المناسبات، وخصوصاً في الاحتفالات الدينية التي كانت عادة تقام في الأماكن المقدسة، وكانت بريطانيا تسمح لليهود بدخول كنيسة القيامة، وتتحدى المسيحيين الأهلين مع أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب منع اليهود من دخول الكنيسة المذكورة، حتى ولا المرور أمام الباب الرئيسي لها، وإذا قتل هذا اليهودي في المكان الممنوع تدفع عن روحه (دية) عبارة عن قرشين ونصف فقط المعروفة (بالزلطة).. فبالله عليك، أنظر وتأمل ما بين المسلمين والإنكليز المسيحيين، ومن منهما كان يعطف ويحترم المسيحيين وأهلها؟!

لم تكتف بريطانيا بالأقوال بل بالأفعال. فقد أسست ونفذت بكل ما أعطيت من قوة ونفوذ الوطن القومي لليهود، وسهلت الهجرة، وسلحت المهاجرين ضد العرب، وسنت القوانين لاضطرار المالك بيع أملاكه لليهود، ثم وأخيراً سلمت البلاد

بكاملها إلى اليهود . وتغاضت عن منظر هجرة العرب عن البلاد إلى يومنا هذا ، وأصبح أكثر من مليون عربي لاجئ كرامة لعيون حسناوات اليهود .

هذه هي المسيحية الحقة -ويا للأسف- التي يتغنى بها الإنكليز ويضحكون بها على الشعوب بستار الدين. إن المسيحي الحقيقي المؤمن بمسيحيته لا يمكن ولا بصورة من الصور أن ينسى أو يتناسى -كما قلت- إننا عدوه الأول في الدين ، أي اليهودي ، وإليك على سبيل الفكاهة ، ولكنها ذات معنى ومغزى عظيم أدون لك هذا الحادث إثر ثورة سنة ١٩٢٩ في فلسطين ، عندما طالبت الصهيونية العالمية باسترجاع حائط المبكى البراق ، وبالفعل ابتدأوا بالتعدي على العرب الذين كانوا يسكنون بجوار ذلك الحائط المقدس .

إنها اسطوانة سجلت في لبنان من قبل ظرفاء وانتشرت في الأقطار العربية ، ولكنها منعت رسمياً في فلسطين من قبل حكومة الانتداب البريطاني احترامًا وحباً لليهود . وقد احتفظت بهذه الأسطوانة سراً ليومنا هذا ضمن المجموعة الجوهرية :

الأسطوانة : [طاب شرب الدم طاب]

لحام أو قصاب لبناني من زحلة ينادي بأعلى صوته وبلهجة زحلاوية وبصوت أجش : لحم يا لحم . . لحم عجول . . لحم غنم . . لحم يا لحم .

بائع متجول يهودي ينادي بأعلى صوته : كردلات . . دبابيس . . مناديل . . كلسات .

الزحلاوي حاجة تعيط ولية .

اليهودي كيف أنت بتعيش بدنا إحنا نعيش كمان . .

الزحلاوي تقبرني ملاقي لهجتك غير شكل ، كيف بتكون إنت؟

اليهودي أنا موسوي . . موسوي . . مانك فاهم؟

الزحلاوي يعني موراني ! !

اليهودي سيدي ماني موراني . . أنا يعني إسرائيلي !

الزحلاوي آه هلأ فهمت . . . يعني أرثوذكس مستقيم الراي . .

اليهودي شو أرثوذكس يابي . . أنا اللي بتقولوا عنه صهيوني .

الزحلاوي إيه هاي قول من قبل إنك بروتستانت . . دقه جديدة .

اليهودي سيدي أن ماني بروتستانت أنا يعني يهودي

وهنا بيت القصيد

الزحلاوي	يه يه يه يهودي ويعدني بحاكيك . . . انزل . . . انزل طاب شرب الدم طاب . . وأخذ الثأر ما هو عار . . ولك عادلي ألف وتسعمائة وتسعة وعشرين سنة وأنا ناطرك . . "ومسكه بقوه ويغضب ووضع السكين على عنقه" وقال : ولك شاب مثل تمر الحبق . . وحيد لأمه . . مسكوه وعزبوه وصلبوه . . انزل انزل . . طاب شرب الدم طاب . . .
اليهودي	يستغيث . . صائحاً . . يا بوليس . . يا بوليس . . والله ما كنت معهم . .
الزحلاوي	ما كان بيك . . ما كان عمك . . ما كان جدك ولك خلصني طاب شرب الدم طاب . .
اليهودي	يعيد الاستغاثة وينادي بصوت أعلى من قبل يا بوليس . . يا بوليس .
البوليس	وعندما يصل البوليس يبتعد الزحلاوي عن اليهودي ، فسأل البوليس شو القصة . . شو فيه .
اليهودي	كان بدو يذبحني يا سيدي . . قال أنا قتلت مسيحه .
البوليس	موجهاً كلامه إلى الزحلاوي ، شو هايدي . . شو مسيحي . . يهودي . . مسلم كلنا خلقة الله .
الزحلاوي	كنت بلعب معه .
اليهودي	إلى البوليس ، شو تلعب معي والله لو ما أجا الأفندي لكان ذبحتني .
الزحلاوي	إلى اليهودي ، ليه مع السلامة بتلتقي . . ! !

نصوحي بك بيضون والتوقيع المزيف

تعين نصوحي بك بيضون مساعداً في دائرة حاكم القدس واختص بشؤون المسلمين ، وبالنظر لكثرة مسؤولية السيد عطا الله منطورة في دائرة الإيرادات ، عندما باشرت الحكومة في إنشاء ضريبة الأملاك منذ سنة ١٩٢٩ جرى إدارياً تخصيص شؤون التحصيلات ومعاملة التسجيل والإدارة لنصوحي بك ، وبقي السيد عطا الله منطورة مشرفاً على التخمين .

وهكذا أصبحنا نحن الموظفين مسؤولين أمام نصوحي بك ، واشتغلنا معه فوجدناه –والحق يقال– من ذوي الأخلاق الممتازة لا غبار عليه ، وكنا نعجب جداً من معاملته اللطيفة لأي كان من مرؤوس أو مكلف ، وقد شاهدته مراراً يقف عند استقبال أي مكلف كان احتراماً له ، ثم يودعه كثيراً من الأحيان إلى باب الغرفة ، الأمر الذي لم نشاهده من غيره من

الرؤساء . كان لطيفاً في حديثه ، وباشا في معاملاته ، وقد أحببناه جداً من قلوبنا ، وكان يصفح ويسامح كل من أساء إليه ، وإني أذكر هذا الحادث الطريف الذي وقع ، ليعطي القارئ صورة واضحة عن سمو أخلاقه .

كنت عادة ولكثرة أشغالي في تخمين الأملاك أشتغل وأعضاء اللجنة زيادة عن ساعات العمل تتجول فيها من بيت لآخر ، وأحيانا لعند الغروب ، وهكذا كنت ليس مقيداً بأن أحضر في الصباح الباكر مع باقي الموظفين ، ولا أوقع سجل الدوام معهم .

وقد صدق أن أخي وصديقي يوسف عبده عرج مبكراً ذات يوم وسأل عني ، فأجابه أخينا سليمان فراج بأن واصف لم يحضر الآن ، وعليه جلس يوسف بجانب سليمان وشربا القهوة . وفي أثناء الحفلة أخذ ورقه وقلم وكتب كتاباً شديد اللهجة يؤنبني فيه على تأخري عن الدائرة في الصباح ، ويهددني بعدم التأخير وإلا ستجري بحقي المعاملة القانونية ، إلى ما هنالك من كلمات ، وكأنها صادرة رسمياً عن مساعد الحاكم .

كان هذا الكتاب مداعبة ليس إلا ، وقد أخذه سليمان ووقع توقيع نصوحي بيضون وكان قد أتقنه كل الإتقان من المعاملات ، ثم أغلق الكتاب وأدخله ضمن ظرف حكومي رسمي ، وكتب العنوان إلى السيد واصف جوهرية ، ووضعه جانباً على مكتبه أملاً أن يسلمني إياه عند حضوري للضحك . ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه . . . فقد أخذ مأمور الحجز مصطفى النشاشيبي الكتاب خلسة من على المكتب وبدون معرفة سليمان وقد سلمني إياه في الحال عند وصولي باب السراي الرئيسي .

قرأت الكتاب وهالني ما قرأته فنرفزت بالحال وتأثرت من معاملة الحكومة وعدم تقديرها لأتعابي ، وقد أخذت الكتاب بيدي ودخلت لمواجهة نصوحي بك الذي وقع هذا الكتاب .

وهنا بيت القصيد :

شكوت أمري إلى البيك وعرفته ما أقوم به من أشغال وأتعاب بعد ساعات العمل ، وأثبت له فعلاً من القيود التي كنت أحتفظ بها من اليوم السابق ، وبينت له شدة تأثري ، فما كان منه إلا أن طيب خاطري وأخذ الكتاب مني ورماه في الصندوق المعد للأوراق ، وقال لا تزعل يا واصف ، فإننا جميعا نقدر أتعابك وسأنظر أنا في الأمر ، فلا تهتم فشكرته وخرجت من غرفته ، وإذ أخينا سليمان معبوك الوجه وعيونه تقدح من الشرار وفاجئني :

واصف أين المكتوب؟

أجبته أنه مع نصوحي بك وقد طيب خاطري وقال لي لا أهتم بالأمر !

وعندها صفق سليمان بيديه وقال يا شيخ ! ! المسألة ضحكة يا ضحكة لعنة الله على مصطفى النشاشيبي ، وأنا وقعت الكتاب وليس نصوحي بك ولا حاجة ! ! ويا للفضيحة الآن ماذا يعمل نصوحي بك في . . . ؟ ! ! كدت أن أغمى على حالي من الضحك ، وتساءلت نفسي [كيف مرت على نصوحي بك طالما أنه لم يوقع الكتاب بنفسه] ثم تشجعت وقلت إلى سلمان انتظر ولا يهمك .

رجعت إلى سيدنا البيك، فقال ماذا يا واصف أفندي؟

أجبته [أنني فهمت القصة الآن بيك، وهي أن هذا الكتاب هو نموذج فقط نظم رسمياً في الإدارة لإرساله لمن يتأخر من الموظفين من الآن وصاعداً، وقد مر عنك بالسهو من قبل رئيس الكتبة تبعك المستر نحاس وسعادتك وقعت عليه] فهل تسمح لي الآن بأخذه؟!!

أجابني: بكل سرور تفضل خذه.

فأخذته وسلمته إلى سليمان للاطمئنان ... خوفاً على حياته ... وهناك يا ضحك وقلت والله هكذا يكون البيك وإلا فلا ... بارك الله فيه وستر الله أن الحادث وقع معه وليس مع سواه منطورة أو كريكوريان! لكان خرب بيتنا جميعاً.

رحلة دير مار سابا لأول مرة

من المعروف أن عيد القديس سابا - ونقولا والبربارة - يكون عادة في وسط فصل الشتاء وأذكر بكل سرور هذه الأعياد المباركة عندما كان والدانا يعملان لنا فيها - أي ليلة القديسة البربارة - حلوى تعرف بالخشاف، والأهم لكل طفل صحن من القمح المسلوق يحلى بالقدامة المطحونة والسكر الناعم ويزين بالملبس ذي الأشكال المختلفة، ويحفظ هذا الصحن في غرفة الوالد لمدة ثلاثة أيام. وفي صبيحة كل عيد من هؤلاء القديسين يجد الطفل (المتليك) قطعة نقود عثمانية على الصحن، وهكذا يتشجع ويأكل أكله حتى يجمع ثلاثة متاليك.

كان المعروف للأطفال أن هذه المتاليك لا تعطى من قبل القديس ليلاً إلا عندما يرى القديس أن الطفل صادق ومطيع ومجتهد في دروسه، وهكذا يحاول الطفل أن يكون من ذوي الصفات الحسنة ... فسقيا لتلك الأيام ما أحلاها! اتفقنا نحن المذكورة أسماؤنا هنا على أن نزور دير مارسابا:

متري قسطندي المنى، وشكري المنى، وجورج مراد، وميخائيل فليفل من بيت لحم، وأندريا القسيس، وخليل جوهرية، ويوسف عبده، وسليمان فراج، ولطفي بن صالح السنونو، وإلياس سلحيت، وطناس سلحيت، وكل منا يركب حماراً إلا أحدنا فليفل الذي يعتلي ظهر جواد. سرنا على بركة الله عن طريق وادي الربابة وسلوان والسواحرة ودير بن عبيد، وكانت الطريق كلها وعرة والمناظر المحاطة بنا جرداء، إلى أن وصلنا الدير، إذ قرعت الأجراس منبئة بحضور زائرين، فدخلنا ووجدنا دير مارسابا أشبه بقلعة قديمة يعجز القلم عن وصفها. الدير مقام على صخور عالية شامخة، ومحاطة بجبال مرتفعة جرداء صخرية لا نبات عليها والعياذ بالله.

إن الدير مؤلف من تسعين غرفة، وهذه الغرف العديدة تطل على ساحات سماوية فسيحة الأرجاء وفي الوسط كنيسة مارسابا. إن منظر الدير من الخارج والداخل ذو عظمة ووقار، والبناء عجيب جداً وكله من الحجارة الصلبة، وفيه الأثاث المتواضع حتى المائدة والمقاعد مصنوعة من الحجارة. كان يضم حوالي ٣٠ راهباً فقط، وقد عرفنا تاريخه كما يلي:

أقيم بناء الدير والكنيسة منذ حوالي الألف وستمائة سنة تقريباً من قبل الناسك الزاهد مارسابا عليه السلام. جاء هذا القديس من الترانسفال من أعمال الأناضول ومعه جيش كبير، فتركه وانزوى الناسك وبعض رفاقه في الدير، وبقي هذا الجيش يسكن حول الدير من الخارج في الوادي والجبال المحيطة به، وهذا الجيش عرف بقبيلة [. . .][1] العبيدية. وقد فهمنا أيضاً أن البعض من هذه القبيلة ثار منذ مائتي سنة وذبح ما يقرب من مائة وخمسين راهباً لم تزل جماجمهم داخل غرفة خاصة شاهدناها بأعيننا.

كان القديس سابا عدواً للنساء، وقد اتخذ هذا الدير أو البرج بعيداً عن المدينة، وحذر بعدم دخول المرأة إلى الدير، وعمل بوصيته ليومنا هذا. وفي حالة اضطرار سيدة ما الزيارة يمكنها البقاء في برج صغير مقام بجانب المدخل الرئيسي للدير فقط.

ونظراً لموقع هذا الدير الموحش وبعده عن المدن والحضارة وزينة الدنيا، فقد اتخذه بطريرك القدس للروم الأرثوذكس مقراً للرهبان الذين لا يؤدون الطاعة في سلك الرهبنة بالقدس، وإليه كان يرسل الراهب العاصي ليمضي باقي حياته مسجوناً. وإني أذكر أيضاً أن من أبناء الطائفة للروم الأرثوذكس من اتخذ الحياة الشقية ولم يجد من يعوله في الشيخوخة كان يقدم حياته فيلبس لباس الرهبان، وينزوي مختاراً في هذا الدير لقضاء ما تبقى له من العمر. أذكر من هؤلاء حنا أدرنلي ابن أخت يعقوب سعيد وشقيق صهرنا جورج أدرنلي، ثم أحد أبناء الطائفة يعرف بالنعسان وغيرهم.

إن الحياة في هذا الدير شاقة، فلا يجوز دخول أي من اللحوم والجبن والبيض أو السمن، إنما الأكل هو العدس حتى بدون زيت، العدس وبس . . . تناولنا من الرهبان المقيمين في هذا الدير العشاء معهم على المائدة الحجرية، وكان العشاء عدس مسلوق وبصل، ومن أراد الزيت عليه أن يستعمل من قوته. ثم قدم لنا الصالون نظراً لوسعه، وهناك جميعنا نمنا على المقاعد الخشبية المقامة حول أطرافه، ولكن هل من نوم؟ ! !

كنا جميعاً نتبادل النكات والفكاهة حتى أزعجنا الرهبان، وكان أحدنا لطفي السنونو المتضلع بعلم الدين الأرثوذكس رغماً عن صغر سنه كان يتحفنا بأقوال المسيح والقديسين والكنيسة، ويرتل ما قسم إلى أن نمنا. وعند الساعة الثانية بعد منتصف الليل قرعت أجراس الدير فقمنا في الحال وحضرنا القداس داخل الكنيسة بخشوع تام، ثم تناولنا القربان المقدس وسره، وحمدنا الباري عز وجل على هذه الزيارة.

كانت زيارتنا هذه في سنة ١٩٣١، وقد صادف تأخر الشتاء في البلاد بصورة لم يسبق لها [مثيل]، الأمر الذي جعل جميع رؤساء الدين من مختلف الطوائف المسيحية والمسلمين واليهود أن يقوموا بالصلوات ويتضرعوا للإله عز وجل أن يبعث الغيث. وهكذا ونحن في الدير بعد انتهاء القداس وسر القربان داخل الكنيسة، خرجنا خلف رئيس الدير والرهبان إلى ساحة سماوية فسيحة بجوار قبر القديس سابا، وركبنا وجلسنا لمدة كبيرة، وكان الصندوق الفضي وفي داخله يد القديس سابا المحنطة بيده بالذات معنا محمولاً بخشوع من الرئيس إلى الصباح، وكانت طلبات ودعوات واستغاثات للغيث. وهكذا بعد الصلاة جلسنا على مقاعد خشبية كانت مقامة حول الساحة ووزعت علينا القداسة.

[1] ناقص في الأصل

وإني أعترف هنا صراحة في هذه الفترة من العبادة طلبت من الله عز وجل أن يعطني ولداً ذكراً ، وقد قبل طلبي وألف شكر لله فقد أنعم علي بعدها مباشرة بولدي جورج ، فسبحانه وتعالى. والجدير بالذكر أننا عندما تركنا الدير وركبنا الحمير ، ولدى وصولنا في الطريق بجانب مدخل دير بن عبيد ، تكاثرت الغيوم في السماء واختلف الجو فأمطرت مطراً غزيراً وصلنا إلى القدس وجميعنا مبلل في حالة فظيعة ، حتى أن الحمير توقفت عن السير إلى أن وصلنا بصعوبة ، خصوصاً يوسف عبده وسليمان فراج اللذين كانا يركبان الحمير لأول مرة في حياتهما .

الفارق ما بين البطريرك ذميانوس وتيموثاوس ... عكسك تماماً

من المعروف ولا شك فيه أن المغفور له البطريرك ذميانوس كان كريماً وسخي العطاء ، حتى إن صح القول مسرف في مناسبات عديدة. وقد سما اسمه في الداخل والخارج لما كان عليه من عيش رغد وترف ، فقد أصبحت البطريركية الأرثوذكسية بالقدس إبان حياته وكأنها أشبه بحكومة ضمن حكومة. وقد اعتاد على هذا الحال حتى دخول الحرب العالمية العظمى ، فانقطع عنه كما كانوا يسمونه "نهر الكربونات" من روسيا إثر دخولها في الحرب ، ثم الثورة التي غيرت مجرى حياتها والبطريرك ذميانوس لم يزل يبذر الأموال ، وكله أمل بأن الأحوال ستحسن ، وقد اضطر إلى أن يستدين من أثرياء البلاد زمن الحرب بصورة تبهر الأنظار ، فقد كان يستلم الليرة التركية بنكوت التي كانت لا تسوى أكثر من عشرين قرشاً يستلمها على قيمتها وقيمتها الأساسية الرسمية؛ أي مائة قرش ويوقع السند للدائن وكأنه استلم ذهباً لا ورقاً ، حتى أصبحت البطريركية عند الاحتلال البريطاني تئن تحت مبالغ طائلة من الديون.

كل هذا حدث بسبب كرم وإسراف البطريرك ذميانوس ، ولولا دخول قومسيون مؤلف من دولة الانتداب البريطاني تحت رياسة المستر ديفيز الذي وقف بجانب مصالح البطريركية ودفع الديون لأصحابها بنسبة قيمة الليرة العثمانية تاريخ توقيع السند مع البطريرك لكانت المصيبة أشد وأبلى. وعلى كل حال ، تسربت أملاك [كثيرة] إثر هذه الديون ، وذهبت –ويا للأسف– إلى اليهود وهي من أجود أراضي ضواحي مدينة القدس [مثل] شارع الملك جورج ، ورحافيا [مناطق (أ) و (ب) و(ت)] وبجوار كنيسة المصلبة والطالبية [مناطق (أ) و (ب) و(ت)].

لا يستطيع أحد أن ينكر ما عمله البطريرك ذميانوس إبان حكمه ما بين سنة ١٨٩٧ إلى سنة ١٩١٤ ، فقد اشترى الأملاك الشاسعة من الأهالي باسم البطريركية ، ثم بواسطة كرمه هذا فقد حصل من الدولة العثمانية على فرمان يسمح للبطريركية الأرثوذكسية أن تدفع مبلغ ألف ليرة فرنسية سنوياً رسماً مقطوعاً عن جميع أملاك البطريركية في فلسطين من ويركو وأعشار و... و... الخ.

وقد حاولت دولة الانتداب أن لا تعترف بهذا الفرمان ، وقد استوفت بالفعل الضرائب المرتبة عن كل ملك كان يباع أو يفرز أو يرهن أو يجدد حسب نص القانون لباقي الأهالي ، وقد تمسك البطريرك بهذا الفرمان وذهب يشكو إلى لندن حيث تقرر العمل بموجبه ، ولدى رجوع البطريرك وبموجب أمر خاص من حكومة لندن ، أرجعت كل المدفوعات من قبل الخزينة إلى البطريركية.

إن كرم ذميانوس عجيب ولا مجال للتحدث عنه أكثر ، بل رغبت أن أعطي القارئ لمحة وجيزة ، فإذا ما عين متصرفاً زمن الحكم العثماني بالقدس كانت البطريركية تدفع له إيجار المنزل وتهديه العربة مع الخيول ، وتنظم له ولعائلاته كل أسباب البذخ والراحة والسفر والرحلات والشطحات ، وكذلك أعظم رؤساء الدوائر بمناسبة الأعياد ، ولا تسأل عن الاحتفالات التي كانت تنظم زمن البطريرك ذميانوس ، الاحتفالات الدينية مثل شطحة ستنا مريم ، ومار الياس ، والمصلبة ، وغيرها في طول البلاد وعرضها ، فكانت البطريركية تقوم بضيافة الحكومة حتى الجيش وفرق الموسيقى ليلاً نهاراً ، وتقدم الهدية المستورة . . . لكل موظف بالمناسبات من دراهم ذهبية بركة . . . من غبطة البطريرك .

وقد علا اسم ذميانوس والبطريركية ودير الروم زمن الحكم العثماني ، وأذكر بهذه المناسبة ما قصه والدي علي من حادث فعلاً :

تخرج شاب من أعيان الأتراك في الآستانة ، تخرج من علومه وتعين بموجب فرمان سلطاني متصرفاً في الحجاز . وقد صادف أن هذا الشاب كان يسمع الكثير من والده عندما كان موظفاً كبيراً مسؤولاً في إحدى المدن زمن صباه ، وكيف كان يتمتع هو وعائلته في الحياة من قبل بطريرك الروم . وعندما وصل الشاب المعين متصرفاً إلى الحجاز استقبله على محطة القطار وجوه وأعيان وموظفو الحجاز استقبالاً حاراً يناسب المقام . وبعد السلام على كل من المستقبلين التفت المتصرف هذا إلى موظف كبير وسأله [نره به روم منا ستير . .] ؛ أي [أين دير الروم]؟ ! ! ولم يفكر سعادته بأن الحجاز خاوية من المسيحيين ، وعندما أجيب بعدم وجود دير الروم ، كتب الاستقالة وأرسلها تلغرافياً إلى الآستانة ، وبالفعل ترك أخينا الحجاز بعد كم من يوم لشدة حبه لدير الروم !

والآن أقول عندما رسم ثيموثاوس بطريركاً للقدس خلفاً لذميانوس ظهر للبطريركية والأهالي بأنه عكس ذميانوس تماماً ويا للأسف :

عرفت سيدة يونانية اضطرت أن تترك القدس ، وكانت في حالة يرثى لها من الفقر والعوز وعزمت على الذهاب إلى بلدها في اليونان ، وهكذا وبالواسطة واجهت غبطة البطريرك ثيموثاوس وطلبت مساعدته للقيام بسفرها . فما كان منه إلا أن أخذ ورقة وقلم وباشر بتدوين كل ما يلزمها من نفقات بصورة أخجلت المرأة وأخيراً دفع لها مبلغ ليرتين . . وبس ليرتين فلسطينيتين وقال لها عندما لوحظ عن عدم رضائها بما دفع [يا سيده لا تفكري بأنني ذميانوس؟ ! !] .

وإني أرجع وأذكر هذا الحادث لذميانوس :

صادف أن الشيخ أديب جودة محافظ مفتاح كنيسة القيامة قبل أيدي ذميانوس عندما دخل الكنيسة ذات يوم في منتصف سنة ١٩١٤ ، وطلب منه بركته . . . أي إعانة لأنه يرغب في الحج . . . فما كان من ذميانوس إلا أن هش وبش في وجهه ودعاه لرؤيته في البطريركية . وعندما حضر الشيخ أديب جودة إلى مكتب البطريرك الخاص في البطريركية استقبله غبطته بأحسن استقبال ، وبدأ يقدم له الاعتذار عن قصوره وعدم استطاعته بتقديم الواجب له من نقود في مثل هذه الأوقات

الصعبة، والدنيا على أبواب الحرب، وأغلقت حدود روسيا ... إلى ما هنالك من أعذار وكادت عيونه تبكي ... الأمر الذي أخجل الشيخ أديب جداً من موقف البطريرك هذا، وأحس فعلا بما كان يكنه البطريرك من حب وشعور من نحوه.
ثم نادى البطريرك على بنايوت أفندي ... الذي كان حاجباً أميناً له وأمره بفتح الخزنة الحديدية وجلب إليه من التنك.
فلما أحضرها قال البطريرك إلى الشيخ أديب يا ولدي لا تؤاخذني افتح منديلك ففتح المنديل وقد أفرغ ذميانوس جميع ما كان في العلبة من قطع نقود فضية وغيرها. أخذها الشيخ أديب شاكراً وقبل يديه وعندما عد النقود في بيته وجد أن المبلغ هو عبارة عن [اثنين وأربعين ليرة.. بس لا غير..].
قضى ذميانوس حياته كلها وكأنه ملك يصرف ويتكرم بدون حساب، وقد جاء دور البطريرك ثيموثاوس عندما عين خلفاً له أصابه الشلل ... لسنين طويلة، وما كان يصرف إلا اللازم حتّى نفذ صبر الرهبان من تصرفاته غير المرضية، وهكذا تمثلت فيه وذميانوس قول الشاعر:

"أروني بخيلاً طال عمرا ببخله   وهاتوا كريماً مات من كثرة البذل"

كان ذميانوس عالماً مدركاً سياسياً، ولعب دوراً عظيماً في حياته، وكان علماً بالنسبة لزمانه، وأما البطريرك ثيموثاوس فكان متعلماً أكثر منه وخريج أكسفورد، وجاء في زمن يليق به وحده، زمن الماديات والسرعة رحمهما الله وأسكنهما فسيح جنانه.

الخندقوق والخروف للجوهرية

كان المرحوم الوالد موظفاً في البطريركية الأرثوذكسية، [...][1] وكان عضواً في المحكمة الكنسية، وقد صادف بمناسبة العيد الكبير والفصح المجيد أن الترجمان الأول المرحوم المطران إفذوروس أرسل خروفاً مع العم أبو خضر هدية من قبل البطريرك إلى الوالد. استلم الخروف العم أبو خضر وجاء به إلى حي باب العامود فدخل الزقاق المعروف والمؤدي إلى حي السعدية وكان الوقت بعد الغروب.
فما كان من أبي خضر إلا أن ساق الخروف أمامه وبدأ بأعلى صوته ينهر وكأنه خلف قطيع كبير من الغنم ... وهكذا اجتمع من حوله جمهور غفير من أولاد حي السعدية يضحكون وهو لا يبالي، ويزيد صياحاً إلى أن خرج السكان من أبواب وشرفات منازلهم من على جانبي الطريق المؤدية من باب العامود إلى قنطرة المملوك، إلى أن وصل دار الجوهرية، وكما قلت كان يصيح بصورة تجعل المستمع أن يصدق أن قطيعاً من الغنم مار مع الراعي ... في سكون الليل وهو يقول للناس اللهم زيد وبارك كل هذا الحلال عائد لجوهرية أفندي ... وقد سمع والدي وسمعناه نحن جميعاً حتّى الجيران من مسافة طويلة، فخرجنا إلى الشارع والوالد معنا وهناك وجدنا العم أبو خضر والخروف وبس ... وهناك الضحك، وقد نرفز الوالد وقال له ولك الله عليك... فضيحة كبرى.. يلعن أبو هيك هدية التي جاءتني على يدك. وكانت هذه الحادثة الطريفة موضع بحث لدى البطريرك والحاشية والموظفين، وهي حادثة من مئات الحوادث.

[1] ناقص في الأصل

الخندقوق والعم أبو فضل

كان العم أبو فضل وهو ثيودر أفندي برامكي موظفاً دائماً في مكتب الترجمة للبطريركية، فإذا ما دخلت إلى القاعة التي كان يجتمع فيها أعيان الطائفة برئاسة الترجمان الأول للبطريركية للنظر في شؤون الطائفة، كنت تجد المرحوم العم أبو فضل جالساً على مكتبه.

كان العم أبو فضل طيب القلب أنيساً كريماً محبوباً لدى الجميع، وكان -رحمه الله- أعرج ... ولما كان من عائلة البرامكي فكان يتجنب المشاكل ولا يحب إلا السلام كباقي أفراد هذه العائلة الكريمة، وكان الجميع داخل البطريركية وخارجها يعرفون مزاياه حتى الخندقوق. ففي عصيرة ذات يوم دخل أبو خضر إلى قاعة الترجمة ولم يجد أحداً سوى العم أبو فضل يكتب على مكتبه الذي كان في إحدى زوايا هذه القاعة، فحبكت النكتة للعم أبو خضر، وبالحال مثل وكأنه سكران [...][1] بدأ يسأل العم أبو فضل أسئلة غير مفهومة .. وبلغة مكسرة ... إلى أن اعتقد العم أبو فضل من شدة سكره، وهكذا خاف جداً من السوء، فوقف لأجل أن يترك القاعة ولكن إلى أين؟!! فجاء أبو خضر وحشره ما بين المكتب والحائط ... إلى أن تدارك أبو فضل الأمر وحاول أن يجامل أبا خضر بالكلمات المعسولة واللطف والبشاشة وإعطائه الإرشادات:

حرام عليك يا أبا خضر أترك هالسكر، فهذا يا ابني مضر لك وأنت صاحب أولاد صغار ويؤثر على صحتك.. و.. و.. إلى ما هنالك من نصائح. وهكذا وبالحال أظهر أبو خضر طاعته العمياء إلى عمه أبو فضل تمثيلاً ... ولكنه لم يزل يتمايل ذات اليمين والشمال ثم قال والله كلامك مسك يا أبو الفضل والله لازم أبوس إيدك. وعندما أعطى أبو فضل يده إلى أبي خضر ... هناك انتفض أبو خضر وحاول أن يطبق بخناق العم أبو فضل ... مداعباً..

فما كان من العم أبو فضل إلا شهق شهيقاً بأعلى صوته ... من شدة الخوف اهتزت له أركان القاعة ... فنزل الترجمان الأول والثاني والجمهور وتجمع الخدم للإسعاف داخل القاعة، ولكن ماذا حدث اسمع.. ابتعد أبو خضر عن العم أبو فضل في الحال، وقبل ما يدخل القاعة أحد.. إلى الجهة الثانية من القاعة وصار يسأل بأعلى صوته العم أبو فضل:

مالك يا عمي أبو الفضل؟ من تعدى عليك ... كفى الشر وكان يسأل باتزان ولم يكن سكران البتة حتى أظهر لمن دخل من الجمهور بأنه جاء خصيصاً لإسعاف العم أبو فضل ... ولكن العم أبو فضل وقلبه لم يزل يخفق من الرعب كان يحمل عصاه وهو كما قلت كان أعرج ... ويلحق العم أبو خضر متكئاً على عصاه وعلى مسمع الحضور. يلعن أبوك على أبو أبو فضل ... ولك كان خنقتني ... يلعن أبو.. على أبو خضر ... وكان العم أبو خضر يتظاهر بالعكس بأنه مسالم وكأنه لم يحدث شيء ما بينه وبين العم أبو فضل. إلى أن هدأ روع العم أبو فضل وظهرت القضية على الحضور، وهناك هات يا ضحك وقهقهة، وكان مشهداً غريباً أذيع ما بين جميع الرهبان والموظفين في الدير والبطريركية، وأخذه الشعب وأصبح مثلاً ... وحادثاً فكهاً على ألسنة كل من عرف الاثنين.

[1] ناقص في الأصل

كان الخندقوق يقضي ما يقرب من الشهر والنصف في الأرض الكائنة ما بين جبل النيكوفورية وشارع مقبرة مأمن الله بجوار إسطبل أبو شاكر. كانت هذه الأرض بصفتها ملكاً لدير الروم فكانت تزرع خصيصاً شعيراً لخيول البطريرك، وهكذا كان العم أبو خضر يرعى الخيول مع بعض الساسة هناك، ويضيف أصدقاءه ومعارفه من أبناء مدينة القدس، ويقضون أوقاتاً طيبة يأكلون اللحوم ويشربون النبيذ على مائدة العم أبي خضر، ويستمعون إلى نوادره الفكاهية. فسقيا لتلك الأيام، فكانت -والحق يقال- أيام خير وبركة وهناء وسعادة.

عزرا كوكيا

عزرا كوكيا معروف جداً لدى أبناء القدس منذ العهد العثماني ببخله وخفة دمه، وله حوادث طريفة في مجال البخل تنقلها الأهالي من لسان إلى لسان. يعتبر كوكيا -والحق يقال- من أغنى أغنياء القدس، وله أملاك عديدة في أشهر مواقع المدينة، وبخاصة شارع يافا، وكان رغماً عن ثروته لا يعرف كيف الحياة. كان يجبي ويثق في ما أقوله من حيث تخمين الأملاك. وقد صادف -نحن معشر موظفي المالية في غرفة كبيرة تضم أكثر من ١١ موظفاً و١٣ محصل أموال في السراي داخل السور- أنه جاء ذكر كوكيا وبخله على ألسنتنا، وقد جاءتني فكرة وعملت التمثيلية الآتية ترويحاً عن النفس:

حسب طلبي جاءني في الحال مصطفى النشاشيبي مأمور الحجز بكوكيا، وجلس بجانبي وشرب فنجان القهوة، وكان الموظفون وكلهم آذان صاغية. قلت له: ما هذه الخبرية يا كوكيا؟ أجاب ماذا؟ قلت له هناك إشاعة تقول إنك عملت وصية ذكرت فيها (أن يضعوا لك عشرة ليرات ذهب في باب ....). أهل هذا صحيح؟ فانتفض وغضب وقال أعوذ بالله من قال هذا؟ لا يجوز شرعاً. وأجبته إذاً، اعرف وأنت في الحياة. ففهم ما كنت أقصده. وقال ماذا تريد؟ قلت ليس أكثر من ٢٤ فنجاناً من القهوة لنا جميعاً. فعندها ضحك وأمر وجاءت القهوة وشربناها على اسمه! إسايس ذميانوس أبو خضر الخندقوق

كان غبطة البطريرك ذميانوس ولوعاً بالخيول العربية، ولما كان في أوج علاه من الرغد والترف والشهرة، كانت تهدى له الخيول الأصيلة من مشايخ البلاد وأعيانها. وهكذا وجدت لديه مجموعة نادرة من الخيول الأصيلة ومنها ما كان يصلح لجر عرباته الخاصة.

وكان من بعض الساسة لهذه الخيول رجل يعرف بأبي خضر الخندقوق. وكان أبو خضر نادراً وفريداً في الفكاهة والنكتة، و[أما] خفة الروح والدم فحدث ولا حرج. وكان البطريرك نفسه، ثم المطارنة والشمامسة، بل الرهبان وحتى موظفو البطريركية وعمال الدير، يرتاحون للتكلم والتحدث لهذا الرجل الفذ، فكان -ولا شك- يملك قلوب الجميع واشتهر اسمه بين الأهلين من المقربين إلى البطريركية وكأنه حجا.[1] فهو كان -ولا شك- ذكياً لامعاً، وله مواقف وأحاديث شتى في هذا المضمار، أدون فيما يلي ما استطعت منها لأخذ فكرة صغيرة عنه (المقصود أبي خضر الخندقوق):

عندما يذهب بمهمة لسيده البطريرك مثلاً إلى البريج، والبريج هو ملك كبير فيه المياه والبساتين الغناء والبيوت، خصص لإقامة سيدنا مدة وجيزة في السنة للراحة، فإذا ما سألت أبو خضر أين كنت؟ ! . . . يجيبك وكأنه قاموس لمجموعة كبيرة من أسماء القرى والبلاد في فلسطين -نعم قاموس- فتح وقرأ أبو خضر منه:

ذهبنا من الصباح إلى لفتا وقالونية وعين كارم والقسطل وخربة اللوز ومطاف ودير عمرو وكسلا، ثم ملنا إلى بيت محسير وساريس و. . . و. . . و. . . أسماء متصلة ببعضها البعض بصورة يغمى على السامع من الضحك وهو يقرأ عن ظهر قلبه قرى وبلاداً أخرى وكأنها رحلة السندباد البحري، ثم يزيد القراءة إلى بلاد أخرى بعيدة عنا كل البعد، ومثلاً يقول نمنا هناك ورأينا الشيء الفلاني، ثم أفقنا وذهبنا إلى كذا وكذا . . . وكذا من البلاد واشترينا كذا وكذا . . . يتكلم بجد ولا يبتسم وكأنها حقيقة أو حادثة مكتوبة، إلى أن يمل المستمع من كلامه وينسى أشغاله ثم يفيق ويترك أبا خضر والناس من حوله مبهوتون.

وإذا ما ذكرت له أو سألته عن أحد أبناء الطائفة، فهذا يبدأ بشرح ما هو محفوظ عن ظهر القلب في دماغه من أسماء عائلات الطائفة الواحد تلو الآخر، وكأنه سجل النفوس. ليه والله هكذا كان أبو خضر الخندقوق لن أنساه مادمت حياً.

أبو زريس كيف أخوك واصف؟

بعد الانتداب البريطاني أصبح موسم النبي موسى بالقدس خاصةً عيداً قومياً، وذلك بمساعي سياسة سماحة الحاج أمين الحسيني المفتي الأكبر ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى، فإذا ما شاهدت موكب النبي موسى يأخذك العجب والدهشة لما تراه من تنظيم وتجمعات من أقطار المدن والقرى المحيطة بالقدس؛ جنوباً خليل الرحمن، وشمالاً نابلس، تكون مدينة القدس في أبهى العيد والبهجة والحماس السياسي ضد المستعمر والصهيونية لمدة أسبوع كامل. والجدير بالذكر أن هذا الأسبوع يقع في أسبوع الآلام ذاته لجميع الطوائف المسيحية بالقدس، وزاد على ذلك عيد اليهود. كان المرحوم العم أبو ميخائيل القزاز وزوجته يحبونني وكأنني ولد لهما، تأسست هذه المحبة عندما كنت في أول العمر زمن الحرب العظمى الأولى في أريحا أصرف معظم أوقاتي في بيتهم صديقاً لابنه ميخائيل. وقد صادف أن العم أبو ميخائيل حضر خصيصاً من أريحا بمناسبة العيد وكان واقفاً في المقبرة الملاصقة لبوابة المدينة المعروفة بباب الأسباط، وقد لاحظ أخي توفيق واقفاً أيضاً في الجهة الأخرى لهذا الباب، كلاهما واقفان لرؤية موكب النبي موسى القومي الذي كان يسير من باب الأسباط [أهازيج ودبكات ورقص ولعب السيف وأناشيد حماسية وطنية ثم فرقة موسيقى الأيام، ثم الأعيان والشيوخ وحاملو الأعلام وعلى رأسهم الحاج أمين]، وإذ بصوت القزاز -الصوت العالي المعروف لكل من عرف القزاز- ينادي في هذه المعركة [أبو زريس ! ! أبو زريس ! ! أبو زريس ! !] بقي أخي توفيق البعيد عنه بمعنى أبو جريس ! ! إلى أن سمع توفيق بعدما شاهد القزاز ينادي، وكانت هذه المناداة سبباً للفت أنظار الجمهور في تلك الفترة. وبالاختصار، أجاب أخي توفيق العم أبو ميخائيل ماذا؟

القزاز: كيف حال أخوك واصف؟ !



الحاج أمين الحسيني في موكب النبي موسى في القدس في الثلاثينات.

المصور غير معروف.

من مجموعة مؤسسة الدراسات الفلسطينية في بيروت.

تأمل أيها القارئ بعقلية هذا الرجل الطيب القلب، الذي يتجرأ على أن يقول كل ما جاء على فكره ببساطة وسذاجة! إلى أن أجابه أخي توفيق بأن واصف مبسوط. وهات يا ضحك خصوصاً من جميع الأصدقاء والمعارف في ذلك الموكب القومي.

حادث طريف للحاج بكر النشاشيبي

أقام الحاج بكر دعوى لدى المحكمة زمن القاضي علي بك جار الله طلب فيها تسديد الإيجار وقدره مائة وخمسة وأربعون ليرة مصرية من المستأجر الخواجة كره بديان [هكذا في الأصل وقد تكون كربديان] أشهر كندرجي [إسكافي] بالقدس، ثم إخلاء المأجور نظراً لعدم دفع الإيجار بالوقت المعين بموجب العقد.

وقد تآمر كره بديان هذا المستأجر مع إسماعيل حقي ولد الحاج بكر بأنه اشترى من كره بديان كادر لمعشوقته اليهودية سيما بمبلغ مائة وثلاث ليرات مصرية، واعترف إسماعيل حقي بصحة المبلغ المسجل في دفتر كره بديان الذي أبرزه أثناء المحاكمة. فعندما سمع الحاج بكر بهذا المبلغ الضخم جن جنونه، وغاب عن صوابه، وبدأ يتمايل ويدير عمامته من فوق رأسه بيده ويقول بصوت عال: الله يغضب عليك يا إسماعيل؟! عملتها فيّ؟! إذا كان مبلغ مائة وثلاث ليرات ثمن كادر صاحبتك إذاً؟

شو بدك يا حاج بكر رز؟!! شو بدك سمن؟! شو بدك زيت؟ وجميع الحضور في قاعة المحكمة بما فيه القاضي يغشون من الضحك بصورة فظيعة على هذا المشهد الساخر. وأصبحت هذه القصة على ألسنة أبناء القدس خصوصاً من عرف الحاج بكر وحبه للمال. وعلى كل حال، دفع الخواجة كره بديان ما تبقى له بذمته أمام القاضي والحاج بكر لم يزل يصيح ويردد ما قاله أعلاه، وأخيراً اضطر لاستلام المبلغ وانتهت القضية وكان الرابح إسماعيل حقي وكره بديان.

صديقي وجاري جورج قرط

صديقي جورج ابن عيسى نخلة قرط زميلي في الدراسة مدرسة السان جورج الإنكليزية إبان الحكم العثماني بالقدس، ثم زميلي في الوظيفة منذ الاحتلال البريطاني لفلسطين، فقد تعين في قلم الترجمة لدائرة الاستخبارات بالقدس، وأنا موظف في دائرة حاكم القدس، وقد زادت هذه الصداقة عندما اتخذت دار النيكوفورية من البطريركية سنة ١٩٢١، فأصبح جورج جار الرضاء، ولم تكن إلا أرض صغيرة تفصل بيننا عن بيته في كنيسة مارجرجس، فكنا لا ننقطع عن عائلته، بل نشاطرها الأفراح والأتراح، وكان والده المرحوم عيسى نخلة قرط البطل لا يزور أحداً إلا بيت صاحب هذا الكتاب، وإننا لم نزل نذكر حفلات عديدة ومناسبات كثيرة قضيناها في بيت جورج، خصوصاً زواجه وعيد ميلاده السعيد، ثم عيد القديس جيورجيوس ... فسقيا لتلك الأيام والليالي ما كان أحلاها!

مجموعة من رجالات الطائفة الأرثوذكسية في القدس.

من المجموعة الجوهرية.



لسبب ما غضب على جورج في دائرة الاستخبارات في سنة ١٩٣٢ ، وانتهى عمله هناك بدون تعويض ولا تقاعد و
كان المستر كيث روتش حاكماً للقدس عطف عليه وعينه مساعد قائمقام في دائرة الحاكم ، وبدأ جورج يشتغل تح
إشراف المستر عطا الله منطورة ، وفي مكتبه ليطلعه على خفايا الأمور في الإدارة ، وخاصة في المالية التي كان مف
عليها -آنذاك- وعارف أسرارها وخفاياها من جميع النواحي التركية من أعشار وويركو ، ومعاملات الطابو ، والإرث
والمجدد ، والرهن ، والبيع و[. . .][1] منها ثم القيود القديمة سجل أساس تحرير الويركو في حالة عدم وجود كوشان للملك
وأخيراً ضريبة الأملاك التي نظمت وعمل فيها منه سنة ١٩٢٩ ، إلى ما هنالك من إدارة يصعب لجورج قرط فهمها والخو
فيها بمدة قليلة ، بل هذا العمل يلزمه خبرة وسنين.

وأخيراً نظراً لكثرة أشغال المالية ، تقرر فرز العمل وإعطاء قسم المعاملات وإدارة المكاتب رأساً ومسؤوليته إلى أخ
جورج، وتخصص المستر منطورة في شؤون التخمينات وضريبة الأملاك ومسؤولية الصندوق. ما كاد جورج يحصل ع
هذه الوظيفة الشاقة وأصبح مسؤولاً عنها ، إلا وأصابه الغرور . . . ذلك الغرور بالنسبة لجهله كاد أن يقضي عليه ، وأخ
أقولها صراحة أنه قضي عليه ويا للأسف !

حاول أن يتحكم بمرؤوسيه بصورة مخزية ، بل أكثر من هذا ، فقد حاول أن يعمل كما يقولون [أبو علي . . . عليّ
بالذات ، وقد نسي أو تناسى الصداقة والأخوة والجيرة و . . و . . إلى ما هنالك من معرفة] ، فمثلاً إذا سمع صوت واحد
يضحك مع إخوانه في المكتب ، ينادي بأعلى صوته من غرفته وعلى مسمع من جميع المكلفين [واصف . . مش محش
هنا . .] وكثيراً من الأحيان كان يوشي المفتش عن بعض مخالفات ، فمثلاً :

كانت سهرة في بيتي لبعد منتصف الليل . . . وقد تأخرت ثاني يوم عن الميعاد ، وإذ نادى علي المفتش المستر منطو
وسألني [متى حضرت إلى المكتب اليوم؟ ! أجبته لم أذكر إنما على الميعاد] قال لا أنت كنت سهران وطبعاً الذي يسهر
يستطيع أن يحضر بالميعاد أليس كذلك؟ ! ! أجبته بعدما فهمت أن التجسس كان من قبل جار الرضاء .

أجبته في الحال لم أتصور مطلقاً أن دائرة الاستخبارات نقلت إلى دائرتنا بهذه السرعة . . . وقد تأثرت باطناً من أعم
جورج السخيفة وصممت في أفكاري على الانتقام منه بطريقة لطيفة جوهرية عندما تسمح لي الفرصة . . . وذلك
أعهده فيه من غباوة في الوظيفة الجديدة .

كان جورج يستمع إلى المستر منطورة عندما كان يوقع معاملة الطابو ، ويرى أن قيمة المبيع للملك ما هو أقل من المفروض
أن يكون في المعاملة ، فكان يضع في القلم الأحمر تحت القيمة لأجل أن تعين لجنة مؤلفة من مسجل الأراضي ومأمور الويركو
للكشف على الملك وتخمينه ، وإعطاء القيمة الواجب استيفاء رسوم الطابو بموجبها والتي كانت ٥٪ على ما أذكر ، وذلك
محافظة على حقوق المالية بصفته مفتشاً لها وهكذا . . . ولكن حدث مع جورج بأنه حاول العمل بما تعلم من مستر منطو
ففشل ، لأنه لم يتفهم هذه المعاملات وجاءت بالعكس تماماً وإليك التمثيلية :

[1] ناقص في الأصل

دخلت على سعادة القائمقام جورج في غرفته الخاصة، وكان جالساً على مكتبه [عبس وتولى ...] وفي يدي عدد من معاملات الطابو جاهزة تماماً لتوقيعه وبس ... فأخذ المعاملة الأولى وبدأ يقرأ صفحاتها ثم سألني:

ما هذه المعاملة يا واصف؟ – هذه معاملة بيع.

س: من البائع يا واصف؟ – فلان الفلاني.

س: أين الملك يا واصف؟ – في محلة كذا وكذا.

س: ليش باع يا واصف؟

وعندها وقفت وتأملت فيه جيداً وقلت له بأعلى صوتي، وكان باب الغرفة مفتوحاً ولا تسأل عن المكلفين الواقفين خارج الغرفة وكلهم آذان صاغية..

قلت له إيش؟ ليش باع؟.. أجاب نعم ليش باع؟

وانفلت في الضحك والقهقهة وقلت له [حرقه تحرقه أنا بعرف ليش باع؟ يمكن عايز مصاري، ثم الملك ملكه وله حق بالتصرف ... ثم نظرت إلى البائع خارج الغرفة وكان صديقنا أحمد طوطح ... فقلت له سامع يا أبو الحسن قال المفتش ليش بدك تبيع أجاب بصوت عال ليش؟ أما مسخره شو بخص المفتش يسألني بها السؤال والله عال.

فوقف حضرة المفتش غاضباً وقال شو هالأعمال يا واصف؟

فأجبت: شو الأعمال يا واصف؟.. شو الأعمال يا حضرة القائمقام؟ هذا سؤال ليش باع والله اللي عينوك في المالية ظلموك ... وهكذا خرج المستر منطورة من غرفته ... ومتري أفندي فراج من غرفته والموظفون والمكلفون ونحن نتشاجر في الإيوان إلى أن دخلنا إلى مكتب المستر منطورة..

وهناك فهم بأني على الصواب، ولكنه عاتبني بشدة أمام جورج قرط والموظفين وعلى الطريقة التي اتخذتها معه، وكان المفروض على الخواجة جورج أن يسأل ما هي قيمة البيع بالنسبة للملك وموقعه ... وليس ليش باع؟!!

كانت فضيحة كبرى لحضرة القائمقام المستر قرط، وأصبحت قصة لدى جميع موظفي دوائر الحكومة بالقدس على اختلاف أنواعها؛ البوليس، ودائرة الاستخبارات، والخزينه، والحاكم ... وأصبح ليش باع ... مثلاً على الألسن ليومنا هذا. والجدير بالذكر أنه بعد الإحصاء سنة [...][1] فقد كان مفتش الإحصاء المستر ملز سبباً لإنهاء عمل جورج قرط وترك الحكومة بدون تعويض، ولا تقاعد، وذلك لطيشه وخفة عقله ... ثم توفي جورج المسكين وقلبت ليش باع؛ ليش مات ... من كل من عرف هذه القصة أمثال متري فراج، ومنطورة، وكردوس، وموظفي الـ C. I. D[2] نيكوديم، وشكلب[3]، ثم يحيى حمودة وسليمان فراج، وفريد بستاني، وأنيس أبو رحمة، وغيرهم الكثيرون ... وهكذا وقعت ورقة حضرة القائمقام، وكان ضربة معلم في حينها، أخذ الخواجة جورج درساً مني لا ينساه، وربما تنبه للمعاملة الذي جاء ليعامل صديقه وجاره العزيز كما كان يدعي. وفي جلسة من جلسات المستر منطورة العائلية ذكرنا هذا الحادث فقال:

[1] ناقص في الأصل

[2] وهي Criminal Investigation Department

[3] هكذا في الأصل

[أنحق الله يقدر عليك يا واصف . . مسكين قرط فضحته . .] فحدثته عن عقلية هذا الشخص، وقلت له أنك خدعت به يا مستر منطورة فوالله لو بقي ثلاثين سنة معك لم يغير من إدراكه شيئاً وبرهاناً على ذلك كنت معه - رحمه الله - في اجتماع الإحصاء تحت رئاسة المستر ملز، وهناك اتضح لكل منا ما هو إدراك قرط وقد عرفه المستر ملز حق المعرفة وكان سبباً في إنهاء عمله نهائياً من الحكومة. رحم الله قرط رحمة واسعة.

جميل رئيس جمعية النهضة للروم الأرثوذكس

خلفاً للمغفور له جورج أفندي زخريا

بالإضافة لحفلات السهر التي كنا نحييها عادة مع الأصدقاء بعد الاحتلال البريطاني، تلك الحفلات النادرة التي كنت وإخواني أترأسها في الغناء والعزف على كثير من الآلات، وفي بيوت الأصدقاء، اتفقنا نحن الأصدقاء والمعروفون بالشلة الجوهرية المكونة من:

مينا الحلبي، وحنا منصور، وجبرا الخوري، وطناس سلحيت، ويوسف عبده، وتوفيق جوهرية، وداود ياسمينة، وإميل غوري، وغيرهم، ومعنا الصديق جميل قرط، اتفقنا ترفيهاً عن النفس أن نؤلف جمعية ما بيننا [منا وإلينا] تعرف بجمعية النهضة الأرثوذكسية لمقاومة الاستعمار اليوناني والحصول على حقوق أبناء الطائفة العرب المهضومة من الرهبان في القدس لتكميل رسالة المغفور له جورج أفندي زخريا سنة ١٩٠٨.

ولما كان الهدف في تأليف هذه الجمعية هو - كما قلت سابقاً - السخرية والترفيه عن النفس بمناسبة وجود صديقنا جميل . . . أذكر للقارئ بعض الشيء الذي قمنا به ولم يزل يذكر عند الكثيرين من أبناء الطائفة لما كان فيه من متناقضات مضحكة:

عين الرئيس بالإجماع لهذه الجمعية: جميل قرط . . . وهنا بيت القصيد.

نائب رئيس: واصف جوهرية صاحب هذا الكتاب.

أمين الصندوق: يوسف عبده.

الأعضاء: الشخصيات المذكورة أسماؤهم أعلاه.

قيمة الاشتراك: ٥ ليرات مصرية سنوياً.

شروط الجمعية الأساسية: عدم الامتناع عن المسكرات.

وسرنا على بركة الله، فكنت أذهب عند الصباح بمعية الرئيس وهو جارنا في النيكوفورية إلى سرايي حاكم القدس عن سويقة علون، ثم حارة النصارى، فباب العامود، فالدائرة. والجدير بالذكر وبواسطة الهمس واللمس كانت أبناء الطائفة أمثال معتوق زخريا، وسليم السلفيتي، وميخائيل السلفيتي، يوقفوننا على الطريق ليدفعوا لنا قيمة الاشتراك . . . ولكن المعنى في بطن الشاعر، ويمطروننا بوابل من الأسئلة، مثلاً لماذا لا تأخذوا الاشتراك؟ فهل نحن من غير أبناء الطائفة بالقدس؟ . . وهناك يصدق المسكين ويشير إليّ بقبول المبالغ . . . ولكني أقول له لا يا جميل دعهم يعرفون فيك النزاهة . . .

وبعدها الوقت طويل بتحصيل الأموال . . . إلى أن أصبح جميل وكأنه الرئيس الأعلى في البلاد ، والجميع يسلمون عليه بجانبي بكل احترام ، ويدعون له الدعوات الخيرية والسير قدما للنصر .

والأنكى من هذا كله أننا حفرنا ختم الجمعية على حدوة حصان . . . وعندما سألنا سيادة الرئيس أجبنا ذلك مقصود من عين الحسود . ثم اجتماعات هذه الجمعية ، وهنالك الضحك أين؟ ! ! في مقهى المختار الأخ عيسى الطبة ليلاً ، وكان الأعضاء الذين ينضمون إليها من زبائن هذا المقهى والحانة ، أمثال حنا لولص . . والياس القزاز ، وهناك يحلل لكل منا شرب الخمر . . . والدفع على نفقة الرئيس جميل . . . وما أحلى تلك الأوقات التي كان يقف فيها سيادة الرئيس ويلقي الكلمة المنظمة له من إميل الغوري ، أو مينا الحلبي ، أو يوسف عبده . . . والتصفيق لسيادة الرئيس وهو فوق الطاولة ، فمثلاً يقول سيادته "يلزم على كل منا العاضدة . . ." وهناك يقف مينا الحلبي منرفزاً ويقول لا هذا مش ممكن . . . هذه إساءة لنا نحن لسنا بالكلاب بأن نعض بعضنا البعض . . . فيقف الرئيس ، وبعدما نلقنه بعض الكلمات يتلعثم ويفسر لمينا الحلبي بأنه قصد التآلف . . . فيجلس مينا مطمئناً وهات يا ضحك ، خصوصاً نوادر الأخ أبو ميشيل والقزاز ولولص ، وكلهم داخلون في صلب الموضوع ، والرئيس يحاول إرضاء الجميع . . . متأكداً بأنه حصل على هذا المنصب بجداره واستحقاق .

وكنا في كل ليل نقضي ضمن السهرات تمثيليات جمعية جميل في منازلنا ؛ دار منصور ، ثم الحلبي ، ثم واصف جوهرية ويوسف . . . وهكذا أياماً وليالي لن ننساها مدى الحياة .

ثم ألفنا مارش الجمعية باللغة العربية وتلحين شرقي صرفي مطلعه :

[طز يا للا . . طز يا للالي . . الخ . .]

ثم المارش العربي مع التلحين الغربي لعزفه في المستقبل من قبل أوركسترا . .

[ياسمين الجناين . . طيزين بلطوا الحياك . .] وطبعاً مقدم لسيادة الرئيس .

وإني أذكر بعد زواجي سنة ١٩٢٤ إذ موكب كبير يزف سيادة الرئيس جميل . . . تحت غصن كبير من شجر الزيتون المبارك قادماً من مقهى "قهوة الخنازير" في حي البقعة التحتا مشياً على الأقدام ، وكلهم سكارى ينشدون المارش العربي (طز يا للا . . طز يا للالي . . الخ . .) وهم حنا بشارات ، وإميل الغوري ، وحنا منصور ، وجبرا خوري ، وطناس سلحيت ، ومينا الحلبي . . . وغيرهم ، إلى أن دخلوا بيتنا في النيكوفورية بيت نائب سيادة الرئيس مهنئين بالفرح . . . وهناك حول النافورة كانت سهرة نادرة إلى بعد منتصف الليل ، تجلى فيها الحظ والطرب والخطب . . . السياسية ، والجميع يمجد ويكرم سيادة الرئيس جميل .

مضت علينا مدة طويلة كنا فيها على هذا الحال إلى أن جاءني أخيراً المرحوم عيسى نخله قرط إلى البيت وشغل أذني قائلاً [ولك واصف بقولك حل عن جميل . . . أما يكفي أن والدك جنن أبوه؟ ! !] فوعدته وسدلنا الستار عن هذه الرواية ذات الفصول الطويلة المضحكة .

وظيفتي كمراقب في حفلات أسبوع الآلام بالقدس

كتبت على قدر المستطاع تفاصيل عن الاحتفالات الدينية التي كانت ولا تزال تقام في أسبوع الآلام بالقدس، وأعتقد أنني أعطيت فكرة عن كل من هذه الاحتفالات لدى المسلمين والمسيحيين، خصوصاً إبان الحكم العثماني.[1]

أما بعد الاحتلال البريطاني، فقد سرت بريطانيا وحكومة الانتداب لمشاهدة هذه الاحتفالات، خصوصاً أسبوع الآلام في كنيسة القيامة؛ تلك الاحتفالات التي قلما يشاهد مثلها في البلاد الأخرى، لأن هذه الاحتفالات كانت تنظم أشبه بالتمثيل من قبل رؤساء الطوائف الدينية، لأن الموقع هو الموقع الحقيقي الذي جرت فيه الآلام، وصلب السيد المسيح، وقبره وصعوده. ومنذ الاحتلال ولعدم وجود ملكية للإنكليز والبروتستانت كافة في الأماكن المقدسة الحقيقية، وخصوصاً في كنيسة القيامة، وحيث أن الإنكليز أصبحوا قادة الحكم في البلاد اتخذوا من هذا الاحتفالات مسرحاً لمشاهدتها مع عائلاتهم، وهكذا بصفتي موظفاً في الإدارة لدى حاكم لواء القدس، كنت وكثيراً من زملائي الموظفين نقوم بأداء وظيفة المراقبة في هذه الاحتفالات لنحافظ على عائلات أعيان وحكام الإنكليز والترفيه عنهم،خصوصاً داخل الكنيسة.

كنا نحن الموظفين، أذكر منهم متيا مروم، وداود ياسمينة، وأنيس حداد، وروك سابيلا، وعيسى بيوك تحت رئاسة السيد عطا الله منطورة الذي كان الخبير بشؤون اختلافات الطوائف المسيحية كافة، ومعيناً لهذه المهمة الشاقة لسنين عديدة بعد الاحتلال، وكنت أنا بالذات أساعده لعظم مداخلتي بالشعب، والرهبان، وأفيده الكثير بصفتي من أبناء الطائفة المعروفين بالقدس. عندما كان الاحتفال خميس الغسل العظيم لدى الروم الأرثوذكس، ويقام في الصباح الباكر خارج باب كنيسة القيامة، كنت وزملائي مع قوة من البوليس في المحل المضروب عند الساعة الخامسة والنصف صباحاً، ونؤمن المواقف المختصة لعائلات الإنكليز لمشاهدة هذا الاحتفال المقدس من نوافذ دير أبينا إبراهيم لليونان ومن المقاعد الخشبية المنسقة والمقامة خصيصاً لهذا اليوم في حديقة دار ستنا مريم المقابلة لباب كنيسة القيامة، وقد حاولت بريطانيا أن تشرك نيافة مطران الإنكليز في الاحتفال الديني هذا، وقد يكون -أي المطران- واقفاً بجانب غبطة البطريرك عند إقامة القداس على السرير الخشبي، ومن ثم يغسل رجل كل خوري من العرب الأرثوذكس واليونان، كما غسل السيد المسيح أرجل تلاميذه، ورأيت مراراً أن المرحوم ذميانوس كان يرفض بكل شده المطران الإنكليزي عندما كان يحاول هذا قراءة الإنجيل بجانبه باللغة الإنكليزية، بل يسمح له بأن يستمع ويشاهد الاحتفال، ومن ثم يستمع معه إلى المطران الذي كان يتلو الإنجيل من على المنبر المعلق على حائط دير أبونا إبراهيم ويشرف على حفل القداس بعدة لغات.

احتفال خميس الغسل عند الأرمن الأرثوذكس

ولحسن الحظ شاهدت احتفال خميس الغسل المقدس لدى الطوائف الأرمنية الأرثوذكسية من بعد ظهر ذلك اليوم بحكم الوظيفة:

عادة كان الاحتفال يقام داخل كنيسة مار يعقوب في دير الأرمن بالقدس من قبل غبطة البطريرك، وكان بجانبه نيافة المطران الإنكليزي بالقدس، ومن ثم يقف على مكان مقابل له وبدوره يقرأ الإنجيل باللغة الإنكليزية ... وكأنه واحد من الأرمن،

[1] أنظر الكتاب الأول حول المرحلة العثمانية صفحات ٦١-٦٧.

ثم أذكر للقارئ أن الدعوة التي كانت ترسل للمدعوين من عائلات أعيان ورؤساء الدوائر الإنكليز، لم تكن من الأرمن، بل ترسل هذه الدعوة من قبل حكومة الانتداب مباشرة . . . الأمر الذي كنت أعجب منه كل الإعجاب.

وقد لفت نظري أن البطريرك بدلاً من غسل أرجل التلاميذ بالماء، كما كان يمثل بطريرك الروم الأرثوذكس في الصباح، كان بطريرك الأرمن يضع قليلاً من الزبدة البيضاء بواسطة سكين خاص فضي على الرجل [المقصود القدم]. أما ألحان الاحتفال الديني هذا، فأقولها صراحة بأنه يطرب، فكنت أستمع إلى ألحان من مقام الحجاز كار الصافي المنسجم مع [أصوات] آنسات الكورس [الجوقة]. والجدير بالذكر أن الصوت الرجالي المشبع العريض المعروف بالـ Base لهو من الأصوات الفاتنة. وكانت كنيسة مار يعقوب هذه مكتظة بالجمهور الأرمني والإنكليزي سواء بسواء.

سبت النور المقدس داخل القيامة

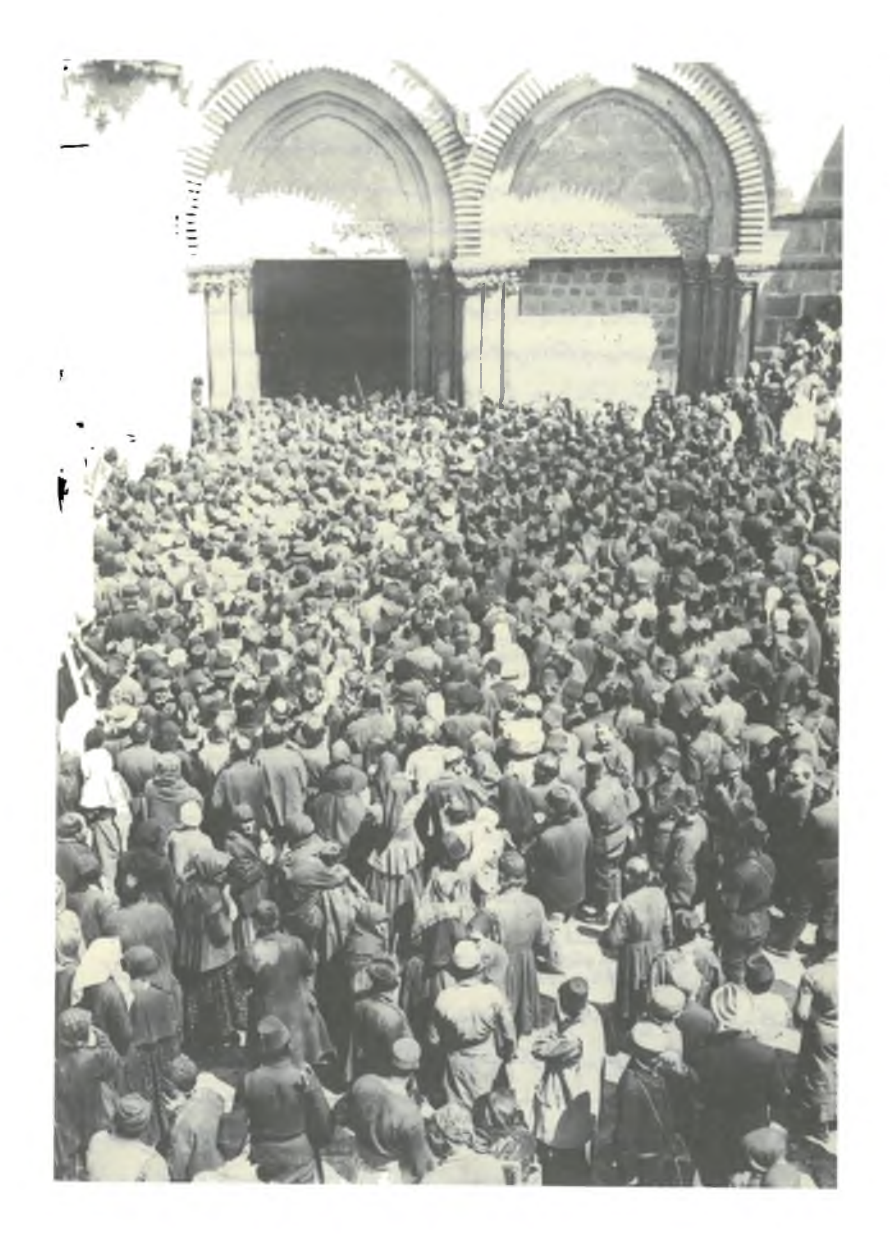
كتبت عن هذا الاحتفال إبان الحكم العثماني،[1] وبقيت العادات القديمة بدون زيادة ولا نقصان، إنما أزيد ما أعرفه وأنا بحكم الوظيفة زمن الانتداب البريطاني:

كنا نؤمن المدعوين من عائلات الإنكليز لمشاهدة احتفال سبت النور المقدس في محلات عديدة داخل كنيسة القيامة، أهمها والي الرؤساء المستازين في الحكومة من البلكون [أي الشرفة المرتفعة] مقدس عن كنيسة الروم الأرثوذكس المعروفة (بنصف الدنيا)، والمقابلة لباب قبر المسيح شرقاً. ثم (الكليري) التي تشرف على ساحة القيامة من المدخل والمصعد لهذه الكليري هو من كنيسة الجلجلة[2] للأرثوذكس، ثم الساحات التي بحذاء الجلجلة المشرفة أيضاً على باب الكنيسة من الداخل فوق المغتسل، ثم يوجد ثلاثة شبابيك للأرمن المطلة على القبر، فكنا نستعمل شباكين منها والشباك الثالث هو معد لغبطة بطريرك الأرمن وحاشيته من المطارنة.

والجدير بالذكر في هذا الصدد أننا -أي الحكومة- كانت تستعمل النوافذ السبع العائدة لطائفة اللاتين والمطلة على القبر [يقصد قبر المسيح في داخل كنيسة القيامة] لمدة سنوات قليلة بعد الاحتلال البريطاني، وكانت هذه الشبابيك الفسيحة نعمة لعائلات رؤساء دوائر فلسطين الإنكليز. ولكن لسبب ما، وفي زمن غبطة البطريرك بارلاسينا، رفضت اللاتين تقديمها للإنكليز مطلقاً. وبصفتي -كما يقولون- مخضرماً شاهدت هذه الاحتفالات القيمة زمن تركيا، ثم زمن الإنكليز، فإني أقولها صراحة إن العهد التركي، وخاصة رجالات الحكم كانت تظهر للشعب على اختلاف دياناته وطقوسه وعاداته وتقاليده، كانت تظهر احتراماً زائداً وتشعر معه كثيراً نسبة لرجالات دولة الانتداب، فكانت تفضل الإنكليز والإنكليز وبس . . . عن باقي الجمهور لدى مشاهدته هذه الاحتفالات، فكنت أشاهد -ومع الأسف الشديد- كيف كان مدير البوليس البريطاني يضرب حجاج مصر الأقباط بالسوط عندما كانوا يحاولون دخول باب الكنيسة . . . كيف لا وهذا المسكين سافر وضحى بكل ثمين وجاء حاجاً لبيت المقدس، وكان ينام في الشوارع والأسواق في حي النصارى بحالة محزية، وكله إيمان وجلد ودين ينتظر بفارغ الصبر مشاهدة خاتمة احتفالات الآلام المقدس ألا وهو سبت النور.

[1] الكتاب الأول ص ٦٣.

[2] وهي الجلجلة التي تقع داخل كنيسة القيامة، ويعتقد بأنها التلة التي صلب عليها السيد المسيح.



كنيسة القيامة يوم احتفالات سبت النور لدى الطوائف المسيحية التي تسير بحسب التقويم الشرقي. تصوير اريك ماتسون. من محفوظات مكتبة الكونغرس في واشنطن.

بعد أن [أجلست] بدوري ضيوفنا الإنكليز في [الأماكن المخصصة لهم] لمشاهدة احتفال سبت النور المقدس داخل كنيسة القيامة تركتهم وشأنهم، وجئت للراحة كما كانت عادتي على المصطبة المعدة لعائلتي نسيبة وجودة المسلمتين في باب كنيسة القيامة.[1] وشربت القهوة السادة المحفوظة في خزانة خاصة لأخي وصديقي الشيخ أديب جودة، وكان الجمهور من مختلف الطوائف حاملا بيده الشموع وينتظر فيضان النور المقدس ليضيء الشموع منه. وعند الساعة الواحدة والنصف تقريباً، قرع الجرس الكبير العائد للروم الأرثوذكس ودوى رنينه داخل الكنيسة. [وكان المشهد] خلاباً، إذ صاح الجمهور ابتهاجا بالنور المقدس. وزاد الابتهاج بزغاريد حجاج مصر الأقباط، وأناشيد شباب الروم الأرثوذكس القادمين من مختلف البلدات المحيطة بالقدس، وضربت الأجراس والنواقيس والصنوج على اختلاف أنواعها لدى كل طائفة لها الحق من روم، وأقباط، وسريان، وأرمن، وغيرهم وأصبح الجميع في فرح وابتهال، هذا يصلي، وذاك يغني ويمدح سبت النور [وما إلى ذلك].

وما هي إلا دقائق حتى كنت تشاهد كل فرد من هذا المجموع يشع بيده النور ويتبرك منه. حقيقة أنها فرجة من العمر يعجز القلم عن وصفها. وعندما كنت واقفاً مبهوتاً بمشاهدة هذا المنظر، إذ صادف وجود رجلين من المصريين أمامي، والجدير بالذكر أن أحدهم خاطب الأخر بلهجة مصرية لطيفة تنم عن دهشة واستغراب قائلا [الله.. إيه ده يا أخي؟ ! !..] ولكن هل تدري ما أجابه الآخر؟ طبعاً والنكتة خلقت في دم المصري. أجابه على الفور [الله يا أخي ما احنا في القيامة ! !].

وهنا جن جنوني لهذه النكتة البديهية التي ترمز إلى يوم الآخرة أي القيامة، وضحكت لهذه التورية اللطيفة ودخلت بنفسي شخصاً ثالثاً وتعرفت عليهما، وازادت دهشتي أنني تعرفت بواحد منهم وهو يقول لي: الكمنجاتي توفيق الصباغ. سررت جداً وبقيت معهما ودعوتهما إلى بيتي، وبالفعل قبلا الدعوة وتناولنا طعام الغذاء نهار سبت النور. زارني بعد عيد الفصح وحده وأقام عندنا يومين وتباحثنا في فن الموسيقى العربي وأعجبت جداً بي وبما أملكه من آلات موسيقية شرقية وما يحتويه بيتي والمجموعة الجوهرية من جمع ما يمت إلى فن الموسيقى بصلة من تسجيلات قديمة نادرة لأروع الملحنين والمطربين القدماء، ثم شاهد رسوم هؤلاء الموسيقيين ضمن التحف الشرقية واستمع إلى عزفي وغنائي وأصبح من أصدقائي.

اشتغل على كمانه على مسرح قهوة المعارف باب الخليل بالقدس، وقد شاهدته ودهشت من عزفه، إذ عزف بشرف طاثيوس راسف على وتر واحد فقط كان مشدوداً على كمان خاصة، وكانت هذه عبقرية خارقة ولا يستطيع سواه أن يعملها وقد حصلت على كتابه النوتة لمجموعة من ألحانه وتدوينه لقطع موسيقية شرقية خالدة. وعليه، اعترف بأنه من أقدر موسيقيي العرب عندنا، خصوصاً المعروفين بعلم النوتة الغربية.

وأخيراً أقول إن الأستاذ أخي وصديقي سامي الشوا يفضل عنه بشيء واحد، ألا وهو التقاسيم... التقاسيم العربية الصرفة على الكمان، وعلى الأخص ما يسمونها العفقة الأخيرة من التقسيمة... فقد اختص فيها سامي، ولكن من جهة علم الموسيقى والنوتة فالصباغ الأفضل. هذه هي قصة معرفتي بصديقي الأستاذ توفيق الصباغ.

[1] يقصد واصف المصطبة في داخل الكنيسة المخصصة تاريخاً لأفراد من عائلات القدس المسلمين الذين أوكلوا بمهمة فتح وإغلاق الكنيسة، كون الطوائف المسيحية قد اختلفت حول أي منها ستكون صاحبة الحق في هذا الامتياز. يعتقد البعض أن تخصيص هذه المهمة لبعض المسلمين يعود لأيام فتح القدس على يد الخليفة عمر بن الخطاب. لكن هذا التقليد في الغالب يعود فقط للعهد العثماني.

زيارة "زبلين غراف" المنطاد الألماني للقدس

أذكر أنني عندما كنت مراقباً في الوظيفة داخل كنيسة القيامة بمناسبة احتفال سبت النور القدس، إذ سمعنا صوتاً عظيماً وهديراً زلزل أرجاء الكنيسة رغما عن غوشة الجمهور الذي كان فيها، وحيث أن باب الكنيسة كما هي العادة كان مغلقاً، ولا يمكن فتحه إلا بعد فياضات النور العظيم، أطللت من نافذة لدير الأرمن التي تشرف على سطح كنيسة القيامة الخارجي أمام المدخل الرئيسي، وشاهدت ذلك المنطاد العظيم العجيب "زبلين غراف" في جو القدس، ويا له من منظر مدهش مريع لما كان يتحلى به هذا الاختراع من عظمة، وقلت في نفسي إنها لبلد طائرة في السماء. وقد رأيت بالوقت نفسه عائلتي أم جورج[1] ويسرى وليلى وكانت صغيرة، فأشرت لهم بيدي، ولكن بعدها علمت بأن المحبوبة ليلى [قد] جن جنونها وانزعجت عندما شاهدت الزبلين، وارتأى لها أنني كنت فيه. فكانت تصيح بأعلى صوتها البابا.. البابا.. فوق بدي البابا... مشيرة في يدها إلى الزبلين. وكانت والدتها تحاول أن تقنعها بأنني لم أحظ بهذه الأمنية، ومن أين لي هذا الحظ السعيد؟!! وقالت لها أن البابا في الكنيسة، وأشارت إلي لإقناعها ولكن بدون جدوى إلى أن اضطررت بأخذها وأختها يسرى إلى البيت قبل مشاهدة فيضان النور المقدس.

وإني أعطي القارئ فكرة عن حجم هذا المنطاد "زبلين غراف":

توفقت بالحصول على رسم له وهو في السماء فوق فندق الملك داود، وأعتقد أن هذا الرسم الفوتوغرافي كان أخذ من جهة الشرق للفندق، ربما بالجهات المحيطة ليتي في النيكوفورية، وقد تبين للمشاهد أن زبلين غراف هو بحجم يزيد على عمارة فندق الملك داود.[2]

[1] أم جورج: زوجة واصف.

[2] فندق الملك داود أو "كنغ دافيد"، كان أهم فنادق القدس الواقعة خارج الأسوار في المدينة الجديدة.

خزينة القبر المقدس للبطريركية الأرثوذكسية بالقدس

كنت أسمع الكثير منذ حداثتي زمن المرحوم والدي وأصدقائه عن خزينة القبر المقدس، وعن قيمتها وآثارها وعظمتها إلى أن كبرت وكنت أتمنى لو أتيح لي الإطلاع على هذه الجوهرات، وأشكر الله عز وجل إلى أن حان الوقت وأسعدني الحظ وحصلت على هذه الأمنية:

كما ذكرت كثيراً بأنني كنت أشتغل بمعية السيد عطا الله منطورة في دائرة الحاكم بالقدس، وبالإضافة إلى عملي في دائرة الإيرادات، كنت أساعده بما كان هو مسؤولاً عنه بوظيفة الاختلافات بين الطوائف المسيحية "ستاتيكو"[3] وقد شاء القدر أن أرافق فخامة المندوب السامي السير جون روبرت تشانسلور وكان مغرماً بالأثريات، وقد تسوقت واشتريت تحفاً نادرة من زوايا بيت المقدس، خصوصاً مجموعة من الأيقونات البيزانتية من صديقنا الرسام والفنان البارع نقولا الصائغ.

وبعدما حددنا الوقت لزيارة فخامة المندوب مع البطريركية الأرثوذكسية وكان بواسطتي طبعاً، رافقت فخامته حسب أمره وكان يحبني حباً شديداً، وعلم ما أنا فيه من مواهب واقتناء أكبر مجموعة شرقية أثرية في فلسطين. بعدما شربنا القهوة في مكتب رياسة كنيسة القيامة، سرنا فصعدنا سلم هيكل الجلجلة، ومن هناك فتح لنا باب حديدي في سقف الكنيسة المذكورة، وتسلقنا السلم الحديدي الخاص، وإذ نحن في ساحة صغيرة تطل على بهو مستطيل، ومن هذا البهو يصل إلى

[3] Status quo وهي سياسة الحفاظ على ترتيبات الحقوق الدينية التي نظمها العثمانيون لمختلف الطوائف المسيحية، وأبقت عليها سلطة الانتداب.



زبلين فوق القدس. تصوير اريك ماتسون. من محفوظات مكتبة الكونغرس في واشنطن.

مكان الخزينة التي كانت تحتوي على ما هب ودب من أعظم وأميز الجوهرات الفريدة النادرة المرصعة على تيجان غبطة البطاركة الأرثوذكسية من قديم الزمان والعصور، على ما يعرف بالصولجان، والصلبان، والسلاسل المزركشة المذهبة، والأوسمة الأخاذة لمجموعة دول العالم، والقناديل، ثم ألبسة البطاركة المزركشة بالفضة والذهب واللؤلؤ إلى ما لا نهاية.

والجدير بالذكر أنني وحتى نفس فخامة المندوب لم نحظ على دخول هذه القاعة الغالية، بل شاهدناها من البهو الذي يعتبر مدخلاً لها، فكان رئيس القيامة وحده يسلم القطعة تلو القطعة من هذه النفائس إلى مشاهدة الشماس، وهذا بدوره يسلمها لراهب مسؤول ويطلعنا عليها. وعندما ننهي هذه المشاهدة يرجع بها من حيث أتى. وإني أقولها صراحة إن هذه الأثريات لو بيعت لكان بالإمكان شراء القدس كلها بثمنها، لما فيها من جواهر وحلي يصعب علينا وصفها. وإني واثق بأن هذه النفائس بل أقول أكثرها، خصوصا الصلبان الكبيرة الكنسية، ثم التيجان والصولجانات، لا شك أنها كانت ترد القدس هدايا من ملوك روسيا قبل ثورتها سنة ١٩١٧، فإنك ترى، عدا عن البرلنت والماس، ترى حجارة الفيروز والروبي الروسي، وخصوصاً الزمرد الذي يبهر عين الناظر بصورة كبيرة لا يستطيع عده من كثرة وجوده، الحجر بجانب أخيه، ومن الحجم الكبير.

والحقيقة أنها كانت نعمة جزيلة لحصولي على مشاهدة هذه النفائس، وقلت في نفسي الآن أقتنعت بسر عدم السماح لمشاهدة هذه المجموعة القيمة للناس حتى فخامة المندوب السامي لم يسمح له بالدخول. وكان رئيس القيامة يحتفظ بجملة مفاتيح للخزنات الحديدية التي تحفظ هذه الأثريات النفيسة وحده، وكنا بدون نور كهرباء ولا كاز إلا على ضي شمعة بيد كل منا.

وأخيراً بعد زيارتي لهذه المجموعة القيمة –والحمد لله– التي لا أنساها مدى الحياة، فهمت بأن النادر والمقرب للبطريركية الذي يسمح له بكل صعوبة مشاهدتها. وقد علمت من أصدقائي المطارنة والبطريرك بأن "هذه الخزنة" لا يسمح للبطريركية ولا للدير ولا للكنيسة بمسها مطلقاً، ولو أصبح الدير فقيراً [. . .].[1] بعد هذا المشهد، كبر في نظري شخصية الرهبان . . . وسلك الرهبان الذين يحافظون ويجاهدون على هذا التراث القيم، لأنها –ولا شك– أمانة ومسؤولية عظمى لرئيس القيامة الذي يحافظ بكل ما أوتي من قوة عليها، ولا يحاول أن يبيع ولو حجراً ثميناً واحداً من تاج أو صولجان.

[1] ناقص في الأصل

تعييني بوظيفة مدير مالية القدس

عندما رأت حكومة الانتداب أن فكرة ضريبة الأملاك في المدن التي ابتكرتها ونفذتها بحذافيرها بمدينة القدس قد نجحت وتخلصت من ضريبة الويركو التي استمرت عليها منذ الاحتلال البريطاني لغاية سنة١٩٢٩، باشرت بالتوسيع وعملت جادة بفكرة جديدة للقرى التي كانت تابعة للقدس، وهكذا نظمت الضريبة باسم ضريبة القرى حسب خطة ضريبة المدن تقريباً مع بعض التعديلات الضرورية بخصوص إيجارات البناء والأراضي الزراعية. واضطرت أخيراً إلى فصل دائرة الإيرادات الأصلية بالقدس وفرزت موظفيها القدماء وأصبحنا هكذا:

دائرة الإيرادات لمدينة القدس تحت إشراف السيد عطا الله منطورة، وقد تعينت -آنذاك- مدير مال القدس، وأصبحت مسؤولاً عن إدارة الدائرة بنفسي، بالإضافة إلى رئيس لجنة الأملاك، ثم عضو في لجنة الاستئناف لضريبة الأملاك، وقد بقي معي من الموظفين القدماء يعقوب برامكي، ويحيى حمودة، وسليمان فراج، وإبراهيم بركن، وعشور عشور.

وقد أصبح المرحوم محمد عارف القسطنطيني مدير مال دائرة ضريبة القرى وبقايا الويركو والأعشار للقرى التي بقيت سائرة على الخطة التركية تحت إشراف قائمقام القرى، أو بالأحرى قضاء القدس السيد نقولا سابا. أما الكتبة، فهم إبراهيم العلمي، وسليمان فراج، وموسى مورالي، وسعيد مختار، والشيخ شحادة أبو السعود.

ونقلت هذه الدائرة من عمارة مستشفى دير الروم السابق إلى عمارة الروس شارع النوتردام دي فرانس في الزاوية المؤدية إلى حي المصرارة ثم باب العامود، والتي كانت زمن الحكم العثماني معروفة بكشليرية الروس قبل ثورة الشيوعية. وهكذا توصلت -والحمد لله- لهذا المنصب الكبير كمدير مال القدس لما كسبته من معرفة وخبرة واسعتين في شؤون الأملاك والأراضي ومعاملاتها حسب الخطة التركية، ثم البريطانية، وأصبحت مسؤولاً كبيراً لما في هذه الوظيفة من مسؤولية اتجاه الحكومة والشعب إلى نهاية الانتداب البريطاني، وسرت على بركة الله، وكان التوفيق حليفي في كل أعمالي، واكتسبت رضاء أبناء بلدي وأهلي وعشيرتي من جميع الطوائف بالقدس على اختلاف أنواعها وأشكالها، كما يشهد لي بذلك كل من عرفني منهم طيلة مدة وظيفتي هذه، وفي الوقت ذاته كنت عزيزاً على الحكومة، ولرؤسائي كان لهم كل الثقة بإخلاصي وأمانتي وما ذلك إلا بفضل الله سبحانه وتعالى.

زيارة العلامة الأستاذ ميخائيل نعيمة اللبناني

كان يوماً سعيداً عندما تعرفت بالعلامة الأستاذ ميخائيل نعيمة لأول مرة، وكان الفضل لهذا اللقاء والتعارف أخي وصديقي الأستاذ رفلة القرعة من أبناء طائفتي الروم الأرثوذكس بالقدس - لأن الأستاذ رفلة سار على طريق ثقافته وعلمه التي اتخذها الأستاذ نعيمة، أي الطريقة والمنهج الروسي. كان هذا اللقاء والتعارف في بيتي المجموعة الجوهرية سنة ١٩٣٣ كما تفضل وطلب هذا الأستاذ الفاضل وشرفني بزيارته للاستماع إلى صوتي وعزفي، وخصوصاً ما أحفظه من موشحات أندلسية كلاسيكية التي يميل إليها الأستاذ نعيمة، ثم مشاهدة ما تحتويه المجموعة الجوهرية، وقد سر جداً كما تبين لي عند استماعه إلى فن الموسيقى، وأذكر أنني أسمعته موشح:

كللي يا سحب تيجان الربى بالحلى | واجعلي سوارك منعطف الجدول

"مقام جهاركاه"

يا سما فيك وفي الأرض نجوم وما | كلما أغرب نجم أشرقت أنجما

أشرقت ليلتنا بالأنس مذ أقمرت | بشرت بلقا الأحباب واستبشرت

أسفرت فقلت للظلماء مذ قصرت

طولي يا ليلة الأنس ولا تبخلي | واسبلي سترك لأن الحبيب في منزلي

ثم أحب الاستماع إلى موشح "صاح وخبر" (مقام راست) كروان ضرب سماعي اقصاق

صاح وخبر فاتر الأجفان عن وجدي | حيث أجرى مدة الهجران بالعد

يا ليت لا حبل الف | فلقد سلا قلبي بوقدي

دور

يا خلي البال لو ذقت الهوى العذري | إن كنت تعذر من بلي بالصد والهجر

ظبي الحما كن راحماً | إن الظما للصب بردي

وقد طرب الأستاذ نعيمة وقال هذا هو الغناء العربي الأصيل الذي كنت دائماً أتوق لاستماعه، وهنأني على أدائي وصوتي وعزفي، ثم سر جداً بما جمعته من الآثار النفيسة. وبعد تسعة سنين من زيارته هذه عاد إلى القدس وكتب لي في الكتاب الذهبي للمجموعة بخط يده وتوقيعه وإني فخور بحفظها قال:

"ما أزال أذكر ساعات متعتني بها يا أخي بعذوبة صوتك، ورعشان أوتار عودك، وكرم قلبك ونحافة ذوقك بما جمعته في بيتك من جميل الفن والآثار. وها أنا، بعد مرور سنوات تسع، أشكر لك تلك المتعة وأحيا تلك الساعات من جديد عندما جمعتنا الظروف للمرة الثانية في بيت المقدس".

التوقيع ميخائيل نعيمة

القدس ٣٠ حزيران سنة ١٩٤١

المستشرق الألماني الدكتور لخمان[1]

عرفت الدكتور لخمان -دكتور في الموسيقى- بواسطة صديقي الفنان الغربي المستر ستيورت أحد مفتشي المعارف في حكومة الانتداب البريطاني بالقدس.

وقبل البدء بالحديث عن الدكتور لخمان أحب أن أعلم القارئ عن المستر ستيورت، فهذا الرجل الفنان كان يسكن بيتاً من بيوت عائلة النمري محلة النمامرة في البقعة بالقدس، وإذا ما رأيت هذا البيت ومن أول دخولك له تتأكد جازما أن صاحبه فنان عظيم لما يحتويه من أثاث وتحف شرقية نادرة تدل عن ذوق سليم في اقتنائه، خصوصا الأثاث الشرقي ذا الطابق المصري القديم المصنوع من الخشب النادر، وبدون صباغة، وتبهرك النقوش والحفر الذي فيه بصنعه دقيقة وفنية جميلة وفي منتهى العظمة. كنت أرتاح جداً لمشاهدتي بيته ثم هناك الطبلاوات[2] من مناظر طبيعية خلابة وأزهار وورود رسم يدوي بالزيت تدل على أنه رسام باهر. فكان يزورني وأصدقاءه زيارات عديدة لمشاهدة المجموعة الجوهرية وذخائرها ويثني على ذوقي النادر ممن عرفهم من العرب في الشرق الأوسط، خصوصاً وأنا لست من أثرياء البلاد، بل كنت موظفاً بسيطاً ولم أترك فلسطين، ولم أتذوق مشاهدة النفائس الشرقية النادرة في الأقطار العربية المجاورة.

وكان لعظم محبته لي يرشدني في كثير من هذه الأثريات من حيث قدمها وقيمتها، وقد اكتسبت منه علماً لا أنساه، وله مني الشكر دائماً أبداً. وكان في كثير من الأوقات يصحبني معه إلى تل أبيب، وهناك قضينا أوقاتاً جميلة في زوايا تل أبيب، وقد عرفني وكان أخي توفيق معي عرفني على السيدة، رئيسة الرقص والإيقاع في طابق سفلي وهو كبير يضم مجموعة من حسان آنسات اليهود الشرقيين، كي يتعلمن الأهازيج والدبكة هناك، وقد كررنا هذه الزيارة فأخذت هذه المعلمة مني ما أعرفه من دبكة وغناء وأهازيج التي كنت ذكرت عنها في أول كتابي هـذا عندما كنت أعزف الربابة والطنبور في أول العمر فسرت مني كثيرا.

وإني أقولها صراحة إن المستر ستيورت كان كما يشاع من ذوي الأخلاق الفاسدة . . . ومعروف عنه بين سائقي السيارات من أبناء القدس ثم في المجتمع . . . وكان ساكناً في بيته بدون شريكة حياة، الأمر الذي يوجب الظن بسلوكه وأخلاقه، وهذا بالطبع خاص به وليس لنا دخل والله أعلم بالسرائر.

أرجع وأقول إن المستر ستيورت عرفني على الدكتور لخمان، وكان اللقاء في بيتي "المجموعة الجوهرية". وكان لخمان يحسن اللغة العربية فتباحثنا في الفن والموسيقى، ثم أسمعته مجموعة كبيرة من الأغاني التي أحفظها من مختلف الأنواع من غناء الفلاحين إلى غناء المدنيين في مصر وسوريا وفلسطين، ثم التواشيح الأندلسية والمواويل والطقاطيق والقصائد، وعزفت له على بعض الآلات مثل الربابة، والطنبور، والطنبور الهندي، والجنبوس، ثم على رئيس هذه الآلات الموسيقية ألا وهو العود، فسر جداً وطرب، وقد لقبني بحضور المستر ستيورت بـ "إنسايكلوبيديا الموسيقى العربية".

وهكذا لم ينقطع الدكتور عن الاتصال بي والاجتماع بي في بيتي يواصل أبحاثه الموسيقية معي، ويأخذ الكثير مني عملياً على العود من حيث السلم الموسيقي العربي الحديث، ثم من حيث الإيقاع حسب ما كنت أتعلمهما نقلاً عن الأساتذة القدامى

[1] روبرت لخمان (١٨٩٢- ١٩٣٩) كتب تقرير بالألمانية حول موسيقى الشرق مؤرخ ٢٧ أبريل ١٩٣٠، وله ترجمة لكتاب الكندي وحول اليهود وموسيقاهم في جزيرة جربة، و كتاب نشر عام ١٩٢٩ (*Musik des Orients*) بالألمانية.

[2] تابلووات: ترجمة عن الفرنسية بمعنى لوحات.

الذين يجهلون النوتة الإفرنجية والطريقة التي كنت أقتبس هذا الفن عنهم، وأصبح مغروساً بذهني ولن أنساه ليومنا هذا . . . وكان هذا الحديث وكأنني كما يقولون "يشفي به غليله" ، وكان هذا الذي يفتش عليه، وكأنني كنت كما يقولون "أحك له الجرب" . . . وقد أخذني إلى كثير من الاحتفالات الموسيقية العلمية في المعهد الموسيقي العبري، ثم في الجامعة العبرية، وحتى في الكلية العربية، وكان يخطب في المجتمع مشيراً إليَّ وإلى غنائي وعزفي، ويقول [هذا اللون وهذا الفن الذي أود أن يسير عليه وعلى طريقته العرب بل الشرق كله] . ويضيف قائلاً إن الموسيقى العربية هي عاطفية ولا يمكن ولا بصورة من الصور أن تنسجم والنوتة الإفرنجية. وإني أجزم بأن الموسيقي العربي الذي سار على النوتة الإفرنجية لا يعتبر موسيقياً لعدم إمكانه من تطبيق صوته وأدائه للألحان العربية المركبة حسب النوتة الإفرنجية مطلقاً، بل يكون فنه ناقصاً ولا عذوبة فيه لأنه –بحسب اعتقادي– عندما يرتكز بحسب الطريقة العربية على وجود الربع في السلم الموسيقي العربي [المؤلف من ٢٤ ربعاً] متضارباً مع الإثني عشر نصف نوتة الغربية، ويصبح في نتيجة سوداء ذهبت فيها العذوبة العربية.

وإني أذكر بأنه أعطى محاضرة قيمة في هذا الموضوع خصوصاً حول الإيقاع عند العرب والفارق العظيم بينه وبين الإيقاع الإفرنجي الذي لا يتجاوز الثمانية إيقاعات، مشيراً إلى أن الضروب العربية تزيد على الاثنين والسبعين ضرباً، وعليها يعتمد اللون الكلاسيكي المعروف بالموشحات. وتطرق بعد ذلك إلى الألحان العديدة المبنية على الربع مثل الصبا، والبيات، والسيكا، والبستكار، وغيرها، وعدم وجودها عند الغربيين، واستحالة تطبيقها على آلاتهم الثابتة. وكانت [محاضراته قيمة وقد قدمها في أماكن عدة منها] :

١ . الكلية العربية زمن المربي الكبير أحمد سامح الخالدي، وكنت أعزف على عودي وأغني ما يكتب نظريات الدكتور لخمان بحضور تلامذة الكلية وأساتذتها والمفتش المستر ستيورت، وقد احتفظت بهذه الكلمة ضمن المجموعة الجوهرية.

٢ . الجامعة العبرية على جبل سكوباس بحضور المستشرقين والموسيقيين الأجانب، خصوصاً اليهود الألمان منهم.

٣ . النادي الموسيقي اليهودي، وهناك كانت لنا اجتماعات عديدة في هذا الصدد.

وكان الدكتور لخمان عندما يستهل حديثه ليثبت قوله عملياً بواسطة عزفي وغنائي لا ينسى، بل كان دائماً يذكر وجوب تعلم الموسيقى العربية كما تعلمها واصف صاحب هذا الكتاب فقط ليس إلا، أي من المعلم إلى تلميذه يعطيه القطعة الموسيقية تلو القطعة الأخرى إلى أن يحفظها غيباً عن ظهر قلب – ثم يحفظ بيده الضرب والإيقاع بالكف واليد المبسوطة ليظهر (الدم والتك) في إيقاع الموشحات وهكذا . . . إلى أن أوقفته وتحدثت مرة بحضور خيرة الموسيقيين فقلت:

يا دكتور لخمان: إني أوافق معك بأن الموسيقى العربية عواطف وطرب أكثر من الغربية منها، وإثباتاً لكلامي أن المستمع إليها عندما يطرب لا يستطيع كبح نفسه إلا عندما يتأوه ويقول آه. . . آه. . . كان ويريد تكرار قطعة صغيرة مؤلفة من بعض الدرجات الصوتية القليلة مثل الصبا وغيره، والبعيدة عن الهارموني والفلسفة الغربية، حتى أن العرب بعد الإسلام سمح لهم النبي محمد بأن يرتلوا القرآن ترتيلاً . . . والجدير بالذكر أنه في الوقت ذاته ولثقته بهذه العواطف قد سمح للمستمع لهذا الترتيل الديني بأن يقول الله . . الله . . الله . . للمقرئ تغذية لروحه وطربه حتى في الدين.

ثم إن ما تقوله عن السلم الشرقي العربي المؤلف من ٢٤ ربعاً المعروف لدى الموسيقيين العرب القدامى منهم، والذي يبدئ كما [أشير إلى ذلك في] كتابي "المنتخبات الجوهرية في الموسيقى العربية" مبيناً توقيع أصابع اليد على أوتار آلة العود الخمسة، والذي يبدئ من نيم قبا حصار إلى وتر النوا - ثم من نيم حصار إلى جواب تيك حجاز للديوان الثاني فهذا صحيح.

إنما أين ذلك الشخص الذي يمكنه حفظ هذه المواد المعقدة وتطبيق كل ربع منها اسمه في مخيلته طيلة عمره؟ ألا تسلم معي أنه ربما وجد واحد من ٢٠ ألف شخص يتقن هذا الفن، وعليه إذا بقي العرب سائرين على هذه الطريقة الوعرة الشاقة، فإنك بالكاد تجد موسيقياً مرموقاً بعد مدة وجيزة من الزمن لأنهم قله.

بناءً عليه، لماذا تعارض حضرتك تعلم الموسيقى العربية على النوتة الإفرنجية؟ وبذلك إني واثق بأنه تستطيع أن تجد واحداً في كل من عشر بيوت يحسن العزف تماماً على أصول ثابتة لا خوف عليها من الضياع. مع العلم أن الربع الذي نوهت إليه وكما في صدده، قد وجد له حركة خاصة أضيفت في النوتة الإفرنجية، وذلك في المؤتمر الموسيقي العربي الذي عقد سنة ١٩٣١ في القاهرة، وكنت أنت عضواً فيه. أليس كذلك؟

وإني واثق بعد خبرتي في هذا الفن الرفيع أن عازفي هذا العصر ومن تلقوا علومهم بعد عقد المؤتمر يعزفون القطع الكبيرة الصعبة والملأى بالربع على آلاتهم حسب النوتة الغربية كما هو الحال في مصر والأقطار العربية، وهذه هي العلامات الموسيقية لدرجات الأرباع التي تقرر استعمالها إضافة للنوتة، وذلك في المؤتمر الموسيقي كما ذكرت أعلاه:

بيمول (تستعمل لخفض الصوت ثلاثة أرباع درجة

(تستعمل لخفض الصوت نصف درجة

(تستعمل لخفض الصوت ربع درجة

دبيز (# تستعمل لرفع الصوت ربع درجة

(## تستعمل لرفع الصوت نصف درجة

(تستعمل لرفع الصوت ثلاثة أرباع درجة)

وإني واثق بأن العازف العربي يجرؤ على أن يتعلم الموسيقى، وهكذا يكون عدد الموسيقيين العرب بالمئات كما هو الحال عند الأجانب، فإنك قلما تدخل بيتاً أجنبياً لا ترى فيه آلة موسيقية ... ثم أقول أمامك الفرق الموسيقية الوترية العربية في وقتنا هذا التابعة للموسيقار عبد الوهاب [ولم أتطرق إلى تلحينه..]، ثم فرقة ملكة القلوب أم كلثوم فاسمع واحكم كيف استطاعوا عزف القطع الموسيقية الصرفة وكلها محشوة بالأرباع بكل مهارة.

واسمح لي إذاً يا دكتور لحمان إذا لم تزل مصراً على اعتقادك فإني أقولها صراحة إن ذلك أظنه من الوجهة الصهيونية المعادية للعروبة، وفيها شيء من الخبث لعدم تمكين العرب من انتشار موسيقاهم ليس إلا ... بل بقاؤهم على ما هم عليه إلى الأبد ... فبالله عليك هل تعتقد أن ما اقتبسته وحدي في فن الموسيقى العربية من أهازيج ودبكات وغناء فولكلوري ثم مصري

ثم تواشيح أندلسية ثم عزفي على جملة آلات موسيقية شرقية حتى أمضيت الوقت الأكبر من حياتي فيه، لكثرة ميلي وحبي إليه، هل تعتقد أن أولادي وليس الغريب يعمل ما عملته؟ لا وألف لا.

فجن جنون الدكتور لخمان ولكنه أصر على ما كان عليه، وقال لا.. هذا خطأ، فإني أفضل أن يكون واصف جوهرية.. بين عشرين ألف عربي ممن يتقنون اللحن والأداء على الطريقة القديمة كما قلت سابقاً، وهذا ليس له دخل البتة من الوجهة السياسية، لأن الفن وخصوصاً الموسيقى عند الجميع هو فن.

كنت أزوره في بيته المتواضع الذي يحتوي على كتب عديدة من الموسيقى أمثال سفينة شهاب - كامل الخلعي - كتاب الأغاني وغيرها. وكان عنده من مجموعته القيمة طائفة من الأسطوانات الألومنيوم الصغيرة الحجم مسجل عليها أغاني أهل المغرب فلكلور... وهي -والحق يقال- مجموعة قيمة حقاً.

وعلى آلة التسجيل هذه قد سجل الكثير على أسطواناته من صوتي لعدة قطع طقاطيق، وتواشيح، وعزف منفرد على العود، والربابة، والطنبور، والجنبوش، عبارة عن سبع عشرة أسطوانة، كان يسمعها إلى موسيقى الأجانب، وخصوصاً اليهود الألمان منهم في مناسبات ومحلات عديدة بالقدس. وعندما توفي الدكتور لخمان[1] تأثرت جداً رحمه الله رحمة واسعة، وقد فهمت أن جميع تركته من آلات التسجيل وأسطوانات لقطع عربية صرفة، بما فيها أسطوانات صوتي وعزفي انتقلت من بيته في القدس، وحفظت في الجامعة العبرية للذكرى. وإني لن أنسى تلك الأوقات التي قضيتها مع هذا الفنان الكبير والمستشرق العالم في الموسيقى الشرقية... فسقيا لتلك الأوقات!

وقد أشار إلى رئيس المعهد الموسيقي اليهودي بأنه من الضروري أن أكون معلماً فيه للموسيقى العربية، وهكذا كان فعينت هناك شرفياً بدون مقابل، وكنت من أعز الأصدقاء للمدير المستر هوزر ألماني اليهودي العظيم، ثم المستر أبليا أيضاً ولكن لم أداوم على هذه الوظيفة نسبة لما كان يحدث من ثورات وعراك بين العرب واليهود إبان الانتداب البريطاني. وعلى ذكر المستر هوزر الموسيقي وعازف الكمان الشهير تزوج من سيدة ربما تكون أكبر من والدته في العمر، ولكنها فاضلة، تزوجته لفنه. وهذه السيدة هي الدكتورة المشهورة دكتورة صحة للأطفال المعروفة بـ الدكتور كاكان في القدس، وكانت هي الطبيبة لأولادي جميعهم، ولن أنسى معاملتها الطيبة وإخلاصها لنا وحبها وتفانيها للأولاد.

وهكذا كان بيتنا في النيكوفورية محجة لفن يزوره الفنانون على اختلاف أنواعهم، ولا فرق لأن الفن للجميع، الأمر الذي أكسب أولادي تقديرهم وتفهمهم للفنون الجميلة منذ نشأتهم، وخصوصاً يسرى، فإنها نشأت وترعرعت بين الموسيقى الغربية والعربية فزادها علماً، وأصبحت منذ الصغر يشار إليها بالبنان... وإني واثق بأنها تكون من نساء المستقبل اللواتي لهن شهرة عالمية في الموسيقى... إنه على كل شيء قدير.

المحامي المستر الرمن يهود القدس القدامى

ذكرت في هذا الكتاب الشيء الكثير عن حياتنا المرحة في دائرة الإيرادات لمدينة القدس، وكيف كنا نقضي أوقاتاً جميلة ونكات لذيذة ما بين الزملاء من الموظفين أمثال الإخوان يحيى حمودة[2] وسليمان فراج، وحنا سويدة، وإبراهيم بركن،

[1] إذا كان الحديث عن روبرت لخمان فقد توفي العام ١٩٣٩.

[2] وقد أصبح حمودة رئيس منظمة التحرير الفلسطينية بعد استقالة أحمد الشقيري العام ١٩٦٨.

ويعقوب برامكي، ثم محمد عارف، وإبراهيم العلمي، وسليمان الوعري، وسليمان يونس، وسابا الشماع، وعشور عشور، وغيرهم. وعليه، إني أدون هذا الحادث الذي حدث معنا أثناء العمل فكانت جرأة عظيمة مني ... بأنني داعبت هذا المحامي الطازج على مشهد ومسمع الزملاء والحمد لله، الذي كان على درجة كبيرة من الغباوة ولم يفهم ما كنت أقصده فيه من اللذعات الجوهرية، الأمر الذي جعل الموظفين يكادوا أن يغمى عليهم من شدة الضحك، وهو كما قال المثل "سمعان مش هون.."، فاسمع:

دخل المحامي المستر [...][1] التر ووقف بكل كبرياء وعظمة ... ولم يطرح السلام، بل تقدم من الأخ سليمان فراج وكان بيده إعلان تخمين لملك ما في القدس ... وبدأ يسأله [من وقع هذا الإعلان؟.. ومن هو رئيس اللجنة التي ضمنت هذا الملك؟.. ومن كان من الأعضاء؟..] وعندها زاد وجه أخينا سليمان احمراراً، وبكل لطف وخجل وبشاشة أجابه بأن الرئيس الذي وقع إعلان التخمين هو واصف جوهرية ... ثم بعد الكشف عن قيود الضريبة أجابه بأن الأعضاء كانوا الحاج خليل رصاص، والمستر اسحق ليفي، والمهندس باعتباره عضواً آخر كان إبراهيم بركن.

ولكن لطف سليمان زاده عنترة وعظمة وبدأ يتساءل بدهشة [هل واصف له أملاك حتى يعرف التخمين؟.. ثم الحاج خليل.. من هو هذا الرجل؟ فهذا هو جندرمة.. ثم..]، وكانت فترة سكون لدى الموظفين إلى أن اندفعت من الجهة الأخرى من القاعة وتقدمت من خلف الحاجز الكائن بين الموظف والمكلف وبادرته بما يلي:

[نهارك سعيد يا خواجة ... بكل بشاشة واحترام فجاءني بالحال وسلمت عليه يداً بيد وقلت له ... أتخايل أنك محام... أليس كذلك؟ ... أجاب نعم، فأنا محام جديد وحصلت على الشهادة ... فقاطعته وقلت عال عال ... الله جابك فبالله عليك بدي أسألك سؤال من حيث الثاني فهل لك أن تفيدني عنه؟.. أجاب بكل حب تفضل..]

شوف يا سيد.. إذا واحد قال لشخص آخر تلحس طيزي ... شو عليها جزاء حسب القانون دخلك؟

أنا نطقت هذه الكلمة ... وهات يا ضحك من جميع الحضور في المكتب من موظفين ومكلفين ... ولكن هو لم يكترث بهم، بل أجابني في الحال:

هذا يعتبر تحقيراً ... وبموجب المادة كذا وكذا من قانون كذا وكذا المعمول به في فلسطين أن يدفع جزاء ... ثم أضاف ولكن بموجب المادة كذا وكذا من قانون الفرنساوي يعتبر كيت وكيت، وكأنه راديو وفتح أمامي يشرح لي عن القوانين المعمولة ... وأنا مظهر له بأنني منسجم معه وبدون أن أضحك البتة، بل كنت ألتفت إلى الزملاء وأعود وأقول له تلك الكلمة تلحس ... الخ.. إنت متأكد إلى أن وصلت معنا ونحن نتحادث إحدى عشرة مرة.

وقد لاحظ شيئاً فسألني لماذا الموظفون يضحكون؟ أجيبه بأنه لا شيء أتركهم وشأنهم ثم أعود أبحث معه في الموضوع ذاته إلى أن قال لي:

لماذا تسألني عن هذه الكلمة؟.. أجبته أنني أود أن أقولها لشخص أكرهه ومكيود منه، فأجابني المسكين:

[1] ناقص في الأصل

قولها ولا تخف وأنا بكل حب سأكون وكيلك . . . وعندها تبسمت وشكرته من كل قلبي ، وخرجت عن الحاجز مودعاً إياه إلى باب القاعة حتى خرج فأغلقت الباب خوفاً من رجوعه عليّ وأنا في حالة انكماش كدت أن أفقد مرارتي من شدة اشتياقي إلى الضحك . . . وعندما أغلقت الباب رميت بنفسي أرضاً للراحة ولبثت بشأنهم من الوزن الثقيل له [. . .] ولمن أعطاه شهادة بالقانون ثم لبريطانيا والانتداب .

وكان هذا الفصل مثلاً عند الموظفين وجميعهم يثنون على الجوهرية ، وإني ألفت نظر القارئ الكريم إلى أن هذا المحامي هو من أبناء سكناج[1] يهود القدس القدامى ، فكانت والدته وشقيقاته الحسناوات يبعن الورق والقرطاسية في أحد مخازن محلة البيزار تحت القنطرة [. . .][2] .

[1] أي اليهود الإشكناز

[2] ناقص في الأصل. والبيزار في داخل القدس القديمة.

كفاح أهل البلاد العرب ضد حكومة الانتداب

عندما سحبت الحكومة البريطانية كتابها الأبيض للعام سنة ١٩٣٠ أجمع العرب على اعتبار الإنكليز هم وحدهم أعداء العرب وليس الصهيونية العالمية ، وقرروا وجوب التسلح ضد دولة الانتداب وعدم التعدي على اليهود ، وذلك عندما قامت مظاهرة في نابلس سنة ١٩٣١ تحت زعامة الشيخ محمد صبري عابدين والأستاذ أكرم زعيتر ، ومشت المظاهرة ضد الحكومة واصطدمت معها ، ثم دعت للمؤتمر السابع الذي عقد في يافا سنة ١٩٣٣ ، وأخذوا قراراً بمقاطعة الحكومة والامتناع عن دفع الضرائب .



موسى كاظم باشا الحسيني

وفي تشرين الأول سنة ١٩٣٣ ، وكان يوم جمعة ، أضربت جميع مدن فلسطين ، وقامت مظاهرة ضد الحكومة في القدس ، وسارت هذه المظاهرة تحت رئاسة المغفور له موسى كاظم باشا الحسيني ، واصطدمت مع الحكومة عند باب الجديد ، وكان قربها من دائرة حاكم القدس -آنذاك- في مستشفى دير الروم ، ثم مظاهرة أخرى في ٢٦ من تشرين الأول ، وكانت لأول مرة من سيدات أهالي مدينة القدس ، وسارت هذه المظاهرة وأعضاء الهيئة والشباب تحت رئاسة موسى كاظم ، ومنعت من قبل الحكومة ، ولكن بدون جدوى ، واصطدمت مع الجيش وأطلقت الحكومة النار على المتظاهرين فجرحوا ٣٥ منهم ، وبعد ذلك اتخذ قرار في بيت موسى كاظم باشا بتنظيم مظاهرة في يافا ، وأضربت البلاد عن بكرة أبيها ضد حكومة الانتداب ، وفي النتيجة اعتقلت الحكومة عدداً من المحتجين في يافا مكان الجمعية الإسلامية المسيحية ، ونقلتهم إلى عكا ، ثم تكرر قيام هذه المظاهرات في الرملة ، والقدس ، ونابلس ، وحيفا ، وعكا ، وفرقت بالقوة . . . أيضاً . وعليه ، أضربت فلسطين أسبوعاً كاملاً معلنة سخطها على حكومة الانتداب وأعمالها ، ولم يحدث في جميع هذه المظاهرات أي تعدي ضد اليهود في البلاد ، بل كان ضد بريطانيا مباشرة. وقد أصيب بضربات شديدة موسى كاظم باشا عندما كان يرأس المظاهرة في يافا ، ومرض ولازم فراشه إلى أن توفي سنة ١٩٣٤ .

والجدير بالذكر في هذا الصدد أنه في هذه الأزمة والشدة التي كنا نعانيها في البلاد من ثورات ونضال ومآس وإضرابات قد منّ الله علينا بمولود ذكر في الثالث من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٣٣ ، فجاء كما يقولون بطلاً وفي وقت الثورات ، أرجو أن يكون من رجالات المستقبل ليفيد أهله وبلده ووطنه حرسه الله .

وفاة زعيم البلاد المغفور له موسى كاظم باشا الحسيني

كانت وفاة المغفور له موسى كاظم باشا الحسيني يوم ٢٦ آذار سنة ١٩٣٤ في بيته محلة الشيخ جراح بالقدس عن عمر يناهز الثمانين، وقد أضربت[1] جميع المدن الرئيسية في فلسطين، وجاءت الوفود من جميع البلاد وحضرت الجنازة.

[1] يقصد: أعلنت الحداد.

في الحقيقة، يعجز القلم عن وصف تلك الجنازة بالقدس، فكان الناس بدون مبالغة ألوفاً مؤلفة، وساروا بموكب عظيم من محلة الشيخ جراح إلى الحرم الشريف سيلاً واحداً بدون انقطاع، وهناك بعد الجنازة والتأبين من أعظم أدباء وعلماء وزعماء البلاد نوارى تحت التراب في ساحة الحرم الشريف تقديراً لجهوده وكفاحه وإخلاصه في حياته، وخصوصاً لما قام به من مواقف شريفة وطنية إجلالاً لوطنه العزيز. وإني أذكر أن المغفور له موسى كاظم باشا الحسيني هو الوحيد من هذه الأسرة الذي دفن في الحرم.

كان موسى كاظم باشا خلوقاً وإنساناً في كل ما في هذه الكلمة من معنى، فقد حصل على وظائف عالية زمن الحكم العثماني إلى أن حصل على لقب باشا من الآستانة، وعندما توفي أخوه المرحوم حسين أفندي الذي كان رئيساً لبلدية القدس بعد الاحتلال البريطاني، عينت حكومة الانتداب موسى كاظم باشا رئيساً لهذا المنصب بعد أخيه. وعندما نشر وعد بلفور وتبين للعرب نوايا الإنكليز الخبيثة اتجاه العرب والبلاد، طلب من موسى كاظم باشا الحسيني أن يوقع المستندات المتداولة الإداري في بلدية القدس على اللغات الثلاث؛ أي الإنكليزية، والعبرية، والعربية، وذلك بموجب نصوص الانتداب.

ولكنه على الرغم من شدة حاجته لراتب وظيفة رئاسة بلدية القدس، أبى ورفض أن يعترف باللغة العبرية، وهكذا أصر واستقال من منصب رئاسة بلدية القدس، وكانت منه بادرة طيبة جداً قدرها الشعب كل التقدير. رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جنانه. والجدير بالذكر أنه بعدما استقال المغفور له موسى كاظم باشا من رئاسة بلدية القدس جاءت الإنكليز وبواسطة حاكم القدس المستر رونالد ستورس، وطلبت من راغب بك النشاشيبي فقبل بكل ترحاب أن يوقع على اللغة العبرية، وهكذا تعين رئيساً لبلدية القدس خلفاً له.



مظاهرة عربية في القدس والجيش البريطاني يتصدى لها قرب باب الجديد في الثلاثينيات.

المصور غير معروف.

من مجموعة مؤسسة الدراسات الفلسطينية في بيروت.

الأحزاب السياسية التي تشكلت في فلسطين من العرب

١. الحزب العربي الفلسطيني "المعروف بحزب المفتي".
٢. حزب الدفاع الوطني بزعامة راغب بك النشاشيبي "المعروف بحزب المعارضين".
٣. حزب الإصلاح "بزعامة الدكتور حسين فخري الخالدي".
٤. حزب مؤتمر الشباب "بزعامة محمد يعقوب الغصين".
٥. حزب الاستقلال "بزعامة السيد عوني عبد الهادي".
٦. حزب الكتلة الوطنية "بزعامة المرحوم عبد اللطيف صلاح".

وقد قامت أيضاً هيئات ومنظمات ولجان أخرى فكان منها:

١ . جمعية العمال العربية .

٢ . عصبة التحرر القومي .

٣ . مؤتمر العمال .

٤ . لجنة صندوق الأمة .

٥ . المكاتب العربية .

المؤتمر الإسلامي في القدس برئاسة المفتي الحاج أمين الحسيني

إثر ثورة سنة ١٩٢٩ بالقدس بسبب مطامع اليهود الدينية في المسجد الأقصى والبراق الشريف ، تعينت لجنة برئاسة المستر لوفغرن وزير خارجية دولة السويد السابق مع عضوية اثنين آخرين أحدهما سويسري والآخر هولندي في صيف سنة ١٩٣٠ بالقدس. وقد دعا الحاج أمين بصفته رئيساً للمجلس الإسلامي الأعلى في فلسطين الأقطار الإسلامية لمشاركة الفلسطينيين في الدفاع عن حقوقهم فلبت الدعوة كل من :

مصر ، والعراق ، وسورية ، وشرق الأردن ، ولبنان ، وإندونيسيا ، وأفغانستان ، والهند ، ومسلمي بولونيا ، والمغرب ، وإيران ، وبخارى ، . . . وغيرهم .

وقد احتفظت برسم تذكاري خالد لهذه الوفود ضمن المجموعة الجوهرية كما يلي :

الصف الأول : من اليمين المرحوم أمين التميمي فلسطين

المرحوم أحمد حلمي عبد الباقي فلسطين

الشيخ المرحوم محمد الغنيمي التفتازاني "مصر"

المرحوم أحمد زكي باشا "مصر"

السيد محمد أمين الحسيني "فلسطين"

المرحوم محمد علي علوبة باشا "مصر"

السيد مزاحم الباجة جي "العراق"

المرحوم ميرزا مهدي رفيع مشكى "إيران"

المرحوم صلاح الدين بيهم "لبنان"

السيد عبد الغفور "أفغانستان"

الصف الثاني : الأستاذ عبد الرؤوف المصري "فلسطين"

السيد زكي التميمي "فلسطين"

الأستاذ أبو بكر الأشعري "أندونيسيا"



المؤتمر الاسلامي العام في القدس، كانون الاول عام ١٩٣١.



لجنة الاسعاف العربية في مركزها بالقدس في اثر حوادث سنة ١٩٢٩. وقد تأسست اللجنة لتقديم العون الى العائلات الفلسطينية المنكوبة. الثالث الى اليمين هو صبحي الخضراء ممثل مدينة صفد وأحد اقطاب حزب الاستقلال العربي وبجانبه على اليمين عبد الحميد شومان مؤسس البنك العربي.

المرحوم فخري الدين الحسيني "فلسطين"

المرحوم الشيخ يعقوب البخاري "فلسطين"

السيد جمال الحسيني "فلسطين"

المرحوم الشيخ عبد القادر المظفر "فلسطين"

المرحوم صبحي الخضرا "فلسطين"

الأستاذ محمد عزة دروزة "فلسطين"

الأستاذ عبد القهار مذكر "أندونيسيا"

الأستاذ محمد اسحق درويش "فلسطين"

المعرض العربي بالقدس – عمارة الأوقاف الإسلامية الجديدة

التي تأجرت واستعملت فندق يعرف ب "بلاس"

كانت جملة الخطوات التي أقدمت عليها القيادة الفلسطينية الوطنية تهدف إلى ربط الاقتصاد العربي بالاقتصاد الفلسطيني والاستعاضة، قدر الإمكان، عن البضائع والمنتوجات الصهيونية والأجنبية بالبضائع والمنتوجات العربية. وتحقيقاً لهذه الغاية، فقد افتتح الزعيم الفلسطيني الراحل موسى كاظم باشا الحسيني المعرض العربي الأول بالقدس في ٧ تموز سنة ١٩٣٣ في عمارة الأوقاف الإسلامية الواقعة في حي مأمن الله والمعروفة فيما بعد بفندق بلاس مؤجرة إلى اليهود [كذا].

فقد عرض في هذا المعرض، ثم في المعرض العربي الثاني الذي افتتح أيضا بتاريخ [ ][1]، منتوجات صناعية وزراعية من مختلف الأقطار العربية. وقد توافد على المعرضين جمهور غفير من العرب، عامة والفلسطينيين خاصة. وقد اشترك في المعرض الثاني مائة وثمانون شركة عربية من مصر، وسوريا، والعراق، وشرق الأردن، والمغرب، والسعودية. وقد أظهرت دولة الانتداب جلياً أنها تقف ضد هذا المعرض العربي، إذ حظرت على الطائرات المصرية التحليق في سماء القدس، وذلك أثناء المعرض الثاني يوم الافتتاح، كما منعت استعمال أختام البريد الخاصة بالمعرض، وامتنعت القنصليات الإنكليزية في العواصم العربية عن التأشير لآلاف الوافدين العرب إلى المعرض.

[1] ناقص في الأصل.



طابع "فلسطين للعرب" الذي صدر آنذاك. المصدر: نادر خيري الدين ابو الجبين، "تاريخ فلسطين في طوابع البريد" (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠١)، ص ٣٣٩.

وقد جن جنون الوكالة اليهودية لنجاح المعرضين الأول والثاني، فأقامت في شهر أيار سنة ١٩٣٤ معرضاً في تل أبيب، وجاء المندوب السامي خصيصاً من القدس لحضور حفل الافتتاح، وعزفت فرقة الموسيقى الحكومية في الحفل. وعندها سمحت السلطات البريطانية بدخول عشرات الألوف من المهاجرين اليهود من مختلف أنحاء العالم بحجة زيارة المعرض، وقد بقي معظمهم في فلسطين.

إن مدير إدارة هذا المعرض أي الأول والثاني كان السيد العظمة السوري من دمشق، وكان بالفعل قديراً وكفئاً لهذا المنصب، فكان رائداً في النظام، ما جعل العرب يفتخرون في إدارة المعرضين بالقدس، وقد أدخل على الترفيه السيد طبارة بما عمله

من أعمال شائقة وجميلة لن تنسى في الألعاب النارية، فكانت القدس منورة ليلا من أرضها إلى السماء بمختلف الزينات والمفرقعات والرسوم النارية النادرة.

وقد اشتريت أشياء كثيرة من المعرضين الأول والثاني، لم أزل أحتفظ بها ضمن المجموعة الجوهرية من أواني شرقية وأقمشة صنع حمص وحمى، وإطارات مصرية مطعمة بالعاج وخصوصاً [...][1] الأركيلة بشبه قضيب الزنبق ذي أوراق طبيعية في غاية الإتقان.

[1] ناقص في الأصل

ومن سهرات المجموعة الجوهرية

بمناسبة زيارة السيدة هيلين للقدس، وهي ابنة شقيقة الأخ فرنسيس بطاطو صديق رئيسي بالعمل السيد عطا الله منطورة، عزمنا على إحياء سهرة سمر في المجموعة الجوهرية، ودعونا إلى حضورها كلاً من الدكتور برنابا، والسيد شكري ديب، ومدام فري، وسليم الخوري وزوجته، والأخ فرنسيس بطاطو وزوجته، وبالطبع عطا الله منطورة ومدامته. كانت - والحق يقال- من أروع سهراتنا، حيث تجلى فيها الحظ والطرب، والجميع كان يستمع بشغف إلى الموسيقى العربية من آل جوهرية، فكنت أنا المنشد على عودي، وأخي توفيق على نايه، فأبدع أيما إبداع، ثم أخي فخري تارة على القانون بصعوبة، ثم على الرق.

وأما خليل، فقد أخذ دوره فوق [...][2] وكان يرأس الإشراف على إملاء الكؤوس وتزيين مائدة المازة الجوهرية ... وقد أخذ الجميع نشوة الحظ إلى أن تشجع الأخ فخري واغتنم الفرصة الملائمة فمثل بدوره "السكران" ... وحقيقة القلم يعجز عن وصف هذه التمثيلية الساخرة والغريبة لدى كل من حضرها لأول مرة من فخري، فكان - سامحه الله- يتفنن بها، وكأنه بلا مبالغة سكران عن حق وحقيق، وقد كسر لي كأساً من كؤوس الخمرة النادرة ليس لشيء سوى حباً في الفن؛ فن التمثيل للجميع، ثم شرب سيجارته بالمقلوب، ما أثرت نارها على شفتيه ... الأمر الذي أعطى فكرة جادة للمدعوين فهبّوا من منظره، وأخاف السيدات والآنسات، والشيء الذي جعل الحضور بأن فخري هو حقيقة على جانب كبير من السكر قمت أنا بدوره أعربد عليه، وأؤنبه بكلمات جارحه قائلا "والله يا فخري أنك سودت وجوهنا هذه الليلة وكان عليك أن تحتاط للأمر، ولا تكثر بأخذ الخمرة إلى هذه الدرجة القذرة.. و ...و... .

[2] ناقص في الأصل

وكان فخري يزداد بإظهار سكره، الأمر الذي جعل المستر منطورة والدكتور برتابا أن يتلافيا الأمر فسرا في أذني قائلين "لا يا واصف مش هيك بعاملوا السكارى ! !"، وقد أخذا بالفعل الأخ فخري إلى زاوية من زوايا القاعة، وبدأ بمسايرته بكلمات عذبة ... ولكن أتدري ماذا كانت النتيجة؟ ! !

وقف فخري هادئاً ثابتاً يبتسم وقال للجميع "الله يمسيكم بالخير.. لا مؤاخذة.." فدهش الجميع وهات يا ضحك وفرفشة إلى أن قالوا حقيقة أن الفن يرجع لآل جوهرية ... ولكن فخري أجاب "هذا الحادث يحصل معي من وقت إلى آخر وربما يحصل مرة أخرى الآن ! ! فزاد ضحكهم وكانت ليلة من العمر، لم يزل كل منهم ومنا نذكرها إلى يومنا هذا. لا أحب أن أتكلم الكثير عن ما قدمته شريكة الحياة من مازه ومآكل في تلك الليلة ولكن أقولها صراحة إن جميع الحضور في هذه السهرة

قد رجعوا بعد صلاة الأحد مباشرة في صبيحة اليوم الثاني إلى الدار (التي كانت لم تزل شبيهة بالخمارة) وقدموا تشكراتهم إلى فيكتوريا وهنئوها بما تستحق من ذوق وإتقان إلى أن قال سليم الخوري أؤكد لك وأنا من أبناء يافا أنني لم أذق أطيب وأحسن من طهي أجناس الأسماك التي قدمت لنا في هذه الليلة في حياتي، فبارك الله فيك، وحقيقة أن الله يحب واصف الذي سير له زوجة فاضلة مثلك.

زيارة السينمائي والموسيقار العالمي جوزي ماجيكا الإسباني

للمجموعة الجوهرية والاستماع إلى الموسيقى العربية الصافية

أسعدني الحظ بالتعرف للسينمائي والموسيقار العالمي الإسباني جوزي ماجيكا، وذلك بواسطة أخي وصديقي عزيز بولس شحادة صاحب جريدة مرآة الشرق بالقدس. وكما علمت من الأخ عزيز بأن الأستاذ موجيكا تواق لسماع بعض قطع موسيقية عربية صرفة وليست ممزوجة بالفرنجية كغناء بعض موسيقيي هذا العصر، أمثال عبد الوهاب، والأطرش. وقد استمع بالفعل إلى بعض الهواة بالقدس، ولكنه لم يعجب بهم قطعياً، وهكذا وبواسطة عزيز وإرشاداته زار وإياه المجموعة الجوهرية، فرحت به وسررت بحضوره جداً وقد لفت نظره وخصوصاً لأول مرة قيمة المجموعة الجوهرية وما تحويه هذه المجموعة من تحف فنية، وعلى الأخص مجموعة آلات الطرب الشرقية القديمة التي احتلت القسم الأكبر من جدران القاعة المعروفة بغرفة الموسيقى، مزاحمة بذلك صوراً كثيرة لأشهر موسيقيي وملحني العرب أمثال عبده وسلامة وعثمان والسيد درويش ... وغيرهم.

وبعدما قمت وعائلتي بإكرامه حسب الطريقة العربية جلس في الصالون ينظر إلى كل ما هو شرقي، بل عربي، من أثاث وفراش وتحف مختلفة الأجناس والألوان، أسمعته بعض التقاسيم من مقام الراست، ثم البيان، والصبا، وبعدها عزفت بشرف عاصم بك من مقام الراست أيضاً، فأخذ فكرة واضحة عن العزف على العود، وأظهر رضاه وطربه. وبعد ذلك أنشدت على عودي موشحاً مطلعه "حير الأفكار" ضرب مربع أي ١٣/٤٠ من مقام راست كروان:

حـيـر الأفـكـار بـدري	فـي صـفـا خـده الأسـيـل
مـن لـغـض الـبـان يـزري	[...][1] حـسـن يـمـيـل

[1] ناقص في الأصل

وبعدها موال من المقام ذاته من غناء المطرب الصفتي وعبد الحي حلمي:

قم في دجى الليل ترى بدر الجمال طالع   معجب بتيهه وسعده في العلا طالع

يا مدعي الحب خذ لك في الهوى طالع   واحسب حساب العزول من ضمن اشكالك

وإن زاد بك الشوق في كتب الغرام طالع

وبعدها ختمت بوشح من مقام راست أيضاً ضربه سماعي دارج بسرعة فائقة :

أفديك ظبيا مبتسم   في خدك الخال رسم   أهواك يا بدر قسم

ولم أزل أرعى عزل   وصادني شاجي المقل   آمان   آمان

وما كدت أنتهي من الغناء إلا وأخينا الموسيقار كان واقفاً وكله طرب وإعجاب ، وقال : نعم هذه هي الألحان العربية التي كنت تواقاً لسماعها ، وأثنى عليّ من حيث العزف الصوت والإلقاء والطريقة المنسجمة كما قال بالعزف والغناء معاً .
وبعدها أضفت إليه ما تيسر من خفايا هذا الفن الجميل مثل قطع من الأدوار والقصائد والطقاطيق المحشوة بالأرباع من السلم الموسيقي العربي البعيدة عن النصف ، وكنت ألفت نظره لكل حركة عند تعبير المقام ، ثم الرجوع إليه والإيقاع الذي يغني عليه بموجب شريعة الموسيقى العربية القديمة الصافية وقد أبدى إعجابه على الأخص في حركة من مقام الصبا على الكردان في موشح "صاح وخبر فاتر الأجنان عن وجدي . . . الخ" مقام راست الأساس والضرب سماعي أقصاق ١٠/٨ .
وهكذا ترك الأستاذ جوزي ماجيكا المجموعة الجوهرية وهو يتأمل في ما سمعه من قطع وعزف نادر ، وما شاهده في هذه المجموعة من فنون ، تركنا شاكراً وقد أرسل لي وبواسطة الأخ عزيز رسمة صورة فنية نادرة كتب عليها بخط يده وتوقيعه باسمي (With my admiration) . لم أزل أحتفظ بها ضمن فناني المجموعة الجوهرية ، وذلك بعدما أدخلتها في إطار فضي سميك يتناسب مع قيمة هذا الفنان وفنه وذلك من هوليوود . . . فسقيا لتلك الأيام ما كان أطيبها ! .

العلامة الكبير الشيخ خليل الخالدي

كان شيخنا الكبير العلامة خليل الخالدي هو ابن إحدى أقدم وأرقى عائلات بيت المقدس من المسلمين ، التي يرجع نسبها إلى قائد العروبة الأول خالد بن الوليد - رحمه الله - علماً من أعلام علماء الإسلام ، وضليعاً بالشرع الإسلامي وفقه الدين ، وفي الوقت ذاته مؤرخ فذ . فإذا ما جلست إليه ، وإنها للحظة سمر أخاذة ، خيل لك بدون شك أنك في دنيا أخرى بعيدة كل البعد عن دنيانا ، ولست أبالغ إذا قلت إن كل أجزاء الإنسايكلوبيديا فتحت أمامك وهو يلقيها عليك من شتى صورها وأشكالها من حيث الأدب ، والشعر ، والتاريخ ، واللغة ، والثقافة . وكان - رحمه الله - نشيطاً يسافر من بلد لأخرى حتى لقب الرحال الأول . كان شديد الحب لزيارة أسبانيا ، وكان يدعى رسمياً من تلك الدولة لكي يطوف في زوايا

آثار الإسلام في الأندلس، ويقرأ ما نقش من حكم وآيات قرآنية على ما خلفه المسلمون من آثار خالدة ليعتز بها العالم بأسره في غرناطة وقرطبة والحمراء وغيرها . وقد قدم لي هدية قطعة نفيسة من إحدى شرفات الأندلس المزركشة بماء الذهب، ومن هذه النافذة تطل على الأسود المعروفة هناك والمصنوعة من الرخام والإليستر ومكتوب عليها "لا غالب إلا الله"، وقد سررت جداً لهذه الهدية ذات القيمة التاريخية النفيسة وأدخلتها في إطار أسود لامع مَليك[1] في ثغرة خاصة من جدار صالة المجموعة الجوهرية، وهذا الإطار يليق بها، والجدير بالذكر أنني صورت رسم الشيخ خليل هذا بعيداً عن شرفة الأندلس الهدية . . . من الخلف، وسلطت نور الكهرباء الخاص من الداخل يشع من هذه الشرفة على رسم الشيخ، وهو مأخوذ في ذات الأندلس في إحدى رحلاته هناك، فجاءت بدعة من البدع، وكانت تلفت أنظار الزائرين بصورة مدهشة، وقد سر جداً عندما رأى بأم عينه ماذا عملت بهديته الثمينة، وقال "بارك الله فيك يا بني . . . إنك ولا شك تقدر الفن لأنك فنان أصيل".

كان يزورني كثيراً في المجوعة الجوهرية، وكنت -والحق يقال- اكتسبت من معلوماته وإرشاداته القيمة في كل ما كان يصعب علي فهمه وإدراكه، فمثلا كنت أسأله عن تاريخ كتاب مخطوطة لم يكن مكتوباً عليها تاريخ كتابتها، فكان رحمه الله يجيبني في الحال عندما يمسك الكتاب في يده فيقول:

انتبه إذا تبصرت في غلاف هذه المخطوطة ترى أنه مصنوع من الجلد الذي كان يصنع قديماً في فارس ممزوجاً بالذهب والزعفران و . . و . . وهذا النوع من العمل كان منذ حوالي ٣٥٠ - ٤٠٠ سنة، فيمكنك كتابة ذلك في داخله للمعرفة. ثم في حالة عدم وجود اسم الخطاط فإنه يكون بلا شك ليس عربياً، بل فارسي لأن العرب كانت لا تكتب شيئاً مطلقاً إلا أن توقعه قائلة أنا الفقير ابن الفقير ابن الفقير ابن الفقير فلان فلان ثم يوقع اسمه أدناه . . . وهكذا أقولها صراحة إن المرحوم الشيخ خليل كان صديقاً وفياً وله الفضل الأكبر في وجود المجموعة الجوهرية من حيث المعلومات القيمة لكل ما هو خاف عنا، كان يثق بإخلاصي ويعمل بما أقوله له بما يتعلق بأملاكه القيمة خارج سور المدينة.

تعين الشيخ خليل الخالدي زمن الانتداب البريطاني، ولم ينجب ذكوراً وكان منعزلاً عن البشر ومنزوياً في بيته منكباً على اطلاع الأدب والعلوم، وقد سافر أخيراً إلى القاهرة، ومات فيها -رحمه الله- رحمة واسعة وأسكنه فسيح جنانه. مع كل أسف أقول إن هذا العلامة توفي ولم يترك ولا كتاباً من مؤلفاته، وهكذا بهذا العمل عاتبه الكثيرون من أدبائنا، الأمر الذي أجهله.

[1] أي لامع كالمعدن

المفتي الأستاذ الشيخ أحمد حسنين

بتاريخ ٣ كانون الأول سنة ١٩٣٥ زار القدس المفتي المصري المشهور الشيخ أحمد حسنين مع فرقته الموسيقية المؤلفة من عازف قانون، وكمان، وضارب رق، ومعهم أمير البزق الأستاذ عبد الكريم، وقد حضرناه واستمعنا إلى إنشاده لأول مرة في مقهى كان لموسى الراغب الحسيني في أريحا، فقد أجاد وأبدع وتعرفت عليه هناك فأحببته وأحبني. إن الأستاذ

حسنين من أجمل المغنيين الذين عرفتهم من قبله حتى وبعده، فهو طويل القامة، ووجهه حسن يميل دائماً إلى الابتسامة، أنيق الهندام ولباسه المصري الأصيل معمم يلفت الأنظار، خصوصاً عندما ينشد فيزداد روعة وخفة.

كان يرأس الحضور المرحوم العم محيي الدين أفندي الحسيني الذي تجلى الكرم به في تلك الليلة ودفع ثمن تذاكر الدخول لتلك الحفلة عن عدد كبير من الحضور. غنى الشيخ حسنين الشيء الكثير من قصائده المعروفة والمحببة إليه مثل قصيدة "إلا زعملت ليلى بأني أحبها." وقد تجلى وأحسن عندما وصل إلى الشطرة "لقد فضلت ليلى على الناس مثلما على ألف شهر فضلت ليلة القدر" فهاج الجمهور وماج طرباً فأعادها الشيخ حسب الطلب، خصوصاً من العم محيي الدين أفندي أعادها مثنى وثلاث ورباع، ثم غنى وأخاه ديالوج التلفون رجوته أنا بغنائه لأنني كنت أنشده في الليالي وتعلمته نقلاً عن اسطوانة منه".

والحق يقال أن هذا الديالوج فيه انتقاد لطيف لشركة التلفون، وخصوصا للآنسات والموظفات لإعطاء النمرة . . . وأن التلحين تناسب مع المعنى المطلوب. وبعد هذه الحفلة لم ينقطع الأستاذ حسنين وفرقته عن زيارتي في المجموعة الجوهرية وقد ضممت لفرقته صديقي آرتين عازف السنتور وقضينا أوقاتاً جميلة في البيت وخارج البيت . . . وأصبح الشيخ من أعز الأصدقاء لي، وقد أحب مدينة القدس وأقام فيها، وكنت أساعده بتجديد مدة الإقامة دائماً وأبدا بواسطة أصدقائي في دائرة المهاجرة والسفر، إلى أن صادف فتوح دار الإذاعة سنة ١٩٣٦، فتعين وفرقته فيها ومكث عندنا مدة طويلة. قدم لي رسمه ثم هو والفرقة للذكرى، وإني لم أزل أحتفظ بهما ضمن المجموعة الجوهرية.

وقد اشتغل الأستاذ حسنين وفرقته في مقهى العم أبو زهدي زحيمان باب العمود، ولما كان الأستاذ طلعت السيفي أخاً لأولاد الجوهرية أخذته لأول مرة إلى هذا المقهى فطرب جداً. والجدير بالذكر أن طلعت عندما استمع لعازف البزق الأستاذ عبد الكريم المعروف بالقزم سر كثيراً فوقف بين الجمهور وقال لي بأعلى صوته "يا واصف والله باستطاعتي أن أدخل عبد الكريم والبزق تبعه في . ."، والمعروف أن طلعت طويل القامة بزيادة شويه . . . وهات يا ضحك كاد أن يغمى عليه خصوصاً حسنين . . وختاماً أقولها صراحة إن الأستاذ حسنين لهو من أحسن منشدي القصائد وصوته حنون ومشبع، ثم إلقاؤه الغناء فهو ممتاز ولا عجب فهو مقرئ القرآن. قضينا وإياه بالقدس ليالي طويلة وتغذينا بإنشاده العذب . . . فسقيا لتلك الأيام ما كان أطيبها!

مصيف بيت روك في بيت لحم

تأثر ولدنا جورج من الحصبة وشكا من أذنه فضعف جداً وقد أصاب أخته آية ما تعرف بالسعلة الشهاقة وهكذا ولأجل نجاح صحتها الغالية قضينا فصل الصيف من سنة ١٩٣٥ في طريق الدهيشة بيت لحم. استأجرنا الطابق العلوي من الآنسة هيلين روك مقابل منزل السيد حنا قواس رئيس البلدية، وإن هذا الطابق في غاية الجمال والإتقان، فسيح القاعة وغرفه وسيعة وموقعه ممتاز، يشرف على غابة زيتون بيت جالا، وقد صدق المرحوم الشيخ خليل الخالدي أن هذا المنظر يشبه تماماً غرناطة في الأندلس.

كان الأخ فخري لم يزل أعزب، وعنده سيارة خاصة، وهكذا اختص كل منا في غرفة نوم خاصة، أي أنا والعائلة والأخ خليل وزوجته والأخ فخري وخصصنا الغرفة الرابعة للضيوف، والإيوان الفسيح صالون، وهكذا كانت صيفية مرحة هادئة لم يتركنا الزائرون من الأقارب والأصدقاء وهم كثرة والحمد لله.

كما كثيراً من الليالي نشاهد حول الدار في الشوارع أهل بيت لحم الكرام يتسمعون إلى غنائنا وعزفنا على كثير من الآلات، وكنا نعرف بالجوقة الجوهرية. وكان الأخ طلعت الحسيني خصوصاً وزميله فخري عندنا لا ينقطع عن زيارتنا في هذا البيت، ومن عرف طلعت الحسيني وما هو عليه من خفة روح ودم وسخرية وتمثيل يؤكد ما كنا عليه من مرح وسرور طيلة الصيف.

وإني أذكر أنه بمناسبة زيارة السيد توفيق منطورة من القاهرة ولأول مرة وهو شقيق رئيسي عطا الله أقمنا له حفلة سهر ضمت نخبة من الأصدقاء وأصدقاء أصدقاء منطورة تجلى فيها الطرب والحظ إلى بعد منتصف الليل، لم يزل كثير من جيران تلك الدار في بيت لحم يذكرونها.

وحسب إشارة الطبيب نصح بأن نقضي شتاء تلك السنة في أريحا ليسترد ولدي جورج قواه تماماً، وهكذا كان فقضينا الشتاء في أريحا في فندق الأردن لصاحبه -آنذاك- الأخ توفيق ناصر مقحار. ولحسن الحظ كان العم إسماعيل بك الحسيني عضواً في لجنة الاستئناف لتخمين ضريبة الأملاك تحت رئاسة نصوحي بك بيضون، وكنت أنا الموظف المسؤول عنها، كنت أرافق العم إسماعيل بك في سيارته الخاصة عند ظهيرة كل يوم من القدس إلى أريحا بصفته ملاكاً هناك لا يستطيع البقاء في برد القدس. وهكذا قضينا شتاء سنة ١٩٣٥ - سنة ١٩٣٦ بسرور وعافية والحمد لله، ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، فقد رجعنا القدس مبكرين عند أول الربيع، رجعنا اضطراريا لأن البلاد أصبحت على الثورة ضد بريطانيا واليهود، وذلك احتجاجاً على الهجرة اليهودية المتدفقة على الوطن بصورة مخيفة لم يسبق لها مثيل، وكثرة شراء الأراضي العربية كما سيجيء البحث عن هذا الموضوع فيما بعد ذلك الإضراب المنظم في طول البلاد وعرضها لمدة تجاوز الستة شهور.[1]

[أحداث وثورة ١٩٣٦]

فكرة تأليف مجلس تشريعي سنة ١٩٣٥

في مدة المندوب السامي السير ارثور واكهوب، وعندما استمرت مقاومة العرب للسياسة المتبعة -آنذاك- في البلاد، وأصبحت مقاومتهم هذه ضد بريطانيا مباشرة، فلأجل استرضائهم عرض المندوب السامي بتاريخ ٢١ و٢٢ كانون الأول سنة ١٩٣٥ مشروعاً لتأليف مجلس تشريعي لفلسطين مؤلف من ٢٨ عضواً منهم:

١٢ عضواً بالانتخاب؛ ٩ مسلمون، ومسيحي واحد، و٣ يهود

٩ أعضاء بالتعيين؛ ٣ مسلمون ومسيحيان، و٤ يهود

[1] حاشية من واصف جوهرية في هامش نص المخطوطة:

قد ترأس ولدنا جورج على جميع الأولاد من عمره المقيمين في الفندق المذكور، فكان يعاملهم وكأنه دكتاتور، فكان -حماه الله- يترك عربته الصغيرة جانباً ويهجم بكل قواه ويخلص عربة أحد الأولاد هناك ويحتفظ بالعربتين، وكثيراً من المرات بثلاث عربات ... والويل ثم الويل لمن يريد أخذ واحدة من يديه.

كان يعربد كعربدة السكارى، ويبكي بصوت يزعج جميع الجيران، وكم وكم من الليالي عندما يفيق من نومه ويبدأ بالبكاء بصوت مزعج إلى أن يضطرني إلى الذهاب ليلاً إلى البقالة، وكان أحد الأصدقاء، فاتحاً بقالته، وأشتري له علبة كاملة من الشوكولاته (نستلي) ولم أرضَ البتة إلا أن يفتحها هو بنفسه ولا يقبلها إلا مغلفه ومن الحجم الكبير!

وقد صادف أن السيدة والدة جورج قرط كانت وزوجها يجلسان خارج البيت طريق عين السلطان، وهي -أي أم جورج- من الجيران الطيبين عندنا بالقدس كانت تحب مداعبته، فعندما مر عنها مع والدته في عربته الصغيرة وكان معربداً في تلك الفترة، فقد احتكت به وشتمت والده ... وهناك نرفز جورج بك وما كان منه إلا أن التقط حجرا من الشارع، وضربه لهذه السيدة الفاضلة فأصابها في رأسها جرحاً بالغاً.. فتأمل ... كان عمره حوالي الأربع سنين.

هكذا كان جورج منذ صغره، وإنني سأدون له الكثير -بإذن الله- وكنا نقول له الحاج طوشة، وطالع لعمه خليل جندرمة وليس لأبيه، حماه الله من كل شر ... وإن الله يهدي من يشاء.

وتاجران و٥ موظفون من رؤساء الحكومة. ويكون رئيس المجلس من خارج فلسطين وليس من حقه التعرض لمناقشة الانتداب والوطن القومي، إنما له الحق في إبداء آراء بصدد الهجرة اليهودية، على ألا يكون من واجب المندوب السامي التقيد بتلك الآراء، وأن للمندوب الحق بالإطلاع على مقررات المجلس والموافقة عليها أو رفضها، وحق وضع قانون دون استشارة المجلس المذكور!

وهكذا رفض اليهود هذا المشروع فور إعلانه من مرة. والجدير بالذكر أن العرب قبلوه وطلبوا إدخال بعض التعديلات عليه، فطرح المشروع على مجلس اللوردات لبحثه (وكان وزيرها حينذ المستر توماس)، فقرر المجلس بتاريخ ٢٦ شباط سنة ١٩٣٦ رفضه بالأكثرية الساحقة، وكذلك رفضه مجلس العموم بتاريخ ١٤ مارس سنة ١٩٣٦.

بناءً عليه، بلغ المندوب السامي لفلسطين الأهالي، وخاصة العرب منهم، بأن الأمر قد خرج من يده وطلب منهم إرسال وفد إلى بريطانيا، وهكذا قبل إرسال الوفد وبدأت ثورة سنة ١٩٣٦.

الإضراب سنة ١٩٣٦ في طول البلاد وعرضها

كل من تفهم مشكلة فلسطين لا ينكر أن يعترف بأن العرب من مسلمين ومسيحيين لم يتوانوا ولم يهملوا جهادهم المقدس طيلة المدة التي حكمت بريطانيا فيها فلسطين بموجب الانتداب، اعتبارا من الاحتلال البريطاني لغاية ١٥ أيار سنة ١٩٤٨، عندما انتهى الانتداب فقد ثابروا على الوقوف بالمرصاد ليس للصهاينة فحسب، بل لحكومة الانتداب وجيشها رغماً عن ضعفهم وعدم وجود الأسلحة الكافية للصمود في وجه الأعداء، ورغما عن عدم وجود من يساعدهم، وقد كان إضراب سنة ١٩٣٦ الكبير الذي لم يسبق له مثيل في العالم بأسره، وهو أكثر من ستة شهور، دليلاً قاطعاً وأحد البراهين القوية التي تدل على بطولة العرب وصدق وطنيتهم. وقد اعترف وزير المستعمرات البريطاني المستر توماس بتاريخ ٢٣ نيسان سنة ١٩٣٦ بأن اليهود هم الذين بدأوا بالعدوان في تل أبيب على العرب المسالمين، وأهل البلاد الأساسيين. إن كل ما عمله العرب أنهم احتجوا رسمياً على الهجرة اليهودية المتدفقة على البلاد بصورة مخيفة، ثم على بيع الأراضي لليهود.

وقد استمرت الثورة في أيام الإضراب، وأظهرت العرب بطولة فائقة، خصوصاً ضد الجيش البريطاني باعتباره السبب المباشر في خراب البلاد. كان رئيس المتطوعين ممن ساعدوا العرب من العراق وسورية ولبنان وشرقي الأردن فوزي القاوقجي، وأما القائد البريطاني فهو الجنرال رتشي، ثم تسلم الجيش من بعده إلى الجنرال ديل رئيس أركان حرب الجيوش البريطانية للإمبراطورية [. . .]، وبلغت القوات البريطانية في فلسطين بتاريخ شهر أيلول من تلك السنة أربع فرق؛ أي ما يعادل الاثنين وسبعين ألف جندي [. . .]، وكان على رأس الثوار الوطنيين القائد السيد عبد القادر الحسيني، ابن الزعيم الأكبر للبلاد ألا وهو المغفور له موسى كاظم باشا. وبإيعاز من دولة الانتداب البريطاني، حضر عميلها المشهور المعروف وهو نوري باشا السعيد من العراق للوساطة، ولكن بدون جدوى.

وفي ٧ أيلول من السنة ذاتها تقرر إيفاد اللجنة الملكية إلى فلسطين للتحقيق، فطالبت بوقف الثورة وحل الإضراب وفي الحادي عشر من شهر تشرين الأول سنة ١٩٣٦ عقدت اللجنة العربية العليا اجتماعها المشهور بالقدس، وإثر نداء الملوك

السعود، وعبد الله، وغازي، تقرر وقف الثورة وحل الإضراب، وكانت مدة الإضراب مائة وخمسة وسبعين يوماً. وأما الخسائر فكانت ٢٥٠٠ شهيد و٧٠٠٠ جريح و٨٠٠٠ قتيل من الأهالي، واعتقل حوالي ١٩٧٣ شخصاً. والجدير بالذكر أن كبار موظفي حكومة فلسطين للانتداب البريطاني العرب — من مسلمين ومسيحيين قدموا بتاريخ آب سنة ١٩٣٦ مذكرة شديدة اللهجة إلى الحكومة هددوا فيها بالانقطاع عن أعمالهم إذا ما استمرت الحكومة في سياستها المعوجة التي بواسطتها أصبحت البلاد على الهاوية وإليك المذكرة:

مذكرة كبار الموظفين سنة ١٩٣٦

يا صاحب الفخامة:

نحن أصحاب التواقيع موظفي العرب من الدرجة الأولى في الخدمة، نشعر بأن الواجب يحتم علينا أن نعرض الأمور الآتية على فخامتكم:

بالإضافة إلى واجباتنا العامة كموظفي حكومة يقع على عاتقنا واجب خاص بصفة كوننا موظفين عرباً، هو أن نكون صلة الوصل بين الحكومة والشعب العربي الذي نتصل به بطبيعة الحال — اتصالاً وثيقاً، وأن توضع للشعب أعمال الحكومة على حقيقتها، وأن تبين للحكومة شعور الشعب العربي واحتياجاته. لقد كنا ندرك دائماً أن هذه الناحية من واجباتنا هي ناحية أساسية لا سيما لفقدان الهيئات التمثيلية في البلاد، وقد كنا وما زلنا عند ذلك الاعتبار نفسه، ولهذا نتقدم في كثير من الاحترام بعرض ما يلي:

١. السبب الحقيقي للتذمر هو أن الشعب العربي بكامل طبقاته وطوائفه يشعر شعوراً عميقاً بأنه مظلوم، وأنه لم يلتفت في الماضي الالتفاتات الكافية إلى شكاويه المشروعة رغم ما أجراه فيها من تحقيقات محققون رسميون نزيهون من أصحاب الخبرة، فأقروا بصحتها إلى حد كبير، ونتج عن ذلك أن تولدت في العرب حالة أشبه باليأس، وليست حالة القلق الحاضرة في الواقع سوى تعبير عن ذلك اليأس.

٢. لا بد لنا من تقرير الواقع وهو أن شعور اليأس هذا يرجع سببه الأكبر إلى فقدان ثقة العرب بقيمة الوعود والتأكيدات التي قطعت لهم، وإلى ما أصابهم من ذعر حقيقي بسبب إذعان حكومة جلالته للضغط الصهيوني من حين لآخر، والحق أن ثقتهم تزعزعت بشدة سنة١٩٣١ حينما أصدر رئيس الوزارة البريطانية كتابه إلى الدكتور وايزمن تفسيراً للكتاب الأبيض الصادر سنة ١٩٣٠، وحديثاً عندما هوجم مشروعا المجلس — التشريعي وتحديد بيع الأراضي مهاجمة عنيفة في البرلمان البريطاني، ما حول عدم ثقتهم إلى يأس. وإنا لنخدع الحكومة ونؤذي ضمائرنا إن أخفينا اعتقادنا بأن ما يشعر به العرب من تذمر هو شعور صادق له ما يبرره.

٣. لقد حاولنا منذ حدثت الاضطرابات — الحالية كل منا ضمن دائرة عمله، بأن نستعمل نفوذنا لترجع الأمور إلى حالها الطبيعي لا سيما بعد أن أعلن أن حكومة جلالته قد عزمت على إيفاد لجنة ملكية. ولقد تحملنا كثيراً من المشاق في

سبيل إقناع الشعب بأن رجوع الأمور إلى حالها الطبيعي هو شرط لتعيين اللجنة الملكية. ولكن جهودنا كلها ضاعت سدى، وكنا نواجه في كل مكان ارتياباً في إخلاص الحكومة فيما عرضت حتى لم تظفر في مساعينا لإعادة السلام بشيء سوى مقت الشعب وسوء ظنه، ولذلك فقد أصبح مستحيلاً بأن نؤدي واجبنا النافع كوسطاء بين الحكومة والشعب العربي.

٤. عندما نتأمل عمق وسعة الشعور الذي يجيش به نفوس العرب اليوم، يتبين لنا أن الحكومة على ما يظهر لا تدرك إدراكاً تاماً كل العوامل الداخلية التي ولدت الحالة الحاضرة، وحجتنا على هذا الذي قد يزعم أنه وهم هي أننا أشد اتصالاً بحقيقة آراء الشعب من غيرنا حتى أقرب مستشاري فخامتك إليك. ونحن نعتقد بصورة خاصة أن ناحية أساسية من نواحي هذا التذمر قد تغاضت عنها الحكومة، ذلك هو الإدراك بأنه لا يمكن قتل الشعور بالقوة، ولا شك أن لدى الحكومة من شتى الوسائل ما يمكنها من إخماد حركة التمرد الحالي على مدار الأيام. ولكن الشعور سيظل ويظل دائماً مصدر اضطراب وقلق. وإذاً فستفشل القوة حتماً في إخماد الشعور، والسبيل الوحيد إلى إزالته هو إزالة العوامل التي ولدته، ولكن لم يقم دليل واحد بعد على أن الحكومة قد أدركت هذا الاتجاه القديم.

٥. حقاً إن الحكومة قد أعلنت بأن لجنة ملكية ستعين للتحقيق في المظالم، ووضع التواصي بيد أنها لا تعنى الآن بالسياسة العليا وإنما تعنى بالحالة الراهنة التي تزهق فيها أرواح وتتلف أموال كل يوم. فإعلان اللجنة الملكية لم يزل القلق، وذلك على التحقيق لفقدان الثقة كما أشرنا سابقاً. وإذاً، فالذي نطلب الآن هو القيام بعمل يعيد إلى نفوس العرب الثقة التي فقدوها وينهي المأزق الحاضر. وإنا نعتقد باعتبارنا موظفين يدركون واجبهم المزدوج وهو الحكومة والبلاد جميعاً دون تعرض لفئة ما - أن الحكومة نفسها هي التي يجب أن تبدأ في الظروف الحاضرة في حل العقدة، وأن عملها هذا ينبغي أن يجري بأسرع ما يمكن.

٦. إن المأزق في وضعه الحالي يرجع إلى المهاجرة، وبكلمة أخرى إن الاختيار بين العودة حالاً إلى الحالات الطبيعية وبين استمرار الاضطرابات وسفك الدماء استمراراً دائماً لا يعتمد على سياسة ما، أو مبدأ ما، وإنما يعتمد اعتماداً تاماً على ما يتخذ من تدابير آنية يعني البت في أمر الهجرة أتوقف أم لا؟ ولعلنا لا نكون مسرفين إذا أشرنا إلى أن أول المسائل التي ستواجه عند التحقيقات المقترحة هي مسألة المهاجرة.

٧. يضاف إلى ما تقدم أن هنالك سوابق مهمة لمثل هذا الإيقاف المطلوب، وذلك أن الهجرة قد وقفت قبل التحقيق في اضطرابات سنة ١٩٣١، ولم توقف المهاجرة فحسب، وإنما سحبت أيضاً شهادات المهاجرة التي كانت أصدرت فيها.

٨. ولسنا نتردد الآن بعدما أجرينا من بحث عميق مريح للضمير في أن نوصي بإيقاف الهجرة باعتباره الحل الوحيد العادل الشريف للخروج من المأزق الحاضر.

٩. تعلم أنه قد يحتج بأن هيبة الحكومة في خطر، وأنه لا يمكن أن تذعن للعنف دون أن تخسر هيبتها، وقد كنا نقصد هذه الحجة لو أنا لا نعتقد أن الحكومة نفسها تعتبر مسؤولة إلى حد ما عن هذه النفسية التي أنتجت العنف. إنا نعتقد

بداهة أن النظام والسلطان أساس كل حكومة فاضلة . ولكن السلطان يفي بتأمين العدل للجميع ، وحينما لا يجري العدل أو تتزعزع الثقة ينهار السلطان ، ويكون من الخطأ في إدراك حقيقة الهيبة أن يتوهم إمكان إعادته بالقوة . وفي حالة إيقاف الهجرة تكون الحكومة قد ربحت بكونها أوجدت حلاً موفقاً فضلاً عن أن هيبتها وسلطانها لا يخسران شيئاً .

١٠ . وإنا لنثق أن فخامتكم لا تسيئون فهم العوامل التي أهابت بنا إلى تقديم هذه المذكرة ، فهي عوامل من وحي ضمائرنا قبل كل شيء ، ففي هذه الأسابيع المؤلمة ، إذ كان أبناء وطننا ، وربما أقاربنا أيضاً ، يفقدون حياتهم يوماً فيوماً ، كنا نبذل كل جهد في تذكر واجباتنا كموظفين نشعر أن ضمائرنا توحي إلينا أن نحتج على سياسة العنف التي تسلكها الحكومة على الرغم من وجود وسائل شريفة تؤدي فوراً إلى هذا الشقاق وما يتولد عنه من سفك دماء وآلام تزداد يوما بعد يوم .

١١ . نقدم هذه المذكرة في نسخ أربع كي ترفع حالاً إلى وزير المستعمرات ، وبالنظر إلى خطورة الحالة ومركزنا الحرج نرجو أن تبرقوا فخامتكم محتوياتها إلى الوزير ، وأن تتفضلوا بتبليغنا الجواب بأسرع ما يمكن .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

التواقيع

ملاحظة : إن فخامة المندوب السامي الذي وقعت إليه هذه المذكرة هو ماكمايكل .

لم يترك عرب فلسطين مناسبة إلا واستغلوها للخلاص من وعد بلفور المشؤوم ، فعندما تأكدوا بأن الأتراك إثر ثورة مصطفى كمال أتاتورك الذي قضى فيها على الملكية ، وانتهت الحرب التركية اليونانية عقد مؤتمر دولي في لوزان ٢٣ سنة ١٩٢٢ ، اعتبر الأتراك الأراضي العربية التي سلخت عن الدولة العثمانية ما زالت تابعة لتركيا بما فيها فلسطين ، وهكذا قام وفد إلى لوزان مؤلف من المغفور لهم موسى كاظم باشا الحسيني رئيساً ، ووديع البستاني وأمين التميمي عضوين ، فزار أنقرة وحاول إقناع حكومتها بتأييد مطالب العرب ، وقد خدم هذا الوفد القضية ، ولما عاد إلى فلسطين جرت له استقبالات رائعة في البلاد أعرب الشعب فيها عن تقديره . كنت ومحمد عارف القسطنطيني وسليمان الوعري في ساحة باب العامود وشاهدنا المظاهرة الشعبية الضخمة التي سارت من المحطة إلى المدينة تهتف بحياة فلسطين العربية ، إلا أن مدير البوليس -آنذاك- المستر كونيلي غضب وحاول تفريق المظاهرة ، ولكن لم يتمكن فانقض ورجاله الإنكليز من جنود وبوليس بإطلاق النار على الشعب ، فوقع ٣٣ شخصاً مصابين بجروح بالغة ، و٢٠ آخرين بجراحات خفيفة .

وعندما دخلنا في إضراب سنة ١٩٣٦ قامت مظاهرات في القدس وحيفا ويافا ونابلس ، ووقعت اصطدامات بينهم وبين اليهود والبوليس ، وعندما تجددت الاعتداءات اليهودية على منطقة حدود يافا وكان ١٩ نيسان ثم الإضراب في جميع المدن معلنين احتجاجهم كما جاء أعلاه ، وشعر العرب بأنهم أمام معركة حياة أو موت مع الاستعمار ، ولما تلكأت الأحزاب عن



هارولد ماكمايكل في حديقة منزله في القدس. تصوير اريك ماتسون

اتخاذ موقف معين من الحوادث وقوة الجيش ، أصبحت أربع فرق كما جاء سابقاً تألفت في ٢٥ نيسان سنة ١٩٣٦ اللجنة العربية العليا من عشرة أشخاص يمثلون جميع الأحزاب وهم :

السادة أمين الحسيني رئيساً ، والفريد روك ، والدكتور حسين فخري الخالدي ، ومحمد يعقوب الغصين ، وحلمي باشا ، وراغب النشاشيبي ، ويعقوب فراج ، وعبد اللطيف صلاح ، وجمال الحسيني ، وعوني عبد الهادي ، وضم إليها فيما بعد السادة : محمد عزت دروزة ، وفؤاد سابا .

وهكذا استمر الإضراب وشكلت دوائر خاصة للقيام بالأعمال الضرورية والإدارية والسياسية ، وأرسلت عدة وفود إلى الأقطار العربية وإنكلترا من مسلمين ومسيحيين . وكان وفد لندن مؤلف من السادة : جمال الحسيني ، وشبلي جمل ، وعزت طنوس ، وإميل الغوري . ولكن حكومة الانتداب استمرت في غيها ، وهكذا أعلن المندوب السامي في حزيران من تلك السنة السماح بإدخال ٤٥٠٠ مهاجر يهودي إلى فلسطين ، فقام العرب بمظاهرات الاحتجاج وتنادى الشباب بالجهاد تحت قيادة عبد القادر الحسيني ، وأعلنوا الثورة المقدسة وتجنبوا الاصطدام باليهود لأن الهدف الوحيد كان ضد الإنكليز ، فقد نسفوا طرق المواصلات والسكك الحديدية ، وقطعوا أسلاك البرق والهاتف ، وقتل كبار الموظفين من الإنكليز ، واغتيال الجواسيس والسماسرة وباعة الأرض من العرب . إني أحتفظ برسوم [المقصود صور فوتوغرافية] عديدة للوفود المذكورة أسماؤهم أعلاه ، بالإضافة إلى طائفة من رسوم الثورة والإضراب لسنة ١٩٣٦ ضمن المجموعة الجوهرية للذكرى . وفي ٧ أيلول سنة ١٩٣٦ ، أعلن وزير المستعمرات عزم الحكومة على إيفاد (لجنة ملكية) للتحقيق وتقديم التوصيات اللازمة ، ودعا العرب إلى الإخلاد للهدوء والسكينة ، وألقت الطائرات البريطانية على معاقل المجاهدين منشورات تدعوهم فيها إلى وقف الثورة ، وقالت أن رجال هذه اللجنة مؤلفة من رجال غير متأثرين بشيء .

في هذه السنة [أي ١٩٣٦] كانت دائرة حاكم لواء القدس التي تضم دائرة الإيرادات التي كنت أشغل فيها منصب مدير مال القدس في مستشفى دير الروم الواقع على طريق بطريركية اللاتين داخل السور . عندما ابتدأت الثورة والإضراب الشامل لم تكن حكومة الانتداب على استعداد كاف ، الأمر الذي كنت أجهله ، فقد كنت ألاحظ بأن المستر أندروز وبواسطة رئيس الكتبة -آنذاك- الأخ متيا مروم [كلفاني] بإيجار بعض من عرب السواحرة لنقل أمتعة وأسلحة لعدد صغير من الجيش والبوليس ، فكنت أرجو [هكذا في النص الأصلي] صديقنا يعقوب أبو حجر ؛ أي العم أبو مترى الذي كان يعتبر جاراً وفياً لدائرة الحاكم .

المستر آندروز والكيناري لعيد زوجته

كان المستر آندروز مستقلاً بإدارة حاكم القدس سنة ١٩٣٦ ، وهو -ولا شك- من رجالات الإنكليز الذين يعرفون الشرق والعرب وعادات العرب ، حتى أنه كان يجيد اللغة العربية ويتكلمها بطلاقة فائقة وبلغة عالية ، وكان شديد الكره إلى العرب ومتحيزاً لليهودية ، على ما أعلم . ولكن ما العمل فهو الحاكم الأعلى وبيده الأمور السياسية .

وقد صادف أن جاء عيد الميلاد السعيد لزوجته المصون ، وأراد أن يهديها كناراً [عصفور الكاري] في يوم العيد . ومن يقوم بهذا العمل سوى واصف جوهرية ، فعندما كلفني الأخ متيا مروم بهذه المهمة تمت في الحال ، ونفذتها فجاء الرجل المختص بشراء وبيع الكنارات واسمه حسونة من أهل القدس المعروفين بالنخوة وخفة اليد . جاء ومعه الكنار الممتاز ذو اللون الأصفر داخل قفص مزركش جميل . بلغت متيا بأن يعلم سعادة الحاكم لمشاهدة العصفور . جاء الحاكم ولم يكن يعرفني من قبل ، ولما رأى العصفور أعجب به ثم قال لحسونة "بيغني هذا العصفور؟" أجاب حسونة نعم يا سيدي بيغني . ولكن الحاكم أراد التهكم فأضاف قائلا ماذا يغني "وين محمد قام بالسيف؟ ! !" قال هذا وعيناه تنظر إلى حسونة بازدراء ثم التفت إلي وإلى متيا وابتسم . فعندها قلت في نفسي أنه يحتاج إلى جواب جوهري خصوصاً عندما وجدت أن حسونة تخوف من الإجابة فبادرت قائلا : [يا سعادة الحاكم بيغني يا عزيز عيني أنا بدي أروح بلدي ! !] فسكت وفي نفسه غصة ، فقال لي هل يمكنك الاحتفاظ به وتغذيه ؛ أي أغذي العصفور إلى صبيحة يوم عيد زوجتي؟ أجبته بكل سرور وسأسقيه كاساً من العرق ! ورجع إلى غرفته وهو يحلق وينغرس في وجهي إلى أن أخبرني الأخ متيا مروم فيما بعد بأن الحاكم سأله عني كثيراً . . . والعلم عند الله .

والجدير بالذكر بأمر أندروز أن الثوار اغتالوه في الناصرة بتاريخ ٢٩ أيلول سنة ١٩٣٧ لأنه كان من مؤيدي فكرة التقسيم وضد عرب فلسطين عندما عين حاكماً في الشمال ، وقد توفقت فحصلت على مستند موقع بإمضائه من صبيحة يوم اغتياله بالذات ، فقد عرج على المكتب فوقع المستند المذكور ، وذهب إلى الكنيسة للصلاة فاغتاله الثوار .

قرار اللجنة الملكية سنة ١٩٣٧

(عزل المفتي وإفلاته من الحكومة الاعتقال إلى سيشل للأعضاء ورجالات البلاد)

كما سبق لنا بأننا قلنا إن اللجنة الملكية جاءت برئاسة اللورد بيل ، وقد أوقفت العرب الثورة وانتهى الإضراب الذي استمر ما يقرب من ستة شهور . وبعدما وقفت على جميع تفصيلات القضية الفلسطينية منذ الاحتلال البريطاني لنهاية سنة ١٩٣٦ من حيث المعارف والأراضي والإدارة والسياسة والتحيز و . . . و . . . الخ ، أوصت هذه اللجنة في تقريرها الصادر في ٧ تموز سنة ١٩٣٧ بتقسيم فلسطين وتأسيس دولة يهودية فيها وضم الأراضي المخصصة للعرب إلى الإمارة شرق الأردن تحت إدارة الأمير عبد الله بن الحسين . وقد أعلنت الحكومة البريطانية قبولها التقسيم وعزمها على تنفيذه .

وبعدما اتصل أهالي البلاد من مسلمين ومسيحيين تحت رئاسة الحاج أمين بعدما اتصلت مع ملوك ورؤساء العرب رفض رفضاً باتاً بالإجماع باستثناء الأمير عبد الله بن الحسين . . وهكذا أخذ الفلسطينيون يعيدون تنظيم صفوفهم لمقاومة الخطر الصهيوني الاستعماري الجديد وأرسلت الوفود ثانية إلى لندن ، ولكن الحكومة البريطانية صممت على تنفيذ التقسيم مهما كلفها الأمر ، واتخذت إجراءات قاسية ضد العرب وحاولت اعتقال المفتي الأكبر في تموز سنة ١٩٣٧ ، فالتجأ إلى الحرم واحتمى في بيت الله . . . ولكن الحكومة اعتقلت أعضاء اللجنة القومية في القدس ، وفرضت أنظمة الطوارئ والقوانين

الاستثنائية على العرب وعقد مؤتمر عربي عام في بلودان سوريا بتاريخ أيلول سنة ١٩٣٧، حضره ممثلون من جميع الأقطار العربية وقرر بالإجماع رفض التقسيم.

وبعد اغتيال المستر أندروز حاكم الناصرة في الناصرة، وجدت الحكومة في هذا الحادث حجة تتذرع بها للبطش بعرب فلسطين، فاتهمتهم باغتياله، فحلت اللجنة العربية العليا، واعتقلت من استطاعت من أعضائها وأبعدتهم إلى جزيرة سيشل، ثم حلت اللجان القومية، ثم أمرت بعزل سماحة المفتي من منصبه الديني كرئيس للمجلس الإسلامي الأعلى، ووضعت يدها على تلك المؤسسات الدينية، فعينت المستر كركبرايد الإنكليزي رئيساً لها، وعندما حاصرت المسجد الأقصى محاولة اعتقال المفتي الأكبر تمكن من الإفلات من أذى الاستعمار، وغادر القدس سراً في ١٣ تشرين الأول سنة ١٩٣٧ ولجأ إلى لبنان.

انتقال دائرة حاكم القدس إلى خارج السور

إثر ثورة سنة ١٩٣٦ والإضراب الذي شل العمود الفقري في إدارة حكومة الانتداب، ولما كانت السرايا في مستشفى دير الروم السابق داخل السور طريق البطريركية للاتين، لم يجرؤ اليهود من مراجعين ومكلفين وحولنا في هذه الدائرة خوفاً من العرب، وهكذا تقرر نقل الدوائر إلى شارع يافا، أي في منتصف حدود العرب واليهود بالقدس. أصبحت الدائرة الجديدة من أملاك الروس المقامة على المنعطف المؤدي إلى أملاك عمائيل التي كانت دائرة السفر والمهاجرة وبقربها دائرة الأشغال تشغل هذه العمارات، بالإضافة إلى أملاك الروس العديدة المقامة في ذلك الحي.

وقد خلفت دائرة الحاكم القديمة لنا ذكريات جميلة قضينا فيها وقتاً بمنتهى الطيبة خصوصاً زمن إضراب سنة ١٩٣٦ فكنا ولعدم استطاعة اليهود من مراجعة شؤونهم خف العمل، وهكذا كنا نقضي أوقاتاً مع الأصدقاء داخل مقهى الأخ عيسى الطبة مختار طائفة الروم الأرثوذكس اتجاه دائرة الحاكم مباشرة تقريباً. وهناك على الأريكة كنا نبحث مع الإخوان والأصدقاء بما وصلت إليه البلاد ... يتخلل بحثنا هذا الفكاهة والنكت البريئة ... مع الأخ أبي ميشيل إلى أن انتهى الإضراب. وقد أصبحنا في السرايا الجديدة وكأننا أغراب نذكر الأيام السابقة بحسرة.

دار الإذاعة الفلسطينية هنا القدس

كان افتتاح دار الإذاعة بالقدس بتاريخ [...][1] من سنة ١٩٣٦، وقد ضمت الكثيرين من هواة الفن من أمثال: إبراهيم عبد العال، ومحمد عيطة، واسكندر الفلاس، وبنيامين [...][2]، ويحيى السعودي، وجليل ركب، ورامز الزاغة، وكاظم الساسي، وفهد نجار، وميلاد فرح، وتوفيق جوهرية، وروحي الخماش من نابلس، وآرتين سانتورجي، وباسيل ثروت، وعبد الكريم أمير البزق.

[1] ناقص في الأصل.

[2] ناقص في الأصل.

ترأس القسم الفني العربي المرحوم يحيى اللبابيدي والشاعر الموهوب إبراهيم طوقان، ثم جيء بالمرحوم جميل عويس عازف الكمان، وحاول تعليم العازفين من هؤلاء الهواة حسب النوتة الغربية، وقد نجح نوعاً ما إلى أن حضر عازف البيانو المعروف يوسف بتروني، وله الفضل في تنظيم الفرقة الموسيقية.

والجدير بالذكر بأن الأستاذ عزوري اليهودي العراقي الموسيقار المشهور كان من الأوائل في الإذاعة، ولكن بالنظر لعدم انسجام العرب واليهود سياسياً، فقد اضطرت الحكومة على فصل كل فئة على حدة فأصبح العرب يقومون بالعزف والغناء وحدهم، وكذلك اليهود، ونظراً لمقدرة الأستاذ عزوري وحفظه الموسيقى العربية وهو من أصل عراقي، ومثل العراق في المؤتمر الموسيقي العربي الذي عقد سنة ١٩٣١في القاهرة، حاول بأن يبتكر فكرة جديدة، ولكنها خبيثة فكان يضع الكلام العبري على ذات اللحن العربي الأصيل في الموشحات الأندلسية ... ولكن عمله فشل في النهاية وكان سخرية لدى الفنانين.

وقد صادف وجود فرقة المطرب الشهير الشيخ أمين حسنين -آنذاك- بالقدس، وكانت ترأس الافتتاح عزفاً وغناء، وبالفعل، وبواسطتي، بقي الشيخ حسنين يشتغل بفنه في الإذاعة مدة طويلة، وكان أخوه ينشد بعض المونولوجات والديالوجات، ولكنهما تركا ورجعا للقاهرة، وبقي على ما أذكر من الفرقة الأخ عبد الكريم أمير البزق، فأبدع وأجاد، ولا شك بأنه موهوب ويعتبر حقاً أمير هذه الآلة الشرقية النادرة.

أما إبراهيم عبد العال عازف القانون الممتاز فقد [كان] صديقي وفهمت بأن زوجته هي ابنة صديقي وأخي عمر البطش من مدينة حلب، هذا الموسيقار الفذ الذي علمني الموشحات الأندلسية عندما كنت في السادسة عشرة من عمري، فأخذت عنه طائفة كبيرة من التواشيح، وهذه التواشيح التي كانت تنشد وتغنى حتى في الإذاعة بالقدس نقلها أخي توفيق للإخوان هناك، وقد كتبت الكثير عن عمر البطش في فصل زمن الحرب العظمى الأولى من هذا الكتاب، وأن عازف الكمان الأستاذ عبود هو ابن إبراهيم عبد العال ومن أصدقائي القدماء. وعلى ذكر الأستاذ إبراهيم عبد العال فقد علم ولدي جورج العزف على القانون، ونجح على يده، ثم علمه صديقي الأستاذ عبد الفتاح منسي فزاد نجاحاً، ولكنه ولسوء حظنا تركنا القدس سنة ١٩٤٨، ولم يكن ولدنا جورج تعلم العزف على القانون.

هذا بالإضافة إلى الأستاذ محمد عطية عازف القانون المصري الذي أبدع في القدس، وكان لا ينقطع عن زيارتنا في مناسبات عديدة في المجموعة الجوهرية. أما الأخ يحيى السعودي، فإنه -ولا شك- شاب موهوب، قد أخذ الفن هواية على كبر، فكان من أشهر صانعي الأحذية بالقدس، ولكن عذوبة صوته وميله الفطري جعلاه يترك الصنعة، ويختص بالفن، فتعلم العزف على العود وأتقنه ولمع اسمه بمدة قصيرة إلى أن أصبح رئيس فرقة الموسيقى الوترية في الإذاعة. والفضل يرجع إليه في نجاح عازف الكمان جليل ركب، وعازف العود رامز الزاعة، وضابط الإيقاع باسيل ثروت، وخصوصا عازف العود اسكندر الفلاس.



فرقة موسيقى محطة اذاعة فلسطين "هنا القدس" سنة ١٩٣٦، من المجموعة الجوهرية.

أخي توفيق فنان في جميع ضروب الفن، وأخصها الرسم والعزف على الناي، وإني أقولها صراحة إنه ولأول مرة في حياته اشتغل براتب شهري، وهو عازف الناي في الإذاعة فأبدع وأجاد، وكان عمله حباً للموسيقى، ووجود زملاء له من رؤساء ومرؤوسين يقدرونه ويحبونه، وإلا لما كان يتحمل الحكم مطلقاً . . . وليس له جلد على الوظيفة.

وإني أقول بأن الأخ كاظم السباسي حقاً عنده صوت رخيم وحنون، ويمكنه إتقان اللحن، ولكنه طائش في حياته، فإذا ما غنى يتبين للمستمع إليه بأنه نسي بعض الكلام من المقطوعة التي هو ينشدها، وليس له جلد على صرف مجهوده بحفظها كما يجب بالنسبة إلى طيشه . . . سامحه الله. إني أقول ذلك احتراماً للفن ليس إلا، فقد كتبت سابقاً أن كاظم هو من عائلة فنية؛ فعمه محمد أفندي السباسي الذي سطع اسمه واشتهر في الغناء بالقدس عشرات السنين كهاو قدير، وكذلك يرجع فنه إلى المرحوم والده موسى السباسي، وكنت أعرفه في آخر حياته، فكان ضابط الإيقاع ومعروفاً بموسى الآلاتي وصديقاً للمرحوم والدي.

كان وجود دار الإذاعة الفلسطينية بالقدس نعمة جزيلة، فقد أصبحت القدس محجة للفنانين من الأقطار العربية وبواسطة الإذاعة تعرفت على:

السيدة آمال حسين وزوجها المؤلف، وكانا يزوران المجموعة الجوهرية ونتبادل معهما الفن. وكان المرحوم جميل عويس لن ينقطع عن زيارتنا، وخصوصاً يوسف بتروني الذي له فضل كبير في تعليم ابنتي يسرى النوتة والعزف على البيانو، وتشجيعها على عزف المقطوعات العربية التي تعزف عادة على البيانو والخالية من الربع. كما أني أذكر فاضل الشوا شفيق أمير الكمان سامي الشوا وغيرهم من كانوا بحكم الفن يأتون إلى الإذاعة، وهكذا لا يمكن لأحد من هؤلاء إلا ويزور المجموعة الجوهرية التي أصبحت بكلمة مختصرة شعبة خاصة للإذاعة، فكم وكم من الليالي وحتى أوقات النهار كان بيتنا يضم الفنانين جميعهم من الموظفين في الإذاعة وزائريها الغرباء. وإني سأكتب عن أشخاص عديدين الذين تعرفت عليهم بواسطة الإذاعة في فصول لاحقه بإذن الله.

قبل فتوح دار الإذاعة بالقدس، كانت فكرة تدور بأن أكون أنا بصفتي خبيراً بالموسيقى العربية ومن أبناء القدس رئيساً للقسم الفني فيها، وقد طلب بالفعل مني ذلك بواسطة حاكم القدس المستر كيث روتش قبل تركه القدس في سهرة خاصة كانت في بيت السيد إحسان هاشم، شريطة أن تنقل الوظيفة الحكومية من دائرة الحاكم إلى الإذاعة، ولكن لأسباب خاصة رفضت وفضلت البقاء في الإدارة وعدم الدخول في الفن كمحترف، بل صممت بأن أتخذ الفن ديناً لوجه الفن ليس إلا، وكما اعتدت على هذه الطريقة منذ نشأتي.

ولم أتراجع حتى أن اسمي كتب علناً رسمياً في الجريدة الرسمية لكي أكون من الفنانين في أول يوم افتتاح الإذاعة، ولكني اعتذرت ولم أقبل مطلقاً ولله في خلقه شؤون. لم أندم على رفضي منصب الإذاعة، وإني أدون هذا الحادث للقارئ الكريم أثبت فيه أن الفنان الحقيقي عند تسخير فنه خصوصاً في الشرق للعيش خسر قيمته الفنية، وهذا بنظري أصبح كصنعة وليس فناً صحيحاً . . . فقد جاءني مرة الأخ كاظم السباسي وبيده مضبطة على بعض التواقيع من شخصيات معروفه

بالقدس تطلب فيها من إدارة الإذاعة بأن تسمح للأخ كاظم أن يدفع أكثر من مرة في الأسبوع، لأن أغانيه محببة لديهم، وطلب مني توقيع هذه المضبطة بصفتي خبيراً معروفاً في هذا الموضوع! ! فتأملت جلياً في عمل كهذا وقلت في نفسي والله عال "أهكذا يحتاج الفنان لطرق أبواب رزقه عندما يتخذ فنه حرفة؟ ! إذاً، قاتل الله الفن عندما ينزل إلى هذا المستوى بالمرء.

لم تنقطع الإذاعة في كل المناسبات عن أخذ اقتراحاتي في كثير من المعلومات الفنية، وبعد ما ترأس الإذاعة الأخ عزمي النشاشيبي كان يلقبني "بالفنان المتقاعد"، وبواسطة الأخ روحي الخماش كنت أدون ما ألحنه من تلاحين بالنوتة الغربية في البيت، وهذا بدوره ينقلها إلى دار الإذاعة فتذاع منها من قبل بعض المطربين مقابل بعض الجنيهات لكل تلحين... ليس إلا.

وعلى ذكر الأخ روحي الخماش، فإنه اعترف بأنه من ألمع الشبان الذين عرفتهم مقدرة وفناً، فقد تعلم في مصر على يد الحريري، فحفظ التواشيح وإيقاعها، ونجح بالعزف على آلة العود بموجب النوتة الغربية، وهو مطلع على الطريقة القديمة للموسيقى العربية من حيث السلم والمقامات والإيقاع، والجدير بالذكر أن هذا الفنان هو نادر في حسن الخلق، فقد كان يقضي الساعات الطوال إلى ما بعد منتصف الليل يعزف ويغني على عوده، ويطرب الحضور الذين يكونون على جانب من الحظ سكارى، وهو لا يعرف طعم الخمرة.

وهذه تسجل لروحي الخماش بمداد الفخر والإعجاب، فأكثر الله من أمثاله. لم أنسَ الليالي التي كانت تقضى في دار المجموعة الجوهرية بالقدس من قبل الإخوان موظفي الإذاعة من إداريين وفنانين، فكان المرحوم جميل عويس ويحيى اللبابيدي والمأسوف عليه الشاعر الملهم إبراهيم طوقان وفرقة الإذاعة الوترية تعتبر المجموعة الجوهرية دار إذاعة ثانية، فكانوا يحضرون بدون كلفة مصحوبين بأي فنان غريب زار القدس للإذاعة، وإني أذكر أن الأخ جميل عويس قدم لي عصا المغفور له السيد درويش سيد الموسيقى الشرقية على الإطلاق، فكان يتكأ عليها عندما كان صديقاً حميماً له في القاهرة، وقد قبلتها وشكرته واعتززت بها، ووضعتها على الجدار تحت رسم السيد درويش، فلفتت أنظار كل من شاهدها بإعجاب ودهشة.

ولن أنسى عيد مولد ولدنا جورج في الثالث من شهر تشرين الثاني، فقد حضر توفيق ومعه فنانو الإذاعة بكاملهم، خصوصاً أولاد عازف القانون الأستاذ [...][1] يلبسون اللباس القومي، أحدهم يعزف على الكمان، والآخر يعزف على القانون... وكانت ليلة طرب وأنس تجلى فيها الحظ إلى ما بعد منتصف الليل. كانت هذه الليلة في خريف من سنة ١٩٣٨... فسقيا لتلك الأيام ما كان أطيبها!

[1] ناقص في الأصل.

المعرض القومي الحكومي بالقدس

تشكلت لجنة خاصة من بعض موظفي حكومة الانتداب من الدرجة الأولى، وبعض شخصيات من الأهالي لجمع جميع ما يمت إلى فلسطين في المدن والقرى بصلة، لكي تبين للناظر حياة ومعيشة الأهالي زمن الحكم العثماني، وشرعت بجميع ما أمكن بكل صعوبة إلى أن كلفني -آنذاك- المستر أدوين صموئيل بعدما أقنع الأعضاء من سيدات وسادة بأن الشخص الذي

ينفعنا في هذه المهمة هو واصف جوهرية، بعدما بين للأعضاء مجهودي الكبير بما جمعته في بيتي، وعلى نطاق أوسع ودعيته باسم المجموعة الجوهرية نسبة لاسم العائلة، التي أصبحت محج الهواة من المواطنين والأغراب الذين يزورون القدس.

سرت على بركة الله، ورغما عن حالة البلاد السيئة سياسياً ما بين سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٣٩، كنت أتجول في زوايا بيت المقدس داخل السور وخارجه في البيوت والمخازن، وابتاع كل ما هو لازم في نظري للعرض من أثاث وفراش وأواني طهي وزراعة وآلات الصناعة وغيرها تظهر جلياً الحياة والعادات القديمة في البلاد، وكنت ألمس رضا جميع أعضاء الجمعية، فكانوا يثنون على ذوقي السليم ويفوضوني بالمزيد، والأسعار التي كنت أقبلها يقبلونها بكل سرور وشكر.

كثير من الأوقات كان يرافقني الأخ متيا مروم، وأحياناً المستر أدوين صمونيل فيتعجب من معرفتي بالأهالي على اختلاف أجناسهم وأديانهم ومحبتهم لي، ومن زوايا القدس القديمة ومن مخازنها المهجورة كنت أبتاع ما أصبو إليه من:

- لوح الدراس الخشب وفيه الحجارة الصغيرة الصوانية لقطع الزرع والسنابل
- المحراث المزدوج والمفرد
- المنجل والفاس و[. . .][1]
- عدة النحاسين المؤلفة من عشرات الشواكيش والآلات النادرة التي كان يشتغل فيها النحاس، ويمده بأشكال مختلفة في ذلك الزمن.
- صناعة الأحذية الفلاحية القديمة بواسطة المدقة النحاسية، والجلد الحور، وجلد الجمل، والبقر، وكيف دبغه وعمله ثم الرسراس في جوزة الهند . . . الخ
- أواني بائع شراب السوس من الكاسات، وإناء السوس المزركش بالنحاس البراق والإبريق، ثم الطقم الجلدي الذي يلبسه بائع السوس كاملاً مع الكاسات التي تكون عادة في يد البائع، وهي اثنتين يضرب الواحدة على الأخرى بطريقة فنية إيقاعية تعلق للأهالي بوجود السوس وبائعه بدلاً من الجرس.
- ثم بائع الخروب، أي شراب الخروب والأكواب الخاصة البلورية، وكل ما يتعلق بهذا الشراب قديماً: البوظة بواسطة الطريقة القديمة، والبرميل الصغير وفيه الثلج يحط بإناء الحليب، والآلة التي يدار بها الثلج لتجميد الحليب حتى يصبح بوظة.
- آلات الطرب الشرقية، طبعاً قديماً، مؤلفة من المزهر، والرق، والنقارة، ثم العود، والقانون، والدربكة، والربابة، والناي القصب، والأرغول القصب المزدوج، والمفرد . . . الخ.

١ . خراجة العرق أو ماء الورد أو ماء الزهر، وكيف كانت تستعمل في المنازل.

٢ . المائدة المستديرة المعروفة بالسفرة على الأرض، والصحون النحاسية، والملاعق الخشبية في البيوت.

٣ . بعض اللباس القديم للنساء والرجال من مدن وقرى مختلفة.

٤ . القبقاب الشبراوي، ثم الصناديق ذات الألوان الزاهية للفلاحين، والصناديق المنزلة بالصدف والحفر النادر عند أهالي المدن.

[1] ناقص في الأصل.

٥ . آلات رش عجين الكنافة، ثم رش عجين القطايف.

٦ . جميع الآلات المختصة لعمل الشموع، وهي عظيمة ونادرة وتلفت الأنظار.

٧ . جرن الهاون، وجرن الثوم الحجري الصغير، وجرن الكبة، وجرن دق اللبن في ذلك الزمن، كثير من الآلات المختصة لصنع رحولة الدواب: الخيل، والبغال، والجمال، والحمير بأشكال غريبة، وأخصها الجمل، ثم الرشمة والشبد و[. . .][1] إلى كل ما يتعلق بالدواب والسفر في ذلك الزمن. ثم الأركيلة ومحتوياتها.

٨ . بكارج القهوة على اختلاف أنواعها مع الفناجين البدوية والظروف النحاسية أو الفضية ثم السماوار لعمل الشاي عند المدنيين، وهو روسي الأصل. البواطي، والهنابي الخشبية، وآلات الخياطة القديمة من مسلة، وإبر، . . . الخ.

كنت أضع هذه الأواني المشتراة في مدرسة الدباغة؛ أي مدرسة الألمان المعروفة بعمارة القدس يوحنا بجانب كنيسة الألمان تحت إشراف المرحوم مدام أنيسلر المعروفة بالقدس. ثم ولتخوف اللجنة وأعضائها والسياح من النزول إلى داخل السور نظراً للاضطرابات المتواصلة في البلاد -آنذاك- نقلنا جميع هذه الأشياء إلى غرفة واسعة الأرجاء داخل قلعة النبي داود باب الخليل.

كنت عينت عضو شرف في هذه اللجنة، وقد استقبلت في أوقات عديدة فخامة المندوب السامي وسكرتيره وكثيراً من سيداتهم، أشرح لهم عن هذه الأشياء. والجدير بالذكر أننا كنا نتلقى كثيراً من الأشياء القديمة (برسم العرض فقط من الأهالي)، وإني أذكر أن الأخ الكبير المربي السيد أحمد سامح الخالدي قدم لنا فستان جدته المزركش بالذهب المعروف بالصرمة صنع استانبول، فوضعته في خزانة خاصة وهو أمانة للأخ أحمد سامح الخالدي.

وقد زارني بتاريخ ١ تموز سنة ١٩٤٤ المستر أدوين صموئيل، وكتب لي في الكتاب الذهبي ما يلي:[2]

To WASSIF EFF. JOGARIAH:

who has given so much help to the PALESTINIAN folk museum

"from his friend & collegance.

Edwin Samuel

وقد سجلت جميع هذه التحف الأثرية في سجل خاص منظم باللغة الإنكليزية، وعائد للجمعية، وإني أقولها صراحة إنني لم أزل أحتفظ به؛ أي بهذا السجل، في بيتي ضمن المجموعة الجوهرية.

[1] ناقص في الأصل.

[2] أدوين صموئيل هو أدوين هربرت صموئيل، وقد خدم في الإدارتين العسكرية والانتدابية في فلسطين منذ نهاية الحرب العالمية الأولى، وتزوج من مستوطنة يهودية في فلسطين، وعلم في الجامعة العبرية في القدس. لمزيد من المعلومات عنه انظر مذكراته بعنوان:

A Life Time in Jerusalem (London: Vallenting Michell, 1970).

أحب أن أبين للقارئ الكريم الأسباب التي جعلتني أفكر جلياً بجمع كل ما يروق في نظري من التحف الفنية الأثرية، وخصوصاً ما يمت إلى مدينتي العزيزة والحبيبة القدس بصلة، ثم وبعد ما وفقت بعونه تعالى وجمعت طائفة كبيرة من النفائس النادرة التاريخية والأثرية تبين ما كانت أيدي العرب والشرق تصنع، فكرت بأن أجعل هذه المجموعة كمتحف قومي شعاره:

"تلك آثارنا تدل علينا فانظروا من بعدنا إلى الآثار"

آمل أن تكون المجموعة "الجوهرية" وذخائرها مرجعاً فنياً تاريخياً [. . .].[1] منذ حداثتي وأنا لي ميل فطري للموسيقى وإلى كل ما [يتماشى] مع الموسيقى من فنون، فإني أعشق الموسيقى وأصبحت من المعروفين ذوي الخبرة الواسعة في هذا الموضوع. وإني في الوقت نفسه أتذوق الشعر، وأنا لست بشاعر، وأنتقد الرسم عند اللزوم، وأنا لست بالرسام. ولكن لا عجب فالفنون هي عائلة، وقد كتب لي الأخ عمر الحسيني في الكتاب الذهبي التابع للمجموعة الجوهرية هذه الكلمة:

"إلى من يفتش عن الذوق الرفيع في جميع ضروب الفن فليقصد واصفاً، فإنه لا شك واجده"، أضف إلى ذلك بأن البيئة البيئة تزيد الموهوب علماً، فقد سبق وكتبت بأن المرحوم والدي كان له الفضل الأكبر في تعليمي الموسيقى، فكان يوجهني إلى الطريق القديم من حيث العزف على آلة الطرب والأداء وجودة اللحن، وهكذا كنت أشاهده مراراً عندما كان يطلع أصدقاءه على بعض وريقات من المخطوطات النادرة في الصالون، وقد ورثت منه بعض هذه الوريقات التي سأكتب عنها في الفصول القادمة كما أنه كان عنده قطعتان من الصيني يتباهى بهما، فينقل هذه الأواني عند مناسبة الأعياد في الصالون من محلها الأصلي لمحل آخر، وكانت بالفعل تجلب نظر الزائرين بالنسبة لقلتها، ثم المنقل النحاسي الإستانبولي، وبعض بكارج القهوة يعتز بها، وكذلك بعض الرسوم لشخصيات لها قيمتها يزين بها جدران الصالة وينقلها من محل إلى آخر، ما تزيد رونق البيت، كما أنه كان رحمه الله يعلق جلد أفعى ذات رأس وفيه الأسنان بصورة غريبة، أسنان أخرى في سقف حلق تلك الأفعى، التي طولها يبلغ أربعة أمتار تقريباً، وكانت موضع بحث الزائرين في مناسبات عديدة.

كنت أحملق بنظري بما يعرضه والدي على الزائرين من أصدقائه، ويشرح لهم عن كل منها وكنت أنظر وأسمع بشغف زائد.

وهكذا عندما تزوجت في أوائل سنة ١٩٢٤، أخذت جميع هذه التحف كذكرى من الوالد، وفي الوقت ذاته كنت أرتاح لرؤيتها وعرضها في الصالة، فكانت أساس المجموعة الجوهرية.

شاء القدر أن أحظى من المرحوم البطريرك ذميانوس على الدار في محلة النيكوفورية، وهي من أملاك وقف البطريركية الأرثوذكسية، هذه الدار المتواضعة قديمة البناء على النمط العربي، أي عقدها بما يعرف بالصليب اتخذتها لسكني وعائلتي، وصرفت عليها الكثير حتى أصبحت منزلاً محترماً في كل ما في هذه الكلمة من معنى، فكان بناؤها وحالتها الأثرية منارة لي شجعتني على اقتناء المفروشات التي تتناسب وهيكلها، فاشتريت مقاعد الصالون من صنع القاهرة المزركشة بالصدف القليل، ويدخلها ستائر صغيرة خشبية من صنع مخرطة الخشب القديمة على الرجل . . . وقد ابتكرت ستائر الشبابيك والنوافذ بطريقة فنية تتناسب أيضاً وبناء الدار، فقد وضعت بارودة من زمن إبراهيم باشا الطويلة ذات

[1] ناقص في الأصل.

الصوفان والصوانة (عوضاً عن خشبة البردايات المعروفة الآن)، ثم وضعت الزنار العجمي معلقاً على طول هذه البندقية (بدلاً من الستائر الحريرية [. . .][1])، فجاءت في منتهى الروعة والجمال. وقد زينت جدران القاعة برسوم أثرية وأناس أعزاء عليَّ؛ أمثال والدي والمرحوم حسين أفندي الحسيني، والذي أعتبره كوالدي الثاني وغيرهم ضمن إطارات شرقية من صنع دمشق، فزادت القاعة بهاء وجمالاً.

[1] ناقص في الأصل.

حالة البلاد السياسية بعد قرار اللجنة الملكية

بتقسيم فلسطين لغاية دخول بريطانيا في الحرب العظمى الثانية سنة ١٩٣٩

ذكرت في الفصول السابقة عن الثورة وإضراب البلاد الشامل لسنة ١٩٣٦، ثم نفي الزعماء المخلصين بواسطة بريطانيا، وبعد ذلك حل الإضراب ووقف الثورة بسبب حضور اللجنة الملكية.[2] وبينت قرار هذه اللجنة النادر، وهو تقسيم البلاد ورفض هذا التقرير من العرب داخل فلسطين وأهالي وحكومات الدول العربية الشقيقة باستثناء الأمير عبد الله، والآن أتمم للقارئ الحوادث الرئيسية التي جرت في فلسطين فأقول:

[2] المقصود اللجنة الملكية البريطانية المعروفة باسم لجنة بيل التي أصدرت توصياتها في تموز العام ١٩٣٧.

استأنف العرب الثورة ضد الإنكليز بقيادة البطل "عبد القادر بن موسى كاظم باشا الحسيني"، وعندما عجزت الحكومة عن القضاء عليها اضطرت إلى أن تعلن بأنها مستعدة لإعادة النظر في مشروع التقسيم، وأوفدت لجنة بريطانية فنية "لجنة ووهيد" التي قررت بأن لا يمكن تنفيذ مشروع التقسيم إلا إذا وقفت الثورة في البلاد، ولكن المجاهدين أبوا أن ينهزموا، بل زادوا الكفاح في طول البلاد وعرضها، وأذلوا القوى الاستعمارية في مواقع عديدة منها باب الواد، وقرى بلعا، ويعبد، وسيلة الظهر، والحارثية، وبيت أمرين، وجبعة، ودير شرف، وزينة، وفي منطقة نابلس، وطولكرم عندما استشهد عبد الرحيم الحاج، وحلحول، وبيت محسير، وبدو، وغيرها من قرى جبل القدس.

وفي هذه الثورة وفي معركة بني نعيم تحت قيادة عبد القادر استشهد المرحوم البطل علي بن المرحوم حسين سليم الحسيني (ابن عم عبد القادر). وعندما رأت بريطانيا أنها فشلت في معارك عديدة، حضر في آب سنة ١٩٣٨ وزير المستعمرات بالذات المستر "مالكولم ماكدونالد" ليسعى لوقف الثورة، ولكن في النهاية فشل أيضاً، الأمر الذي اضطر الحكومة البريطانية إلى الانسحاب كلياً من:

الخليل، وبئر السبع، وأريحا، وبيت لحم، ورام الله، وطبرية، والقدس القديمة، ورفعوا العلم العربي على سارية قلعة النبي داود.

لم تشهد البلاد أشد وأبلى وأعظم من ثورة سنة ١٩٣٧، وعلى ذكر انسحاب الإنكليز خاصة من القدس القديمة، فإني أذكر بصفتي كنت ساكناً مقابل باب الخليل أنه عندما قررت الحكومة الإنكليزية إعادة احتلال المدينة القديمة للقدس من المجاهدين العرب أقولها صراحة إن القلم يعجز عن وصف المعركة الضارية التي نشبت بين الجيش والمجاهدين العرب ليلاً، وما سمعنا وشاهدنا من صوت القذائف والقنابل والرصاص طيلة الليل بصورة لا تصدق، لأن احتلال المدينة الأولى عند الفتح البريطاني سنة ١٩١٧ لم تسمع ولم ترَ ما سمعناه ونظرناه في هذه الليلة التي - بلا شك - كانت وصمة عار لدولة بريطانيا،

فقد كان داخل السور عدد لا يذكر، ومعه بعض الأسلحة الأثرية ... صمدت -ويا للأسف- في وجه الجيش البريطاني أياماً وليالي، والسبب هو الحق ليس إلا، لأن الحق يعلو ولا يعلى عليه.

فظائع الإنكليز بالأهلين العرب

المثل العربي المتداول بين العامة "ما قدر على ركب الحمار ركب البردعة" أنه حقيقة ينطبق هذا القول على ما ارتكبته حكومة الانتداب من فظائع وجرائم بشعة في الفترة ١٩٣٧ - ١٩٣٨ ضد السكان الآمنين، لأنها لم تستطع مجابهة قوى الثوار والمجاهدين في البلاد. وإليك بعض ما شنته من الفظائع المخجلة:

إذا ما وصلت كلاب الأثر إلى قرية من القرى تتعقب الأثر ... كان ذلك سبباً كافياً لنسف أو تدمير القرية برمتها ... بالديناميت والمتفجرات وتترك الأهالي مشردين دون حتى تعويض.

وهاك بعض القرى المنسوفة:

كوكب أبو الهيجاء، والمغار، وشعب، والبروة، وجبع، والطيرة، ولوبية، وبلد الشيخ، وحواسة، والجيدلي، وعرب الساخنة، وغيرها في المنطقة الشمالية، المزار، وسيلة، ورمانة، وأم الفحم، وقباطية، وجبعة، ويعبد، وباقة الغربية وغيرها في منطقة جنين، عصيرة الشمالية، ودير شرف، وبرقة، وحوارة، وغيرها في قضاء نابلس، زيتا، وبلعا، وبيت أمرين، وذنابة، وعتليات، والطيبة، وغيرها في قضاء طول كرم، بيت ريما، وشعفاط، ورامون، وقالونية، وبيت سوريك، وغيرها في قضاء القدس الخضر، وحوسان، وصوريف، وبطا، وحلحول، والدوايمة، في قضائي الخليل وبيت لحم.

كم وكم من بيوت ومنازل لأهل هذه القرى نسفت -والعياذ بالله- لإخماد الثورة، ولكن كل هذا كان بدون جدوى.

ونسفت القوات البريطانية الشارع الرئيسي في مدينة جنين، ثم قسماً كبيراً من مدينة اللد بعدما نسف المجاهدون قطاراً عسكرياً في محطة كفر جنس.

نسف الحي القديم في مدينة يافا

كان هذا الحي يتألف من نحو ألفي بيت يسكنه نحو ١٢ ألف نسمة ... كانوا دائماً في طليعة المجاهدين ضد القوى البريطانية علناً. وهكذا جاء الجيش وقرر نسف الحي القديم برمته، فأنذروا السكان بإخلائه في ظرف ٢٤ ساعة فقط ... ثم دمروه ولم يتركوا حجراً على حجر.. والجدير بالذكر أن الحكومة ادعت أن هذا النسف بالجملة هو رغبتهم في تحسين المدينة ... ولكن اسمع:

رفع أحد السكان قضية على الحكومة لنسفها بيته، ونظر في تلك القضية قاضي القضاة البريطاني السير فرنسيس ماكدونل، فأصدر حكماً عادلاً قوياً بإدانة الحكومة والتنديد بأعمالها الإجرامية، إذ قال بالحرف الواحد: [إن الحكومة

أرادت ذر الرماد في العيون، فادعت أنها نسفت الحي بقصد تحسين البلدة، ولكنها كانت كاذبة في قولها . . . وإنه كان من واجب الحكومة أن تعلن بصراحة أن النسف كان لمقاومة الثوار] .
ولكنه عوقب بترك مركزه ونقل إلى محل ثان من المستعمرات البريطانية بعد بضعة أيام من قرار الحكم . . . هكذا كانت أعمال الانتداب البريطاني في فلسطين، ولكن كم وكم من رجالات الإنكليز كأفراد من أمثال قاضي القضاة كانوا يتألمون من أعمال الحكومة، وكانوا ضد سياستها الفاشمة في البلاد، وكم منهم استغنى عن وظيفته بملء حريته، ومنهم من نقل أو طرد من الوظيفة كرامة للخليلة الصهيونية ! !

جرأة حكومة الانتداب على مد اليهود بالأسلحة في السر والعلانية ضد العرب

إثر ثورة سنة ١٩٢٩، أنشأت حكومة الانتداب قوة مسلحة من شباب اليهود وسمتها "بوليس المستعمرات" تابعه لإدارة الأمن العام، ورخصوا لليهود بتأليف فرق عسكرية تابعه للوكالة اليهودية بحجة لزومها للدفاع عن الشعب اليهودي في حالة الطوارئ، وكان ضباطهم وخبراؤهم العسكريون يدربون أفراد تلك الفرق اليهودية. والأنكى من هذا كله أن الحكومة زودت المستعمرات اليهودية بكميات من الأسلحة وضعتها في صناديق مغلقة ومختومة . . . وقالت أن هذه الصناديق لا تفتح إلا بأمر الحكومة وتحت إشرافها .

مع العلم أن هذه الفرق اليهودية هي النواة التي تألفت على أساسها منظمة "الهاغاناة" التي أصبحت فيما بعد الجيش اليهودي النظامي.[١] فبالله عليك اسمع وانظر . . . فريق من أبناء الحكومة في البلاد يحمل السلاح علناً وله جيش مستقل، والفريق الآخر عكسه تماماً، بل كان مضطهداً بالفعل من حكومة الاحتلال التي احتلت البلاد بمساعدته ألا وهو العرب .
كان الجيش البريطاني يحمي هذه القوات اليهودية الجديدة من غضب أهالي القرى العربية عندما كانوا يتدربون بجوار قراهم وتحت بصرهم . . . وإليك هذا الحادث المضحك الباكي :
وصلت إلى ميناء يافا شحنة مؤلفة من ٤٣٥ برميلاً، ذكرت أوراق شحنها أنها كانت تحتوي على إسمنت وزفت يابس مستوردة باسم شخص يهودي في تل أبيب. سقط أحد البراميل مصادفة على أرض الجمرك وتحطم فتبين أنه يحتوي على أسلحة فتاكة. تدخل البوليس على الفور [واحتج] العرب على ذلك الحادث الإجرامي ... ولكن الحكومة لفت الموضوع ولم تلاحق أصحاب الشحنة، بل إنها سمحت بوصول تلك الكمية الكبيرة إلى أيدي "الهاغناة" وسائر المنظمات العسكرية اليهودية .

وقد عينت الحكومة الجنرال وينغيت الإنكليزي الخبير بحرب العصابات الذي كان في بورما والملايو، عينته[٢] لتدريب الهاغاناة، وعلى مقاومة العرب في حالة قيامهم بحرب العصابات، وشكل اليهود بالإضافة إلى الهاغناة عصابتين سريتين للقيام بأعمال الإرهاب والاغتيالات وهاتان العصابتان هما :

١ . (الأرجون زفاي ليومي) بقيادة مناحيم بيغن وهو يهودي أوروبي.[٣]

٢ . (عصابة شتيرن) نسبة إلى رئيسها شتيرن وهو من اليهود الشرقيين، ومعنى هذه العصابة "المحاربون لحرية إسرائيل" .

[١] الهاغاناة هي قوات الدفاع اليهودية التي كانت باشراف اتحاد العمال الهستدروت خلال فترة الانتداب.

[٢] هناك نوع من عدم الدقة في وصف الجوهرية هنا. فمن المستبعد أن تكون حكومة الانتداب قد عينت جنرال لتدريب الهاغاناة. ربما المقصود هو تعيينه لتدريب البوليس اليهودي للدفاع عن المستعمرات، الذي بدوره قد سلح ودرب قوات الهاغاناة. من المعروف أن التعاون ما بين القوات البريطانية والهاغاناة كان قائماً وبخاصة خلال الثورة والإضراب الفلسطيني. وقد سمحت السلطات للهاغاناة بالعمل والتسليح بشكل قانوني.

[٣] تشكلت هذه المنظمة المنشقة عن الهاغاناة العام ١٩٣٧، وقد مارست تكتيكات إرهابية ضد العرب. وخلال ٣ أسابيع العام ١٩٣٧، قتلت قنابل الأرغون الموضوعة في الأسواق العربية ٧٧ مواطناً عربياً.

كانت هاتان العصابتان تقومان بأعمالهما الإرهابية بمعرفة الهيئات اليهودية الرسمية وقيادة الهاغاناة وتوجيهها . وكان الجيش البريطاني في كل حادث يتحيز علناً إلى قوات اليهود ويبطش في الأهالي العرب ويستعمل جميع أنواع الظلم والإرهاب حتى أن الحكومة شنقت الشيخ فرحان السعدي من قرية المزار في قضاء جنين لحيازته بعض الأسلحة ، وكان -مع الأسف- شنقه في شهر رمضان ، وهو في الثانية والثمانين من عمره وكان صائماً !

جمال بك طوقان

سنة ١٩٣٨ جاءنا جمال بك طوقان في دائرة حاكم لواء القدس الواقعة -آنذاك- في شارع يافا ، واتخذ مركزاً مؤقتاً في غرفة السيد منطورة مفتش المالية ، وبقي بدون عمل لمدة لا بأس بها . وعليه سرت إشاعة بين كافة الموظفين بأنه سيكون المساعد للسيد منطورة ، خصوصاً في قلم الإيرادات نظراً لاتساع منطقة ضريبة الأملاك في المدن بالقدس ، التي ضمت إليها ألوف الدونمات من أراضي القرى المحيطة بها ، فأصبحت ١٦٨ "بلوكاً" خارج السور .

لا عجب من قدوم جمال بك لأننا تعودنا على استقبال عدد ليس بالقليل أمثال نظيف بك الخيري ، ونعيم بك عبد الهادي ، والسيد جورج فرط ، . . . وغيرهم كانوا يقتبسون الإدارة من منطورة ، ولكننا دهشنا عندما فوجئنا بأن جمال بك قد عين مساعداً لحاكم لواء القدس ، وقد استلم بالفعل كافة أشغال السيد منطورة ، فيما يتعلق بدائرة الإيرادات من ضبط الحسابات وتدويرها والتحققات والتحصيلات والإعفاءات ، ثم التخمينات والإشراف على لجان التخمين ومراجعة التخمين السنوية والاعتراضات إلى نهاية دور الاستئناف ، وبالإضافة إلى هذا المركز المضني استلم أيضاً إدارة شؤون المسلمين ، وما يتعلق بها في مدينة القدس التي كان يشرف عليها نصوحي بك بيضون ! وهكذا أصبح جمال بك بين عشية وضحاها ذا صلاحية واسعة ، بل حاكم مستقل في مقدرات المدينة بأكملها كما يقولون "استقلالاً ناجزاً دون حماية ولا وصاية" .

باشر جمال بك العمل ولكنه قلب الإدارة رأساً على عقب ، واتخذ منهجاً إدارياً جديداً حديثاً ، فجعل كل موظف تحت إدارته منوطاً بعمل خاص يستطيع القيام به ، ومسؤولاً اتجاهه مباشرة ، والويل ثم الويل لمن يتخطى حدود عمله ويتدخل في شؤون الغير ، وقد أهمل الطريقة الإدارية التي كان من سبقه يسير عليها باعتقاده بأنها كانت فوضى . . . حتى أنه أصدر أمراً كتابياً منع أي موظف كان دخول غرف الدوائر بعد ساعات العمل الرسمية . وبعمله هذا قد أدخل -بلا شك- السرور والبهجة إلى مرؤوسيه ، وقد عمل عين الصواب لأننا كنا نقضي القسم الأكبر من حياتنا في الدائرة نسهر الليالي الطوال ونقضي كثيراً من الأعياد الرسمية بين السجلات والقيود لإنجاز عملنا المضني من حيث لا نعلم.

وفي مدة وجيزة اتضح للجميع بأن جمال بك قام بهذا العمل الجبار وحده أحسن قيام ، وبرهن عن مقدرة فائقة وكفاءة نادرة ولمسنا الراحة والتنظيم ، فأصبحت إدارته الحكيمة مثالاً يقتدي به رؤساء كثيرون من الدوائر في اللواء . كنت عند قدوم جمال بك مدير مال المدينة ، وبقيت في هذا المنصب بمعيته لنهاية الانتداب ، إنما في سنة ١٩٣٩ صيفاً أصابني حادث أزعج صحتي بينته سابقاً ، فبواسطة جمال بك عين الأخ أنيس أبو رحمة رئيساً للكتبة ورفع عني حملاً ثقيلاً وهذه هي أسماء الزملاء آنذاك :

بديع بولس، وهاشم أحمد شرف، وأحمد الدزدار، والمعلم يوسف إبراهيم، ويعقوب كوهين، أبراهام يركن، اشكازي، ويوسف مرعش، والمساح عادل عارف النمري.

ومحصلو الأموال: إيليا دنيال رئيساً، ومحمود العسلي، وشكري رصاص، ويوسف عاطف درويش، ومصطفى النشاشيبي، وخضير عراقي الأصل، ويهودا يافي، ويرنبلوم، قيسي، المراسل: جبرا خوري.

إن العائلة التي ينتسب إليها جمال ألا وهي "طوقان" عريقة الحسب والنسب، وهي من أصل عربي، يرجع إلى قبيلتي [...][1] وشمر.

[1] ناقص في الأصل.

وقد علمت أن جمال وبعد أن أكمل علومه في مدرسة المطران الإنكليزية للقديس جورج بالقدس، دخل الجامعة الأمريكية ببيروت، وتخرج منها ودخل موظفاً من الدرجة الأولى في حكومة فلسطين في دائرة المساحة أو بالأحرى التسوية للواء الجنوبي من البلاد، ومركزه يافا، وذلك سنة ١٩٣٤، ثم انتقل بوظيفة [...][2] لفخامة المندوب السامي الجنرال السير أرثور واكوب، وخدم الوظيفة ذاتها للمندوب السامي [هارولد] ماكمايكل ولمدة قليلة، وفي سنة ١٩٣٨ انتقل إلى الإدارة مساعد حاكم لواء القدس لنهاية الانتداب البريطاني في ١٥ مايو/أيار سنة ١٩٤٨.

[2] ناقص في الأصل.

لا شك أن جمال ذكي لامع وصريح ومخلص بالوظيفة وشديد في شغله، يقدر الموظف (مرؤوسه) حق التقدير، وهو سريع الغضب، ولكنه بعيد عن الحقد عنيد في آرائه وطلبه، لأنه يثق بنفسه ويراها أنها على حق. إنه بيك مع البكاوات، وسياسي محنك مع رجال السياسة، ومتواضع مع الفئة الثانية حتى والثالثة من الشعب، يحكي من أراد الحكي معه، وهكذا اكتسب حب الموظفين والشعب على السواء إلا القليل منهم.

والميزة العظيمة التي كان يتحلى بها جمال أنه يحافظ بكل قواه على مكانة المرؤوسين، ويثور لحقهم، ويحصل عليه ولو تخلى عن وظيفته ... فلم يصدر منه الأذى أو قطع رزق أي موظف إبان حكمه، وكان في الوقت ذاته يقف شامخ الرأس، لا يخاف ولا يبالي أمام رؤسائه أكانوا من الإنكليز أم سواهم، وهذه ميزة حسنة تسجل لجمال بمداد الفخر والإعجاب.

منذ اللحظة الأولى من قدومه لدائرة حاكم لواء القدس استأنست به، وخيل لي بأنه ليس غريباً عني، وتبادلنا أطراف الحديث والمزاح إلى أن علمت بأنه نسيب المرحوم محمود السعيد، من أرقى الأسر في يافا، وهو عديل المرحوم حسين أفندي الحسيني الذي أعتبره والدي الثاني. تذكرت العم أبا إحسان وعائلته الكريمة عندما لجأوا من يافا إبان الحرب العظمى الأولى إلى بيت حسين أفندي الحسيني بالقدس، وتذكرت إحسان، وأخته وابنة عمه وخالته ولعبهم تحت أشجار دار الحسيني في حي الشيخ جراح وأنا في السادسة عشرة من عمري، وهكذا ازدادت الرابطة العائلية بيننا، وتبادلنا الزيارات اللطيفة بدون أي تكلف، وقلت في قرارة نفسي أن قدوم جمال كان رحمة لي ولحسن الحظ. وإني -والحقيقة- أعترف بأن جمال أخصني في حبه وتحملني في الوظيفة، خصوصا بعدما ضعف جسمي ... وأكرمني في الدائرة بين زملائي ولم يتوانَ عن مساعدتي طيلة المدة التي قضيتها بمعيته إلى نهاية الانتداب. وإني أقولها شهادة بين يدي الله أنه لولا وجود أخي جمال لما كنت حصلت على تقاعدي في الكبر، وإني أشكره من الأعماق ما دمت حياً.

وبقدوم جمال بك لدائرة حاكم لواء القدس، جرد السيد منطورة من جميع أعماله، وانزوى في غرفته يتصفح الجرائد والأخبار، والويل ثم الويل منا نحن الموظفين إذا نفذنا له أمراً، وهكذا حتى المهمة التي كان يشرف عليها منذ زمن قديم، وهي [اختلافات الطوائف المسيحية] سحبت منه، وأصبح الحاكم المستر بولاك يديرها بنفسه، إلى أن عيل صبره وطلب نقله إلى السكرتارية فنقل، وكان ما كان في فندق الملك داود، ولاقى حتفه هذا المسكين هناك. وقد أحيل أيضاً نصوحي بك بيضون إلى التقاعد وترك الحكومة نهائياً.

ملاحظة: ذكر في كتاب الشاعر إبراهيم طوقان وأبو القاسم الشابي الذي نشر سنة ١٩٥٤ في بيروت بأن:

يرجع نسب آل طوقان -فيما يقال- إلى بطن من بطون العرب الموالي يعرفون بالحياريين، وهم بدو لا يزالون إلى اليوم ضاربين خيامهم في غرب بادية الشام بين حمص وحماة.

العم الحاج خليل الرصاصي

ذكرت اسم الحاج خليل الرصاصي [سابقاً] بصفته عضواً في لجنة تخمين ضريبة الأملاك بالقدس، التي كنت رئيساً لها لعدة سنين. كان للحاج خليل الرصاصي ماض مجيد إبان وظيفته زمن الحكم العثماني في سلك الجندرمة، فكان -رحمه الله- مخلصاً في العمل، فلمع اسمه وبطشه خصوصاً في الحرب العظمى الأولى، فكان لا يهاب ويجرؤ على رؤسائه من الأتراك، ويدافع عن الرعية العرب، وله حوادث غريبة يصعب ذكرها في هذا المجال لكثرتها. كنت أجله وأحترمه في الوظيفة، وقد تبادلنا الحب وكان يقص علي حوادث غريبة زمن صباه، وما رآه وسمعه في حياته، ومن جملة حوادثه الغريبة التي كنت أستدرجه من حين لآخر لسردها حكى لي هذا الحادث الفريد:

أنا فاهم بس فهم لي هالآغا ! !... قال:

اعلم يا واصف أن الموظف زمن تركيا يقسم إلى أربعة أقسام:

الباشا، والبيك، والأفندي، والآغا. كانت هذه الألقاب تعطى حسب كفاءة ذلك الموظف، فالباشا والبيك والأفندي لمن يعرف القراءة والكتابة. أما الآغا فكانت تعطى للحاكم الجاهل الذي لا يعرف القراءة ولا الكتابة، وكان هذا النوع بكثرة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في البلاد؛ أي عندما أصبحت تركيا في دور الشيخوخة والانحلال، وإليك هذا الحادث الطريف المضحك حدث في بلدنا بيت المقدس زمن المرحوم والدي، الذي كان أشبه بمدير الأمن في البلاد آنذاك.

أرسلت الآستانة حاكما للقدس آغا من الأغوات، وكان عصبي المزاج شديد الانفعال لأتفه الأسباب، وكان بالنسبة إلى جهله يتجول في شوارع وأزقة المدينة القديمة، وفي يده "الكرباج" يضرب به أي شخص من الشعب يخالف أمره، حتى أدخل الفزع والخوف في قلوب الأهلين التجار منهم والباعة المتجولين.

وفي عصيرة نهار وقفة عيد الأضحى المبارك صادف أن شاباً من جيراننا الذي كان يسكن في أعلى عقبة رصاص "نسبة لعائلتي" الكائنة من الجهة الشمالية للشارع المؤدي إلى حي السعدية من ساحة باب العمود الداخلية، وهي من أشهر عقبات

مدينة القدس صعوداً صادف هذا الشاب وهو حامل بكلتا يديه اللحم والغذاء والخضار للعيد يريد الصعود إلى هذه العقبة، وعندما صعد لأول درجة سألته عجوز متقنعة بالملاية كانت مستريحة على أول درجة:

العجوز الله يرضى عليك يا بني عين علي في هالطلعة.. ساعدني.

الشاب العمى في قلبك مش شايفتيني شو حامل والله بدي أنا واحد يعيني.

وقد صادف وجود الآغا خلفه، وسمع ما دار بينه وبين العجوز، وبالنسبة إلى جهله اعتقد جازماً أن هذه العجوز هي والدة الشاب لأنها قالت له "يا بني". وهكذا ثار وغضب وبدأ بشتم الشاب: "ولان ديوس عين أمك" ثم ضربه بالسوط ضربتين على ظهره إلى أن الشاب اضطر فحمل العجوز على كتفيه بالإضافة إلى ما كان يحمله من الأثقال وصعد العقبة.

وفي منتصف الطريق إذ خرج أخوه من البيت وعندما شاهد أخاه حاملاً العجوز قال:

ولك يا أخي مين هذه العجوز؟

قال هذه أمك.

أجابه بتعجب ولو "أنا تركت أمك الآن في البيت".

قال أخوه "أنا فاهم بس فهم لي هالآغا"، مشيرا بإصبع يده اليمنى "الإبهام" إلى الخلف، وكان الآغا يترقبه.

حادث طريف الحاج خليل الرصاصي والحاج جودت الحلبي

بمناسبة تخمين ضريبة الأملاك في المدن والعمل مع العم الحاج خليل الرصاصي كما ذكرت آنفاً، زادت المودة والصداقة العائلية ما بيننا، وقد صادف حضور ولده [...][1] من حضرموت، وكان من أبرز الموظفين الرؤساء هناك، وزارني في المجموعة الجوهرية، وقدم لي من السجاد الهندي الثمين الحريري قطعتين، وفي الوقت ذاته استشارني بعروس تناسب وعمره وعمله. ولما كان الأخ جودت الحلبي وعائلته يسكنون بجوارنا في حي النيكوفورية وبناته زملاء لبناتي في مدرسة شميدت، لفت نظره إلى الآنسة عفت أولى كريمات الحاج جودت المومى إليه، وشاء القدر أن يشاهدها وقد أعجب بها أيما إعجاب، وذهب تواً لوالده قائلاً إني وجدت شريكة الحياة المطلوبة. "وهنا بيت القصيد":

سأله والده من هي؟ [...]: (إنها كريمة الحاج جودت الحلبي). فصمت والده هنيهة ثم سأله من ذلك عليها أجاب العم واصف جوهرية.

أجاب الوالد أنا يا بني لا أشك في إخلاص واصف لكني أفيدك ما يلي:

[1] ناقص في الأصل.

"اعلم يا بني أنني عندما كنت إبان الحكم العثماني مدير الجندرمة في لواء القدس كنت ألقي القبض على والدها الحاج جودت وأزجه في القفص؛ أي في السجن المؤقت في السراي، عند أول جمعة الآلام بمناسبة عيد الفصح لمدة لا تقل عن العشرة أيام لانتهاء حفلات الموسم لأجل أن يستتب الأمن في المدينة".

ملاحظة: حقيقة أن الحاج جودت الحلبي كان من أشقى أشقياء أولاد البلد، وله حوادث مثيرة، فكان معروفاً عنه بشيخ الشباب، يترأس الاحتفال القومي عند نزول علم النبي موسى من القدس إلى أريحا، ويعتبر ليومنا هذا من أعظم قبضايات المدينة، وهو ولا شك رجل حر شجاع عنيد جبار، وعلى جانب عظيم من الذكاء والحنكة، وكانت له مواقف جريئة أمام موظفي حكومة تركيا بالقدس أزعجت الكثيرين منهم، وكان ولم يزل خفيف الروح، كريم النفس، بديه النكتة، سريع الخاطر، يتحمس لكل من يستجير به، ونادراً بين أهله وخلانه.

وشاء القدر أن كريمته عفت التي هي باعتبارها كانت كأخت لابنتي يسرى لم تذهب بزواجها بعيداً عنا، بل بواسطتي والحمد لله كان نصيبها بأخي وصديقي لطفي المغربي زميلي في وظيفة الانتداب.

حنا أندريا

عرضها وأدون للقارئ لمحة عن حياة هذه الشخصية:

حنا أندريا الأصل من أهالي غزة ووالده صائغ نزح إبان الحكم العثماني إلى مصر وقضى حياته وعائلته فيها، وهكذا نشأ حنا أندريا نشأة مصرية صرفة، وانخرط بعدما أخذ علومه الابتدائية مع أصدقاء ممن واصلوا معيشتهم على الخمور والحشيش حتى أصبح أخينا حنا أندريا شيخاً في هذا المجال يضرب فيه المثل، فكان لا ينقطع عن التحشيش والخمرة والنكتة والسهر، مواصلاً أيامه ولياليه والعياذ بالله. تعرفت على حنا أندريا في محطة اللد في مقهى العم صليبا، فأحبني وأحببته لما هو عليه من خفة روح، وتقديراً للموسيقى وعرفني في الوقت ذاته على شلة مرحة من زملائه وكان حنا بوظيفة كاتب قسم الهندسة. وأذكر بعض أشخاص الشلة تحت رئاسة ناظر محطة اللد السيد مهنا شرابي، وهو من مصر (دمياط)، وهم: حنا أندريا، وجورج خمار مفتش حركة، وحسن الشامي مفتش حركة، ... وغيرهم.

أخذني وعودي إلى بيته ذلك البيت الأثري المقام على هضبة بجوار محطة اللد، إنه ليس بيتاً بالمعنى الصحيح، بل قل كوخاً أو خربوشاً، فأقمنا سهرة تجلى فيها الحظ والكيف والشرب والنكتة بواسطة جوزة الحشيش التي كانت تدار بانتظام بين الشلة التي يترأسها حنا!! إلى بعد منتصف الليل، وقد أبى حنا أن أغادر هذا البيت الذي علمت فيما بعد أنه معروف بـ [بيت الأمة]، وهكذا نمت فيه، وعند الصباح علمت أن حنا عنده خليلة تدعى هدى، وهي التي تشرف على حياته المنزلية. إني لن أنسى تلك الليلة ما دمت حيا، وأقولها صراحة كنت أتخايل بأن ضلوعي تتمزق، بل تتحطم من شدة الضحك والقهقهة والغناء طول الليل. وإثر هذه الليلة التي كانت موضع البحث عند الجيران وهم الموظفون وعائلاتهم يسكنون الكامبات من حولنا، اعتاد حنا أندريا وأصبح يحضر إلى القدس في كل مناسبة ويأخذني إلى [بيت الأمة]، ونعيد الكرة والمعرفة بأصدقاء له جدد من القاهرة وحيفا ويافا.

عواد العداسي

وبهذه المناسبة تعرفت على الأخ عواد العداسي من أهالي مدينة اللد ... بصفته المالك لعدد من البيارات في محطة اللد ومن حولها. هذه البيارات يمر القطار فيها، بل يشترى الماء من آبار بيارات الأخ عواد العداسي بمبالغ طائلة. إنه رجل كريم النفس وشهم، ووضيع في الوقت ذاته، وقد تجلى فيه الكرم فقدم قطعة أرض ثمينة وبدون مقابل إلى حنا أندريا موقعها شريف جداً عند مدخل محطة اللد، وقد ساعد حنا بالبناء فبنى الأخير الدكاكين، وأقام عليها طابقين للسكن، في الدور الأول سكن هو وهدى هانم ... في معزل وسكنت وعائلتي في معزل آخر، وقضينا الشتاء سنة ١٩٣٩ فكان حنا الجار والمؤنس والنديم والأخ والصديق.

وقد برهن المالك الأخ عواد العداسي عن كرم فائق، فكنت أنا والعائلة حتى الزائرين لي وما أكثرهم - والحمد لله - كنا نتمتع داخل البيارات تحت أغصان البرتقال، نتصرف وكأن كل منا عواد العداسي ... وأكثر من هذا كان عواد يحمل الزائرين أكياس البرتقال عند انصرافهم.

كان لعواد صوت حنون يغني الموال البغدادي، وأنا أترجم اللحن على عودي، وقد اتفقنا أن يرقص حنا أندريا بعد انتهاء غناء عواد مباشرة ... فكان حنا يمثل المرأة الحبلى ... في رقصه الممتع المضحك. هذه بعض ذكريات لأيام الرملة واللد، وإني أذكر أن بيت عديلي سليم الدير جرت فيه ليال وأيام سمر، فكان نقولا ولده الكبير هاوٍ في فن الموسيقى قبل زواجه من أنطوانيت وكان قسطندي يعزف العود قليلاً، وذلك قبل دخوله في حياة الزهد والتبشير.

رحلة دير مار سابا سنة ١٩٣٢

تأخر المطر في تلك السنة عن المدة المعهودة، وانقطعت مياه الشرب عن المدينة من الآبار التي أصبحت خاوية من المياه، واضطرت الحكومة إلى توزيع المياه على أهالي المدينة القديمة بالبطاقات، هذا من جهة، وقد تخوف المزارعون في القرى ولم يحرثوا الأراضي بسبب تأخر الغيث. وأذكر أن جميع الطوائف عملت الطلبات في الجوامع والكنائس وكنس اليهود فصلوا جميعاً للرحمة.

اتفقنا نحن الأصدقاء لزيارة دير القديس سابا، وقد أخذنا صورة تذكارية أمام مدخل دير ابن عبيد وادي السواحرة عند رجوعنا من زيارة دير مارسابا عليه السلام، وهذه الصورة التي لم أزل محافظاً عليها تضم الأشخاص التالية أسماؤهم، وقد تكرم الأخ نخله قسطندي زخريا وأهداني إياها بعد نكبة فلسطين في بيروت. من اليمين:

١. المرحوم الأخ خليل جوهرية

٢. المرحوم متري قسطندي المنى

٣. الأخ حنا ميخائيل فليفل من بيت لحم [راكبا الكديش ذا اللون الأبيض]

٤. الأخ الياس يورغو سلحيت. [واقفاً على قدميه وحاملاً أركيلته الصغيرة يشربها]

٥. من خلف الياس سلحيت ربما المكاري واقفاً على قدميه



صــورة شـطحة مـارسـابـا عـام ١٩٣٢ واصف جوهرية هو الثاني من اليـسـار. المجموعة الجوهرية.

٦ . ويجانب المكاري أحد رهبان دير ابن عبيد

٧ . سليمان باسيل فراج

٨ . الأخ فخري جوهرية

٩ . الأخ يوسف نقولا عبده

١٠ . لطفي صالح سنونو

١١ . واصف جوهرية صاحب هذا الكتاب [بلبس الكبود الجلد الروسي النادر . . .]

١٢ . المرحوم الأخ جورج مراد الكوى

سهرنا بعدما تناولنا العدس على الطاولة الحجرية داخل الدير الأثري، سهرنا في قاعة الدير الصالون لغاية الثانية عشرة ندردش ونتحدث ونضحك حتى [أزعجنا النساء هناك . كما نشرب العرق والمازة الشمن] ، وعند الساعة الثانية والنصف ليلاً جاء الرهبان وأجبرونا على القيام وذهبنا إلى الكنيسة وحضرنا القداس الأول ، وبعد القداس مباشرة ألحقوه بقداس ثانٍ فخرجنا من الكنيسة خلف الإكليروس ورجال الدين إلى الساحة السماوية اتجاه الكنيسة وركعنا ولأول مرة في حياتنا على الركب . . ساعات طوال ونحن نصلي لله عز وجل أن يرحم البشر بالغيث إلى شروق الشمس في الصباح.

وقد اغتنمت هذه الفرصة الثمينة ، ومن قلب منكسر مملوء بالإيمان دعوت إلى الله سبحانه وتعالى بأن يرزقني بولد ذكر . . . وقد استجاب الله وله الشكر دائماً وأبداً ، فأنعم علي بولدنا جورج الذي ولد في ٣ تشرين الأول سنة ١٩٣٣ وكانت فرحه. والجدير بالذكر في هذا الصدد أننا تركنا دير مارسابا ورجعنا القدس وعرجنا بالطبع على دير ابن عبيد ، وما هي إلا دقائق فرأينا أن السماء تلبدت بالغيوم واشتد الهواء وأمطرت بغزارة ، وكانت هذه أول مرة من السنة بركة ، فقلت في نفسي طبعاً لأننا لأول مرة نصلي بهذه الطريقة فاستجاب الله . . . منا وشكرناه.

ولكن كانت الأمطار الغزيرة سبباً في إزعاج كل منا ، فوصلنا القدس ونحن في حالة يرثى لها ، المياه تخر في أجسامنا وجميع الملابس حتى الداخلية مبلة بشكل فظيع ، وقد قهقهنا من الضحك على بعض النشء الجديد أمثال فراج، وعبده، وسنونو ، الذين ولأول مرة في حياتهم يركبون ظهور الحمير . . . فكان منظراً وكله سخرية ، فمنهم من نزل وساق حماره أمامه بكل صعوبة ، ومنهم من وقع وسحل عنه وهو لا يستطيع عمل أكثر . . . إلى أن وصلنا وأصبحت هذه الرحلة الميمونة عالقة في أذهان كل فرد منا ، نذكرها بالخير ليومنا هذا .

الحرب العظمى الثانية سنة ١٩٣٩ لغاية انتهاء الانتداب في ١٥ أيار سنة ١٩٤٨

الحرب العظمى الثانية

لأسباب صحية كنت متغيباً عن العمل عندما أعلن الحرب العظمى الثانية في أيلول سنة ١٩٣٩، وقلت في قرارة نفسي شاء القدر أن نشهد حرباً كونية ثانية؟!! ألم يكف ما دهانا منذ وجودنا هذا الجيل في الحياة من ويلات ومجاعات وتشرد وحروب ثم ثورات متواصلة منذ الاحتلال البريطاني البغيض إلى يومنا هذا؟!! لا اعتراض على حكم الله والحمد لله على كل حال.

أما الحالة السياسية العامة في البلاد فأقول إن الجيش البريطاني الذي كان موجوداً في فلسطين بكثرة يحارب ثوار العرب منذ سنة ١٩٣٦ ثم الصهاينة الذي أزعجتهم قوة وصلابة العرب طيلة هذه المدة تنفست الصعداء عندما أعلنت الحرب العظمى الثانية وتخلصت نهائياً من هجوم العرب عليهم والتنكيل بهم في مواقع كبيرة وكثيرة في البلاد، يفخر لها كل عربي نبيل. وهكذا أسدل الستار عن الثورة المجيدة التي قام بها العرب من أهل البلاد الوطنيين مدة ثلاث سنوات أتوماتيكياً بسبب الحرب العظمى.

وكما ذكرت سابقاً، فإن المفتي الحاج أمين الحسيني الذي كان حجر عثرة في وجه سياسة بريطانيا المعوجة في البلاد تمكن من الإفلات، وغادر القدس سراً في ١٣ تشرين الأول سنة ١٩٣٧ إلى لبنان. وهكذا أصبحت البلاد خاوية زمن الحرب، وقد علمنا بأن صاحب السماحة ترك لبنان في ٣٠ مارس سنة ١٩٤٠ وسافر إلى إيران، ثم إلى تركيا وبلغاريا وأخيراً إلى ألمانيا. وفي ٨ مارس سنة ١٩٤٥ غادر ألمانيا إلى سويسرا فأرجعته مسجوناً إلى الجزء من ألمانيا التي كانت تحت إشراف فرنسا آنذاك.

ورغماً عن عدم وجود عدد كبير من زعماء البلاد عن فلسطين هرباً من ظلم حكم الانتداب، فقد اتخذت بريطانيا فرصة دخولها في الحرب سبباً للتنكيل في العرب، فقد اعتقلت بالفعل مئات آخرين من العرب وقبضت على البعض بتهمة الاشتراك في أعمال الثورة الماضية، فحكمت على ٤٧ منهم، وبالسجن المؤبد على ٣٦ شخصاً وبمدد تتراوح بين العامين والخمسة عشر عاماً على مائتين وثلاثة أشخاص آخرين.

وتشددت الحكومة في تطبيق أنظمة الطوارئ، وفرضت الغرامات المشتركة والضرائب الإضافية ونظام منع التجول على كثير من المدن والقرى في فلسطين، وفتشت عن السلاح، وصادرت ما وجدته عند الأهلين من سلاح قديم وعتاد بال، ثم فرضت على أهل القرى تقديم كميات معينة من الأسلحة النارية وحكمت المحاكم العسكرية بالإعدام على العرب الذين قبضت عليهم وفي حيازتهم أسلحة، وقد نفذت بهم حكم الإعدام في الحال، وهكذا ضربت العرب وما قاموا به من ثورات في الصميم لغاية العام ١٩٤١.

من المعروف لدى العالم أن بريطانيا العظمى عند دخولها الحرب الثانية بالاشتراك لجانب الحلفاء أميركا وفرنسا ومن ثم روسيا ضد العملاق الألماني، كانت ليست على استعداد تام لمجابهة ألمانيا التي كادت أن تمزق أوروبا بأسرها عند دخولها لأول معركة، وهكذا نظراً لما ظهر للعرب ليس عرب فلسطين فحسب، بل للعرب كافة في الأقطار المجاورة، ظهر لهم ألاعيب بريطانيا ونكثها للعهود ووعدها المشؤوم بوعد بلفور بجعل وطناً قومياً لليهود في فلسطين، ومن ثم تواطؤها مع

اليهود ومساعدتها لهم لتنفيذ هذا الوطن القومي في البلاد غصباً عن الأهالي الأصليين العرب، وسن القوانين التي تساعد اليهود من حيث الهجرة ومدهم بالسلاح طيلة المدة التي بدأت منذ الاحتلال البريطاني سنة ١٩١٧ لغاية دخول بريطانيا في الحرب العظمى الثانية، وما فعلته بريطانيا من شدة وقسوة وظلم ضد العرب، جعل العرب بلا شك يكرهون الإنكليز كرهاً شديداً، وهكذا كانوا في السر والعلانية يتمنون النصر لألمانيا. وكانوا بالفعل يجتمعون حول المذياع في المدن والقرى ويستمعون إلى الأخبار بلهفة لكل ما يسمعونه من نصر لألمانيا، ويحزنون لأي خبر يكون في صالح الإنكليز وحلفائهم.

أما اليهود فقد ظهر على وجوههم الكآبة والحزن والأسى والخوف، خصوصا عندما جاءت جيوش الألمان إلى طبرق تحت قيادة رومل، وإني أدون هذا الحادث للقارئ على سبيل المثال:

أذكر أنني عندما كنت ولجنة تخمين ضريبة الأملاك في المدن في كومبانية يهودية، تعرف بكومبانية [يكيا كايم قطعة ٦٨] خارج القدس، صادف أن بائع رمل من أهالي الخليل متجولاً كان ينادي بأعلى صوته [رمل.. رمل.. رمل..] وهذه عادة معروفه بباع الرمل إلى الأهالي لأجل جلي النحاس من طناجر وغيرها.. فعندما سمعت اليهود هذا المنادي ومن شدة خوفهم وقلق أفكارهم.. اعتقدوا بأن (رومل.. دخل القدس..) وهكذا بدأوا بالصياح والبكاء والهرب من الأزقة إلى بيوتهم بصورة مخيفة جداً، وكان هذا المنظر أمامنا نحن أعضاء لجنة التخمين ... إلى أن اتضح لهم أن المنادي هو بائع الرمل.. وليس رومل.

كما أني أدون هذا الحادث أيضاً صادف معي والطبيب الألماني هرمن سيمون اليهودي:

كان هرمون سيمون طبيبي، وقد نجوت على يده زمن الحرب لما كان عليه من علم ومقدرة، وهكذا ذهبت وزوجتي إلى بيته في شارع الملك جورج، وعرضت عليه المساعدة في حالة دخول الألمان القدس وأطمنه بأنني قادر على بقائه وزوجته وابنته عندنا في البيت نظراً لما أنا عليه من صداقة خصوصاً مع الأسرة الحسينية التي كانت تعتبر زعيمة العرب، ولا خوف عليه وعائلته بإذن الله من أي سوء ... ولكن بهت عندما أجابني:

لا شكراً، لك وقد دلني مشيراً بإصبع يده إلى إبرتين جاهزتين بالسم الواحدة له والثانية لزوجته، وقال إذا لا سمح الله دخل الألمان فهذا يكون مصيري وعائلتي ولن أستسلم للألمان.

حالة البلاد زمن الحرب العظمى الثانية من الوجهة الاقتصادية

بصفتي أحد الموظفين ممن شاهد مأساة الحرب الكونية الأولى في البلاد بين سنة ١٩١٤ - نهاية سنة١٩١٧، فإني أقولها صراحة إن الفرق شاسع ما بينها وبين سني الحرب العظمى الثانية، فقد قضينا المرحلة الأخيرة بألف خير والحمد لله.

لا مجاعة، ولا جراد، ولا فقر، ولا مرض، ولا تشرد أبداً، فقد عرفت بريطانيا العظمى كيف تسوس البلاد، فلم ينقص علينا من مواد الغذاء شيء؛ فالسكر، والأرز، والشاي، واللحوم، وكل شيء كان بكثرة. نعم، كنا نتناول هذه المواد الأولية بواسطة البطاقات من دائرة خاصة تعرف بدائرة مراقبة الأغذية، ولكن لم ينقص علينا شيء رغماً عن ارتفاع أسعار

الحاجيات ارتفاعاً محسوساً ، ولكن تضخم العملة بواسطة الجيوش المحتلة وإشعالها وتوزيعها بين أيادي الشعب ، جعل الأهلين يعيشون ببحبوحة .

وبوجود إمارة شرقي الأردن -آنذاك- اشتغل تجار البلاد العرب أشغالاً لم يسبق لها مثيل ، فكانوا يدخلون الحاجيات والأقمشة حتى السجاد بدون جمارك إلا القليل منها ، فلعبت السوق السوداء لعباً ماهراً ، ما أدخل الثراء الكثير لدى الأهالي بصورة فظيعة ، وهكذا أصبح الموظف -أي موظف الحكومة من الدرجة الأولى والثانية ؛ أي الرؤساء والكتاب- هم المظلومون نسبة لراتبهم المربوط الذي أصبح لا يكفي لسد حاجات الموظف الأولية بسبب ارتفاع أسعار الحاجيات أياً كان نوعها .

وعلى سبيل المثال كنا قبل دخولنا في الحرب العظمى الثانية نشتري الحاجيات الآتية وبالأسعار الآتية :

زيت الزيتون الرطل بـ ١٠ قروش ، تنكة السمنة بمائة وتسعين قرشاً فقط ، كيس الدقيق اكسترا اكسترا بـ ٩٦ قرشاً ، قنينة الويسكي جوني ووكر بـ ٤٠ قرشاً ، بدلة رجل من الصوف الفاخر جاهزة بخمس ليرات فلسطينية . . . الخ . ولكن ارتفعت أسعار هذه الحاجات إلى ما يلي :

زيت الزيتون الرطل بـ ١١٠ قروش ، تنكة السمنة بـ ١٨ ليرة فلسطينية ، كيس الدقيق بـ ٩ ليرات فلسطينية ، قنينة الويسكي بـ ٤ ليرات فلسطينية ، بدلة رجل جاهزة بـ ٢٥ ليرة فلسطينية .

وإني أدون هذا الحادث الطريف :

أولاً : دخلت مرة أثناء الحرب مخزن المرحوم العم أبي جورج ديب شكري ، فوجدت أستاذي خليل السكاكيني يشرب الأركيلة هناك ، فاستقبلني العم أبو جورج باشاً وسألني بأن أشرب فنجان قهوة . . . أجبته لا . . شكراً . إنما أرجوك أن تقدم لي كأساً صغيراً من السمن الصافي الذي كنت أبتاعه منك قبل الحرب ! ! وهات يا ضحك ، لأني كنت أشتري منه التنكة من السمن الشرق الصافي بمائة وتسعين قرشاً ! فتصور .

ثانياً : ارتفع سعر البصل أيضاً ارتفاعاً خيالياً ، فقد عرضت في قاعة المجموعة الجوهرية ثلاث حبات من البصل ضمن مجموعة المسبحات والحجارة الكريمة مع حبات الكارب الأصفر والأحمر . . . وكان هذا العمل يجلب نظر الزائرين للمجموعة . . . ويتساءلون لماذا عرض البصل مع الكارب؟

فأجيبهم لأن الأسعار أصبحت متساوية في هذا الزمن فسبحان المعطي ! ! وكانت هذه القليعة نكتة أيام الحرب العظمى الثانية .

تربية الخنازير كان الشغل الشاغل للناس زمن الحرب العظمى الثانية

شر البلية ما يضحك . . . رحم الله من قال هذه الكلمة . أكتب هذه السطور وأنا لم أزل أتخيل أمامي الأهالي بعدد كبير منهم ، كانت أحاديثهم وشغلهم وموضوع بحثهم في جلسات البيوت والأسواق والسهرات قصة الخنازير وتربيتها !

كم وكم من الناس على اختلاف مذاهبهم وعلمهم وثقافتهم بل وجهلهم دخلوا من حيث لا يفقهون في معركة . . . تربية الخنازير زمن الحرب العظمى الثانية في فلسطين . . . فإنك قلما تجد إسطبلاً قديماً داخل سور المدينة ، أو غرفة سفلى

مهجورة في منازل السكن ، أو في أغلب بيوت القرى والمدن المحيطة بالقدس ، أمثال بيت لحم ، وبيت جالا ، وبيت ساحور ، وعين كارم ، وبين صفافا ، ورام الله ، وقراها ، أو في مزارع خاصة إلا وفيه نوع من الخنازير . . . وقد أصبحت الخنزيرة الأنثى محترمة لدرجة أن صاحبها يضحي بأغلى شيء عنده ويحضر له الدكتور في الظلام الحالك وليالي الشتاء والبرد القارص ، ليضربها إبرة دواء . . . عندما يرى أنها منحرفة المزاج . . . ويدفع زيارة الدكتور بالغاً ما بلغت ، بالإضافة إلى ثمن الإبرة التي أصبح ثمنها معلوم لدى العموم بليرة فلسطينية . . . لا غير . وهكذا كان صاحبها ينام ليلته مرتاحاً ، ومن هؤلاء الناس أقول جازماً لا يجرؤ أن يحضر الطبيب في مثل هذه الحالات لزوجته . . . وأم أولاده . . . إيه والله .

إذاً ما هو سبب هذا العطف المتزايد والاهتمام العظيم نحو خنزيرة ؟ ! ! أقول لأن ثمن هذه الخنزيرة أصبح يساوي في أيام الحرب العظمى ما ينوف عن الألف ليرة فلسطينية ! ! نعم ، ألف ليره فلسطينية وهي ولا شك ثروة ، وثمن دار للسكن ، ورأسمال كثير من التجار . هالله هالله يا خنزيره ! ! وسبحان المعطي !

وهكذا أصبحت تربية وتجارة الخنازير تقليعة أو بالأحرى موضة . . . في البلاد ، بل مرض معد أصاب المئات من الأسر المعروفة ، فمنهم من ربح مبدئياً وساعده الحظ بأن يشتري ثم يبيع حالما تكون الست الخنزيرة حامل ، فيكسب ويربح في الثمن . . . ولكن وفي نهاية هذه العملية يصبح مفلساً والعياذ بالله ، وكم من هؤلاء أفلس بعدما رهن أو باع ما يملك من عقارات وحلي نسائه . . . فحدث ولا حرج .

والجدير بالذكر في هذا الصدد أن حكومة الانتداب ، وبخاصة رئيسها فخامة المندوب السامي آنذاك كان السبب المباشر في تشجيع الأهالي لتربية الخنازير في البلاد ، نظراً لوجود الألوف المؤلفة من جيوش الحلفاء في البلاد ، وإقدامهم على شراء لحوم الخنازير ، وبكل أسف لم يبق أحد إلا وأخذ نصيبه في هذه التجارة القذرة ، التي بنيت على سياسة بريطانية غادرة أكلت في النهاية الأخضر واليابس كما يقول المثل . . . ولله في خلقه شؤون . وإني أدون للقارئ ما كان نصيبي من هذه التجارة فأقول :

إليك أيها القارئ الكريم مثال حقيقي عن الأسعار الخيالية التي وصلت إليها الخنازير مدة الحرب العظمى الثانية . أفادني أخي وصديقي زميل المدرسة والوظيفة فوتة دعدوش بصفته تاجراً بهذه البضاعة بأنه اشترى خنزيرة واسمها جعبورة . . . من المستر جون وابنك الأميركي بالقدس بمبلغ ٩٠٠ ليرة فلسطينية ! ! وقد رفض شراء أولادها الستة ، وكانوا إناثاً بسبب ارتفاع سعر الولد إلى ٦٠٠ ليرة فلسطينية ! ! ثم اشترى خنزيرتين من عائلة بسطولي بـ ١٣٠٠ ليرة فلسطينية ! !

والجدير بالذكر في هذا الصدد أنه عندما انتهت الرواية الهزلية من قبل الحكومة قطعت توزيع العلف لأصحاب الخنازير فجأة ، فهبط سعر الخنازير فجأة أيضاً ، فاضطر المسكين فوته دعدوش إلى بيع ٢٩ خنزيرة بـ ٢٩ ليرة فلسطينية . وهكذا أصبح سعر الرطل للخنزير الذكر الحي بـ ٦٠ قرشاً فلسطينياً فقط . . . وأساس لعبة الحكومة في تقليعة الخنازير أنها كانت تبيع الطون الواحد من علف الخنازير للتاجر بـ ٣٠ ليرة إلى ٦٠ ليرة فلسطينية ! ! وكان معدل مأكول الخنزيرة يومياً بـ ٢٥ قرشاً فلسطينياً .

أسماء بعض المعتقلين السياسيين من العرب خصوصاً من أبناء القدس

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية قبضت قوات الحلفاء في ألمانيا على :

الشيخ حسن أبو السعود ، وسعد الدين عبد اللطيف ، وسليم حسين الحسيني ، وموسى عبد الله الحسيني ، وصفوت يونس الحسيني. فسلمتهم السلطات البريطانية ونقلتهم إلى بروكسل عاصمة بلجيكا ، وزجتهم في الزنزانات في السجن لمدة ثمانية شهور ، ثم نقلتهم بريطانيا إلى جزر سيشل في جنوب المحيط الهندي. واعتقلت السلطات البريطانية في إيران في أواخر سنة ١٩٤١ عدداً من الزعماء والوطنيين العرب ، ونقلت بعضهم إلى مستعمرة جنوب روديسيا في إفريقيا ، واعتقلتهم في مدينة سالزبوري ، ومن بين هؤلاء :

أمين التميمي ، وجمال الحسيني ، وعارف الجاعوني ، والدكتور داود الحسيني ومحمد شعيب البرناوي ، حيث مرض وتوفي أمين التميمي ودفن هناك ، ولحقه عارف الجاعوني ودفن في روديسيا أيضاً .

إن فاتني ربحه لم تفتني رائحته

عرج أخي خليل في صبيحة ذات يوم من أيام موسم التجارة في الخنازير وفي يده معاملة رهن لحصته البالغة ١٢ من ٢٤ قيراطاً في العقار العائد لنا بالشراكة مناصفة والواقع في حي القطمون بالقدس. رهن حصته هذه مقابل ألف ومائتين ليرة فلسطينية إلى السيدة مدام حنا داروتي لمدة سنتين ، وذلك للاستفادة بهذا المبلغ ويتاجر مع عمه وبعض الأصدقاء في الخنازير ، وسألني فيما إذا أرغب بالدخول معهم كشريك وأرهن حصتي في الدار ذاتها كما فعل. دهشت من عمله هذا وتبسمت وقلت له "معاذ الله يا خليل أنا؟ لا أرغب في المجازفة قطعياً وسأبين لك الأسباب بعد العمل في الدار. وهكذا غنى أخي خليل هذا الموال . . وفي النهاية مع كل أسف خسر المبلغ وندم حيث لا ينفع الندم. ولدى اجتماعنا في البيت قلت له اسمع يا خليل :

اعلم أنني لو أردت الدخول في هذه التجارة لدفعت المبلغ في الحال لأنه والحمد لله ميسر ولا لزوم للرهن . . إنما كنت اطلعت على كتاب لفت نظري قول محمد "صلعم" إذ قال :

[لو خيرت في العمل لفضلت التجارة بالمسك] قالوا ولماذا يا رسول الله؟ قال: [إن فاتني ربحه لم تفتني رائحته] ! !

ما أروع هذا الحديث ، فحفظي له وحبي وتقديري لمعناه البديع جعلني أمقت بل أكره الدخول بعمل قذر كتجارة الخنازير ، وما كان ذلك إلا لحسن حظي وألف شكر لله .

إضراب موظفي حكومة الانتداب في فلسطين

ذكرت مؤخراً أن أسعار الحاجيات من جميع أشكالها قد ارتفعت ارتفاعاً خيالياً نسبة إلى أسعار قبل الحرب ، وقد أصبح موظف الحكومة –خصوصاً من الدرجة الثانية– في حالة مادية سيئة مهما حاول في الاقتصاد ، وأن راتبه لا يكفي بضعة

أيام من الشهر حتى ضاق صدرنا رغما عن مطالبتنا الحكومة بدفع غلاء المعيشة مراراً وتكراراً، ولكن مع الأسف بدون جدوى.

جرت الاتصالات ما بين نخبة من موظفي الحكومة في جميع المدن في فلسطين، وقد أسفرت عن قرار من لجنة موظفي الحكومة بالإضراب العام لمدة [. . .][1] شريطة أن يترك الموظف دائرته ويذهب إلى الجامع أو الكنيسة أو الكنيس بموكب خاص ليبرهن لحكومة صاحبة الجلالة عن ظلامته، وكان ذلك ولكن بدون جدوى. ثم قرار آخر من لجنة الموظفين بأن يقف الموظف خارج الدائرة التي يعمل فيها لمدة [. . .][1] ليلفت نظر المراجعين والشعب عن مغدوريته، وقد نفذنا هذا القرار، ولكنه كان مع الأسف بدون جدوى.

[1] ناقص في الأصل.

[1] ناقص في الأصل.

إلى أن اتخذ قرار بوقوف الموظف في دائرته وفي ساعات العمل والامتناع عن العمل كلياً، والتكلم مع المراجعين أو رؤساء الحكومة، وهكذا نفذ هذا القرار وبعد الجهد والمماطلة تساهلت الحكومة ودفعت لنا غلاء المعيشة بصورة جعلت الموظف المسكين أن يقف على قدميه بعد الكبوة، ويعيش مستوراً ومحترماً نوعاً ما، ما بين أهله وأصدقائه.

وإني أذكر الحادث الطريف الذي حصل معي:

عندما كنت وزملائي من كتبه ومحصلي الأموال بالإضافة إلى عدد كبير من المراجعين أثناء ساعات العمل وبالوقت المضروب، وقفنا وامتنعنا عن الشغل حتى وعن الكلام . . . وإذ كما قال المثل "ورد علينا عزيز كتابكم . ." دخل أسعد سعد ملهوفاً وفي يده المعاملة ووقف أمامي وقال "نهارك سعيد":

وقد حبكت النكتة معي فتبسمت وبعدما تلفت نحو زملائي والمراجعين أجبته بصوت مرتفع ما يلي:

اسمع يا أخي . . . نحن مضربون الآن عن العمل . . لأننا مغدورون . . ونطلب الحصول على غلاء المعيشة . . . معلوم كل شيء غالي . . وحتى مضربين عن الكلام . . وبالطبع أنت صاحبي ولا يهون عليك شذوذي عن زملائي . . . ولذلك اسمح لي . . . فلا أستطيع أن أقول لك نهارك سعيد . . ! !

وهات يا ضحك وقهقهة من جميع من كان داخل الدائرة إلى أن انتهى وقت الإضراب، وأصبح هذا الحادث موضوع البحث لدى موظفي الدوائر في القدس ليومنا هذا.

الموسيقار محمود صبح من مصر

زار القدس الأستاذ الأكبر ذائع الصيت الأستاذ محمود صبح، وأقام مدة في الفندق العصري لصاحبه أخي وصديقي حسن عارف عويضة في مأمن الله، وذلك إبان الحرب العالمية الثانية.

زرته وأخي توفيق مراراً في الفندق المذكور وأعجبت منه أيما إعجاب، وكان -والحق يقال- مرجعاً في فن الموسيقى العربي الأصيل وله نظريات نادرة وانتقادات لاذعة وفنية خصوصاً لفناني هذا العصر. كان عصبي المزاج وناقماً على الحياة كونه ضريراً لا يبصر. وكان حافظاً وحائزاً على رأسمال كبير في علم الإيقاع والمقامات، وخصوصا الدرجات للسلم الموسيقي الشرقي.

صوته حنون جهور مطرب وينشد بروحه وأحشائه، فيطرب هو أولاً ويطرب المستمعين، يعزف العود بمهارة ثم الناي، ويجيد بها وله طريقة خاصة عندما ينشد أقرب منها للأسلوب التركي. زارني مراراً وأعجب عندما أسمعته عزفي على العود وصوتي، وقد علمني خصوصاً التوشيح المشهور ذي المعاني الجميلة، وقال إنه من تلحينه على مقام العراق ومسجل بصوته:

أيها الساقي إليك المشتكى　　　قد دعوناك وإن لم تسمع

ونديم همت في غرته　　　وبشرب الراح من راحته

كلما استيقظ من سكرته

جذب الزق إليه واتكى　　　وسقاني أربعاً في أربع

ما لعيني غشيت بالنظر　　　أنكرت بعدك ضوء القمر

وإذا ما شئت فاسمع خبري

غشيت عيناي من طول البكا　　　وبكى بعضي على بعضي معي

إنه بالأحرى من مقام راحة الأرواح وليس عراق، ومن تأليف أمير المؤمنين عبد الله ابن المعتز، وإني لن أنسى حلاوة إنشاده من صديقي الشيخ محمود صبح، كيف لا وهو شيخ معمم ومقرئ ممتاز، وقد توفقت بإيجاد تكملة أبيات هذا الموشح الجميل أسجله هنا ولو بدون تلحين:

غصن بان مال من حيث استوى　　　مات من يهواه من فرط الجوى

خفق الأحشاء موهون القوى　　　كلما فكر في البين بكى

ويحه يبكي لما لم يقع

ليس لي صبر ولا لي جلد　　　يا لقومي عذلوا واجتهدوا

أنكروا شكواي مما أجد　　　مثل حالي حقه أن يشتكي

كمد اليأس و[...][1] الطمع

[1] ناقص في الأصل.

وإني أقولها صراحة فبموت الشيخ محمود صبح انتهت دولة الفن الأصيل القديم ويا للأسف !

معرفتنا بالأستاذ فريد الأطرش

عندما زار الأستاذ فريد الأطرش القدس دعاه صديقنا وحبيب الكل الأستاذ طلعت السيفي الطبغا . وكان نخبة من أهالي القدس أصدقاء الأستاذ طلعت بمن فيهم صاحب هذا الكتاب. وقد دعا الأستاذ طلعت رؤساء وفناني دائرة الإذاعة بالقدس، أذكر منهم الأستاذ إبراهيم طوقان ، والأستاذ يحيى اللبابيدي، وجميل عويس، ويحيى السعودي، وأمير البزق عبد الكريم، والفرقة الموسيقية للإذاعة، وتجلى كرم صاحب الدعوة فقدم أنواعاً وأشكالاً شتى من الخمر والمازة الفنية، ولكن أبى الأستاذ فريد أن يغني قطعة واحدة، الأمر الذي سبب استياء جميع الحضور رغما عما أظهروه من التوسل والرجاء . فكان الأطرش يزيد دلالاً وإعجاباً بنفسه إلى أن تداركنا الأمر كرامة لصاحب الدعوة وقمنا بما استطعنا من العزف والغناء وعلى قدر المستطاع من النكت لإدخال السرور على صاحب الدعوة والحضور، والآغا أبي الأطرش وكأنه أخرس. وأخيراً أخذ الأطرش العود وعزف بشرف شد عربان من مقام الحجاز كار، ورافقه الأستاذ عبد الكريم على البزق وبس. وإني أذكر أن الأستاذ يحيى اللبابيدي كان قد لحن الأغنية المشهورة والتي مطلعها "يا ريتني طير أطير حواليك" من مقام الحجاز كار كرد، وقد كانت هذه الأغنية موضع جدل بين فناني الإذاعة في تلك الليلة فيما يتعلق بالإيقاع.

إني لم أزل أحب بعض تلحين الأطرش خصوصاً بعض الطقاطيق، ولكنني أكره الاستماع إلى غنائه دائماً وأبداً، وأفضل أن تغنى أغانيه من منشد آخر، وقد صدقت السيدة أم كلثوم عندما سألوها عن غناء وصوت فريد أجابت "يا ليته أخرس ! !".

الراقصة تحية كريوكا

لم تفتنا فرصة في الحظ إلا واغتنماها، وكانت حياتنا -والحمد لله- متواصلة بالحظ والسرور ولم تنقطع عن الفن الرفيع الذي أخذ القسم الأكبر من حياتي بالرغم ما كان يجري في البلاد زمن الانتداب من اضطرابات وثورات. وعندما زارت الراقصة الذائعة الصيت السيدة تحية كريوكا القدس، اتفقنا ونجحنا مع بعض الأصدقاء لإحياء ليلة أنس في دارنا في السكوفورية، وتجلت كريوكا برقصها ودلالها بين المجموعة الجوهرية، فكانت -والحق يقال- سهرة من العمر إلى بعد منتصف الليل. والجدير بالذكر أن كريوكا بعدما زادت في شربها ! ! لم تعِ فكانت تداعب أخي وصديقي الأستاذ سامي الشوا أمير الكمان وتشتمه [يلعن أبوك] . . ولكن أبى سامي أن يرد لها الشتيمة إلا على وتر الكمان، وكان الحضور يعجبون من تصويره الشتيمة على الوتر وكأنها حقيقية [يلعن أبوك] ! ! فسقيا لتلك الأيام والليالي ما كان أطيبها !

كانت نخبة من ذوات القدس ورجالات السياسة وعائلاتهم "سفير إيران وعقيلته، وسفير تركيا وعقيلته، ثم راغب بك النشاشيبي، وماجد بك عبد الهادي، وعوني بك عبد الهادي، وعلي بك جار الله، وجمال بك طوقان وغيرهم. كانت

نخبة من فناني دار الإذاعة تعزف على الآلات الوترية، وكان يترأسها مؤقتاً وفي المناسبة الأستاذ سامي الشوَّا عندما صادف وجوده بالقدس. أما هذه السهرة فكانت بمناسبة شفائي من ما حدث لي في ١٤ آب سنة ١٩٣٩ والحمد لله.

الطربوش وزمن الطربوش

لباس الرأس في الشرق المعروف بالطربوش هو - بلا شك - لباس غير صحي، ولكنه جميل يتناسب ووجه الإنسان عامة، فلونه خصوصاً الأحمر القاتم المعروف باللون "العنابي" يزيد جمال الوجه ويليق بلباس الرجل على اختلاف أشكاله وألوانه. ويمتاز استعمال الطربوش بلباسه أنه يدخل الروعة والشرف على صاحبه إذا ما كان موظفاً، لأن العادة بلباس هذا الزي الأنيق هو عدم شلحه في المجالس الرسمية ودور الحكومات وداخل البيوت [...][1] مثل القبعة.. وإني لم أزل أذكر العهد العثماني في بلادنا، ذلك العهد الذي كان الطربوش فيه في متناول رؤوس الباشا المتصرف، وموظفي الحكومة والجيش والجندرمة والبوليس، ثم كافة الشعب حتى العامل الذي كان يلبسه على ثياب العمل، وفي أي مكان إن كانت ثيابه مشرقية أو غربية على السواء، وإني أذكر حتى اليهود في بلادنا - اليهود الأصليين - كانوا أيضاً يتباهون بلباسه أمثال بعض عائلات القدس "أليشار، وحزقيل، وماني، وأبو العافية، وأنجيل، وبنجيل، وفاليرو، ومرعش، وكوكيا، وعنتبي، وحزان، وسمحا، ويلين.

أما أبناء طائفة الروم الأرثوذكس العرب بالقدس، فإني أذكر بعض الشخصيات التي كانت تلبس الطربوش:

جورج أبو زخريا وإخوانه، وإلياس وافتيم المشبك، وسابا الفران، وثيودور برامكي، وشكري ديب، وسليمان الدوا، وأنطوني الغوري، وجرجس جوهرية، ونقولا عبده، وثيودر [...][2]، وجورج متى، وجورج حمصي، وإلياس سلفيتي، وحنا الساعاتي، وسابا عبده، وخليل السكاكيني، وداود دعدس، وقسطندي لباط، وجبرائيل برامكي، وإبراهيم قمر، وإلياس الحلبي، وأنطوني الحلبي، وطناس الحلبي، وجورج الحلبي، وجورج الحرامي، ويوسف الحرامي، وجورج سكسك، وجورج حنانيا، وسوتيري حنانيا، وميخائيل الطبة، ونخلة كتن وإخوانه، والده جريس كتن، ... وغيرهم.

وهناك من كان يلبس الطربوش القديم المعروف بالطربوش المغربي أمثال حنا بلاطة، وفوتة زخريا ووالده، وعيسى نخلة قرط، ومنهم من كان يلف عليه القماش قديماً أمثال عبده والد نقولا، وربما اسمه سمعان، وبنايوت الصوابيني، ... وغيرهم (ثيودر يانكو وأخوه طنوس يانكو.. لا طربوش مكوي).

وكانت أيضاً بدعه للعمال أن يتخذوا الطربوش ذا اللون الأسود القاتم يلبسه الكثيرون من أبناء طائفة الروم الأرثوذكس العرب، وكذلك الأرمن واللاتين، أمثال سليم السكافي، وعرنيطة، والزق، ولا أعرف لما انتخبوا هذا اللون ربما كان مفروضاً على أجدادهم قديماً بصفتهم مسيحيين.

ومن شخصيات طائفة اللاتين والروم الكاثوليك العرب في القدس أذكر بعض الأسماء الآتية:

[1] ناقص في الأصل.

[2] ناقص في الأصل.



الراقصة تحية كريوكا.

المصور غير معروف.

متّيا سروفيم، وأنطون سروفيم، وحنا بطاطو وأولاده فرنسيس وأنطون، ثم توفيق بطاطو وإخوانه وأولاد عمه، وصافية، وكردي، والبينا، ومروم، وميكيل، ونيكوديم، ولورنس، ومرقص، وعلى رأسهم بشارة حبيب ترجمان المتصرف، وكان مشهوراً بأناقته ولباسه الطربوش، وكان قوامه وجسمه آية في الجمال.

أما ذوات المسلمين فمنهم عبد السلام باشا طوقان الحسيني، وعارف باشا الدجاني، وموسى كاظم باشا الحسيني، ثم راغب بك النشاشيبي، وإسماعيل بك الحسيني، وروحي بك الخالدي، وجميل بك الحسيني، ثم إسحاق أفندي الشهابي، وإسحاق أفندي البديري، وإسحاق أفندي أبو السعود، وعلي أفندي جار الله، وفيضي أفندي العلمي، وصالح أفندي العلمي، وحمادة أفندي العفيفي، وعلي أفندي درويش، وخليل أفندي درويش، وطاهر أفندي درويش، ومحمد أفندي يوسف الخالدي، والحاج شريف أفندي الحسيني، وحسين أفندي الحسيني، وسعيد أفندي الحسيني، ومحمد صالح أفندي الحسيني، وعارف أفندي حكمت النشاشيبي، وجميل أفندي الخالدي، ومحمد طاهر أفندي الخالدي، . . . وغيرهم من أبناء القدس القدامى وبعدهم ورثتهم.

كان لباس الطربوش وكأنه فرض على كل إنسان، فإنك لا تجد شخصاً زمن الحكم العثماني حاسر الرأس، فالحاكم والحداد والنجار والكاتب والفران والحمال وحتى تلاميذ المدرسة، جميعهم يلبسون الطربوش. وكان الطربوش آنذاك طبيعياً؛ أعني بدون بطان أو خلانة، ويعرف بالطربوش العزيزي نسبة إلى السلطان عبد العزيز العثماني، كان ليناً حتى أنه يميل نوعاً إلى أسفل من ثقل ما يسمونه بالشرابة أو الشربوشة. وكان الشبان وأخصهم من كان يتقن اللباس العربي أي القنباز أو السروال يلبسونه ويدعونه بالطربوش النكل، ولا يختلف عن سواه إلا بالألوان كما سبق ودونت في مستهل المقال، وإني أذكر بعض الأشخاص الذين كانت بشرتهم مائلة إلى البياض أمثال راغب النشاشيبي، والأستاذ نخله زريق، يفضلون اللون الأحمر الفاتح، إنما الغالب كان واحداً.

وفي نهاية الحكم العثماني أدخل على الطربوش تحسينات، وجاءت بهذه الفكرة مصر، فقد بطنه المصريون بالقش الناعم، وغيروا قالبه إلى زي يتناسب والزمن، ومنهم من كان يفتح بالدائرة العليا منه ثلاث ثقوب لتنفس الرأس، وكانت فكرة حميمة أقبل عليها الشعب بشغف. وزاد على ذلك وضع حول البطانة القش هذه من الأسفل طوق كان يعمل إما من الجلد الناعم أو الشبر الحريري، يحمي عرق الرأس من تأثيره على الطربوش.

وإني لا أبالغ القول إن أطباء مدينة القدس حتى الأجانب منهم أعني اليونانيين أمثال الحكيم فوتى، والحكيم جورج، والحكيم برنابا، والحكيم نقولا، كانوا يلبسون هذا الزي الجميل. وقد زال وانقرض عهد الطربوش العزيزي بزوال معاصريه، والجدير بالذكر أن الشخص الوحيد الذي بقي محافظاً على لباسه لآخر أيامه، أي بعد نكبة فلسطين، هو المرحوم راغب بك النشاشيبي، وكان حقا جماله يشار إليه في البنان وبقي طربوشه حتى بدون بطانة.

ولما كان لباس الطربوش في فلسطين الزي القومي العربي وواصل الشعب لباسه زمن الانتداب البريطاني منذ نهاية سنة ١٩١٧ إلى ١٩٣٦، ونظراً لتضارب الأفكار السياسية ما بين الستة أحزاب في البلاد، لمن حزب المفتي وهو الحزب الأكبر

عدداً في فلسطين لباس الطربوش، وفضل إبداله باللباس العربي الأصيل ألا وهو الكوفية والعقال، فصار الشعب بعضه بطية خاطر والبعض الآخر بالتهديد والبطش والقوة، وحتى بواسطة الاغتيال فأهمل الطربوش في البلاد، إلا من بعض أفراد قلايل من حزب الدفاع. وذلك بعد إضراب سنة ١٩٣٦، وتحققت أحلام المفتي في القضاء عليه إبان ثورة سنة ١٩٣٧، وأصبح الشعب يستعمل لباس الكوفية والعقال، وكذلك اتخذ لباس الفيصلية العراقية تيمناً بالملك فيصل الأول الذي ابتكرها لنفسه ولأهل العراق. وهكذا قضي على الطربوش في البلاد نهائياً إلا القليل القليل ... وهكذا -مع الأسف- خسرنا هذا اللباس الجميل، وقد عاد البعض ومنهم صاحب هذا الكتاب فلبسوها خصوصاً بعد حوادث النكبة الدرامية في فلسطين.

أما أغلبية الشعب أخذت على عدم لباس أي شيء، وأصبح الجميع يتجولون صيفاً وشتاءً وليلاً ونهاراً حاسري الرؤوس ... فقعدوا على ذلك وثابروا إلى يومنا هذا، مع أن هذه العادة -والعياذ بالله- كانت خصوصً إبان الحكم العثماني مكروهة وغير مرضية، بل العيب وكل العيب لمن يسير في الشارع حاسر الرأس.

أما الأشخاص الذين كانوا يعملون في بيع وصناعة وكوي الطربوش بالقدس أذكر منهم:

١. فرج [...][1] وإخوانه حارة النصارى تحت قنطرة دير الروم المؤدية إلى القيامة.

٢. داود أبو جضم، وأخيراً مع صهره فيليب عقروق وأخوانه حارة النصارى بجوار حمام البطرك، وقد اشتهر الأخ فيليب بهذا الفن الأنيق في طول البلاد وعرضها، حتى أصبح المرجع الوحيد الأصيل يحجون إليه من البلاد العربية المجاورة لفلسطين.

٣. عبد القادر المهتدي باب الخليل مقابل القلعة.

٤. نقولا الخوري (البيضة) سوق العطارين وبعده شكري رصاص.

فسقيا لأيام الطربوش! فكانت أيام يمن وبركة وتآخ، وبهذه المناسبة أردد ما قاله المرحوم عبده الحمولي دور "عشنا وشفنا سنين ومن عاش يشوف العجب".

أما أساس الطربوش، فمن المغرب؛ أي شمال إفريقيا: تونس، ومراكش، والجزائر، وليبيا، ولذلك ترجمته في اللغات الأجنبية [فاس] أي المغروب. ولكن كلمة طربوش فهي بالأصل تركية بمعنى [سر: الرأس، بوش: بمعنى غطاء]، [سار بوش] ومع الزمن تحرفت فأصبحت عند العرب طربوش.

وإني أنبه القارئ إلى أن الطربوش معروف منذ الزمن القديم لدى أهالي فلسطين، وخصوصاً الفلاحين منهم، أي أهل القرى، فقد كان الفلاح -كما أعلم- في أي جهة من جهات القدس؛ أي غربها، وجنوبها، وشمالها، كان الفلاح يلبس الطربوش المغربي، وعندما يصل إلى عمر الرجولية أي بعد الثلاثين، يلف عليه الزي التقليدي لذلك القضاء والضيعة، ويلبسه فيصبح اسم هذا الشكل، [الطلزية] فهناك عشرات من زي الطلزيات [...][2] قضاء الخليل، ثم بيت لحم وبيت جالا

[1] ناقص في الأصل.

[2] ناقص في الأصل.

وبيت ساحور [. . .][1] والخضر في الجنوب ، فكل قريه تحتفظ بشكل ولون خاص بالطبزية ، ولو كانت القرية قريبة من قرية أخرى ، فمثلاً أنك تجد الفارق العظيم ما بين طبزية بيت لحم وبيت جالا .

[1] ناقص في الأصل.

كذلك في الشمال طبزية رام الله لها طابع خاص يختلف عن طبزية البيرة التي هي ملاصقة لرام الله وهكذا . وهذه القماشة التي تلف حول الطربوش ألوانها المزركشة بالأحمر والأصفر والأخضر ، ثم لون الأخضر الخاص للمتدينين في الإسلام ، والأحمر القاتم للمتدينين منهم. ومن الفلاحين من كان يستعمل قماش الدمشقي المعروف بالنباتي. أما الأبيض عادة ، فهو زي الشيوخ الذين يقرأون القرآن الجوامع .

من المجموعة الجوهرية

والآن إليك ترجمة مقال الدكتور ت . ف . ما يزل أعلاه الذي نشر في جريدة البلستين بوست سنة ١٩٤٥ :

لحسن الحظ وجد مواطن معروف قد أخذته الهواية الحقة إلى أن يتولى جمع ما يمت إلى مدينته العزيزة "القدس" بصلة (عن تلك الفترة التي مرت على القدس وهي مدينة هاجعة إبان الحكم العثماني ، إلى أن صارت مركزاً عصرياً لإدارة بلاد بأسرها) :

ومن يمكن أن يقوم بهذه المهمة الجدير بالتقدير سوى : السيد واصف جوهرية وحده .

فما بيته ومكان سكناه سوى متحف أثري خاص ترى جدرانه مغطاة بكل أثر ثمين ، من ورائه تاريخ أجيال ثلاثة مرت على هذه المدينة بين عشية وضحاها . نعم ثلاثة أجيال لم تكن وضاحة المعالم بهذه الصورة وهذا الوضوح لو لم يعنَ السيد واصف بجمع هذه التحف النادرة .

فهذا بيت صغير مسور يطالعك عند تركك عطفة شارع فندق الملك داود [بجوار] القنصلية الفرنسية. وفي هذا البيت الصغير تجد بعينك من روائع الفن والآثار حتى أصبح محج الهواة من المواطنين ، فدعي باسم [المجموعة الجوهرية] نسبة لاسم عائلة صاحب هذا البيت ذي الذوق السليم .

وهذا الباب ذي اللون الأخضر يقودك إلى ساحة تظللها جذوع الكرمة المورقة ، وقد أقيمت في منتصف هذه الساحة نافورة ماء نصب في حوض رخامي مزركش (من بقايا كنيسة صليبية منسية) .

ولنسر إلى مدخل البيت الذي يبهرك عند دخول قاعته مناظر الآلات الموسيقية الشرقية القديمة ، التي احتلت القسم الأكبر من جدران القاعة مزاحمة بذلك صوراً كثيرة لأشهر موسيقيي العرب ؛ أمثال عبده ، والشيخ سلامة ، ومحمد عثمان ، والسيد درويش .

وها أنت ترى في زاوية من زوايا القاعة نموذجا "لتاج محل" داخله جهاز لاسلكي "راديو" ، ثم هذا الفونوغراف قد احتل مركزاً سحرياً تاريخياً جذاباً ، إذ وضع بصورة تنم عن ذوق سليم رفيع في هيكل يمثل "باب الخليل" . . . اسمع ! ! أنظر ! ! فها هي الموسيقى السحرية تنساب إلى سمعك من جوانب هذا الهيكل المفتوحة .

وبين هاتين الأعجوبتين عن يمينك وعن شمالك ترى باباً بني على النمط المراكشي، وقد زين بروؤس السباع، يقودك إلى غرفة صغيرة لا شبابيك لها . غرفة وإن يكن حجمها صغيراً فإنها قائمة مستفيضة" كما يجب أن تكون في المتحف الأثري الذي أشرت إليه في مستهل حديثي الذي يجب أن ينشأ في فلسطين" .

صور وبراءات

إن أول ما يستحوذ على بصرنا لدى زيارتنا لهذا البيت تلك المجموعة المختارة من مئات الصور، فتكتشف أنه حوالي ١٩٠٠ عام لم يكن هناك بيت واحد يقوم على بنيان أو شجرة واحدة تمثل شبراً من الأديم بين بركة مأمن الله وسور المدينة المواجهة لباب الخليل، إلا بناء واحد خشبي كان يمثله طبيب أسنان. وفي صورة أخرى يمكنك أن ترى أشجار الزيتون وقد احتلت مساحة الأرض التي يقوم عليها بناء جمعية الشبان المسيحية، وفندق الملك داود، وشارع بن يهودا، ومن هذه الصور يمكننا أن نكون فكرة واضحة لما كان عليه اتساع المدينة إبان زيارة هرتزل لها .

وهناك قسم آخر من الصور يوضح لنا الحوادث البارزة في ذلك العصر كزيارة القيصر الألماني والأمير ايتل فريدريك ودخول الجنرال اللنبي، وهنا صور أخرى تبين لنا كيفية الاحتفالات بثورة العام ١٩٠٨، وكيف كانت الجثث على أعواد المشانق ترى كل صباح في ساحة باب الخليل زمن الحرب العظمى الأولى.

ومن رؤية اللون الأصفر، يمكننا أن نستحلي بعض آيات قرآنية كتبت على القطارات القادمة من استانبول كحرز يرد كيد الفدائيين من رجال لورنس، كما أنه يمكننا أن نرى صور اجتماعات الهلال الأحمر التركية، واجتماعات لجنة السيدات التي كانت ترأسها الآنسة لاندو .

وفي مكان آخر من القاعة نرى مجموعة كبيرة من البراءات والفرامانات السلطانية الأصلية . . وبين هذه البراءات والأوامر السلطانية نرى كثيراً من الكتابات بالخط العربي الجميل المختلف الأنواع، وقد كتب به أوامر إدارية بطريقة سرية مختصرة المعروفة "بالسياق" وقد علمت أن في خليل الرحمن "آل طهبوب" في الوقت الحاضر رجلين يمكنهما حل رموز هذا النوع من الأوامر والبراءات.

كما أنه يمكننا أن نستعرض مجموعة فنية من أنواع الخطوط العربية [آيات وكلمات مأثورة] كتبها خطاطو هذه البلاد .

الأسلحة والآلات والخزف

وفي هذا المتحف الممتاز توجد مصاحف مذهبة (خط يد) من التي كان اقتناؤها مقصوراً عن أشراف القدس، ويرجع تاريخها إلى قرون خمسة خلت.

وبعد أن ترى ذلك يتطرق بصرك إلى مجموعة ثمينة من الخزف الصيني الأصلي الذي كان يملأ خزائن وبيوت المترفين في الماضي، والذي يظهر جلياً قيمة الفن الأصيل الذي كان يرد إلى البلاد عن "طريق الحرير" . وعلى الجدار الذي يقابلك ترى



المجموعة الجوهرية في بيت واصف في النيكوفورية في القدس في الأربعينات من أربع زوايا. المصور غير معروف والصورة من محفوظات السيدة آية جوهرية شاكر.







مجموعة من السيوف والخناجر تبعث في نفسك الرهبة، وتعود بك إلى الفترات المتابعة التي كان يفد فيها المتطوعون من الثوار النمساويين العام ١٨٤٩ إلى البلاد، كما أنه يمكنك أن ترى سلاحاً من أسلحة الرأس "ماكونين".
وهذه المجموعة فاخرة مكونة من قطع أثاث شرقي وسجاجيد وأدوات أخرى كان يحويها السادات المترفين. وأما سلسلة الآلات الموسيقية، فإنها تتنقل بين حقب العصور والأجيال منذ عصر مزمار داود حتى زمن فونوغراف أديسون.
وهناك عدد كبير من الأثاث والأدوات التي كانت في عصر الملكة فيكتوريا التي تبين بأن "النارجيلات" وغيرها الملونة هي أول الصادرات الأوروبية للاستيلاء على الذوق التركي. وأعود أقول أما مجموعة الآلات الموسيقية، فإنها تحوي قطعاً رائعة من الآلات الوترية والنفخ والطنبورات وغيرها.. وبهذه المناسبة أود أن أذكر بأن للسيد واصف الجوهرية وعائلته ذوقاً موسيقياً رفيعاً، وإنهم من هواة الموسيقى الكلاسيكية التي تعرف باسم الموشحات، ويجيدون العزف بمهارة على كثير من الآلات المذكورة.
وإنها للحظة سحر أخاذة إذا أتيح لك أن تزور السيد واصف في ليلة مقمرة، وتجلس بجوار النافورة الرخامية وتسمع ألحاناً موسيقية عربية عذبة من موسيقى القرن السادس عشر، حينما هاجرت جموع كثيرة من المغاربة واليهود من غرناطة إلى القدس.

جريدة البلستين بوست [هكذا بالإصل] ١٠ سنة ١٩٤٥

التوقيع:

ت. ف. لا يزال [حين كتابة المخطوطة] دكتور في الآثار الجامعة العبرية بالقدس.

الشاعر اللبناني "الدكتور قيصر خوري"

زار القدس الدكتور (صحة) قيصر خوري وكان صديقاً للإخوان فريد البستاني وسابا الصائغ. ولما كان هذا الطبيب ملهماً بالشعر أحبا -أي صديقيّ المذكورين- أن يزور المجموعة الجوهرية ويستمع إلى موسيقانا، فكان ذلك بتاريخ ١٦ تموز سنة ١٩٤٥، دعوته وشقيقته، ودعوت الأخ فريد بستاني وعائلته والأخ سابا الصائغ الصيدلي، والأخ عطا الله فريج وعائلته، دعوتهم إلى المجموعة الجوهرية، وكانت جلسة يتجلى فيها الفن من جميع أطرافه، وامتزج الشعر البديهي للدكتور قيصر وعزفي وغنائي وأهمها الموشحات، ثم عزف يسرى على البيانو، خصوصا التقاسيم العربية وغناء ليلى بصوتها الرائع من تلحيني، وكانت -والحق يقال- ساعة من العمر طرب الجميع ودهش الدكتور أيما إعجاب مما سمعه ورآه في هذا البيت الفريد، فقدم لي هذه الأبيات من شعره:

يا متحفاً في دار واصف قد زها | فكأنه سفر من الأزمان
فيه من الآثار كل فريدة | ومن الجواهر والحلي زوجان
فشعاعه الصافي أنار سناؤه | صفحات هذا الكون والأكوان
وسمعت بلبله الشجي مغرداً | سحراً على الأغصان في البستان
وتجمعت في ساحته نخبة | من خيرة الأصحاب والخلان
حيوا به "الصافي" ويسرى ليلة | فالفن والإنشاد مجتمعان

القدس ١٦ تموز سنة ١٩٤٥

التوقيع: الدكتور قيصر الخوري

وإني أذكر على سبيل الذكرى فقط أن جميع ما قدم في هذه الضيافة القصيرة من مأكل ومشرب كان ذا طابع شرقي، فقد عملنا الخبز الطابوني المحشو بالزبدة والدبس، وقدمناه في الأطباق الصينية الأصيلة، كذلك المازة وأشكالها، وأخيراً القهوة العربية قدمت في أوانٍ شرقية نادرة، تناسب ما حوته المجموعة الجوهرية من تحف وأوانٍ وفراش، حتى ذهل الدكتور قيصر وقال وكأننا في مجالس هارون الرشيد ! ! . . . فسقياً لتلك الأيام ما كان أطيبها !

وقد صادف بعد يومين حديث فني في الموسيقى العربية أذاعته يسرى من محطة إذاعة القدس تحت بروغرام "الموسيقى درس وتوضيح"، فكتب لي الدكتور قيصر الخوري هذه الأبيات من نظمه، ولم أزل أحفظها على "الروشيّة الأصلية":

يسرى حديثك في الإذاعة شيق | نبراته موسيقية الأنغام
أحييت روح الفن بعد خمودها | فسرت كسري الروح في الأجسام

الأربعاء ١٨ تموز سنة ١٩٤٥

التوقيع: الدكتور قيصر الخوري

وقد تواصلت زيارة الدكتور قيصر الخوري للبيت والدائرة فأحبني حباً كبيراً، وطلب من مساعدته للتعارف مع بعض شخصيات بيت المقدس من أثرياء وأدباء وغيرهم، فلبيت طلبه في الحال وأخذته إلى بيوت الأستاذ إسعاف النشاشيبي، وراغب بك النشاشيبي، والأستاذ خليل السكاكيني، والسيد رفلة القرعة وشريكه استاوري سلحيت، والقاضي

الشاعر اسكندر الخوري البيّجالي، وأستاذي داود دعدس، والسيد متري فراج وغيرهم، وقد حصل منهم على مبالغ لا يستهان بها، وأصدر كتيبا ذكر فيه من تبرع له بمال، وأثنى على مدينة القدس وأهلها الكرام، وإني أحتفظ بكتابه ضمن المجموعة الجوهرية.

وفاة الأخ توفيق

بتاريخ ١٠ آذار سنة ١٩٤٤ كانت وفاة الأخ المرحوم توفيق في سكن أخينا خليل ملك يوسف أو عطا صبح في محلة القطمون بالقدس، وكان وقع خبر وفاته كالصاعقة على كل من الأقارب والأصدقاء لما كان المرحوم يتحلى به من ظرف وفن، والدليل على قولي الجنازة التي كانت مؤلفة من موكب كبير عظيم ضم المئات من مختلف الطوائف والأديان، ومن مختلف الشخصيات والأعيان والموظفين، ثم الطبقة الوسطى حتى السافلة [هكذا في الأصل] من الشعب، فهناك ترى الزعيم الكبير يعقوب فراج، والأستاذ عجاج نويهض، وبعض الشيوخ والقسيسين، وهنا ترى فروسو زهران "وما أدراك من هي فروسو"!! تبكي وابنتها بكاء مراً على فقدانهم العزيز أبا نادر!! وكان -والحق يقال- اجتماعياً في كل ما في هذه الكلمة من معنى، فقد وهب حياته للفن، وعاش ومات من أجل الفن، لا يعرف للمال قيمة، ولا للدنيا ثمن، وقد قضى حياته في اللهو والمسرات والسهر والشطحات، يقضي فصل الشتاء في أريحا، وينتقل في الصيف إلى الجبال، عاش أعزب، ولكنه فات المتزوجين، فكانت غرفته الفنية في شارع مأمن الله يضرب فيها المثل فهي مكدسة بصور الفاتنات والآرتستات [أي الفنانات]، والبعض من هذه الرسوم من ريشته رحمه الله. كان فناناً أصيلاً ويعزف على الناي، واشتغل ليس لشيء سوى الفن مع فرقة الإذاعة بالقدس زمن المرحومين إبراهيم طوقان واللبابيدي والسعودي وغيرهم، ومات زمن رئاسة الأستاذ عجاج نويهض الذي أحبه وقدر فيه الفن الأصيل، وقد [نعاه] بكلمة رائعة على صفحات الجرائد بالقدس أدونها للذكرى.

مات أبو نادر مأسوفاً على شبابه عن عمر حوالي الخمسين عاماً. كان الجناز عن روحه في كنيسة سمعان الشيخ داخل حرش محلة القطمون للروم الأرثوذكس، وقد اضطررنا إلى خدمة الحضور فأنزلناهم في سيارات إلى مقره الأخير مقبرة صهيون، ودفن بجانب قبر المرحوم والدي جرجس جوهرية. رحم الله توفيق رحمة واسعة وأسكنه فسيح جنانه، وألهمنا من بعده الصبر والسلوان، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

أما سبب وفاته فكانت ضعف القلب كما قرر الأطباء الدكتور هرمان سيمون، ومحمود الدجاني، وتوفيق باز حداد، لأن المرحوم أصابه مرض بالمفاصل عندما كان في حداثته، وكما قال الأطباء من يذق هذا المرض الخبيث لا بد أن يموت بعد الأربعين في ضعف القلب.. وكان ذلك ويا للأسف!

كان صديقاً وفيا لصديق العائلة أمير الكمان الأستاذ سامي الشوّا، وله معه حوادث طريفة في زوايا بيت المقدس، والجدير بالذكر أنه عندما أخبرنا الأستاذ الشوا بوفاته تأثر جداً وقد أقام عن روحه جنازاً في كنيسة الروم الكاثوليك في القاهرة، دعا أصدقاءه الكثيرين في القاهرة، وأرسل لنا دعوة خاصة فقدرنا فيه هذه الأخلاق الحميدة والأخوة الصادقة فشكرناه.

عازف الكمان سامي الشوا

ولما كان المرحوم توفيق فناناً أصيلاً فقد خلدت رسمه ورفعته بين الفنانين المشهورين في غرفة الموسيقى ضمن المجموعة الجوهرية. أقمت رسمه النادر وشعر رأسه المتشيب المتجعد في إطار كبير شرقي من صنع دمشق محاط بالنايات التي كان يعزف عليها في البيت والإذاعة، وقد وضعت تحت هذا الرسم الأنيق (PLATE) لوحة الرسام خاصته، وفيها بعض الريش الذي كان يرسم فيها. وزاد على ذلك قد سلطت نور الكهرباء من آلة موسيقية تعرف بالكلارنيت معلقة مقابل الصورة عن بعد، فجاءت آية من الفن الرفيع تليق بما كان المرحوم يتحلى به في حياته، وقد زانت هذه الصورة صور الفنانين الأخرى، أمثال السيد درويش، والشيخ سلامة، والمنيلاوي، ومحمد عثمان، وعبده، ومحمد أبو العلاء، وعبد الحي حلمي، وعبد الوهاب، وأم كلثوم.

اشتهر توفيق بدمه الخفيف وذوقه الرفيع وفنه الأصيل، فكان - رحمه الله - حاضر النكتة، سريع الجواب، قوي الحجة، وله حوادث طريفة لم تزل تحكى عنه في مجالس أهل بيت المقدس على اختلاف أنواعهم وأشكالهم، وسأدون هنا بعضها لأخذ فكرة صغيرة عن أبي نادر، وقبل ما أبدأ بتدوين حوادثه الطريفة هذه سأذكر كلمة الأستاذ الفاضل عجاج نويهض:

كان توفيق جوهرية ذواقاً موسيقياً بمعشره ومجلسه، وقد عرفته وهو أستاذ الناي في فرقة الإذاعة الفلسطينية خلال الحرب الثانية، فاكتشف فيه عناصر من الأخلاق والمروءة نادرة في الرجال، ووفائه لأصدقائه، أما إتقانه على الناي، فقد كان فيه منفرداً، فإذا مشت الأنغام وراحت تتناغى وتتناغم، انسكبت عليها من ناي توفيق جوهرية عذوبات أرق من الندى، ولها لونه الذي هو فوق اللون. والمتصلون بالجيل الجديد وبجموع الشعب عن طريق الموسيقى، يعدون من بناة العروبة المبصرة إذا ما كانت ألحانهم وأنغامهم كالثلاثة الذي أتينا على مجمل لمعهم الآن: يوسف بتروني، وقسطندي الخوري، وتوفيق جوهرية.

توفي توفيق أواخر الحرب الثانية في القدس، وأعتقد بأن نايه لم يزل محفوظاً في بيت أخيه المجموعة الجوهرية، وكأنه لم يزل بين أصابع صاحبه.

ملاحظة: بقلم عجاج نويهض

[جريدة الأنوار، بيروت بتاريخ ٨ كانون الأول سنة١٩٦١].

المطربة شاهناز

زارنا في المجموعة الجوهرية الأخ عيسى [ناقص في الأصل] من أهالي بيت لحم، وكان هذا في مرحلة ما بعد الحرب العظمى الثانية قنصلاً شرفياً [أي القنصل الفخري] للبيرو في أميركا الجنوبية. زارني وعائلته ومعهم عائلة أبو شابة التي تدعى ابنتهم فرجيني ذات الصوت الجميل.

سمعت السيدة فرجيني وصاحبتني في غنائها على عودي، فأعجبت والحقيقة بصوتها وطريقة أدائها في بعض المقطوعات المعروفة. وزاد على ذلك أن شكلها يتناسب والموسيقى، لأنها نحيفة القوام ذات صبغة من الجمال العربي، وفي وجهها

بسمة طاهرة. تبادلنا الزيارات وزرتها مع العائلة والأخ أمير الكمان سامي الشوا ، واتفقنا على أنها موهوبة وتصلح بأن تستغل صوتها وتظهر على الشاشة بعدما تتعلم أصول الغناء على يد المشهورين في مصر. وقد نصحتها مبدئيا بأن تتعلم ولو لمدة وجيزة قراءة القرآن الكريم لتخفي أخيراً ما تعودت عليه من اللهجة التلحمية [أي لهجة بيت لحم] ، وقد نفذت هذا الطلب ، واكتسبت ما كنت أصبو إليه ، وكانت دائماً تفضل عزفي وهي في دور الغناء وترتاح جداً مني أكثر من الغير. وإني ابتكرت لها اسماً فنياً موسيقياً يتناسب وهوايتها فبدلاً من فرجيني سميتها [شاهناز] أي بمعنى درجة صوتية تقع ما بين الكروان والحيير ، وهي جواب الرزكولة ، وذلك في السلم الموسيقي العربي الاسم فارسي بمعنى دلال السلطان. وهكذا عرفت بعد بهذا الاسم الموسيقي.

تعاقد معها تلحمي إخوان ، وكان العقد في بيتنا ، وذهبت إلى مصر لمدة سنة كاملة ، وكانت تتعلم الفن في الموسيقى ولتكون على الشاشة السينمائية. ولكن مع كل أسف بعد مدة السنة رجعت فلسطين ضعيفة البنية ونحيلة الجسم ، فضعف –ويا للأسف– صوتها ، والسبب كما قالت بأن تلحمي هو الذي جنى عليها كما ادعى بأنه من الواجب أن تضعف جسمها عند وقوفها على الشاشة للتمثيل.

كانت شاهناز محافظة على شرفها ولا سيما [أن] والدها لم يتركها دقيقة واحدة خوفاً عليها من أولاد الحرام. وقد رجعت القدس وتعلمت على أيدي الموسيقار توفيق الباشا وغيره ، ولكن النتيجة أسفرت عن تركها الفن الموسيقي والتمثيل وتركت البلاد وذهبت إلى الديار الأميركية ،وإني دائماً أدعو لها من الأعماق.

وإني أذكر أنها عندما كانت أخيراً في القدس أقيمت حفلة وطنية في جمعية الشبان المسيحية بالقدس ، وبالمناسبة جاءني الأخ العزيز هاشم بن المرحوم حسين أفندي الحسيني ، وطلب مني تلحين قصيدة ألفها المرحوم علي محمود طه في مصر بمناسبة رجوع سماحة المفتي الأكبر الحاج محمد أمين الحسيني من أوروبا إلى مصر كلاجئ سياسي عند الملك فاروق ، فقد لحنتها وتوفقت بتلحينها كل التوفيق من مقام العراق ، وقد علمتها إلى شاهناز وأنشدتها صحبة الأستاذ عبد الفتاح منسي عازف القانون على مسرح جمعية الشبان المسيحية ، وكان -آنذاك- معلماً لولدي جورج فكانت شاهناز والأغنية موضع إعجاب الجمهور في تلك الحفلة الوطنية الخيرية وهذه هي القصيدة :

صبتك في الشرق آمال وأحلام   وقبلتك جراحات وآلام

واستقبلتك على الوادي وضفته   عروبة وثبت فرحى وإسلام

وحقبة من جهاد رفرفت وهفت   بها ليال من الذكرى وأيام

تعانق العائد المنفي في بلد   حماه للحر إعزاز وإكرام

ديار فاروق من يلجأ لساحتها   فقد حمته من الأحداث آجام

يطيب للعربي المستجير بها معا   شه ويرق الماء والجام

هزت فلسطين أنباء يطير بها   برق على جنبات الليل بسام

قد أقسمت لا ينال الدار مغتصب   حتى وإن شرفت بالنار أعلام

قالوا هو الحق ما نسعى لنصرته   يا لبؤسه من هوان أهله ساموا

يا شرق لا تخدعك دعوتهم   واقبض يدا فحديث الحق أوهام

فأين من بشروا الدنيا بآيته   من عالم لا يراه البغي والذام

يا شرق سل بالحسيني الذي ضيعوا   واسمع لحقك لا يخدعك هدام

وأنت يا أيها الغادي عروبته   صبتك في الشرق آمال وأحلام

صديقي المطرب عبد الغني السيد

زارني المطرب المعروف المصري بعد انتهاء الحرب العظمى بالقدس، وقد أعجب جداً مما رآه من التحف النادرة الأثرية، وخصوصا تلك المجموعة من الآلات الموسيقية الشرقية. وقد تباحثنا في فن الموسيقى وأسمعته من محفوظاتي الغنائية القديمة التي أعتبرها بأنها غريبة عن الجو المصري، وبعيدة كل البعد عن الموسيقى الحديثة عند العرب، وأقر أنها تهز المستمع وتطربه، وفي الوقت ذاته تشجع وأسمعني من محفوظاته القديمة المصرية وتكررت زيارته للمجموعة الجوهرية.

وقد أفادني هذا المطرب أنه يملك قطعة موسيقية شرقية نادرة مصنوعة من قرعة مستطيلة تشبه نوعاً العود في عدد الأوتار والقياس المتناسب، وقد وعدني بتقديمها لي لوجوب عرضها مع أخواتها في المجموعة الجوهرية عند أول فرصة يتمكن فيها من إرسالها لي من القاهرة شريطة أن يوافق أستاذه الموسيقار محمد عبد الوهاب الذي يحتفظ بها في الوقت الحاضر، ويحب العزف عليها.

وهكذا، ولحسن حظي، كلفت الأخ أمين الحسيني الذي كان من أصدقاء المطرب عبد الغني السيد عندما سافر إلى القاهرة فاهتم هذا الأخ بالأمر، وذهب صحبة عبد الغني السيد إلى منزل الأستاذ محمد عبد الوهاب، وبعدما أظهر عبد الغني السيد شدة إعجابه بالمجموعة الجوهرية، وخصوصاً بصاحبها صاحب هذا الكتاب مما حواه من مواهب في الموسيقى والفن من جميع وجوهه، تذكر عبد الوهاب اسم واصف جوهرية الذي كان تعرف به بواسطة الأستاذ الكبير إسعاف النشاشيبي بالقدس، سلم الآلة الموسيقية بكل سرور إلى الأخ أمين الحسيني، وهذا بدوره حملها في يده طول الطريق حتى سلمها لي مع تحيات الأستاذ الأكبر محمد عبد الوهاب وعبد الغني السيد.

ولم أزل - والحمد لله - أحتفظ بهذه الآلة الموسيقية وأحملها في تنقلاتي ورحلاتي بالنظر لصغر حجمها وعذوبة عزفها ليومنا هذا، وإني بالحقيقة أعترف بأنها زادت قيمة مجموعة الآلات الموسيقية الموجودة في المجموعة الجوهرية وعددها أربعة وسبعين آله.

الاستقامة عين الكرامة

أخي القارئ: ليس أبغض إلى نفسي من التحدث عن نفسي، ولكن اسمح لي أن أدون هذه الواقعية وفيها من العبر خصوصا لخلفي فقد صدق من قال "الاستقامة عين الكرامة".

كانت السيدة أنجيليكي آغا اليونانية صديقة العائلة، وكانت تملك عقاراً مؤلفاً من بيت سكن طابق أرضي مقام على مساحة دونم من الأرض، ودونم آخر مفرز بجانبه مستعملاً موقتاً كبستان للمسكن. وهذا العقار يقع على شارع بيت لحم الرئيسي محلة أبو كور بجوار تركيا لصاحبها الحاج حسين أبو خاطر من سلوان.

عزمت هذه السيدة مغادرة البلاد، ولعظم ثقتها بي فوضتني بموجب وكالة رسمية نظمت في مكتب الأخ المحامي أنطوني عطا الله تخولني بالإشراف الكلي على هذا العقار، وأن أبيعه بمبلغ لا يقل عن الألفي ليرة فلسطينية، وهكذا تركت البلاد قبل الحرب العظمى الثانية، فأجرت السكن لصديقنا فايز بك الإدريسي وعائلته، ثم إلى [رمزي] حنا الخوري. وشاء

القدر أن أوفق في بيع الملك المذكور وبموجب الوكالة المذكورة بمبلغ "أربعة آلاف وخمسمائة ليرة فلسطينية" إلى الأخ أبو غزاله من أشهر تجار القدس الذي أكرمني بمبلغ مائتين وخمسين ليرة فلسطينية.

استلمت قيمة الشراء بموجب شك موقع من المشتري وباسم السيدة آغا بنك باركلس بالقدس، وكنت أجهل عنوان صاحبة الملك موكلتي وبقي المبلغ باسمها. ولما كانت صاحبة الملك يونانية التبعة سرت إشاعة ما بين اليونان بالقدس أن واصفاً استغل غياب السيدة آغا وباع الملك بمبلغ أكثر من المفوض إليه.

إلى أن رجعت المالكة السيدة أنجيليكي آغا وعندما اجتمعت بها وعرفتها ما قمت به من خدمة ... تعجبت جداً وقامت وقبلتني فرحة، وكانت تثني على أمانتي هذه، وفي الوقت ذاته دفعت لي كهدية ثلاثمائة وخمسين ليرة فلسطينية قبلتها شاكراً.

هذه هي الحادثة الحقيقية، ولكن تبين لي فيما بعد أن الإخلاص في العمل والمحافظة على الأمانة أدخلت علي ربحاً لم يكن في الحسبان. فقد قامت السيدة أنجيليكي بدعاية وسيعة ما بين صديقاتها من اليونان من لهم مشاكل في أملاكهم وهكذا فوجئت بما يلي:

١. اشتريت قطعة الأرض العائدة لورثة المرحوم بنايوت أفندي قسطندي المرافق للبطريرك ذميانوس، وبعدما جهزت هذه الأرض بالطرق القانونية وحصلت على توقيع المجاورين لها على خريطة جديدة بحكم وظيفتي ... بعتها إلى الأخ محمد العلمي خال فائز العلمي في مدة لا تتجاوز السنة في نهاية العام ١٩٣٦، وربحت مبلغاً لا بأس به، وقد أقام محمد المومى إليه عمارة كبيرة عليها تشغل دائرة الجوازات وضريبة الدخل وغيرها.

٢. اشتريت قطعة الأرض العائدة لورثة جورج متى الواقعة في حي القطمون بجانب أبو قاسم الكرشاني ... وبعدما جهزت هذه الأرض بالطرق القانونية وحصلت على توقيع المجاورين على خريطة جديدة بحكم وظيفتي.. بعتها إلى أولاد السروجي، فأقاموا عليها عمارة شاءت الصدف أن تسكنها ابنتها يسرى عند زواجها وقد ربحت كثيراً من هذه العملية.

٣. اشتريت قطعة الأرض التي تخص ابنة المرحوم الحكيم جورج دير الروم الواقعة في محلة كولونية اليونان، وفي وقت قصير بعتها إلى الأخ عيسى قرط الذي أقام عليها بناء جميلاً وربحت كثيراً.

٤. اشتريت ثلاث قطع من مدام جاني في كولونية اليونان وبعت هذه القطع بثمن عال لم يخطر لي في بال.

٥. ثم وبعدما تيسر معي من النقود توفقت فاشتريت قطعة الأرض رقم ٢ من سيدة يهودية من خريطة الإفراز العمومية من كولونية موكور حايم، وعلى سبيل المثال دفعت ٤٥٠ ليرة فلسطينية ثمنها، ثم أفرزتها باسمي بواسطة الأخ جمال هاشم المساح المعروف -آنذاك- إلى ست قسائم، وبعت كل قسيمة منها بمبلغ يقرب من الألف ليرة فلسطينية.. والجدير بالذكر أن هذه البيعة كانت لي بمثابة مثال الوطنية أي [شراء من اليهود وبيع إلى العرب].

سرت في هذا العمل وأنا أجلس على كرسي الحكومة، وكنت عند الإقدام للعمل أكتب عقد البيع ليس باسمي بل باسم أحد أصدقائي، وهم والحمد لله كثيرون، أمثال إخواني أولاد العم محي الدين الحسيني، والحاج جودت وإبراهيم علي

الحزينة ، وذلك بعدما أجري تنظيم وكالة دورية من هؤلاء لاسمي ، وأنا كنت بدوري بالبيع إلى المشتري . . . وذلك خوفاً من تسجيل العقارات باسمي مباشرة بصفتي كنت مدير مال القدس .

وأخيراً اشتريت حصة واحدة من ٢٥ حصة في أرض تعرف بذنبة الثور الواقعة باب الخليل بجوار ملك حلبي وطنوس وتسجلت هذه الحصة باسم الأخ إبراهيم علي الحزينة ، الذي وافق خطياً بموجب سند محفوظ لدي أنها ملكي إنما وضعت باسمه مؤقتاً .

كانت موقعية كبرى بواسطة السيده أنجيلكي آغا وفاتحة خير نظمت فيها أموري واشتريت الحصة من أخي خليل في الدار شراكتي في حي القطمون ، وتزوجت يسرى وليلى سنة ١٩٤٧ ، الأمر الذي كلفني الكثير في زواجهن وجهازهن ، هذا بالإضافة ما أنفقته من مال بشراء القطع الثمينة من التحف الشرقية على مختلف أنواعها ، وخصوصا مجموعة الصيني التي ضمت للمجموعة الجوهرية ، وإني أشكر الله عز وجل على عطائه ، راجياً أن يهدينا دائماً إلى الطريق المستقيم . . . وإن الله يهدي من يشاء .

حالة البلاد بعد انتهاء الحرب العظمى الثانية بالقدس

تواصل كفاح العرب في فلسطين ضد الإنكليز والصهاينة إلى سنة ١٩٣٩ عندما دخلت بريطانيا في الحرب العظمى الثانية ، فقد توقف الكفاح توقفاً شاملاً في البلاد ، وكنا نرى بأم عيوننا بعض رجالات العرب من المقربين -آنذاك- إلى سياسة بريطانيا يوزعون المناشير بكثرة على الأهلين لوقف الثورة بسبب الحرب ، مع العلم بأن أكثرية الزعماء من العرب كانوا معتقلين ومبعدين إلى بلاد خارج فلسطين . وهكذا بين عشية وضحاها استراحت حكومة الانتداب ومعظم اليهود من بطش ثوار العرب الذين نكلوا فيهم ، وأذاقوهم ألوان القلق والخوف والجزع منذ سنة ١٩٢٠ رغماً عن قلة عددهم [أي عدد الثوار] .

وفي أثناء الحرب العظمى الثانية ، وقع العرب فقاطعوا دولة الانتداب في كل ما يتعلق بهم ، ولم يساعدهم بتاتاً بل استغل اليهود هذا الموقف فدخلوا في صفوف الجيش وتمتعوا في منشآته وحركاته الحربية فربحوا أموالاً طائلة ولم يزاحمهم أحد في ذلك .

وبعد الحرب مباشرة وجد اليهود بأنهم انتصروا في هذه الحرب وتخلصوا من كابوس هتلر والألمان وبدأوا يطالبون الإنكليز في العمل الجدي لسرعة تنفيذ هدفهم ، وهو الوطن القومي ، فزادوا الهجرة ، وزادوا في جلب الأسلحة وأصبحوا على حذر ، وفي حالة تمكنهم على الوقوف علناً ضد بريطانيا في حالة بقائها على المماطلة كما هي عادة الإنكليز في العالم ، وقد اتضح للعيان أنهم تمكنوا من تشجيع أميركا لهم في هذا الموقف في فلسطين ، وباشروا بعمل الإجرام والحوادث المثيرة ضد حكومة الانتداب بصورة يعجز القلم عن وصفها ، إنما على قدر المستطاع أعطي القارئ لمحة وجيزة عن أعمالهم الوحشية المجرمة ضد الإنكليز ، حتى قلنا فيهم سبحان الذي قال [اتق شر من أحسنت إليه] صدق الله العظيم .

ظهرت هذه الثورة اليهودية العارمة واضحاً عندما قتل اللورد موين البريطاني في مصر ، وثبت بعد موته أنه قتل بأيدي اليهود المنسوبين إلى المجرمين في فلسطين المعروفين بالعصابتين السريتين :

الأولى: الأرغون زفاي ليومي بقيادة مناجم بيغن وهو يهودي أوروبي.

والثانية: عصابة شتيرن نسبة إلى رئيسها شتيرن اليهودي، وكانت هذه العصابات المستترة بقيادة الهاغاناة، فهي كانت تدير شؤونها على أحسن وجه من الوحشية والإجرام.

والجدير بالذكر في هذا الصدد أن بريطانيا ذاتها هي التي سمحت في الأساس بتأليف فيلق يهودي سنة١٩٤٤، فكتب - ويا للأسف- المارشال [وينغيت] البريطاني بالسماح بتشكيل ذلك الجيش حالاً، ولا خوف من العرب، بل قال لعنة الله بالحرف الواحد "ولم يتحرك كلب عربي واحد ! !" وهكذا انتدبوا الجنرال (Wingate) البريطاني الخبير بحرب العصابات لتدريب "الهاغاناة".

وكما قال المثل "وعلى الباغي تدور الدوائر" فقد رأينا وشاهدنا أن هذه بما يسمونها الهاغاناة والعصابة الأولى والثانية قلبوا فنكثوا العهود، وأصبحوا جميعاً يفتكون بالجيش البريطاني في فلسطين، ثم تمكنوا واعتدوا على أكبر شخصيات حكام الانتداب البريطاني، فقتلوا وشنقوا وذبحوا وشوهوا أجسام الجيش بحوادث تقشعر لها الأبدان، ثم نسفوا ودمروا أكبر عدد من دوائر الانتداب البريطاني في المدن الرئيسية في فلسطين.

حادث إنذار اليهود بنسف دائرة الحاكم

كنت مدير مال دائرة إيرادات مدينة القدس في غرفة الطابق الثاني من عمارة الروس المعروفة -آنذاك- بدائرة الحاكم. فقد جاءني المراسل وأسرها في أذني بأن راغب بك النشاشيبي يرغب مكالمتي تلفونياً. ونظرا لكثرة المراجعين والموظفين في الغرفة، وصداقتي مع راغب بك صعدت إلى الطابق الثالث، ومن غرفة منعزلة تكلمت تلفونياً مع راغب بك، وطال بنا الحديث، وكان بخصوص شغل خاص من أملاك راغب بك الذي رجاني به لمساعدته على ما أذكر.

وكنت حسب عادتي والطقس صيفاً بدون الجاكيت والطربوش. انتهت المكالمة التي -كما قلت- أخذت وقتاً لا بأس به فخرجت من الغرفة ولم أجد أحد ما في الإيوان، بل كان المكان خاوياً وساكناً ... ثم نزلت إلى الطابق الثاني وهناك أخذني الخوف والفزع عندما شاهدت بأن الإيوان لهذا الطابق خاوٍ أيضا من المراجعين، والأنكى من هذا كله لم أجد موظفاً واحداً في أي من غرف هذا الطابق، فجن جنوني وسارعت بالنزول إلى الطابق الأرضي متجها إلى مدخل السراي الرئيس.

وإذ قابلني أفراد الجيش بالخوذ الحديدية مشهرين على أسلحتهم يأمروني بالوقوف والتسليم ! ! فارعبت جداً وتقدمت منهم وبعد المحادثة تأكدوا بأنني أحد موظفي هذه الدائرة ... ولكنهم أمروني بالخروج بأسرع ما يمكن من الدائرة وأنا لم أبدِ أية حركة، بل امتثلت لأمرهم وخرجت راكضاً، وإذ الشارع الرئيس وهو شارع يافا المقابل لدائرة الحاكم خاوٍ من الناس ومكتظ بالجيش فقط.

وأصبحت والعياذ بالله في حالة يأس أركض من محل لآخر أشبه بالبسة المصعورة ... وإذ أحد من زملائي في الوظيفة يصيح بأعلى صوته [يا واصف لا تخف انزل على شارع بن يهودا .. فالدائرة ملغومة ... فابتعدت عن العمارة قدر

المستطاع ونزلت راكضاً إلى الشارع المذكور ودخلت مقهى أخي وصديقي يعقوب زخريا وشركاه بجانب سينما ركس وهناك أسعفني وقدم لي الكازوز .

وأنا في حالة يرثى لها من شدة الفزع ، وقد شاهدت بأن جميع الموظفين والناس على الأرصفة ينتظرون انفجار اللغم والهيبة لله . كان حادثاً مؤثراً للغاية وكان منظري مرعباً والكآبة على وجهي . . ولكن أتدري ماذا حدث بعد ؟

كنت وأصدقائي واقفاً في باب المقهى ، وإذ جميع موظفي دائرة البريد العمارة الجديدة المؤلفة من ثلاثة طبقات يهرولون . . ويتسابق الواحد عن الآخر من رجال ونساء يركضون أفواجاً إلى خارج الدائرة المذكورة فأصبحوا في الشوارع لأنهم تلقوا إنذاراً مماثلاً عن وجود لغم مؤقت داخل العمارة ، وعلى وشك الانفجار ، وانضموا أيضاً لموظفي دائرة الحاكم بصورة تدعو إلى القلق والرعب ، إلى أن ذهب كل منا إلى بيته ولسان حاله يقول "عشنا وشفنا سنين ومن يشوف العجب" . هذه حادثة واحدة من حوادث كثيرة .

مناطق محظورة الدخول إلا بهوية خاصة محاطة بالأسلاك الشائكة ونسف دوائر من اليهود

أخذ التعدي اليهودي على الجيش وموظفي حكومة الانتداب بالتزايد ، فانكسرت شوكة حكومة الانتداب ، وقد لجأت إلى فكرة جعل المناطق الحساسة التي كانت تشغلها الحكومة وموظفي الحكومة وعائلاتهم فنظمت ثلاثة مناطق بالقدس :

١. Zone

المنطقة الأولى تضم عمارة الروس المعروفة بالمسكوبية ، وفيها أكثر الدوائر أي دوائر العدل ، والبوليس والاستخبارات ، والحبس ، والنافعة ، والمستشفيات الحكومية ، ودور الولادة الحكومية ، ودائرة الحاكم والمهاجرة وغيرها .

٢. Zone

المنطقة الثانية تضم دائرة الطابو وجمعية الشبان المسيحية ، وفندق الملك داود ، بما فيه دار صاحب هذا الكتاب المجموعة الجوهرية في جبل النيكوفورية ، والقنصلية الفرنسية ودير اليسوعية المقابل شمالاً لفندق الملك داود وغيرها من عمارات معروفة .

٣. Zone

المنطقة الثالثة تضم أعظم سكن عائلات رؤساء الدوائر البريطانيين في البقعة التحتا وكولونية اليونان وغيرها . وقد وزعت على أهالي هذه المناطق كل بمنطقته هويات تمكنه من الدخول عند إبراز هذه الهوية ، وإنني لم أزل أحتفظ ببعض من هذه الهويات لنفسي وعائلتي للذكرى .

وعلى الرغم من جميع هذه الاحتياطات والخاسر والخراب ، فلم تنجُ حكومة الانتداب من الإرهاب ، بل كان يزداد يوماً على يوم ، فقد نسفت الدوائر الآتية التي كان أكثرها ضمن المناطق المحصنة حتى قلنا "ويأتيكم الموت ولو كنتم في بروج مشيده" صدق الله العظيم .

دائرة الطابو في ساحة شارع مأمن الله ملك اسحق كوهين ، وأتلفت القيود والمستندات العائدة للشعب .

دائرة بوليس مأمن الله مرة بعد مرة ويا للعار .

دائرة المهاجرة والسفر بجوار المسكوبية ملك عمايل اليهودي .

دائرة البوليس المركزي مرة بعد مرة .

دائرة البريد شارع يافا .

عمارة السجن المسكوبية .

عمارة الاستخبارات المسكوبية [وأهمها فندق الملك داود وفيه دائرة السكرتير العام] .

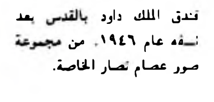
وغيرها من الدوائر التي كانت لها قيمة عظمى عند حكومة الانتداب . وهكذا شلت الحركة التجارية في البلاد ، وكثير من المخازن التجارية أغلقت أبوابها حتى كثير من الشوارع الرئيسية أوقفت الحركة وحركة السير فيها . والجدير بالذكر أن كثيراً من رؤساء الدوائر الإنكليز أمثال حاكم القدس ومعاونيه ومدير البوليس ومدير الطابو والسفر والمهاجرة . . .وغيرهم ، كانوا خوفاً من التعدي اليهودي يفضلون الشغل في بيوتهم ضمن المناطق المحصنة ، وكنت أنا بالذات وأكثر من مرة نأخذ الأوراق الرسمية ضمن الدبابة ونوصلها من دائرة الحاكم إلى بيته ، ونرجع في الدبابة وهذا قليل من كثير .

نسف فندق الملك داود وكانت الحكومة تشغله نصفه كدوائر السكرتارية العامة آنذاك

في الساعة الحادية عشرة من صباح الثاني والعشرين من تموز سنة ١٩٤٦ عندما كنت ورئيس عملي في دائرة حاكم القدس جمال بك طوقان في وظيفة لإجراء كشف وتخمين لقطعة أرض ذات مساحة قليلة بجوار نفق سينما أوكوزيون شارع بن يهودا من أرقى شوارع القدس ، إذ سمعنا صوت لغم كبيراً وقد تبعه صوت انفجار آخر أكبر من الأول ، ما لفت أنظار الجمهور والمارة في تلك المنطقة ، فوقف الجميع مذهولاً لشدة قوة صوت هذين الانفجارين ، ولم يعلم أحد منا ولا من الحضور مكان الانفجار ، فرجعنا أنا وجمال بك بسرعة إلى دائرة الحاكم ، وبعد البحث وجدنا أن جميع موظفي دائرة الحاكم وأقلام الدوائر فيها وحتى الحاكم نفسه ، لم يعلموا أين وقع هذا الانفجار الفظيع الذي هز أرجاء وأركان المدينة من كل جهاتها .

وزيادة على ذلك وبعد الاتصال بدوائر البوليس من قبل إدارة الحاكم لم يعلم البوليس المكان ، الأمر الذي تعجبنا منه كل العجب . وبعد برهة وجيزة إذ أخبرتني ابنتي يسرى تلفونياً وكان صوتها خائفاً من هول الصدمة ، وقالت [إن فندق الملك داود وفيه دوائر السكرتير العامة لفلسطين نسف الآن] ، ثم أضافت إن الإنقاذ وصلت وجللت بيتنا ، ومن هول الانفجار اهتز البيت هزة مروعة ، الأمر الذي أثر على بعض التحف المعلقة على الجدران في المجموعة ، وخاصة الخزف الصيني منها .

وحيث أنها وباقي إخوانها ووالدتها انزعجوا جداً وخافوا فقد تركوا البيت وذهبوا لبيت الجيران الأخ إبراهيم الحزينة للراحة مؤقتاً . ذهبت تواً بعد هذه المخابرة إلى غرفة جمال بك وعرفته بأن اللغم كان فندق الملك داود فذهب هو بدوره وبلغ الحاكم .



فندق الملك داود بالقدس بعد نسفه عام ١٩٤٦. من مجموعة صور عصام نصار الخاصة.

فقلت في نفسي هالله . . هالله . . ألهذه الدرجة وصل شلل حكومة بريطانيا العظمى؟ ! ! يحدث انفجار كهذا يؤدي إلى قتل أكبر رؤوس موظفي حكومة الانتداب، وفي أعظم حي وأشهر موقع في مدينة القدس، وفي رابعة النهار، خصوصاً وأن عمارة فندق الملك داود كان داخل المنطقة المحصنة والمحاطة بأسوار الأسلاك الشائكة [Zone ٢] يحدث هذا الحادث الإجرامي الفظيع والنادر من نوعه ضد الإمبراطورية البريطانية من قبل حفنة مجرمين من اليهود الذين كبروا وترعرعوا في أحضان الإنكليز ! ! ولم تعلم دائرة البوليس أو دائرة الحاكم بالأمر إلا عندما تلفنت يسرى؟ ! !

أصبحت في حالة تعجب وريب وشك من هذا الأمر، وأتساءل في نفسي وقلت [إذا كان الأمر حقيقياً وكان ما حدث فعلاً فبئس حكومة الانتداب وبئس خذلانها وقلت وعلى فلسطين السلام.

أما إذا كان الأمر يتعلق بالسياسة العليا وحباً باليهود وبإجرامها فقات. كما قال المثل [فخار يكسر بعضه] و[ما لهالجثة الخبيثة إلا لهذا الدواء البخس] دع بريطانيا تدلل اليهود وتقيم وطناً قومياً لهم في أقدس بقع العالم ! !

انتشر الخبر المشؤوم في القدس وعلمنا أن هذا النسف كان أفظع نسف شهدته البلاد وتبين أن الجناح الشمالي بكامله من طابقه السفلي إلى السادس هدم، وهذا الجناح كان يضم أكبر شخصيات حكومة الانتداب من إنكليز وعرب عبارة عن مائة وعشرة ضحايا سيأتي ذكر أسمائهم فيما بعد من هذا المقام. والجدير بالذكر أنه لم يكن بين الضحايا المذكورين أي شخص يهودي لأن العصابات اليهودية كانت تفيد اليهود وهم في الوظيفة بأن يتغيبوا عندما يقومون بمثل هذه الأعمال الوحشية.

وبعد الحادث مباشرة، فهم أن الألغام أدخلت بواسطة سطولة الحليب التي كانت عادة تدخل في كل صباح الفندق من المدخل الشمالي للفندق المؤدي للمطبخ والمنافع. فقد دخلت هذه السطول بواسطة المجرمين الذين كانوا مدججين بالأسلحة الكاملة، ولدى وصولهم في الطابق السفلي أمروا جميع العمال من جرسونات وخدم وطهاه وسفرجيه وعمال كوي الثياب أن يقفوا ووجوههم إلى الحائط وبعدما نفذ هذا الأمر وضعوا الألغام في زوايا العمارة المتفق عليها وحصل ما حصل في الوقت المحدد للانفجار.

كان ولدنا إبراهيم بن الخوري زخريا القسيس من رام الله [وقد تربى هذا الشاب عندي في بيتنا] من بين العمال بصفته معلم كوي ثياب يشتغل هناك، وقد جاء بعد الحادث مباشرة إلى بيتنا وأعلمنا الحادث مفصلاً ووجهه كما يقولون ما فيه نقطة دم من شدة الفزع. .

أصبحت مدينة القدس بأسرها مأتماً . . . وكان هذا الحادث البشع الإجرامي موضوع البحث لدى الأهلين وفي كل بيت يلعنون الساعة التي احتلت بريطانيا بلادنا وسمحت بهجرة اليهود ونفذت ما وعدتهم به من وجود وطن قومي. إني أدون هذه الحادثة ويدي ترتجف للذكرى المؤلمة، فقد كانت داري واقعة من الجهة الشرقية لفندق الملك داود هذا، وأصبحنا في حالة حزينة نستمع إلى الآلات الميكانيكية التي جاءت بها الحكومة خاصة لرفع الأنقاض من على الضحايا التي كان بعضهم حياً يصيح ويستغيث من تحت الأنقاض أمثال عطا الله منطورة، كما أفاد زميله تحت الأنقاض المستر ايراسون الذي نجا



صورة السيكوفورية : واصف جوهرية وعائلته في القدس في السيكوفورية عام ١٩٤٥. في منتصف الصورة يقف واصف والى يمينه اخوه تليه ميسرى ابنة واصف. فخري اخ واصف يجلس على يمين الصورة وبيده طفل. المصور غير معروف. من مجموعة صور ابنة واصف آية جوهرية شاكر.

بأعجوبة من جانبه . . الأمر الذي هدم قلوب زوجته وأولاده وبناته هدماً ليومنا هذا ، فكان الله بعونهم وألهمهم وإيانا الصبر .

عشنا أسبوعاً في بيتنا في محلة النيكوفورية على أعصابنا ، نشاهد كل جنازة تمر أمامنا من باب الخليل إلى مقابر جبل صهيون وبدون مبالغة كانت رائحة جثث الضحايا تفوح ليلاً فنتنشقها ونحن حزينون حتى تم إنقاذ الباقي منها . وبعد تاريخ هذا الحادث المؤلم بمدة ربما أسبوعين ، ولبقاء بعض زوايا العمارة من فندق الملك داود في حالة خطر ، اضطرت الحكومة على إنزالها بواسطة النسف بالديناميت فأنذرتنا مع باقي مجاوري الفندق فتركنا بيوتنا وذهبت والعائلة إلى بيت الأخت أم سليم أرملة المغفور له حسن هاشم الحسيني في حي البقعة الفوقا طريق بيت لحم ، وشاهدنا من هناك النسف وسمعنا الانفجارات المخيفة حتى هبطت الزوايا الخطرة فرجعنا البيت مساء .

كلمة أخيرة لصاحب هذا الكتاب بخصوص الأب الروحاني الإشبين العراب

ألفت نظر القارئ خصوصاً إذا كان من الأقارب إلى ما دونته عن أشابين العائلة الجوهرية ، فكان المرحوم وليم الخياط [كونشلير حكومة بريطانيا بالقدس إبان الحكم العثماني ، لكل مني ومن إخواني وأخواتي وكانت المرحومة الآنسة نسطاس عبده شقيقة المرحومين نقولا وسمعان عبده الإشبينة [ما عدا الأخ فخري] ، ولذلك رغبت من كل قلبي بمواصلة هذه القربى الروحية ، ورجوت نجلا نقولا عبده وقبلت وكانت إشبينة ابنتنا ليلى ، وكذلك إشبينة ولدنا جورج كما ذكر في مقال الأستاذ السكاكيني .

حرب الأعصاب في المدينة المقدسة

أدون للقارئ ما حدث لي بالذات من خوف وانزعاج بعد نسف فندق الملك داود وذلك في حادث محزن ومضحك من هذا القبيل :-

كان في صباح نهار أحد من شهر آب سنة ١٩٤٦ عندما كنت لابسا ثيابا أنيقة فنزلت من داري النيكوفوريه عن طريقة محلة جورة النسناس فوصلت طريق مأمن الله وعرجت إلى دكان الكوي العائدة إلى أخي وصديقي جورج مراد ، فعندما وقع نظره علي صاح بأعلى صوته يا واصف . . أدخل الدكان حالا مشيرا إلي بيده ، وقد لاحظت بأن الناس يقفون على أرصفة الشوارع منهم من دخل [. . .] ومنهم ومن أصحاب المخازن أغلق الأبواب بسرعة فائقه ، والجميع يحلق بعيونه ب "سيارة نقل لوري . . " كانت واقفة بدون سائق مقابل مخزن أولاد الداودي من عمارة وقف العنابوسي وهذا المخزن كان فيه سابقا "بنك باركلس" في الساحة المقابلة لمثلث عمارة بلدية القدس سابقا .

كان الجميع في حالة فزع شديد يعتقدون أن هذا اللوري ملآن بالمواد المعدة لنسف تلك المحلة عن بكرة أبيها وضعه اليهود انتقاما من العرب . كانوا ينتظرون خبراء الحكومة الأخصائيين في إبطال مفعول الألغام . دخلت الدكان وأغلق جورج الأبواب الحديدية علينا وبقي فتحة باب ذو الدرفة الواحدة وقد وقفنا ولم نبدي حراكا في داخل الدكان ننتظر القدر . .

وبقينا عانشين على أعصابنا ولسان حالنا يقول : "لا تنكروا خفقان قلبي . . والحبيب . . لدي حاضرز" إلى أن سمعنا الغوغاء والضحك المتواصل من الناس في تلك البقعة وبعد الإستفسار وجدنا أن (اللوري هذا) هو شخص من الخليل . . عربي وليس يهودي أوقفه هنالك وذهب لقضاء عمل ما داخل سور مدينة القدس. وهكذا شاركنا الناس أفراحهم وودعت الأخ جورج ومشيت متجها مأمن الله ، وإذ جمهور من الشعب يركض وفي حالة ذعر آتيا من جهة مأمن الله ، فسألنا ما الخبر فقيل لنا :-

أن معمل الورق والكرتون الذي كان في عمارة مخزن حنا الزنانيري ملك حنا القواس من بيت لحم ملفوفا وقد حذر العمال تلافونيا فنزل كل من يسكن ويعمل في تلك العمارة مذعورا وترك كل شيء . . ليسلم من الشر . وهكذا اضطررت الدخول في دكان أخي وصديقي بشاره فريج بائع كل أنواع الخمور المسكرات . . والدكان ملآى بقناني الخمور من أرضها إلى السقف . . من جهاتها الثلاث .

فوقفت مذعورا والجدير بالذكر ولأجل الصدف وجدت زوجته ياسمين هناك تبكي خوفا من نتيجة هذا اللغم المؤقت وكان زوجها يطمئنها . . وهو في منتهى النرفزه . . وقد كلفني بأن أساعده على الإطمئنان . . فامتثلت لأمره وبدأت بكلمات وكلها لطف لا عبر لها أن لا خوف من أبدا ونحن بعيدين عن العمارة إلى ما هنالك من اطمئنان وتطمين . .

ولكن المرأة لم تصدق بل زادت في البكاء والنحيب وتذكر أولادها . .

أما أنا وذلك الشخص الذي كان فمه يطمئن هذه المرأة فقط . . وقلبي يخفق خوفا وجزعا . . فكنت أقول في نفسي يا الله ماذا يحدث إذا لا سمح الله صدق هذا الإنفجار فبالطبع يهز أركان هذا المخزن . . فتقع هذه القناني بيننا . . إلى ما هنالك من أفكار قاله فعلا . وقلت في نفسي لماذا لم أدخل مخزن أخي وصديقي محمد هرام الخياط والمخزن ملآن بالحرير والكربدوشين وهو ملاصقا لهذا المخزن الملعون . .

أكتب هذا المقال ولن أنسى ما ذقته من هذا الحادث من خوف وجزع إلى أن كتب لنا الحياة فجاء من يخبرنا بأنه لا يوجد مفرقعات . . ولا ما يحزنون . .

فرجع العمال وأصحاب المتاجر في تلك المحلة إلى عملهم بعضهم يضحك والبعض لم يزل وهو وكأنه في غيبوبة يلعن الوقت الذي دخلت بريطانيا فيه بلادنا وسببت لنا من ريبها هذه الألوان من الجرائم البشعه . أما أنا فقد رجعت توا إلى منزلي في النيكوفوريه عن طريق السان جوليان فدخلت المنطقة المحظورة والتي يقع بيتي فيها بعدما أطلعت الجيش على البطاقة الخاصة التي تسمح لي بالدخول فوصلت البيت وحدثت أهلي عن الرواية والتي لم أنساها ما دمت حيا .

قرار تقسيم فلسطين الغادر

صحوت من نومي في صبيحة نهار الأحد الواقع في ٣٠ تشرين الأول سنة ١٩٤٧ وأول نظرة وقع نظري على ولدنا جورج الذي كان صاحيا في فراشه على سريره في الغرفة العليا من دارنا في محلة النيكوفوريه .

فتحت الترانزستر [المقصود ادرت المذياع][1] بجانبي وإذ فوجئت بخبر قرار تقسيم فلسطين من "ليك سكس"[2] أميركا الذي تقرر في ٢٩ تشرين ثاني سنة١٩٤٧ مساء ! ! ويا لها من صدمه ! ! أصابني وولدي جورج وجوم ولم تنطق بكلمة واحده . . إنما كنا وكل منا يحلق بعيون الآخر مستهجنين الخبر المشؤوم ولن أنسى تلك اللحظة مطلقا والعياذ بالله .

تركت البيت ونزلت إلى شارع مأمن الله وشاهدت العرب متجمعين والجميع يحكي في موضوع التقسيم وهم في قلق على مصير هذا الوطن ويتساءلون يا ترى هل يتحقق لا سمح الله هذا الخبر المشؤوم ، وهل نرى فلسطين وخصوصا القسم الخصب منها سيكون مملكة اسرائيل؟ وهل في استطاعة العرب والمسلمين الوقوف مكتوفي الأيدي من هذا الحكم الجائر؟ ويخضعون إلى الذل والعار إلى المستعمر والصهاينه؟ !

هذا من جهة العرب الذين فجعوا بهذا القرار الغير منتظر ونحن ولا شك أصحاب حق وأصحاب البلاد ولا يمكن ولا مجال من الأحوال القبول بذلك ، وقد تبين واضحا للعقلاء منهم بأن رواية الوطن القومي اليهودي في فلسطين وما تبعه من فصول وذيول بمدة الثلاثين السنه تحت انتداب بريطانيا التي ساعدت على تنفيذ هذا القرار بأساليبها السياسية مثل السماح للهجرة المتدفقة إلى فلسطين من يهود العالم ، ومساعدتها لهم بشراء ما يستطيعون من أراضي العربيه إلى آخر ما هنالك من معاملات شاذه ضد العرب حتى مكنت الصهيونيه بالحصول على ما تبتغيه من قرار التقسيم الجائر واعتبروا هذا هو الفصل النهائي من الرواية ويا للأسف .

وأما جهة اليهود في فلسطين فقد قامت الأفراح والليالي الملاح وبالفعل قد تركوا منازلهم ليلة ٢٩ - ٣٠ تشرين الأول سنة١٩٤٧ يرقصون ويهللون فرحا طيلة الليل يشربون ويسكرون مع الجيش البريطاني في شوارع المدن الرئيسية في فلسطين مع العلم أن هذا الجيش كان قبل قرار التقسيم هو العدو الألد لليهود وكانوا يحاربونه في البلاد في السر والعلانيه كما سبق ودون في هذا الكتاب من أعمال وحشيه وجرائم تقشعر لها الأبدان ضد حكومة الإنتداب والجيش معا .

وهكذا ارتاحت بريطانيا وأصبحت بين عشية وضحاها الصديقة لليهود تقدم كل مساعدة وعون لتنفيذ قرار التقسيم بحذافيره كما سيجيء البحث عنه في حينه . والجدير بالذكر أن دولة بريطانيا العظمى ودهائها السياسي المحنك لم تشترك ولم تقبل (في العلانيه) على التقسيم في مجلس الأمن أبدا . . لا بل أظهرت أسفها على هذا القرار وأظهرت استيائها حتى قامت وأصدرت البيان الرسمي بأنها "لا ترغب في المثابرة على انتداب فلسطين وأنها عينت تاريخ ١٥ مارس سنة١٩٤٨ يوما لانتهاء الإنتداب البريطاني" .

كنا جماعة من أبناء القدس في صباح الأحد الواقع في ٣٠ تشرين الأول سنة١٩٤٧ في مخزن الأخ فايز العلمي الواقع في حي مأمن الله نتبادل الحديث والجميع يبدوا عليهم الحزن والتأثر وإذ لاحظنا مناشير توزع على الأهلين . هذه المنشورات كانت من قبل اليهود الوكالة اليهودية مطبوعة بخط جلي أنيق باللغة العربية وموجهة إلى العرب تقول : -

[1] يستخدم واصف الترانزستور لقصد المذياع او الراديو واستخدامه للمصطلح غير دقيق فأجهزة الراديو التي تستخدم تكنولوجيا الترانزستور لم تكن موجودة عام التقسيم (١٩٤٧).

[2] يقصد سكس Lake Success

"أنتم أيها العرب أبناء العم سـاميين، حكموا عقولكم، ولا تردوا على زعمائكم من العرب فكل له مصلحة خاصة، بل انضموا معنا وسيروا على بركة الله لنقوم سـوية في تعمير البلاد من كل الوجوه ونعيش فيها سوية كالإخوان، إلى هنالك من كلام معسول في هذا الصدد".

وهكذا كان مشهد غريب لن أنساه ما دمت حيا.

مدينة القدس بعد قرار التقسيم

أصبح الجو مكفهر في طول البلاد وعرضها إثرا على قرار التقسيم وقد شاهدنا العجب العجاب في القدس لأن فرح اليهود وما قاموا به من احتفالات قوميه علنا في الشـوارع الأمر الذي استفز شعور العرب وأصبحوا يحقدون على بريطانيا واليهود.

وفي صباح الإثنين كانون الأول سنة١٩٤٧ حدثت بعض حوادث مؤلمه من التعدي بين الفريقين فشاهدت باصات اليهود رقم ١ و٣ وأنا ذاهبا للسراي عن شارع البرنس ماري شاهدت عددا من الباصات عائدين والشبابيك مكسـرة من الحجارة التي كانت تلقى عليهم من العرب في شارع يافا - القدس، فقلنا ربنا يسـتر وكما قال المثل (أول الرقص حنجله..).

وقد اتخذت العرب في بادئ الأمر قرارا بالإضراب لمدة ثلاثة أيام تنفيذا لبيان صدر من الهيئة العربية العليا وبالفعل جرى الإضراب من صباح الثلاثاء ٢٠ كانون الأول سـنة١٩٤٧ مظهرين للعالم غضبهم واستيائهم من قرار تقسيم فلسطين الجائر، وبالطبع قامت المظاهرات وكانت كما أذكر الكثرة من الأولاد فداهموا المركز التجاري اليهودي المعروف بالشماع [يقصد الشماعة] والواقع ما بين طريق مأمن الله - جورة النـاس وجبل النيكوفوريه سكي.

داهموا هذا السوق المكتظ بتجار اليهود مما اضطر اليهود إلى تركه خوفا من المتظاهرين العرب وهكذا هجم المتظاهرون وحرقوا بعض المخازن ونهبوا ما استطاعوا من موجوداتها، ثم اتجهت المظاهرة إلى شارع يافا وأشعلوا النار في مخازن اليهود إلى أن وصلوا إلى موقع بنك باركلس.

وفي ذات الوقت من يوم الثلاثاء عندما كنت وزملائي نقوم بالوظيفة في سراي حاكم لواء القدس الكائنة في شارع يافا ومن أملاك الروس في المنعطف المؤدي شمالا طريق دائرة السفر والمهاجره، شـارع يافا، شاهدنا من نوافذ السراي تجمع يهودي ضخم من الهاجاناه وغيرهم في حالة هياج شديد وكانوا متجهين شرقا للهجوم على المناطق العربيه الصرفة ولكنهم منعوا بواسطة بعض زعمائهم والجيش البريطاني، إن قاموا بالتعدي على بعض الأماكن والأملاك التي تخص العرب في تلك المنطقة فأحرقوا سينما ركس شارع البرنـس ماري مع بعض المخازن هنالك بما فيه معمل للنجاره خلف عمارة ميخائيل مخلوف من بيت جالا الأمر الذي اضطر فيه جميع الموظفين من ترك السـراي فورا خوفا وهربا من النار والتعدي المرتقب ولم يبق في السراي أحد سوى رئيسنا جمال بك طوقان الذي تلطف وأخذني في سيارته المرفوع عليها العلم البريطاني فشقت السيارة الجمهور المتجمع في الشوارع شارع بن يهودا إلى أن أوصلني إلى المنطقة المؤمنه رقم (٢) والتي تقع فيها دارنا فشكرته ودخلت الدار وأنا في حالة يرثى لها من الفزع والقلق والرعبه.

وبعد أن استرحت قليلا بعد تناول طعام الغذاء وعند العصر من بعد ظهر الثلاثاء إذ شاهدنا بأن سور دارنا وخصوصا الشرقي والذي يطل إلى جهة تلة باب الخليل من الخارج محاط بشبان وشابات من اليهود مما يدل بأن هذه الفئة ولو أنها لم تلبس ألبسة الميدان ولكنها منظمة تنظيما عسكريا جاءوا من الجهة القبلية لدارنا المعروفة ب حي أو كومبانية المونتيفوري المعروفة وهم من الهاجاناه اليهوديه وفي أيديهم الهراوات والجارف والسطول ومنعوا جميع أفراد العائلة من الوقوف على أسوار الدار .

كانوا يراقبون جمهورا عربيا ضخما يسير بمظاهرة وغوغاء على تلة باب الخليل من الخارج المشرفة على بركة السلطان والمونتيفوري من الجنوب وعلى شارع مأمن الله وشارع يافا من جهة الغرب وأنا كنت أراقب الجميع خلسة من إحدى منافذ الغرفة الفوقا من دارنا . ولكن أعتقد أن الجمهور العربي الذي كان باب الخليل ازداد عددا وعدة وانتشر إلى أن وصل جبل صهيون وطريق الخليل حتى امتلأت جميع المنطقة بهذه الجموع المتجمعة مما أدخل الرعب والفزع في قلب العدو الذي كان متربصا بجانب دارنا ، وعند المساء ولدى سمعنا إنذار الجيش بمنع التجول رجعت اليهود من حيث أتت إلى كولونية المونتيفوري كما أن العرب تفرقوا وانزووا إلى منازلهم .

ولما كان موقع دارنا موقعا استراتيجيا بالفعل نشاهد جميع هذه المنطقة بسهولة فائقة رأينا في سكون الليل كيف أن الجيش البريطاني وفئة من بوليس الإنتداب اليهودي تحت رئاسة الضابط المستر لينكر كان يأتي بشبان اليهود ويساعدهم بفتح أبواب مخازن تجار العرب في المركز التجاري أمثال رشاد بركات وميشيل منه وغيرهم ويتساهل معهم لنهب أثواب القماش من الحرير والصوف ثم يدعهم بحرق ما يرغبون من هذه المخازن . وإني أذكر أن زوجتي عند رؤيتهم يعملون هذه الأعمال الشاذه [على عينك يا تاجر . .] بمساعدة بريطانيا وجيشها وبوليسها صرخت بالإنكليزيه بأن هذه البضاعة والمخازن للعرب وأنتم في وقت منع التجول هددوها ومنعوها من الوقوف على سور دارنا ثم صوبوا بنادقهم عليها فيما إذا امتنعت عن تلبية أوامرهم .

هذه صورة مصغرة تبين للقارئ الحالة التي كانت قائمة في البلاد والتحيز الواضح البريطاني لليهود ثم شدة التنكيل والعذاب والقسوه بالعرب أهل البلاد الأصليين ومن أمثال هذه الأعمال طيلة مدة الثلاثين سنة أصبح لليهود مملكة واستقلال في بلادنا ويا للأسف والعار .

تواصلت المعارك وذقنا في دارنا ألوان العذاب وكنا نام على أصوات الإنفجارات والمتفجرات وصوت المتريوز والبنادق والحرائق ليلا ونهارا من حولنا . . والعياذ بالله حتى وجدنا أن الحالة في البيت لا تطاق أبدا . ولحسن الحظ نوعا كنا داخل المنطقة المحصنة رقم (٢) وكان قاعدة الجيش متمركزة في الزاوية الشرقية الشمالية من سور بيتنا نطلق النار تارة على المنطقة العربيه والأخرى على اليهود حي المونتيفوري ! ! .

نسف عمارة فندق سميراميس حي القطمون

كان المرحوم أخي وصديقي لطفي أبو صوان ساكنا وعائلته في عمارة الحلبي المجاورة لبيتنا في البيكوفوريه وهذه العمارة هي الواقعة في أول مدخل سوق المركز التجاري الذي أصبح شبه خرابة وهكذا لم يطق المثابرة على السكن فيه وقد قرر تركه فأخذ عائلته وذهب إلى حي القطمون ونزلــ مع بنات عمه وصهره رؤوف لورنس في فندق سميراميس المعروف ولكن كانت وللأسف مشيئة الله فقد نسف اليهود هذا الفندق بواسطة المتفجرات ليلة ٥ كانون الثاني سنة١٩٤٨ فقتل ١٥ شخصا كان بينهم لطفي وعائلته زوجته وأخواتها وأخوهن رؤوف لورنس وابنه رحمهم الله والجدير بالذكر أن زوجته المغدوره نصحتنا بأن نرافقهم إلى هذا الفندق لنتخلص من محلتنا التي أصبحت أشبه بمنطقة حرب شامله وهكذا تأثرنا جدا على موتهم وفقدنا جارا فاضلا لن ننسى جيرته الطيبه ما دمنا أحياء .

متفجرات يهودية باب العامود

بتاريخ ٢٩ كانون الأول سنة ١٩٤٧ تمكن اليهود من وضع صفيحة مملوءة بالمتفجرات في باب العامود بالقدس فانفجرت واستشهد ١٤ عربيا و٣٠ جريحا . وكان هذا اليوم مأساة عظيمة عند العرب خصوصا حالة الشعب الذي بدا على وجوههم الحزن والكآبة عندما قاموا بجنازة الشهداء .

تدمير عمارات في شارع بن يهودا وخاصة عمارة جريدة البالستين بوست بالقدس

بتاريخ ١ شباط سنة١٩٤٨ تمكن الفدائيون العرب وعلى رأسهم من الدخول إلى المنطقة اليهوديه في شارع بن يهودا بالقدس ووضعوا ما تيسر من الديناميت بلغم خاص وعندما انفجر هز أركان المدينة بكاملها وقد أسفر هذا عن نسف شارع بن يهودا وخاصة جريدة البالستين بوست تلك الجريدة التي كانت من ألد أعداء العروبة في البلاد . وهكذا انتشرت الفرحة لدى كل عربي في ذلك اليوم وجميعهم كانوا يثنون على الفدائيين وأبطال العروبة والتي كانت تقوم بهذه الأعمال وهم من الشعب بدافع وطني صرف .

نسف دار الوكالة اليهودية في القدس

وضع اليهود والإنكليز حراسة قوية على دار الوكالة اليهوديه وأغلقوا الشارع الرئيسي والشوارع الفرعية المؤدية إلى المبنى ، ولذلك كان من المستحيل أن يتمكن عربي من الوصول إلى مبناها .

وكان البطل أنطون داود من مدينة بيت لحم بصفته السائق لقنصل أميركا في القدس ، وكان على اتصال دائم مع بطل الأبطال عبد القادر الحسيني ، وقد فوض القنصل إلى أنطون نقل البريد يوميا بسيارة القنصل إلى دار الوكالة ضمن الحقيبة الدبلوماسية الأميركيه ، وجعل أنطون يدخل الوكالة يوميا بسيارة القنصل العام يخفق على هذه السيارة العلم الأميركي ، واستأنس حراس اليهود والإنكليز في الوكالة بضيفهم اليومي أنطون وأطمأنوا إليه . ذهب أنطون بالسيارة إلى مقر قيادة القائد عبد القادر الحسيني في بئرزيت .

وفي صباح اليوم الثاني بعدما راح القائد عبد القادر يتولى بنفسه عملية تحضير الألغام اللازمة للنسف وكان من أبرع العرب في هذه المهمه، دخل أنطون في السيارة الملغومة الموقتة إلى مبنة الوكالة ليسلم البريد. وبينما كان الحرس ينقل الرزمة إلى مكاتب الوكالة ساق أنطون السيارة وأوقفها أمام مكاتب الوكالة وعلى مقربة من الصالون الكبير ثم أدار عقارب ساعة الألغام وحددها للإنفجار بعد خمس دقائق وانسل يحاول الخروج مشيا على الأقدام.

وهنا اشتبه به الحراس اليهود فصاحوا به ليقف ولكنه انبطح أرضا وأخذ يطلق عليهم النار من مسدسين كان يحملهما، واستطاع التسلل عبر الأسلاك الشائكه...

انفجرت الألغام في السيارة وكان لها أعظم دوي عرفته مدينة القدس، ونسف الإنفجار قسما كبيرا من الوكالة واشتعلت النار في مكاتبها وقتل عدد من الموجودين فيها، واستطاع أنطون الذي لم يفقد أعصابه التسلل عبر المنطقة اليهودية والوصول إلى الخطوط العربيه فحملوه على الأكتاف إلى المدينة القديمة وتعالج وشفي.

نسف عمارة مؤلفة من أربع طبقات كان يسكنها أخي وصديقي عفيف الخوري - مقابل دارنا

وفي نهار الأحد الواقع في ٨ شباط سنة ١٩٤٨ نسفت عمارة تخص اليهود وكان يسكن في قسم منها أخي وصديقي عفيف الخوري وعائلته. هذه العمارة الضخمة كانت مقابلة لمخزن رشاد بركات في المركز التجاري وكان دوي هذا الإنفجار عظيما اهتزت له جميع المباني بما فيه دارنا في حي النيكوفوريه. وقد شاهدنا ومن داخل المنطقة المحصنة بالأسلاك الشائكه نتيجة هذا الإنفجار وما هدم من العمارة المذكورة فتأثرنا جدا وقضينا ذلك النهار بكامله وكأننا في مأتم وعلى إثر هذا الإنفجار المروع قطع التيار الكهربائي فشمل دارنا وأصبحنا نعيش على ضو الغاز والشموع.

نسف عمارة الحلبي أول مدخل حي مركز التجاره والمقابلة لدارنا

كانت بناية الحلبي أي أنطون الحلبي وإخوانه من طائفة الروم الأرثوذكس العرب بالقدس من أقوى عمارات تلك المنطقه وكنت أذكر أن المهندس الأخ داود [ ] هو الذي أشرف على بناءها وكانت ملاصقة إلى عمارة الدكتور طنوس إخوان.

وفي ليل الإثنين الواقع في ٩ شباط سنة١٩٤٨ عندما كان الطقس رديئاً للغايه زوابع ورعد وبرق وأمطار غزيره بلا انقطاع إذا سمعنا صوتا صوت انفجار مروع هز العمارات الباقيه في تلك المنطقه بما فيها دارنا وقد شاهدنا من نوافذ الغرف العليا من دارنا الإنفجار بعد وقوعه وما سبب من أضرار وخسائر في عمارة الحلبي والجدير بالذكر أنه شب الحريق فأتى على مخازن الدواء المشتعل وهكذا امتزج هذا الدواء مع أسفلت الشارع مقابل العمارة والتهب رغما عن كثرة المطر لم تؤثر المياه على النار بل بقيت مشتعله إلى الصباح حتى أودت بالعمارة والمخازن وجميع ما فيها ويا للخساره.

قنابل على مخازن سبني

وبتاريخ ٤ مارس سنة١٩٤٨ ألقى المجرمون اليهود ثلاث قنابل هاون على مخازن "سبني" الواقعة في شارع مأمن الله وكان صوت انفجارهم دويا عظيما فتأثرت العمارة وعلى كل حال لم يبق في هذه المنطقة لوح قزاز واحد بل تكسر ولكن هذه القنابل لم تحدث إصابات في الأرواح والحمد لله .

مدافع الهاون العربية على قومبانية المونتيفيوري

وبتاريخ ٢٠ مارس سنة١٩٤٨ أطلقت النار مدافع الهاون من المنطقة العربية على قومبانية المونتيفيوري بكثرة الأمر الذي أصابت بعض الشظايا في بيتنا ، وقد كان يوما مخيفا جدا وكان بيتنا وكأنه في جبهة حرب لأن الجيش القاعده التي كانت تتمركز على سور البيت بدأت بدورها وسلطت نارها على العرب إلى أن هدأت المعركه .

نسف حي المونتيفيوري في القدس

كان في زيارتنا عائلة المرحوم عطاالله منطوره وضيوفهم المسيو بوكلان وزوجته من بعد ظهر الثلاثاء الواقع في ٢٣ مارس سنة ١٩٤٨ وقد صادف بأن الأخ الحاج محمود حميدان لم يستطع الوصول إلى منزله في محلة روميما الأمر الذي أجبره على الرجوع عن طريق رام الله – القدس فجاء لبيتنا وقدمنا له الغرفة العليا لقضاء ليلته فيها وهكذا بقي في الغرفه .

وبعدما ودعنا زائرينا عائلة منطوره وضيوفها وكانت الساعة تقرب من السادسة والنصف مساء ، أذكر بأنني كنت ويسرى في الإيوان وإذ شاهدنا منظرا نادرا مخيفا لونه بنفسجي قاتم يعجز القلم عن وصفه ثم تلا هذا النور صوت هائل مرعب صوت انفجار عظيم اهتزت له أركان بناء البيت ، ومن شدة وقوة هذا الإنفجار تساقط الكثير من التحف المعلقة على جدران المجموعة الجوهرية والأنكى من هذا أنه لم يبق درفة نافذة أو باب مغلق إلا واندثر من هول الصدمة حتى أن حلوقه الأبواب والنوافذ الثابتة في الجدران أزيلت فورا من مكانها والعياذ بالله . .

بالحقيقة أننا لم نشهد ولم نسمع نوراً مثلما شاهدنا وسمعنا أثرا على هذا الإنفجار طيلة حياتنا وأخذ كل منا يبكي وندعو الدعوات الخيرية ولم نعلم مكان هذا الإنفجار بل تأكدنا أنه بكل تأكيد في إحدى زوايا بيتنا . . انقطع التيار الكهربائي ليس على بيتنا فحسب بل جميع المنطقة بكاملها من هول الصدمة .

لن أنسى وقفتي مع ابنتي يسرى في الإيوان كل منا يضم الآخر ويبكي بكاء مرا والجدير بالذكر أن يسرى كانت حامل وفي شهرها التاسع ! ! فتصور .

تبع هذا الإنفجار المروع طلقات نارية قوية بكثرة واستمعنا إلى الصراخ والعويل في كل مكان ولم يجرأ أحد منا الخروج من الباب الرئيسي للبيت . وقد تذكرنا ضيفنا الحاج محمود حميدان فقمت وصعدت درج الغرفة على يدي ورجلي من الفزع وأنادي الحاج . . ولكن لا من مجيب ، إلى أن وصلت الغرفة وإذ رأيت المومى إليه يصلي . . ولم يبدي حراكا ولم يلتفت إلا

بعدما انتهت الصلاه . كلمته فقال بصوت خافت الحمد لله الحمد لله الحمد لله سليمة هذه مشيئة الله أظن يا واصف هذا عند اليهود الجيران ! !

على كل نزلت وإياه إلى الطابق السفلي وجلس كل منا ومن الأولاد والعائلة وقلوبنا تخفق خوفا إلى أن دخل علينا قواص القنصلية الفرنسية وأخبرنا بأن الحادث كان في قومبانية مونتيفيوري ! !

قومبانية مونتيفيوري وما أدراك ما هي قومبانية مونتيفيوري؟ ! هذه القومبانية هي مجاورة لبيتنا من الجهة القبلية تماما ولا يفصلنا عنها سوى أرض دير الروم ويبعد عن بيتنا ليس أكثر من ٥٠ متر . .

تصور هذا الحادث وقل "كيف بقيت دارنا قائمة؟ ! !" سبحانه وتعالى إن دارنا هي من نوع البناء العربي القوي الأصل يبلغ سمك جدرانها مائة وعشرين سانتيمتر . . ومقامة على الصخر تماما .

حي المونتيفيوري هو بالحقيقة قومبانية أنشأت إبان الحكم العثماني وهي من أقدم أحياء اليهود خارج سور مدينة القدس وهي مؤلفة من ماية وعشرين عمارة منفصلة الواحدة عن الأخرى ، ٦٠ عمارة لليهود المعروفين بالسفاراديم ، و٦٠ عمارة لليهود المعروفين بالإشكناز .

وقد اتخذت الوكالة اليهودية بالقدس هذه القومبانية مقرا قويا لإقامة عدد كبير من رجال الهاجاناه الصهيونيين واتخذوا شرفاته العالية أوكارا لاصطياد السيارات العربية التي تسير بين القدس والجنوب منها البقعة الفوقا وبيت لحم وبيت جالا وجبل الخليل والقرى المجاورة لهذه المدن . كما اتخذوا من أبنيته المنيعة مخابئ للذخائر الحربية ، والمؤونه ، ولم يكن من سبيل لاقتحامه أو السيطرة عليه نظرا لموقعه المستحكم الخطير بين المناطق العربية وهذه القومبانة معروفة عند اليهود ب [يمين موشه] .

تقدم جندي فلسطيني مجهول من جنود الجهاد المقدس وبدأ بتنفيذ الفكرة وحده فاستولى على سيارة نقل يهودية كانت تسير في حي رصافيا اليهودي بعد أن قتل سائقها . ملأ هذه السيارة بالمتفجرات من المقر في بيرزيت وعاد إلى القدس واقترب من حي المونتيفيوري ووقف عند الفتحة الوحيدة التي تركها الإرهابيون اليهود في ذلك الحي أما باقي الحدود فكانت محصنة بالأسلاك الشائكة الكثيفة .

وقف البطل وأطلق النار على أربعة من جنود الهاجاناه كانوا واقفين على المدخل ومدججين بكامل أسلحتهم فصرعهم على الفور ، وما هي إلا لحظات حتى شعرت الحامية اليهودية بالخطر وخرج رجال الهجاناه من أوكارهم وفي أيديهم أسلحتهم للإنقضاض على السيارة . وأما الجندي فقد ترك بسرعة مقود السيارة ونزل منها وهي لا تزال تسير ، ثم أشعل الفتيل المتصل بالمتفجرات ، وألقى بعض القنابل الفتاكة على المهاجمين ، فأفلت منهم ونجا بأعجوبه .

وما كاد يسير مسافة قصيرة حتى كانت السيارة قد ارتطمت بأحد جدران البيوت فانفجرت صناديق الألغام وأحدث انفجارها دويا أصم الآذان فتهاوت البيوت على بعضها وارتفعت سحب كثيفة من الدخان الأسود وشبت الحرائق في الحي بأكمله ، وكان منظرا قل أن شاهدت القدس له مثيلا .

هل تعلم أنه من شـدة الإنفجار قد تكسرت بعض نوافذ بيوت مدينة بيت لحم؟ ! ! إنها لحقيقة ثابتة وقد هدم وتشعث أكثر من ستين بيتا في ذلك الحي هذا عدا عن الأرواح الغير معروفة . .

والجدير بالذكر أن الصهيونيين ادعت بأن الجيش الإنكليزي هو الذي اقترف هذا الحادث ، وأن السيارة كانت سيارة الجيش البريطاني وتحمل شعاره ، مع أنها سيارة يهودية ورقمها م ٢٤ ب .

وبعد هذا الحادث مباشرة ، وخوفا من الهجاناه من توسيع منطقة حي المونتيفيوري ، جاء الجيش البريطاني واحتل كنيسة الخضر ومن فوقها دار عيسى نخله قرط وما يليها من الأراضي فأدخلوها في المنطقة المحصنة رقم ٢ الكائنة فيها بيتنا ، لأن هذه الكنيسة مشرفة تماما على حدود حي المونتيفيوري .

وبتاريخ ٢٤ شباط سنة١٩٤٨ نسف العرب باصا يهوديا رقم ٨ ثم أطلقت العرب النار والقنابل بكثرة على حي المونتيفيوري لأن اليهود كانوا في الصباح قد ألقوا ثلاث قنابل هاون على الأحياء العربية . وبتاريخ ٢٩ شباط سنة١٩٤٨ عاد العرب وأطلقت النار بكثرة من طريق جبل صهيون والقلعة وحي النبي داود على حي المونتيفيوري وكانت كل هذه المعارك أمامنا مكشوفة وذقنا المرارة والعذاب وإني أذكر في هذا اليوم كان عائلة منطوره عندنا وتناولوا طعام الغذاء مع الضابط المستر [بل] .

وقد سجلت في قيودي من مصادر حكومية رسمية بأن عدد القتلى من عرب ويهود وصل إلى ١٣٧٨ شخص اعتبارا من نهار التقسيم ٢٩ تشرين ثاني سن ١٩٤٧ لغاية ١ مارس سنة١٩٤٨ .

معركة طريق تل أبيب القدس

لا شك أن العرب وحدهم قاموا بحوادث بطولية جدا في هذه الفترة ما بين قرار التقسيم ٢٩ تشرين ثاني سنة١٩٤٧ لغاية ١٥ مارس سنة١٩٤٨ قبل ما تدخل الجيوش العربية إلى الأراضي الفلسطينية [ويا ليتها لم تدخل . .] فكان الشعب وجنود الجهاد المقدس مندفعين بوطنيتهم بعاطفة طبيعية مجردة عن أي خيانة أو إغراء . ففي تاريخ ١ مارس سنة١٩٤٨ فتك المناضلون العرب باليهود فتكا يشكرون عليه وقتلوا عددا كبيرا منهم فأحرقوا سياراتهم على الطريق ما بين تل أبيب والقدس ولكن الجيش البريطاني الذي كان يحضر بالميعاد ويساعد وينجد اليهود حضر وأنقذ البقية الباقية من اليهود وسياراتهم ولولا وجود الإنكليز ودفاعهم المستميت على ربيتهم اليهود لكان الشعب الفلسطيني قد كسب الحرب لوحده رغما عن قلة عدده المنظم وعدم وجود العدة والأسلحة التي كانت مفقودة بين يديه .

معركة كفار عصيون

هذه المعركة المعروفة تاريخيا بمعركة كفار عصيون تدل جليا عن قوة ونخوة العرب عند الضيق فقد برهنت هذه المعركة تكاتف أهل القرى عند المصائب وبذات الوقت تسامحهم عند الطلب للأعداء .

تقع كولونية كفار عصيون في التلال الواقعة ما بين القدس والخليل وتعتبر هذه الكولونية من أقوى المستعمرات اليهوديه .
سارت ثلاثون سيارة يهودية من بينها ثمان مصفحات إلى المنطقة العربية فسمح لهم بالمرور وكان ذلك في صباح ٢٧ مارس سنة١٩٤٨ وقد اغاظت العرب من هذا التحدي البريطاني واليهودي معا وعند رجوع هذه القافلة بعد الظهر من ذلك النهار تصدى لها أبطال العرب من كل قرية وصوب ونسفوا [أول وآخر سيارة] وهكذا توقفت القافلة بأكملها وكانت ملآنة بالذخيرة والمجرمين الذين كانوا لم يواصلون النار على العرب من داخل المصفحات والسيارات ولدى وقوف السيارات والمصفحات وقع الإشتباك ما بين الفريقين. ولما رأى اليهود أنهم أصبحوا في حالة خطرة ولم يتمكنوا من مواصلة السير طلبت القافلة الإستسلام فهرعت في الحال الإنكليز لمساعدتهم حسب العادة فأخذ العرب جميع أسلحة اليهود وسياراتهم بعدما أبلوهم بوابل من النار .
وأخيرا ولطيب قلوبهم سمحوا للأحياء منهم السفر إلى القدس وعددهم ١٦١ و٤٩ جريحا كانت هذه المعركة بقيادة البطل القائد عبد القادر الحسيني .

مجزرة دير ياسين

كانت مذبحة (دير ياسين) من أبرز الأمثلة على الإجرام الصهيوني البشع فإني أنشر بعض حوادثها :-
تقع هذه القرية العربية على بعد سبعة كيلومترات إلى الغرب من مدينة القدس. وتحيط بها مستعمرات صهيونية من الشمال والشرق والجنوب وتعرف عند اليهود جددا ب "جفعات شاؤول" .
وبحق الجوار احتال اليهود وعقدوا الصلح وعدم قيام أي من الفريقين بأعمال عسكرية الواحد ضد الآخر ، وظن أهل القرية أن الصهيونيين جادون وصادقون واطمئنوا إلى تعهد اليهود جيرانهم ووعدهم .
وبما أن الصهيونيين قوم لا عهد لهم ولا ميثاق فقد غدروا بأهل هذه القرية واقترفوا فيهم مجزرة وحشية من أبشع المذابح ، وبعد العاشرة مساء من التاسع من نيسان سنة١٩٤٨ فوجئت القرية الآمنة بأصوات مكبرات الصوت يدعو فيها اليهود أهل القرية لإخلائها بسرعة. وهب السكان فوجدوا أنفسهم محاطين بالقوات الصهيونية ومعها المصفحات والدبابات ومدفعية الميدان وانطلق الصهيونيون كالذئاب المسعورة على سكان القرية دون تمييز بين طفل وامرأة وشيخ ، وقصفوا البيوت بالمدفعية والقنابل والمتفجرات فهدموها على رؤوس سكانها ثم انقضوا فيهم قتلا وتمثيلا واعتداء على الحرمات .
كانت اليهود مؤلفة من العصابتين الإرهابيتين المعروفتين (أرغون زفاي ليومي - وشترن) مع بعض ضباط منظمة (الهجاناه) العسكرية. والجدير بالذكر أن جماعة الأرغون كانت مؤلفة ويا للعار . . من اليهود المتدينين ورجال الدين السريانيين والحاخاميين المنتسبين إلى جمعية (أغودات اسرائيل) الدينية اليهودية. كانوا ينقضون على النساء والأطفال واعتدوا على النساء . . ويبقرون بطون الحوامل منهن . .
استمرت المذبحة حتى فجر اليوم العاشر من نيسان ثم جمعوا من بقي على قيد الحياة ووضعوهن في سيارات مفتوحة طافت بهن الشوارع اليهودية ثم رمى المجرمون بالنساء والبنات إلى خارج الحدود . . المنطقة العربية .

الضحايا كانت ٢٥٠ إنسانا ذبحوا منهم ٢٥ امرأة حبلى و٥٢ طفلا و٦٠ امرأة وفتاة، أما سائر الضحايا فكانت من شيوخ ورجال.'

وقد شاهد مندوب المسيو (جاك ريجنيز) مندوب الصليب الأحمر بئرا وفيه ١٥٠ جثة مشوهة. أما الإنكليز فلم يقوموا بأي إجراء ضد السفاحين. إنما أذاعت الوكالة اليهودية بيانا أظهرت فيه أسفها واشمئزازها منه واعتذرت عنه وكذلك منظمة الهجاناه..

هذه المجزرة البشعة كانت سببا رئيسيا على ترك أهالي القرى وطنهم خوفا على العرض.. أولا ولكنهم لن ينسوا هذا التعدي الفاحش الوحش بل لم يزالوا واقفين لأخذ الثأر بإذن الله. كانت الآنسة حياة سالم البلبيسي معلمة مدرسة الإناث من الضحايا قتلها اليهود وهي تضمد جراح الجرحى من العرب.

استشهاد البطل القائد عبد القادر الحسيني في معركة القسطل

بدأت معركة القسطل المعركة المشهورة ما بين الثاني والثامن من شهر نيسان سنة١٩٤٨ . وبعد ظهر اليوم السابع من نيسان زحف عبد القادر على معاقل الصهيونية المحيطة بالقسطل الذي كان بقبضتهم وتقدم صفوف المجاهدين ووقعت معركة ضارية كان عبد القادر مستميتا فيها [لأنه وصل منذ يوم واحد من دمشق.. ولم يحظ على الأسلحة التي كان يطالب فيها هناك] وتمكن من تطهير المناطق المحيطة بالقسطل وأخيرا دخل المجاهدون القرية بين التهليل والتكبير..

ولما تم تطهير القرية افتقد المجاهدون قائدهم ونشوة النصر لا تزال تملأ [الجو] وراحوا يبحثون فشاهدوا القائد عبد القادر في أحد البيوت وقد احتضن سلاحه ويده على زناده وارتكز إلى الحائط والدماء الغزيرة تسيل منه.. فأمال رأسه وسأل "هل أخذتم القرية؟ فقالوا نعم قال: الحمد.. لقد محونا العار.." ثم سقط جثة هامدة.. رحمه الله رحمة واسعة وطيب ثراه..

القسطل

كلمة لصاحب الكتاب: إن قرية القسطل أعلى قرية في تلك المنطقة وموقعها يعتبر من أشرف المواقع استراتيجية مشرفة على طريق القدس - يافا. ولي فيها ذكريات فهي بالواقع خاصة بعائلة واحدة فقط [مطر ومطير] وأولادهم وأحفادهم كنت أعرج على هذه القرية مرارا مع المرحوم والدي ووالدي الثاني حسين أفندي الحسيني عندما كنا نذهب للإصطياف في خربة ديرعمرو التي ذكرت عنها الكثير في أول جزء من هذه الذكريات. ولها طريق خاص من جهة الغرب ولا يعرفها إلا القليل فهذه الطريق رومانية محفورة في الصخور عريضة يتضح للسير عجل عربات الرومان فيها وتودي إلى حدود قرية صوبا الواقعة للغرب من القسطل وقد سرت عليها والمرحوم والدي مرارا نركب الحمير وأذكر أنني أقمت ليلتين فيها مع حسين أفندي الحسيني بدعوة من أهلها لشغل هام ما.

الجنازه :

كان استشهاد القائد المغفور له عبد القادر الحسيني وقع سيء على كافة العرب خصوصا في فلسطين لما كان يتحلى به هذا المجاهد الأبي الحر من حنكة ووطنية وشهامة عربية فكانت هذه مشيئة الله فلا حول ولا قوة إلا بالله . .

وعلى كل نقل المجاهدون الأشاوس جثمان قائدهم البطل إلى بيته في القدس ثم إلى المسجد الأقصى المبارك حيث واروه التراب في أحد الأروقة المحيطة بالمسجد إلى جانب والده الزعيم موسى كاظم باشا الحسيني . كانت الجنازة بموكب عظيم فكانت أجراس الكنائس تقرع وأصوات الناس ترتفع بالتهليل والتكبير وطلب الثأر وقد اشتركت في تشييع هذه الجنازة وفود من جميع أنحاء فلسطين ومن سوريا ولبنان وشرقي الأردن ولفيف من رفاق القائد بأسلحتهم الكاملة .

كنت أنا في دائرة الإيرادات الجديدة الواقعة في عمارة سلويس وكانت القدس حزينة فلم يبق شخص واحد في بيته إلا ورافق موكب الجنازة الأمر الذي جعل البعض يتخوف من هجوم مفاجئ من الصهاينة إلى مدينة القدس الجزء الغربي منها ولكنه والحمد لله ربنا ستر وكان ذلك بتاريخ ٩ نيسان سنة١٩٤٨ .

لمحة وجيزة عن حياة القائد عبد القادر الحسيني

ولد القائد المغفور له عبد القادر في القدس عام ١٩٠٨ ووالده المغفور له موسى كاظم باشا الحسيني الذي تولى الحركة الوطنية الفلسطينية منذ فجرها حتى شهر آذار سنة١٩٣٤ .

تلقى عبد القادر دروسه الإبتدائية والثانوية في [. .][1] ، ثم التحق بالجامعة الأميركية في القاهره وتخرج منها عام ١٩٣٢ بشهادة [ب.ع] في الصحافة والعلوم السياسية . ولما أنهى دراسته في الجامعة بتفوق دعي عبد القادر إلى اعتلاء المنصة ليستلم شهادته وهناك من على المنصة ألقى كلمة فياضة بالشعور الوطني أشار فيها إلى السياسة الإستعمارية والتبشيرية المتغلغلة هناك وطلب ممثل الملك فؤاد هناك ورجال الحكم في مصر بالعمل على وقف هذا التغلغل وإنقاذ الناشئة العربية من شروره وعواقبه ثم قال أنه يربا بنفسه أن يحمل شهادة تحمل تواقيع رسل الإستعمار والتبشير ومزق الشهادة التي كان تسلمها .

[1] ناقص في الأصل.

ثم تولى سكرتيرية تحرير جريدة الجامعة الإسلامية في القدس لعدة شهور . ثم قضى عامين في دائرة المساحة واشتغل وظيفته لإحباط الكثير من المحاولات التي كانت تبذل لتمكين اليهود من الإستيلاء على أراضي العرب الأمر الذي شنت عليه الصحافة اليهودية حملة شعواء وطالبت الوكالة اليهودية بفصله من وظيفته وشددت الرقابة عليه من حكومة الإنتداب آنذاك . ثم اشترك عبد القادر ولعب دورا بارزا في تنظيم مظاهرات القدس ويافا في تشرين أول سنة١٩٣٢ .

استقال عبد القادر من وظيفته في دائرة المساحة سنة١٩٣٥ وانخرط علانية في سلك الحركة الوطنية وقام بأعمال مشكورة في تنظيم أحزاب سنة١٩٣٦ وتدعيمه . وفي أيار أعلن الثورة الفلسطينية وكانت الخامسة على الإستعمار والصهيونية وأطلق على قواته (الجهاد المقدس) الذي اشتهر قادته أبطال من المجاهدين من أمثال :-

حسن سلامه ، وعبد الرحيم الحاج محمد ، ويوسف أبو دره .

ثم كان يرأس جهاد معارك باب الواد ، وطرق الموصلات ، وبتير ، وعين كارم ، وحلحول ، وبيت جالا وكان في طليعة هؤلاء المتطوعين الأبرار القائد الشهيد سعيد العاص الذي استشهد في أيلول سنة١٩٣٦ بمعركة الخضر وأصيب عبد القادر بجروح بالغة تمكنت الإنكليز من أسره ونقله إلى مستشفى الحكومة في القدس فهرب سرا إلى دمشق وشفي هناك . ثم تسلل عبد القادر عبر الحدود ووصل منطقة القدس وتولى قيادة الثورة عندما رغبت الحكومة بتنفيذ توصية لجنة التحقيق الملكية البريطانية برئاسة لورد بيل في منتصف شهر تشرين أول سنة١٩٣٧ واستمرت الثورة إلى أيلول سنة١٩٣٩ وقام بمعارك قطاع القدس .

كان من أبلغها معارك باب الواد والولجة وبتير وبدو والنبي صموئيل والدوايمه وحوسان والخليل ويطه والظاهريه وبئر السبع وغيرها وتمكن المجاهدون من احتلال بيت لحم وبيت جالا وبيت ساحور والخليل والقدس القديمة وأريحا ورام الله وطول كرم وجنين وعكا وغيرها .

وفي معركة بني نعيم عندما استشهد المرحوم علي بن حسين سليم الحسيني أصيب عبد القادر بجراح بليغة وكانت معركة ضارية استعمل الجيش البريطاني فيها الطيارات والمصفحات والمدفعية فنقلوه المجاهدون سرا إلى سوريا حتى كتب الله له السلامة .

ثم التحق بدورة خاصة للضباط في بغداد وتخرج منها بتفوق وبرتبة عسكرية وسافر إلى ألمانيا والتحق بمدرسة عسكرية خاصة بالمتفجرات وصنعها . وفي مايو سنة١٩٤١ وقعت الحرب العراقية - البريطانية فشكل قوة هناك وأبلت أحسن بلاء في القتال وألقي القبض على عبد القادر وحوكم في العراق وحكم عليه في السجن وبقي مدة ثلاثة أعوام وأخيرا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية رجع إلى مصر وأسندت إليه من قبل الحاج أمين قيادة الجهاد المقدس فتسلل عبد القادر إلى فلسطين واختار بلدة بئرزيت مركزا للقيادة وفي هذه الثورة الجديدة سنة١٩٤٨ كانت معارك دامية من مثل معارك :

عرب الصبيح وطبريه ونوبيه وشعب والكويكات والبروه ومجدل الكروم وصفوريه وعكا وحيفا وغيرها في الشمال ، وعزون والطيره وطول كرم ونابلس وجنين وسيلة الظهر وحواره وغيرها في الوسط . والقدس وبيت لحم والخليل وأريحا وشعفاط وباب الواد وحلحول والدهيشه وصوريف وعرتوف وبدو وبيت سوريك وغيرها في لواء القدس ، ويافا واللد والرمله ودير محيسن والعباسية ودير طريف وسلمه وهاتكفا ووادي الصرار وغيرها في لواء يافا وغزه وبئر السبع والفالوجا وخان يونس والمجدل والمسميه والسوافير وبيت دراس والمنصوره وغيرها في لواء الجنوب .

أبناء عبد القادر : موسى وفيصل وغازي .

آخر يوم عمل لي في حكومة الانتداب البريطاني

ذكرت في المقام الأخير بأن جنازة المغفور له القائد عبد القادر الحسيني كانت بتاريخ ٩ نيسان سنة١٩٤٨ عندما كنت أعمل في الدائرة الجديدة [عمارة سلويس] وكنت والله يعلم بأنني كنت في حالة يائسة من كلا الوجهتين الصحية والمعنوية ، وذلك منذ قرار تقسيم فلسطين الذي كان سببا أوليا لخراب مدينة القدس وهكذا وبمساعدة رئيسي جمال بك طوقان تركت

الدائرة عند الساعة الحادية عشر من صبيحة ذلك اليوم وذهبت إلى البيت ولم أرجع إلى وظيفتي منذ ذلك التاريخ مع أنه من المفروض على كل موظف أن لا يتغيب إلا للتاريخ المحدد لانتهاء الإنتداب البريطاني في ١٥ مارس سنة١٩٤٨ .

استقريت في البيت بين العائلة نفكر جليا عن الطريقة الأفضل الواجب اتباعها في مثل هذا الظرف العصيب وإليك ما اتخذناه من قرارات :–

الأسباب الوجيهة التي جعلتني أترك بيتي المعروف

بالمجموعة الجوهرية وأغادر القدس وعائلتي نهائيا :–

١ . موقع بيتنا الخطر فقد ذقنا فيه ألوان العذاب والقلق والخوف من جراء ما جرى حوله ومن جميع جهاته وأطرافه من نسف عمارات وألغام وقنابل ومعارك اعتبارا من نسف فندق الملك داود ، وحي المونتيفيوري ، وعمارات الحلبي وطنوس ، وعشرات العمارات في المركز التجاري اليهودي .

٢ . إدخال بيتنا في منطقة الثانية المحصنة بالأسلاك الشائكة وإقامة قاعدة عسكرية في الطرف الشرقي من ذات سور بيتنا الأمر الذي كان يزعجنا كثيرا ويضايقنا بوجود الجيش وأعماله ومراقبة العرب من جهة باب الخليل وقلعة النبي داود وكذلك اليهود من جهة حي المونتيفيوري فكانوا لا ينقطعون عن ضرب النار ليلا ونهارا والهدف أصبح بيتنا ليس إلا . . ثم صعوبة الوصول إلى بيتنا من جهة مدخل المنطقة المحصنة الواقعة في شارع سان جوليان والتي لا يجوز لأحد حتى ولا الطبيب عند اللزوم الدخول إلا بإذن خاص . . ثم والمهم ورغم من هذا السياج الواقي لنا ولبيتنا مؤقتا فلماذا يحدث عند انتهاء الإنتداب؟ هل يا ترى يبقى؟ وإذا بقي فمن يكون صاحبه اليهود أو العرب؟ في حالة الجلاء؟ ! !

٣ . والجدير بالذكر في هذا الصدد أن وصولنا ووصول أي شخص من العائلة لو دخل المنطقة المحصنة فلا بد له من السير بجانب فندق الملك داود ثم إلى بيتنا وهذه الجهة مفتوحة ومعرضة إلى نار يهود حي المونتيفيوري اللذين كانوا يطلقون النار على كل من مشى هناك وكم وكم من المرات أطلقوا علينا وعلى صهرنا زهدي وسالفا وسلمنا من هذه المعارك بأعجوبه ! !

٤ . تدهور الحالة في القدس ومواصلة المعارك الدامية بين الفريقين واستمرار النسف والألغام ليلا نهارا من حولنا حتى أصبحت العمارات خاوية وردم وأنقاد وزاد على ذلك هجوم نوع من الغربان المعروف [بالقاق . .] كان يتردد يوميا وينحق بصوت وحش من على أسطحة العمارات المهدومة ومنها إلى القنصلية الفرنسية ثم إلى سطح دارنا ينعق في الصباح والمساء ويزعج كل منا وكنا نتشائم والله . . من هذا الحادث الذي لم أراه طيلة سكني حي النيكوفوريه . . كنا نعيش في الظلام لا كهرباء ولا ما يحزنون .

٥ . أصبح جسمي مرهف لدرجة أنني لم أتمكن من تحمل هذه المصاعب وساءت صحتي . . وأشار إلي الطبيب بالبعد عن هذه المنطقة والرحيل إلى محل مريح نوعا حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا . وكانت سنة تواصل فيها المطر بغزارة والبرد أضنانا لعدم وجود درفات نوافذ التي أزيلت من المتفجرات وكان البعض منها محشوا بأكياس الرمل .

٦ . االمجموعة الجوهرية تلك المجموعة التي أخذت الجزء الأكبر من تفكيري واجتهادي لا بل جهادي مدة ثلاثين سنة . .
بدأت وعائلتي بإنزال كل ثمين من على جدران البيت ، وحفظنا ما استطعنا ضمن صناديق خشبية وحديدية. قد فكرنا جليا بنقل الثمين منها خصوصا الخزف الصيني تلك المجموعة النادرة العظيمة في الشرق ، ولكن كان من الصعب نقله ونحن في هذه الحالة من خطر وحرب ومعارك ، فكرنا أفكارا كثيرة ولكننا فضلنا بقاء كل شيء في البيت وقررنا ترك البيت إلى غير رجعة . . حتى ننفذ بأرواحنا وحياة أولادنا وأكبادنا .
ولأجل الصدف قد جاءني جارنا سعادة قنصل فرنسا الجنرال نوفيل. كان صديقا لنا وهو بذات الوقت هاو للتحف الشرقية التاريخية. قال لي القنصل أن عمارة القنصلية الفرنسية ملآنة من ضيوف عائلات فرنسية ومعظمهم جاء بأثاثه وخصوصا الثمين منه وخبئه عندنا في القنصلية حتى أصبحت عمارة القنصلية عاجزة عن إيواء أي شخص أو أي أثاث .
ثم أضاف قائلا أن قوة من جند المغاربة الفرنسيين سيحضرون قريبا وبموجب أوامر الحكومة الفرنسية للمحافظة على القنصلية عند انتهاء الإنتداب في ١٥ أيار سنة١٩٤٨ ورجاني بأن يضع هذه القوة في فناء بيتنا شريطة أن يستلم هو رسميا من البيت بأكمله ويتعهد بأن يسلمني البيت وما حواه من فرش وأثاث وتحف عندما يستتب الأمن ويجلو الموقف بمشكلة فلسطين .
فكرت جليا بطلبه وبعد الجهد وجدت أنها قسمة ونعمة أؤمن فيها وفي هذا الوقت العصيب على المجموعة الجوهرية القيمة واتفقنا . إنما أبديت رأيي الخاص في هذا الموضوع وقلت له :-
أنا أرى من الأوفق ومن الضروري أن تكتب أنت يا سعادة القنصل كتابين :-
الأول للجنة القومية العربية ، ثم إلى الوكالة اليهودية تسألهم فيما إذا يوافقون مبدئيا على هذه الفكرة حتى نكون قد أمنا عدم التعدي من أي من الفريقين بعد انتهاء الإحتلال . .
صمت سعادة القنصل قليلا ثم التفت إلي باسما وقال [إنه لفكرة رائعة وسأقوم بها الآن . .] . كتب القنصل إلى الطرفين المعنيين بالأمر وبعد ستة أيام دعاني وقرأ لي موافقة كل منهما كما طلبنا .
والجدير بالذكر وإني أسبق الوقت فأقول : أنه بعدما رجحت كفة اليهود ودخلت دارنا مع الأسف في المنطقة العائدة للملكة اليهودية ، حاولت فرق الهاجاناه أن تقتحم الدار وتحتلها وتملك ما فيها وتحولت الدار إلى قاعدة عسكرية لموقعها الإستراتيجي في تلك المنطقة . . ولكن منعوا كما أفادنا القنصل عندما أطلعهم على إيجابية الوكالة اليهودية المؤرخ قبل تاريخ انتهاء الإنتداب البريطاني وموافقتها بضم هذه الدار إلى القنصلية الفرنسية ولن أنسى ما قاله القنصل إلى زوجتي بتاريخ ٢ تموز سنة١٩٤٨ في أريحا بالحرف الواحد قال :-
ثقي بأن زوجك قديس فلولا فكرته هذه لكانت داركم الآن مع الهاجاناه . . ولكنهم لم ولن يدخلوها بإذن الله . .
أعود إلى البحث الأول وافقنا على أن نسلم الدار وكل محتوياتها وموجوداتها لجارنا قنصل فرنسا عندما نترك القدس .
بحثنا جليا أين تكون الهجرة؟ على أمل أن لا نتغيب عن الدار أكثر من أسبوعين لعلمنا أن فلسطين سترجع حتما لأصحابها

الشرعيين العرب . . كيف لا وعن قريب جدا ستدخل جيوش سبع دول عربية لاحتلالها وتسليمها لأهل البلاد ونحن من أهلها والحمد لله .

رأينا من الصعب جدا الرحيل إلى بيت لحم أو بيت جالا ، ثم المسكن في دير بجانب حمام سيدتنا مريم عائد لدير الروم تشأ شريكة العمر فيكتوريا خوفا من المعركة علينا وعلى أولادنا وأخيرا وافقنا على الذهاب والسكن في دير قرنطل من أملاك دير الروم – أريحا وهناك ملجأ مؤمنا نرى كل ما هو مكتوب لهذه الأمة ونحن فيه مطمئنين البال لا يستطيع لأحد الوصول إلينا وهكذا ترتاح أعصابنا بعدما تكبدناه ورأينا من معارك وأصوات الألغام والحرايق إلخ . . إلخ . .

تركنا القدس نهائيا إلى . . دير قرنطل

كان ذلك زمن البطريرك ثيموثاورس المريض . . فقد قدم لفيكتوريا صالون الصغير الرسمي في البطريركية لها ولعائلتها . فشكرناه ثم أخذنا كتابا من القائمقام البطريركي المطران اثيناغوراس إلى رئيس دير قرنطل ولكننا لم نقدمه لما كانت عليه فيكتوريا من احترام لدى الإكليروس الأرثوذكسي في أي من أملاك البطريركية . كانت أيام وليالي طويلة وأنا وأفراد عائلتي وعائلتين من أهالي مدينة الخليل الذين يسكنون خارج بيتنا داخل سور البيت نعمل متكاتفين ننظم ونخبئ ونحفظ جميع ما أمكن حفظه وترتيبه من تحف المجموعة الجوهرية في مخابىء مناسبة وخزائن وصناديق حديدية وخشبية وكذلك قمنا على قدر المستطاع بحفظ الأثاث الباقي حتى ثياب كل واحد منا في محله المناسب وعزمنا على الرحيل ولسان حالنا يقول :

فـز بنفسـك إذ رأيـت ضيـما	واتـرك الـدار تنعـي مـن بناها
فـإنـك واجـد [ ] بـأرض	ونفسـك لـم تجـد نفسـا سـواها

كان ذلك في صباح اليوم ١٨ نيسان سنة١٩٤٨ فتركنا الدار . . حزينين والدموع تجري من عيوننا . . وندعو إلى الله عزوجل أن يقي هذا البيت وما فيه من متاع لا تقدر بثمن من سوء وشر وأيدي شريرة وعين حاسدة . . وإن يرجعنا اليوم مع أولادنا سالمين بإذن الله . .

جاء من ينوب عن سعادة القنصل مقدما لنا السيارة الضخمة من سيارات القنصلية الفرنسية ، ورفع العلم الفرنسي على سطح الدار الذي استلمها منا واستلم مفاتيح كل غرفة منها . . شريطة أن يبقى صهرنا زهدي و سالفو مؤقتا فيها لعندما ينتهي عملهما الحكومي . . وجمعية الشبان المسيحية وذلك عند انتهاء الإنتداب فوافق على ذلك وهكذا ركبنا السيارة [أنا وزوجتي ويسرى والأعوبة شادية وجورج وآيه . وذهبنا إلى أريحا فبستان دير قرنطل .

أرسلنا خبر قدومنا بواسطة البستاني ورافقه أخي خليل وصديقنا الجار ابراهيم الحزينة ولكن الرئيس لم يوافق مبدئيا لأن هذا الدير الأثري هو لبعض النساك من رهبان الروم الأرثوذكس ليس إلا وخصوصا لا يجوز سكن السيدات فيه مطلقا ولكن بعدما رأى هذا الرئيس والرهبان فيكتوريا اعتذروا متأسفين وفتح باب الدير الرئيسي الكبير ودخل كل منا إلا يسرى

التي بقيت وشاديه ضيفة في بيت الأخ الحزينة بجوار عين السلطان في أريحا لأنها كانت لم تزل تحت النفاس . . ولم تتمكن من السير إلى أعلى الدير .

خصص الرئيس الغرفتين الصغيرتين في الطابق العلوي من قاعة الدير والمعدون دائما لنزول غبطة البطريرك في المناسبات لي ولعائلتي ، كما خصص غرفة خاصة لزهدي وليلى ، وأخرى لسالفو ويسرى وشاديه .

لم نصدق بأننا نمنا في تلك الليلة الأولى من دخولنا الدير . كان الجو هادئا رائعا وسكون الليل له بهجة خاصة فقد أبعدنا عن سمع اوركسترا القنابل والألغام وأزيز الرصاص الذي كنا فيه مدة ما تقرب من أربعة شهور ونصف فشكرنا الباري عزوجل على نعمه وموفقتنا في اختيار مكان مؤمن في مثل ذلك الوقت الجحيم ودخولنا فيه لعندما يفرجها الله وينجلي الموقف بمشكلة فلسطين .

عند دخولنا الدير قررنا الصوم لمدة ثلاثة أيام وكان ذلك وبعد الصيام تناولنا سر القربان المقدس في كنيسة الدير الأثرية وشكرنا الباري على خلاصنا من جحيم حالة القدس المعذبة في المدة الأخيرة .[1]

[1] أنظر الملحق حول دير القرنطل

كرسي وظيفة الثلاثين سنة

ونحن في دير قرنطل وبتاريخ ٢٩ نيسان سنة١٩٤٨ عندما أصبحت مدينة القدس في حالة ذعر وخطر لا تطاق إذ حضر صهرنا زهدي نهائيا وانضم معنا هو وسالفو .

وقد أفادني زهدي ما يلي :-

على إثر انفجار مروع في عمارة [زلبرشتين] شارع برنسس ماري في القدس وهدم العمارة المذكورة بكامله قد أثر هذا الإنفجار على الدائرة التي كانت محل عملي عمارة الأرمن المعروفة بعمارة سلويس فتصدع البناء وكان باليا كما ذكرت سابقا . وقد هاجم الدائرة الرعاع من الناس ونهبوا ما فيها من أثاث وفرش .

والجدير بالذكر أن زهدي شاهد (الكرسي الذي كنت أجلس عليه في الوظيفة في هذه الدائرة . .) مع كرسي آخر قد بيع لشخص عربي بجوار الدائرة بمبلغ ثلاثين قرشا . فقلت في نفسي الحمد لله الذي سلمني من جلوسه عليه عند المبيع ! !

وقد سررت بأنه أصبح ملكا لأحد أفراد الشعب العربي وليس للأعداء . .

نهاية عملي بانتهاء انتداب بريطانيا ١٥ مارس سنة١٩٤٨

كلمة لا بد منها : كانت نهاية عملي بالطبع عند انتهاء الإنتداب البريطاني في فلسطين بتاريخ ١٥ مارس سنة١٩٤٨ . فقد دخلت كموظف بسيط كاتب مفردات ، ومترجم ، وانتقلت إلى دائرة الإيرادات واشتغلت بحسابات رسوم الويركو والأعشار حسب الخطة المتبعة إبان الحكم العثماني وعند تطبيق قانون ضريبة الأملاك في المدن سنة٩٢٩ اشتغلت كرئيس لجنة تخمين ثم شغل إدارة المكتب حتى توصلت بعد الجهد إلى وظيفة مدير مال القدس لغاية نهاية الإنتداب .

كان دخول الحكومة بتاريخ ٩ آب سنة ١٩١٩ لغاية ١٥ مارس سـنة ١٩٤٨ . وفي نهاية الإنتداب كان عمري ٥١ سنة و٤ شهور تماما خدمت فيها وطني وكنت أمينا في وظيفتي كما ذكر في شهادة الحكومة المحفوظ لدي والحمد لله ، وبموجب هذه الشهادة حصلت على التقاعد الشهري من حكومة بريطانيا أسد فيه الحاجة لما بقي لي من الحياة .

خصص لي كرملاتي من الموظفين راتب ثلاثة شهور [نيسان وأيار وحزيران] إنما تسلمنا سلفا من حكومة الإنتداب راتب عن شهر ونصف فقط أي من ١٥ مارس سنة ١٩٤٨ لنهاية حزيران سنة ١٩٤٨ .

طيلة المدة في الحكومة اشتغلت زمن حكام القدس من عسكريين ومدنيين كما يلي : -

رقم	اسم الحاكم	الوظيفة	المده
١ .	رونالد ستورس	حاكم القدس العسكري	منذ الإحتلال البريطاني ٩ كانون أول سنة ١٩١٧
٢ .	لوك	حاكم القدس العسكري	
٣ .	ادوارد كيث روتش	حاكم القدس المدني	١٢ تشرين أول سنة ١٩٢٦
٤ .	جيمس ادوارد كامبل	حاكم القدس المدني	١٥ تشرين أول سنة ١٩٣١
٥ .	جيوفري ماكلاون	حاكم القدس المدني	سنة ١٩٣٦
٦ .	ادوارد كيث روتش	حاكم القدس المدني	١٦ نيسان سنة ١٩٣٧ وقد سلم لنائبه ماكي
٧ .	موريس بيللي	حاكم القدس المدني	١ نيسان سنة ١٩٤٣
٨ .	روبرت نيوتن	حاكم القدس المدني	٣١ كانون أول سنة ١٩٤٣
٩ .	جيمس بولاك	حاكم القدس المدني	سنة ١٩٤٤ لغاية نهاية الإنتداب

الإقامة في دير قرنطل

كما ذكرت سابقا تركنا دارنا في القدس ونزلنا في دير قرنطل بتاريخ ١٨ نيسان ١٩٤٨ وأقمنا في هذا الدير الأثري العجيب لغاية ٢٥ تشرين أول سنة ١٩٤٨ كنت أنا وفيكتوريا وجورج وآيه ، ثم زهدي وليلى ، وسالفو ويسرى وشاديه .

قضينا أول أيامنا في هذا الدير براحة دائمة وسعادة وهناء وكلنا آمال نرقب الفرصة لدخول الجيوش العربية في ٤٨/٥/١٥ للأراضي الفلسطينية ومنها للهجوم العربي على الأرض المسلوبة وإنقاذها من الصهاينة ، . . وبعدها نرجع إلى بيوتنا مرفوعي الرؤوس .

اشـترينا حمارة وكان عندنا ولدا اسمه اسماعيل وأخيه . كانا يذهبان يوميا في الصباح إلى أريحا ويأتونا بما نطلبه من الطعام والشراب بموجب قائمة خاصة منا . كما في كثير من الأوقات نقضي أياما جميلة في بستان الدير الواقع في أسفل الجبل حول النبع الصافي وبين أشجار البرتقال والليمون والكريفوت والبلح والموز والخضار مع كثير من الأصدقاء الذين كانوا يزورونا من أريحا . وكثير من هؤلاء الزائرين أمثال عائلات الحزينة والحلبي والحسيني وأبو السعود وطوطح وكثير من أبناء الطائفة والعائلات يزورونا في الدير ويتمتعوا بمناظره الخلابة من الشرفات وأسطحة غرف النوم .

كما وفي أيام الحر نضع السجاد والحجر على درج المدخل الرئيسي للدير ونجلس مع الأصدقاء وكل يلهو بشيء هذا يلعب الورق . . وذاك الطاوله . . وهناك بحث بما جرى لنا سياسيا إلخ . . الأمر الذي كان ولا شك يزعج رئيس الدير والرهبان اللذين لم يألفوا هذه الحياة ولكن الأيام ورائحة اللحوم والأكل الممتاز التي كانت تدار بإشراف الهامة فيكتوريا . . جعلت كل منهم أن يمشي معنا بلهفة وشغف فكانت هذه الأيام ونحن عندهم في الدير تعتبر من حياتهم ولو كانت تعتبر خطيئة . . دينيا . . وسببها فيكتوريا . .

كان أخي خليل وزوجته يسكن أريحا آنذاك وكان يزورنا وعائلته وأصدقائه ويتبادلا التجارب في فن الطهي . . والطبيخ والمازات اللذيذة مع فيكتوريا وكم وكم من المناسف الشهية قدمت على المائدة الكبيرة في غرفة السفرة في هذا الدير لنا وللضيوف وقد أصبحت ذكرى ليومنا هذا .

كما قال المثل "وعند صفو الليل يحدث الكدر" فإني من الواجب أن أذكر ما قاسيناه من ولدنا جورج وأعماله الطائشة في هذا الدير . . كان رضي الله عليه آنذاك من الرابعة عشر من عمره . . لا يهمه شيء ولا يزعجه شيء إن كان من أخبار أو حياه ، كان همه الوحيد مشاجرة أخته آيه وله معاها حوادث مؤلمة ومضحكة في آن واحد . كان يحبسها في إحدى بلكونات الدير من الخارج ويقفل باب البلكون لساعات طويلة وهي تصيح وتبكي ولكن لم يسمعها أحد منا لعظمة الدير وكبر مساحاته العمرانيه ، وعندما تعلم ما أصابها من أخيها يجي جورج ويقدم الشروط لأجل العفو عنها ! ! شروط ما أنزل الله فيها من سلطان ! ! فكنت آنذاك أغضب وأنرفز وكنت في حالة لا أستطيع احتمال الغضب - إلى أن تستتب الأمور السياسية ما بيننا ونخلص آية من السجن وكلنا عطف وشفقة عليها . أقمنا في دير قرنطل مايه وتسعين يوما .

تركنا دير قرنطل في أريحا

وفي صباح الإثنين الواقع ٢٥ تشرين أول سنة ١٩٤٨ تركنا دير قرنطل وبدلا من أن نرجع إلى بيتنا تمتع في المجموعة الجوهرية في حي النيكوفورية ، بدأنا حياة جديدة في التشرد فنزلنا إلى أريحا وسكنا في ملك سعود عريقات محلة صبيحه المقابل لقصر موسى بك العلمي . وفي اليوم ذاته ذهبت إلى القدس واستلمت بما يسمونه الإكرامية من مكتب تصفية حسابات الإنتداب البريطاني مبلغ (٦١١) جنيه فلسطيني . قضينا فصل الشتاء في دير سعود لغاية ٢٤ نيسان سنة١٩٤٩ ثم انتقلنا إلى فندق المنظر الجميل للأخ توفيق ناصر مقمار لغاية ١٢ مارس سنة١٩٤٩ .

كانت أريحا وكأنها في ساحة حرب تعج بالناس من أهالي فلسطين الذين تركوا منازلهم في الوطن السليب ونزحوا إلى أريحا .
وقد يتخيل المرء في هذه الفترة وكأننا في يوم القيامة كل ياللي نفسي . . لا حكم منظم ولا استقرار ولا غذاء ولا ما يحزنون .
قد حاول كل منهم بأن يتفنن بالحصول على طريقته الخاصة على رغيف العيش . وأصبحت أريحا من فندق المنظر الجميل لغاية السوق الساحة الوسطى إلى الجامع الشرقي من الشرق وإلى أول طريق عين السلطان بسطات خشبية من على ضفتي الطرقات الرئيسية لا فرق بين أفندي وعامل وفلاح فهذا يبيع اللبن وهذا الجبنه والحويرنه والخبيزه والسكاير وأي صنف غذاء والجميع وكأنهم في مأتم يفكرون بالذي أصبحوا فيه بين عشية وضحاها ويلعنون الإنكليز واليهود والعرب والدول والجيوش ويبكون على مصير ومستقبل أولادهم الذين فقدوا الوطن وأصبحوا بلا مأوى حتى خسروا قبور الآباء والأجداد وكل واحد منهم بدأ يتفهم الاحتيال والمؤامرات التي حدثت وكان سببا لضياع الوطن الذي لا مثيل له وتأكدوا أن البلاد راحت كلا . . كلا . . ألعوبة الثلاث ورقات ويقولون لو كان شرف وذهبت البلاد بطريقة الحرب والمعارك الشريفة لا يهمنا أبدا . .
كنت يوميا أتجول بين هذه المجموعة من الأهالي ونستقبل لاجئين جدد لم يزالوا يردون أريحا بطرق خبيثة من مختلف القرى والبلاد التي ومع الأسف كانت ليست داخلة في حساب التقسيم بل تسلمت اللقمة صائغة لليهود تسليم اليد . .
وإن أنسى لا أنسى عندما دخل لاجئون اللد والرملة أريحا في حالة تقشعر منها الأبدان . . وكانوا يقولون لنا "أن اليهود عندما احتلوا بلادهم وكانت فئة تلبس الكوفية والعقال يقولون لهم ياالله انقلعوا من البلد فقد باعكم ملككم يا ريت كل واحد بقرش بل كل اثنين بقرش ونصف" . هذا ما كنا نسمعه منهم وبالحرف الواحد .

دير قرنطل أيضا . . [هم يحسدوني على موتي . .]

دخلنا دير قرنطل ولجأنا فيه منذ ١٨ نيسان سنة١٩٤٨ لمدة ماية وتسعين يوما ، والسبب المباشر في لجوئنا لهذا الحصن هو :-
أولا : لأجل الراحة التامة بعدما قضينا أيام وليالي منذ تاريخ التقسيم في معارك دامية من حولنا . . ثم والمهم في الأمر أن الحالة المالية لكل منا كانت سيئة لدرجة ما . . وكانت فكرة صائبة شجعتنا عليها زوجتي فيكتوريا واتضح لنا فيما بعد مصير من لجأ إلى سوريا ولبنان ومصر وصرف كل ما كان معه من نقود في الفنادق والمصايف الممتعة وأصبح والعياذ بالله لا يملك قرشا في جيبه .
قيل لنا عند دخولنا الدير أن لصوص من البدو دخلت الدير ليلا بأسلحتها وذلك من الباب الخلفي من الجهة الغربية المؤدي إلى قمة جبل قرنطل وذلك قبل وصولنا بمدة أسابيع قليلة الأمر الذي جعل الرهبان تقوية هذا الباب والحصول على بنادق مرتين وعتاد للمحافظة على أرواحهم وعلى النفائس الثمينة الموجودة خصوصا في الكنيسة .
والجدير بالذكر في هذا الصدد أننا تبلغنا بواسطة الرهبان ومن رجالات هذا الدير من أهالي بدو قرنطل وعلى رأسهم العم [ ] الأسود والمعروفين بعبيد مريم أنه أشيع بين أهالي المنطقة لدى وصولنا الدير بأن [واصف الجوهريه هو مليونير . . كبير

جاء وعائلته ليحتمي في هذا الدير. ولم تعرف من نشر وأذاع هذا الخبر بل التقليعة من أولاد الحرام عسى أن يكون من الأصدقاء المقدسين الذي لهم الإطلاع على المجموعة الجوهرية..

وقد تظاهرنا بالضحك عندما أخذنا خبر هذا الثراء ولكننا بذات الوقت تحسبنا للأمر داخليا ألف حساب وأول ما عملناه هو حفظ ما نملك جميعا من حلي ومصاغ وبعض النقود التي لا تذكر والله يشهد، حفظها في مواقع لا تدع الشك في وجودها فيما إذا جرى بالفعل هجوم من اللصوص أو قاطعي الطرقات لا سمح الله. كانت ليلى وزوجها يستعملان القاعة الكبيرة في زوايا الدير المفروشة بالمصاطب الخشبية من جهاتها الثلاث والمعدة قديما لنزول السياح الروس فيها للجلوس والمنام أيضا ليلا على هذه الدواشك، وهكذا جاءتنا الفكرة فحفظنا سرا كل ما هو ثمين معنا داخل خشب هذه المجالس واطمئن بالنا. وكان كل واحد منا على حذر ويقظة خصوصا في الليالي المظلمة.

أريحا بعد النكبة ١٥ أيار سنة ١٩٤٨

دخلنا أريحا ٢٥ تشرين أول سنة ١٩٤٨ وكان حكما عسكريا فيها وكنا تعرفنا بواسطة الأخ نصري ابراهيم نزال صاحب فندق القصر الشتوي هناك على حاكم أريحا العسكري السيد ذوقان الحسين وهو من أحسن عائلات السلط وقد زارنا في بستان دير قرنطل وهو من رجالات العرب المتعلمين وكان حافظا للشعر العربي.

ولما كانت الحالة لم تزل فوضى بعد انحلال دولة الإنتداب البريطاني وأصبحت الدوائر في أي مكان كان خاوية وبموجب أوامر الحاكم العسكري عين السيد يعقوب الحسيني الصيدلي رئيسا للمجلس البلدي آنذاك وصدرت له الأوامر لإعطاء الأهلين بطاقات هوية وهكذا زرت الرئيس في بلدية أريحا وحصلت على بطاقة هوية مؤرخة في ٤٨/١٠/٧ أحتفظ بها لغاية تاريخه للذكرى وأخرى باسم لدنا جورج. وإثباتا لما قلته آنفا بأن الإدارة كانت فوضى فقد كتب الموظف الذي أعطاني هذه الهوية بأن [لون العيون سكني..] فضحكت وقلت في نفسي صدق من قال "بين المكتوب من عنوانه.."

وهذا هو أول عمل قامت العرب فيه.. بعد الإنتداب الأمر الذي كنت أتخايل نفسي بأنني أصبحت بسه وليس إنسان.

عضوا في اللجنة الاستشارية للاجئين في أريحا

ولما أصبحت أريحا هي أكبر ملجأ للعدد الأكبر من اللاجئين الفلسطينيين من جميع الأقطار التي احتلها مع الأسف الشديد اليهود تشكلت لجنة بواسطة الحاكم العسكري في أريحا مؤلفة من:-

سعيد دجاني قائمقام أريحا	ورئيسا للجنة
عرفات وفا الدجاني	سكرتير اللجنة
نافذ محي الدين الحسيني	عضو
الحاج جودت الحلبي	عضو
ابراهيم علي الحزينه	عضو

لطفي المغربي عضو

عطاالله الطرزي عضو

وغيرهم وقد طلب مني رسميا بأن أكون عضوا في هذه اللجنة والتي هي تعتبر عمل إنساني خيري لصالح اللاجئين وبدون راتب قبلت هذه الوظيفة بالإفتخار وعملنا سوية لتنظيم شؤون اللاجئين بمساعدة جاك [. . . ، والسيد مليكيان عن اللوثريين بالإشتراك مع الصليب الأحمر والرئيس.

اشتغلنا بكل أمانة وإخلاص وأسسنا مكاتب تنظيم اللاجئين وسجلنا نفوسهم وتعدادهم ومن ثم تم إعطاء كل واحد منهم بطاقة للحصول على المؤن التي باشرت الأجانب في تقديمها من غذاء وملبس ولن أنسى ما كنا نراه من بؤس وشقاء بين خيام اللاجئين وعوزهم على متطلبات الحياة والقوت الضروري والألبسه. كانت وظيفة شاقة وقد لعبت بها أيدي الخونة فقد كنت أرى السرقات علنا ولكن قال المثل (من يقرأ ومن يسمع . .) وأصبحت قلق الراحة ولم أنم من طلبات الأهلين في بيتي ملك سعود عريقات. وكان الموظف المشرف على تنظيم البطاقات في المخازن عمارة المسكوبية بجوارد المسجد الشرقي في أريحا صديقي وزميلي في الدراسة والموظفية الأخ فوتى دعدوش.

لم أطق الحالة التي وصلت إليها يد الخونة في مثل هذا اليوم وقد حاولت تنبيه المسؤولين ولكن بدون جدوى الأمر الذي جعلني أن أقدم استقالتي وبالفعل قدمتها بتاريخ ١١/٤/٤٩ مدعيا بأنني مضطر أن أترك أريحا وأرحل إلى بيروت. ولدى البحث في اجتماع خاص رفضت اللجنة طلبي وعندما أصريت على الإستقالة طلبوا مني أن أقدم من ينوب عني من طائفة الروم الأرثوذكس فكان نصيب أخي عوده وجهشان فقدمته وأوصيت به خيرا وكان ذلك.

وفي تاريخ ١٤ نيسان سنة١٩٤٩ أرسلت بإسمي هذه الشهادة والموافقة على الإستقالة لم أزل أحتفظ بها ليومنا هذا.

بدأ كل من صهرينا بعمل بعد تركنا دير قرنطل مباشرة

في أول يوم من تركنا دير قرنطل ١٥ تشرين أول سنة ١٩٤٨ عندما سكنا في بيت سعود عريقات في أريحا سافر صهرنا سالفو لوحده إلى بيروت ودخل الجامعة الأميركية ولحسن حظه وجد الرئيس المرحوم المستر نيروز الذي قدر فنه الموسيقي الرفيع فتعين في الحال رئيسا للقسم الموسيقي "بروفسور" بشروط مرضية ارتاح لها سالفو ويسرى، وقد سمح له أي الرئيس بالإضافة لمركزه في هذا المعهد العظيم أن يتعاطى كل ما يرغبه في كسب ما أمكن من فنه الموسيقي خارج الجامعة الأمر الذي لم يعط لأحد سواه.

وهكذا بعدما نجح في وظيفته وتيسر الحال انضمت يسرى وشادريه إليه وسكنوا في بيت بمحلة زقاق البلاط في بيروت ثم تدريجيا إلى بيت في شارع السادات رأس بيروت وكان البيت مفروشا والتحقت ابنتنا آيه معها في بيروت.

وبالنظر لمعرفتنا بالحاكم العسكري لأريحا السيد دوقان الحسين والذي قدر صهرنا زهدي حق تقديرة في العلم والإدارة عينه بوظيفة [. . . ، في سراي الحاكم وأصبح قادرا على إعالة نفسه وعائلته.

قضينا فصل الشتاء في أريحا ثم في أول الصيف أقمنا بعض الوقت في فندق القصر الشتوي لصاحبته آنذاك السيده نيهه نزال وبعدها انتقلنا إلى بيت الدكتور بدران مع ليلى وزهدي وآيه .

أما أنا وفيكتوريا فقد زرنا المفوضية البريطانية وقبضت راتب التقاعد عن مدة أربعة شهور المنتهية في ٣٠ أيلول سنة ١٩٤٩ وتناولنا الغذاء في المطعم وقضينا ليلة ضيوفا على الأخ سيمون مشبك في عمان وعائلته ووالدته المحترمة وتجلى في هذه الليلة الكرم المشبكي وعوض فألف شكر وقد زارنا على ما أذكر هناك المهندس نصري ناصر مقمار وزوجته مسلمين وفي الصباح ١٠ تشرين أول سنة ١٩٤٩ بعدما قدمنا تشكراتنا القلبية للأخت أم سيمون ركبنا السيارة من شركة النجاح ونظرا لكثرة الأغراض التي كانت معنا اضطررنا أن ندفع خمسة ركاب وقصدنا بيروت فعرجنا :–

الرصيفية ، الزرقاء ، المفرق ورأينا الطريق المؤدية إلى بغداد ، البويضه ، الرمثا ورأينا الطريق المؤدية إلى إربد ، درعا ، داعل ، أبطع ، الشيخ مسكين ولن أنسى الطريق الرئيسية آنذاك الوعرة بجانب هذا الشيخ المسكين حقا ، ورأينا هناك الطريق المؤدية إلى جبل الدروز ، وضمان ، وغباغب كيلو ٤٠ ، وخان ذانون ، والكسوة وإنها لضيعة جميلة ، ثم القدم محطة سكة حديد دمشق ، وحي الميدان الفوقاني ، وأخيرا دمشق وكانت الساعة الواحدة تماما .

غيرنا السيارة وتركنا دمشق في الساعة الواحدة والنصف فعرجنا :–

الربوه ، ودمر ، والهامة من على يمين الطريق ، الحدود اللبنانية وعملنا المعاملة جواز السفر في مركز أمن وادي الحرير ، وشاهدنا اللاجئين في أراضي عنجر ، ثم برالياس ، وشتوره ، المريجات المقامة في أول جبل من جبال لبنان ، وخفر ظهر البيدر ، ثم رأينا حمانا في الوادي عن يمين الطريق ، فدخلنا صوفر ، وبحمدون ، وعاليه ورأينا عاريا ثم الكحاله ، فالجمهور ، فالحازمية ، ففرن الشباك ، فالحدث .

فعرجنا بيروت الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر . وبعد التفتيش في شوارع رأس بيروت اهتدينا والحمد لله على بيت يسرى وكان طابق أرضي تملكه السيدة روز يارد – شارع السادات. وهات يا بوس . . فقبلنا شاديه ويسرى وسالفو وآيه الضيفة هناك .

ولأجل الصدف كان ابن الأخت ايليا أدرنلي وشكرنا الباري على اجتماعنا بهم بعد غياب طويل وعلى سلامتنا وكنت الرحلة والحمد لله ممتعة . وكانت هذه الرحلة الأولى لنا بعد النكبة والتي تكررت مرارا وإلى يومنا هذا .

هذه الرحلة إلى بيروت ذهبنا ليس بموجب جواز السفر الفلسطيني لحكومة الإنتداب بل حسب [. .][1] ، صادر من حاكم العسكري لأريحا تحت رقم [. .][2] ، مؤرخ [. .][1] ، يسمح لناقله بالسفر إلى سوريا والأردن ولبنان ومصر .

ولكن بعدما ضمت الضفة الغربية إلى المملكة الأردنية الهاشمية كما سيأتي البحث عنه صدر لي ولزوجتي جواز سفر أردني بموجب المادة (٣) تحت رقم ٩٨٥٢٦ . مؤرخ ٢ تشرين أول سنة ١٩٥٤ تحت توقيع صديقنا نجاتي النشاشيبي الذي عين من قبل الدولة الهاشمية مديرا للسفر والمهاجرة بالقدس وإني أحتفظ به للذكرى .

كما وإني أحتفظ أيضا بالجواز السفر الفلسطيني زمن الإنتداب الذي فيه يصرح بأنني من مواليد القدس .

[1] ناقص في الأصل.

[2] ناقص في الأصل.

ضم ما بقي من فلسطين إلى المملكة الأردنية الهاشمية

مؤتمر أريحا يوم الأربعاء ١ كانون أول سنة١٩٤٨

في فصل شتاء سنة١٩٤٨ عندما كنت وعائلتي تسكن دار سعود عريقات، كنت لا أنقطع عن زيارة أخي وصديقي نصري نزال صاحب فندق القصر الشتوي في أريحا، وهذه الأخوة والصداقة ليست مع نصري وحده فحسب بل لجميع أسرة نزال إبان الحرب العظمى الأولى زمن تركيا فكان المرحوم الوالد ابراهيم نزال يعتبرني بمثابة ولدا لها مع أولاده واستمرت والحمد لله هذه الصداقة ليومنا هذا. وعليه كنت يوم الأربعاء ١ كانون الأول سنة١٩٤٨ في الفندق وشاهدت مؤتمر أريحا المشهور وذلك من إحدى شرفات الطابق الثاني للفندق وأذكر أن كثيرا من عائلات القدس كانوا يشاهدون هذا الإحتفال ومن جملتهم المرحوم صديقي يعقوب كليس.

الفكرة كانت في عمان وهكذا تعين صديقي الشيخ محمد علي الجعبري رئيس بلدية الخليل رئيسا وصديقنا الأستاذ عجاج نويهض سكرتيرا وكان فيما سبق زمن الإنتداب البريطاني مديرا على الإذاعة بالقدس.

كل من الرئيس والسكرتير وخصوصا كلوب باشا ساعد بواسطة ضباط الجيش وبعض شخصيات من الفلسطينيين الموالين للحكم الهاشمي بواسطة الزعيم الشيخ محمد علي الجعبري ونفوذه في الخليل ساعدوا على تنظيم هذا المؤتمر لأجل ضم ما تبقى من فلسطين لشرق الأردن وبعد تنفيذ الفكرة تقرر الإسم الجديد وهو [المملكة الأردنية الهاشمية].

وقد حضر في ذلك اليوم وفدا برئاسة المرحوم الدكتور موسى عبد الله الحسيني وأذكر أعضاء علي الدجاني ويحيى اسماعيل حموده. بعدما ألقى السيد عجاج نويهض كلمته عن أهداف المؤتمر انتخب الجعبري رئيسا ووافق عليه بالإجماع.

ثم تلاه الأعضاء بكلمات وهم فؤاد عطاالله المحامي وابراهيم نجم ومصطفى الدباغ واقترح أسماء لجنة المقترحات وهم حكمت الناجي وعثمان محمديه وكمال حنون ويحيى حموده ووافقوا إنما وفد رام الله ووفد القدس لم يوافقا على ذلك بل اقترحا زيادة بعض المواد وبعدها تكلم موسى الحسيني ووافق على اقتراحاته الجميع.. كما يلي وهذه بعض المواد :-

(يعتبر المؤتمر فلسطين وحدة لا تتجزأ وكل حل يتنافى مع ذلك لا يعتبر حلا نهائيا. ويجب البدء بتوحيد فلسطين مع شرق الأردن مقدمة لوحدة عربية حقيقية. يبايع المؤتمر جلالة الملك عبد الله ملكا على فلسطين كلها إلخ.. هذه هي الأهم فقط).

وبعد انتهاء المؤتمر تحركت الوفود إلى قصر المصلى في الشونه ورفعت لجلالته المقررات. إنما الجدير بالذكر أن رئيس بلدية القدس ونابلس لم يحضر هذا المؤتمر.

وفي ١٣/١٢/٤٨ استعرض برلمان الأردن المقررات وأقرها مع مجلس الأمة. كان هذا المؤتمر تحت رعاية الحاكم العام آنذاك عمر مطر وحضره محمد السجمات أيضا وهكذا وبين عشية وضحاها أصبحنا تابعين أوتوماتيكيا لشرق الأردن وألغيت ويا للأسف حتى كلمة فلسطين.. آه.

محسوبك خارج السور ! !

عرفني أخي وصديقي نصري نزال بعدد كبير من رجالات الحكم في عمان بعد النكبة منهم :-

عمر باشا مطر - ذوقان الحسين - سعد الدين الجالي - كلوب باشا - نوري السعيد من العراق - صبري باشا الطباع - رئيس وزراء المملكة الأردنية الهاشمية توفيق باشا أبو الهدي وغيرهم .

وفي عصيرة ذات يوم من شتاء سنة١٩٤٩ عندما كنت جالسا في بستان الفندق وكان يوم جمعة اغتصت المدينة بالزائرين من الشخصيات الفذة في عمان ثم أبناء القدس منهم علي يونس الحسيني وخضر عويضه وصبري خلف رئيس بلدية أريحا والحاج جودت الحلبي وعرفات الدجاني وأنطون لورنس وأحمد الراغب ونافذ الحسيني وعلي الحسيني وغيرهم وإذا أقبل علينا وفي سيارة جلالة الملك المعظم شخصية فذة قام الحضور ونصري نزال لاستقباله والحفاوة بها من مدخل الفندق الرئيسي ! !

وبالإختصار بدأ نصري نزال بتعريف هذه الشخصية للحضور كما أنه عرفني به . هذه الشخصية كما علمت عنها كانت [سمو الشيخ [ ] . .] وكما فهمت أنه كان اليد اليمنى لجلالته وكأنه واحد من العائلة في القصر .

جلست وسمو الشيخ على طاولة تناول الشاي . وإذ جاء باص ملآن تلاميذ الصف الرابع من مدرسة السان جورج الإنكليزية في عمان وكانوا ينشدون الأغاني ويرقصون ومعهم العود فدخلوا بستان الفندق .

فما كان من نصري إلا أن استعار العود منهم وجاء به وأسر في أذن الشيخ منيور . . واعطاء العود . فأخذ الشيخ منيور العود من نصري ووقف وقدم لي العود مستعطفا أن أعزف عليه وأغني . .

كان موقفا محرجا بالنسبة للظروف السياسية آنذاك ، وعليه احترت في أمري وعزمت على الرفض . . وكنت أقول في نفسي ولو هل أصبحنا في حالة نجبر فيها على العزف والغناء جبرا ؟ ! بعد ضياع الوطن ! لا والله .

لا . . ولن أعمل هذا مطلقا وسأرفضه .

قمت في الحال وقلت : [يا سمو الشيخ يصعب علي أن أرفض طلبك . . وبالرغم بأنني مطرب وعازف والفن يسري في عروقي منذ الصغر ، إنما الحالة التي وصلنا إليها لا تمكنني من الطرب وأنا رجل مشرد وإن شاء الله عندما ترجع لنا القدس بوجود سيدي جلالة الملك المعظم فعندها أغني وأعزف وحتى أرقص إن شاء الله . .]

فقال سمو الشيخ : يا أخي ما بالك القدس هي معنا ! !

أجبته : ولكن محسوبك . . خارج السور

وما إن قلت هذه الكلمة إلا وجميع الحضور مع الأخ نصري هات يا ضحك . . ! !

[. . ، وجه الشيخ منيور وأرجع آلة العود إلى نصري مكسوفا . . ثم جلس وجلسنا فترة صامته . . آه .

وفاة خليل

شاء القدر أن يعمل خليل في وظيفته في دائرة بلدية القدس لآخر يوم من حياته. ففي الساعة الرابعة من بعد ظهر الأربعاء الواقع ١٤ تموز سنة١٩٥٤ أصابه والعياذ بالله انفجار في الدماغ في رأسه وتوفي مأسوفا عليه وذلك في سكنه الواقع في شعفاط. كان ذلك فجأة عندما حاول شرب فنجان قهوة على فراشه وكانت الأخت جوليا بجانبه فقد وقع من يده الفنجان وما هي إلا ثوان أصبح خليل في الغيبوبة لا يدري شيئا ولا من حوله. جاءه الدكتور صليبا وبعد المعاينة وجد أن الضغط عال جدا يفوق الثلاثماية وقد [. .]. وبقي خليل يشخر مدة حوالي ٢٤ ساعة إلى أن فارق الحياة رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جنانه.

الجنازة

وفي الساعة الرابعة من بعد ظهر الجمعة الموافق ١٦ تموز سنة١٩٥٤ كانت جنازة المأسوف عليه الأخ خليل في كنيسة مار اسطفان وادي ستنا مريم للأرثوذكس ودفن في مقره الأخير بجوار كنيسة ستنا مريم للروم الأرثوذكس وكانت الجنازة حافلة من مختلف الطوائف على اختلاف دينها وميولها وإني لم أزل أسمع صدى باثعي السوس من أهالي مدينة القدس وهم يصرخون بجوار القبر [من أراد الشراب عن روحك يا خليل لوجه الله. .] لما كان يتحلى به من نخوة وأخوة في حياته خصوصا في الوظيفة.

كان بموت خليل مصاب كبير لكل من أفراد العائلة وأخص بذلك الأخت جوليا التي كانت تسكن عنده منذ مدة خمسة عشر يوما فقط عندما وصلت من أميركا . . فبكت عليه بكاء مرا كما سأكتب عنها (في الصفحة الخاصة لها من هذا الكتاب مفصلا) ولن أنسى يا حبيبي لن أنسى مطلقا مشهد ولدنا جورج وهو يرافق النعش أثناء الجنازة وعيونه تدفق الدموع السخية على عمه الكبير رحم الله خليل رحمة واسعة وألهمنا من بعد الصبر والسلوان إنه سميع مجيب.

وفي صباح الأحد الواقع ٤ كانون الثاني سنة١٩٥٥ كان جناز نصف السنة عن روحه في كندرائية مار يعقوب بالقدس. . وهكذا توفي خليل عن عمر حوالي واحد وستين عاما. وكانت وفاته أثناء عمله وقد صرفت لورثته بضع جنيهات من دائرة بلدية القدس كتعويض جرى تحصيله قانونيا من كل منا ونحن دفناه إلى زوجته المسكينة الكساندره التي أصبحت أرملة ولم نفلح بتاتا بمساعدتها للحصول على تذكرة مؤن من الوكالة لأنها أصبحت لاجئة في كل ما من هذه الكلمة من معنى فقد فقدت زوجها الذي كان يعيلها وملكه الذي بقي في الأرض المحتلة مع ملك المرحوم والدها سابا الجوزي وكان رفض إعطاءها بطاقة المؤن في منتهى اللؤم والظلم والإستبداد من بعض موظفي دائرة الإغاثة.

وفاة فيكتوريا

أدخل رأسا في موضوع ما أرغب تدوينه فأقول مقسما أن وفاة شريكة العمر [فيكتوريا] تلك الزوجة المثالية التي اقرها ووافق عليها كل من عرف فيكتوريا من جميع الوجوه والأمور، أقول مقسما بأن وفاتها كانت العثرة الوحيدة التي ألمت بي

منذ نشأتي. نعم إنها المصاب الوحيد الذي ذقته وتألمت به ونسيت كل ما أصابني حتى تشردي وتركي مسقط رأسي بيت المقدس المحببة إلي، نسيت كل هذا بسبب وفاة فيكتوريا العزيزة على قلبي بل التي كان القسم الأكبر من قلبي والله على ما أقوله شهيد.

رحمها الله رحمة واسعة وأسكنها فسيح جنانه وألهمني وأولادها وأحفادها وجميع أفراد الأسرة الصبر والسلوان إنا لله وإنا إليه راجعون.

كان وفاتها ٢٢ كانون الثاني سنة ١٩٥٨ ذلك اليوم المشؤوم وذلك في مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت في غرفة الدرجة الأولى. كما كان الجناز عن روحها بعد ظهر ذلك اليوم في كنيسة سيدة النياح للروم الأرثوذكس رأس بيروت ودفنت في مقبرة هذه الكنيسة المقدسة لحسن حظنا.. وقد ضمت الجنازة جميع الأهل والأصدقاء والمعارف الذين جاء بعضهم خصيصا من الأردن وكان جمهور مجتمع يبكيها بكاء مرا لما كانت تتحلى به المرحومة فيكتوريا من خلق حسن وتواضع وحبها وتفانيها لفعل الخير ليس لذويها فحسب بل للغريب.. وهكذا خلفت والحمد لله أولادا يسرى وليلى وجورج وآيه يسيرون على خطتها يحبون بعضهم بعضا حسب تواصيها الدينية.

وإني أسوق المثال التالي لما كانت فيكتوريا تحب الناس فقد شاهدنا أن جميع تجار المخازن في حي جاندارك - بيروت قد أغلقت أبوابها وقد سارت في موكب الجنازة تتحدث عن خصالها الحميدة وتترحم على أم جورج. كان العزاء في بيت يسرى الواقع في شارع جاندارك وتقبلنا التعازي أيام وليالي عديده وقد فتحت جيران يسرى وأخصهم جابر بيوتهم للمعزين ولن أنسى لهم هذا الشعور النبيل وألف شكر لكل منهم.

أما الحبيب جورج فقد جاء لوحده خصيصا من ليبيا ومكث بجانبها مدة أيام في المستشفى وقد كتمنا عنها خبر مجيئه لمشاهدتها خوفا من انزعاجها وقلنا أنه حضر على سبيل مأمورية زراعية، وبعد اجتمع مع رئيس المستشفى المستر بليمانتون الأميركي اللطيف وأعلمه أنه والدته في حالة الخطر ولا أمل من شفائها نصحه بأن يكون واقعيا ولا يتأخر عن عمله وهكذا ودعها وقفل راجعا إلى محل عمله في ليبيا إلى أن عرفناه بوفاتها.. وقد حضر وفاتها جميع أولادها ما عدا جورج كما ذكرت الآن.

إني لم أزل أحتفظ بجميع التعازي التي تسلمناها من الأهل والأقارب والأصدقاء من الخارج وكانت ولا شك تعزية رقيقة تنم عن شعور نبيل ومشاركة لي في هذا المصاب الجلل. أحتفظ بها ضمن دوسية خاصة للذكرى.

بس أرجوك.. قطعت قلبي

في أول ليلة بعد الجنازة وكان في بيت يسرى الواسع خصوصا الإيوان منه كان جمهور غفير من المعزين إذ شاهدنا رجل غريب عنا ولأول مرة نراه، وقف وفي يده ورقة طويلة عريضة وبدأ بصوت عالي يخطب ويرثي الفقيدة الغالية بأسلوب محزن دقيق ويثني على خصال المرحومة بأبيات من الشعر [الخنفساري..] ثم انتقل إلى مديح زوجها الفاضل.. وخلفه الصالح.. وكأنه شخص عاش معنا وعرفنا حق المعرفة، لا بل أكثر من الحقيقة.. الأمر الذي جعل جميع الحضور ينظرون

إلي وكل منهم يتساءل في قرارة نفسه عن ما يفكر به واصف من نقد . . وما هي إلا ثوان معدودة إذ خرجت عن صمتي وحكت النكتة معي . . في ذلك الظرف العصيب المحزن والمؤلم ، وقلت لهذا الخطيب [بس أرجوك . . مزعت قلبي . . فهذا يكفي . .] وقد ناولته ما تيسر من نقود . ولكن الخطيب أبى إلا أن يسلمني ورقة الخطاب . . فزادني تنبها للنكتة فرفضته وقلت [لا . . يا أخي دعها لك فأنت تلزمك أكثر مني وتقرأها لغيري] . . الأمر الذي اضطر كل من الحضور الضحك والبسمة بدت على وجوههم . . حتى يسرى وليلى وآيه . . وبالكاد قدرن على تماسك أعصابهم في تلك البرهة الحرجة . . فقلت سبحانه وتعالى إنني موعود دائما أبدا بالنكتة والمزاح

مرض المرحومة فيكتوريا

الحقيقة أن موت المرحومة فيكتوريا كان مفاجئة أدهشت كل من عرفها من الأهالي والأصدقاء لما كانت عليه فيكتوريا من قوة جسم ومناعة حتى أن البعض كانوا يلقبونها [بالقولاغاص] وهو ضابط معروف بالبنية المتينة زمن الحرب العظمى بالقدس وذلك عندما تمشي . .

قضيت مدة أربعة وثلاثين سنة مع رفيقة العمر فيكتوريا ولم أذكر أنها لازمت يوما فراشها عدا في حالات الولادة . . وكانت بعيدة كل البعد على الدواء لا بل تكره أخذ حبة أسبرو . . والجدير بالذكر في هذا الصدد أنها عندما دب فيها المرض وتبا له من مرض ، عندما كانت تمرض في مستشفى الجامعة الأميركية وتشكو من معدتها وكلاها ، فكانت تغالط الأطباء وبالصراحة تكذب عليهم فمثلا [يكلفها الطبيب بتناول شربة الزيت الخروع لتنظيف الأمعاء في الليل لأجل أخذ صورة أكسري في الصباح ، فتقول له أنها أخذت هذا المسهل . . وعندما تظهر الصورة يبين للأطباء أن شيئا غير عادي في الأمعاء . . ويبدأون الشك والريبة ويتحزرون عن وجود أمراض وليس مرض واحد في داخلها . .] مع أنه لو استعملت المسهل حسب الإشارة لكانت ساعدتهم على تشخيص المرض الحقيقي وأراحتهم وأراحت نفسها من هذا العناء بل ربما لو صدقت لشفيت . . والعلم عند الله . .

أقول هذا لأنها كانت تكره اسم الدواء وتمريض وتطبيب فليس لها جلد ولا نفس لاستعمال ما يفيدها بالنسبة لقوة جسمها وبنيتها . .

وإني لا أبالغ إذا قلت أنها عندما كانت في دورها الأخير من حياتها منهوكة القوى حتى وبعد عملها عملية استئصال الصدر . . كانت رحمها الله تنزل وتصعد الدرج من الطابق الثالث في المستشفى . . وتذهب سيرا على الأقدام إلى قسم صور الأشعة ولم تستعمل المصعد بل كانت مرارا تنصحني أنا أن أستعمله عندما كنت أزورها هناك خوفا من التعب . .

في صيف سنة١٩٥٣ وكنا في بيت شحاده قشوع ازداد عليها الألم فتركنا الأردن وجئنا إلى بيروت وقد ظهر للدكتور يوحنا بندر شيء في الثدي فعملت عملية الإستئصال الكلي بواسطة الدكتور اللطيف سامي عبيد ونجحت العملية ، إلا أنها دخلت في مضاعفات ثانية قيل لنا أنها في الكبد بمرض يعرف ب [سيروسس] وهو من فصيلة أو عائلة ذلك المرض الخبيث لعنه الله . . وما هي إلا بضعة شهور حتى قضى على حياتها . وقد ساعدها الله لحسن حظها وطيبة قلبها وشدة إيمانها

فلم تتوجع مطلقا ولم تتألم طيلة المدة إلى أن أسلمت الروح . . وكانت هذه البادرة والحمد لله ولا شك نعمة جزيلة لها ولكل من ذويها وقد ماتت ولم تدر بأنها كانت في مرض خطر على ما أعتقد وكانت الحبيبة الغالية على قلبها حلوه الخوري زخريا القسيس عندها ليلا نهارا إلى أن فارقت الحياة رحمها الله .

خاص بواصف [صاحب هذا الكتاب]

لا شك أن وفاة رفيقة العمر المرحومة فيكتوريا كان لي ضربة في الصميم ، لم أستطع تحملها ولا بطريقة ما ، فقد انهارت قواي وفاجئني مرض السكري قليلا من شدة الزعل وقلق الأفكار . لا أنكر أن جميع أولادي أظهروا كل عطف وحنان وإكرام وقد لمست هذه البادرة من كل من يسرى وليلى وآيه ورجالهن حتى أولادهن الصغار ، وزاد على ذلك فإن الحبيب جورج فكر جليا بأبيه وراحته الأمر الذي زاده حماسة وتصميم على ترك عمله في ليبيا والرجوع إلى الأردن ليعتز بإيواء والده في بيته وبين زوجته وأولاده وقد حضر بالفعل وخصص لي غرفة خاصة في سكنه في المشروع الإنشائي - أريحا وحضنني بكل ترحاب وإكرام ولن أنسى تلك العاطفة الأبية وزوجته كيتي واحترامهما لي من كافة الوجوه جزاهم الله على أعمالهم خيرا .

ولكن بالرغم من كل هذه التقدمه ومن كل من أولادي ، كانت في قرارة نفسي غصة وكنت أتخايل بأن شيء ما ينقص في حياتي ، لا بل ينقص من جسمي ، فكنت أكابر بالمحسوس وكانت أفكاري قلقة لم ولن أنسى عشرة المرحومة مدة أربعة وثلاثين سنه . . هذا بالإضافة إلى معرفتي لها حتى قبل الزواج إبان الحرب العظمى الأولى وأنا في ربع الشباب في أريحا .

كنت على سبيل المثال : لو سألتني الحبيبة آيه وأنا أتناول طعام الفطور على مائدتها ما هب ودب من الحلوى ، لو سألتني [ماذا أعمل لك بابا على الغذاء . . ؟] أتقبل هذا السؤال منها ببشاشة . . ولكن كنت أنفعل داخليا وأقول في نفسي [ولو . . لم أتعود طيلة حياتي الأخيرة مع رفيقة العمر على السؤال . . حتى ولا أستطيع الإجابة عليه . .] فقد عشت ما يقرب من نصف قرن لم أدري ما كنت آكله وأشربه . . ولم أعرف شيئا على إدارة البيت . . وماذا يعوزه ذلك البيت . . وما ينقص الأولاد من حاجاتهم البيتية حتى ولا المدرسيه] كل ما كنت أعمله وأعرفه بأنني كنت أعمل في الدائرة ثم التفت إلى ما وهبني الله من فن . . إن كان في الموسيقى أو جلب ما أنا وراءه من تحف أثرية وفنية لزيادة المجموعة الجوهريه . . بالإضافة إلى تنظيم أوقات السهر والسمر والأنس والطرب . .

إن الحبيبة آيه لم تكفر عندما تسألني عن الشيء الذي أرغبه من الطعام فقد سألتني وتسألني كي تبذل أقصى ما عندها من حب وحنو تجاه والدها . . ولكن كان ذلك عندي إزعاج وقلق البال وهذا يرجع بالطبع إلى ما عودتني عليه رفيقة العمر رحمها الله .

ثم والأهم من هذا كله وعلى سبيل المثال أقول :-

كنت طيلة حياتي قبل زواجي وحتى بعد زواجي من المرحومة فيكتوريا أتفانا في حب الناس وأتبادل مع من أعرفه من الناس الحب والمعشر وهذه مزية معروفة لدى الخاص والعام من جميع أفراد عائلتي وأصدقائي وكنت أزور البيوت مع

كل ما كنت أعرفه عن هذه السيدة أنها جاءت وزوجها خليل راشد سنة ١٩٥٠ من أميركا عندما كنا وليلى في ملك الدكتور جليل بدران - رام الله .

تعرفنا عليها معرفة عائلية مسلمين بسلامة العائلة وذلك بواسطة شقيقة زوجها السيده أم جليل بدران واستمرت الزيارات العائلية بيننا في السنة مرة أو ربما مرتين فكانت أم خليل لا تعرف العربية بل الإسبانية . وقد أحبني المرحوم زوجها وحاول أن يمدني بمساعدة مالية في ملك بدران المره بعد المره . . ولكني رفضت شاكرا ولمست فيه الشهامة وحبه للناس وذلك على ما أعتقد أنه السيده أم جليل حثته على ذلك وكانت تحبني كثيرا وقدرت الظروف التي وصلت إليها بعد النكبه .

توفي المأسوف عليه خليل راشد سنة [. .][1] ، وبقيت زياراتنا العائلية وأم خليل مستمرة وقد أحبت فيكتوريا أم خليل حبا عظيما وكنا في كثير من المناسبات ندعوهم ويدعوننا في الأفراح والأتراح وكانت صداقة أخوية بيننا أي بين ليلى وآيه خصوصا وبين السيدة أم خليل وأولادها والحمد لله .

[1] ناقص في الأصل.

راودتني الفكرة بالزواج من هذه السيدة فيما إذا ساعدني الحظ ووفقني الله في الطلب وقلت في نفسي في تلك الليلة وأنا قلق :-

أولا : إنها أرمله ومعها أولاد إليسيا متزوجة وخليل على وشك الزواج ، كذلك أنا وأولادي الأربعه متزوجين فإذا صحت الأحلام فكل منا يكون مطمئنا من هذا القبيل .

ثانيا : والمهم في الأمر أنها في حالة مرضية ماليا وربما تساعد البيت بما يدر عليها من ريع من أملاكها

فأنا والحق يقال لا أستطيع القيام لوحدي في إدارة البيت ومصروفاته مئة بالمئه بالنظر لعدم كسب شيء سوى راتب التقاعد بعد النكبة فهذه السيدة إذا وافقت وعلى ما يظهر لي أنها ذي نعمه ولا يهمها المال فنكون بإذن الله زوجين سعيدين مستورين نقضي ما بقي لنا من العمر براحة تامة وهذا ولا شك يقبل به أولادي جميعهم على ما أتصور وبهذا لا أحوجهم من تحمل عبئه ومسؤوليته كما ذكرت آنفا .

ثالثا : صممت في قرارة نفسي - وفي حالة رفض أم خليل . . أكون مضطرا بالأمر الواقع وأبقى بدون زواج مهما كلفني الأمر ولن أفكر بسيدة أخرى خوفا من الدخول في نكبة أكبر . .

رابعا : تفاءلت بالأمر عندما عرفت لأول مرة بأن السيده أم خليل هي تسكن أريحا الآن هربا من بروطنس رام الله عسى أن يكون وجودها هذا سببا بتنفيذ ما أصبو إليه وعلى الله التوفيق .

خامسا : في حالة رفض أم خلل صممت كتمان هذا الأمر حتى عن أولادي وكذلك عقدت النية بأن أرجو السيدة المذكورة بأن تكتم الأمر أيضا .

الاجتهاد . . والجهاد . . في الطلب

بعد الإستفسار علمت أن أم خليل تسكن بيت الأخ فرنسيس نزال بجوار فندق القصر الشتوي - طريق عين السلطان في أريحا . وهكذا وفي صباح ذات يوم والطقس بديع توجهت متوكلا على الله إلى هذا البيت واستقبلتني أم خليل ووالدتها

فيكتوريا وحتى مرارا كثيرة لوحدي وبدون فيكتوريا ! ! ولكن وجدت نفسي بعد وفاة فيكتوريا أنني تبدلت من مره . .
وأصبحت غير ذلك الواصف المرح المعروف فقد خيل لي بأنني لو حاولت زيارة بعض البيوت المعروفة لدي خيل لي أنني
مكسوف جدا وأعتبر نفسي أنني بهذه الزيارة أعيد طفولتي . . وكنت أتساءل لما أنا أصبحت في هذه الحالة يا ترى؟ ولكن لم
أجد الإجابة . . وهكذا أصبحت في عزلة عن معارفي أفضل الزهد والبقاء في غرفتي لا بل ملقى على سريري أفكر وأفكر
إلى أن أنام ولم أشكو العلة لأحد حتى من أولادي الذين ظهر لي منهم كل عطف ومداراة وزاد لطفهم نحوي أكثر وأكثر بارك
الله فيهم جميعا .

اشتدت على نفسي الأزمه ، وامتزج معي موضوع تركي الوطن ، وخسارة كل ما أملكه من أموال منقولة وغير منقوله ،
وخسارة المجموعة الجوهريه تلك المجموعة التي فنيت عمري وشباب وفوسفور دماغي في جمعه حتى أصبحت لا تقدر
بثمن . . امتزجت كل هذه المصائب بمصيبة خسارتي فيكتوريا تلك الخسارة التي لا تعوض وهكذا أصبحت في حالة
مضطربة والتي كنت أكتمها في قلبي وفؤادي ولا أشكو إلا إلى الله .

فكرة زواج

راودتني فكرة الزواج . . وكانت بالطبع فكرة سخيفة حقا . . فقلت في نفسي أن الفكرة غير معقوله ، ومن المستحيل تطبيقها
حتى البحث فيها لأنني :-

أولا : تجاوزت مرحلة الستين من عمري . . وأنا جل مكتئب وكما يقولون مدلل ! !

ثانيا : حالتي الحاضره لا تمكنني من القيام بعبء الزواج ومسؤولية الزواج منه في المنه وكما يجب أن تكون من حيث
المورد . . فكل ما أجمعه هو راتب التقاعد ليس إلا . . مع ما أحول عليه من مساعدة عند الزواج إذا وفقت به . .

ثالثا : من تكن هذه الإمرأة التي تقبلني وأنا في الوضع الحاضر يا ترى؟ . .

رابعا : لا أرغب والله أعلم أنني أرغب في أن أكون عالة على أولادي ليس وحدي فحسب بل زوجتي ، فكفى كل واحد
من أولاده ومسؤوليته تجاه عائلته وأولاده ومستقبلهم . . إذا لماذا التفكير في مثل هذه السخافات .

إذا أسكت يا ولد . . واصبر . . ولا نبحث بالأمر .

مضت أيام وليالي وأسابيع وأشهر . . ولكن أنا لم أزل وكأني على الجمر . . أردد ما يجول في ذهني تارة أقضي الليالي
وحيدا . . وأخرى تحيرت والرحمن لا شك في أمري وصلت بي الأكدار من حيث لا أدري . .

وجدتها . . كلمة الفيلسوف أرخميدس

في ليلة من ليالي الشتاء سنة ١٩٥٩ . . كنت أتقلب فيها على فراشي . . وأنا في بيت ولدي الحبيب واصف المشروع
الإنشائي الزراعي في أريحا إذ طرأ على فكري . . ولأول مرة في حياتي ايه والله فكرة وهي :-
السيده أم خليل :

كل ما كنت أعرفه عن هذه السيدة أنها جاءت وزوجها خليل راشد سنة ١٩٥٠ من أميركا عندما كنا وليلى في ملك الدكتور جليل بدران – رام الله.

تعرفنا عليها معرفة عائلية مسلمين بسلامة العائلة وذلك بواسطة شقيقة زوجها السيده أم جليل بدران واستمرت الزيارات العائلية بيننا في السنة مرة أو ربما مرتين فكانت أم خليل لا تعرف العربية بل الإسبانية. وقد أحبني المرحوم زوجها وحاول أن يمدني بمساعدة مالية في ملك بدران المره بعد المره.. ولكني رفضت شاكرا ولمست فيه الشهامة وحبه للناس وذلك على ما أعتقد أنه السيده أم جليل حثته على ذلك وكانت تحبني كثيرا وقدرت الظروف التي وصلت إليها بعد النكبه.

توفي المأسوف عليه خليل راشد سنة [..][1]، وبقيت زياراتنا العائلية وأم خليل مستمرة وقد أحبت فيكتوريا أم خليل حبا عظيما وكنا في كثير من المناسبات ندعوهم ويدعونا في الأفراح والأتراح وكانت صداقة أخوية بيننا أي بين ليلى وآيه خصوصا وبين السيدة أم خليل وأولادها والحمد لله.

[1] ناقص في الأصل.

راودتني الفكرة بالزواج من هذه السيدة فيما إذا ساعدني الحظ ووفقني الله في الطلب وقلت في نفسي في تلك الليلة وأنا قلق:–

أولا: إنها أرمله ومعها أولاد إلسيا متزوجة وخليل على وشك الزواج، كذلك أنا وأولادي الأربعه متزوجين فإذا صحت الأحلام فكل منا يكون مطمئنا من هذا القبيل.

ثانيا: والمهم في الأمر أنها في حالة مرضية ماليا وربما تساعد البيت بما يدر عليها من ريع من أملاكها

فأنا والحق يقال لا أستطيع القيام لوحدي في إدارة البيت ومصروفاته منة بالمنه بالنظر لعدم كسب شيء سوى راتب التقاعد بعد النكبة فهذه السيدة إذا وافقت وعلى ما يظهر لي أنها ذي نعمه ولا يهمها المال فنكون بإذن الله زوجين سعيدين مستورين نقضي ما بقي لنا من العمر براحة تامة وهذا ولا شك يقبل به أولادي جميعهم على ما أتصور وبهذا لا أحوجهم من تحمل عبئه ومسؤوليته كما ذكرت آنفا.

ثالثا: صممت في قرارة نفسي – وفي حالة رفض أم خليل.. أكون مضطرا بالأمر الواقع وأبقى بدون زواج مهما كلفني الأمر ولن أفكر بسيدة أخرى خوفا من الدخول في نكبة أكبر..

رابعا: تفاءلت بالأمر عندما عرفت لأول مرة بأن السيده أم خليل هي تسكن أريحا الآن هربا من بروطنس رام الله عسى أن يكون وجودها هذا سببا بتنفيذ ما أصبو إليه وعلى الله التوفيق.

خامسا: في حالة رفض أم خلل صممت كتمان هذا الأمر حتى عن أولادي وكذلك عقدت النية بأن أرجو السيدة المذكورة بأن تكتم الأمر أيضا.

الاجتهاد.. والجهاد.. في الطلب

بعد الإستفسار علمت أن أم خليل تسكن بيت الأخ فرنسيس نزال بجوار فندق القصر الشتوي – طريق عين السلطان في أريحا. وهكذا وفي صباح ذات يوم والطقس بديع توجهت متوكلا على الله إلى هذا البيت واستقبلتني أم خليل ووالدتها

وابنتها اليسيا بكل ترحاب. وبعد الزيارة رجوت أم خليل بأن تصغي لي وتسمح لي بكلمة بيني وبينها . وهكذا ودعت الحضور ومشت أم خليل بجانبي في البستان وما هي إلا لحظات وقفنا وقلت لها :- [اسمحي لي أن أبلغك رسالة وكما قالت العرب "وما على الرسول إلا البلاغ" . . فقالت : قل. قلت : إن صديق لي يعرفكم كلفني بأن أتصل سرا بك وأفاتحك بموضوع الزواج منه . . فإذا وافقتي مبدئيا فسأواصل في التفاصيل راجيا شرط أن يكون هذا سر بيننا ، أما إذا كان ذلك لا رغبة فيه . . فمن الأوفق أن ننسى كل ما دار بيننا من حديث] .

قالت : [أما مشروع الزواج فلم أفكر به مطلقا ، وأنا بعد وفاة المرحوم زوجي كرست نفسي لتربية أولادي وأخص بذلك تعليم ولدي ومهجة كبدي خليل ، ووقفت بنفسي على إدارة شؤون الأملاك الموروثة للمحافظة عليها ، وإني أثابر بعملي هذا طيلة حياتي بإذن الله. ثم وإني أسرها في أذنك أنني طلبت من ثلاثة أشخاص للزواج وكل منهم على جانب عظيم من القيمة والثراء ولكنني رفضت وكتمت هذا الخبر عن العائلة بأسرها حتى عن أولادي لأنني بعيدة كل البعد عن هذا الموضوع] .

ثم أضافت قائلة : [لي سؤال أرجو الإجابة عليه وأعدك بأنه يكون سرا بيننا . . أرجو أن تصارحني وتعلمني من هو هذا الشخص حتى أكون على بصيرة . .]

وقفت مذهولا في أمري ولم يخطر في بالي وقع سؤال كهذا . . وأخيرا تشجعت وقلت وعيوني في الأرض [محسوبك . .] فاحمر وجهها وزاد جمالها . . أما أنا فكان لسان حالي يقول ما قاله عمر القارض "لا تنكروا خفقان قلبي والحبيب لدي حاضر . ." وهكذا أكدت لي بعدم رغبتها في الزواج فاعتذرت لها وودعتها . . وتركت ذلك البيت أقول في نفسي (أول عزواته . . كسر عصاته . .) فكانت هذه مشيئة الله لسوء حظي .

رجعت توا إلى سكني في المشروع الإنشائي وانزويت لوحدي في الغرفة أفكر في ما دار بيننا من حديث فتارة ابتسم وطورا أغضب . . إلى أن عقدت النية على إقفال هذا الموضوع من مره وسألت الله أن يهديني إلى الخير وطلبت منه السوان والصبر على العيش بالتأني والمثابرة على حالتي الحاضرة وهي ولا شك نعمة بين أولادي إلى أن يقضي الله أمرا كان [. .] .

ومضت أيام وليالي ولكنني زدت قلقا وأنى لي أن أنفذ ما عزمت عليه من صبر وتأني؟ ! ! . والشيء الوحيد الذي استطعت على تنفيذه هو عدم وصولي وسيري على طريق عين السلطان لكرهي الشديد لتلك الطريق التي تمثلت بين عيني بأنها السبب في كسوفي وفشلي في المهمة التي قمت بها . . وبالحقيقة لم أفكر بالوصول أو برؤية بيت فرنسيس نزال لمدة طويلة لم أقابل فيها السيده أم خليل .

اللقاء الثاني . . وفيه الأمل

في سنة ١٩٥٩ هذه ، كانت آيه تقضي فصل الشتاء في أريحا فندق بانوراما وقد دخلت عليها صدفة من بعض ظهر ذات يوم فوجدت ضيوفا في البستان تحت أشجار البرتقال ومن بينهم السيدة أم خليل وكانت مدعوة بمناسبة عيد ما لتناول الشاي فجلست صدفة بجانبها ومع الحديث عدت وتطرقت إلى موضوع الزواج بطريقة دبلوماسية وعلى جانب من المزار وقلت

له أعتقد بأنك تسرعتي في الإجابة ، فلو فكرتي جليا بما كنت أكمه لك وطبعا لي من مصلحة عامة خصوصا لمستقبلنا وفي آخر حياتنا لما رفضتي الزواج. فقالت هذا الموضوع يتطلب بحثا أكثر واتفقنا سوية على لقاء آخر وحددناه في صبيحة الغد .

وفي الوقت المطلوب اجتمعنا وتباحثنا بالتفصيل وقلت لها [أولادنا والحمد لله يفتحون ستة بيوت فلو يسر الله لنا الزواج فيكون لنا الحرية الكاملة بالتنقل من بيت إلى بيت وأخيرا بيتنا السابع وبالحقيقة أنها تكون نعمة جزيلة نحمد عليها لما لأولادنا حب وعطف لوالديهم كما أتأكد . . ثم عرفتها عن مدخولي الشهري المتواضع وما أملكه من نقود في الوقت الحاضر ، وما أنوي شراءه بمناسبة الزواج من أثاث وحلي بكل صراحة وصدق . . فقالت المعذره :-

[إن المال هو ليس كل شيء عندي . . وثق بأنني منذ تاريخ المقابلة الأولى وأنا أفكر بهذا الموضوع جليا ورأيت في كلامك وأفكارك الصواب . . وإني أوافق عليها من كل قلبي . . فأنت الرجل الوحيد الذي ملك قلبي من النظرة الأولى ولي ثقة عظيمة بإخلاصك وقد سمعت الكثير عن حياتك الماضية ولذلك المال في نظري شيء ثانوي إنما لا أقدر أن أفي لك بوعدي بالزواج إلا بعد موافقة ولدي ورجائي خليل . . فإذا وافق كانت إرادة الله .

ثم والدتي التي ليس لها أحد من يعيلها إلا أنا . . فهل لك مانع بأن تكون معنا ؟ شريطة أن لا تكون عالة عليك ! ! فقلت معاذ الله فوجودها معنا بركة وما عليك الآن سوى أن تصارحي العزيز خليل وننتظر على كل حال جوابه الذي أرجو أن يكون بالإيجاب. واتفقنا أيضا على كتمان هذا الموضوع ولن نبح به لأحد حتى أولادنا ، إلا عندما نحصل على موافقة العزيز خليل من ألمانيا .

وبعد هذا البحث الطويل والمصارحة عرجنا على العزيزة ليلى وشربنا القهوة وكل من له الأمل بمعيشة أفضل. وقد كتبت في المفكرة ما يلي :-

[يوم الجمعة ٢٦ شباط سنة ١٩٦٠ يوم محبة وأمل] .

على موعد التقينا	وفي الغرام اشتكينا
والعذراء عليها السلام	كريمة فتكرمت بالرضاء
وتبادلنا الحب والوفاء	ونمت ناعم البال

هادئ الحال وكلي آمال . . وسأذكر هذا
اليوم السعيد وأجعله في حياتي عيد .

والجدير بالذكر في هذا الصدد أنني بعد السؤال علمت أن السيدة أم خليل اسمها كريمه . .

بتاريخ ٣ نيسان سنة١٩٦٠ تركت المشروع في أريحا وجئت إلى بيروت برا ونزلت في بيت يسرى شارع جاندارك وتبادلت وكريمه الرسائل فهي تكتب لي بالإسبانية وأنا أجيبها بالعربية. وقد وجدت صعوبة شديدة في بادئ الأمر في إيجاد الشخص الذي يمكنه ترجمة رسائل كريمه إلى أن وفقت أخيرا بالأخ والصديق ايليا ميخائيل مشبك فعينته في الحال سكرتيرا وكاتم أسرار الملك.. وقد قام بوظيفته على أحسن ما يرام إلى أن تلقيت خبرا سارا وفيه البشرى العظمى بأن ولدها خليل قد وافق مبدئيا على زواجنا بكل رضاء وسرور. وكانت فرحة الأمر الذي جعلني أن أقابل ايليا بما يستحقه من ترقية في الوظيفة وزيادة الراتب من النكات والموسيقى..

وفي أوائل شهور صيف سنة ١٩٦٠ كنا في رام الله وقد قدمت كريمه دارها في البلد لأجل الإصطياف وكان ذلك وكنت أتردد عليها إلى أن حضر ولدها العزيز خليل من ألمانيا بتاريخ شهر آب من سنة ١٩٦٠ فاجتمعنا وقررنا الزواج في بيروت وكتمنا الأمر خوفا من مؤامرات الحاسدين.

وفي تاريخ ١٦ تشرين أول سنة ١٩٦٠ جرت مراسيم الإكليل المقدس في كنيسة الكبوشيين – شارع الحمراء رأس بيروت – على طريقة الروم الكاثوليك على أيدي الخوري.

وكان الشبين بطل الرواية العزيز خليل راشد ولد العروس.. والشبينه للعروس ابنة الأخت وداد عبد النور. هذا كل من حضر سر الإكليل المقدس بالإضافة إلى الأستاذ سلفادور عرنيطه.

وبتاريخ ٢٣ تشرين أول سنة ١٩٦٠ سافر العزيز خليل في الباخره فرجع إلى ألمانيا رافقته السلامه. أما العروسين فقد انزويا في ذات الفندق المعروف ب سانت بول لمدة ثلاثة أيام الأمر الذي أثر على يسرى والتي حكمت علينا باللجوء إلى منزلها في شارع جاندارك فلبينا الدعوة شاكرين.

والجدير بالذكر في هذا الصدد أن هذا الزواج نشر على صفحات جريدة "الحياه" البيروتيه في العدد الصادر بتاريخ ٢٣ تشرين أول سنة ١٩٦٠ كما يلي: العدد ٤٤٥٣ تحت عنوان:-

[مبروك جدو]

هذا الزواج السعيد حدث منذ يومين، وبدون سابق إنذار، فقد تزوج الفنان المتقاعد واصف جوهريه والحسناء كريمه راشد، في حفلة خاصة اقتصر حضورها على كريمة العريس يسرى وصهره الموسيقار س.عرنيطه، ونجل العروس، الطالب في ألمانيا، وقد نابوا في تقديم التهاني، عن أصهرة العريس الباقين الموجودين في الأردن وكريمة العروس المتزوجة هناك أيضا. وكانت أحلى التهاني التي تقبلها واصف من أحفاده وقولهم له:-

وبالفعل عند زواجي من كريمه كان والحمد لله عندي من الأحفاد اثني عشر حفيدا ينادون جدو واصف ، كما وكان حفيدين لكريمه من ابنتها اليسا . ولذلك قررنا عند الزواج أن نكتفي بأولادنا وأحفادنا ولا نفكر بالأولاد بعد وكما قيل "الطمع في الدين . ." .

حياتنا بعد الزواج

[وأما بنعمة ربك فحدث . . صدق الله العظيم] ولا شك أن زواجي من كريمه كانت موفقية كبرى أشكر الله عليها نعمة جزيلة فمن حيث الماليه فقد تحملت إيجارة البيت . . كما أن الأثاث أكثره موجود لديها وهو الصاله وبيت النوم والشؤون المنزلية الكثيره فلم أحتاج إلا إلى بيت المائدة والذي اشتريته في بيروت مع بعض ما يلزم من نثريات لازمه .

وأما من جهة العمر فالعادة المتبعة عند المسلمين فقد يؤخذ نصف عمر العريس ويضاف إليه عشر سنوات فهذا المعدل لعمر العروس وفي هذه الحالة حصل تماما في زواجنا . وقد أصبحت بعد تشريد اثني عشر سنة منذ النكبه ، أصبحت مستقلا أعيش كرب عائلة أسرة بأمثالي والحمد لله راجيا من الله أن تدوم هذه النعمة علينا إنه سميع مجيب .

قررنا أن نتخلص نهائيا من الأردن ونعيش في لبنان نظرا للأسباب التاليه :-

١ . إنني والفضل ليسرى مسجل كعضو دائم في مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت للتمريض المجاني بقيمة ٥٠ ليره لبنانيه كرسم صوري أدفعه سنويا وذلك منذ سنة١٩٤٩ لما للبروفسور عرنيطه من امتيازات في هذه المؤسسة العظيمه .

٢ . إنني أعيش على راتبي التقاعد الذي خصص لي من حكومة فلسطين المنتدبه ، وبالنظر لحصول المتقاعد على غلاء المعيشة بالنسبة للموظف اللبناني ، فقد حصلنا لحسن الحظ على غلاء المعيشة بهذه النسبة وهي تزيد كثيرا عن تلك المخصصة في الأردن .

٣ . بما أن كريمه من مواليد كولومبيا المنطقة الساحلية على الشاطئ الحاره فقد فضلت السكن في بيروت هربا من طقس رام الله الذي كانت لا تحمله فتضطر على استأجار مشتا لها في أريحا .

وهكذا قررنا بالإتفاق وبموجب هذه الأسباب الجوهرية ، ولإقناع حكومة لبنان بأن كريمه تعيش بيسر مع ريع أملاكها في الأردن وأثبتت أنها لا تكون عالة على الدولة ، فقد استجابت الحكومة اللبنانية لطلبنا وحصلنا على إقامة دائمية تجدد في ٢٠ شباط من كل سنه .

حوادث طريفة قابلتني بعد النكبه

وقد التقيت بعدد كبير من أهالي فلسطين العرب مجموعة منتخبة من القدس ويافا وعكا والرمله ومنهم الكثيرين من المعارف والأصدقاء أمثال : دعدس وفراج وزخريا وسلامه وقندلفت وزوانه وحكيم ومراد ودباح وبسطولي وشبر وحداد وجمل وطنوس ومسلم وبردم ومنطوره وحبش ومناويل وفران وعبده وشتكلف وسنونو وغوري ودجاني وبشارات وبولس

وكشـيان وأبو رحمه وشـهله وسروفيم وسابا ، والعبـس والخوري و[. . .][1] وتماري وخمار وبيطار وسعد وبرامكي وغيرهم الكثيرين .

[1] ناقص في الأصل.

سررت جدا بهذه المجموعة وبصفتي متقاعدا كنا نقضـي أوقات الصباح في مقهى معروف بالحمراء . . على محلة الزيتونة بجوار فندق بـسول وبو كونتنتـال في حي مقهى الحاج داود ، وكل واحد منا يحدث ما معـه من أخبار بخصوص مأساة فلسطين التي كانت ولا شك موضوع البحث .

عازف البزق النوري المتجول : -

وفي صبحة ذات يوم أذكر أنني كنت أشرب النارجيلة وبجانبي المرحوم العم أبو رجا [عيسى العبس صاحب جريدة فلسطين ومن بقايا أصدقاء الوالد] وكان يرتاح رحمه الله إلى أحاديثي المرحة والنكته ، إذ دخل المقهى رجل نوري بعزف على آلة البزق بمهارة وقد أعجبت بعزفه من تقاسيم مقام الصبا . . إيما إعجاب وكان يتجول هذا العازف من طاولة لأخرى إلى أن وصلنا فدفعنا له ما تيسر وكنت باهتا فيه وقد تناسيت نفسـي . . إلى أن بادرني العم أبو رجا متسائلا [مالك يا واصف . . شو غميت؟ !]

أجبته على الفور وقد هبكت النكتة وقلت له "لا . . يا أبو رجا هالعكروت . . أيقظ في عاطفة الفن . . فأخاف إذا طولت مسألة تشريدنا من فلسطين . . أضطر أن أرافقه في المقاهي ! ! وهات يا ضحك من العم والشله في ذلك الوقت .

آلة العود بالأجار الشهري

البيت الذي كنت أتردد عليه وأزوره باستمرار وذلك منذ بدأ دخولي بيروت هـو بيت الأخ جورج مراد . ففي هذا البيت ولما نكنه من حب وإخلاص أخوي متبادل أنا وأخي أبو أميل بعد عشـرة طويلة قضيناه في القدس معه وعائلته وحتى المغفور له عمه أبوعبد الله وعائلته داخل سور مدينة القدس كنت أشعر ولا شك بأنه كبيتي . وهناك كانت نخبة من الأصدقاء منير أبو فاضل سابا وحنا حكيم وجورج في دور الخطوبه . . وغيرهم من أبناء القدس الذين كانوا تواقين لذكريات الماضـي ولاستماع عزفي وغنائي على العود ذلك العود الذي غاب عنا منذ أول يوم من قرار تقسيم فلسطين الذي كان ولا شك ضربة في الصميم للعرب كافة الأمر الذي جعل كل منا أن يبتعد عن الكيف والطرب .

ولكنا وفي سـاعة أنس في بيت الأخ أبو اميل قررنا بالإجماع على إعارة آلة العود وقد صادف معنا الأخ أبو ميشيل النجار صديق للأخ ابراهيم حمد البقال في ذات الملك الذي يسكنه ويشتغل فيه أيضا الأخ أبو اميل فرحنا جميعا إلى صديق أبو ميشيل وكان فاتحا بقاله مقابل كنيسة سيدة النياح للروم الأرثوذكس .

دخلنا دكانه واستقبلنا ببشاشة زائدة وقد بدأ الإخوان حمد ومراد وبمساعدة أبو ميشيل بالثناء على واصف من حيث الفن والعزف على العود وحفظه للغناء القديم و . . و . . إلخ . . مما أدهش صاحب البقالة ويدعى فضول ريز . فدعونا الأخير إلى القسم الداخلي من دكانه وإذ رأيت ثلاثة أعواد معلقين على الجدار واحد منهم في حالة جيدة والإثنين في حالة يرثى لها .

جلسنا وتبين لي بأن فضول ريز يعزف العود على قدر الحالة فلمسني العود وقضينا فترة كانت والحق يقال لذيذة بعد طول غياب مما أدهش الحضور وسبب تجمع بعض المارة في الشارع . . والجميع كان يصغي لعزفي وكان من مقام الراست. وبالفعل تذكرت العود وعزف العود وليالي العود في السنين السالفه . . خصوصا زمن الإنتداب البريطاني وعلى الأخص في أول سنيه ، وسألت فضول ريز بأنه إذا أمكن لديه بإعارتي العود الثاني لمدة وجيزة شريطة أن أصلحه وأشد عليه أوتارا جديدة ، وقد ساعدني الأصدقاء وخصوصا أبو ميشيل ورجوه بأن يعيرني العود ولا خوف عليه خصوصا عندما لمسوا من نظراته بأنه أعجب من عزفي واقتنع بفني . . وما هي إلا لحظات قال فضول ريز :-

[إيه شو عليه تكرم عينك وهذا العود مقدم ولكن بشرط أن تدفع لي ثلاثة ليرات لبناني عن كل شهر يكون في حيازتك] . .

فوافقت بالحال ودفعت المبلغ عن شهر واحد مقدما . . ولكن الأصدقاء الذين كانوا معي تأثروا جدا من هذه المعاملة. أما أنا فكنت أتسائل في قرارة نفسي وأقول :-

[هاالله . . هاالله . . يا هالدنيا ، هل جار علي الزمن واضطرني أن أستأجر عود شهري ، قد تركت في بيتي ضمن المجموعة الجوهرية مجموعة من الآلات الموسيقية تبلغ اثنين وسبعين قطعة من مختلف الآلات الشرقية النادرة والغربية منها؟ ! ! .

ولكن هذا يجب أن يكون لأكمل دور اللاجئ وإذا نظرنا إلى قيمة الإجارة فهي زهيدة جدا أي عشرة قروش لبناني يوميا مع أنني أدفع صبغة الكدره خمسة وعشرين ! ! ، إنه حديث فريد للذكرى يسرد الله لي لأدونه بخط يدي هنا ثم أذكر وأقول التاريخ معي يرجع إلى الخلف والوراء وذلك بعد النكبه . .

فقد مسكت العود لأول مرة في سهرة من قسطندي الصوص حتى توصلت للحصول على العود كما هو مفصل اعلاه وخصوصا كيف حوشت ثمن العود الأول وحصلت عليه بكل مشقة من الفران صبري عبد ربه ! !]

والآن وبعد النكبة أصبحت في ذات الحالة التي كنت فيها وأنا صغير إلى أشد العوز إلى النقد . . ولكنني بذات الوقت متفائلا وتراني صابرا أشكر المولى عزوجل على السراء والضراء وخصوصا سلامتي وأولادي من معارك القدس وهي في نظري ولا شك الأهم.

أخذت العود وصلحته على نفقتي وصبغته فأصبح كالمرآة وشددت عليه الأوتار الجديدة وبقي معي مدة لا تقل عن الستة شهور كنت في نهاية كل شهر ولأجل إتقان التمثيلية كنت في الثالث أو الرابع من كل شهر أذهب مع بعض الأصدقاء أمثال زوانه وجورج مراد وقندلفت إلى السمان فضول ريز وبعد مقدمة مزركشة جوهريه أعتذر بها إلى ريز عن تأخيري . . أدفع له المبلغ وقدره "ثلاث مايه قرش لبناني" وأشكره على كرمه وعطفه علي وأنا غريب .


ملاحق

ملحق رقم ١

ذكرى لطيفة من أستاذي الكبير خليل السكاكيني رحمه الله رحمة واسعة. فقد كتبت لي كريمته دمية السكاكيني بتاريخ ١٩٦٦/٨/٣٠

السيد واصف جوهرية المحترم
بعد التحية - هذه رسالة الوالد إلى سري في تاريخ ١٠-٤-١٩٣٤ يصف فيها حفلة ولدكم جورج حفظه الله:

الثلاثاء في ١٠-٤-١٩٣٤ [1]

عزيزي سري،

أما نحن فأهم أخبارنا أننا ذهبنا عصر الأحد إلى بيت واصف أفندي جوهرية لنحضر تعميد ولده الذي سماه جورج على اسم أبيه، وكانت نجلا اشبينة (نجلا عبده) ومن مراسم العماد "أن يقول الإشبين أو الإشبينه قانون الإيمان" الذي يبتدي، بقولهم..

"أومن بإله واحد خالق ضابط الكل إلخ.." فسألوا الإشبين أتعرف قانون الإيمان غيبا؟ فقال: لا (وكان الإشبين خليل جوهريه) ثم سألوا نجلا فقالت لا.

فقلت في نفسي لعل الخوري لا يعرفه أيضا، ومن يعرف هذا القانون الطويل الذي لا يفهمه إلا الراسخون في علم اللاهوت مثل الخوري سوتيري حنانيا والخوري خليل الحكيم!!

ماذا تفهم نجلا أو خليل جوهرية من قولهم (إله من إله، نور من نور، إله حق من إله حق) ومن قولهم (الإبن المساوي للأب في الجوهر،) ومن قولهم (الروح القدس انبثق من الأب والإبن؟؟

لو كلفت بأن أضع قانون إيمان المسيحيين، لقلت:
أومن بمبادئ المسيح التي تدعو إلى محبة الناس، إلى التسامح، إلى العفو، إلى الترفع، إلى العفاف، إلى الكرم، إلى النبل. هذه المبادئ التي يجب أن يعرفها الناس ويعملوا بها، وإلا فماذا يهمهم بل ماذا يفيدهم أن يعرفوا أن الإبن مساو للأب في الجوهر، وأن الروح القدس منبثق من الأب والإبن وأن الله كذا وكذا..

إذا كان اللاهوت أن نعرف شخصية الله وشخصية المسيح وشخصية الروح القدس فلا كان اللاهوت... لقد تركتم أيها اللاهوتيين الجوهر وتمسكتم بالعرض، لقد تركتم اللباب وتمسكتم بالقشور. مالنا ولهم، دعنا منهم.

ولننتقل إلى قمة الحديث. بعد العماد نصبت المائدة وعليها الألوان المختلفة اللذيذة من طعام وشراب، وإني لآسف أني لم أستطع أن أشترك في التمتع بها لأن فمي كان ملتهبا، فأكلوا وشربوا ثم قام واصف إلى البيانو وأخوه توفيق أخذ الفلوت ولعبا قطعا جميلة، ثم أشاروا إلى سيدة كانت هناك وقالوا أن لها صوتا جميلا وأنها تحسن الغناء.

فطلبوا منها أن تغني فلم ترفض على خلاف عادة السيدات فغنت بعض أغاني عبد الوهاب وأم كلثوم فأطربت. والحق يقال أن صوتها أجمل من صوت عبد الوهاب وأم كلثوم.

ولعلك لا تجهل أن الغناء العربي ليس سهلا، إنه لأهون عليك وعلى كل واحد أن يتعلم أغنية لأكابر الموسيقيين الغربيين من أن يتعلم أغنية عربية بسيطة. وسندعو هذه السيدة مع واصف في أول فرصة يصفو فيها الخاطر ويطمئن البال وتطيب الحياة، وهذا موكول إليك، ففي أول فرصة تردنا أخبارك السارة أقمناها ليلة أنس مثلها لا يتهيأ إن شاء الله.

إن المقال الذي نشره الوالد العزيز في كتاب "سري" تحت عنوان قانون الإيمان مبني على هذه الرسالة. وفي آخر هذا المقال يقول الوالد "لو كلفت أن أضع قانون إيمان للمسيحيين لقلت "الله محبه"

مع أطيب التمنيات
التوقيع :دمية السكاكيني

[1] هذه الرسالة قد ظهرت بالفعل في كتاب خليل السكاكيني سري لكن لغتها في كتاب السكاكيني تختلف عما يرد هنا (قد تكون حررت قبل إدخالها في الكتاب) ولا تحوي أية أسماء.



الخوري خليل الحكيم.

من مجموعة عصام نصار الخاصة.

ملحق رقم ٢ كلمة صاحب الكتاب

أعتقد أن هذه الرسالة من المرحوم المربي الكبير والأديب والعلامة العربي الأستاذ خليل السكاكيني لإبنه المرحوم سري تعطي فكرة لا بأس بها للقارئ الذي لم يعرف السكاكيني معرفة تامة في حياته تعطي للقارئ فكرة كما قلت عن أفكار السكاكيني.. وانتقاداته اللاذعة اللطيفة خصوصا ومن حيث اللاهوت وأسراره الصعبة الشعب أولا.

ثم ومن حيث الموسيقى والفن الرفيع إني أعترف بأن الأستاذ السكاكيني كان يتذوقها، أي الموسيقى، ويتفهمها تماما، لا بل كان يعزف آلة الكمان كما كنت ذكرت عنه في السابق إن كانت موسيقيه عربيه أو غربيه. وفي هذه الرسالة أعجب ما قرأته هو شهادته بأن السيده التي كانت بين الحضور كان صوتها أحسن من صوت عبد الوهاب وأم كلثوم!! أما أنا وبصفتي خبيرا في هذا الفن أعترض نوعا وأقول: أولا:- يصعب على المرء المقارنه ما بين صوت الرجل والمرأة في الغناء أي وبصورة أوضح لا أستطيع المقارنة بين صوتها وصوت عبد الوهاب حتى أقول أنه أحسن أو بالعكس وأما المقارنة بأم كلثوم فهذا ممكن ولكن أمسك القلم وأقول [رغما عن تقديري عن صوت هذه السيده] أقول بملأ فمي لا لا فصوت أم كلثوم لا يعلى عليه.. وللناس فيما يعشقون مذاهب..

ملاحظه: إن السيده المنوه عنها في هذه الرسالة هي كفى ابنة خليل الغندور من مدينة يافا وزوجته ثيودور سعد أخو زوجتي فيكتوريا والحق يقال أنها صاحبة صوت رخيم ولها ولع خاص في إداء ما يحفظه من الغناء إداء جميلا ولنا وإياها دور كبير في الفن الرفيع العالمي ومجالس أنس لن أنساها ما دمت حيا.

وقد اتضح لي أن المقال الذي نشره الأستاذ السكاكيني في كتاب "سري" تحت عنوان قانون الإيمان تضم جملا من أفكاره في هذا الصدد أكثر من الرسالة الأساسية فمثلا يقول بالحرف الواحد ما يلي:-

لي اعتراضان على هذا القانون:-
الأول: أنه طويل جدا، فضلا عن أنه ليس هناك ارتباط بين الجملة الواحدة والأخرى منه، إنه لأهون علي أن أحفظ معلقة امرئ القيس وأولها "قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل.." على طولها وغرابة ألفاظها، من أن أحفظ قانون الإيمان هذا، وهو أقصر جدا من هذه المعلقة.
الثاني: أنه فوق إدراك الناس... إلخ. ثم يقول بل أراهن أن كثيرين من رجال الدين لا يفهمون هذا.

لمحة وجيزة عن زعماء العرب أثناء اعتقالهم وتشتتهم خارج فلسطين مدة الحرب العظمى الثانية

عند دخول الحرب العظمى وفي ١٣ تشرين الأول سنة ١٩٣٩ سبق ودونت في هذا الكتاب أن سماحة المفتي الحاج أمين أفندي الحسيني قد سافر سرا من لبنان إلى العراق وقد حصل اصطدام ما بين الإنكليز وأهل العراق آنذاك وأرجعوا أن سماحة المفتي قد أشعل الثورة هناك فلم يرق الحال واضطر سماحته في ٣٠ مارس سنة ١٩٤٠ أن يترك العراق وسافر إلى إيران ثم تركيا وبلغاريا فألمانيا واجتمع هناك بالدكتور الألماني هتلر الأمر الذي جعل حذر الصهاينة من هذا الإجتماع مع أكبر وألد أعداء اليهود.
وفي ٨ مارس سنة ١٩٤٥ غادر ألمانيا عندما انهارت أو بالأحرى انهار هذا العملاق الألماني.. غادر ألمانيا إلى سويسرا ولكن سويسرا لم ترغب في إقامته في بلادها فأرجعته مسجونا الى الجزء الألماني الذي كان آنذاك تحت إشراف فرنسا.

رجوع القسم الكبير من زعماء العرب في الوطن:
وفي نهاية صيف سنة ١٩٤١ عاد إلى الوطن فلسطين
أحمد حلمي باشا
وفؤاد سابا
وعوني عبد الهادي
وموسى العلمي
والفرد روك
ورشيد الحاج ابراهيم
وجورج أنطونيوس
ويعقوب الغصين
وعبد اللطيف صلاح
شريطة أن لا يشتغلوا بتاتا بالأمور السياسية وقد نفذوا هذه الشروط وبقيت البلاد نائمة الأمر الذي جعل الصهاينة أن يسرحوا في طول البلاد وعرضها بدون رقيب فازدادوا قوة على قوتهم وكثرة أسلحتهم وحصلوا على ما كانوا يطلبون من الأصدقاء الجيوش البريطانية في البلاد.

من بقي في أوروبا وتركيا:

سماحة المفتي	محمد العفيفي	وواصف كمال
الشيخ حسن أبو السعود	وراسم الخالدي	
واسحاق درويش	وسعد الدين عبد اللطيف	
وعزه دروزه	ومعين الماضي	
وأكرم زعيتر	وسليم حسين الحسيني	
وحسن سلامه(توفى)	وأكرم الجاعوني	

ما بقي من الزعماء في الأقطار العربيه:
الدكتور حسين فخري الخالدي
محمد خليف الحسيني
عبد القادر الحسيني
الشيخ عابدين

ما بقي في معتقل روديسيا:
جمال الحسيني
الدكتور داود الحسيني
أمين التميمي [توفي هناك]
عارف الجاعوني [توفي هناك]

معلومات مفيدة عن مدينة القدس القديمة

عقبات القدس:

اسم العقبة	الموقع
عقبة وراء الصبرات	باب العامود والمؤدية إلى دير سبيريدنوس حارة النصارى
عقبة الجبشه	الدرج مقابل دير سبيريدنوس المؤدي إلى عمارة الجبشه-حارة النصارى
عقبة دير الروم	دير الروم الأرثوذكس
عقبة دير اللاتين السفلى	دير اللاتين أو الفرنسيسكان لغاية الخانقه
عقبة دير اللاتين العليا	نزلة دير باسيليوس باب الجديد إلى الساحة أمام الكازانوفا
عقبة سوق علون	سويقة علون
عقبة البزار	البزار
عقبة داو واطسون باشا	المؤدية من سويقة علون إلى دير السريان والموارنه
عقبة باب السلسله	محلة باب السلسله
عقبة البراق	محلة البراق المؤدية إلى شارع باب السلسله
عقبة المفتي	بجوار هوسبيس النمسا إلى خان الزيت
عقبة الخانقه	المعروفة بعقبة الخمارات - حارة النصارى
عقبة البطيخ	المؤدية من شارع باب العامود إلى حارة النصارى - وفيها مؤسسة دونبولسكي
عقبة الأصيله	من شارع هوسبيس النمسا إلى حي السعديه
عقبة التكيه	من شارع محلة الواد إلى خان الزيت
عقبة الواد	من حمام محلة الواد إلى مدخل سوق العطارين
عقبة السعدية	من ساحة باب العامود إلى حي السعديه
عقبة المولوية	من باب العامود إلى جامع المولويه
عقبة الفاخوره	خلف سور باب العامود والمؤدية إلى السعديه والمولويه
عقبة الساهرة	من باب الساهره إلى السعديه
عقبة الراهبات	راهبات صهيون
عقبة رصاص	مدخل حارة السعديه بجانب فرن الزروق والمودية إلى حارة السعديه والناقوره وباب الساهره
عقبة الصباغين	سوق الصباغين المودي إلى حارة الشرف والنبي داود
عقبة درويش	من شارع الواد بجانب دار القروجولي إلى دار درويش
عقبة درجات الطابونه	[...]
عقبة دار البيرق	المؤدية إلى دار الراغب الحسيني المعروفة بدار البيرق
عقبة خان القبط	خان القبط حارة النصارى

...

قناطر القدس:

اسم القنطره	الموقع
قنطرة شرف	دار شرف محلة الواد
قنطرة الأجرب	باب العامود المؤدية إلى الواد
قنطرة المغاربه اليهود	مقابل مطحنه صلاح باب العامود
قنطرة المملوك	دار المملوك - محلة السعديه
قنطرة الجوهريه	دار الجوهريه - محلة السعديه
قنطرة الداودي	بجانب دار الجوهريه - محلة السعديه
قنطرة الشيخ ريحان	الشيخ ريحان - محلة السعديه
قنطرة عبد ربه	فرن عبد ربه - حارة السعديه
قنطرة خان الزيت	الأولى من شارع خان الزيت
قناطر خان الزيت	القناطر المودية إلى درج دير الحبش والأقباط - خان الزيت
قناطر سوق العطارين	سوق العطارين
قناطر سوق اللحامين	سوق اللحامين
قناطر سوق الحدادين	سوق الحدادين
قناطر الباشوره	سوق الباشوره

ملحق رقم ٣

قنطرة قطينه	مدخل دار أسعد قطينه الشارع المؤدي إلى عقبة المفتي
قنطرة أوقناطر خضير	المودية إلى شارع هوسبيس النمسا - بجوار التوته - ودار حدوته
قنطرة القطانين	سوق القطانين
قنطرة خان السلطان	خان السلطان باب السلسله
قنطرة دير الأرمن الكبيره	والجدير بالذكر أن صالون الدير من فوقها حجمها
قنطرة دير الأرمن الصغيره	بجانب القشله
قنطرة دير الروم	دير الروم والتي تصل الدير مع البطريركيه
قنطرة دير اللاتين	الفرنسيسكان دير اللاتين
قنطرة السكك	بجوار دير ستنا كاترينا حارة النصارى
قنطرة دار البواب	حارة النصارى
قنطرة القرعه	دار القرعه حارة النصارى
قنطرة دار شك	بجانب قنطرة القرعه حارة النصارى
قنطرة ابو جريس	حارة النصارى بجوار حوش سلحيت
قنطرة خشرم أو قنطرة القاري حارة النصارى	
قنطرة ساره	حارة النصارى بجوار عقبة البطيخ الفوقا

أسواق السوق

اسم السوق	الموقع
سوق باب العامود	باب العامود
سوق خان الزيت	خان الزيت
سوق العطارين	[...]
سوق الخواجات	بجانب سوق العطارين وهدم نصفه تقريبا مؤدي إلى باب السلسله
سوق البشوره	بجوار العطارين وباب السلسله
سوق اللحامين	ملاصق لسور العطارين
سوق الحدادين	ملاصق لسوق العطارين
سوق الصياغ	ملاصق لسوق العطارين
سوق السكافيه	ملاصق لسوق العطارين ومدخله من شارع خان الزيت
سوق القطانين	بجوار الحرم
سوق الهنود	بجوار كنيسة الروس مقابل الدباغه
سوق افتيموس	السوق الجديد وبناء افتيموس بجانب الدباغه
سوق الدباغه	مقابل كنيسة الألمان الدباغه
سوق البزار	البزار
سوق باب السلسله	باب السلسله
سويقة علون	سويقة علون
شارع الجوهريه	مابين باب الأسباط ومدخل حارة باب حطة.[1]

حارات القدس القديمه

اسم الحاره	الموقع
حارة النصارى	حارة الجبشة - حارة الساحة - حارة الخمارات - طريق القيامة
حارة الأرمن	دير الأرمن وجواره
حارة الجوالده	
حارة السعديه	
حارة باب الساهره	
حارة المولويه	
حارة اليهود	
حارة الشرف	حارة اليهود

[1] ملاحظة المؤلف: قرأت هذا الإسم في كتاب هندسي إنكليزي [شارع الجوهري] فقلت في نفسي عسى أن يكون منسوبا لعائلتنا فكتبت لورثة ناشر الكتاب في لندن وأجابوني أن الشارع مقابل الصلاحيه ومنسوبا إلى المدرسة الجوهريه الواقعة ما بينه وبين الحرم متيما بجوهر حاكم مصر في التاريخ من جملة المدارس المقامة حول الحرم.

حارة الجواعنة	بجوار حارة اليهود
حارة المغاربة	بجوار حائط المبكى
حارة باب حطة	باب حُطة
حارة باب العامود	باب العامود
حارة الدواهده	النبي داود
حارة الواد	شارع الواد
حارب باب الجديد	باب الجديد بجوار مدرسة الفرير
حارة دير اللاتين	دير اللاتين
حارة الموارنه	ما بين بطريركية الروم الكاثوليك وعقبة خان القبط

حارات القدس خارج سور المدينه

اسم الحاره

حارة الشيخ جراح

حارة واد الجوز

حارة المصراره

حارة كولونية الأميركان

حارة سعد وسعيد

حارة البقعه الفوقا والتحتا

حارة باب الخليل أمام القلعه

حارة مياشوريم[1]

حارة البخارين

حارة اليمن

حارة المسكوبيه

حارة عكاشه

حارة وراء الجبس طريق مياشوريم

أزقة القدس

اسم الزقاق أو الحوش	الموقع
زقاق باب القم للحرم	بجانب أزبكية النقشبنديه وراهبات مدرسة صهيون
زقاق الخالدي	مقابل هوسبيس النمسا محلة الواد[2]
زقاق [...]	بجانب مطحنة صلاح
زقاق نزهه	حارة السعديه باب العامود
زقاق وراء الصبرات	بجانب دار المملوك المؤدي إلى ساحة عقبة المولويه
زقاق عمار أو قدوره	حي السعديه ما بين التوته لقنطرة المملوك وقنطرة جوهريه
زقاق البوس	ساحة عقبة الأصيله المؤدي إلى مدرسة راهبات صهيون وهو على ما أعتقدأضيق زقاق في المدينة ومن السهل جدا أن يبوس الإنسان الشخص الذي يلتقي به هناك..
زقاق السعودي	سوق باب العامود
زقاق المعروف باليونانية أنا	وسط عقبة الأصيله
حوش ملوك	حارة النصارى بجوار دار نقولا عبده
حوش الفتاله	حارة النصارى مقابل دير الحبش
حوش منصور	دار منصور حارة النصارى
حوش خشرم	دار خشرم والإنكليزي حارة النصارى
حوش [...]	حارة النصارى بجانب قنطرة دار البواب
زقاق البسطامي	
حوش أبو مشقل	السعديه

[1] وهي حي يهودي متدين بني خارج الأسوار منذ منتصف القرن التاسع عشر ويعرف بإسم "مئة شعاريم" بالعربية أي المئة بوابة وقد حرف ابناء القدس العرب الإسم ليصبح موشيرم.

[2] إذا كان واصف يقصد الحي المُسمى بعقبة الخالدية فإن وصف الموقع غير دقيق برغم قربه النسبي من المنطقة.

مآذن مدينة القدس

اسم المأذنه	الموقع
مأذنة المولويه	حارة المولويه
المأذنه الحمراء	محلة السعديه
مأذنة الخانقه	حارة النصارى
مأذنة جامع عمر	مقابل كنيسة القيامه
مأذنة القلعه	قلعة النبي داود
مأذنة باب السلسله	محلة باب السلسله
مأذنة الطور الصعود	الطور
مأذنة سعد وسعيد	حي سعد وسعيد
مأذنة حي الشيخ جراح	الشيخ جراح
مأذنة عكاشه	حي عكاشه
مأذنة الشيخ بدر	الشيخ بدر

هذا بالإضافة إلى مآذن الحرم الشريف الأربع.

أطباء القدس زمن الإنتداب البريطاني:

الدكتور نقولا سبيردون	الدكتور غرنكي
الدكتور برنابا الصغير	الدكتور حسين فخري الخالدي
الدكتور توفيق كنعان	الدكتور ميزراكي
الدكتور باز حداد	الدكتور جورجي
الدكتور يعقوب نزهه	الدكتور برنابا الكبير
الدكتور فوتي فريج	الدكتور يوسف حجار (حكومة)
الدكتور كامل الحسيني	الدكتور طليل
الدكتور عزت طنوس	الدكتور سامي الخوري
الدكتور باسكال الأرمني	الدكتور بابا باني
الدكتور صليبا سعد	الدكتور سالم غانم (حكومة)
الدكتور محمود الدجاني	الدكتور عطاالله
الدكتور داود بولس(حكومة)	الدكتور محمد الشقيري (حكومة)

الدكتور مونشيني

محامو القدس زمن الإنتداب البريطاني:-

المحامي عوني بك عبد الهادي	المحامي محمد زكي الأسطه	شفيق عسل
المحامي نسيب ابيكاريوس	المحامي حسن صدقي الدجاني	عطا السروري
المحامي فخري الحسيني	المحامي عفيف الخوري	الشيخ جمال الدجاني والشيخ زكي الدجاني
المحامي فخري عاصم بك	المحامي عبد اللطيف صلاح	
المحامي ابراهيم كمال	المحامي عمر صالح البرغوثي	
المحامي الشيخ عبد الغني كاملة	المحامي مغنم مغنم	
المحامي شاكر الشاكر الحسيني	المحامي فائز الحداد	
المحامي جميل بك الحسيني	المحامي شكري الدجاني	
المحامي حنا عطاالله	المحامي رأفت الدجاني	
المحامي أنطون عطاالله	المحامي رشدي المهتدي	
المحامي حسن البديري	المحامي هنري كتن	
المحامي سابا سعيد	المحامي عيسى نخلة	
المحامي موسى بك العلمي	المحامي أنور نسيبة	

مقاهي القدس زمن الإنتداب البريطاني

قهوة زحيمان	باب العامود
قهوة زعتره	باب العامود
قهوة قليبو	باب العامود
قهوة النابلسي [أبو أمين]	أمام عمارة الألمان
قهوة الهوسبيس	مقابل هوسبيس النمسا
قهوة [ناقصة في الأصل]	خارج سوق العطارين درجات السرايا القديمه
قهوة طابق علوي	خان الزيت علوي مقابل درج الحبش
قهوة [ناقصة في الأصل]	سوق افتيموس
قهوة أبو عبدالله	المطلة على بركة البطرك حارة النصارى
قهوة سماره	حارة النصارى
قهوة صرصر	عقبة خان الأقباط
قهوة دعدس	أمام نقطة بوليس حارة النصارى
قهوة الكارمي الثلاث أواق	حارة النصارى
قهوة يوناني	بجانب دكان عبد عصعوصه
قهوة الباشوره	طريق باب السلسله
قهوة الطبه ودعدس وزوانه	طريق بطريركية اللاتين
قهوة[ناقصة في الأصل]	باب حطة
قهوة [ناقصة في الأصل]	مفرق باب حطة والواد
قهوة متري المستكلب	بجانب باب القيامة الصغير الشرقي
قهوة [ناقصة في الأصل]	البشوره

مقابلة إذاعة بيروت مع واصف جوهرية

ملحق رقم ٤

قدمني أخي وصديقي الأستاذ نجاتي صدقي زمن المرحوم المدير فريد القاسم وسجلنا الحديث بتاريخ ١٩ آذار سنة ١٩٥٤ وقد أذيع بتاريخ ٢٣ منه كما يلي:-

بروغرام الإذاعة معكم: مع الأستاذ واصف جوهرية

سيداتي سادتي:
يسرنا أن نقدم لكم [في باب الإذاعة معكم] شخصية فنية فلسطينية لامعه هو الموسيقي الشرقي الأستاذ واصف جوهريه. وضفنا الليلة لم يكن محترفا، وإنما كان هاويا، غير أن هوايته هذه أو على الأصح مواهبه الفنية قد استرعت انتباه محبي الطرب من الأسر الراقية فكانوا لا يتركون حفلة عائلية ساهره، إلا ويدعون الأستاذ الجوهريه لترأسها.

عمل ضيفنا مدة ثلاثين سنة في حكومة فلسطين.. لكنه لم ينقطع يوما واحدا عن الغناء والعزف والتلحين.. وكانت الإذاعة تستشيره في كثير من شؤونها الفنيه. ومما لا بد من ذكره في هذه التقدمة أن الأستاذ جوهريه أسس بمفرده متحفا للآثار الفنية الشرقية والموسيقى في فلسطين. وفي رأيي أنه المتحف الفريد من نوعه في العالم العربي قاطبة.. وقد أقام هذا المتحف العجيب في بيته. فإذا ما دخلته ذهلت لما تراه عيناك من قطع فنية قديمة جمعها قطعة قطعه، وهي تعد بلا ريب سجلا محسوسا لحياة الشعب الفلسطيني الفنيه.

والذي يهمنا الإشارة إليه في هذا الصدد القسم الموسيقي من التحف.. فهناك مكتبة الإسطوانات وقد تضمنت أقدم التسجيلات منذ أن كان التسجيل يجري على اسطوانة لولبية الشكل.. ثم الآلات الموسيقية الشرقية وآثار المطربين بما فيها عصا السيد درويش ومفتاح بيانو كميل شامبير.

وأذكر بهذه المناسبة أن كريمته السيده يسرى جوهريه قد ورثت فن الموسيقى عن أبيها وجمعته إلى فن الموسيقى الغربيه، والسيده يسرى هي قرينة الموسيقي المعروف الأستاذ سلفادور عرنيطه رئيس القسم الموسيقي في الجامعة الأميركية ببيروت.

والآن يا أستاذ جوهريه "أين تلقيت علومك الموسيقيه"؟..

ج: مع الأسف لم أتلق معلوماتي الموسيقية في المعاهد.. بل اكتسبتها نظرا لميلي الفطري لهذا الفن الرفيع منذ الصغر.

س: من شجعك على هذا الميل؟..
ج: شجعني المرحوم والدي على حفظ ما تيسر من الأغاني بواسطة الفونوغراف.. ثم تعلمت العزف على طنبورة أهل المغرب وأنا في العاشرة من عمري وعلى يد رجل تونسي.. وبعدها أخذت العزف على طنبورة أكبر حجما، ثم العزف على الربابة من فلاحي قرى القدس.. وتعلمت الأهازيج والدبكة وأنا في الثانية عشر.. ثم أخذت العزف على العود من هواة هذا الفن المقدسيين أمثال المرحومين حماده العفيفي وعبد الحميد قطينة وغيرهم.

س: من المعروف عنك أنك تميل إلى الموشحات الأندلسيه، فمن علمك إياها؟..
ج: تعرفت أثناء الحرب العالمية الأولى إلى الموسيقي الحلبي المعروف الأستاذ عمر البطش، وكان في الفرقة الموسيقية التركية بالقدس، فأخذت منه طائفة من الموشحات الأندلسية.. وكان لهذه الموشحات الفضل الأكيد في ترقية مواهبي الفنية عزفا وغناء..
وعلي أن أذكر أيضا أنني اكتسبت الشيء الكثير من أغاني مشاهير أهل الفن الذين كانوا يزورون القدس أمثال: الشيخ أحمد الطريفي ودرويش السكسك والسيد الصفتي وزكي مراد ومحمد العاشق ومحمد علي الأسطه وخصوصا الموسيقار المرحوم علي الدرويش.

س: أستاذ جوهرية: ما رأيك في الموسيقى الحديثة الممزوجة بالألحان الغربية؟..
ج: إنني حقيقة لا أريد لموسيقانا أن تشوه بمزجها بالألحان الغربية.. ولكنني أرحب بكل تجديد يطرأ عليها بشرط أن لا يكون ضارا بجوهرها وبعيدا عن مميزاتها.

س: وهل من خوف على فقدان لغتنا الموسيقية الأصيلة؟..
ج: هل سبق لي وقلتها صراحة لأحد رجالات مصر:
[ألا خوف على موسيقانا العربية من الطغيان أو طغيان الموسيقى الحديثة لأن تجويد القرآن الكريم وترتيله هو في اعتقادي جوهر هذه الموسيقى.. إذا لا خوف عليها من التلاشي بفضل وجود القرآن وأهله..].
س: ولكن أين سنة التطور؟..

ج: لقد كان المطرب والناظم والملحن في نظري أعلى كعبا من الناحية الفنية من أهل هذا الجيل، كما وأنني أعترف أن عزف الآلات وتشكليها هو اليوم أبدع من الزمن القديم.

س: أستاذ جوهرية..
ما هي الناحية الغالبة في حياتك الفنيه "التلحين أم العزف أم الغناء"؟..
ج: لقد بدأت حياتي الفنية مغنيا ثم عازفا وبعدها اعتنيت بالتلحين ولي جملة قطع من تلحيني، وقد أذاعت دار الإذاعة الفلسطينية بعضها.

س: ما هذه الآلة التي أراها بين يديك، أو بعبارة أخرى من أية مادة صنعت؟..
ج: هي الطنبورة المغربية. شغلت في مصر، ومصنوعة من قرعة مستطيلة. وهي مشابهة للعود في عدد تركيب أوتارها، وميزاتها أنها ذات صوت حنون ورخيم وأنها لصغر حجمها وتناسبها سهلة الإستعمال خفيفة الحمل خصوصا بعد النكبه!!..

س: أستاذ جوهرية..
وماذا تود أن تسمعنا من العزف عليها هذه الليلة؟..
ج: أعزف بعض التقاسيم من مقام الراست.

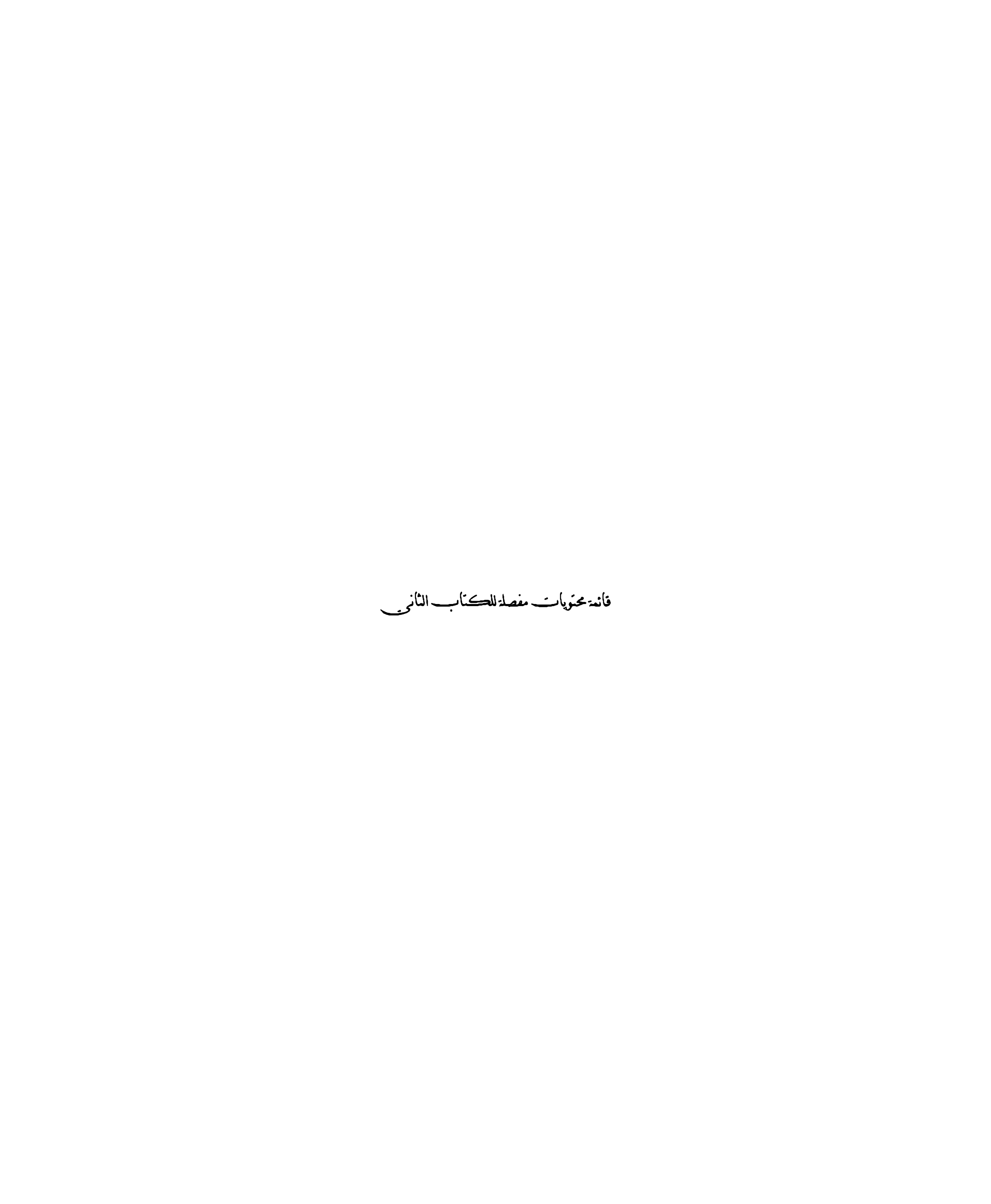
س: وبعد ذلك؟..
ج: وبعد ذلك أعزف وأغني أعذب ألحاني إلى نفسي وهي أغنية غزلية كان قدمها لي فقيدنا المربي الفلسطيني الكبير المرحوم الأستاذ أحمد سامح الخالدي وهي من تأليفه:

س: هات يا أستاذ..
(يقسم الأستاذ واصف ثم يغني القصيدة على مقام بسته تكار)
وهذه هي القصيدة:-

وإذا مررت بروضهم فاقرأه من مضنى سلاما
وانقل إلى ظبي هناك لواعجا أضحت ضراما
واحمل إلي عبيره من بين أوراق الخزاما
وابعث إلي برشفة من ثغره تطفي الأواما
وامنن إلي بنفحة من روحه تحي العظاما
حلو الحديث وكم سقانا من لواحظه مداما
ملك القلوب وما درى أني أذوب به غراما

وإني أذكر في هذا الصدد أن أخي وصديقي الأستاذ نجاتي صدقي الذي قدمني إلى الإذاعة في بيروت كما هو مبين أعلاه، قد كتب بخط يده وتوقيعه في السجل الذهبي الخاص بالمجموعة الجوهرية والذي لم أزل أحتفظ به لغاية يومنا هذا، وذلك عندما زارنا بالقدس بتاريخ ٤٧/٨/٩ كتب هذه الكلمة:-

(.. والواقع أن الشخص الذي يزور القدس، ولم يزر متحف الأستاذ جوهرية، مثله مثل ذلك الشخص الذي يزور مجاهل إفريقيا، ويرى فيها جميع الحيوانات إلا الفيل..!)



قائمة محتويات مفصلة للكتاب الثاني

بدل الختام: المذكرات، الحكاية التاريخية والألبومات الفوتوغرافية

عصام نصار

"تجارب البشر التي تتناقلها الألسن هي المصدر الرئيسي الذي يلهم رواة القصص كافة. إن أعظم الذين كتبوا مثل هذه الحكايات هم الذين لا تخالف رواياتهم المكتوبة ذاك الكم الهائل من الحكايات المنسوبة إلى رواة القصص."

والتر بنيامين[1]

تشكل المذكرات في العادة، بعرف المؤرخين، مصدراً هامشياً للدراسة التاريخية يجدر الرجوع إليه فقط لملء فراغ ما في السرد التاريخي الموثق، استناداً إلى مصادر أولية في الأرشيفات والمكتبات. لكن المذكرات والسير الذاتية – كما يشير عدد من المؤرخين – قد تضيف أبعاداً إنسانية فيما يتعلق بالواقع المعاش، بما فيه من مشاعر شخصية وآلام فردية أو جماعية. والمذكرات التي تأتي لتملأ الفراغ (ولو بشكل جزئي) الناجم عن غياب الجانب الشخصي فالوثيقة قادرة على أن تصبح مصدراً أساسياً لدراسة التاريخ في عدة حالات ترتبط بشحة المصادر الأخرى أو انحيازها التام.

إن فشل الكتابة التاريخية التقليدية في توثيق حياة القدس وتاريخها، في المرحلتين العثمانية والبريطانية، يضع المذكرات الشخصية في مصاف المصادر الأولية، كونها تملأ فراغاً كبيراً في الدراسة التاريخية ناجماً في الأساس لا عن شحة المصادر الأولية، وإنما عن ضيق أفق الدراسات التاريخية المستندة أساساً إلى طموحات ونيات قومية، أو عرقية، أو دينية. فأغلبية ما كتب عن القدس في المرحلة الحديثة، إمّا تنطلق من الكتب الدينية، وإمّا من البحث الأثري الذي يعنى لا بعموم الماضي المقدسي، وإنما بشظايا منه ترتبط برؤية ومشروع قوميين. إن جلّ الدراسات التاريخية عن القدس هو إمّا دراسات عن الأوضاع الإدارية والتنظيمية للمدينة، وإمّا عن أهميتها الدينية لهذه الجماعة أو تلك، وإمّا هي دراسات تنطلق أساساً من فرضيات ترتبط بقدسية المكان. وهذه الدراسات – بدورها – همشت القدس كمدينة حية يعيش فيها أناس يشكلون مجتمعاً وأحياء واقتصاداً وروابط اجتماعية.

مذكرات واصف جوهرية، بما هي مذكرات عن أناس ومؤسسات وعائلات ومجتمع، هي أقرب إلى وثيقة تبعث الحياة في ذلك الجسد الميت الذي هو القدس بعرف المؤرخين الذين لا يرون فيها سوى البعد الديني، عبر وضع البشر وأحاسيسهم ومواقفهم وعاداتهم ورؤاهم في مركز الحدث. كتابة الجوهرية وألبوماته المصورة ودفتر تدوين الموسيقى الخاص به هي وثائق مهمة تعكس زمناً بروحه، كما تدل على روح دعابة والتزام سياسي ودقة في التدوين هي أقرب إلى حكايات الناس التي تتناقلها الألسن بحسب تعبير بنيامين المشار إليه أعلاه. فقراءة قصص الجوهرية المشوقة الواردة في هذه المذكرات تعطي الانطباع بأن واصف جوهرية لم يكن كاتباً أو روائياً، كما لم يكن مؤرخاً أو مدوناً، وإنما كان راوي قصص، أو ما يعرف بالعامية بالحكواتي. والحكواتي، كما علق والتر بنيامين قبل أكثر من نصف قرن، "لا يشكل سلطة حاضرة أمامنا"، بل إن وجوده يبتعد عنا بالتدريج ويزداد ابتعاداً كلما أكثر من الكلام، حتى إنه يكاد يختفي من الوجود.

قصص وحكايات الجوهرية، من بداية حكايته منذ العقد الأول من القرن العشرين حتى نهاية السرد، تجعله يختفي من أمامنا "كموضوع للحكاية"، بينما تبدأ "حداويته" بفرض ذاتها علينا، مشكلةً في النهاية الوجود الوحيد أمامنا. يحدثنا واصف عن حياته وعن عائلته في القدس مصوراً المشهد العام أمامنا بتفصيلات دقيقة

1 Walter Benjamin, "The Storyteller" in *Illuminations: Essays and Reflections*, edited by Hannah Arendt (New York: Schocken, 1968), p. 84.

تحول العائلة وأفرادها وأصدقاءها والجيران إلى موضوع منظور. فكم من حياة عائلية يرى الفرد منا في حياته، وغالباً ما لا يلاحظ التفصيلات؟

تصبح العائلة الجوهرية الممتدة وأفراد من العائلة الحسينية، والأصدقاء، والأعياد، ودخول اللنبي، والحياة في مكتب تسجيل الأملاك، والحروب، والثورات، القصةَ بذاتها، ويصبح الزمان والمكان أكثر حقيقية، وندرك أن ما لدينا ليس بمذكرات فقط، بل إنه "حدوتة" القدس ذاتها. موضوع الكتابين في النهاية هو القدس لا واصف وحياته، بل إن جل ما لدينا عن واصف هو أنه راوٍ جيد وشائق ينسينا أنه هو الذي يقول الحكاية، ويدخلنا في الحكاية لنصبح مشاركين أو على أقل تقدير مشاهدين وشهود عيان. فالقارئ الحديث الذي لا يعي أيام الحكم العثماني أو البريطاني، لكن قد يعرف القدس كما هي الآن – ككاتب هذه السطور – أو كما هي متخيلة دوماً، كونها أيضاً مدينة ثابتة لأنها أرض مقدسة لا تتغير، يجد نفسه مأخوذاً بما كتبه واصف. فواصف ينقل قارئه إلى قدسه ويأسره في زمن ليس زمانه كقارئ، محولاً زمن القدس إلى زمن القارئ أيضاً. فأنا كقارئ شعرت بروائح القدس وأطعمتها وأزقتها التي بدت محسوسة أمامي كما لو أني كنت فيها آنذاك في زمن واصف جوهرية، وزمن سليم وحسين الحسيني، وخليل السكاكيني، وبقية الشخصيات الوارد ذكرها في الكتاب. لا بل أسوأ ما في الموضوع، أنني – كقارئ معاصر – رأيت في قدس الجوهرية عصراً ذهبياً تبدو فيه المدينة أفضل ألف مرة من حقيقة زمننا وحقيقة القدس في أيامنا هذه. لم يسبق لي، أنا من لم يعش في قدس الجوهرية، أن تخيلت القدس مدينة مفتوحة متعايشة ممتزجة اللغات والجنسيات والمذاهب السياسية، ولا حتى عند التفكير في كل الحلول السياسية المثلى التي فكرت فيها أو تبنيتها. واصف جوهرية أخذني كقارئ إلى تلك المدينة التي لا أعرفها حتى وإن عرفت أزقتها، وجعلني أعرف أن تعايش التنوع والمتناقضات ليس بشعار سياسي مثالي، بل إنه كان في الواقع جزءاً من حياة وزمن المدينة التي تسمى القدس.

حياة القدس عند الجوهرية بقيت في الأساس حياة الناس الذين لم يتغيروا، لأن القائد العسكري العثماني علي روشن بك أصبح الجنرال ستورز البريطاني. فهو الآخر سيرحل مثلما رحل جمال باشا، وهربرت صامويل، وغيرهما، فهم لم يشكلوا ذات يوم أكثر من سيّاح ربما أطالوا الزيارة. وككل السيّاح جهلوا حياة المدينة وإن عرفوا كل الأماكن الوارد ذكرها في دليل بدكر أو كوك السياحي. وعلى الرغم من أن واصف أيضاً رحل – أو رُحّل – عن القدس، فإنها بقيت كما عرفها وأكثر قليلاً في حكايته التي سردها لنا مضيفاً تفصيلات ولقطات أو قفشات تجعل من القدس مكاناً أكثر إثارة ربما مما بدت لآخرين كانوا هناك، وربما كتبوا أيضاً ما شاهدوه. وهكذا يصبح واصف وعالمه ومدينته القصة، وتصبح المذكرات مذكرات القدس أكثر مما هي مذكرات شخصية.

والقدس الجوهرية كأحواش القدس ذات أبواب صغيرة تطل على الشارع لتعطيك الانطباع بأنها أبواب بيت صغير لا أبواب لما يشكل حياً قائماً بذاته ذا حياة خاصة به. سرد الجوهرية بدأنا من داخل "الحوش" من بيت واحد صغير لينقلنا إلى حارة السعدية، ومنها إلى القدس القديمة، ومن ثم الجديدة (البلدية، والبيت، وحي النيكوفورية، ومقهى الجوهرية في شارع يافا) وقضائها بكل ما فيه من قرى وبلدات، لتصبح بعد ذلك بعضاً من فصول حكاية فلسطين بأكملها. زمن الجوهرية هو زمننا وزمن أحلامنا. أمضى واصف آخر زمنه في بيروت وتوفي فيها ككثيرين غيره من أبناء فلسطين الذين حمل كل منهم مدينته وبلدته معه، وبقي فيها متصوراً أنه يستكمل حياته السابقة، أو أنه في إجازة سيعود بعدها على الرغم من أنه في بيروت. كثيرون لم يكتبوا حكاياتهم، لكن واصف كتب. كتب وهو على فراش الموت في بيروت وكأنه في القدس من دون أن يشعرك حتى أنه في بيروت. الحكواتي واصف لم يختف فقط مثلما اختفى غيره من الحكواتيين وراء قصصهم، بل حتى مكان وجوده اختفى معه.

وقدس الجوهرية هي أيضاً القدس المتغيرة دوماً. فهي القدس التي زارها البرنس فريدريك إيتل سنة ١٩١٠، كما ورد وصف الزيارة في الكتاب الأول (صفحة ٥٢). هذا الأمير الذي استقبله صاحب مقهى المستكلب بسكب القهوة على الأرض أمامه. والقدس التي زارها الموسيقي سلامة حجازي سنة ١٩٠٨ للترفيه والاحتفال بمناسبة الانقلاب العثماني آنذاك (الكتاب الأول، صفحة ١٠٨)، وهي قدس أمام بيوتها مرابط للحمير (الكتاب الأول، صفحة ١٤). وهي أيضاً قدس مجموعة التحف الجوهرية التي يعرفنا واصف عليها في الكتاب الثاني، والتي لن نراها لأنها نهبت ككل أملاك العرب الذين شردوا من بيوتهم سنة ١٩٤٨. إنها القدس التي أصبحت في مصاف الفردوس المفقود، والتي بقيت فيها المجموعة الجوهرية بما فيها من تحف ثمينة، لكنها لم تبقَ فيها. فهي باقية فقط في ذاكرة القدس لدى واصف وليس في قدس الواقع، وهذا الأمر أساسي لفهم الخسارة واللوعة الفلسطينية لما لم يعد موجوداً، لكنه أبداً موجود في ذاكرة المشردين. هل أدرك واصف هذه الحقيقة، أم أنه تصرف ككل مهاجر يحمل في قلبه صورة للوطن؟

أمّا دفتر واصف جوهرية الذي سمّاه "السفينة الجوهرية"، والذي يحوي تفصيلات حياة النوتات الموسيقية الشرقية السائدة في زمنه، والتي دوّنها بأسلوبه الخاص كونه لم يعرف كتابة أو قراءة النوتة بأسلوبها المتبع بحسب منهاج المدرج الموسيقي العام، فيشكل – بلا شك – مصدراً مهماً لدراسة المرحلة عبر ثقافتها الموسيقية العليا. فالدفتر يسجل الألحان والمقامات وكلمات الأغاني والموشحات. هذا الدفتر يدل على جانب آخر لواصف جوهرية، وهو جانب الاهتمام بالتدوين الثقافي الموسيقي. فواصف يرينا أن القدس الانتدابية، وربما العثمانية المتأخرة، قد شهدت نهضة موسيقية وتواصلاً مع القاهرة والشام وحلب، لا عبر زيارات مشاهير الفنانين فحسب، بل أيضاً عبر التداول والتبادل الموسيقي والشعري والثقافي. وبقدر ما يصعب حالياً تحديد أهمية مساهمة جوهرية في هذا السياق – كون دفاتر واصف الموسيقية لم يدرسها باحثون في تاريخ الموسيقى وعلومها – فإن فكرة التواصل أيضاً تخلق لمؤرخ فلسطين التصور بأن القدس لم تكن مدينة انتدابية فلسطينية فقط، بل أيضاً مدينة شرق متوسطية مرتبطة بمدن أخرى عربية مشرقية ارتباطاً عضوياً يختلف كل الاختلاف عما نراه اليوم من أحوال القدس وانعزالها الكئيب عن محيطها العربي والمشرقي.

وألبومات واصف جوهرية المصورة والتي أشرت إليها في مقدمتي للكتاب الأول، تعطينا إجابة عن هذا السؤال. فقدس الجوهرية المصورة هي مكان اجتماعي وسياسي، وهذا ما وثقه واصف عبر الصور. وهي، بعكس أغلبية الكتب المصورة عن القدس، ليست لمواقع دينية وإنما لبشر. فحتى معالم القدس الدينية لدى واصف مُثلت عبر صور لرجال الدين بدل صور للمواقع الدينية خالية من الناس. فألبومات واصف جوهرية تضع الفلسطيني في فلسطين كفرد، ومجتمع، ومؤسسات، وتاريخ. صوره لم تحتفل بالتاريخ المقدس، وإنما بالناس وعاداتهم وقادتهم. وغياب صور ما بعد النكبة من ألبوماته قد يكون ذا دلالة أيضاً في هذا السياق ذاته.

إن واصف جوهرية عبر توثيقه للتاريخ المصور للقدس الآهلة، إنما يحرر القدس من الاستعمار الذي سيطر عليها منذ بداية الصراع في القرن العشرين: إنه الاستعمار بالمخيلة. استعمار حوَّل المدينة إلى حيازة وحق مستأثر لمن يدعي أنه أفضل من يمثلها كموقع ديني وتاريخي.

للمذكرات الجوهرية قيمة خاصة ومميزة لأنها تكشف وتعري وتختزل في الوقت نفسه مجموعة من الممارسات الاجتماعية، منها ما هو عادي وروتيني، ومنها ما هو مستتر وغير مباح به. ما هو إذاً هو السر في قيمة المذكرات. نرى المذكرات تركز على الجانب الخفي من الحياة الخاصة لوجهاء القدس وأعيانها. وعلى سلوكيات النخبتين العثمانية والبريطانية من عسكر وسياسيين. وعلى فضائح وبطولات الناس العاديين التي ولد وكبر واصف جوهرية في أحضانها. وهي تقلب العادي والروتيني إلى مشهد عجائبي، وتسمح لنا برؤيته بأعين جديدة.

برزت خلال الحرب العظمى أنماط وممارسات اجتماعية جديدة في الحياة المدينية، وتبلورت في فترة الانتداب. في البداية، تضافرت المجاعة والأوبئة والنفي الجماعي على إحداث تغييرات جذرية في النسيج الاجتماعي لعدة مراكز حضرية. في القدس تحديداً ظهرت فضاءات جديدة خارج سور البلدة القديمة احتضنت هذه القيم الجديدة، وساهم قطاع الدولة في ظهور تجمعات جديدة من الموظفين، وفي استثمارات القطاع العام، الأمر الذي أدى إلى تفعيل ونمو شرائح أخرى من الطبقة الوسطى في المناطق الساحلية أيضاً.

في القدس برزت في الأحياء المحيطة سمات الثقافة الجديدة: التعليم العلماني، والمقاهي، والنوادي الاجتماعية والأدبية، وأماكن الترفيه التي عكست نمو الأذواق البورجوازية الجديدة. ونستطيع أن نستشف من الكتابات الخاصة في هذه الفترة، من مذكرات ويوميات، ظهور أنماط من التعابير الفردية والانعتاق من الروابط العائلية والمذهبية. وكان التخطيط المدني في الفترة الانتدابية، على أيدي المهندسين المعماريين ماكلين وريتشموند وغيدير وآشبي، وعلى أيدي معماريين فلسطينيين من أمثال جورج الشبر، ساهم مساهمة أساسية في بلورة هذه التحولات في السيكولوجيا الحضرية. نراه مثلاً في تخطيط الجنائن المحيطة، الذي تبناه تشارلز بيرسي آشبي في الحد الفاصل بين البلدة القديمة والأحياء الجديدة، ووجود "مسارات مميزة تهدف إلى إثارة العواطف وإيحاءات ذهنية متضاربة." هذه الهندسة المشهدية خُططت عن قصد لتستحضر في أذهان الزائر "شعوراً دينياً وعاطفياً عن المدينة وأسوارها، مبنياً على تراكم قرون من التاريخ المشحون." وكما هو الحال في تصميم الحدائق الإنكليزية، "تم وضع المقاعد الخشبية في أماكن استراتيجية لتعزيز هذا الشعور العاطفي وتقويته." لكن إلى أي مدى نجح آشبي ورفاقه في الوصول إلى هذا الهدف بتطبيق تصاميمهم المعمارية، وفي الجمع بين الإثارة العاطفية واستحداث حيز من الخصوصية في التجربة الحياتية لأهل المدينة؟ من الصعب الإجابة عن هذا السؤال، إلا إنه يمكن أن نرى أثره بطريقة غير مباشرة في الكتابة الذاتية لتلك الفترة.

"وهو كتاب جميل شكلاً ومضموناً: بسطه الفني وصوره المختارة وتفصيلاته المدهشة وحتى لغته العذبة. وكل صفحة فيه تنبض حياةً وتمور حركة، وفيه من النسائم الرقراقة ما فيه. وجاء القرص المدمج اضافة غنية نادرة وإرثاً موسيقياً قيّماً."

الامير الحسن بن طلال

"تبدو هذه المذكرات ذات جاذبية مميزة: فهي سيرة مكان اكثر منها مذكرات شخص عاش في ذلك المكان."

صقر ابو الفخر، جريدة السفير

"كتاب رائع ومساهمة غنية في كشف الستار عن الحياة اليومية للمدينة الفلسطينية في فترة هامة من تاريخها الحديث."

الكسندر فلورس، استاذ التاريخ في جامعة برمن للعلوم التطبيقية في المانيا

"يجد القارئ في المذكرات الجوهرية تاريخ الشرق الاوسط الحديث في حيز مكثف. لقد أبدع المحرران في اخراجها الى الوجود."

جيمس غالفن، أستاذ تاريخ الشرق الأوسط الحديث في جامعة كاليفورنيا في لوس انجلوس







واصف جوهرية ملحن و عارف عود و مؤرخ مقدسي ولد عام ١٨٩٧ في القدس و توفي في بيروت عام ١٩٧٣

عصام نصار باحث واستاذ التاريخ الفلسطيني المعاصر والمدير المشارك لمؤسسة الدراسات المقدسية

سليم تماري أستاذ علم الاجتماع في جامعة بيرزيت و مدير مؤسسة الدراسات المقدسية



ISBN 9953-453-05-5

$ 20.00